اختراع الشرق الأوسط الحديث

تأليف: كارل إي. ماير شارين بلير بريزاك
ترجمة: د. فاطمة نصر

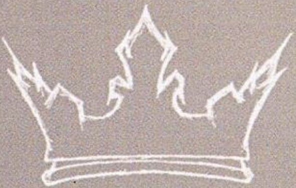

صُناع الملوك

هواة ومغامرون... جواسيس ومتعصبون

إصدارات سطور الجديدة
الغلاف: حسين جميل

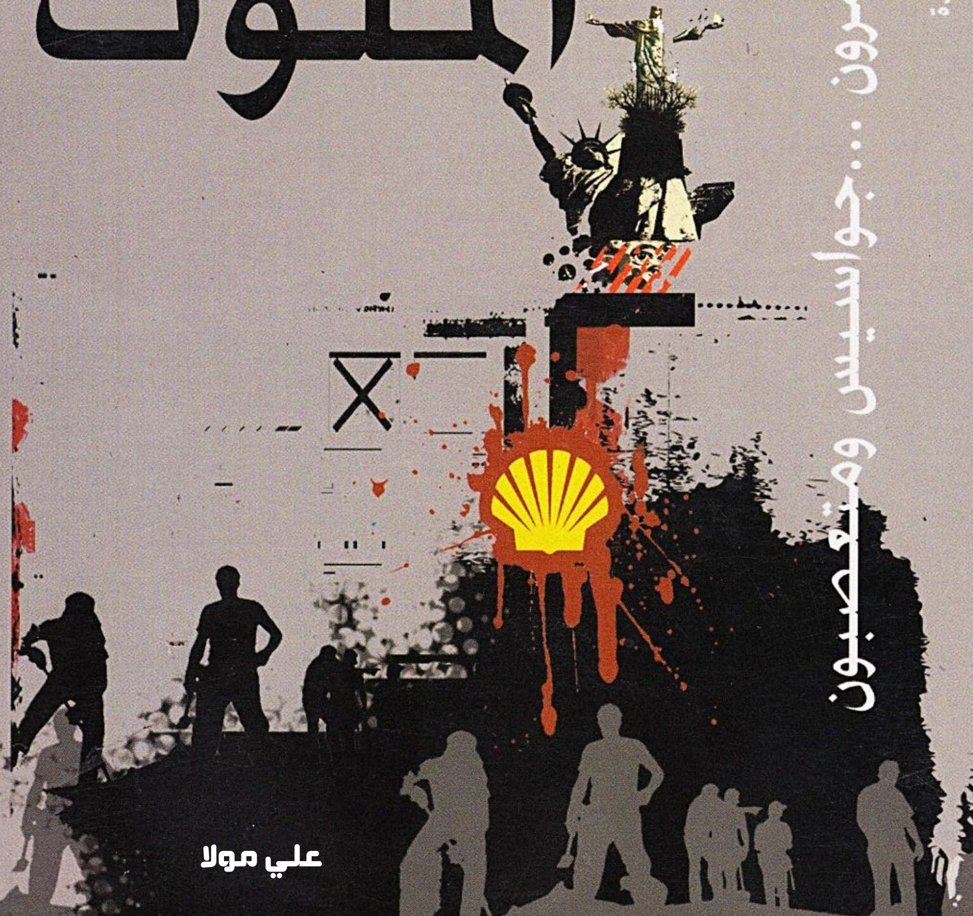

صنّاع الملوك

إصدارات سطور الجديدة

رئيس مجلس الإدارة: د.فاطمة نصر

المستشار الفنى: حسين جبيل gopy_art@yahoo.com

هواة ومغامرون

جواسيس ومتعصبون

صُناع الملوك

اختراع الشرق الأوسط الحديث

تأليف: كارل إي. ماير

شارين بلير بريزاك

ترجمة: د. فاطمة نصر

هذه هي الترجمة الكاملة لكتاب

KINGMAKERS

The Invention of the Modern Middle East

المؤلف: KARL E. MEYER and SHAREEN BLAIR BRYSAC

الناشر: W.W. NORTON & COMPANY

New York London ,2008

جميع حقوق النشر محفوظة للناشر

طبعة سطور الأولى ٢٠١٠

ـ صُناع الملوك

– تأليف: كارل إي، ماير

ـ غلاف: حسين جبيل gopy_art@yahoo.com

ـ المراجعة اللغوية: عمر حسن الشناوى omar_shenawy@yaoo.com

ـ إخراج فني: جابر محمد عبداللطيف jaberlatef@yahoo.com

الطبعة العربية الأولى ٢٠١٠

رقم الإيداع: ٢٠١٠/١١٢٤٧

الترقيم الدولى: 8 -58 -5868 -977

جميع حقوق التأليف محفوظة للمؤلف

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة لـ سطور الجديدة

٨ و٢٣ تقسيم الشيشينى بجوار الكوبرى الدائرى

كورنيش المعادى ت: ٢٥٢٤٠٠٢٠/٢٥٢٦٣٥٩٩

WWW.sutouralgadida.com

e.mail address: sutour@link.net

الموقع الإلكترونى

http://sutour-aljadida.blogspot.com

www.sutouralgadida.info

بيانات الفهرسة

ماير، كارل. إي

صناع الملوك اختراع الشرق الأوسط الحديث

/ تأليف، كارل إي. ماير، شارين بلير بريزاك؛

ترجمة/ فاطمة نصر

مكتب سطور، ٢٠١٠

٦١٣ ص، سم ١٧× ٢٤-

تدمك: ٨ ٦٨ ٥٨٦٨ ٩٧٧

١- الملوك والحكام

أ - بريزاك، شارين بلير (مؤلف مشارك)

ب- نصر، فاطمة (مترجم)

جـ- العنوان: ٨ و٢٣ تقسيم الشيشيني بجوار الكوبرى الدائرى

كورنيش المعادى ت: ٢٥٢٤٠٠٢٠/٢٥٢٦٣٥٩٩

www.darsutour.com

e.mail address: sutour@link.net

تمهيد

"بيضة لا تتوقف أبدا عن النمو"

اهتمامنا الأساسي في هذه الصفحات، هو بمنطقة مُثقلة بعبء ثلاثي، بالجغرافيا، بثرواتها المعدنية غير العضوية وبقداستها المفترضة. يشكّل "الشرق الأوسط»، وهو تعبير ابتدعه ألفرِد ثاير ميهان، الضابط البحري الأمريكي، ممرًا يُوطأ كثيرا يربط آسيا وأوربا بإفريقيا. يتألف من صحاري وجبال ترتفع من بلاد العرب يحيطها من جانبيها مصر وإيران، وتعلوها تركيا. أهميته الاستراتيجية عظيمة بدرجة أن نابليون وهتلر، ومعهما الإسكندر وقيصر، جميعهم، سعوا إلى الهيمنة عليه. تضاعفت أهميته العسكرية مع افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩، وتضاعفت مرة ثانية بعد عقدين مع الاكتشاف البدئي لمحيط النفط الواقع تحت أرضه. أثناء الحرب العالمية الثانية، انتهى محللو وزارة الخارجية الأمريكية، وهم شبه مستائين، إلى أن إتاحة نفط الخليج الفارسي لأمريكا قد أصبح ضرورة للحفاظ على دورها الكوكبي الآخذ في التوسع. ذكر هربرت فيس، الذي كان وقتئذ المستشار الاقتصادي للوزارة أنه "في كل المسوح التي عُمِلت للوضع، كان القلم يتوقف برهبة لدى نقطة واحدة ومكان واحد – الشرق الأوسط».

بالإمكان فهم التوقف الملىء بالرهبة. لعدة قرون، ظلت المحاولات الأجنبية لاستمالة الشرق الأوسط أو فتحه تصطدم بمزاعم المتدينين المتقدة حماسا. من هذه المنطقة، انبثقت ثلاث ديانات عالمية، كل واحدة منها مُشبَّعة بالتوقعات والنبوءات المسيانية المعلنة فى كتب مقدسة ثلاثة، كل واحد منه نص مرجعى موثوق لا يقبل الجدل. لكن ، ومن المفارقات. فعلى الرغم من أن كلاً من تلك العقائد تدعو إلى أخوة البشر والسلام، وتشيد بهما، إلا أن أتباعها من البشر اشتركوا فى مذابح ضد بعضهم. إن مشهد الأرض المقدسة ذاتها يشكل متحفا للحروب. فى يونيو ١٩٦٧، فى أعقاب ما أسماه المنتصرون "حرب الأيام الستة"، مرّ أحد مؤلفىْ هذا الكتاب فى غضون يوم واحد، وبتتابعات سريعة بمواقع ميادين قتال إنجيلية، معسكرات رومانية، قلاع صليبية، متاريس تركية، حصون بريطانية تحت أرضية، وشاحنات ودبابات محترقة متناثرة من حروب إسرائيلية عربية. يحصى الكاتب الإسرائيلى

عموس إيلون، فى تاريخ القدس، وعلى مدى أربعة آلاف عام، "عشرين حصارا مدمرا، فترتين من الدمار التام، ثمانى عشرة إعادة إعمار، وأحد عشر على الأقل، تحولا من دين إلى آخر خبرتها المدنية». مما يبعث على الأسى بنفس الدرجة، أن القتلة، فى هذا المشهد المقدس، يقومون من حين لآخر باغتيال صناع السلام، ومن أبرزهم فى السنوات الحديثة الكونت فولكى برنادوت السويدى ووسيط الأمم المتحدة (١٩٤٨)، والملك عبدالله الأردنى (١٩٥١)، وإسحق رابين رئيس وزراء إسرائيل (١٩٩٥)، وفى القاهرة، قام المتطرفون باغتيال الرئيس المصرى أنور السادات (١٩٨١).

ليس لدينا وسيلة لمعرفة ما إن كان ذلك الواقع المؤسف يخدم هدفا إلهيا. فمن اليقينى أن القرن الماضى من تاريخ الشرق الأوسط يحمل بصمات بشرية. هدفنا

فى هذه الصفحات هى إعادة سرد هذا التاريخ من خلال وساطة أفراد، بريطانيين أولا، ثم أمريكيين فيما بعد، أفراد توضح حياتهم وتاريخهم كيف تقدمت محاولات التحكم بدرجات تصاعدية فى عمق إفريقيا بدافع المخاوف على الأمن القومى، التنافس مع فرنسا وألمانيا، والسعى المتلهف وراء الثروات المعدنية. لم يصل أى من الشخصيات التى نعرضها إلى قمة السلطة القومية؛ بيد أنهم جميعهم كانوا وسائل ساعدت على بناء الأمم، ترسيم الحدود، وانتقاء الحكام المحليين أو المساعدة على انتقائهم. حقق بعضهم أرباحا مالية فى القطاع الخاص من الخدمة العامة، لكنهم يكادون جميعا أن يكونوا قد ضحوا بحياتهم وصحتهم لنشر ما اعتقدوا أنها قيم حضارية ودعْمِها. وبالرغم من ذلك، وبعد ما يربو على قرن من التدخل الغربى السافر الجازم، يظل السلام فى المنطقة مراوغا، والمشاعر الانفعالية الطائفية عدائية خبيثة، ومع استثناءات قليلة، فلم يستفد مواطنو المنطقة العاديون من الثروة النفطية المهولة. واليوم، فإن ربائب الأنجلو/الأمريكيين من الممالك والجمهوريات، ترتكز فى غالبيتها على أسس واهية من الرمال، كما أن موافقة المحكومين وقبولهم لحاكميهم (باستثناء إسرائيل وتركيا) هى أمور افتراضية إلى حد بعيد.

فى مجموعه، ثمة حاجة إلى النظر إلى هذا السجل الكئيب من خلال عدسات المفارقة والسخرية والمتناقضات الظاهرية. إن القانون الأوحد السامى فى الشرق الأوسط هو قانون التبعات غير المقصودة. كان هذا صحيحا بكل تأكيد فى حالة ويليام إيوارت جلادستون، رجل الدولة الليبرالى العظيم الذى عارض فى البداية التدخل البريطانى محذرا من أن التورط سيؤدى حتما إلى نمو إمبراطورية إفريقية، من الكيب إلى القاهرة، مثل بيضة لا تتوقف أبدا عن النمو. ثم أثبت جلادستون مقصده بأن تجاهل تحذيراته مرسخا بهذا نموذجا معياريا تحذيريا للتدخلات العدوانية وأعمال الغزو التى تلت.

بدأ أول تدخل مستطال لبريطانيا العظمى فى الشرق الأوسط عام ١٨٨٢، حينما قصفت قوات جلالة الملكة مصر، واجتاحتها واحتلتها. كانت مصر، نظريا

جزءا من الإمبراطورية العثمانية تخضع للسلطة الاسمية للسلطان التركى بالآستانة التى تبعد عن مصر بحوالى ٧٦٨ ميل. أما فى واقع الأمر فقد كانت القبضة العثمانية قد ترهلت منذ وقت طويل. حينما قاد نابليون الشاب (كان فى التاسعة والعشرين) جيشا فرنسيا إلى القاهرة، كان على الأتراك التوجه يائسين إلى إنجلترا (واللورد نلسون) من أجل طرد الغزاة. فتح الاحتلال الفرنسى الوجيز الطريق أمام أحد لوردات الحرب الألبان، محمد على، الذى لم يكن يتحدث العربية ولم يتعلمها، لإنشاء سلالة مالكة، التى تولت الحكم فى القاهرة فى البداية، ثم هيمنت على مقاليد الأمور فيما بعد، إلى أن انتهى أمرها إلى خلع حفيده البدين الملك فاروق عن العرش عام ١٩٥٢.

مضى محمد على، الداهية، ولعقود، يتحدى الأتراك. عمل بانتهازية، على إثارة العداء بين الإنجليز والفرنسيين كى يواجهوا بعضهم، كما قام بفتح السودان شاسع المساحة، وأرسل مئات المصريين إلى باريس لدراسة العلوم الزراعية والطبيعية والهندسة والطب. نفذت الثقافة الفرنسية إلى القاهرة وساعدت على بدء نظام مدرسى حكومى على غرار النظام الفرنسى. كان عباس، وريث محمد على المباشر يميل إلى البريطانيين، الذين أكملوا عام ١٨٥١ إقامة خط القاهرة الإسكندرية الحديدى، الأول من نوعه فى إفريقيا. كان سعيد، الخديوى التالى محبا للفرنسيين. توجه إلى المرابين الأوروبيين لتمويل الأشغال العامة ورحب بالأجانب الذين بدأوا بالتوافد على القاهرة . منح سعيد امتياز حفر قناة السويس لفرديناند دى ليسبس المهندس الفرنسى ورفيق صباه. حدث كل هذا دونما مشورة الباب العالى أى السلطان العثمانى.

لعبت هذه المكوّنات - استقلال مصر المتنامى، القناة الجديدة، القفزة إلى عالم الاقتراض، انتشار الأفكار الأوربية، قلق لندن وباريس المتنامى على أمن تلك المستعمرة الأجنبية الآخذة فى التوسع - لعبت دورا مساعدا فى أزمة السويس

الأولى نفسها. وكان لتيماتها المتطورة أن تصبح فكرة مهيمنة متكررة في المنطقة فيما بعد: ثورة عسكريين ضد حاكم مستبد سفيه، (الخديوى توفيق)، ثم ترحيب شعبي، وعود بالإصلاح وهتافات مليئة بالأمل "مصر للمصريين". ثم انتشار الذعر بين حاملى السندات الأوربيين، مخاوف من أن يقوم الإسلاميون المتطرفون بمذابح ضد الأجانب ويستولوا على القناة، بالإضافة إلى سخط البريطانيين من مراوغات الفرنسيين والتي أدت إلى اتخاذ مجلس الوزراء البريطاني القرار بالتدخل.

كان النصر سريعا ساحقا، لكن لم يكن ثمة خطة سياسية لما بعد الاحتلال. وعد القادة البريطانيون الليبراليون بإجلاء قواتهم بمجرد استعادة النظام وتولّى نظام عاقل قادر على الوفاء بالديون وحل المشاكل. لكن للأسف، ثبت أن تلك اللحظة ظلت مراوغة. ولاثنين وسبعين عاما ظلت القوات البريطانية و(المستشارون) البريطانيون المدنيون موجودين بمصر حكاما من وراء ستار، هذا على الرغم من صيحات "عار عليكم» الصادرة من ناقدى الإمبراطورية الذين كان على رأسهم الشاعر الغاضب المتحمس ويلفرد سكاون بلانت زوج حفيدة الشاعر الرومانتيكي اللورد بايرون.

كانت الشخصية المركزية في تلك الدراما هو جلادستون، قائد الليبرالية البريطانية العملاق والمتردد في آن، وكان زعيما عُرِف عنه ورعه، علمه وخُطبه المتلفلفة المعقدة. كان يُعرف عام ١٨٨٢، وكان وقتئذ في الثالثة والسبعين، بـ "الرجل المسن المهيب Grand Old Man» (GOM). هذا على الرغم من أن الملكة فيكتوريا التي خالفته الرأى، وكانت آنئذ قد مر عليها خمسة وأربعون عاما ملكة لبريطانيا العظمى، أسرَّت إلى المقربين منها، وهي ترتعد، بأن رئيس وزرائها كان، وبدون شك، نصف مجنون، وكما حدث في واقع الأمر، فقد دفع جلادستون ثمنا باهظا لتدخله في مصر. كان ذلك بين إجراءاته القليلة التي انتزعت موافقة ملكية على مضض، وأدت أيضا إلى تشوش حزبه وتقسيمه، ويقال إنها كلفته الإرث الذى كان يتوق لأن يكون له: أي الحكم الذاتي لأيرلندا.

كـان "الرجل المسنّ المهـيب» على وعى تام أن قـراره بالتـدخل يتناقض مع معارضـاته البرلمانيـة المتكررة للتهـديدات العسكرية. لم يكن معارضـا متشـددا لاستخدام القوة، كما أنه كان بالتأكيد أقل نزوعا للسلام من زملائه الأكثر راديكالية مثل جون برايت وريتشارد جوبدن. بيد أن الدافع الانعكاسى لإضافة مناطق إلى الإمبراطورية مترامية الأطراف بالفعل كان هو مصدر قلقه، وكان ذلك دافعا يمكن تبينه ليس فقط بين معارضيه من المحافظين، بل أيضا بين مناصريه فى مجلس العموم من أعضاء حزب الهويجز (الأحرار فيما بعد) القديم، وأيضا من جيل جديد من الليبراليين الإمبرياليين. قبل ذلك بعامين، كان جلادستون قد أطلق أول انتخابات ديمقراطية كانت فيها مسألة ضمان حقوق الإنسان فى الأراضى القصية من القضايا المهمة وكَسبَها. كان قد شجب الأتراك بسبب "بشاعاتهم البلغارية»، وهجمات المسلمين على المسيحيين فى البلقان، وأدان نظيره من حزب المحافظين بنيامين ديزرائيلى لدعمه الحروب التى دمرت مواطن المسلمين الفقراء فى أفغانستان والشعوب القبلية فى زولولاند. والآن، فقد بدا وأن جلادستون نفسه قد أصيب بفيروس الإمبريالية التى كانت قد ظلت موضع شجبه المتكرر.

أسوأ من هذا: كان البلد الذى استهدفه هو مصر. كان جلادستون، وهو يتحدث نيابة عن الليبراليين قد عارض انقلاب ديزرائيلى المتبجح والشعبى فى أن حين اشترى أسهم الغالبية لشركة قناة السويس عام ١٩٧٥ الذى يتيح لبريطانيا التحكم فيها. كان قد اشتراها من الخديوى إسماعيل والد توفيق الغارق فى الديون والذى كان الأوروبيون يطلقون عليه فى البداية "إسماعيل الكبير» ثم بعد ذلك "إسماعيل السفيه". بعد انقلاب ديزرائيلى، أصبحت القناة، والتى كانت قد حُفِرت ما بين عامى ١٨٥٩- ١٨٦٩ بتمويل فرنسى بريطانى تدار من خلال كونسورتيوم (اتحاد شركات) بقيادة إنجلترا ومقره لندن بدل باريس. عكست هذه النقلة الأهمية الاستراتيجية للقناة بالنسبة للإمبراطورية الڤيكتورية. بعد افتتاحها بعقد من

الزمان، كان ثلاثة أرباع المرور فى القناة يتكون من سفن متوجهة إلى الهند أو قادمة منها. أصبحت القناة فى الكلشيهات الصحفية "خط الحياة الإمبريالى"، الشريان الحيوى الذى قلص مدة المرور إلى الهند من شهور عدة إلى مجرد أسابيع.

وكما كان جلادستون قد خشى، وتنبأ، كان امتلاك القناة هو توطئة للتوسع. سرعان ما أقام البريطانيون، ومن أجل حماية شريان حياتهم الجديد، قاعدة بحرية فى عدن بمدخل البحر الأحمر، وكانوا، وهم ينظرون جنوبا من القاهرة، يشحذون شهيتهم للاستيلاء على السودان. حذّر جلادستون عام ١٨٧٧ قائلاً: "ستكون القضمة الأولى التى التهمناها فى مصر، سواء تم ذلك من خلال اللصوصية أو من خلال الغزو، ستكون هى بالتأكيد بيضة لإمبراطورية شمال إفريقية. ستنمو وتنمو حتى تصبح ڤيكتوريا أخرى، وألبرت آخر، هذين الاسمين اللذين أطلاقناهما على البحيرتين اللتين ينبع منهما النيل الأبيض، تصبحان فى نطاق حدودنا؛ وحتى ينضم إلينا فى النهاية عبر خط الاستواء إقليم الناتال، وكيب تاون، ناهيك عن الترانسڤال ونهر أورانج جنوبا، أو نبتلع الحبشة وزنجبار لنتزود بهما أثناء رحلتنا».

كانت نبوءته مُلهمَة. فباستثناء الحبشة، رفرف العلم البريطانى، على كل مكان ذكره فى قائمته سواء من خلال الغزو، أو كزادٍ لتعويض نفقات الرحلة (تعبير جلادستون الساخر عن تعويض "تكلفة الرحلة»). من ثم، اعتُبر قيام "الرجل المسن المهيب» نفسه بدفع دفة التوسع الهائل الذى أضاف للإمبراطورية فى عهد ڤيكتوريا ثمانى عشرة منطقة كبرى بحيث شمل مُلكها فى النهاية رُبع أراضى العالم وشعوبه، اعتُبر ضرباً من الشذوذ على القاعدة التى كان قد أرساها. وكما يذكر چيمس موريس فى كتابه "السلام البريطانى: ذروة الإمبراطورية" (١٩٨٦)، ففى اليوبيل الماسىِ للملكة ڤيكتوريا عام ١٨٩٧، كانت كل فورة نشاط للتوسع قد وجدت ذريعتها المعبّر عنها بفصاحة وإقناع:

"كانت مقولة: تعديل العلاقات بين بلدين، هى التعبير المجازى التجميلى المُفضل أثناء تلك العملية، كما تم ابتداع معجم كامل للتبريرات المراوغة لتوضيح استراتيجيات بريطانيا الأعظم وتحديد الحواف الباهتة للإمبراطورية. كانت الحدود تُعدَّل بأسلوب اعتيادى. يتم إقامة مناطق للنفوذ وترتيب علاقات ودية متبادلة. كانت النظم النهرية تُفتح أمام التجارة. تم إدخال الحضارة المسيحية فى المناطق المتخلفة. كان يتم الحديث بضبابية عن تخوم مصر، عن حوض نهر زامبيسى، عن حدود نهر النيجر، وعن كيفية أنه من الطبيعى عدم إمكان السماح لسلطنة ويتو أن تسقط فى يد قوة معادية محتملة. كانت السجلات الإمبريالية مليئة بالإقطاعيات، والمحميات. والمناطق المؤجرة، والامتيازات، والتقسيمات، ومناطق المصالح، والمناطق المَشاع والمتنازع عليها، والمناطق النائية ذات الصلة - وكان ذلك المسمّى الأخير، وهو مفهوم موات بخاصة، ينطبق على مناطق تم الاستيلاء عليها من ألمانيا فى غضون السنوات العشر الأخيرة».

اشتعلت أزمة السويس الأولى عام ١٨٨١، حينما سار ثلاثة من رجال الجيش المتمردين، بعد أن ساورتهم الشكوك فى أنهم سيفصلون من الخدمة أو سيحل بهم ما هو أسوأ، ساروا فى معية ٢٥٠٠ رجل وثمانى عشرة بندقية إلى قصر توفيق الخديوى الشاب المكروه، بالقاهرة. طالب المتمردون بحل مجلس الوزراء وتشكيل مجلس آخر من الوطنيين. كان قائد المجموعة هو أحمد عرابى، وكان فى الحادية والأربعين، طويل القامة، قوى البنية، ابن شيخ من قرية منعزلة متخلفة. وكضابط ناشئ، شعر عرابى بالاستياء من المحاباة التى تمتع بها غير المصريين، وبخاصة الأتراك والشراكسة وعمّق هذا الشعور انضمامه إلى جماعة من الأزهريين كانوا يؤكدون على المساواة بين جميع المؤمنين. كتب صديقه ونصيره البريطانى الأكبر ويلفرد بلانت يقول "جعله هذا ينضم إلى صفوف المستائين ويتبنى أكثر وأكثر حقوق طبقته ويدافع عنها. كان يتمتع بالفصاحة، يستطيع عرض آرائه باللغة التى

يفهمها مواطنوه ويقدرونها، قد لا تكون لغة مُحكَمة، لكنه كان يوضحها بالمجازات والتشبيهات وآيات من القرآن زوده بها تعليمه الأزهرى».

أذعن توفيق المتردد المذعور لمطلب المتمردين بتعيين مجلس وزراء إصلاحى جديد، والدعوة إلى اجتماع مجلس نواب دستورى، وزيادة عدد الجيش من اثنى عشر ألفاً إلى ثمانية عشر ألف رجل.

أصبح عرابى، بين عشية وضحاها، بطلا لعموم المصريين ولزملائه الجنود، وعمت القاهرة حالة من النشوة الشعبية. من ثم ساد الذعر بين الأوربيين الذين كانوا مستفيدين من الوضع القائم بأسلوب مزدوج. كان الأجانب يتمتعون، فى ظل الامتيازات الأجنبية التى كانت قد ظلت سارية لوقت طويل، بإعفاءات من القوانين المحلية، والضرائب، والتعريفات الجمركية. علاوة على ذلك، فَرَض حاملو الصكوك (الكمبيالات) البريطانيون والفرنسيون، بسبب القروض الهائلة المدمِّرة التى راكمها الخديويون المتعاقبون، نظاما تأديبيا يسمى "الرقابة الثنائية»، يشرف بموجبه مراقب حسابات إنجليزى وآخر فرنسى على الموازنات المصرية ويقومان بخصم قيمة الكمبيالات منها بأسعار مرتفعة، مع اقتطاعات كبرى من ميزانية الجيش.

على المستوى النظرى، كان الخديوى هو ممثل السلطان العثمانى، ومسئولا أمام الباب العالى بالآستانة. لكن سلطة الباب العالى كانت قد تبخرت، وكان المصريون ينظرون وبتزايد إلى الخديوى على أنه لعبة فى أيدى الدخلاء الأوروبيين المتطفلين، فيما طالب الجنود برواتبهم المتأخرة. يعيد المؤرخان البريطانيان رونالد روبينصون وجون جالاجر تشكيل ذلك الوضع بدقة شديدة فيقولان "كان نظام الحكم الخديوى يمضى فى نفس طريق أنظمة شرقية كثيرة تآكلت من خلال اختراق النفوذ الأوروبى لها. كان البلد على حافة الأناركية. ولم يكن أحد ليخطئ الأعراض: الفلاحون المتململون، الملاك الساخطون، المعارضة الليبرالية غير الناضجة، الحركة الواسعة ضد الأجانب، انهيار السلطة التقليدية الذى يؤدى إلى انقلاب عسكرى».

كان هذا هو المشهد المصرى حينما حاولت الوزارة الليبرالية البريطانية - التى

كانت وقتئذ تواجه أيضا أزمة أيرلندية - أن تفهم كل الاضطرابات فى القاهرة. كان الشاعر بلانت قد بزغ كمحاور متعاطف مع المتمردين بل إنه ساعد على ترجمة بيانهم المحدّد لأهدافهم إلى الإنجليزية حيث نشرته التايمز اللندنية فى ٣ يناير ١٨٨٢. أكد البيان أنهم يسعون إلى أن تكون مصر بلدا برلمانيا حديثا، له دستور ومجلس نيابى وصحافة حرة وأعلن البيان "لقد تعلم المصريون فى السنوات الأخيرة ما تعنيه الحرية، وأنهم مصممون على إكمال تعليمهم الوطنى.. إن الهدف العام للحزب الوطنى هو الانبعاث الثقافى والأخلاقى للبلد من خلال التقيد بالقانون، وزيادة التعليم والحرية السياسية».

وكما يبدو ظاهريا، لم يكن هذا برنامجا قد يلقى معارضة من الليبراليين. حينما اجتمع بلانت بجلادستون وغيره من السادة الليبراليين بلندن، أخطأ فهم إيماءاتهم على أنها مشاركة فى الرأى. أى موافقة قلبية على البيان - وهذا خطأ شائع يقع فيه العاديون لدى تعاملهم مع محترفى السياسة. فى البداية، بدا جلادستون متعاطفا، بل بدا وكأن أهداف الإصلاحيين المصريين المعلنة، كان لها وقع المفاجأة المحببة لديه. لكن، ونظرا لآرائه المحافظة فى الشئون المالية، أصر بقوة على أن على المتمردين الإبقاء على نظام الرقابة الثنائية من أجل حماية حملة الصكوك- وأيضا للتصدى لهيمنة الفرنسيين على مصر. فى ١٢ سبتمبر ١٨٨١، أى لدى بداية الأزمة، رسم الخطوط العريضة لسياسته فى مذكرة محكمة إلى وزير خارجيته اللورد نفيل: "أوجز التالى: ١- تناغم متسق مع فرنسا. ٢- الاستغناء عن الجنرال التركى لو اقتضت الحاجة. ٣- تفضيل القوات التركية على أية قوات غيرها. ٤- لا قوات بريطانية أو فرنسية إلا إن كانت ثمة حاجة من أجل حماية فِعْلية صادقة للرعايا. ٥- إلى جانب كل هذا، أتوق إلى معلومات عن مزايا الشقاق.

يقرأ المرء مذكرة جلادستون مع شىء من التماهى والتّفهم. كان بالفعل يبحر فى مياه لا معالم لها. فلم يقتصر الأمر على غياب المعلومات الموثوقة عن الإسلام، بل

إن مفردات الأزمة كانت مراوغة. كان الحديث عن "مصر للمصريين» أمراً حسناً متقبلاً، لكن من المصريون؟ ماذا عن الأقلية القبطية الذين حافظوا على چينات بناة الأهرام ولغتهم - أكانوا أقل مصرية من الغزاة العرب[1]؟ وماذا عن الجاليات اليونانية واليهودية والألمانية التى استقرت منذ وقت طويل بالقاهرة والإسكندرية متعددة اللغات؟ هل سيحترم الوطنيون حقوقهم؟ وبشكل أعم، ما عمق الهوة من عدم الثقة التى تفصل بين الغرب المسيحى والعالم الإسلامى؟ كان الفرنسيون فى ديسمبر ١٨٨١ قد بدأوا بالفعل يزعمون أنه من المحتمل أن عرابى كان يتآمر مع السلطان لحشد الأمة الإسلامية للجهاد من أجل إنهاء سيطرة الفرنسيين على تونس والجزائر. ومن جهة أخرى، وبأسلوب متناقض، كان جلادستون نفسه يطلب مساعدة الأتراك العثمانيين، ذلك الشعب نفسه الذى كان قد شن عليه هجوما عام ١٨٨٠ بسبب "شهوانيتهم البهيمية البغيضة»، وبصفتهم إمبراطورية مدانة بجرائم "قد تستحى منها جهنم ذاتها».

استقر جلادستون بيقين على نقطة واحدة: لابد من العمل بالتعاون مع الفرنسيين. كان فى هذا متفقاً مع اللورد ساليسبرى، أحكم حكماء حزب المحافظين فى الشئون الخارجية. قدم ساليسبرى نصحية بشأن مصر فى سبتمبر ١٨٨١: "بإمكانك التنازل عنها - أو احتكارها - أو اقتسامها. كان التنازل عنها يعنى وضع الفرنسيين عبر طريقنا إلى الهند. وكان احتكارها يعنى الاقتراب من المخاطرة بالحرب. من ثم، قررنا الاقتسام». لكن، كانت سياسات فرنسا رهينة بالاندفاعات الفجائية والتقلبات التى ميزت سياسة الجمهورية الثالثة. فى البداية،

(١) هكذا كانت أصول تلك المغالطات التى مازالت تُستخدم للتفرقة بين شقى الأمة. فليس ثمة عرق يسمى الفراعنة، واللغة القبطية هى هجين - من اليونانية المنطوقة بالديموطيقية. كما أنه ليس كل المسلمين المصريين من العرب الغزاة، بل إن جُلّهم هم من المصريين الأصلاء الذين أسلموا بعد الفتح العربى. هذا إضافة إلى أن غالبية الأمة المصرية بشقيها كانت ضد هيمنة الأجانب على مصر (الترجمة).

تعاطى البريطانيون مع رئيس الوزراء ليون جامبتا، وكان اشتراكيا راديكاليا مندفعا اقترح إعلانا لا لبس فيه أن على النظام المصرى الجديد الحفاظ على نظام الرقابة الثنائية التدخلى، "مع احترامنا للمشاعر الوطنية»!

• وافقت غالبية مجلس الوزراء الليبرالى، على مضض وبترقب، على مذكرة مشتركة، وإن لم يكن لشىء سوى تهدئة فرنسا، رغم أنها لم تُلزم البريطانيين باتباع أى أسلوب للعمل (لم توضّح تلك النقطة كما يجب لجامبتا). لكن الحكومة الفرنسية سقطت لأسباب غير معروفة، فى غضون شهر، وخلف جامبتا، فى فبراير ١٨٨٢، شارل دوفريسينيه، وكان شخصا وسطيا عصبيا، فى مثل حرص كاتب الحسابات، وهو ما كانه فى وقت من الأوقات. فى تلك الأثناء، أثبتت "المذكرة المشتركة" فشلها، بل إنها أيضا أتت بعكس مقصدها: وحّدت المصريين بالجيش، والأحزاب المختلفة وذلك لشكهم الغاضب أن ذلك الإعلان كان تمهيدا للتدخل العسكرى. وكنتيجة لهذا، تولى عرابى "الثائر" منصبا جديدا كوزير للحرب. ضغط حاملو الصكوك وشركات السفن على وزارة جلادستون وقد تملكهم عظيم القلق، من أجل رد فعل أقوى. ورأى مجلس الوزراء البريطانى أنه يجب تشجيع الأتراك على التدخل فى مصر التى كانت مازالت، قانونيا، جزءا من إمبراطوريتهم. لكن فريسينيه رفض هذا.

فى مايو ١٨٨٢، وفيما تعمقت الأزمة، ظل موقف مجلس الوزراء البريطانى مشوشا غير محسوم. أغضب هذا التراخى اللورد هارينجتون وزير شئون الهند الصقورى (كان آنذاك ماركيزا ثم أصبح فيما بعد ثامن دوق لديفونشاير) بدرجة أنه عبر عن احتجاجه بسخرية لوزير الخارجية:

"هل استسلم عرابى باشا، أم أنه قد تم إقناع دو فرنسينيه بالنهوض من فراشه؟ أعجب ما إن كان أى إنسان (خارج مجلس الوزراء) سيصدق أنه لم تُنطق كلمة واحدة عن مصر فى مجلس الوزراء على مدى أسبوعين، وأظن أن هذا

سيستمر أسبوعين آخرين -ثم من يدرى؟». وجه هارينجتون أقسى انتقاداته اللاذعة إلى الفرنسيين "يبدو سلوك الفرنسيين أسوأ من السيئ.. إذا لم يكن الفرنسيون على استعداد للوفاء بتعهداتهم لنا بالموافقة على تدخل تركى فى الحال، فمن الأفضل أن نعمل باستقلال عنهم. ما فائدة حلفاء كهؤلاء؟ لقد زجوا بنا فى هذه الورطة المخيفة، وأعتقد أنه سيكون من الأسهل لنا أن نعمل مع الأتراك ومع كل القوى الأوروبية الأخرى، على أن نعمل معهم وحدهم».

بيد أن الأتراك لم يكونوا على استعداد للتدخل، ولدى جس نبض الإيطاليين عدُّوا أنفسهم خارج الموضوع. ومع الأخذ فى الاعتبار الضغوط المتجمعة على بريطانيا لاتخاذ خطوة عسكرية، فلم يعد أمامهم سوى التسبب فى توتر عسكرى وإشعال الشرارة. تجسد الشق الأول متخفيا فى شكل أسطول بحرى صغير فرانكو/ بريطانى كان يقصد به خلع عرابى وجماعته من خلال إثارة الذعر، وكان هذا مسلكا ضغط من أجله رجل بريطانيا فى موقع الأحداث السير إدوارد بولدوين مالت، القنصل العام بالقاهرة. لكن فى غياب تهديد إنزال تركى، أتى استعراض القوة البحرى هذا بنتيجة عسكية: فقد عمل على تطرف موقف المصريين لا إخافتهم. ثم أتت الشرارة. فى ١١/١٢ يونيو اندلعت أعمال شغب معادية للأوربيين بالإسكندرية سقط نتيجتها عدد يتراوح ما بين خمسين وثلاثمائة قتيل، وقام حشد من المتظاهرين بضرب تشارلس كوكسون القنصل البريطانى بالمدينة. وفى غضون أيام، بدأ المتمردون بإقامة بطاريات مدفعية شاطئية مُوجّهة نحو مرفأ الإسكندرية. تملك الفزع من سفن الأسطول الفرنسى الصغير وتسللت مبتعدة، فيما رأى النشطاء فى مجلس وزراء جلادستون أنه إن لم تردّ بريطانيا بحزم فى الحال، ستضيع قناة السويس ومعها حياة الأوروبيين فى مصر.

حدث كل هذا فيما كان "الرجل المسن المهيب» يتبارى فى جدل برلمانى لا يتوقف حول الإجراءات المالية الأيرلندية، وفيما بدا مجلس وزرائه المتصدع على شفا الانهيار وتحت وطأة المضايقات والتعب، اعترف جلادستون فى مذكراته حيث كتب

يقول "عقلى شديد الإنهاك». وفى مواجهة تهديدات بالاستقالة أذعن رئيس الوزراء لتوجيه إنذار يأمر بهدم بطاريات وحصون الشاطئ (أسمى چون برايت الذى قدم استقالته من مجلس الوزراء نتيجة لذلك القرار، أسماه قرارا لعيناً، أسوأ من أى شىء فعله جلادستون). حينما طالب الأميرال السير بوشامب سيمور قائد البحرية البريطانية باستسلام الحصون موضوع النزاع، رفض المصريون. فى ١١ سبتمبر قصفت السفن البحرية واجهة الإسكندرية البحرية لمدة عشر ساعات وسوّت المبانى بالأرض مما دفع عرابى إلى إعلان الحرب على البريطانيين الكفرة.

فجأة، وجد جلادستون صانع السلام، نفسه جلادستون لورد الحروب، وفى نقلة جديرة بروايات الكاتب الإنجليزى أنطون ترولوپ، استمتع بدوره الجديد. تم حشد جيش تأديبى فى قبرص بقيادة السير جارنت ولزلى، الخبير الإمبريالى فى الأسلحة الصغيرة، والذى خلّده جيلبرت وسوليڤان فى شخصية "الماچور چنرال العصرى» فى روايتيهما "قراصنة بنزانس». غدت تلك الحملة قضية قومية استحوذت على أفئدة البريطانيين بدرجة أن الملكة ڤيكتوريا ظهرت بنفسها لتوديع أصدقاء لها فى كتيبة الخيالة المتجهة إلى مصر. وبمجرد الرسو على الشاطئ فى ١٠ سبتمبر، تولى السير جارنت قيادة جيش قوامه خمسة عشر ألف جندى من إنجلترا، إضافة إلى عشرة آلاف آخرين من الهند وسرعان ما اشتبكوا مع قوة مصرية قوامها ٢٥ ألف مقاتل فى موقعة التل الكبير فى منتصف الطريق بين القاهرة والقناة. ووفقا لتعبير روى چنكينز، الديمقراطى الليبرالى وأحدث مؤرخى جلادستون، كانت الموقعة "نجاحا تاما سريعا مدويا». أُلحقت بالمصريين هزيمة نكراء بأقل قدر من الضحايا، وتم نفى عرابى إلى سيلان (سريلانكا حاليا). لم تتجاوز نفقات الحملة ٢,٣ مليون إسترلينى، الميزانية المتقشفة التى خصصها رئيس الوزراء. يتذكر زميل لجلاد ستون أنه "تناول العشاء معه بالجاريك كلوب Garrick Club، ثم ذهبا لمشاهدة مسرحية "Patience» لجيلبرت وسوليڤان بالساڤوى حيت هتفت له الجماهير

هتافات حماسية، كتب السير إدوارد هاميلتون "لا أتذكر أبدا أننى رأيته فى مثل تلك الحالة المعنوية المرتفعة». للمرء أن يتخيل أنه فيما انحنى "الرجل المسن المهيب» للجماهير، تمتم صوت داخله يقول إن مهمة بريطانيا لتمدين الشعوب قد تم تبريرها على أرض الواقع. تُعلِمنا التجربة أنه ليس ثمة شراب مُسْكِر أقوى من النصر العسكرى الذى يعقبه وابل من النياشين والترقيات، وغمزات الاستحسان من الزملاء، والتلميح إلى مصادقة الرب على أفعاله.

بيد أنه ظل سؤال كيف يحكم البريطانيون مصر بعد أن غزوها، ظل قائما.

كان لدى رئيس الوزراء الليبرالى إجابة بدت منطقية ومباشرة عن هذا السؤال: مساعدة المصريين على إقامة نظام سياسى مستقر مسئول، بعدها يرحل البريطانيون. لم يدرك سوى القليلين أن أقدامهم قد زلت داخل المستنقع المشهور. وكما يذكر الباحثان البريطانيان روبينصون وجلاجار فى كتابهما المؤثر "إفريقيا والفيكتوريون» (١٩٦١)، كان الغزو الذى قام به البريطانيون بمفردهم لمصر حصيلة حاول الليبراليون البريطانيون تحاشيها بكل الوسائل: "لم تكتشف الحكومة سوى بعد مرور عام أنهم قد فعلوا شيئا يختلف تماما عن مقصدهم وأنهم قد تورطوا فى احتلال دائماً ما يطول أمده ومسئولية تتزايد دائما لإدارة شئون مصر والدفاع عنها. كان من الواضح أن الملابسات هى التى شكلت تلك المحصلة أكثر من السياسة. كان جلادستون وزملاؤه قد قصدوا تحقيق نفوذ مهيمن. وبدلا من ذلك، أنجزوا احتلالا مناطقيا، تكلفته المالية باهظة، معرضا للأعمال العدائية الأوروبية، ليست له شعبية بين أتباعهم، ومحل بغض من المصريين!»

من الجدير بالذكر أن جلادستون كان مُهَاباً عقلياً وجسدياً وروحيا. كان، وهو طويل القامة ضارى العينين، يُنفّس عن طاقته الزائدة باقتلاع الأشجار بهاردواردن، ضيعته بإقليم تششاير التى ورثها عن والده چون جلادستون الذى كان قد جمع ثروة هائلة من تجارة القطن والسكر والتبغ. سار ويليام فى الطريق المعتاد لطبقته، من كلية إيتون إلى أكسفورد، على الرغم من أنه سار، أيديولوجيا،

عكس المسار المعتاد، إذ بدأ محافظا يدافع عن الاسترقاق ثم اتجه باطراد نحو اليسار. كان مثقفا، متبحرا فى اللغات الكلاسيكية القديمة واللغات الأوروبية الحديثة، وألف كتابا متعمقا من ثلاثة أجزاء يحلل فيه ملحمتى هومر. كان كثير الأسفار، وآمن بـ "اتفاق أوربا»، وهو آلية لحفظ السلام تطورت فى أعقاب هزيمة نابليون فى ووترلو. كان هذا الاتفاق أو "المجلس» يماثل مجلس الأمن فى بعض أوجهه بأعضائه الخمسة الدائمين، وكان منبرا لم يكن للولايات المتحدة أو المستعمرات صوت فيه، اعتمد على الإقناع والإجماع لاحتواء الحروب الأوروبية (وقد نجح فى هذا لمدة قرن) لكنه لم يحقق نجاحا مثيلا فى التوسط فى النزاعات بين القوى. ووفقا لمعايير زمانه، كانت رؤية جلادستون متسعة، مستنيرة، نبيلة، متجذرة فى معتقداته المسيحية.

حينما طلبت منه الملكة فيكتوريا عام ١٨٦٨ تشكيل أول وزارة له، وصلته الأنباء فيما كان يقطع شجرة. يُسجّل مشاعره فى مذكراته "يبدو وأن الرب القادر يحافظ عليَّ ويبقينى لتحقيق هدف له رغم ما أعرفه عن عدم جدارتى العميقة. المجد لاسمه». وفيما مرت السنون، تعاظم حماسه وعاطفته الدينية. كان يحضر القداسات الأنجليكانية مرة، ومرتين وأحيانا ثلاث مرات فى اليوم. استدعى السخرية بعادته الشهيرة للتجول مع زوجته كاثرين فى منطقة هايماركت لاستمالة العاهرات وهدايتهن. بيد أن كاريكاتيرا رسمه إيب عام ١٨٦٩ ونشرته مجلة ڤانيتى فير عبّر عن الرأى الشائع عنه: "لو أنه كان رجلا أسوأ لأصبح سياسيا أفضل». وفى شرح لهذا التعليق كتبت المجلة "إن الفضائل التى يمتلكها هائلة بدرجة أن العيوب التى تُنسب إليه مصدرها الإفراط فى تلك الفضائل».

من الحقيقى أن إيتش . سى. چى. ماثيوز محرر مذكرات جلادستون، وجد أن "الرجل المسن المهيب» كان يمتلك، أثناء أزمة السويس، صكوكا (كمبيالات) بمبلغ يناظر ٢ مليون إسترلينى فى تسعينيات القرن العشرين لكن مؤرخه جنكينز يقول

"لا أعتقد للحظة، أن دافعة الأول أو حتى دافعه المساعد بدرجة كبيرة كانت المصلحة الذاتية المالية». فلم يكن جلادستون فقط أكثر أعضاء مجلس وزرائه الأربعة عشر ترددا فى قبول الحاجة إلى التدخل، كما يوضح جنكينز، بل إنه بعد ذلك ألقى بثقله ضد نفوذ حاملى الصكوك.

ظل وراء الخيارات العظمى والحاسمة التى اتخذها القادة الأوربيون والأمريكيون المرة تلو المرة، دوافع شامخة متغطرسة؛ معلومات غير كافية، أفكار مسبقة عقيمة؛ نفوذ مرءوسين حزبيين طموحين وقحين، ومشاعر دينية. لكن أهدافهم الأخلاقية المعلنة أمدت نقاد الإمبريالية بسلاح قاتل. نجح يلفريد سكاون بلانت، وبالرغم من كل تموضعاته، فى الأخذ بثأره، وكان له أيضا القول الفصل كما سنرى. لا يكرر التاريخ نفسه أبدا، لكن المواقف، الحجج، المعضلات والذرائع، الكليشهات والأوهام تتكرر ومعها حتمية غروب الشمس عن الإمبراطوريات. كان لابد أن يصل ما بدأ فى الشرق الأوسط بجلادستون وقصف الإسكندرية فى شهر يوليو القائظ عام ١٨٨٢ أن يصل يوما ما إلى مشهده النهائى المحتم.

الفصل الأول

البروقنصل

إفلين بارينج، اللورد كرومر

١٨٤١-١٩١٧

الفصل الاول

لا يجنى الذين يحفرون أسساً عميقة

ترتفع عليها الممالك شامخة

من جيلهم إجلالاً ومكانة؛

كالطود لا تُرى منه المهابة

إلا إذا هبطنا من أعاليه إلى وديانه

روديارد كيبلينج
"The Pro-Consuls" (1905)

استُحدث منصب البروقنصل فى العصور الرومانية كوسيلة لحكم الأقاليم المترامية القصية، والدول التابعة، والقبائل العصية. كانت الدول التابعة تشكل جزءاً مهما من أراضى الإمبراطورية، وبخاصة فى الشرق الأوسط. كانت بلاد الأنباط القريبة تقع بالقرب من (إقليم) "يهودا"، وإلى الشرق فى الأناضول كانت المملكتان التابعتان "كبدوقية وبنطس" اللتان كانتا تكوّنان معاً ما يسمى باتحاد ليسيا الحر. أسمى پلينوس الأكبر فى القرن الأول الميلادي ذلك الخليط المشوش المكوّن من سبع عشرة منطقة "حكومات الأرباع ذات الأسماء البربرية". كان البروقنصل فى الدول التابعة يتحدث باسم روما، كان صوته يحجب مشهداً مسرحياً معقّداً من الاستقلال الذاتى الوهمى.

كانت مصر، إبان أوج الإمبراطورية البريطانية، تمثل الدولة التابعة الكلاسيكية..

منذ عام ١٨٨٢ وإلى عام ١٩٥٤ ظلت واقعياً خاضعة للحكم البريطانى، على الرغم من أنها لم تكن رسمياً جزءاً من الإمبراطورية إلى أن انسحبت ، أخيراً، وحدات الجيش العسكرية البريطانية الملكية عملاً باتفاق متبادل. لكن، وحتى تلك النهاية، أبقت الحكومة البريطانية على أسطورة استقلال مصر. لدى زيارة أنطونى إيدن رئيس وزراء بريطانيا مصر عام ١٩٥٥، دعا الرئيس جمال عبد الناصر إلى لقاء معه فى السفارة البريطانية. يُروى أن الرئيس ناصر علّق قائلاً : «أخيراً ، بإمكانى أن أرى المكان الذى حُكمت منه مصر لمدة طويلة». ووفقاً لمرويات الحكومة البريطانية، يقال إن إيدن أجابه بالقول "لم تكن تُحكم ياكولونيل ناصر، بل كانت فقط تتلقى المشورة". ومن بين كل «المستشارين» البريطانيين لم يكن ثمة من هو أقوى نفوذاً من السير إقلين بارينج، بروقنصل جميع البروقناصل والذى يحتل مكان

مكان الصدارة بين الشخصيات التى نعرضها فى هذا الكتاب. حينما هبط سير إڤيلين البالغ من العمر الثانية والأربعين إلى شاطئ الإسكندرية فى سبتمبر عام ١٨٨٣ بصفته نائب الملكة فيكتوريا بمصر، ومفوضها وقنصلها العام ، كان يعرف طريقه فى البلد بعد أن كان قد عمل به باسم ماجور بارينج عضواً بمفوضية الديون التى أنشأها المصرفيون الأجانب لضبط الخديوى المسرف وتأديبه. وفقاً لهذا عُيّن بارينج أحد اثنين من المراقبين العامين للمالية المصرية، بالشراكة مع إرنست - جابرييل بلينييه الذى كان يمثل المصالح الفرنسية. ومن خلال ترتيب عُرف آنذاك بالرقابة الثنائية، اضطلعا بـ"المهمة الحساسة" لإرشاد وتنشيط اقتصاد "البلد المفلس" بدون أن يبدوا وأنهما يحكمانه. لكن، سرعان ما ذاع السر. ظلت مصر، نظرياً، جزءاً عضوياً من الإمبراطورية العثمانية، وظلّ الخديوى مبعوث السلطان. شعر أصحاب المطالب والمظالم فيما كانوا يجلسون منتظرين بالدواوين الرسمية يرتشفون الشاى ويدخنون الشيشة أن السلطة الحقيقية بمصر كانت فى يد قنصل بريطانى عام، حديث السن نسبياً. وسرعان أيضاً ما كان باستطاعة أكثر الفلاحين فقراً تخمين هذه الحقيقة، وأصبح بارينج فى عيونهم "الدب الأكبر". تطور نظام الرقابة الثنائية ليصبح الرقابة الأحادية، وهكذا ظل ذلك النظام إلى أن تربع السير إڤلين بارينج، الذى عُرف باسم اللورد كرومر فى منصبه كقنصل عام سنة ١٩٠٧. بالإمكان القول إن كرومر كان أكثر بروقنصل إمبريالى قدرة وكفاءة، لكنه كان من المؤكد أكثرهم غرابة. سعى أقرب منافسيه المعاصرين له - اللورد كيرزن، نائب الملكة بالهند بين عامى ١٨٩٨ و١٩٠٥، سعى لجذب الاهتمام العام وتلقاه، لكن، ولهذا هذا السبب جزئياً، كانت مدة ولايته أقصر. ظل كرومر لمدة أربعة وعشرين عاماً، ووفقاً لجميع المقاييس، "باشا" مصر، وحسب مقولة كيبلينج، فقد حفر بالفعل أسساً عميقة. فقد أنقذ عجز مصر عن تسديد الديون بل ومهد أيضاً لحظة تسيّد بريطانيا بالشرق الأوسط، تلك المنطقة التى أسهم هو وتلاميذه فى تحديد أسمائها وتقرير تخومها وحدودها.

كان كرومر وهو فى أوج سلطته، يحتل المكانة الرابعة بين أقوى أربع شخصيات فى الإمبراطورية البريطانية تسبقه الملكة، رئيس الوزراء، ونائب الملكة بالهند. كتب زميله رونالد ستورز يقول إن سطوته "فى مصر، بالنسبة للأجانب والمصريين أيضاً كانت تعادل سلطة مجلس الوزراء البريطاني مضروبة فى سلطة الملكة".

أدرج المؤرخ بيرك تدرّج ألقابه فى كتابه "سجل النبالة": مُنح لقب فارس عام ١٨٨٣ وأصبح البارون كرومر عام ١٨٩٢، ثم الڤيكونت كرومر فى ١٨٩٩، ثم إيرل أوف كرومر الأول عام ١٩٠١. ووفقاً لرواية السير ڤالنتاين تشيرول، معاصره المعجب به، ورئيس القسم الأجنبى بالتايمز، ففى أعين المصريين، كان يمثل قوة غامضة مفيدة بشكل عام، غير مرئية لمعظمهم، لكنهم يشعرون بها فى كل مكان، وحالما سمعوا أن شيئاً قد حدث له فى بلده أى أنه مُنح لقب لورد، أصبحوا يسمونه اللورد، ولا شىء آخر.

وبالرغم من ذلك، برهن نظام اللورد بمصر، ومع الاحترام لكيبلينج، على أنه مستنقع لا طودٌ شامخ. لنا هنا عقد مقارنة بينه وبين نظام الحكم بالهند البريطانية حيث كان كرومر قد تدرب كإدارى كولونيالى، وهناك فى ظل الراج Raj (وهو لفظ يعنى الحكم) كانت السلطة البريطانية مرتبة رسمية ونهائية؛ فحتى فى الولايات الأوبرالية التى كان يحكمها أمراء مترفون، كان المهراجات يستشيرون مبعوثاً بريطانياً مقيماً، ولم يكن خضوعهم له مستتراً. ووفقاً للمعاهدات، كان الحكام من الأمراء الهنود يعترفون بسلطة التاج البريطاني العليا. حينما حصلت الهند على استقلالها عام ١٩٤٧، ظلت المخلفات (الأمتعة، الأجهزة، المباني، .. الخ) الثقافية للراج باقية وتراوحت بين نوادى الكريكت والجنتلمن، وموسيقى القرب والمدارس الداخلية، إلى الصروح والمبانى الفخمة، مثل منتجع نائب الملكة فى سيملا، وقصر الحكومة فى نيودلهى، وحتى نصب ڤيكتوريا التذكارى المزيّن بلوحات وصيفات جلالتها فى كلكتا ذات نظام الحكم الماركسى. أما فى مصر فكان الانفصال عن

بريطانيا جد مختلف. حدث خلال هبّة قومية عام ١٩٥٢، يتذكرها البريطانيون بصفتها السبت الأسود، أن دمرت الحشود رموز الامتهان الملموسة وخاصة المكانين الإمبرياليين التوءم المفضلين لدى البريطانيين، أى نادى الفروسية وفندق شبرد. أُشعلت النيران فى مجموعات كاملة من المبانى، ومات الأجانب حرقاً. وبعد ذلك، أطاحت الحشود الغاضبة بتمثال فرديناند ديليسبس، الذى كان منتصباً وهو يؤشر بيده، وكأنه راعى الميناء، فى مدخل القناة التي حفرها عمال السخرة من الأهالي. (هذا على الرغم أن التمثال احتُفظ به سليماً كدلالة على بصيرة المصريين البراجماتيين، في حال قرروا بعثه إلى الحياة مرة أخرى).

يصاب الباحث فى أصول الشرق الأوسط الحالى بالذهول من المقاربات المتباينة المتشعبة دائماً للسلطة الإمبريالية المنبثقة من نيودلهى والقاهرة، مع وجود الرئاسات الغاضبة فى لندن وقد اتخذت موقع الحكام علي مضض منها. تتوالى صراعاتهم تلك فى الظهور تكراراً على الصفحات التالية.

يمكننا الآن القول إن اللورد كرومر قد أثبت أنه مثال من الصعب الاقتداء به أو تكراره. فكان شخصه مزيجاً من السلطة الهادئة المتمكنة والكفاءة الاستثنائية. كان خبيراً فى فن استخدام السلطة، ومضى أسلوبه يتحسن حتى سنواته النهائية الملتبسة. كانت الفطنة المالية تسرى فى دمائه. بصفته إڤيلين بارينج، كان حفيد أميرال، وابن عضو فى البرلمان وكان (وهذا هو الأهم) عضواً بالوراثة فى أسرة بارينج وإخوانه المصرفية والمتخصصة فى القروض الأجنبية. بعد أداء الخدمة العسكرية فى كورفو (كانت آنذاك محمية بريطانية) ومالطا، عمل سكرتيراً خاصاً للورد نورثبرووك، نائب الملكة بالهند، وكان هناك، ووفقاً لكثير من المصادر أن اكتسب كُنيته التي لصقت به «Over-Baring»[1] تنقل لوحة "جون سينجر

(١) ثمة تلاعب بالألفاظ هنا، إذ إن Baring هو اسم أسرة اللورد كرومر، فيما أن تعبير over bearing يعنى المتسلط أو المتغطرس (الترجمة).

سارجنت" التى رسمها للورد كرومر والموجودة فى الجاليرى القومي البريطانى، تنقل إلى المشاهِد جوهر شخصيته: نشاهده يرتدى بذلة رمادية أنيقة لا تشوبها شائبة، جالساً باسترخاء فى مكتبه ، يده اليسرى موضوعة بخفة وبغير تعمد على فخذه، فيما أن يده اليمنى نصف المرئية والتى لا يمكن للعين إخطاؤها مطبقة على هيئة قبضة جامدة. جذب نظر الشاعر ويلفريد سكوين بلانت المعادى للإمبريالية، وأكبر ناقدى كرومر فى اللوحة "الوجنتان المنتفختان، العينان المتبلدتان، الأنف الأحمر الداكن، اليد المصابة بالنقرس، نظرته شبه المتبلدة بسبب الغداء الثقيل الذى تناوله. أما جيمس موريس ، راسم لوحات Pax Britannica (السلام البريطانى) فكان رأيه فى كرومر أكثر مجاملة إذ قال "كان رجلاً جاداً عميقاً مهيباً،، النقيض التام للمصريين المرحين، الهوائيين، العاطفيين الذين لا يتميزون بالكفاءة العالية والذى كانت مهمته هى أن يسوسهم".

وبشكل عام ومع بعض التحفظات فقد نجح اللورد. مارس الصرامة القاسية التي ترتبط الآن بصندوق النقد الدولى وبالبنك الدولي، وكأنه قد استبق سياساتهما. دعم كرومر الموازنات الشحيحة ، تقليل الديون، والتجارة الحرة : اجتذب خبراء فى الرى، من الهند، وأشرف علي إصلاح المحاكم، منح الأولوية لخطط التنمية الضخمة - مثلاً، إقامة سد أسوان الذى اكتمل عام ١٩٠٢ وأوجد مخزوناً من المياه يكفى لإتاحة حوالى مليار متر مكعب من المياه للرى فى صعيد مصر. وبصفته قنصلاً عاماً أشرف على الاستراتيجية التى أنهت حركة التمرد الإسلامي التي دامت طويلاً بالسودان ، وبعد انتصار أم درمان بقيادة البريطانيين فى عام ١٨٩٨، اخترع كرومر للسودان وصفاً جديداً حيث صنفه على أنه بلد يخضع للحكم البريطاني المصرى المشترك ، أما فى مصر، فقد أعلن كرومر عام ١٨٩١ مزهواً بأنه حامى الفلاحين، وأن إجراءاته وسياساته قد زادت من القيمة السنوية للقطن المصرى بمعدل بلغ ٨٣٥٠٠٠ جنيه إسترلينى كما أنه سعى إلى منح

إعفاءات ضريبية لمزارعى القطن الفقراء. مما يحمد له أيضاً أنه نجح فى الضغط من أجل إلغاء نظام السخرة الذي كان قد ظل قائماً من وقت طويل، وبمقتضاه تم حفر قناة السويس. (قاوم هذا الإصلاح بضراوة ممثلو الجمهورية الثالثة الفرنسية الذين اعتادوا التغنى بالأخلاقيات).

أضفت خصوصية إدارته للحكم فى مصر مزيداً من البريق على تلك الإنجازات. كان كرومر قد أفاد من المعلومات التى أمده بها ألفريد ميلنر الذى اعتمد علي خبرته الشخصية بالقاهرة كوكيل سابق لوزراء المالية فى كتابه "إنجلترا فى مصر" (١٨٩٢) وهو كتاب حقق أفضل المبيعات وكان يجسد التوجه الذى كان قد بدأ يُعرف بالإمبريالية الجديدة.

بدا كل شخص بريطانى ذى أهمية ، لفترة من الوقت أثناء تسعينات القرن التاسع عشر، وأنه إمبريالي جديد، وهو تجمع انضمت إليه شخصيات مثل برتراند راسل، المفكر الثائر البازغ، وبياتريس ويب، التي سرعان ما أصبحت إصلاحية فابية (عضواً بالجمعية الاشتراكية الإنجليزية التي أنشئت عام ١٨٨٤). عبر اللورد كيرزن عن هذا الشعور السائد بالنشوة عام ١٨٩٤ حينما قال إن الامبراطورية البريطانية هى "أعظم آلة للخير رآها العالم أبداً، وتعمل تحت رعاية الرب". كانت الإمبراطورية فى عيون هؤلاء المؤمنين (بها) تمثل السلام والتجارة الحرة وسلطة القانون. أشاعوا أنها كانت تغرس حب الحرية والعدل فى المناطق المتخلفة، وأن سياساتها التجارية كانت تفيد الأثرياء والفقراء معا؛ وأن مناهضيها كانوا أما منافسين حاقدين، مثل قيصر ألمانيا أو «ملالى مجانين» يدعون إلى العنف والكراهية الدينية. أيضاً زعم الإمبرياليون الجدد من أمثال جوزيف تشامبرلين وزير المستعمرات، أن علي بريطانيا العظمي، فى حالة الضرورة، أن تقوم بإجراءات أحادية استباقية لتعزيز مصالحها لأن تلك المصالح، بعد كل شىء، تتوافق مع مصالح البشرية. لكن من المؤكد أن الأسطول الملكى البريطانى بضمانه حرية

الملاحة فى البحار أصبح بذلك قوة للتجارة الكوكبية المستقرة المزدهرة - رغم أن المستفيدين من أمثال الولايات المتحدة ، نادراً ما اعترفوا بذلك.

كان ألفريد ميلنر - الذى أصبح فيما بعد بروقنصل - بين أكثر الإمبرياليين الجدد* فصاحة. تلقى ميلنر تعليماً متميزاً بكلية باليول بجامعة أكسفورد (حيث تولى رعايته ، علمياً، أستاذ أكسفورد الشهير بنچامين جويت مثلما كان قد تولى رعاية اللورد كيرزن) . أما طلاقة التعبير فقد اكتسبها أثناء سنوات عمله كصحفى فى البل مل جازيت. فى كتابه ، استشهد ميلنر بمصر بصفتها قصة نجاح متناقضة. طلب من قرائه أن يتذكروا أن مصر لم تكن مستعمرة، أو من دول الكومنولث البريطانى التى يترأسها التاج البريطاني؛ بل كانت "محمية محجبة" ·تعبير نحته ميلنر) وحسب مزاعمه، فقد كانت مصر دولة يضرب بتخلفها الأمثال، يعتنق شعبها الطيّع عقيدة متعصبة لا تعرف التسامح، مضى يقول إن "ذلك الشعب المحافظ بفطرته، قد هبت عليه ، مؤخراً فقط، رياح التغيير والتقدم الأوربية المقلقة، وحقاً، فقد اجتاح أرضهم الآن الأجانب الذين لا تستطيع الشرطة المصرية إلقاء القبض عليهم لأن الأوروبيين يتمتعون بالحصانة وفقاً لاتفاقيات مع العثمانيين تعرف بالامتيازات الأجنبية التي تستثنيهم من الخضوع للقوانين المحلية. كما أنه بغير استطاعة حكومة مصر الاسمية إصدار قوانين يخضع لها الأجانب المقيمون بها دونما موافقة دستة من القوي الأجنبية، فى وجود ميزانياتها رهينة لدى حاملى سندات الديون الأجانب". وأضاف يقول "إن الأغرب من ذلك هو أن سياسات مصر "يحفزها فى واقع الأمر ممثل لدولة أجنبية، والذى هو نظرياً، مجرد واحد بين عدد كبير من مثل هؤلاء المبعوثين - وليس حتى عميدهم - ، و أن من يُملى السلطة الإدارية رجل هو نظرياً، مجرد مستشار ليست له وظائف تنفيذية".

مضى ميلنر يقول، إنه، وبالرغم من ذلك فليست مصر - وبسبب عبقرية الحكام البريطانيين - مجرد اختراع أوبرالى كوميدى، أو كابوسا «يتخيله مُنظّر دستوري

مختل العقل؛ بل هى حقيقة واقعية راسخة وذلك لأنه "فى أرض المتناقضات لا تنمو الأعناب من الأشواك، ولا ثمار التين من الحسك".

(ساعد علي نجاح التحكم في مصر وجود الحاميات العسكرية البريطانية في جميع أنحاء مصر، وتعيين الضباط الإنجليز بالجيش المصرى تحت قيادة جنرال بريطانى يعرف بالسردار - وكان كل هذا نتيجة الاحتلال "المؤقت" الذى بدأ عام ١٨٨٢، واستطالت مدته إلى ما لانهاية) صدرت من كتاب "إنجلترا في مصر" ثلاث عشرة طبعة وأصبح مانيفستو الإمبريالية الجديدة، وأثني عليه الشاب ونستون تشرشل واصفاً إياه بأنه "قرع الطبول الذى يحشد القوات بعد اقتحامها المتاريس والحصون ويدعوها لاستكمال النصر".

مضى ميلنر يترقى وأصبح المندوب السامى البريطاني فى كيب تاون، وكان من بين من دعوا إلى حرب البوير، وأحد مهندسى اتحاد جنوب إفريقيا الذى تشكل بعد الحرب، وخلع عليه التاج رتبة الفيكونت، وأصبح بروقنصلاً درس في "حضانته" جيل كامل من الحكام الإمبرياليين.. بيد أنه حينما تُرجِم كتاب «إنجلترا في مصر» إلى العربية أحدث أثراً لم يكن له أن يلقى ترحيباً من مؤلفه. أثبت الكتاب بتفاصيل موثقة أن القادة المصريين المفترضين لم يكونوا سوى دُمي متحركة ووفقاً للمستشرق روجر أوين من هارڤارد وأحدث كتَّاب سيرة كرومر، فإن المشاعر الشعبية التى كانت قد ظلت فى حالة كمون منذ عام ١٨٨٢ وطفت على السطح فيما تظاهر الطلبة بالقاهرة، وقامت حشود معادية بفك أحصنة عربة الدمية الرئيسية أى الخديوى المُحتَقَر (من جانبه ، استشهد كرومر بتلك الاضطرابات لطلب مزيد من القوات البريطانية).

أما بين المصريين المتعلمين، فقد غدت وصمة سمعة اللورد أكثر ثباتاً وقتامة بمرور الوقت.. ووفقاً لأوين ، فقد حدث عام ١٩٩٨ أن وجدت مجموعة من الشباب المصريين طريقهم إلى بلدة كرومر الصغيرة بإقليم نوفوك، مهبط رأس إڤيلين

بارينج. سألوا أحد موظفي قسم الوثائق المحليين «أين دُفِن كرومر؟» ثم أضافوا «نريد أن نبصق على مقبرته».

وفقاً لظواهر الأمور، يبدو هذا الحماس العدائى غير مبرر، بل حتى محيراً. فمهما كانت نقائصه، فإن إيرل أوف كرومر لا يكاد يبدو شخصية شريرة وإذا كانت لغته بعد التقاعد قد تميزت أحياناً بالفجاجة، مثل إشاراته المهينة للأعراق التابعة، فإنه كان يستخدم المفردات السائدة فى طبقته وبلده. وغالباً ما نميل لأن ننسى أنه فى تلك اللحظة كان قد تصادف أن ابتدع الأمريكيون مصنف «الشرق الأوسط» الذى باركته التايمز اللندنية، ودفع به قدما الاكتشاف المواتى لثروات المنطقة من النفط .. لنتوقف لوهلة ونتخيل كيف بدا العالم آنذاك لكرومر ومعاصريه من الشعب البريطاني.

كانت الملكة فيكتوريا، عام وفاتها ١٩٠١، تحكم امبراطورية ضمت تقريباً خمس سكان العالم وخمس مساحته من الأراضي المسكونة. وسرعان ما امتدت سلطتها حتى قارة أنتاركتيكا، غير المسكونة، بالقطب الجنوبى. كانت لندن أعظم عواصم العالم، بلا منازع، حيث بلغ عدد سكانها ٤,٥ مليون نسمة وتفوقت بذلك علي نيويورك المدينة الصاعدة التى بلغ عدد سكانها ٣,٤ مليون شخص .. كان الأسطول البريطانى يبز أقرب منافسيه مجتمعين ؛ كان البريطانيون هم صناع الأسلحة الرئيسيين في الكوكب ؛ كما وحّدت صناعات الصلب ومعها البواخر البريطانية أول سوق كوكبى في العالم، ووصلت معاً أقصي القواعد النائية بكابلات بحرية. كانت المرجعية المشتركة للتوقيت الزمانى والخرائط في جميع أنحاء العالم هى المرصد الكوكبى بجرينتش، المركز الزمانى لكوكب الأرض.

وعلي الرغم من ذلك، كانت أكثر القوى البريطانية هيمنة هى تلك التى لا يمكن رؤيتها بوضوح. بنهاية القرن التاسع عشر تراجعت الصادرات البريطانية ، وتضخم العجز التجارى. لكن العائدات من الأجانب عوضت تلك الخسائر - أى

العائدات من الفوائد المصرفية، الإيجارات، حصص الأسهم الربحية ، إيرادات براءات الاختراع وحقوق الملكية والخدمات المالية. وكانت كلها تحسب بالجنيه الاسترليني.. تلك العملة الكونية ذات الغطاء الذهبي. في عام ١٩٣٠ كتب هربرت فيس الباحث الأمريكي يقول: "كانت لندن مركزاً لإمبراطورية مالية، أكثر عالمية، وامتداداً في تنوعها من الإمبراطورية السياسية التي كانت هي عاصمتها.. ترددت أسماء الأراضي والمشاريع الأجنبية دونما توقف في الظلمة القاتمة لأروقة سوق لندن للأوراق المالية، وكانت الدوريات المالية تنشر بانوراما لجهود العالم المضنية في المصانع ، المناجم والحقول". كانت ثمة حوالي خمسمائة بنك وسمسار وتاجر يلبون مطالب الحكومات المتعثرة المحتاجة ، والمضاربين.

وفي مقدمة هؤلاء كانت مؤسسة الإخوة بارينج ، وإلى جانبها مؤسسات روتشيلد، براون شيپلي، جلين ميلنر، كاسلز، وواجهات ائتمانية أخرى. تأسست مؤسسة الإخوة بارينج، التي تعود جذور أسلافها إلى شمال ألمانيا، عام ١٧٦٢. كانت رائدة الإقراض متعدد القومية من خلال الكمبيالات. بحلول عام ١٨١٨، أبدى دوق دو ريشليو (رئيس وزراء لويس الثامن عشر) تعجبه قائلاً : «هناك ست قوى عظمي في أوروبا : إنجلترا ، فرنسا، بروسيا ، النمسا، روسيا والإخوة بارينج». رعت القوة العظمي السادسة الجمهورية الأمريكية الوليدة عام ١٨٠٣ حينما قامت بعملية السمسرة لشراء ولاية لويزيانا أي عملية بيع موجودات نابوليون المحجوز عليها والتي ضاعفت مساحة أرض الولايات المتحدة نظير ١٥ مليون دولار فقط. أما حينما كان الإخوة يخطئون في تكهناتهم مثلما حدث بالأرجنتين عام ١٨٩٠، كانت الأسواق الكوكبية تهتز مؤقتاً. خدم أجيال من أسرة بارينج، بشخوصهم، التاج كمفوضين عنه لدى الدول الأجنبية، ووزراء مالية وبروقناصل، ومحافظين لبنك إنجلترا، واستمرت تلك المسيرة حتي نهاية ستينيات القرن العشرين.

كان هذا هو العالم الذي بلغ فيه إڤلين بارينج سن الرشد، هذا على الرغم من

أنه لم يحاب منشأة أسرته أبداً وعن عمد أثناء سنواته بالقاهرة (يقول المتشككون إن المحاباة كانت غير ذات قيمة وذلك لأن البنوك التجارية كانت لابد وأن تستشير القوة العظمى السادسة بشأن أى قرض أجنبى كبير). كان كرومر حسن الحظ «بمعنى آخر . فى العصر الإمبريالى الفيكتورى، تركزت الاهتمامات الأمنية بمصر علي صيانة قناة السويس شريان الحياة وحمايتها، وعلي الحيلولة دون تهديد روسيا القيصرية للهند باحتلالها أراضى إسلامية، أو ما عرف بـ«اللعبة الكبرى». إلا أنه فى عام ١٩٠٠ كانت حسابات الأفضليات الاستراتيجية قد تغيرت وأطلق على اللعبة اسم «المسألة الشرقية» وفق تسمية الدبلوماسيين لها. خطب القيصر ويلهلم اللاعب الجديد، ودّ السلطان العثمانى وتطوع لحماية المسلمين، وللدعوة لإنشاء خط سكك حديد برلين/ بغداد. وفى نفس الوقت ، دعا مصلحو البحرية البريطانية، بحماسة، إلى الانتقال من الفحم إلى النفط كوقود للسفن الحربية، كما حذر الأميرالات ممن تملكهم القلق من إدمان بريطانيا المفرط للنفط الخام المستورد من الولايات المتحدة بخاصة.

ظهر مصطلح «الشرق الأوسط» للمرة الأولي في مقال بعنوان: «الخليج الفارسى والعلاقات الدولية» نشر بدورية ذاناشونال ريڤيو البريطانية فى سبتمبر عام ١٩٠٢. كان الكاتب هو الكابتن ألفرد تاير ميهان، من الأسطول الأمريكى، والذى كان كتابه «تأثير القوة البحرية علي التاريخ ١٦٦٠ - ١٧٨٣» (١٨٩٠) قد اكتسب له نادياً من المعجبين من بينهم أباطرة وأميرالات، فى جميع أنحاء الكوكب. لدى زيارته لإنجلترا، استُقبِل ميهان كأحد زعماء الدول، وشبهته مقالة افتتاحية بالتايمز بالعالِم كوبرنيكوس.

رأى ميهان فى مقاله عام ١٩٠٢ ، والذى كتبه وعيْنه على جمهوره، أن ثمة حاجة للقواعد البحرية البريطانية فى أنحاء الخليج الفارسى من أجل حماية قناة السويس ولمنع التوسع الروسى باتجاه الجنوب ولمجابهة خطط القيصر ويلهلم. جاء بالمقال :

«سيحتاج الشرق الأوسط، إذا سمح لى باستخدام هذا المصطلح الذى لم أره من قبل، يوما ما إلى مالطا، وإلى جبل طارق أيضاً ؛ ليست هذه القواعد موجودة بالخليج. تتميز القوة البحرية بسمة الحركية التي تحمل معها ميزة التغيب المؤقت : لكنها تحتاج لأن تجِد في جميع مواقع العمليات قواعد راسخة لإعادة التجهيز، التموين، وفي حالة الكوارث للأمن. يجب أن تمتلك البحرية البريطانية الوسائل والاستعدادات لتركيز قوتها حول عدن، الهند، الخليج، إذا دعت الضرورة لذلك".

لفت مقال ميهان نظر السير ڤالنتاين تشيرول محرر القسم «القسم الأجنبى بالتايمز» ، والذى كان قد ذهب في رحلة فى أنحاء الخليج فى وقت مبكر من العام ذاته. كان قد سمع هناك «حديثاً أقل عن روسيا، وأكثر عن ألمانيا، بصفتها القوة التى يهدد تأثيرها المتنامى باقتلاع قوتنا". كان من الواضح لتشيرول أن خط سكك حديد برلين/ بغداد، وخطة مده من الخليج الفارسى، هما جزء من خطة القيصر لاستخدام تركيا "رأس جسر لسيطرة ألمانيا على العالم". كان تشيرول قد بحث مخاوفه مع اللورد كيرزن الذى أسرَّ له أنه يشاركه إياها وأنه فى الواقع كان يعتزم القيام برحلة إلى الخليج وزيارة إماراته، في وجود هدف أساسى له، وهو كسب شيخ الكويت ذى النفوذ القوى إلى جانبهم . (عام ١٩٠٣ رافق تشيرول كيرزن في جولته تلك كمراقب صحفى، وضيف رسمى).

حفزت مقالة ميهان تشيرول نشر عشرين مقالاً نوعياً متتالياً بالتايمز بعنوان "المسألة شرق الأوسطية" ، وفيما بعد جمعها فى كتاب صدر عام ١٩٠٣ «مسألة الشرق الأوسط، أو بعض المشاكل السياسية فى الدفاع عن الهند». وهكذا اكتسب ، ما كان عادة يسمى بالشرق الأدني، أو آسيا التركية، أو الشرق ، اسماً جديداً.

كان، ما يسمى بلغة أيامنا الحالية ، مشروع الشرق الأوسط، لدى تداوله للمرة الأولى آنذاك، مبادرة أنجلو/أمريكية، مركزة علي الخليج الفارسى، قصد بها إبعاد روسيا، والحيلولة دون تنامى ألمانيا، من خلال استزراع شبكة من القواعد

العسكرية البريطانية بالتحالف الوثيق مع الحكام المحليين التقليديين. أضف «النفط» إلى هذه المعادلة، وستجد أن المصطلح «الشرق الأوسط» كما نُحت آنذاك واستعمل قد استبق قرنا من التاريخ ومهد لأحداثه.

برهن اللورد كرومر على سلاسة نهجه فى مواجهة التحديات المعقدة، مع استثناء واحد . هذا الاستثناء، هو الإسلام، تلك العقيدة التى رأى كثير من الأوروبيين أنها مصدر غموض الشرق الأوسط وتهديده، وتواجده خارج التاريخ. وفى الواقع، كان دين الرسول قد ظل عدواً لدوداً منذ القدم حيث شاهد أجيال من الصغار بإنجلترا مسرحيات إيمائية تنكرية ساخرة يظهر فيها محمد عدواً كافراً للقديس جورج الباسل الجسور. ترى كارن آرمسترونج الباحثة البريطانية، في كتابها «سيرة الرسول» أنه من الممكن فهم هذا العداء «لأنه وحتى صعود الاتحاد السوفييتى فى قرننا الحالى، لم يمثل أى نظام للحكم، أو أية أيديولوجيا، مثل ذلك التحدى المستمر للغرب». ظل الإسلام، منذ فتوحاته المبكرة فى أوروبا ، وخلال ثمانى حملات صليبية إلى الأراضى المقدسة، وأثناء صعود العثمانيين، ظل هو «العدو». كان أحد الأدعية الذى ظل يتردد فى الكنائس فى أنحاء أوروبا لمدة ألف عام هو «نجنا، أيها الرب، من مقت عبدة محمد وضراوتهم».

كان هذا تاريخاً حياً بالنسبة لإفلين بارينج. حينما كان طالباً بالأكاديمية الملكية العسكرية فى وولويتش. اندلع «التمرد الكبير» بالهند، وكان المسلمون بين أكثر المتمردين ضراوة فى محاولتهم لاسترداد إمبراطورية المغول.

يفسر هذا اهتمام كرومر، بعد أن أصبح قنصلاً عاماً بالقاهرة ١٨٨٣، بالعصيان الإسلامي الذى مضى ينتشر بالسودان. كان قائد التمرد، محمد أحمد، ذا الأصول المتواضعة - حيث كان والده نجاراً - قد أعلن نفسه المهدى المنتظر، وانتشر صيته مثل النار فى الهشيم فى أنحاء السودان، الذى كان رسمياً إقليماً مصرياً تبلغ مساحته حوالى مليون ميل مربع، وعدد سكانه تسعة ملايين شخص غالبيتهم من المسلمين.

حينما أرسل المسئولون المصريون بالسودان، الذين لم يكن نفوذهم يتعدى نطاق الخرطوم ، جنوداً لإلقاء القبض علي المهدى ، قام المتمردون بذبحهم أو طردهم. كان المهدى مثقفاً طلق الحديث حلو المظهر، حازماً ، ومهذباً فى آن.. فرض علي أتباعه قانوناً أخلاقياً صارماً، وحثهم فى خطبة له عام ١٨٨٢ علي التوبة إلى الله. طلب منهم نبذ الكبائر والمحرمات وتجنب الشهوات والخمر والتدخين وشهادة الزور وعصيان الوالدين واللصوصية وقطع الطريق وضرورة رد الأمانات إلى أهلها، والامتناع عن التصفيق والرقص والغمز بالأعين وندب الموتي وتشويه السمعة والافتراء بالقول ، ورفقة المغريات من النساء. دعاهم إلى أن يطلبوا من نسائهم الاحتشام فى الملبس وعدم الحديث إلى الأغراب. ختم قائلاً : «إن عدم اتباع هذه المبادئ هو عصيان لله ورسوله يستوجب العقاب وفقاً للشريعة.. أوكل إلى شرطة الأمر بالمعروف عقاب الآثمين الذين كانوا عرضة للإعدام أو بتر أحد أطرافهم أو الجَلْد».

رسّخت الرهبة منه الشعور بالخوف حينما هزم أتباع المهدى، الذين اقتصرت أسلحتهم فى البداية علي السيوف والرماح والعصى، المصريين الذين نعتهم المهدى بالأتراك الكفرة.. كان من حسن طالع المهدى أن تصادف ظهور مُذنّب كبير في السماء الشرقية أسماه السودانيون «نجم المهدى». وفى النهاية ، استفاقت حكومة القاهرة من سباتها وأرسلت جيشاً جندته بسرعة بقيادة الجنرال ويليام هيكس، الضابط البريطانى الهندي - جيشاً مكوناً من ٧٠٠٠ من المشاة، و١٠٠٠ من الفرسان، و٥٠٠٠ ناقة، بمعداته ولوازمه وأتباعه. تظاهر رماة المهدى بالانسحاب وأغرى ذلك جيش هيكس إلي التقدم إلى المناطق الداخلية حيث تم ذبح هيكس وغالبية جيشه بمدينة شيكان على بعد ثلاثين ميلاً جنوبى العاصمة الإقليمية العُبيد. استولى أتباع المهدى على أسلحة الجيش ومعداته وبقية الغنائم. عُثر، فيما بعد، علي وصف لما حدث فى ذلك اليوم المفجع في يوميات كتبها أحد أفراد القوة من الضباط البريطانيين : «يأمر الجنرال الفرقة الموسيقية بأن تعزف على أمل الترويح

عنا؛ لكن الفرقة تتوقف لتطاير الشظايا من جميع الاتجاهات، تمضي النوق والبغال والرجال فى السقوط صرعي؛ نحن متجمعون معا فى مكان ضيق لذا لا تصيبنا الطلقات. نشعر بالتعب والوهن وليس لدينا أية فكرة عما يجب عمله.. إنه يوم الأحد، عيد ميلاد أخى الحبيب أتمنى على الرب لو كان بوسعى الجلوس والحديث إليه لساعة! ينهمر وابل الطلقات .." وتنتهى اليوميات فى منتصف الجملة.

حدث أن رافق مراسل مغامر للتايمز، يدعى فرانك پاور ، من مواليد دبلن، جيش هيكس. أُرسل پاور للخرطوم لتلقى العلاج بعد إصابته بالدوسنتاريا. وهناك جمّع تقارير مباشرة عن المذبحة. ولسوء حظ الحكومة الليبرالية المرتبكة، أن ظهرت تقاريره فى ذات الوقت الذى كان مجلس وزراء جلادستون يصوت فيه على خفض عدد القوات بمصر. قالت التايمز التى كانت تمثل آنذاك الأنا العليا للإمبريالية، «حان الوقت لوضع نهاية لتلك الدعوة المؤدلجة الضالة المخادعة [لإنهاء الاحتلال بمصر]. تدرك البلاد تماماً الآن مسئوليات وضعنا بمصر، ولا يملك الوزراء الوقوع فى أية أخطاء إزاءها».

عجلت كارثة هيكس بوقوع مأساة جوردون، تلك الميلودراما الڤيكتورية التى انتهت بموت بطلها.. تبعت الأحداث الدورة المألوفة : فى البداية ترددت فى أرجاء البرلمان صيحة "يجب فعل شىء ما" مدوية، وبتحريض من الصحافة ، ورددت الصيحة منابر الكنائس والاجتماعات العامة. تشاور مجلس الوزراء المستنهض وانقسمت الآراء، ولاذ رئيسه بضباب التعبيرات المجازية. وفى غياب القرار تم تكليف لجنة بتقصى الحقائق لاختبار الأجواء وشراء الوقت فيما أخذت الأعذار تتراكم «من كان باستطاعته التنبؤ بما حدث؟" ، «تم عصيان الأوامر"، "كانت الاستخبارات خاطئة، " "خذلنا حلفاؤنا"، "الطقس كان سيئاً"، "حرّف المبعوثون تعليماتنا"، أو تلك الصياغة التى تخدم كل الأغراض " تم حدوث أخطاء»».

كان حوار نشرته البِل مِل جازيت فى ٩ يناير ١٨٨٤ هو ما أشعل فتيل

الغضب.. علم محررو الجازيت الإنجيليون الذين كانوا يتميزون بالجسارة والوقاحة، أن تشارلس چورچ جوردون، وكان جندياً مسيحياً مرتزقاً مغامراً، كاد يكون أسطورياً، قد وصل إلى إنجلترا فى طريقه إلى دولة الكونغو الحرة فى مهمة كلفه بها ليوپولد ملك البلچيك. كان الجنرال جوردون بين أكثر محاربى الإمبراطورية شهرة، هذا على الرغم من أنه لم يكن قد احتل أبداً مركزاً قيادياً يذكر بالجيش البريطانى. كان قد صنع شهرته بقيادته للمرتزقة الأجانب بالصين، وقمع تمرداً دموياً حفزه شخص أعلن نفسه المسيح المنتظر؛ وفى السودان حيث قاتل تجار العبيد.

التقى جوردون بمنزل شقيقته، أوجاستا، بساوثمبتون، دبليو ، تى ، ستيد، محرر الجازيت الذى لا يكل ولا يمل، ورافقه بالقطار إلى لندن، ودوّن أثناء الرحلة حواره معه (كان ستيد بين أوائل من أدركوا احتمالات كمٍّ زيادة التوزيع بنشر الحوارات الشفاهية حرفياً».

كانت الأسئلة التى وجهها ستيد لجوردون بسيطة. كانت قوات مصرية يبلغ تعدادها ستة آلاف جندى قد انسحبت من أم درمان إلى الخرطوم فى أعقاب هزيمة قوة هيكس التى أرسلت لعقاب جيش المهدي. وكان مقاتلو المهدى يحاصرونها الآن. هل يجوز إجلاء هذه القوات والمدنيين المهدّدين ومخاطرة التخلى عن السودان وتسليمه للمتمردين؟ أم أنه من الواجب إرسال قوات مهمات خاصة لإنقاذ الحامية وقمع التمرد؟ تكلم جوردون بأسلوب شديد الوضوح: "الانسحاب ليس خياراً، لأن تكلفة استعادة بريطانيا قبضتها على مصر ستكون باهظة إذا تخليتم للمهدى أو للأتراك عن تحكمكم فى شرق السودان". ثم قدم جوردون تنويعة على نظرية الدومينو التي استدعاها، فى وقت لاحق، داعمو حرب أمريكا على ڤيتنام"!

ليس الخطر هو أن المهدى سيسير شمالاً مخترقاً وادى حلفا، بالعكس، فمن غير المحتمل له أن يتقدم شمالاً. إن طبيعة الخطر مختلفة تماماً. يتمثل الخطر فى الأثر

الذى سيحدثه مشهد قوة (محمدية) غازية، قائمة بالقرب من حدودنا على السكان الذين نحكمهم. سيشعر المصريون فى جميع المدن أن بإمكانهم فعل ما فعله المهدي، وبما أنه نجح فى طرد الدخلاء والكفار، يصبح باستطاعتهم فعل ما فعله".

* «ولن تكون إنجلترا وحدها هى التى ستواجه هذا الخطر. فقد أثار نجاح المهدى بالفعل قلاقل خطيرة فى بلاد العرب وسوريا. عُلقت لافتات فى سوريا تدعو السكان للانتفاض وطرد الأتراك. إذا تم التخلى عن منطقة شرق السودان للمهدي، ستسرى العدوى إلى القبائل العربية على جانبى البحر الأحمر.. لأنه من الممكن جداً فى حالة عدم فعل أى شىء أن يؤدى انتصار المهدى إلى إعادة فتح المسألة الشرقية برمتها. أرى اقتراحات بتحصين وادى حلفا واتخاذ الاستعدادات هناك لمقاومة هجوم المهدى. وهذا يماثل القول ببناء حصون ضد الحُمى. لا يمكن منع العدوى بهذا النوع بالتحصينات والحاميات. إن العدوى حقيقية ولا يمكن لأحد على معرفة بمصر والشرق إنكار وجودها. لا يمكن تبرير سياسة الإجلاء بذريعة الدفاع عن النفس".

أثار ذلك الحوار عاصفة من الخطب ، المقالات الافتتاحية الوعظات والمظاهرات التى تطالب الحكومة بإرسال جوردون إلى السودان، وهو مكان كان على معرفة وثيقة به حيث سبق له أن عمل هناك حاكماً عاماً للخديوي. وكما عبر ستيد «ليس باستطاعتنا إرسال كتيبة عسكرية إلى الخرطوم، لكننا نستطيع إرسال رجل أثبت أنه أكثر قيمة، فى أوضاع مماثلة، من جيش كامل». فى ١٨ يناير، استدعى جوردون إلى مكتب الحرب للاجتماع بوزير الحرب وعدد من كبار الوزراء الآخرين. وهناك، وافق "على دراسة أفضل الأساليب لإتمام الجلاء عن السودان وكتابة تقرير عن هذا. "بإيجاز، وافق على دراسة جدوى نفس السياسة التى كان قد أدانها لتوه.. أرسل جلادستون رئيس الوزراء الذى كان موجوداً آنذاك بهواردن برقية يعرب فيها عن إذعانه، مؤكداً فيها أن على جوردون أن يكتفى بإرسال التقارير ولا شىء أكثر من ذلك. يمكننا الافتراض أن جلادستون، الذى لم يكن قد التقى

جوردون أبداً، اعتقد أنه كان يشترى الوقت فى لحظة كان مجلس الوزراء فيها منقسماً وكان شغل الليبراليين الشاغل هو مناقشة اقتراح بالإصلاحات الانتخابية. كما يمكننا أن نتكهن أن جوردون قد خلص بدقة أنه بمجرد أن يُترك وحده سيصبح بإمكانه فعل ما يريده . تَرك هذا التقدير الذاتى الصريح فى مذكراته التى كتبها بعد ذلك بثمانية أشهر بالخرطوم المحاصرة :«أعترف بعصيانى الشديد لحكومة جلالة الملكة ومسئوليها . لكن هذا جزء من طبيعتى ولا حيلة لى إزاءه . أخشى أننى لم أحاول حتي تبادل الآراء السريعة معهم. أعلم أننى لو كنت رئيساً فلن أوظف نفسى أبداً ، إذ لا أمل فى إصلاحى».

ومن جانبه، كان جلادستون، حساساً (للنقد) إلى حد الإفراط.. من ثم ، حينما استفزته احتجاجات الليبراليين الغاضبة خشية أن يجر جوردون بريطانيا إلى مستنقع بالسودان، تخير رئيس الوزراء أن يضخم خطر تمرد المهدى بحيث يبدو صراعاً حقيقيا للحضارات. أبلغ البرلمان فى ١٢ فبراير ١٨٨٤ أن مهمة البريطانيين بمصر هى «مهمة لا ننفذها وحدنا، لحسابنا، بل نيابة عن البشرية المتحضرة. لقد اضطلعنا بها بموافقة قوى أوروبا . تلك القوى التى هى أسْمَى أداة للحضارة المسيحية الحديثة وأكثرها صدقية - لكننا، وقد اضطلعنا بها بدعوة منهم، أو بموافقتهم، يتوجب علينا أن ننجزها بالأسلوب الذى يتوقعونه منا». وحينما ووجه بأسئلة مشروعة عن سياسة المخاطرة، كان الرجل، يعمد كعادته إلى إطلاق صواريخ خطابية تصل إلى سماوات عالية لا يمكن الوصول إليها : بطريقته الخاصة، كان جلادستون أيضاً، شخصاً لا أمل فى إصلاحه.

ومثل القديس سباستيان، غدا جوردون الشهيد الرمزى لزمانه ومكانه، ومثل القديس، تم تخليده فى لوحة صَوّرت شخصاً وثنياً تملكت منه الرهبة وهو يصوب صاروخاً إلى جسد جوردون المنتصب بكبرياء. (اللوحة التي رسمها چى. دبليو چوى عام ١٨٩٣ وعنوانها موت الجنرال تشارلس جوردون، معلقة بمتحف مدينة

ليدز الفنى؛ ألهمت تلك اللوحة عام ١٩٦٦ الفيلم الملحمى «الخرطوم» الذى أدى فيه شخصية جوردون النجم تشارلس هستون، فيما قام السير لورانس أوليفييه بأداء شخصية المهدى). وفقاً للرواية الفيكتورية التى كانت محل إجماع، كان جوردون محارباً مسيحياً باسلا مدرباً، يجهل الدهاء السياسي، وكان يهتدى بالإنجيل الذى كان يستشيره يومياً. لفت نظر جون إتش وولر الأمريكى الذى كان يعمل بمكتب الخدمات الاستراتيجية (OSS) بالقاهرة أثناء الحرب العالمية الثانية، لفت نظره بقوة أوجه الشبه الكثيرة بين جوردون والمهدى «كان الاثنان يعبدان إله العهد القديم بحماس متقد، وامتلك كل منهما خاصيات قيادية عسكرية كاريزمية، وكان الاثنان يبغضان الطغيان، ولا يخشيان الموت». وبالرغم من ذلك، كانت شخصية جوردون تتسم أيضاً بالخيلاء والدهاء، وكان الأجدر بوولر (الذى أصبح عام ١٩٧٦ المفتش العام للسى آى إيه) أن يضيف فى كتابه «جوردون فى الخرطوم» (١٩٨٨) أن الصدام بين معتنقى الأفكار المطلقة خلّفَ جَبلاً من جثث القتلي.

وجد السير إيفلين بارينج ، العلماني بامتياز، نفسه فى موقف متأرجح .. كان يعلم الكثير عن جوردون ، حيث كان قد تبعه بعد عقد من الزمان كطالب فى كلية ووليتش العسكرية. ومثل زملائه من الطلبة الآخرين كان بارينج على علم ببسالة جوردون كنقّاب ولغّام (خبيراً فى حفر الخنادق وزراعة الألغام)، أى فى هندسة المعارك، أثناء حصار سباستوبول فى حرب القرم ومثل غيره من البريطانيين، كان بارينج على علم بإنجازاته الحربية فى الصين حيث تمكن، بناء على تفويض من القادة المدنيين بشنغهاى من تحويل قوة من المرتزقة إلى «الجيش المنتصر دائماً» كما أصبح يسمى؛ ذلك الجيش الذى نجح ، لحساب الإمبراطور، فى قمع انتفاضة مناصرى حركة التابيينج من الفلاحين والفقراء (١٨٥٤ - ١٨٦٤) بقيادة ناظر المدرسة الصينى الذى كان يزعم أنه الشقيق الأصغر للمسيح. عُرف جوردون «الصينى» أيضاً بأعماله الخيرية كقائد لقاعدة فى جريفسند، حيث كان يؤوى

الصبية الفقراء فى مسكنه الحكومى ويمدهم بالملابس. كان الإنجيليون يعرفونه بصفته جندياً مسيحياً، رغم أنه من المشكوك فيه أنهم كانوا على دراية بنظرياته الإنجيلية الشاذة (حدد موقع جنة عدن فى جزيرة الموريشوش وكان دليله على ذلك وجود فاكهة تنفرد بها الجزيرة على شكل عضو الأنثى). كان أيضاً موضع ثناء المناهضين للرق وذلك بسبب حملاته ضد تجار الرقيق المسلمين حينما كان يعمل حاكماً للإقليم الاستوائى بالسودان، ثم حاكماً لعموم السودان بعد أن عينه الخديوى عام ١٨٧٧.

لكن السير إڤلين كان أيضاً يعرف جوردون كمتصوف متهور ، وأنه قد مر بأزمة روحية بفلسطين عام ١٨٨٢ (كتب يقول لشقيقته أوجستا «أحاول نبذ كل العوائق التي تحول بينى وبين حياة القداسة»). من ثم ، حذر بارينج ، في البداية، ضد إرسال جوردون إلى الخرطوم، ثم تحول مع التيار وذلك (كما بين فيما بعد)، لأن كثيراً من البريطانيين الذين كان يحترمهم كانوا يعتقدون خلاف ذلك. من بين مؤيدى جوردون كان اللورد جرانڤيل ، وزير الخارجية الذى أسرّ إلى السير باڤيلين فى رسالة خاصة بأنه «قد يكون ذا فائدة عظيمة، كما أنه سيلقى ترحيباً من أوساط عديدة بالبلد». وحينما توقف جوردون بالقاهرة لثمان وأربعين ساعة فى طريقه إلى الخرطوم، كان السير إڤلين ممن شاركوا في اجتماعاته مع الأعيان، وكان من بينهم زبير باشا، أحد الأشخاص الرئيسيين السابقين في تجارة العبيد والذى كان الجنرال قد تعقبه ذات مرة فى أنحاء إقليم دارفور، الذى كان آنذاك أحد ملتقى الطرق لتلك التجارة. من ثم كان بارينج موجوداً حينما قرر جوردون، وقد غمره «شعور روحانى» أن تاجر الرقيق السابق زبير باشا كان المرشح المثالى لإحلال السلام بالسودان واسترضاء السودانيين. عمل السير إڤلين علي منع تنفيذ هذا الاقتراح المتهور المرتجل وساعد على إقناع الخديوى بترشيح جوردون، مرة أخرى، حاكماً عاماً للسودان . فعل هذا، وأشار على لندن بهذا، من منطلق عقيدته أنه كان

من الأمور الحيوية إرسال "ضابط إنجليزى" له نفوذ حقيقى بالخرطوم ودراية بها. وكما عبر عن ذلك للورد جرانفيل» سيكون الجنرال جوردون أفضل رجل إذا تعهد بتنفيذ سياسة الانسحاب من السودان التي تتسق مع إنقاذ حياته. لابد أن يفهم تماماً أن عليه تلقى التعليمات من الممثل البريطانى بمصر {أى بارينج} ويكون مسئولاً أمامه". (بعد سنوات عديدة، اعترف بارينج أن موافقته على تعيين جوردون قد تكون أسوأ خطأ ارتكبه، ثم بعد ذلك، فى كتابه الضخم. «مصر الحديثة» [١٩٠٨] المؤلف من جزئين، حاول التورية على دوره فى هذا التعيين بأن حذف كلمة «إنجليزى» من التوصية التى أرسلها إلى لندن والتى اجتزأناها هنا».

فى ٢٦ يناير ١٨٨٤، رحل الجنرال فى طريقه إلى الخرطوم، يرافقه الكولونيل چيه دى. ستيوارت من الوحدة الثانية عشرة من سلاح الفرسان وفرانك پاور من التايمز. أبرق جوردون الرسالة التالية الى سكان الخرطوم المحاصرين «لا يتملككم الذعر. إنكم رجال لا نساء. إننى فى طريقى إليكم». وفى ١٨ فبراير بعد تخطى المنعطف الذى يلتقى فيه النيل الأبيض والنيل الأزرق، غادر جوردون متن الباخرة «التوفيقية» ليلقاه جمهور المرحبين المنتشين. أعلن «أتيتكم دونما جنود، لكن فى وجود الرب إلى جانبى كى أقوّم الشرور بالسودان» أبرق پاور إلي التايمز يقول : «تم إحراق دفاتر الحكومة المسجًل بها ديون مستحقة منذ القدِم علي شعب مُرهق بالضرائب، حرقها علناً أمام القصر وضعت الكرابيج والأدوات الأخرى التى تستخدم فى ضرب الأفراد بقصر الحكومة على الكومة المحترقة».

كان بالإمكان فهم تلك السعادة الغامرة كان ممثل الخديوى الرسمى ماثلاً أمام الجماهير ويبدو أنه كان يعد بتخفيف قيود العبودية الكلونيالية بالسودان، وإلغاء الديون، وحتى بالسماح باستئناف تجارة الرقيق التي أصبحت غير شرعية منذ عام ١٨٧٧.

اعتقد جوردون أنه إذا تخلى البريطانيون عن السودان، ستستأنف تجارة

الرقيق فى جميع الأحوال، ولن تمثل أية عقبة لزبير باشا تاجر الرقيق السابق، والمرشح غير المتوقع من قبل جوردون لمنصب حاكم عموم السودان. أثارت تلك الواقعية المُشقّرة والواضحة فى آن استياء داعمى جوردون من ذوى التوجهات الإنسانية. لكن الجنرال تباهى متغطرساً بأنه قد حوّل التايمز وبارينج إلى اعتناق أفكاره المتغيرة بشأن إباحة تجارة الرقيق. وفيما بعد، فى أغسطس عام ١٨٨٤، لدى علمه بتشكيل قوة لإنقاذه، أظهر دهشته وطربه من أنه استطاع إجبار جلادستون علي إرسال جيش طوارئ خاص إلى السودان. وبالمثل، كانت تحولات جوردون الأخرى فجائية غير متوقعة. تكهن فى وقت ما أن بإمكانه هزيمة المهدى فى المعركة؛ ثم عاد ليعلن أنه يظن أن بإمكانه خداعه أو نزع سلاحه. ولتجربة تلك الاستراتيجية، الأخيرة، أرسل للمهدى عباءة حمراء وطربوشاً، وخطاباً يعرض عليه تعيينه سلطاناً لكوردفان موطنه الأصلى.. أجابه المهدى قائلاً : إن عليه أن يعلم أنه المهدى المنتظر خليفة رسول الله.. ومن ثم، فهو ليس بحاجة إلى سلطنة، أو مملكة بكوردفان أو غيرها أو لثروة الدنيا وخيلائها.. فهو عبد الله». أما عن الهدية التى أرسلها، فدعا الله أن يجزيه خيراً على نيته الطيبة ويهديه إلى الصراط القويم. وقال إنه يعيدها إليه ومعها الرداء الذى يرغبه لنفسه ولرفاقه الذين يبتغون الآخرة (أرسل المهدى لجوردون رداء مرقعاً يرتديه الدراويش زياً).

بدأ السير إڤيلين بارينج بالقاهرة، يخشى التدفق اليومي للبرقيات غير المتسقة، بل والمتنافرة أحياناً، التى كانت ترد من الخرطوم..

كتب جوردون نفسه في يومياته يقول إنه لابد وأنه يمثل «السم القاتل؛ للمسئولين الذين يزنون الكلمات، وأضاف «أعجب كم كلفت البرقيات الواردة من السودان حكومة جلالة الملكة». ووفقاً للتعليق الدقيق الذى أورده ليتون ستراتسشى فى كتابه «شخصيات فيكتورية مرموقة» (١٩١٨) «لقد كان بين أناسه - شعبه الذين كان هو مسئولاً أمامهم - أمامهم ، لا أمام الله. أكان يدعهم يسقطون، دونما مقاومة، فى

براثن مدّعٍ دموى؟ أبداً! كان هناك ليمنع ذلك. قد يكون من المفهوم أن تُتمتم الحكومة المتواجدة بعيداً بأقوال عن «الجلاء»: لكن أفكاره كانت فى مكان آخر.. وقد عبر عنها بتدفق فى برقياته، وجلس السير إڤلين بارينج مشدوهاً مروّعاً.. كان الرجل الذى غادر لندن قبل ذلك بشهر «كي يكتب تقريراً عن أفضل الوسائل لتنفيذ الجلاء عن السودان» يتحدث الآن بصراحة عن القضاء على المهدى بمساعدة القوات البريطانية والهندية".

وبالرغم من هذا، لم تكن للتصرفات والأقوال غير المألوفة والشاذة تلك من دلالة للجمهور البريطانى الذى أسَرَهُ ذلك البطل الوحيد المطوق بالمحاربين الدراويش المتعصبين، فى حين مضى أعضاء مجلس الوزراء البريطانى، المنقسمون بين الصقور من أمثال وزير الحرب اللورد هارينجتون والحمائم من أمثال اللورد جرانڤيل، وزير الخارجية يرتجفون مرتبكين إلى ما لا نهاية. وفى مطلع أغسطس ١٨٨٤ وافق جلادستون أخيراً، وتحت ضغط هارينجتون، على تخصيص مبلغ ٣٠٠٠٠٠ جنيه استرلينى لحملة إنقاذ.. جنّد السير جارنت ولزلى، الخبير الإمبريالى في عمليات الأوامر السريعة ، جيشا لحملة خاصة بالقاهرة، لكن الصعوبات العملية أخّرت رحيله حتى أكتوبر، حيث بدأت القوة المكونة من عشرة آلاف جندى رحلة الألف وستمائة ميل الطويلة الشاقة إلى الخرطوم. وحينذاك، كان المتمردون قد قطعوا خطوط البرق، وكان الكولونيل ستورات، ومراسل التايمز فرانك پاور قد غادرا الخرطوم وهما يحملان رسائل، ليقتلهما أحد أنصار المهدى الذى تظاهر بأنه حليفهما.

بدأ جوردون الإعداد للمعركة النهائية، وفى يناير ١٨٨٥ تحقق سيناريو إنجلترا الكابوسى فيما اجتاح الدراويش بسيوفهم المعقوفة المدينة.. ووفقاً للرواية المعتمدة، قُتِل جوردون على سلالم القصر بواسطة أربعة مهاجمين عمالقة يشهرون السيوف، فيما صاح أحدهم «أيها الملعون ، لقد حان أجلك» حُمل رأس جوردون فى موكب انتصارى إلي المهدى ووضع على فرع شجرة متشعب ليصبح هدفاً للسخرية

وطعاماً للجوارح (يُعلق ستراتسشى ساخراً بالقول «وأخيراً، التقى المتعصبان بعضهما وجهاً لوجه»).

فى ٢٤ يناير ١٨٨٥ اعتلت قوة بريطانية طليعية قوامها عدة مئات من الجند متن سفينتين من قرية قريبة من أعالى النهر للمشاركة فى الانقضاض الأخير على الخرطوم. لكن السفينتين تأخرتا بفعل شلال النيل السادس الغادر، فوصلتا الخرطوم يوم ٢٦ يناير لتكتشفا أن المدينة قد سقطت بالفعل.. قوبل الكولونيل سير تشارلس ويلسون ، ضابط الاستخبارات وقائد القوة، ومن على شاطئ النهر بصيحات ابتهاج، و«الموت للإنجليز» . بدأ سيل منهمر من الطلقات والقذائف التى أطلقت من بطاريات على الشاطئ «فى قرع جوانب السفينتين مثل وابل البرد، فيما انطلقت القذائف بصوت صارخ فوق الرءوس. كان من الواضح جداً أن الخرطوم قد استسلمت ولم يعد العلم المصرى الذى كان جوردون قد رفعه مرئياً من خلال سحابات الدخان شعر به ويلسون أنه ليس ثمة خيار أمامه سوى الانسحاب بأقصى سرعة عائداً من حيث أتى. «بعد فوات الأوان». كان هذا هو التعليق على رسم كاريكاتورى نشرته مجلة پنش فى ٥ فبراير يوضح «شخصية» بريطانيا العظمى وقد انحنت حزناً وقهراً فيما جحافل المهدى تستولى على المدينة. «بعد فوات الأوان»، مقولة رددها كورس البرلمان والصحافة، وصاغ اللورد ألفرد تنسيون أمير الشعراء نحيبهم شعراً فى الأبيات التالية : «بيد من عاش من أجلهم مات / بلده، استيقظت بعد فوات الأوان / وتوّجت هامته الميتة بالثناء». وفى مسارح المنوعات ، عُكست الأحرف G.O.M (الرجل المسن المهيب، أى جلادستون) لتصبح "M.O.G” (قاتل جوردون Murderer of Gordon) فى أغنية خُماسية هزلية:

حينما تفارقه الحياة

سيمتطى قاتل جوردون عربة من نار

ويجلس فى أبهة
على سطح ملتهب
بين بيلاطوس ويهودا الإسخربوطي

كانت الضحية الأخري لسقوط الخرطوم هى إدارة جلادستون الليبرالية الثانية. أصر جلادستون الرجل المسن المهيب، وكان آنذاك قد بلغ عامه الخامس والسبعين، معلناً وسط صيحات الاستنكار أحياناً، أن جوردون كان عاصياً متمرداً .. قاوم رئيس الوزراء، بمرارة ، التلفظ حتى بمجرد كلمة ثناء على الجندى الصريع فى بيانه الأول أمام مجلس العموم. ولدى تلقيه رسالة من الملكة فيكتوريا مفادها أن التدخل العسكرى المبكر ربما كان قد أدى إلى إنقاذ جوردون رد رئيس وزرائها قائلاً إنه «لديه انطباع أن القوة التى قادها اللورد ولزلى كانت على درجة من الكفاءة تكفى لإنقاذ الخرطوم لولا أن جزءاً كبيراً منها تعذر وصوله فى الوقت المناسب نظراً للطريق المتمعج الذى سلكوه بالنهر، اتباعاً منهم لطلب الجنرال جوردون الصريح». بدا وأنه كان بغير استطاعة جلادستون استيعاب حقيقة أن جوردون قد أصبح فى المخيلة الشعبية شهيداً مسيحياً وربما مات ببسالة فيما كان يضطلع بمهمة مستحيلة لحكومة جاحدة. تخبّط الليبراليون المنقسمون المحبطون، وفى يونيو، قدم قائدهم المصر علي موقفه، استقالته.

وكما حدث فى حالة نظريات الدومينو بعد ذلك، لم تقع التبعات الرهيبة التى كان جوردون قد تنبأ بها. بعد ستة أشهر من سقوط الخرطوم، مات المهدى ميتة طبيعية وانتقلت قيادة التمرد إلى خلفه المختار، عبد الله بن محمد المعروف بالخليفة. ظل المحاربون الدراويش ، لما يربو علي العقدين، يصدون الغارات العقابية الأنجلو/مصرية، لكن المتمردين أثبتوا أنه ليس باستطاعتهم توسيع نطاق انتصاراتهم شمالاً إلى الداخل المصري، كما أن دعوتهم الجهادية لم تلق استجابة فى أنحاء أخرى من العالم الإسلامي. قنع السير إڤلين بارينج بالانتظار والترقب، ورغم أنه

كان قد شب على المبادئ الليبرالية إلا أنه شكل تحالفاً مثمراً مع اللورد ساليسبرى الذى كان آخر شخص من طبقة النبلاء يحتل منصب رئيس الوزراء . ومعاً اتفقا علي حَلّ «العلمين» للسودان، الذى بمقتضاه تصبح مصر شريكاً صامتاً أقل مرتبة مع إنجلترا فى حكم هذا الإقليم مترامى الأطراف. ومعاً أيضاً ، اتفقا علي استعادة الخرطوم من خلال هجوم شامل ضخم يقوده النجم الصاعد، الماجور هربرت كيتشنر ، المهندس المنهجى الذى بددت نَظْرته وشاربه وهيئته الصارمة جميع الشكوك حوله.

كان كيتشنر ، الذى اشترك مع قوة اللورد ولزلى للإغاثة الفاشلة مُلمّاً بالمنطقة. كان أيضاً قد قام بعمل مسح للأراضى المقدسة لحساب «صندوق فلسطين للتنقيب»، وكان يتحدث العربية، ويتوق للثأر لجوردون الذى كان يدعوه «أكثر الرجال نبلاً على الإطلاق». وبحلول عام ١٨٩٨، وبصفته سردار مصر، أو القائد العام للقوات المسلحة، قام كيتشنر بتجنيد ٢٥٨٠٠ رجل ثلثهم من البريطانيين، والباقى مصريون وسودانيون. أمد ساليسبرى مصر بقرض قدره ٩٠٠٠٠٠ جنيه استرلينى ، تحول فيما بعد إلى منحة، ثم اضاف إليه ٧٥٠٠٠٠ استرلينى لتأمين قوة هجانة، وخيول وبواخر مجدافية ومدافع. وكان الأهم من هذا هى الأسلحة الرشاشة ماركة ماكسيم – نورذنفلت التى كانت قد اخترعت لتوها. بعد ذلك هزم جيش كيتشنر خمسين ألفاً من المحاربين الدراويش من أتباع المهدى فى معركة أم درمان تلك المدينة المقابلة للخرطوم والتى كانوا متحصنين بها.

كان عدد قوة كيتشنر تبلغ نصف عدد قوات المهدى. تمثل خطأ الخليفة الفادح فى أنه أمر مقاتلين بشن هجوم مباشر فى ضوء النهار ضد ساحات قتال المشاة البريطانيين المسلحين بمدافع الهاويتزر وماكسيم. أسفرت المعركة عن قتل ما بين عشرين ألفاً وخمسة وعشرين ألفاً من المحاربين السودانيين (اختلفت التقديرات اختلافاً كبيراً) فيما لم يُقتل من القوات الأنجلو/ مصرية سوى ثمانية وأربعين

جندياً. سجل تلك العملية الملازم ثانى ونستوت تشرشل، الذى كان يعمل أيضاً مراسلاً حربياً لصحيفة الديلى تلجراف.

فى مشهد ختامى مروّع وصفته الملكة فيكتوريا بأنه «عصرأوسطى» تم نبش عظام المهدى من قبره وأُخذت جمجمته تذكاراً. (علق أحد الضباط البريطانيين مستنكراً بالقول (تم قذف عظام المهدي بعد ذلك فى النهر وأعتقد أن هذا أمر مناف للذوق). فكّر كيتشنر فى استخدام الجمجمة وعاءً للحبر، أو إناء للشرب، لكن بعد سماعة اعتراضات اقترح إرسالها إلى كلية الجراحين البريطانيين. يذكر فيليب زيجلر في كتابه «أم درمان» (١٩٧٤) أنه لدى سماع الملكة بهذا الاقتراح، عبرت بوضوح عن استيائها، ومن ثم، أبرق اللورد ساليسبرى إلى كرومر طالباً منه وقف هذا الهراء. رد كيتشنر، وقد شعر بالخجل ببرقية إلى القنصل العام تقول «أسف جداً أن اعتبرت جلالتها أن بقايا المهدى قد أسىء التعاطى معها بشكل غير مبرر سأمر بدفن الجمجمة بناء على رغبات الملكة».

وفى إلماحة أخيرة قصد بها تبيان ربِّ من كان أسمى مكانة وأوسع سلطة، رتب السردار أمر إقامة صلاة جنائزية فى شرفة المرتلين المهدمة بقصر جوردون بالخرطوم. حضر ذلك الطقس المسكونى أربعة كهنة - انجليكاني، ومشيخانى، وميثودى، وكاثوليكى - وكانت الذروة حينما رتلوا ترنيمة جوردون المفضلة.

علي الرغم من ذلك، ثبت ، بالنظرة الارتجاعية، أن معركة أم درمان كانت نصراً مشكوكاً فى أمره. من الصحيح أن دولة المهدية سُحقت ، وتم الثأر للجنرال جوردون ووفقاً لكلمات ستراتشى التى يستشهد بها كثيراً فقد انتهت المعركة «بمذبحة مجيدة لعشرين ألف عربى، وإضافة مساحة شاسعة للإمبراطورية البريطانية ولقب نبالة أرفع للسير إيفلين بارينج». لكن مدى المذبحة الهائل روع حتى البريطانيين الذين عادة لا يتميزون برهافة المشاعر، على حين أن ما أثبتته رشاشات ماكسيم من قدرة على القتل شجعت التوقعات الزائفة بإمكانية حدوث

انتصارات سهلة أخرى بأفريقيا . بعد عام توقع غالبية البريطانيين أن يقضى الجيش الإمبراطورى علي المزارعين البوير المقاتلين، فى هجمة سريعة. وليس أقل العواقب أهمية أن مجزرة أم درمان أدت إلى توسيع الهوة بين العالمين الإسلامى والمسيحي وبدءا من الخمارات وحتى النوادي، كان السمو الأوروبى يعتبر أمراً مسلماً به. تقلص تنوع المصريين وغدا الأوروبيون يقسمونهم إلى نوعين Gypos «أى خدم» و«Wogs» (وجهاء شرقيون Worthy Oriental Gentlemen أو أفندية). كان صوت ويلفريد سكووين بلانت من بين الأصوات القليلة ذات المكانة التى ارتفعت لتتساءل عن سبب عدم السماح للشعوب فى مختلف الأماكن أن يشنوا حروبهم الدينية ويقتلوا ملوكهم مثلما فعل البريطانيون فى زمن كرومويل. وعما إن كان المهدى ودولته الدينية فعلاً على هذا القدر من الوضاعة. وعما إن كان إثبات الأوروبيين مقدرتهم على إذلال الشعوب غير الأوروبية تخدم المصالح البريطانية فعلاً. فى حوالى العام ١٩٠٠ كان من النادر طرح مثل تلك الأسئلة سوى من قبل الكفرة من أمثال مارك توين، الذى كان يعتبر مجرد مهرج (أمريكى).

لم يكن من العوامل المساعدة أن الأوروبيين في مصر، كما فى أنحاء المشرق الاسلامى كانوا يسكنون أحياءهم المنفصلة منعزلين عن غالبية السكان، فى نسخة مبكرة لما يعرفه الأمريكيون اليوم بالمنطقة الخضراء فى بغداد. لم يكن هذا الحاجز ملموساً فى أى مكان بمثل ما كان عليه الوضع فى قاهرة اللورد كرومر. وكان ذاك الوضع قد قام علي الرغم من الإعلانات الرسمية المتكررة أن مثل هذا التقسيم غير مرغوب فيه.

أصر اللورد پالمرستون رئيس الوزراء الليبرالي السابق، والذى لم يكن يخجل من التأكيد علي المصالح البريطانية والضغط من أجلها، أصر قائلاً «نحن لا نريد مصر، أو لا نريدها لأنفسنا مثلما لا يريد أى رجل عاقل له ضيعة في شمال إنجلترا وقصر في جنوبها أن يمتلك النُزل والحانات الواقعة علي الطريق بينهما . كل

ما بوسعه أن يرغب فيه هو أن تظل تلك الحانات بحالة جيدة ، متاحة دائماً تمده كلما أتاها بوجبة من شرائح اللحم الضأن وبالجياد المجهزة».

لكن الحال كان غير ذلك. فمبجرد أن استقر البريطانيون كسلطة احتلال تحولت الحانات المعتنى بها إلى منتجعات استجمام فاخرة كما تمثل هذا فى مقار إقامة القنصل العام. فى البداية سكنت أسرة بارينج (كان إفلين قد تزوج عام ١٨٧٦ ابنة السير رولاند إرينجتون أحد الوجهاء من ملاك الأراضى) قصر القنصل القائم الذى تحول فما بعد إلى نادى الفروسية وبعد أن رأى بارينج أن هذا المسكن غير لائق ، قام بتصميم قصر ومقر مهيب (يحكم منه). كان هذا القصر يعرف بين الأوروبيين باسم «الوكالة» وأسماه المصريون «بيت اللورد». كانت قلعة كرومر تقع وسط القصور المطلة علي النيل علي بعد بضع مئات من الأمتار عن ثكنات قصر النيل البريطانية بحى جاردن سيتى الراقى. فيما بعد، توسعت الأراضى الملحقة بالقصر وأصبحت تضم حدائق، ومروجاً مجزوزة وحمام سباحة وحوض لرسو السفن على النيل ومخبأ إجبارى من الغارات (أثناء الحرب العالمية الثانية).

كان الكثير من العمل يجب أن ينجز. كانت نظم الإدارة المصرية عتيقة. أوضحت الطبعة الحادية عشرة من الموسوعة البريطانية (١٩١٠) أن «الدستور ولد ميتاً ولم يجد السير إفلين لدى وصوله لوحاً نظيفاً، بل برديات مهترئة شوهتها جهود ظلت قروناً تحاول بلغة مبهمة وصف نهجٍ لحكم ذاك الشعب الطيّع سلس القيادة». ومن ثم ، ومن أجل اجتذاب دعم متزايد للإصلاح، عاش السير إفلين والليدى إيفل حياة اجتماعية نشطة. احتوى جدولهما حفلات رقص، عروضاً مسرحية للهواة تقام بالقصر وحفلات عشاء. كانت الأخيرة شأناً معقداً حوى جميع مظاهر الأبهة حيث كان الخدم الهنود المعممون يقدمون الأطعمة الفاخرة النادرة. فى تلك المناسبات ، نادراً ما كان يتواجد المصريون. وحينما كان السير إفلين يجد نفسه بين دائرة حميمية من الأصدقاء، كان لا يمل من مناقشة الأدب الإغريقى والرومانى،

والروايات الفرنسية (التى كان يكرهها). لا يعنى هذا أن الشأن المصرى كان منسياً لا سمح الله. يروى موريس بارينج، الكاتب والدبلوماسى، أن عمه كان يُمتع ضيوفه بالبذاءات التى كانت تكتبها الصحافة المحلية عنه. استشهد السير إڤلين، مبتهجاً، بصحفى مصرى وصفه بأنه كان «يجمع نفاق وزلاقة تشادباند» {شخصية ذليلة فى رواية لديكنز} وخبث الشيطان ومكره.

يكتب الماركيز أوف زتلاند، كاتب سيرة كرومر المعتمد، أن البروقنصل، وفيما كان يتنجب الشهرة التى تقوم على سوء السمعة فإنه «كان يقدر أهمية تركيز اهتمام الجمهور المصرى على حقيقة واقع السلطة البريطانية». كان يسير بعربته فى شوارع القاهرة، شخصية مهيبة تستدعى الكثير من التعليقات. ووفقاً لأعراف هذا الزمان، كان يسبق عربته سياس يلوحون بعصى قصيرة وأكمامهم تتطاير. كان يزاول رياضة التنس، حينما يسمح الوقت، من أجل التدريب والمتعة. وكان، أثناء الأزمات الدورية التى تمر بها الأوضاع فى مصر، يوفر الوقت للعب التنس - ليس من أجل المتعة، بل ليتظاهر بعدم الاهتمام. فى فبراير ١٨٩٣، كتب يقول إنه أثناء أسوأ الأزمات كان يلعب التنس كل يوم كى يمنح الثقة للإنجليز ويتسبب فى بالغ الضيق للفرنسيين والآخرين".

حينما كان يذهب لزيارة الخديوى، كان القنصل العام يرتدى معطفاً رمادياً ضيقاً قصيراً، وقبعة بروقنصلية بيضاء مزينة بريشة. كان يحيط بعربته من الجانبين مرافقون من سلاح الفرسان بجاكيتاتهم القرمزية - واحد وعشرون من فرقة الرماحين الحادية والعشرين - لأنه، كما علق قنصل الولايات المتحدة العام آنذاك، ««لا يمكن اعتبار أية صورة فى القاهرة مكتملة ما لم تضم جنوداً. فالوجه العسكرى مرئى بشكل يكاد يكون عدوانياً.. دائماً ما تشاهد مسيرات لسرايا ووحدات من الجنود لدرجة أن يعتقد الزائر أن القاهرة معسكر حربى مترامى الأطراف».

لكن القاهرة كانت، فى واقع الأمر، أكثر من ذلك. كانت تسمى، عن حق ، باريس النيل، بعد أن استبدل الخديوى إسماعيل وسط المدينة عصر الأوسطى بجادات (شوارع تحفها الأشجار) عريضة على غرار تلك الموجودة بباريس والتى كان البارون جورج - يوجين هاوسمان قد صممها فيما بين عامى ١٨٥٠ و ١٨٧٠. أصبحت القاهرة فى عهد كرومر، أكثر المدن الإفريقية ازدحاماً بالسكان الذى بلغ عددهم ٣٧٤٠٠٠ شخص من المسلمين والأقباط والدروز واليهود والأرمن، هذا بالإضافة إلى عدد كبير من «الفرنجة» كما كان العرب يسمون الأوروبيين، بقدرٍ من الازدراء. آنذاك ، وخلافاً لدمشق وبغداد، كانت القاهرة بمناخها الشتوى الصحى وكنوز آثارها المتاحة، وجْهة مغرية للبريطانيين. من ثم، تضخم عدد الجالية البريطانية من ١٠٠٠٠ شخص عام ١٨٣٨، إلى ٩٠٠٠٠ شخص عام ١٨٨٠، وكانت الامتيازات الأجنبية من بين العوامل التى حفزت هذا التدفق (ظل هذا النظام الذى كان موضع بغض المصريين معمولاً به حتى إلغائه بالكامل عام ١٩٣٧).

كانت القاهرة تبدو للزائر الغربى مثل مشهد أوبرالى ملحق به مدينة. بالإضافة إلى الأهرام، كانت مئات المآذن والمساجد تزين الأفق، وعلى بعد خطوات من مركز المدينة الأوروبى، كانت ثمة مدينة شرقية تشكل صورة غريبة نابضة كتلك التى نراها فى أعمال داڤيد روبرت الفنية. وصف مارك توين ذلك المشهد وصفاً تصويرياً فى كتابه «الأبرياء بالخارج» حيث قال «الإبل المهيبة، أحادية السنام وثنائيته، المصريون ذوو البشرة الداكنة، وكذلك الأتراك ، والأحباش السود، معممين، متشحين، متوهجين بتنويعة ثرية من الألوان البراقة.. هذا هو المشهد الذى يراه المرء فى كل خطوة، تزدحم بهم الشوارع الضيقة والبازارات التى تشبه الكهوف». وبالتقابل، كانت أحياء المدينة الأجنبية الأكثر حداثة، فرنسية التصميم، تكثر بها الأسطح السندية (المنحدرة) ، مبانٍ صممها خريجو كلية الفنون الجميلة أثناء سنوات الازدهار الوهمى لشركة قناة السويس. كان الخديوى اسماعيل قد احتفل

عام ١٨٦٩ بافتتاح قناة السويس، وكرس لهذا الاحتفال دار الأوبرا التى أقامها حيث عُرِضت أوبرا عايدة، للموسيقار ڤردى، واستضاف الخديوى خُمْس شخصيات أوروبا الملكية ومن بينهم الإمبراطورة أوجينى والإمبراطور فرانس جوزيف من النمسا، وولى عهد إنجلترا وزوجته. أقيم فى الممر التجارى الذى كان يصل شارعين حديثين صفان من المحلات تعرض سلع الرفاهية الأوروبية. فى عام ١٩٠٨، علّق أحد زوار حى الإسماعيلية بالقاهرة بالقول إنه لم يكن بالإمكان رؤية أى شىء مصرى «سوى بواب سودانى يجلس على دكة خارج قصر منيف، وكان الرجل يكاد يختفى خلف النخيل والشجيرات الاستوائية».

كانت الفرنسية هى اللغة المهيمنة التى يتحدثها النخبة من السياسيين ورجال الأعمال والصحافة بالقاهرة. وبالرغم من ذلك، فبحلول ثمانينيات القرن التاسع عشر كانت ثلاثة أرباع السفن التى تعبر القناة بريطانية، وكانت كلها تقريباً تتجه إلى الهند أو من الهند. كانت اللغة الانجليزية الدارجة تُسمع فى كل مكان بملاعب التنس بنادى سبورتنج، وبصوت أعلى بين الضباط الذين كان يزدحم بهم بار فندق شبرد. لاحظ ذلك المشهد ويليام فولرتون أحد رحالة القرن التاسع عشر حيث كتب يقول «فى وجود لعبة البولو، والكرة، وسباقات الخيل، تترك القاهرة انطباعاً عليك كمدينة إنجليزية يحافظ فيها على كمٍ من المشاهد الشرقية لإرضاء الذائقة الجمالية للسكان، تماماً مثلما يُبقى مالك لضيعة ريفية على مكان يحتفظ فيه بحيوانات الصيد، أو بمنتزه للغزلان، من أجل تسليته. حتى أن الحمير والجمال التى يركبها السياح إلى الأهرام سميّت بأسماء الخيول البريطانية الفائزة فى سباق دربى، أو بأسماء رؤساء الولايات المتحدة».

لم يكد الزوار الذين كانوا يصلون على متن سفن توماس كوك التجارية، والذين كانوا عادة ينتقلون من الإسكندرية إلى القاهرة بالدرجة الأولى بقطارات السكك الحديدية التى أنشأها روبرت ستيفنسون الأسطورى. كانت الهوة الساحقة بين

عوالم القاهرة المتباينة مضمرة فى أحاديث إڤيلين بارينج على المائدة. فعلى حين أنه كان يُتقن الفرنسية، والإيطالية، واليونانية الحديثة، وكان لديه إلمام بالإغريقية والرومانية، فلم يتعلم كرومر العربية أبداً، وبدلاً من ذلك ، كان يستخدم أساسيات اللغة التركية ليتحدث إلى النخب المحلية.. ليس من المستغرب أن نظر كثير من المصريين إلى الحى الأوروبى كورمٍ كيسىّ غريب عن جسد مدينتهم، نموّ مهين لا يمكن استيعابه .. كما أنه لم يكن مفاجئاً أنه حينما تقاعد القنصل العام سنة ١٩٠٧، كان الاحتفاء به فى وطنه أكثر إطراء بكثير من مراسم رحيله الصقيعية. حضرت الجالية الأوروبية المستعمِرة بكامل قوتها خطاب الوداع الذى ألقاه لكن لم يكن بين الحضور سوى ثلاثة مصريين متجهمين وقاطع الباقون تلك المناسبة. وكما علق رونالد ستورز مساعده المخلص علي رحيل اللورد كرومر (أعظم راعٍ أجنبى عرفته أية أمة شرقية، وفقاً لستورز). فقد مرت عربته «فى شوارع أصطفت على جانبها قوات مسلحة وسط صمت يفوق الجليد برودة».

تعزى البرودة، جزئياً، إلى حدة الغضب الذى أثاره سلوك اللورد الاستبدادى أثناء سنواته الأخيرة، والذى يوضحه إصراره على تعيين المزيد من «المستشارين» البريطانيين للوزراء المصريين؛ وأيضاً إرهابه الخديوى عباس الثانى وتنمره عليه لإصراره على حقوقه كحاكم لمصر بالتقابل مع خليفته؛ وكان من بين تلك العوامل أيضاً إهماله للتعليم. (الأمر الذى استهان به ألفريد ميلنر فى كتابه واحتواه ضمن فصل بعنوان «منوعات متفرقة»). أما العامل المباشر فقد كانت سحابة «حادث دنشواى» القاتمة التى خيمت على رحيله وكان الحادث قد وقع قبل عام من تقاعده.. ورغم أن تلك الحادثة قد تم نسيانها بالخارج إلا أن تفاصيلها مازالت حية مألوفة لدى جميع التلاميذ المصريين . كان قد تم شنق أربعة فلاحين وجلد ثمانية بضراوة لاشتباكهم في مشادة مع خمسة ضباط بريطانيين كانوا يصطادون الحمام والسمان بقرية دنشواى. ولسوء الحظ، توفى أحد الضباط البريطانيين فى ملابسات

مبهمة خلافية، لكن الأمر الذى لا خلاف عليه هو أن الضباط كانوا يعلمون بالتأكيد أن تربية الحمام كانت هواية شعبية فى قرية دنشواى. صدرت أحكام الإعدام عن محكمة خاصة تشكلت من بريطانيين ومصريين وترأسها أحد الوجهاء الأقباط واسمه بطرس غالى (اغتاله لاحقاً أحد الوطنيين الغضبى، وأصبح حفيده أمين عام الأمم المتحدة)، وبمساعدة كتابات ويلفريد سكاون بلانت الذى ذكر (أن دنشواى لم تكن خطأً فى التقدير بل جزءاً من نظام استهان بجميع مبادئ القانون الحضارى) أصبحت دنشواى حديث الدوائر السياسية فى بريطانيا، وأثارت أسئلة غاضبة فى مجلس العموم. رأى ناقدو كرومر الإعدامات على أنها سخرية مريرة من تأكيداته على مهمة بريطانيا الحضارية. طلب برنارد شو من قرائه أن يحاولوا تخيل رد الفعل فى قرية إنجليزية «فى حال ظهر فيها فريق من الضباط الصينيين، ومضوا يصطادون البط والأوز والدجاج والديوك الرومى وحملوها وهم يؤكدون أنها طيور برية كما يعلم هذا الجميع فى الصين، وأن غضب الفلاحين المفتعل ما هو إلا غطاء للكراهية ، بل ربما لمؤامرة للإطاحة بالديانة الكونفوسيشية وإرساء عقيدة كنيسة إنجلترا مكانها».

سعى كرومر الذى كان فى وضع دفاعى ، وقد لدغته السخرية، إلى شرح طبيعة السلطة الإمبريالية وأعبائها الثقيلة لنقاده الغافلين. أوجز عنوان مقاله عام ١٩٠٨ بصحيفة أدنبره ريڤيو نظرته «حُكْمُ الأعراق التابعة الخاضعة». ثم اعترف، من منظور أقل تعصباً، فى فقرة رؤيوية من خطاب نشر عام ١٩١٠ بعنوان «الإمبريالية قديماً وحديثاً"، اعترف بوجود تناقض ثابت لا يتزحزح. لاحظ أن الرجل الإنجليزى، كإمبريالى «يبذل جهده لتحقيق مثالَيْن يحتمل لهما تدمير بعضهما - مثال الحكومة الصالحة الذى يتلازم معه سموه وسيادته (أى الرجل الأبيض) ويرتبط به، ومثال الحكم الذاتى الذى ينضوى على التنازل الجزئى أو الكلى عن موضعه الاسمي».

هل من الممكن التوفيق بين هذين الهدفين؟ هل من الممكن للأعراق التابعة مثل

المصريين أن يحصلوا أبدا علي مهمة الحكم الذاتى؟ قال إنه يخشى أنهم بطبيعتهم ذاتها غير قادرين على التفكير العقلانى. عالج الموضوع بإسهاب فى كتابه الضخم «مصر الحديثة» حيث رأى أن افتقادهم للدقة والانضباط الفكرى سرعان ما يتردى ليصبح خداعاً، وهى سمة يُعرّف بها العقل الشرقى : «بأن الأوروبى يفكر بصرامة منطقية ؛ تخلو تعبيراته عن الوقائع من أى لبس؛ إنه عالُم منطق بطبيعته بالرغم من أنه قد لا يكون قد درس المنطق أبداً، هو بطبيعته متشكك ويتطلب البراهين قبل أن يقبل بحقيقة أية فرضية، يعمل ذكاؤه المدرب مثل جزء من آلة ميكانيكية. وبالمقابل، فإن عقلية الرجل الشرقى، مثل شوارعه المثيرة الغريبة، تفتقد الاتساق بشدة ووضوح، تفكيره عشوائى واستنتاجاته متهورة.. حاولْ أن تستخلص من مصرى عادى إفادة واضحة عن الوقائع، وستجد أن تفسيراته مستطالة بعامة، وتفتقد السلاسة والوضوح. وربما ناقض نفسه مرات عديدة قبل أن يكمل قصته».

يبدو أنه من المفارقات أن كرومر، وفيما كان يعبر عن شكوكه الخطيرة حول قدرة المصريين العاديين العقلية، فإنه لم يبذل أى جهد للارتقاء بالمدارس المصرية. وكما يبين بيتر منسفيلد فى كتابه «البريطانيون فى مصر» (١٩٧٣) فقد كانت ميزانية التعليم أثناء العقد الأول من توليه منصب القنصل العام أقل مما كانته فى ظل الخديوى إسماعيل : «أثناء سنوات كرومر بمصر جميعها لم يتعد ما أنفق على التعليم ١٪ من إجمالى الدخل القومى». وعلى الرغم من ذلك ، اشتكى كرومر عقب تقاعده من أن «غالبية المصريين مازالوا غارقين فى عمق أعماق الجهل، وأنه لابد لهذا الجهل أن يستمر بالضرورة حتى ينمو جيل جديد».

لِم إذن، الحط من التعليم؟ يقترح روجر أوين، كاتب سيرة كرومر المتعاطف، تفسيراً يراه منطقياً، وهو أنه ، ومثل خدام «التاج البريطانى Raj» الآخرين بالهند كان كرومر على قناعة بأن تعليم ما يزيد على نخبة هندية صغيرة قد أدى إلى إنتاج عدد زائد من مثيرى الشغب من ذوى التعليم العالى العاطلين.

وأياً كان ما افتقدته مصر بعد كرومر، فهي لم تفتقد أبداً مثيري الشغب المتحمسين. عمل النظام الذى جسده «اللورد» على إذكاء المشاعر المريرة وعلى اغتراب حتى المصريين الذين كانوا أكثر قرباً عن «مستشاريهم» البريطانيين. وفيما توالت عقود ما بعد كرومر، غدا سؤال مكانة مصر ووضعها أكثر إبهاماً. رغب السير إلدُن جورست، خليفته المباشر، فى منح المصريين قدراً أكبر من سلطة البت فى شئونهم الخاصة، وكانت تلك سياسة موائمة للحزب الليبرالى الذى كان قد عاد إلى السلطة فى ظل الحكومة التي ترأسها هربرت أسكويث. لكنه وجد أن المشكلة تمثلت فى أنه كلما مُنِح المصريون «نتفة» سلطة ، كان الوطنيون يصخبون مطالبين بالحصول على الوجبة كاملة، وأما المتعاونون مع البريطانيين، فكانوا موضع شجب بصفتهم خونة مرتدين. فى عام ١٩١٠، هبطت سلطة أسكويث إلى الحضيض إثر مقتل بطرس غالى الذىٰ كان جورست قد زكّاهُ رئيساً للوزراء. أدان إبراهيم الورداني، بطرس غالى الأرستوقراطى القبطى، بالخيانة لأنه وافق عام ١٨٩٩ على اقتسام سيادة مصر على السودان، واتهمه بالتذلل لشركة قناة السويس، هذا علاوة على ترؤسه محكمة دنشواى، ومن ثم قام باغتياله. وعلى إثر ذلك، احتشد الطلبة فى شوارع القاهرة وهم يهتفون «الوردانى الوردانى، اللى قتل النصرانى».

أضمرت جملة واحدة في مذكرات جورست جوهر نظرته الساذجة، حيث كتب يقول عن منصبه «ليس ثمة مكان فى طول الإمبراطورية البريطانية وعرضها، يتمتع فيه المحتل بحرية اتخاذ القرارات والإجراءات تفوق تلك التى يتمتع بها مفوض بريطانيا وقنصلها العام بمصر» – متناسياً أن مصر لم تكن أبداً جزءاً من الإمبراطورية البريطانية.

مثل شذوذ وضع مصر ارتباكاً كبيراً أثناء الحرب العالمية الأولى، حينما تحالفت تركيا – صاحبة السلطة الرسمية على القاهرة – مع ألمانيا وأعلنت الحرب على بريطانيا. آنذاك، كان كيتشنر قد خلف جورست قنصلاً عاماً، ورغم مسعاه إلى

خلع بذته العسكرية عنه واستبدالها بسترة القنصل الرمادية، إلا أنه ظل يعرف بالمارشال كيتشنر. تميزت فترة توليه منصبه بالقاهرة بسلطانه الملكى، وببروزه الدراماتيكى عام ١٩١٤ ليصبح القائد الأعلى للمجهود الحربى البريطاني. وبتعاونه، لم تعد مصر إقليماً عثمانياً وأصبحت محمية بريطانية. أصبح الخديوى سلطاناً، وتحول القنصل العام إلى مندوب سامٍ. لكن فيما تطورت الحرب لدى دخول أمريكا عام ١٩١٧، لتصبح حملة للديمقراطية وتقرير المصير وتعهدات بها افترض المصريون، منطقياً، أنها تنطبق عليهم. لكن هذا لم يحدث.

اكتشف القادة المصريون الذين حاولوا مراراً الاتصال بالرئيس الأمريكى وودرو ويلسون أن برقياتهم كانت تُمنع بأوامر رسمية؛ ولم يسمح لهم أيضاً بعرض مظالمهم على مؤتمر باريس للسلام، حيث كان المنتصرون يقسمون الشرق الأوسط فيما بينهم. اندلعت التظاهرات وأعمال الشغب بالقاهرة، وفُرضت الأحكام العسكرية، والتجأت الحكومة البريطانية برئاسة دايفيد لويد جورج الليبرالى، وقد أقلقها الوضع إلى الآلية المجربة أى إرسال بعثة لتقصى الحقائق. ومن كان رئيسها؟ لا أحد سوى اللورد ألفريد ميلنر مؤلف كتاب «إنجلترا فى مصر» المرموق، والذى بعد خدمته الشاقة بمجلس وزراء الحرب تأهل رسمياً ليكون «إمبرياليا جديداً». آنذاك ، عبّر عن تعاطفه مع شكاوى المصريين، فيما سافر هو وزملاؤه إلى القاهرة واستمعوا إلى الوطنيين، وجاء التقرير النهائى للبعثة إقراراً بالحقائق غير المريحة : «لم نواجه أبداً المشكلة المصرية بصراحة، وإهمالنا فى ذلك مسئول بقدر عن الوضع الحالى . يبدو دائماً أن الافتراض البدهى فى الأحاديث والكتابات الراهنة فى هذا البلد هو أن مصر جزء من الإمبراطورية البريطانية. لكن ليس هذا هو الوضع الآن ولم يكن هكذا أبداً» (هذا على الرغم من أن التقرير أقرّ بأن بريطانيا، فى الممارسة العملية «كانت تتحكم فى الشئون الخارجية والداخلية لمصر»).

ما العمل إذن؟ اقترح ميلنر ورفاقه اتفاقية جديدة تعترف بمصر مَلَكية مستقلة، لكنها تحوى بنوداً تحمى الرابطة الإمبريالية وأهمها منح بريطانيا الحق في الاحتفاظ بالقواعد العسكرية والدفاع عن سلامة الأراضى المصرية - بإيجاز ، تصبح مصر شبه محمية بريطانية. هاجم الوطنيون المصريون هذه التسوية بصفتها غير كافية، كما هاجمها المتشددون البريطانيون الذين اعتبروها استسلاماً (لم يشترك اللورد كرومر، راعى ميلنر، فى النقاش لأنه توفى عام ١٩١٧م). وأياً كانت عيوبه، فقد مهد التقرير الطريق لإعلان عام ١٩١٧ الذى أقر بأن مصر لم تعد محمية بل دولة ذات سيادة. وبناء عليه ، يسمى السلطان ملكاً، والمندوب السامى البريطاني سفيراً. حينما توفى الملك فؤاد عام ١٩٣٦، ضغط وريثه الشاب، والأكثر حزماً ، بنجاح من أجل معاهدة أنجلو/ مصرية تعالج المظالم المستمرة. وفى انتصار لمصر ، ألغت المعاهدة الامتيازات الأجنبية، بيد أنه وكما كان الأمر سابقاً، احتفظت بريطانيا بحق غير مشروط لإعادة احتلال مصر، واستخدام موانيها ومطاراتها وطرقها فى حالة نشوب حرب.. وحسب رأى بيتر منسفيلد المحمّل بظلال المعاني، والذى أورده فى كتابه «البريطانيون فى مصر» : إذا كان إعلان ١٩٢٢ قد منح مصر شبه استقلال، فقد قطعت معاهدة ١٩٣٦ نصف الطريق المتبقى». هذا الشطر من الشطر كان كافياً لجعل مصر حليفاً مُحجّباً أثناء الحرب العالمية الثانية.

مثل الإسكندر وقيصر، أو مثل نابليون ونلسون، أدرك كل من تشرشل وهتلر أن السيطرة على مصر كانت حاسمة من أجل التحكم فى سيناء ومسالكها إلى آسيا. كانا يعلمان أن ظلال مصر كانت تصل من السويس إلى رمال ليبيا، ومن البحر الأحمر إلى دلتا النيل ومن الإسكندرية إلى الخرطوم. وعلى الرغم من أن مصر كانت محايدة ظاهرياً أثناء الحرب العالمية الثانية (على الأقل حتى عام ١٩٤٥ حينما أعلنت الحرب كى تنضم إلى الأمم المتحدة المنتصرة) فقد كان امتلاكها هو جائزة كل الجوائز. استدعي چان موريس، بحيوية فائقة ، مركزية مصر. كان موريس

مراسل التايمز بالقاهرة فى الخمسينيات، واتخذ من مركب نيلى مسكناً له ظل معروفاً لعقود عديدة لكل ترجمانٍ بمصر. يقول فى كتابه «وداعاً أيتها الطبول» (١٩٧٨) إن القاهرة ، فى الأربعينيات، كانت العاصمة العسكرية للإمبراطورية البريطانية «كانت آخر محطة لتجميع القوات الإمبراطورية، آخر مكان كانت الفيالق الإمبريالية تتمازج فيه فى تنوع مذهل وسط مشهد غرائبى عن حق. أثناء السنوات الأولى للحرب، كان بالإمكان رؤية جميع الأزياء العسكرية الإمبراطورية بالقاهرة : الكيلتات الإسكتلندية، والعمائم ، والطرابيش، والقبعات المترهلة وبنطلونات ركوب الخيل. كان هناك الكينيون الذين يمهدون الطرق، والبغالون الهنود، وأطقم دبابات أستراليون، ومدفعيون إنجليز، وقائدو طائرات مقاتلة من نيوزيلاندا، ومهندسون من جنوب إفريقيا.. ظلت القاهرة، ظاهرياً، مدينة إمبراطورية لمدة ستين عاماً، وعلى الرغم من أن مصر كانت قد نالت استقلالها اسمياً عام ١٩٣٦، وكانت محايدة رسمياً فى الحرب، فقد كانت العاصمة بأكملها، فى واقع الأمر، قاعدة عسكرية بريطانية». من الطريف أنه كان ثمة أغنية هزلية اعتاد جنود الإمبراطورية ترديدها ببارات القاهرة وثكناتها وأثناء الحرب. تقول كلمات الأغنية: إنه على الرغم من أنهم لم يبرحوا أماكنهم أبداً، ولم يذهبوا أبعد من منطقة الجزيرة والأهرامات، وأنهم خاضوا الحرب وهم جالسون ببارات شبرد والكونتنتال، إلا أنهم مُنِحوا نيشان نجمة إفريقيا.

كان هذا هو المشهد عام ١٩٤٢ حينما وجد السير مايلز لامبسون السفير البريطانى أن عليه التعاطى مع فعل تمرد أتى به الملك فاروق، الذى اعتاد السفير أن يشير إليه بـ«ذلك الولد، أو الصبى» (كان فاروق فى الثانية والعشرين). رفض فاروق تعيين النحاس باشا رئيساً للوزارة الجديدة التى كان لامبسون قد اقترحها. خيَّر لامبسون، بدعم من تشرشل رئيس الوزراء البريطانى نافد الصبر، والذى كان فى حاجة ماسة إلى تحقيق انتصار فى شمال إفريقيا، خيّر الملك بين التنازل عن

العرش أو الخضوع. تصادف وجود وولتر مونكتون ، المحامى الذى صاغ عريضة تنازل الملك إدوارد الثامن عن العرش، تصادف وجوده بالقاهرة. أقنع لامبسون مونكتون بصياغة عريضة مماثلة تم نسخها على الآلة الكاتبة على ورقة من أوراق السفارة، قُصَّ بأسلوب مرئى جزؤها الأعلى المكتوب عليه اسم السفارة.

وصل لامبسون فى سيارته الرولز رويس الفارهة إلى قصر الملك ترافقه حاشيته بأزيائهم الرسمية، وهو يحمل الورقة فى يده حيث أبقاه الملك ينتظر خمس دقائق كعادته كدلالة على استقلاله. كانت تلك لحظة لا تُنْسى بالنسبة للامبسون ، ذلك الرجل الضخم، الذى كان طوله يقارب المترين، له بنية مصارع ، وكان صياداً وراقصاً، وخَيّالاً، وحتى طياراً لا يعرف الكلل. كان يسكن ، كأسلافه من ذوى السلطان، فى قلعة اللورد كرومر. والآن، كان السير مايلز فى سبيله لاستعراض سطوته بأكثر الأساليب فجاجة (كتب فى مذكراته يقول "لا تتاح للإنسان كثيراً فرصة إزاحة ملك عن عرشه") .

بدأ لامبسون يقرأ لائحة الاتهام موجهاً إلى الملك تهمة مساعدة النازيين (الذين بدوا ، لحظة ذاك، وأنهم يكسبون)، وأضاف أنه ، وعلى أية حال، ونظراً لسلوكه الأرعن المتهور «لم يعد صالحاً للجلوس على العرش». ثم، وعلى وقع جلبة العربات المصفحة والدبابات وهى تصل إلى فناء القصر، سلم فاروق عريضة التنازل التى كان نصها «نحن فاروق، ملك مصر، ولحرصنا على الدوام على مصالح بلدنا، نتنازل بموجب هذه الوثيقة، ونتخلى ، بالنسبة لنا ولورثتنا من صلبنا، عن عرش مملكة مصر، وعن جميع الحقوق والامتيازات والسلطات الملكية على المملكة المذكورة وعلى رعاياها، ونعفى رعايانا المذكورين هنا من الولاء لشخصنا».

وبعد أن اشتكى من مظهر الوثيقة غير اللائق، رفع فاروق قلمه ليوقعها. توقف، وقد اهتز بوضوح، وسأل عما إن كان بالإمكان منحه فرصة واحدة أخرى. وهكذا انتهت الدراما بإنقاذ الملك عرشه من خلال الموافقة على تعيين وزارة يرضى عنها

البـريطانيـون ، وبذا خـسـر إلى الأبد احـتـرام شـعـبـه. وبعـد أن مر وسط الدبابات والجنود المسلحين بالمدافع الرشاشـة، عاد لامبـسـون إلى سفارته شـخـصـاً منتشياً. جاء فى تقريره إلى لندن «يكفى هـذا القدر من أحداث مصر التى أعتـرف أنها كانت متعة لا تعادلها أية متعة أخرى بالنسبة لي». رد عليه وزير الخارجية أنطونى إيدن «أهنئك من كل قلبي.. تبـرر النتيـجة أسلوبك الحـازم، وثقـتنا بك». أمـا فـاروق فـقـد تقلص ليـصـبح زير نسـاء يتـذكره الناس لبدانته وحـيـاته الداعرة، ومـقـولتـه بأنه لن يتبقى فى العـالم سـوى خـمسـة مـلوك، أربعة ملوك كوتشينة وملكة إنجلترا. ثم أتى وقت الحساب عام ١٩٥٢، حينما أطيح بعرش فاروق من خلال ثورة قام بها الجيش المصرى حيث كان خضوعه الجبان للسفير البريطاني مازال ماثلاً كذكرى مهينة.

الفصل الثانى

سطوة الإمبراطورية يخطط لها زوجان
فردريك چون ديلترى لورد لوجارد أوف أبينجر
(١٨٥٨ - ١٩٤٥)
وفلورا شو ليدى لوجارد
(١٨٥٢ - ١٩٢٩)

الفصل الثانى

"قال الفيلسوف والمؤرخ بيرك بوجود ثلاث سلطات مرئية فى البرلمان؛ لكن كان ثمة سلطة رابعة تجلس فى شرفة المراسلين، أهم منها جميعها بكثير. ليس هذا مجازاً أو مقولة طريفة بارعة، إنها واقع حَرْفىٌّ – واقع بالنسبة لنا فى هذه الأيام"

– توماس كارلايل، من محاضرته بعنوان

"البطل ككاتب ١٩ مايو ١٨٤٠"

وفى بداية العصر الڤيكتورى، كانت الكلمة المكتوبة قد تبدت بكل سطوتها، تلك الكلمة التى تدفقت بقوة وعنفوان وانتشرت من حافة كورنول إلى الجزر الإسكتلندية. ليس هذا مجازاً، أو مقولة، طريفة بارعة، بل إنها واقع حَرْفى. لم يبز أى شعب البريطانيين من حيث ولعهم بالصحف. أثبتت متتالية من الأحداث - إلغاء قوانين الطوابع والدمغات (التى شُجِبت بوصفها "ضرائب على المعرفة")، مَقْدِم البرق والسكك الحديدية، اختراع المطبعة الدّوارة، وأهم من ذلك محو الأمية شبه الكامل - برهنت على أنها هدية من السماء للكتاب الڤيكتوريين وأصحاب الأعمال الذين يوظفونهم. استمر هذا الولع بالكلمة الصحفية وثابر. بعد قرن من محاضرة كارلايل، أثبتت استطلاعات الرأى والمسوحات أن ٩٠٪ من السكان البريطانيين يقرأون بانتظام صحيفة يومية قومية واحدة على الأقل - أى ضعف أمثالهم من

الأمريكيين وثلاثة أضعاف الفرنسيين. وفي وجود ثلاثين مليون نسخة من الصحف يومياً بالاكشاك أو على عتبات المنازل عام ١٩٥٧ (مضافاً إليها بضعة ملايين أخرى أيام الآحاد) كان بإمكان فرانسيس ويليامز خبير شارع الصحافة (Fleet Street) بلندن أن يزعم أنه "لم يحدث وأن حقق أي نتاج آخر للحضارة الحديثة مثل هذا الإغراق الكامل لسوقه المحتمل".

اعتمد توسع الإمبراطورية الڤيكتورية منقطع النظير بأسلوب حاسم على ثورة المعلومات مبكرة النضج ببريطانيا.. أرست التايمز معدل التقدم والسرعة.. عام ١٩٣٧ ومن أجل الإسراع بالأخبار من أوروبا، نظّمت بريداً بالحمام الزاجل ينطلق من باريس إلى سفينة ترسو بالانتظار في بولونيا (كانت الطيور تقطع المسافات في أربع ساعات مقارنة بالأربع عشرة ساعة التي كان يحتاجها المراسلون البشر).

آنذاك، كان الحصول على تقارير من كلكتا عاصمة الحاكم البريطانى يستغرق حوالى أربعة أشهر، وأمكن للتايمز تقليص هذه المدة إلى سبعة أسابيع باستخدام طريق أرضى قصير من السويس إلى سيناء. ثم يدخل البرق إلى المشهد، وكان ذلك تطوراً خطيراً بالنسبة للسلطة الرابعة يماثل اختراع جوهان جوتنبرج للطباعة بالحروف المعدنية المنفصلة. عام ١٨٤٤، أدهشت التايمز قراءها بنقل أنباء ولادة ثانى أبناء ڤيكتوريا بونديسور فى غضون أربع ساعات باستخدام نظام البرق الجديد بمحطة سكك حديد جريت وسترن. وفى عام ١٨٥١، أى عام "المعرض الكبير" عَبَر القناة بالإنجليزية كابل تحت الماء، ومنذ آنذاك مضت الوصلات التلغرافية تتمدد بثبات فوق الأرض لتصل إلى روسيا والهند، وتحت البحار إلى سنغافورة والصين واليابان، وعبر الأطلسى إلى شمال أمريكا وجنوبها، وفى النهاية، إلى قلب إفريقيا. أضفيت القداسة الطقوسية على هذا التجمع الإمبراطورى الموصول بالأسلاك يوم ٢٢ يونيو ١٨٩٧، فى العيد الماسى لڤيكتوريا. بعثت الملكة وهى جالسة بغرفة البرق بقصر باكينجهام خلال ثوانٍ برسالتها إلى جميع أجزاء مملكتها مترامية الأطراف: "من قلبى، أشكر شعبى فليباركهم الله" احتفت به التايمز عيداً بريطانياً كونياً وهللت له. جاء بافتتاحيتها "بالإمكان تفحص التاريخ، وتفحصه دونما جدوى، من أجل اكتشاف مثل هذا العرض المذهل للولاء والأخوة بين هذه الأعداد الغفيرة والتنوعات التى لا تحصى من البشر".

لكن لم يكن تأثير التايمز يعزى بقدر كبير للتكنولوجيا، أو الرسومات والصور الآسرة. بل على العكس، فقد كانت تتجنب العناوين البراقة الخاطفة.. وحقاً، فقد نشرت فى ثلاثينيات القرن العشرين بعضاً من أكثر العناوين رتابة (زلزال صغير فى شيلى: وفيات قليلة). وحتى ستينيات القرن كانت صفحتها الأولى تتألف من نثريات الحياة اليومية - المواليد، الزيجات والوفيات؛ رسائل شخصية مشفرة ورزينة؛ وإعلانات مبوبة. بيد أن ما اعتادت أن تقدمه بوفرة كان هو مصادرها

الموثوقة ومرجعياتها، رواياتها الخاصة للأحداث. لم تكن الأخبار التى تنشرها والأحكام التى تصدرها تحمل أية توقيعات، وبدت وأنها كانت تنبعث من مصدر ما فى السماء. وكان مراسلوها بالخارج يلقون معاملة شبه ملكية، وتتاح لهم دون غيرهم، فرصة الوصول للنخب وصناع القرار الحاكمة. مثلاً، تمكن هنرى چورچ ستيفان أدولف أوير وبلوتيتز، الذى عمل مراسلاً للصحيفة بباريس لثمانية وعشرين عاماً، من اختراق حائط السرية الذى أحاط بمؤتمر برلين عام ١٨٧٨، وذلك بزرعه مصادر موثوقة نافذة فى ذلك المؤتمر. اجتمعت القوى العظمى لتناقش فى سرية تامة "المسألة الشرقية" المقلقة، والممعنة فى القدم؛ وعلى الرغم من ذلك كان بلووتيتز يرسل لصحيفته تقارير يومية عما يحدث خلف الأبواب المغلقة. توّج انتصاره بأن أبرق النص النهائى غير المنشور لمعاهدة برلين، وتم نشره حصرياً بالتايمز (فيما بعد، زعم بلووتيز أنه، وشخص داخلى مطّلع، كانا يتبادلان القبعات بأحد المطاعم الراقية، حيث كان مُخبره يخبئ الأخبار اليومية فى قاع قبعته). وفى أمريكا، رحب إبراهام لنكولن أثناء الأشهر الأولى من الحرب الأهلية بوليام هوارد راسل مراسل الصحيفة الحربى الأسطورى، ووصف التايمز بأنها "إحدى القوى العظمى فى العالم".

من ثم كان اهتمامنا فى هذا الكتاب، بفلورا شو التى تركت بصمتها، مجازياً وحرفياً، على الإمبراطورية البريطانية. حدث ذلك إبان عملها محررة التايمز الكلونيالية ومراسلتها الخاصة فى المستعمرات التى كانت تغطى إفريقيا من القاهرة وحتى الكيب.. أثناء هجراتها وتنقلاتها حازت إعجاب اللورد كرومر، والفايكونت ميلنر، وسيسيل رودرس، وچورچ جولدى، وأيضاً اللورد لوجارد البروقنصل الذى تزوجته فيما بعد، وصادقتهم جميعا. حينما سمع اللورد كيرزن بخطبتها للوجارد ارسل له تهنئة سريعة متسائلاً "أهى ميس شو؟" ثم أضاف "لو أنها غيرها أتمنى أن تكون بمثل ذكائها وألا تقل عنها سحراً". لكنها كانت هى

ذاتها، تلك التى وُصفت بأنها أكثر نساء الإمبراطورية البريطانية ذكاء، والتى نجحت فى تبوّء مكانة بالسلطة الرابعة أعلى من أية امرأة معاصرة لها. كانت أول من سجل اسم "نيچيريا" طباعة، حيث أصبح زوجها فيما بعد المندوب السامى المؤسس بذاك البلد. مثّل كتابها "تبعية كلونيالية Colonial Dependency" أول محاولة بريطانية لتسجيل التاريخ الإفريقى قبل وصول الأوروبيين.. وعلى الرغم من أن مؤلفته كانت "سيدة رفيعة المقام من الإمبراطورية البريطانية ADame of the British Empire" (وهو لقب خُلِع عليها لعملها مع اللاجئين أثناء الحرب العالمية الأولى)، وأيضاً على الرغم من تبنيها منظور "الرعاية الأبوية" البريطانية المتغطرس للشعوب الإفريقية، فقد ألهم كتابها أبطالاً أفارقة محررين مستقبليين من أمثال ننامدى أزيكوى أول رئيس لنيچيريا، وكوامى نكروما، أول رئيس لغانا.

يبدو أن الحادث الدامغ فى تاريخ ميس شو كان هو تورطها المحورى فى اجتياح الترانسفال سيئ السمعة عام ١٨٩٥ الذى قاده القرصان المغامر لياندر ستار چيمسون، الذى عرفه التاريخ باسم "چيمسون المُغير". وعلى الرغم من كل تعاليها وترفعها، أظهرت التايمز استعدادها لمقايضة خدماتها العملية نظير وعدٍ بحصرية نشر أخبار ذلك الغزو فى العالم على حساب منافسيها. كانت المحررة الكلونيالية شو معجبة بچوزيف تشامبرلين وزير المستعمرات النشط وكانت هى محل إعجابه. وبدون شك، تورطت هى وصحيفة التايمز فى مؤامرة سرية أوعز بها تشمبرلين، إضماراً أو تصريحاً، للقيام بتغيير نظام البوير فى جمهورية الترانسفال بالقوة. فشلت الخطة فشلاً ذريعاً مخزياً، وجاءت قصة بريطانيا الذرائعية الرسمية مهلهلة غير قابلة للتصديق مستبقة بذلك ورطة السويس الأكثر كارثية عام ١٩٥٦. بيد أن ميس شو خرجت من مأزقها بأن أبدت شجاعة وصراحة أكثر من رؤسائها. ويبدو أن قَدَر ميش شو على أرض الواقع، كان هو تصنيع القواعد المناسبة لإقامة التماثيل الإمبريالية عليها. كان جلادستون قد تنبأ فى ثمانينيات القرن التاسع

عشر، بأن توغل بريطانيا جنوباً فى إفريقيا هو التمدد الطبيعى الذى لا مفر منه لتواجدها الإمبريالى بمصر والهند إذ إن ضمان المرور الآمن شرقاً كان يتطلب حضوراً بريطانياً من الكيب وحتى القاهرة.

* حققت فلوراشو، التى ولدت عام ١٨٥٢ فى العالم الڤيكتورى، ذروة عملها الصحفى فى العقد الأخير للملكة فيكتوريا الذى شهد توسعاً سريعاً للإمبراطورية؛ واستمر نفوذها وتأثيرها أثناء العصر الإدواردى حيث أصبحت، بعد زواجها، الليدى لوجارد. توفيت عام ١٩٢٩ فى عصر إنجلترا الچورچى الثانى، الذى شهد بداية الانحسار الإمبريالى والذى كان الشاعر كيبلينج قد تنبأ به. فى الهند، بدأ المهاتما غاندى، الذى كان قد عمل فى حمل نقالات الموتى والجرحى أثناء حرب البوير (التى ساعد جيمسون المغير على حفزها)، بدأ حملة شعبية للمطالبة بالاستقلال التام. أما فى ايرلندا، حيث كان جد شو لأبيها يمتلك ضيعة بالقرب من دبلن، فقد أجبرت انتفاضة قومية البريطانيين على القبول بتقسيم الجزيرة إلى دول حرة فى جنوب ذات غالبية كاثوليكية، ومعقل للبروتستانت المتشددين فى الشمال. لم يمثل أى من هذا مفاجأة للصحفية اليقظة التى كانت قد ارتحلت فى جميع أنحاء الإمبراطورية وهى ترسل إلى الوطن تقارير وتغطيات صحفية لكبريات صحف زمانها، من مصر، المغرب، جنوب إفريقيا، استراليا، كندا، كلونдايك وغرب إفريقيا. مما لاريب فيه أن شو كانت أكثر تأثيراً من شهيرات الرحالة السيدات الفيكتوريات - مارى كينجزلى، إيزابيلا بيرد، جين ديجبى - اللاتى يفضّلهن كتّاب السّير، وقد يُعزى هذا إلى أن أسفارها كانت رحلات عمل، لا للمغامرة. بيد أنه وأثناء ذروة عملها كصحفية، انتزعت شو أكثر دلالات عصرها الأكيدة على ذيوع الصيت، أى: رسم كاريكاتيرى لها فى دورية بنش Punch.

كانت عائلتها تنتمى إلى الشريحة العليا من الطبقة الوسطى. كان جدها، السير فردريك شو عضواً بالبرلمان يمثل ملاك الأراضى الأنجلو/ إيرلنديين البروتستانت،

وعضوا قائدا فى حزب المحافظين الذى كان يترأسه السير روبرت بيل .. تقاعد والدها، چورچ شو من الكلية العسكرية الملكية بووليتش برتبة لواء. أما أسلافها من ناحية الأم فكانوا كاثوليك وفرنسيين. وبعد حملها فى أربعة عشر طفلاً، مرضت والدتها، وتولت فلورا تمريضها حتى وفاتها.

كانت فلوراشو نفسها قارئة نهمة بمكتبة ووليتش وعلّمت نفسها بنفسها. وكمثال على سطوة الكتب على مخيلتها الشابة، كانت شو تروى كيف انها تسلقت شجرة تفاح ومعها كتاب جديد : الثورة الفرنسية لكارلايل: "تسلقتُ أعلى الشجرة وأنا ملكية من حزب المحافظين، وهبطتها وأنا ديمقراطية متحمسة".

ورغم ملاحة ملامحها ودقتها، وشعرها البنى المُحْمر، وعينيها الرزقاوين الصافيتين، وقوامها النحيل، لم تتزوج شو طوال تسعة وأربعين عاماً. وكان يمكن لوضع امرأة كهذا فى أواسط العصر الڤيكتورى أن ينتهى بها لتصبح مربية أطفال، أو رفيقة لشخص مسن لولا مرشدوها ومعلموها المرموقون، الذين كان من بينهم چون راسكين وچورچ مريديث. التقت راسكين عام ١٨٦٩، فى أوج شهرته، حينما ألقى محاضرات بووليتش، قبيل محاضرته الافتتاحية التاريخية بأكسفورد كأستاذ للفن التى ألقاها فى فبراير ١٨٧٠. فى خطابه هذا الذى عمل على حفز جيل كامل استنهض راسكين عزيمة شباب إنجلترا بقوله "اجعلوا بلدكم مرة أخرى عرشاً مهيباً للملوك، جزيرة حاملة للصولجان، مصدر إشعاع للعالم أجمع، مركزاً للسلام، سيدة العلم والفنون.. هذا ما يجب ان تفعله إنجلترا، أو تهلك. عليها إقامة مستعمرات بأسرع ما فى استطاعتها وعلى أبعد مسافة ممكنة، يُكوّنها أكثر رجالها جدارة ونشاطا؛ عليها الاستيلاء على كل قطعة تستطيع وضع قدمها عليها وتعليم رجالها المستعمرين أن فضيلتهم الأولى هى ولاؤهم لبلدهم، وأن هدفهم الأول هو الدفع قدماً بسطوة إنجلترا بَراً وبحراً".

كان الصغار ممن يتميزون بالوسامة يجذبون نظر راسكين ولم تكن فلورا ذات

السبعة عشر ربيعاً استثناء حيث قام بتشجيع محاولاتها الأولى للكتابة – ثلاثة كتب أطفال ناجحة، تبعتها رواية للكبار بعنوان "حملة الكولونيل تشزيك". كانت كتاباتها قد أكسبتها استقلالاً مالياً حينما قام چورچ مريديث بتقديمها إلى دبليو. تى. ستيد واصفاً إياها بأنها "أجمل زهرة بين الفتيات المعاصرات" وبأنها "تملك قدرة الرجال على التفكير المنطقى". كان ستيد محرر البل مل جازيت، والذى التقيناه من قبل، ابن رجل دين مستقل. فيما بعد، غرق دبليو. تى. مع السفينة تايتانيك بهدوء وهو يقرأ إنجيله فى صالون الدرجة الأولى بالسفينة. عملت الجازيت، برسوماتها وصورها، وعناوينها اللافتة، وأسلوبها الجذاب المقروء، على الدفع قدما بحملات ستيد الحماسية من أجل "دعم الإمبريالية المسئولة بالتقابل مع الشوڤينية الوطنية".

اقترن حماس ستيد التنافسى للسبق الصحفى بولائه الزخم لمن يضمهم تحت رعايته، وكان من بين هؤلاء ألفرد ميلنر المدافع الشرس عن الإمبريالية، والذى تولى فيما بعد منصب المندوب السامى بجنوب إفريقيا، وأيضاً فلورا شو. فى ثمانينيات القرن التاسع عشر، كانت الإنجازات الشهيرة للمراسلة الصحفية الأمريكية، نيلى بلاى، والتى كانت تبعث بتقاريرها من أرجاء الكوكب، قد بدأت تفتح الطريق فى مجالات العمل الصحفى للنساء، هذا على الرغم من الاستياء الذى قابلهن به كثير من زملائهن الرجال. لكن ستيد كان استثناء. فى مقال له بمجلة Young Wom-an، أعلن جازماً أن المرأة التى تأتى مجال الصحافة متوقعة التساهل بسبب نوعها تسىء إلى "سمعة زميلاتها بالمهنة وإلى جدارتهن". قال أيضاً إن على المراسلة الصحفية التعود سريعاً على اللغة البذيئة، وعلى توبيخ رؤسائها العنيف، وعلى المهمات المهينة، والعمل ليلاً دونما رفيق يرعاها. قال "من حقكن المطالبة بألا يكون نوعكن عاملاً غير مؤهِل، لكن من المعيب وغير المنطقى أن تجعلن من حقيقة أنكن إناث حقاً للحصول على فُرص تُنكر على إخوانكن".

قبلت فلورا شو التحدى واستغلت الفرصة. فى شتاء ١٨٨٦-١٨٨٧ وأثناء

قضائها عطلة بجبل طارق مع عائلة يونجهازباند أصدقاء عائلتها، أجرت حواراً مع زبير باشا تاجر الرقيق سيئ السمعة وحاكم السودان الإقليمى الذى اضطهده الجنرال جوردون فى البداية ثم عفا عنه. كان البريطانيون قد رحّلوه مؤخراً لجبل طارق بعد ان عثر أحد رجال شرطة مكافحة النشل بالقاهرة على خطابات تدينه تبادلها مع أتباع المهدى. وبعد ان شقت فلورا طريقها إلى "الكوخ المنعزل" الذى كان محتجزا به فى رحلة استغرقت منها أسبوعاً. وجّهت إلى زبير، الذى كان يعانى من ألم بأسنانه أسئلة عن موضوع الرق. بعد ذلك ظهر بالصفحة الأولى من عدد ٢٨ يونيو ١٨٨٧ من البِل مل جازيت العنوان التالى: حوار لصحفية مع رئيس قبيلةٍ سجين". بعد توجيهها أسئلة مباشرة إليه، أنكر زبير باشا العمل بتجارة الرقيق أبداً. وبعد النشر، أبحر زبير عائداً إلى القاهرة بعد أن تم الإفراج عنه واعترف لشو بالفضل فى إطلاق سراحه. أما هى، فقد أرسى حوارها معه الذى نشر بالصفحة الأولى صيتها كصحفية.

أثناء زيارة لها لمصر فى شتاء ١٨٨٨-١٨٨٩، تركت فلورا شو بطاقتها الخاصة مع سير إفيلين بارينج الذى دافع لها بطلاقة عن الفوائد الاجتماعية للإمبريالية كما أمدها أيضاً بموجز عن الإصلاحات المالية بمصر. استخدمت شو هذا الحديث، مادة لمقالها الاستهلالى بالتايمز (لدى قراءته المقال، صاح آرثر وولتر مالك الصحيفة قائلاً: "أيا من كان كاتب هذا المقال فهو من النوع الذى يجب أن يُعيّن بالتايمز) وحينما تعاقد معها موبرلى بِل عام ١٨٩٠، والذى كانت قد التقته بمصر حينما كان مراسلاً خاصاً للتايمز، أرسل له بارينج المذكرة التالية "أعتقد أن ميس شو قد انضمت الآن إلى العاملين معك. سيكون أداؤها جيداً، ربما أفضل من أى رجل - لكننى لا أدرى ما إن كان هذا سيناسبك". وافق بل، الذى كان قد أصبح المدير المساعد للصحيفة بمقرها الرئيسى بلندن، بارينج على رأيه. وحينما طلب منها أن تكتب عموداً نصف شهرى كصحفية مستقلة، علّق بالقول "لو أنك رجل لأصبحت محرر التايمز الكلونيالى غداً".

تجنبت فلورا الجيتوهات الأنثوية المعتادة – عمود الاجتماعيات والمراجعات الفنية – كانت قد قررت أن يكون نطاق عملها الشئون الخارجية والتعقيدات المالية والدولية . اعتقد ستيد ذو الأسلوب المتوهج أن كتاباتها كانت بالغة الحدة. الأهم من ذلك كان موقفها التوسعي يتسق مع توجه التايمز الإمبريالي ومن ثم أصبح تواجدها بالمكتب الكولونيالي "مكتب المستعمرات" أحد ثوابته. فيما بعد، أوجزت في خطاب إلى زوجها دورها بالقول إنه كان "تجوالاً برفقة أُسُود؛ لم أفكر أبداً في عملي على أنه صحافة على وجه التحديد، بل الأحرى كعمل سياسي نشط، منقوص منه الشهرة. على أية حال، لا تهمني الشهرة. لم أعرها اهتماماً قط. بل إنني أظن أن هذه هي النزعة الطبيعية للعقل الأنثوي. يتم تنشئتنا بهذا الأسلوب – أن نتجنب لفت الانتباه العام، لا أن نسعى إليه".

ولكي تضمن أن يأخذها الناس على محمل الجد كانت ترتدي اللون الأسود دائماً (انتقلت للون الأبيض فجأة لدى اعتزالها وزواجها) . أخفى توقيع "مراسلنا" الذي كان يُرفق بكتاباتها جنسها .. كتبت مارچري برهام، مؤرخة سيرة اللورد لوجارد زوج فلورا قائلة عنها "لم تستغل أبداً أنوثتها طريقاً قصيراً لتحقيق أهدافها المهنية. وعلى الرغم من ذلك، فقد بدا أن جمالها، وبخاصة دفء مشاعرها الذي كان يجد منفذاً من عينيها المعبرتين ويخترق تحفظها وسلوكها الوقور، بدا وأنه يضيف توهجاً على أنشطتها الفكرية المحضة.. كان الرجال الذين يحتلون المناصب العامة يشعرون بالدهشة للسهولة التي يفصحون بها عن المعلومات الرسمية لمحاورة صحفية كهذه". لكن تعليق معاصرتها مارى كينجزلي، الكاتبة والرحالة، على منافستها جاء أقل إعجاباً وإشادة قالت عنها "شابة أنيقة وسيمة ذكية مستقيمة، تُجسِّد مهارة أدائها حُسنَ تدريبها بأفضل صورة، قادرة على إنجاز أي كم هائل من العمل، صلبة حادة كالمسامير، ودائماً ما تتحدث مثل قيادات التايمز. مُشبّعه هي بالنسخة الجديدة من الإمبريالية العامة. إنها دينها".

كان كبار المحررين البريطانيين فى زمن فلورا شو - مثل ستيد، بل، وسى پى. سكوت رئيس تحرير المانشستر جارديان -يتساهلون فى مزج الوقائع بالآراء بأكثر مما هو شائع اليوم فى التقارير الصحافية. وعلى الرغم من أن متوسط توزيع التايمز فى تسعينات القرن العشرين لم يتجاوز خمسة وثلاثين ألف نسخة إلا أن تأثيرها كان واسع النطاق. وفى عصر الإمبريالية الجديدة، تبنت رسائلها الصحفية وكذلك تعليقاتها، التوسع، فى إفريقيا بخاصة بالتحالف مع فرنسا، والحفاظ على تفوق البحرية البريطانية، وعلاقات أوثق مع روسيا، واحتواء ألمانيا. ومن الأمور الكاشفة أن اعتبر القيصر ويلهلم الثانى رئيس تحرير التايمز موبرلى بِل أخطر عدو بريطانى له.

حثَّت شو موبرلى بِل على أن تقوم التايمز بتغطية المستعمرات. وبجهدهما المشترك اتسع نطاق الصحيفة. وأثناء فترة عمل فلورا بالتايمز فى تسعينات القرن التاسع عشر، غدت الصحيفة لسان حال الإمبريالية الجديدة. أدت مجموعتها "خطابات من جنوب إفريقيا" والتى نشرت فيما بعد فى كتاب، إلى تثبيتها عضواً كاملاً بهيئة تحرير الصحيفة وسافرت إلى أستراليا وأمريكا الشمالية. كانت شو قد ذهبت عام ١٨٩٢ فى رحلتها الأولى إلى الجنوب الإفريقى، وكانت أول محطة توقفت بها فى طريقها هى مستعمرة الكيب التى كانت شركة الهند الشرقية الهولندية قد أنشأتها عام ١٦٥٢، ثم منحتها لبريطانيا معاهدة السلام عام ١٨١٥ التى أنهت حروب نابليون. وفى غضون عقود كان للمستعمرة برلمان ورئيس للوزراء. فى عام ١٨٩٢، كان سيسيل رودس، المغامر، وصاحب مناجم الماس والذهب هو من يحتل هذا المنصب، وبصفته هذه دعا الصحفية شو لحضور افتتاح البرلمان. وسرعان ما أصبحت ضيفاً مرحباً به فى قصر الحكم. كتبت تقول "ثقة الجميع المطلقة بالمستر رودس واعتمادهم عليه أمر مدهش".

سافرت شو بالقطار إلى كيمبرلى، وجالت فى منجم دوبيرس للماس على عمق

كبير وهى تحمل شمعة فى يدها وحكمت عليه بأنه "دير للعمل". وجدت جوهانسبرج، العاصمة التجارية لبوير الترانسفال "بشعة وبغيضة، رفاهية دونما نظام، متعة حسية بدون فن، ثراء دونما رُقيّ، واستعراض بدون وقار أو كرامة". رأتها مدينة "بلا سياسات، شغلها الشاغل هو المشاكل المادية". كتبت تقول إن الجمهورية "متخمة بالثروة. الذهب، النحاس، الفضة، الفحم، جميعها ملقاة على الأرض فى كل مكان. ومن أجل إرسالها للخارج، لابد من بناء خطوط للسكة الحديد وإنشاء محطات مياه، وغرس الأشجار والغابات من أجل الأخشاب، وبناء الطرق". أجرت شو حواراً مع بول كروجر رئيس الترانسفال بقصره فى بروتوريا فى السادسة والنصف صباحاً (من الواضح أنه ظنها رجلاً متخفياً). وفى إيجاز لزيارتها كتبت قائلة إنه فى جنوب إفريقيا "أصبحت الآلة البخارية أداة للإمبراطورية أكثر فاعلية من المدفع".

وفى الواقع، فإن التنافس من أجل إقامة خطوط للسكك الحديدية كان آنذاك ما أصبحه التدافع، فى مرحلة لاحقة، من أجل الفوز برسم خطوط للطيران. كان حلم رودس هو إنشاء خط سكك حديد القاهرة/الكيب، الذى كان سيطلق عليه اسم "الخط الأحمر" ويخترق القارة من شمالها إلى جنوبها (كان اللون الأحمر هو المخصص للممتلكات البريطانية على الخرائط). لكن العوائق الطبيعية والسياسية أفشلت خطته. وبنفس الروح، دعا القيصر ويلهلم الثانى إلى إقامة خط برلين/بغداد الذى لم يكتمل أبداً. كما انفقت روسيا الملايين على خطوط حديدية تخترق سهول الاستبس وسيبريا بيد أنه وقبل الحرب العالمية الأولى، كان الأوروبيون قد جزأوا الخطوط الحديدية بالإمبراطورية وفقا للحدود التى رسموها استباقاً لخلق الدول شرق الأوسطية الجديدة بعد انتهاء الحرب.

أصبحت شو، عام ١٨٩٣، محررة التايمز لشئون المستعمرات بمرتب كان يفوق ما كانت تتقاضاة اية صحفية أخرى وقدره ٨٠٠ جنيه إسترلينى سنويا. وبمنصبها

هذا، اكتسبت سلطة تعيين جميع المراسلين بالمستعمرات. لكنها بعد عامين وقعت فى ورطة مغامرة إمبريالية فاشلة "غارة چيمسون" التى اعتقد ونستون تشرشل، كما كتب لاحقاً، أنها كانت علامة بداية "أزمنة العنف" التى بلغت ذروتها فى الحرب العظمى.

ما زالت هناك تساؤلات مبهمة عن غارة چيمسون، تلك الهجمة المجهضة التى شنتها تشكيلة من القراصنة وقطاع الطرق بتمويل من رودس بهدف الإطاحة بحكومة جمهورية الترانسڤال بيد أنه، قد أصبح بالإمكان الآن، وبالاعتماد على مصادر منوعة، ترتيب الأجزاء المفككة، لنكتشف خطة متكاملة لتلك الهجمة. مثقلة هى تلك الواقعة بالمادة الدرامية - قرارات مصيرية مؤسسة على استخبارات خاطئة، متآمرون مرموقون يحتلون أعلى المناصب؛ كباش فداء طوعيون، محامون مبتزون، وفى النهاية، استجواب برلمانى عرّض مناصب كبيرة للأخطار، ودمّر سمعة آخرين. عبرت عن ذلك مارچورى پرهام، الخبيرة فى الشئون الإفريقية والمعجبة بفلورا شو، قائلة "كانت الغارة فشلاً عسكرياً، لكنها كانت زلزالاً سياسياً". بين الشخصيات الأساسية المتورطة كانت ميس شو، موبرلى بِل، وفرانسيس يونجهازبندز مراسل التايمز بجنوب إفريقيا وقريب عائلة صديقة لشو كانت معهم حينما حاورت زبير باشا تاجر الرقيق.

كان إخضاع الممالك الإفريقية التى شكّلت فيما بعد رودسيا (زيمبابوى اليوم)، هو الذى مهد لتلك الغزوة. بموجب صك امتيازات ملكى، كانت شركة جنوب إفريقيا البريطانية التى كان يملكها ردوس قد استولت بواسطة ميلشيا خاصة مسلحة بمدافع مكسيم الرشاشة على مرتفعات ماشونالاند وماتابليلاند الخصيبة فى عملية وصفها مؤرخو رودس بأنها كانت مزيجاً من محاكاة ساخرة للمؤمرات الكبرى والمصالح الذاتية الأنانية. بعد الغارة، بقى چيمسون هناك مبعوثاً لرودس فى ساليسبرى، العاصمة الجديدة التى أُطلق عليها اسم رئيس وزراء الملكة فيكتوريا

حنذاك.. وبعد أن أثبتوا ما بمقدور قوة من المرتزقة إنجازه فى إفريقيا الجنوبية بدأ من المعقول أن باستطاعة رجال چيمسون الاستحواذ على جائزة أعظم من خلال تغيير الأنظمة فى إقليم الترانسڤال الثرى بالموارد المعدنية.

بالإمكان الآن ذكر الوقائع الأساسية بإيجاز محكم. بعد اكتشاف الذهب فى ويتووترسراند بالقرب من جوهانسبرج عام ١٨٨٦، تدفق الآلاف من الأجانب الأجلاف، البريطانيين فى غالبيتهم، على إقليم الترانسڤال. أسْمى الأفريكان (مستوطنى جنوب إفريقيا من الأوروبيين) هؤلاء Uitlanders أو الأجانب. وبمجرد أن استقروا فى مدن الأكواخ انضوى هؤلاء تحت سلطة حكومة البوير برئاسة كروجر فى بريتوريا. بحلول عام ١٨٩٥، ساد الاعتقاد (أو الأمل من جانب رودس وداعميه) بأن هؤلاء الأجانب كانوا على وشك التمرد وتوقعوا أن تكون الشرارة المزعومة هى رفض البوير منحهم المواطنة وحق التصويت.

كانت الخطة التى تم الإعداد لها بكيپ تاون، وموّلها رودس؛ وشجعها (كما هو ثابت الآن) چوزيف تشامبرلين وزير المستعمرات، تقضى بالإطاحة بحكومة البوير ثم إقامة نظام بديل اكثر ملاءمة لمصالح الأجانب، وملاك المناجم والبريطانيين. وفقاً لتلك الخطة، كان على چيمسون - الذى كان متموضعاً فى بيتسانى بإقليم بتشوانالاند المجاور - لدى سماعه أنباء عن انتفاضة للأجانب، التوغل بقواته فى الترانسڤال فيما يستولى الأجانب على ترسانة الأسلحة ببريتوريا. حينذاك، يقوم السير هِركيوليس روبنصون، المندوب السامى البريطانى بجنوب إفريقيا، باستعادة النظام والتفاوض على تسوية فى بريتوريا تخدم مصالح رودس والبريطانيين.

ديسمبر ١٨٩٥. الدكتور چيمسون، رجل صغير الحجم، تعبيره مازح، عيناه بنيتان متسعتان، ينتظر بفروغ صبرٍ فى خيمته البيضاء أعلى تل صغير يطل على

المروج الرائعة المتسعة فى بيتسانى على بعد ثلاثة أميال من الترانسفال. فى يوم الأحد ٢٩ ديسمبر، ينطلق نفير بوجل، ويطلق ٤٠٠ فارس ثلاث هتافات باسم الملكة وينطلقون قدما بقيادة "د/چيم" أو چيمسون الذى يرتدى معطفاً من جلد الماعز ويمتطى صهوة فحل أسود. بعد أن يتوغلوا ثلاثة أميال فى إقليم الترانسفال ينضم إليهم مائة وعشرون من رجال شرطة بتشواناالاند. يرفع الخيالة هؤلاء (الموسومة مؤخرات خيولهم بشعار شركة رودس) عدد المغيرين إلى حوالى ٦٠٠ رجل - أقل كثيراً من السبعة آلاف وخمسمائة رجل الذين كان چيمسون قد توقعهم. لكن المغيرون كانوا قد فشلوا فى قطع خطوط البرق جميعها، من ثم، وصلت أخبار الغزوة إلى بريتوريا. يظهر مراسلان من البوير. يأمر المندوب السامى البريطانى چيمسون بالعودة من حيث أتى. يرفض چيمسون.

بالإضافة إلى البنادق، كان المغيرون مسلحين بمدفع ميدان محمول على عربة زنة قذائفه ١٢ رطلاً، وستة رشاشات ماركة مكسيم. بين رجال چيمسون محاربون سابقون اشتركوا فى حروب شركة رودس بروديسيا حيث قاتلوا أفارقة مسلحين بالحراب. يظنون أن مناوشتهم مع المزارعين البوير ستماثل رقصة زنجية على قدر من العنف. يزهو چيمسون قائلاً: "سأتوغل فى المنطقة بنفس السلاسة التى تقطع بها السكين الزبد". ثم يضيف مخاطباً المتشككين "إنكم لا تعلمون ما تعنيه رشاشات مكسيم. لقد رأيتها تعمل". بيد أن الخيلاء الممزوجة بالكحول - براندى للجنود وشمبانيا للضباط - ستبرهن على أنها سم قاتل بعد مسيرة أربعة أيام على تربة غير مألوفة تحت طلقات مقاتلى حرب العصابات البوير. يتم محاصرة المغيرين بالكامل عند دورنوپ التى يستغرق الوصول منها إلى مناجم چوهانسبرج ساعتين على ظهر الخيل. يمطر رماة البوير المهرة المغيرين بوابل من الرصاص، مستخدمين بنادق عَتيقة من فوق أرض مرتفعة. تتعطل رشاشات المكسيم، وبعد مناوشة قصيرة، يرفع المتآمرون مئزراً أبيض استعاروه ويستسلمون. قُتِل وجُرِح ستة وخمسون رجلاً. عندما أدرك ان الغزوة وُلدت مبتسرة، تباكى رودس متملصاً

مخادعاً: "لقد أفسد چيمسون العجوز خططى وترتيباتى. لقد ظللنا صديقين لعشرين عاماً، والآن، يشن حملته ويُفسد حياتى".

فى ٥ يناير، سجّل ويلفريد سكاوين بلانت، المعادى الضارى للإمبريالية الملاحظة التالية بمذكراته "أنباء ممتازة. شن أوغاد شركة رودس صاحبة الامتيازات الملكية غارة قرصنة على الترانسفال ومَحقهم البوير وأُخِذ چيمسون أسيراً. آمل من قلبى أن يشنقوه".

أرسل القيصر ويلهلم برقية تهنئة إلى كروجر الذى علق بالقول "حينما أريد أن أقتل سلحفاة أنتظر حتى تُخرج رأسها"، وحينما علم اللورد ساليسبرى رئيس الوزراء أن كروجر يعتزم زيارة لندن قال إنه يتمنى لو غرق فى بحر من مَرَق السلاحف. من جهتها، كلّفت التايمز، ألفرد أوستن، أمير الشعراء الجديد بكتابة قصيدة شعبية طويلة يمتدح فيها "غارة چيمسون" وجاءت قصيدة رآها بلانت هزلية ركيكة ولقيت وكاتبها تهكم وازدراء معظم المعلقين.

بعد محاصرة المغيرين وتجمعهم، سلمهم البوير الحكماء إلى البريطانيين ليحاكموهم. ورغم عدم حضور أى عضو من "لجنة چوهانسبرج للإصلاح" التى كان من المفترض ان تلتقى قوة إغاثة تابعة لها چيمسون، يدين قاضٍ من كيب تاون القادة الأربعة، بمن فيهم فرانك شقيق رودس الأكبر، بالخيانة. تُبدّل أحكام الإعدام التى صدرت ضدهم حينما يدفع سيسيل رودس وداعموه غرامات ضخمة .. لدى عودتهم لإنجلترا، يَمْثُل چيمسون وخمسة من المغيرين أمام المحكمة بكامل هيئتها، وهو إجراء يتبع فى القضايا المهمة فقط. يتلقى د./چيم حكماً بالسجن خمسة عشر شهراً، لكن يطلق سراحه بعد أربعة اشهر فقط لأسباب صحية. بعد عودته لإفريقيا، يصبح رئيس وزراء مستعمرة الكيب عام ١٩٠٤، وعضو مجلس شورى الملكة الخاص عام ١٩٠٧، ويمنح لقب بارونيت عام ١٩١١، ويعين رئيس مجلس إدارة "شركة جنوب إفريقيا البريطانية" التى يمتلكها رودس عام ١٩١٣. ثم يدفن بعد

أربع سنوات إلى جوار رودس (الذى كان قد توفى عام ١٩٠٤)، بتلال ماتوبو. بروديسيا، التى أصبحت الآن زيمبابوى.

كان رودس قد أُجبِر على الاستقالة في يناير كرئيس وزراء مستعمرة الكيب، من ثم، أسرع إلى إنجلترا لإنقاذ صك الامتيازات الملكية لـ"شركة جنوب إفريقيا البريطانية". وافق تشامبرلين على تركه يحتفظ بالامتيازات نظير عدم إظهار "البرقيات المفقودة" التى تكشف عن تواطؤ وزير المستعمرات فى الغزوة. لكن من سوء حظ المتآمرين أن البوير كانوا قد صادروا صندوقاً أسود من الصاج مُخبأً بين زجاجات الشمبانيا يحوى برقيات تدين الطرفين متبادلة بين رودس ولجنة جوهانسبرج، وخطاباً يفهم منه أنه طلب المساعدة من جماعة جوهانسبرج، بالإضافة إلى دفتر يوميات وكتاب لرموز الشفرات. بدأ البوير فى إبريل فى نشر خبيئتهم. وعلى إثر ذلك اجتمعت لجنة استماع برلمانية منتقاة لتحديد من كان يعلم ماذا، ومتى علموا به. لكن التحقيق فشل فى الكشف عن الأدوار الحقيقية لرودس، وتشامبرلين، وزير المستعمرات، وفلوراشو همزة الوصل بينهما.

كان الفريد ميلنر الرفيق الإمبريالى، قد تكهن عن بصيرة بأن "ما يتحكم فى الرجال هو نقاط ضعفهم، ونقطة ضعف رودس هى حجمه الكبير". كان رودس رجلاً ضخم الجسم والرأس، ملامحه تقليدية وكان نهمه للطعام والشراب والتدخين هائلاً. لم يكن يأبه بالبذلات الغامقة الرسمية التى يرتديها الحكام وذوو السطوة، وكان يفخر بأنه بإمكانه إصدار التشريعات ببذلة تويد عادية كتلك التى كان يرتديها بأكسفورد. كان عصامياً حقق حلمه فى الالتحاق بأكسفورد (لم يبل بلاء حسناً هناك رغم أن الجامعة منحته الدكتوراه الفخرية فى نهاية حياته). تشبع بالعقيدة التوسعية التى كان يعتنقها جون راكسين أستاذ الفنون الجميلة فى كلية سليد بالجامعة. كانت تسيطر على رودس "فكرة عظمى" نجد تنويعة منها فى كتاب

"إشهار العقيدة" الذى كتبه عام ١٨٧٧ حينما كان بإكسفورد، وفى وصاياه الثمانى المتتالية التى صاغها: ولايات متحدة إفريقية تحت العلم البريطانى يصلها ببعضها خطه الحديدى الذى كان مقرراً له أن يخترق إفريقيا من القاهرة إلى الكيب. كتب يقول "هاك إفريقيا، مازالت ترقد مستعدة لنا بانتظارنا. من واجبنا أن نأخذها. من واجبنا اقتناص كل فرصة للاستيلاء على المزيد من الأراضى، وعلينا الإبقاء على هذه الفكرة مثبتة أمام أعيننا: إن المزيد من الأراضى يعنى ببساطة المزيد من العِرْقِ الأنجلوساكسونى، أفضل أعراق العالم وأكثرها شرفاً وإنسانية.." ثم، بعد ذلك، تبنى فكرة إعادة لم الشمل مع الولايات المتحدة "ليصبح العرق الأنجلوساكسونى إمبراطورية واحدة". سيعنى هذا "نهاية جميع الحروب" وذلك لأن رودس اعتقد أن البريطانيين هم أروع أعراق العالم وكلما توسع العالم الذى يقطنوه سيكون ذلك "فى مصلحة البشرية". اقترح رودس تكوين جمعية سرية تعمل على غرار ما نعلمه الآن عن أساليب السى آى إيه لتجنيد العملاء، بحيث "يتم زرع أعضاء لها فى جامعاتنا ومدارسنا يراقبون الشبان الإنجليز ويُجنِّدونهم". رأى أنه سيكون بإمكان عصبة من الإخوة، مليونيرات مُكرسين، باستطاعتهم توحيد الشعوب المتحدثة بالإنجليزية، وفرض السلام العالمى من خلال "امتصاص ثروة العالم تدريجياً". كانت منح رودس الدراسية إلى إكسفورد، والتى خصصت فى البداية لأبناء البيض البريطانيين فى أنحاء الإمبراطورية، و"الأنجلو/ساكسونيين" من الأمريكيين والألمان، إحدى النتائج الملموسة لهذه الأفكار.

أثناء إعداده للغارة، أبلغ رودس وفداً "من الأجانب" من جوهانسبرج بأنه بعد القضاء على انتهاكات البوير ومبادئهم، ستصبح غايته هى التجارة الحرة مع الدول الإفريقية الأخرى، الأمر الذى سيؤدى إلى اتحاد جمركى، وإدماج للسكك الحديدية، ثم فى النهاية إلى فدرالية إفريقية. خصص رودس أسهماً مخفضة فى شركاته للسياسيين وطعَّم مجالس إدارته بشخصيات تحمل لقب دوق وماركيز. كان أحد المُعينين المرموقين فى مجلس إدارة De Beers (كارتل أو اتحاد احتكار مناجم

الماس الذى أنشأه رودس) هو السر هركيوليس روبنصون أحد حاملى الأسهم أيضاً فى شركة جنوب إفريقيا البريطانية التى يملكها رودس. ولحد بعيد، زاد إعادة تعيين روبنصون حاكماً لمستعمرة الكيب والمندوب السامى البريطانى بها (شغل هذين المنصبين بين عامى ١٨٨١ -١٨٨٩) من قوة قبضة رودس. وحينما واجهه النقد المتزايد لاقتلاعه السكان الأفارقة الأصليين من المناطق التى كان يريد السيطرة عليها، غدأ رودس خبيراً فى رشوة الصحافة ومداهنتها.

بدأ التواطؤ بين رودس والصحافة - ستيد، بل، والأهم، فلورا شو - عام ١٨٨٩، لدى زيارته لندن لكسب الدعم من أجل الحصول على صك امتياز ملكى لـ"شركة جنوب إفريقيا البريطانية" التى كان يملكها. بذلك، كان له أن يضمن للشركة حقوق ملكية المناجم والتعدين وأيضاً حقوق الاستيلاء على الأرض فى ماتابليلاند، التى أصبحت روديسيا فيما بعد. بيد أن رودس فشل فى العثور على الذهب المتوقع فى ما تابليلاند، وكانت تكلفة التنجيم العميق فى ويتو وترسراند ترتفع باطراد، جزئياً، بسبب زيادة الضرائب. اعتقد رودس أنه، إن كان له أن يجنى الحد الأقصى من الأرباح من مناجم ذهبه فعليه توجيه ضربة سريعة لجمهورية الترانسفال. كان ثمة سندُ رهن ائتمانى قيد التفاوض تُمنح بمقتضاه، شركة جنوب إفريقيا البريطانية سلطة لا محدودة للسيطرة على غالبية الجنوب والوسط الإفريقى من خلال الاجتياح أو الهبات. آنذاك يصبح بإمكان رودس بناء السكك الحديدية، وفرض الضرائب، وسك العملة، ورفع علمه الخاص (العلم البريطانى يتوسطه أسد والأحرف الأولى من شركته BSAC) وتجنيد قوة الشرطة الخاصة به. عَرّف رودس نسخته الخاصة من الإمبريالية الفظة بأنها أنشطة خيرية مضاف إليها خمسة بالمائة. وبما أن هدف الحكومة البريطانية كان هو الحيلولة دون حصول البوير، الألمان، الفرنسيين البلجيك والبرتغاليين على أراضٍ اخرى بإفريقيا، فقد رأت أن الشركة التى تملك صك الامتيازات الملكية تتيح الفرصة لتوسيع الإمبراطورية بثمن بخس- يتحمل رودس وداعموه عبء التكلفة.

حينما زار "العملاق" البل ملِ جازيت، التقى ستيد وزميلته، آنذاك، فلورا شو. بعد لقاء دام ثلاث ساعات، كتب ستيد، بحماس، إلى زوجته يقول "مستر رودس هو ضالتي المنشودة" كان مليئا بالأفكار الرائعة، أفكار عن "الفدرالية، التوسع، وإدماج أجزاء الإمبراطورية". من أجل "تحلية" ترتيباتهما معاً، أعطى رودس ستيد ٢٠٠٠ جنيه إسترليني كي يسوى غرامة حكم صدر عليه بالتشهير، ووعده بملغ ٢٠٠٠٠ جنيه إضافي مباشرة، وتوقّع المزيد من أجل الدعوة لأفكارهما المشتركة ونشرها من خلال الجازيت وغيرها من الإصدارات.

لم تكن شو أقل افتتاناً به. رأت رودس "رجلاً ذا سطوة مرئية"، "مستقلاً بذاته، وعملياً". حينما سألته عن سبب استعداده لإنفاق تلك المبالغ المهولة على مشروع إمبريالي لن يجني عوائده، في افضل الأحوال، إلا في المستقبل، أجاب قائلاً "يحب بعض الرجال جمع الفراشات. وأنا أحب عملي. إنها هوايتي واهتمامي". مضَيا يلتقيان طوال الصيف، وعلى الرغم من اعتياده السيْر "داخل غرفتين، كأسد محبوس، وهو يجيب عن أسئلتي، أحياناً من أعماق الغرفة الثانية التي لم أكن بها" إلا أنهما أصبحا صديقين طوال العمر.

حينما ذهب رودس إلى لندن مرة أخرى عام ١٨٩٥، كان قد أصبح أكثر الرجال سطوة في إفريقيا: رئيساً لوزراء مستعمرة الكيب، وعضواً بمجلس شورى الملكة، وكان يسيطر، من خلال شركة جنوب إفريقيا البريطانية على مناطق شاسعة مترامية الأطراف – روديسيا، بتسوانا، ملاوى، وزامبيا. كان ثريا لحد التشبع وعدم اشتهاء المزيد. كانت مناجم الذهب المصدر الأكبر لدخله، لكنه، ومن خلال كارتل De Beers كان يتحكم أيضاً في ٩٠٪ من منتج الماس في العالم. رافقه في رحلته إلى لندن چيمسون، طبيبه، وشريكه في البيزنس، ومتولى شئون إدارة روديسيا. مرة أخرى، تقرب رودس من فلورا شو وسعى إليها، وكانت آنذاك قد أصبحت محررة

المستعمرات بالتايمز. كانت مقالاتها وافتتاحياتها غير المتوقعة تدعم رودس وإمبراطوريته التوسعية وتردد مظالم "الأجانب" بالترانسفال. مضيا يلتقيان طوال زيارته. تحدث رودس بصراحة مع شو، وكثيرا ما كان يستخدمها مَجساً لآرائه ومنبراً لها. لكن وفقاً لشو فإن علاقتها برودس كانت مِهنية خالصة. كتبت تؤكد للكابتن لوجارد زوجها المقبل "لست والمستر رودس صديقين بأى معنى شخصى معتاد. لقد درسته بصفته عُنصراً فى حياتنا العامة الآن، وكنتيجة لهذا، ومع كل عيوبه، فأنا أصنّفه كأحد أفضل الموجودين فى الساحة". أعطى رودس تعليمات للدكتور روذرفورد هاريس، أمين عام شركة جنوب إفريقيا البريطانية، وكان يرافقه فى الزيارة بأن "يراعى ميس شو ويتقرب منها". كان واثقاً منها بدرجة أن طلب من هاريس إعطاءها الشفرة السرية، ومنحها الاسم الكودى "Telemones".

فى نفس خطابها إلى لوجارد الذى لم يكن يوافق على تكتيكات رودس، أكدت شو على مثالية صديقها وتفانيه فى سبيل الإمبريالية "لقد التقيت غالبية الإنجليز الذين يشغلون مناصب عامة فى زمانى، وانطباعى عن مستر رودس هو إيثارية الهدف بدرجة أعظم وأكثر اكتمالاً مما رأيته من قبل. يبدو لى وأنه لا يسعى إلى شىء لنفسه . لا يهمه المال، المكانة، والسلطة، إلا بالقدر الذى تمثله من ضرورة لتحقيق المثال الذى يعيش من أجله"!!!

عام ١٨٩٥، شكّل زعيم المحافظين، لورد سليسبورى حكومة جديدة شغل فيها منصبى رئيس الوزراء، ووزير الخارجية. عيّن چوزيف تشمبرلين وزيراً للمستعمرات وعين زوج ابنته اللورد سلبورن نائباً لتشمبرلين. غدت ميس شو، كثيرة التجوال، ضيفاً مرحباً بحضورها إلى مكتب المستعمرات بمقر مجلس الوزراء. كان التوسع هو موضة ذاك الزمان وكان المسرح آنذاك، قد أعِد لتنفيذ "سياسة إمبريالية أكثر إبداعاً".

وصف تشرشل، الذى كان شاباً آنذاك، چوزيف تشمبرلين بأنه "وبأسلوب لا يضاهى، أكثر شخصية حيوية متوهجة مؤثرة فى الشئون البريطانية". كان يُميز مظهره المونوكل، وزهرة الأوركيد فى عروة جاكتته. وعلى الرغم من توجهاته الراديكالية فى الشئون الداخلية فقد كان تجسيداً للإمبريالية الجديدة فى مجال الشئون الخارجية. ميز نفسه، بصوته الواضح الذى كان يدوى فى القاعات، خطيباً مرموقاً. كان فى البداية معادياً لرودس، وعرف عنه تبرمه بالشئون جنوب الإفريقية، لكن، كان لشو أن تقنع تشمبرلين بدعم أجندة رودس. كتبت تقول إن "وزير المستعمرات الجديد ذكياً، محباً للعمل، ومن ثم، فمما لا شك فيه أنه سيعتنق أساليب الإدارة الكولونيالية الليبرالية السليمة، التى سيضيف إليها حماساً للوحدة يعتبر الآن مفقوداً تماماً فى الإدارة المركزية". وسرعان ما طمأنها تشمبرلين إلى أنه يريد العمل مع "رجل قوى" لو أمكن ذلك.

يبدو من المؤكد أن تشمبرلين كان، فى أغسطس ١٨٩٥، على علم، من خلال النقاشات التى أجراها مع هاريس، عميل رودس السرى بالخطوط العامة للغزوة المقترحة. قال هاريس فى شهادته التى أدلى بها أمام لجنة التحقيق البرلمانية فى أعقاب ورطة چيمسون إنه فى لقائه الأول بتشمبرلين أشار إلى قلاقل فى چوهانسبرج وأنه أضاف إشارة حذرة مفادها أن وجود قوة شرطة بالقرب من الحدود أمر مرغوب فيه. لكن تشمبرلين زعم أنه أجاب هاريس بالقول "لا أريد سماع أية معلومات سرية، إننى هنا بصفة رسمية ولا أريد سماع أية معلومات يمكننى استخدامها رسمياً".

فى سبتمبر أطلع هاريس الصحفية شو على الخطة فى إجابته عن تساؤلاتها. جزم بأن القلاقل ستندلع فى چوهانسبرج، وبأنه يجب أن تكون الشرطة فى بتشوانالاند على أهبة الاستعداد للمساعدة، وأضاف "ليس ثمة مشكلة، تشمبرلين على علم بالأمر كله". ثم توجه إلى إسكتلندا، وفى نوفمبر، أبرق إلى رودس بالتالى

"أرسلتُ فلورا بالفعل لتقنع جيه تشمبرلين بدعم صحيفة التايمز. إذا استطعت، أبرق بالنهج الذى تريد أن تتبناه التايمز بخصوص الترانسفال وستتولى فلورا الموضوع".

فى نوفمبر تنازل تشمبرلين عن شريط من الأرض فى محمية بتشوانا يصل الترانسفال بأراضى شركة رودس صاحبة الامتيازات الملكية وتم تسريح رجال شرطة المحمية ليتمكنوا من الانضمام إلى جيمسون. وفى مقابل هذه الامتيازات التى منحها تشمبرلين، تنازل رودس عن ٢٠٠٠٠٠ استرلينى قيمة دعمه المالى لجزء من سكك حديد الكيب الذى كان سيصل المنطقة الشمالية بروديسيا، وتحمل مبلغ ٤٠٠٠٠ جنيه استرلينى سنوياً كانت تدفعها حكومة جلالة الملكة لحرس حدود بتشوانالاند. ومن أجل الحفاظ على المظاهر، أرسل هاريس برقية مشفرة إلى رودس يوم ٧ نوفمبر (لم تُتَح هذه البرقية للجنة التحقيق) يقول جزء منها "يرى وزير المستعمرات أنك يجب أن تسمح بمرور فترة معقولة وتؤجل الألعاب النارية أسبوعين".

يتفق المؤرخون اليوم على أن تشمبرلين بمنحه موافقته المضمرة على هذه الامتيازات كان طرفاً فى الغارة، على الرغم من أن غالبيتهم يظنون أنه لم يتوقع أبداً أن يبادر جيمسون بالهجوم دونما وقوع انتفاضة "أجانب" تُبرره. كان دافع تشمبرلين للتنازل عن شريط الأرض الحدودى لرودس هو تلافى شن الغارة من أراض بريطانية.

هنا يدخل فرانسيس (السير فرانسيس فيما بعد) يونجهازباند، القائد المستقبلى لحملة التبت العسكرية بين عامى ١٩٠٣ - ١٩٠٤ التى سميت باسمه، والتى أبادت فيها فرقة الثمانية من "رواد السيخ" تدعمهم بطارية ورشاشات مكسيم على علو شاهق، أبادت مجموعة من رهبان التبت المقاتلين المسلحين ببنادق بدائية وأحجبة سحرية. لكن تلك المعركة لم تكن قد وقعت بعد، وكان الكابتن يونجهازباند فى إجازة من مهماته على الحدود الشمالية الغربية للهند. كان الكابتن معروفاً للتايمز بعد أن أرسل لها تقارير صحفية عن حصار شيترال، وهى مناوشة إمبريالية أخرى وقعت

بمملكة على ارتفاع شاهق أيضاً لدى الحافة القصية للحدود الهندية. وهو فى طريقه إلى وطنه ليقضى إجازته، سافر هذا الإمبريالى قوى البنية إلى جنوب إفريقيا حيث التقى رودس. حينما عاد إلى لندن فى نوفمبر، تلقى دعوة للعشاء مع شو و بل فى ١٥ من ذاك الشهر. أبحر بُعيد ذلك بعد أن حصل على الشفرة التلغرافية السرية التى كان هاريس قد أعطاها لشو، إلى كيب تاون كمراسل خاص للتايمز هناك، تلقى رسالة مشفّرة من موبرلى بل إلى رودس نصها "نأمل ألا تبدأ الشركة الجديدة البيزنس فى يوم سبت بسبب صحافة الأحد" (كانت التايمز تحتجب يوم الأحد). فى كتابه "غارة چيمسون"، يورد المؤرخ "چان ڤاندر بويل" رأياً منطقياً مفاده أن بل "كان يفترض بدهياً أن رودس كان يسيطر بالكامل على ما أُسمي بالثورة، وأنه كان بإمكانه إشعالها وقتما يريد". وأن بل "كان يعرف خبايا المؤامرة بدرجة أنه علم أنه قد تم تحديد موعد الانتفاضة (الحقيقية) مؤقتاً، بيوم ٢٨ ديسمبر يوم سبت. حينما انتقل يونجهازباند، إلى چوهانسبرج، نزل ضيفاً على فرانك شقيق رودس، وهناك وسّع نطاق التوجهات المعطاة له وأصبح ينقل الأحاديث بين كيب تاون والمغيرين.

فى ١٠ ديسمبر أبرقت فلوراشو إلى رودس تقول "ابستطاعتك إعلامنا بموعد بدء الخطة، نريد أن نرسل فى أقرب فرصة تعليمات سرية إلى ممثلى التايمز فى العواصم الأوروبية، من الأهمية القصوى استخدام نفوذهم فى صالحك". فى اليوم التالى أجاب رودس بأن العام الجديد هو الموعد. فى ١٢ ديسمبر طمأنت شو رودس أن "تشمبرلين جس نبض القوى الأوروبية (ألمانيا) فى حالة التدخل. لدىّ سببى الخاص للاعتقاد أنه يريدك ان تفعلها على الفور". وبعد أربعة أيام نشرت التايمز عموداً ونصف عن مظالم "الأجانب "Uitlanders الترانسڤال وحذرت من أنه "حتى فى جنوب إفريقيا، فإن الوقت قد فات حيث لا يستطيع الآن نظام إدارة قمعى، قائم على المصالح الحصرية لأقلية مميزة أن يقاوم طويلاً قوة للرأى العام المستنير". فى ١٨ ديسمبر أبرق تشمبرلين رسالة "للإسراع" وعلق على الانقلاب

المخطط له "يبـدو لى أنه يجب ان ينفـذ على الفـور، أو يؤجل لعـام أو عـامـين. أباستطاعتنا ضمان ذلك؟".

فى البداية، كان يونجهازباند "الجنتلمان" أو "الساعى" كما لُقِّب فى التحقيق الخاص يتعاطف مع الانقلابيين لكنه حينما عاد إلى كيب تاون من الترانسفال فى ٢٢ ديسمبر، كان قد بدأ يعيد النظر فى "صواب الخطة". كان قد كتب إلى والده أن" ما سيحدث هو ثورة ضد البوير... لكن لا يجوز لهم ان يترددوا ويُحوّلوا الأمر برمته، ليس فقط إلى هزيمة، بل إلى كارثة".. كان قادة "الأجانب" قد بدأوا بالفعل يترددون وطلبوا من يونجهازباند إن يجس نبض رودس بشأن تأجيل "دورة البولو" (الاسم الكودى الذى اختاروه للغارة)، حتى العام الجديد.

بعد ثلاثين عاماً استعاد يونجهازباند حديثه مع رودس رئيس الكيب وسط الأشجار اليانعة بقصره "أبلغتُه أن الناس فى جوهانسبرج لا يؤيدون (الهجوم) ويريدون منع چيمسون من القيام به. استعجب وتساءل ما إن كنت أعنى أنه ليس ثمة رجل فى جوهانسبرج سينهض ويقود ثورة غير عابئ بحياته. أجبته بأنه من الواضح أن مثل هذا الرجل غير موجود. سألنى ما إن كنت أنا مستعداً للقيام بذلك وأكدت له أننى لن أفعل ذلك وإننى لا أريد قيادة ثورة فى جوهانسبرج. أطلق نخرته المعتادة وكأنما اعتقد، أن الجميع بمن فيهم أنا، لا يتعدون مجموعة من الجبناء الرعاديد".

عند ذاك، وعد رودس وقد أُحبط، بأن يبرق إلى چيمسون كى لا يتحرك. أما فى واقع الأمر، وعلى الرغم من تأكيداته ليونجهازباند، فقد أبرق رودس فى ٢٣ سبتمبر رسالة تقول إن الانتفاضة ستحدث فى منتصف ليل السبت التالى وختمها بالتعبير عن قلقه من أن البوير كانوا على علم بالتحضيرات.

فى تلك الأثناء وصل إلى معسكر چيمسون فى بيتسان، عدد كبير من البرقيات من كيب تاون وجوهانسبرج. جاءت البرقية التالية من فرانك رودس "أخبر

د/چيمسون أن دورة البولو إذا لم تؤجل أسبوعاً ستصطدم مع أسبوع سباق الخيل". وفى ٢٢ ديسمبر وصلت أخرى من رودس أكثر تفاؤلاً: "سيعلن عن تأسيس الشركة السبت ٢٨". ثم فى ٢٣ ديسمبر وصلته برقية من شقيقه سام چيمسون بچوهانسبرج "من الأهمية القصوى تأجيل إعلان تأسيس الشركة". أما برقية هاريس فقد كانت تُعلمه بعدم حدوث التمرد وأضاف "لا يجوز لك أن تتحرك حتى تسمع منا مرة أخرى. إرباك بشع. آسف". يبدو أن جيم قرر العمل مستقلاً. أبلغ هاريس بأنه فى حالة عدم استعداد (الأجانب) "الإسهام سنعلن نحن من جانبنا تأسيس الشركة". وإن نجح سيُغفر له، وسيصبح بطلاً علاوة على ذلك.

فى ٢٦ ديسمبر أبلغ تشمبرلين سليسبرى ان "ثمة ثورة وشيكة ستحدث فى چوهانسبرج، ربما فى غضون بضعة أيام. لكن بعد مرور ثلاثة أيام لم تحدث الثورة. بعد أن نبه تشمبرلين سليسبرى إلى عدم حدوث شيء وإلى خطورة التحرك، بعث برقية إلى السير هركيوليس روبنصون المندوب السامى طالباً منه ان يحذر رودس من انه بدون تمرد "الأجانب" فإن أى توغل فى أراضى الترانسڤال سيعرض صك امتيازه الملكى للخطر. فى مقر التايمز بلندن، كانت المطابع على أهبة الاستعداد، وملأت أخبار الاضطرابات الأعمدة الصحفية. ثم تلقت التايمز يوم الإثنين ٣٠ ديسمبر برقية منذرة "تجاهل چيمسون التعليمات وعبر الحدود ومعه ٤٠٠ رجل". أسرعت شو بالبرقية إلى مكتب وزير المستعمرات لكن تشمبرلين كان يقضى إجازة بقصره الڤينيسى بهايبورى، بضواحى برمنجهام. ووفقاً لبيتر مارش، مؤرخ تشمبرلين، فإن وزير المستعمرات لدى علمه بهذا أحكم قبضته معلناً "إذا نجح هذا سيُقضى علىّ". كان تشمبرلين يعلم أنه بدون ذريعة التمرد سيفتضح أمر كل التفاصيل الكاذبة المبالغ فيها.

تلقت شو أيضاً برقية من هاريس فى ٣١ ديسمبر ومعها نسخة من خطاب من "لجنة الإصلاح بچوهانسبرج" يناشد فيه أعضاؤها چيمسون بالتدخل ويذكرون

مـجمل مظالم "الأجـانب" ويدعـونه إلى المسـاعـدة لإنقـاذ "آلاف الرجـال والنسـاء والأطفال العُزّل من جنسنا الذين سيـصـبحـون" تحت رحـمة البوير جيدى التسلح . وقّع الخطاب غير المؤرخ عن عمد، خمسة أعضاء من لجنة الإصلاح وسلموه على مضض لجيمسون، كى يظهره فى حالة عدم حدوث تمرد. زعم جيمسون أنه بحاجة للخطاب كى لا يكون توغله فى الترانسـفال بـأسلوب "قطاع الطرق". كـان بحـاجة لشىء يريه لرجاله وأيضـاً يبرر به عـمليتـه لحاملى أسهم شركة جنوب إفريقيـا البريطانية. أرّخ جيمسون الخطاب بتاريخ ٢٨ ديسمبر وقرأه بصوت مرتفع على قواته. أرسله رودس إلى شو (كان بين الوثائق التى استردها البوير فى الصندوق الصاج الأسود) ثم أبرق موافقته على نشر الخطاب. وهذا ما فعلته التايمز فى اليوم الأول من السنة الجديدة. لم تتلقه أية صحيفة أخرى، لم تنشره أية صحيفة أخرى. كان الخطاب للنشر الحصرى وظل حصرياً.

حينما اتضح ان جيمسون تجاهل التحذيرات المتكررة وبدت هزيمته وشيكة، ندّد تشـمبـرلين، وفى الوقت المناسب، بالغارة فى برقـيـة إلى روبنصـون "لو أنه قـد تم الإطاحة بحكومة جنوب إفريقيا أو أن أعمال فوضى قد اندلعت بجوهانسبرج، لتوفّر ظلٌ ذريعة لهذا العمل غير المسبوق" لكن بدلاً من ذلك فقد ارتكب جيمسـون "فعل حرب أو الأحرى مغامرة عسكرية Filibustering". (يشير هذا اللفظ إلى قيادة عصيان فى بلد أجنبى أو التحريض عليه). علق سليسبرى بالقول "إذا فشلت المغامرة العسكرية، فدائماً ما تكون مزرية وتكتسب سمعة سيئة".

وعلى الرغم من الذعر الذى ساد مكتب المستعمرات، احتفظت شو بهدوئها. يقول مويرلى بل "فى البداية تملك الغضب من تشمبرلين وفكر فى التخلى عن رودس وجيمسون، وجنوب إفريقيا، وصك الامتيازات الملكى، أى عن حزمة الألاعيب برمتها لكن ميس شو التى لا تقدر خدماتها للتايمز بثمن، تصرفت بديبلوماسية عالية. نجحت، ورغم تلقيها كل تلك البرقيات السلطوية من رودس : "أبلغى

تشمبرلين أن عليه ان يفعل كذا، وكذا على الفور؛ ابلغى تشمبرلين ان يتوقف عن إرسال تلك البرقيات الحمقاء للمندوب السامى.. "نجحت، فيما كانت تقضى أيامها بالمكتب الكولونيالى، فى الحفاظ على الوضع، الذى عرّضه چيمسون لبالغ المخاطر والشهبهات، الحفاظ عليه تحت السيطرة إلى أقصى درجة ممكنة.

وصل يونجهازباند إلى دوركوپ فى الوقت المناسب ليرى چيمسون وقد ألقى القبض عليه. قام بزيارة المغير "المنهار المحطم" بزنزانته حيث تباكى قائلاً: "إن جميع الضباط آنذاك كانوا يعملون وهم يشعرون أن أجانب چوهانسبرج قد خذلوهم". أسر مراسل التايمز فى مذكراته بعض الملاحظات "أثناء ذلك الأسبوع ظهر البوير بأفضل حال فيما كان أجانب چوهانسبرج فى أسوأ حالاتهم.. فاز البوير لأنهم لعبوا لعبة ظلوا يمارسونها طوال حياتهم، فيما شارك أجانب چوهانسبرج فى لعبة لم تكن لديهم بها خبرة. علاوة على هذا، لا يجوز فهم مجموعة چوهانسبرج على أنهم إنجليز نمطيون ولا ينتمى الإنجليز هناك أيضاً إلى افضل المصنفات".

رحل رودس إلى لندن فى ٣ فبراير لإنقاذ امتيازاته الملكية ولدرء خطر التحقيق البرلمانى. التقى هاريس بمحاميه بورشييه هوكسلى فى بلايموث.. كانت خطتهما هى كشف البرقيات التى تورط المكتب الكلونيالى، وهددا انه فى حالة حدوث تحقيق بأن يثبتا أن المتآمرين "تصرفوا بناء على رسائل من لندن عزت إلى وزير المستعمرات علمه التام بالمؤامرة وموافقته عليها". جابه تشمبرلين هذا بأن أنذر رودس بأنه إن تم الكشف عن البرقيات سيعنى هذا نهاية امتيازات شركة جنوب إفريقيا البريطانية ومعها نهاية الشركة. لم يكشف عن البرقيات، وبقى صك الامتيازات الملكى.

فى فبراير ١٨٩٧ افتُتح التحقيق الرسمى بواسطة لجنة برلمانية منتقاة قدمت أربع برقيات متبادلة بين رودس وهاريس ذُكِر بها اسم فلورا شو كدليل. أدلى كل

من شو وودس بشهادتيهما أمام اللجنة المشكلة من الحزبين والتى كان بين أعضائها هنرى لا بوشير، النائب الليبرالى المجاهر برأيه والمعادى للإمبريالية وكان من المتوقع أن يضغط بعدوانية لاستخلاص الحقيقة. كان تشمبرلين ذاته عضو اللجنة العاشر. مُنِح رودس فرصة تلافى الأسئلة المباشرة، كما لم تظهر أية "برقيات مفقودة" إضافية، ولم يذكر هو صلته الوثيقة بالتايمز.. علقت فلورا شو بقولها "لقد أظهر فى ظل تلك الملابسات السمات المميزة للشجاعة والصراحة. لم يُخف دوره فى الكارثة. تحمل مسئولية ما ارتكبه مرءوسوه باسمه بالكامل وتقبل جميع التبعات الناجمة". كان الدور الذى عينه رودس لنفسه هو الحمل الأضحية من أجل إنقاذ تشمبرلين.." وإنجلترا!! من ثم، بقيت امتيازاته المَلَكية واستثماراته، لكن الأفريكان "سكان جنوب إفريقيا ذوى الأصول الأوروبية" لم يثقوا ابداً بالبريطانيين مرة أخرى.

أدلت شو، وهى ترتدى الحرير الأسود واللؤلؤ، وترافقها شقيقتها لولو، بشهادتها مرتين، فى مايو ويوليو. امتلأت القاعة الكبرى عن آخرها بالصحفيين. كتب السير هربرت ستيفن فى مذكرة قصيرة مررها إليها أن "الصحفيين السذج شعروا ببعض الدهشة حينما اكتشفوا أنك لست عجوزا رثة الملابس". وعلى الرغم من أن رئيسها بل - عضو مجلس الإدارة المنتدب والمدير العام بالتايمز - كان قد صاغ البرقيات الرئيسية، فقد تم اختيارها لتكون كبش الفداء. كان چورچ إى بكل، رئيس التحرير قد قال فى خطاب وجهه إليها: "الأسلوب الذى أعتقد أنه يجب اتباعه لدى الحديث عن موضوع الصحيفة وبرقياتك هو التالى: أنك أرسلتيها على مسئوليتك، وعلى نفقتك، إنك لم تتلقى أية تعليمات بهذا الخصوص، وأن دور التايمز اقتصر على إرسال مراسلين ليبعثوا بتقارير عن الأحداث، وتم إرسالهم بدون علم رئيس التحرير أو موافقته.. وإن رئيس التحرير لم يكتشف ما فعلتيه حتى شهر أبريل.. وإنه قد عبّر عن جم استنكاره لما قُمتِ به".

وفقاً لمؤرختيها دوروثى هيلى وهلين كالاواى، احتفظت شو بتلك المذكرة وأرفقت بها تعليقاً يقول "أعطتنى روح الغدر والجبن الرسمى المجسدين بهذا الخطاب، الذى أُرسل إلىّ، وتلقيته عشية الاستجواب، وفيما كان المكتب يعلم جيداً أننى أعتزم تحمّل مسئولية تصرفات وأفعال ليست لى، أعطتنى أكثر دروس حياتى أُسى وسخرية".

وعلى الرغم من وجود البرقيات المحتمل لها أن تدينها، كانت شو رابطة الجأش، منرفعة جيدة الإعداد تملصت من عدد من الأسئلة لكنها بدت مباشرة. قالت فى شهادتها "أشعر وأنه أحاط بالأمر برمته الكثير مما يمكننى أن أدعوه ترويجاً للغموض والمؤامرات والاتجار بها، وأن شر الكتمان يفوق كثيراً ما يتسبب فيه الكشف عن كل شيء.. قالت إنها، مثل تشمبرلين. كانت تعلم عن إمكانية حدوث تمرد - وإن التفكير كان فى "خطة" لكن ليس "غارة" قالت إن موقفها يوجزه خطاب كانت أرسلته إلى بل فى أغسطس تتحدث فيه عن خطة يمكن أن تكون جديرة بدراسة جدية من قبل الحكومتين ومن إدارة صحيفة مثل التايمز، وليست عملية عسكرية طائشة كتلك التى قام بها چيمسون، كما أنها كانت خطة شريفة ليس ثمة سبب لأن يخجل منها المرء.

حينما ضغط المحققون على شو، قلصت أقوالها دور يونجهازباند إلى مجرد "ساعٍ" مجهول، ونفت تورط بل. ورداً على سؤال للمحققين عما إن كانت قد حفزت كتابة افتتاحية توجه اللوم لتشمبرلين والتوبيخ لچيمسون، أبلغتهم أن اتصالاتها مع المحررين ورؤسائها سرية وأنها قد تصرفت بحكم حقها الشخصى لدى إرسالها برقيات مورطة بدون علم من رئيس التحرير. حكم تشمبرلين على شهادتها بقوله "إن السيدة The Lady الشاهدة، تبز من حيث وضوح أفكارها وصراحتها وسلوكها العام الرجال جميعهم". أما التاريخ الرسمى لصحيفة التايمز فقد حكم بأن فلوراشو "من خلال تفكيرها السديد وشخصيتها المقنعة الآسرة أثّرت مباشرة

فى السياسات وفى رجال الدولة فيما حَمَتْ سمعة صحيفتها". برّأ التحقيق صحيفة التايمز - يعزى هذا إلى سلطة رئيس التحرير بأكثر مما يُعزى إلى الوقائع - يبدو أنه وفقاً لما ذكرته إيند موبرلى بِل مؤرخة شو، فإن خطاب باكل رئيس التحرير إليها "أفسد عملها بالصحيفة، وألقى عليه بظلال قاتمة لم تنقشع أبداً". أما من ناحيته، فقد أسف "الساعى" على دوره كوسيط، ذلك الدور الذى لا يكاد يرد له ذكر فى غالبية ما ذُكِر عن الموضوع. اتلف يونجهازباند الأوراق التى تورطه ومزق من مذكراته الصفحات التى يُذكر بها رودس أو چيمسون. كتب يقول لزوجته المقبلة نيلى دوجلاس "لم أر طوال حياتى بوضوح أكثر، شرورَ السير فى طريق الخديعة" وأضاف أن رودس وهاريس قد خدعا فلورا شو وجعلاها تصدق أن الوضع فى جنوب إفريقيا كان جد مختلف عما كان فى حقيقة الأمر، وتعتقد فى صحة ما ذُكر عن "النساء والأطفال" فى خطاب قادة الأجانب بچوهانسبرج، وبأنهم يقولون إن چيمسون مخلص وتلقائى على حين أن چيمسون نفسه هو من زوّر هذا الخطاب".

أما روديار كيبلنج شاعر الإمبريالية الأول، فكان رأيه عن چيمسون مختلفاً وعبر عنه فى قصيدته "If" الشهيرة والتى دائماً ما يستشهد بسطورها والتى رأى فيها أن بطله چيمسون كان سديد الرأى، واثقاً من نفسه، صبوراً لا يرد على الإساءة والكراهية بمثلهما؛ وأنه كان حالماً لا ينساق وراء أحلامه بل يجعل من أفكاره هدفاً له، لا يُنجرف وراء فرصة الانتصار أو إحباط الهزيمة، يبقى صامداً فى وجه الأكاذيب والاتهامات، ولا يستسلم لليأس أبداً بل دائماً ما يبدأ من جديد.

ألقت غارة چيمسون بظلال قائمة دامت طويلاً. اعتبرها المارشال جان سماتس، أحد الذين تولوا منصب رئيس وزراء جنوب إفريقيا فما بعد، أنها كانت الإعلان الحقيقى للحرب فى صراع الأنجلو/بوير الهائل، تلك الحرب التى نجمت عنها بشاعات مروعة. ولأن الغارة عمقت العداء بين بريطانيا وألمانيا (ساندَ القيصر

البوير) فقد رآها كيبلينج أولى معارك الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨). فى تمهيد لكتاب "الأزمة العالمية" استدعى ونستون تشرشل حديثاً له، كضابط شاب، مع السير ويليام هاركورت، عضو لجنة التحقيق. حينما سأله تشرشل "ماذا سيحدث إذاً؟" أجابه رجل الدولة الموقر "عزيزى ونستون، أقنعتنى تجارب حياتى الطويلة أن لا شىء يحدث أبداً". رأى تشرشل خلاف ذلك: "منذ اللحظة تلك، وكما يتراءى لى، لم تتوقف الأحداث.. أرى أن تاريخ تلك الأزمات العنيفة التى يشهدها بلدنا يبدأ بغارة چيمسون".

فى يومياته القيمة، يسجل ويلفريد سكاون بلانت، الذى لم يتوان لحظة عن توجيه النقد اللاذع للإمبريالية وداعميها، حديثاً له مع چورچ ويندهام عضو البرلمان الذى كان كثيراً ما يلتقى بچيمسون. أبلغ بلانت بشكل سرى أن فلورا شو كانت "فى واقع الأمر هى المحرك الأول للعملية برمتها"، وأنها كانت "تمسك بزمام المبادرة فى اجتماعاتهم جميعاً". ثم أضاف بلانت "إن ما تنشره الصحافة الإنجليزية عن الترانسڤال مُغثٍ، مزيج من التبجح والجُبن. كان الأحرى بهم تجنب كثرة الحديث عن الهزيمة المخزية التى تلقاها چيمسون على أيدى البوير، لكنهم أرادوا أن يتخذ منه الجمهور بطلاً، وهو الرجل الذى قاتل ستاً وثلاثين ساعة، ولم يُقتل من رجاله سوى ١٥ رجلاً، ثم استسلم. لم يذكروا ان الهجمة شُنت من أجل النّهم والاستيلاء على الأموال والأراضى، لا فى سبيل أية قضية. بل إن التايمز نشرت قصيدة تمتدحه ألفها أمير الشعراء الجديد. هذا هو قدْرُ التدنى والحطة الذى وصلنا إليه!".

أما ميس شو فقد سافرت بعد ذلك إلى كلونذايك لتشهد الهجمة على الثروة والتكالب على الإثراء من مناجم الذهب وسافرت أيضاً إلى جنوب إفريقيا كمراقبة أثناء حرب البوير وفى عام ١٩٠٠، وبعد أن كانت قد كتبت ما يربو على ستمائة مقال، وافتتاحية وعامود بالتايمز، تقاعدت من الصحافة اليومية. آنذاك كانت قد كسبت الشهرة بصفتها "امرأة فى أواسط العمر ذات مهارات عالية جداً" وفقاً لما قاله بلانت، لكنها كانت غير متزوجة.

كان رودس أول أصدقاء شو "الأفارقة" الذين يصعب أن يوجد نظير لهم على أرض الواقع. أما الثانى فكان السير چورچ تابومان جولدى، مؤسس شركة النيجر الملكية ذات الامتيازات، والذى كانت إمبراطوريته تتكون من ٣٠٠٠٠ كيلو متر مربع، لم يسبق أن اكتشف معظمها أحد من قبل، وذلك قبل أن تضمها الحكومة البريطانية إلى أملاكها.

كانت شو هى من أطلقت اسم نيچيريا على محمية النيجر الجديدة والتى لم تكن آنذاك تشمل مستعمرة لاجوس أو جنوب نيچيريا، أطلقته بعد أن ضغطت بنجاح فى التايمز من أجل تبنى هذا الاسم. أجرت شو حوارات مع السير چورچ زير النساء وبانى الإمبراطوريات، والذى كان يشاركها "ولعها!" بإفريقيا، ووقعت فى غرامه. توقعت أن تتزوجه بعد موت زوجته متيلدا عام ١٨٩٨، لكنه لم يتقدم إليها. وربما كرد فعل على هذا، قبلت عرضاً للزواج من السير فردريك لوجارد، صديق جولدى والذى كان يعمل لديه فى وقت ما. كتبت إليه تقول "لقد قلت ذات مرة إنك تريد أن تكسب حبى.. أنا أيضاً أريد أن أكسب حبك.. بيد أننا لا يمكن أن نجبر أنفسنا على هذا. فليتوقف كل منا عن المحاولة، ولنقنع بأن نتزوج كصديقين".

كان لفريدريك لوجارد، الذى أصبح اللورد لوجارد فيما بعد، أن يكون ثالث إمبريالى جديداً يكسب احترام محررة شئون المستعمرات وتقديرها.. التقته فلورا شو عام ١٨٩٣ حينما ذهب إلى مقر التايمز آملاً أن يُقنعهم بكتابة مراجعة تمتدح كتابه "صعود إمبراطوريتنا شرق الإفريقية" والذى كان شبه سيرة ذاتية للمؤلف قالت شو عن الكتاب "أكثر الإسهامات فى تاريخ شرق إفريقيا أهمية حتى الآن". حينما شكرها، أجابت على الفور "ودائماً ما أكون بمنزلى فى ساعة متأخرة من عصر كل يوم تقريباً".

أثناء مناقشاتهما، وجد فردريك حماس فلورا لرودس وجيمسون مفرطاً، وكتب بيومياته معلقاً: "تطغى عواطف المرأة دائماً على عقلها.. أعتقد أن الرجل يبدى

تحكماً أكثر.. أياً كانت درجة استثارته العاطفية يستطيع - إن كان رجلاً - أن يخلص نفسه من تأثيرها بقدرٍ وأن يرى الأشياء كما يراها غيره ويتصرف بأسلوب منطقى، على الأقل بأكثر مما تستطيعه المرأة".

" كان لوجارد رجلاً ضئيل الحجم متوعك الصحة من أثر الجروح التى تلقاها فى الحروب ونوبات الملاريا التى أصيب بها، لكن كانت عيناه متوهجتين، وشاربه طويلاً، اتباعاً منه للموضة التى كان كيتشنر قد روّجها. ربما لم يبدُ وأنه الزوج المثالى لفلورا شو ذات الشخصية الاجتماعية، وذلك بسبب تجهمه وإدمانه المفرط للعمل - كان من المعتاد أن يعمل اثنتى عشرة ساعة فى اليوم - لكن كان يجمعهما هاجسهما المشترك بالإمبراطورية وإفريقيا.

تخرج لوجارد فى الكلية العسكرية الملكية بساندهرست، والتحق بالجيش الهندى "البريطانى" واشترك فى حرب أفغانستان الثانية (١٨٧٩-١٨٨٠) واكتسب ولعاً بصيد النمور والخنازير. بدأت معرفته بإفريقيا حينما التحق بالحملة العسكرية لإنقاذ الخرطوم. تلقى جراحاً عميقة فى الغزوة التالية التى اشترك فيها ضد تجار العبيد العرب بنياسالاندا. فى عام ١٨٨٨ استأجرته شركة شرق إفريقيا البريطانية التى كان السير ويليام ماكينون، مالك البواخر الإسكتلندى قد أسسها، وذلك من أجل ترسيخ مزاعم الشركة فى ملكية الأراضى. عبر النيل إلى أوغندا عام ١٨٩٠ حيث قام برفع العلم البريطانى مزيناً بالتاج والشمس الذهبية - شعار شركة شرق إفريقيا. أيضاً، قام بسحق تمرد قام به زعماء القبائل المسلمة وتوسط فى عقد سلام بين البعثات التبشيرية البروتستانتية والكاثوليكية.

أصبح لوجارد خبيراً فى الدلالات (السيمياء) العسكرية الإمبريالية. كان يصر على إقامة خيمة على أكثر الأراضى ارتفاعاً لدى تعاطيه مع الرؤساء المحليين - كلما زاد عدد الرايات المرفرفة، والبزات العسكرية، والقبعات المزينة بالريش، والسيوف الطقوسية، وتردد طلقات التحية العسكرية المكونة من سبع عشرة قذيفة،

ونفخ الأبواق، وقرع الطبول، كلما زادت مظاهر الإمبريالية العسكرية هذه، زاد ترويع المحليين وهلعهم. كان فى الخامسة والثلاثين حينما التقى فلورا، وكان قد اعتنق الإمبريالية الجديدة بالفعل. لم يشعر بأية غضاضة فى الاستيلاء على الأراضى والبلدان. حينما كان بإنجلترا عام ١٨٩٢، شن حملة لإقناع إدارة رئيس الوزراء جلادستون الليبرالية بالحاجة لضم أوغندا. تحدّث دونما كلل أمام الجمعيات الجغرافية، وبالكنائس، والقاعات العامة فى مختلف المدن لإقناع الجمهور، مثلما أقنع التايمز، بأن لبريطانيا مصالح حيوية فى الاستيلاء بأية تكلفة على أوغندا، التى كانت قد قد شهدت ثورة مسيحية (أى حملة تنصيرية: الترجمة) ومن ثم تستطيع بريطانيا احتواء انتشار الإسلام. لكن الأهمية الحاسمة كانت ذات طبيعة استراتيجية. كان البيراليون، قبل ذلك بعقد من الزمان، قد احتلوا مصر على مضض منهم من أجل حماية الطرق إلى الهند، وكما كان جلادستون قد تنبأ، فقد نشرت بريطانيا سطوتها من رأس الرجاء الصالح جنوباً إلى الشمال والغرب لحماية مصر والطرق البحرية إلى الهند. والآن، أصبحت أوغندا، القريبة من الحدود المصرية، الحلقة الضرورية التالية فى السلسلة العظمى للإمبراطورية.

دعمت التايمز حملة لوجارد التى استمرت عامين من أجل ضم أوغندا وكانت نتائج هذا الدعم ملْحمية. حينما تقلد الحزب الليبرالى السلطة عام ١٨٩٢، لم يكونوا متحمسين للتوسع الإمبريالى، لكن هذا المناخ تغير بعد عامين، والفضل يرجع، جزئياً، إلى فلورا شو. قبيل أن يحدد البرلمان جلسات مناقشات مهمة للشئون الإفريقية، أقام لوجارد بحى هايبورى ليتولى إقناع تشمبرلين بآرائه. بعدها أسرّ لوجارد فى خطاب مفعم بالسعادة لشقيقه نِد بالقول إن كلمة وزير المستعمرات الافتتاحية فى ١ يونيو ١٨٩٤ كانت "بكاملها نتيجة لأحاديثنا" وعبر عن سعادته البالغة. ذكر فِى خطابه:

"قارن معرفة المجلس جميعه الوثيقة بالمسألة – بالمواضيع الفنية مثل المعاهدات

التجارية، نظام حيازة السّلطنات - قضية الرق - "الوضع القانونى" قمع الأساطيل البحرية - إلخ، بالجهل المطبق قبل ذلك بعامين. كانت حتى أسماء الشعوب والأماكن (المحلية) مألوفة فى الخطب. قارن ذلك بالجدل الذى دار فى ١٨٩٢ قبل أن أعود إلى الوطن وسيصدمك الفرق . قارن بين الاهتمام بأوغندا والجهل بها عام ١٨٩٠ قبل ذهابى هناك وسترى أن جهودى هناك وفى إنجلترا أتت بنتائج مدهشة. أشك فى أن المجلس كان سيشهد كل هذا العدد من الحضور الذين ملأوه عن آخره (وغيرهم - كثيرين احتشدوا خارج القاعة لعدم وجود فرصة لهم للتحدث) الملمين بكل تلك التفاصيل.. إلخ عن أية أرض أخرى تملكها الإمبراطورية البريطانية، كما كان الحال لدى مناقشة ذلك البلد الصغير الواقع وسط إفريقيا".

أضاف فى خطابه "خبّرتنى ميس شو" الإخصائية بالتايمز أن تحول موقف تشمبرلين كان لافتاً حقاً، وأنه فى عام ١٨٩٠ كان قد دعاها مرتين للعشاء، ولم يكن متحمساً بإطلاقه لإفريقيا، أما الآن فهو على قمة المتحمسين، بل أنه يفوق فى ذلك جميع أعضاء مجلس العموم". وبعد شهرين، كتب فى خطاب آخر لشقيقه يقول "يا إلهى، هذا نجاح أشعر بالفخر به. غالبية ساحقة من الحزب الليبرالى، وفى مقدمتهم تشمبرلين الذى تبدى كأحد أقوى الرجال فى البلد وأكثرهم نفوذاً. لك أن تعلم إننى قد مارست الكثير من التأثير عليه، وربما لا أكون مخطئاً فى القول إن الدور الكبير الذى لعبه فى المسألة الإفريقية، والمعرفة المفصّلة العميقة التى أبداها فى هذا الخصوص ترجع إلى حد كبير إلى جهودى". (مرة أخرى تردد لوجارد كثيراً على منزل تشمبرلين أثناء انتخابات ١٨٩٥، وكان خطابه قد كُتِب فى توقع منه أن يصبح حاكم أوغندا، لكن المنصب ذهب إلى منافسة السير هارى جونستون مما أصاب لوجارد بالأسى والإحباط).

لكن، لِم كل هذه السعادة؟ ما سبب تحول الليبراليين، ومناقشات مجلس العموم الحماسية، واعتناق تشمبرلين للإمبريالية الجديدة؟ من المفيد هنا أن نستطرد،

ونتذكر أنه فى أواسط العصر الفيكتورى، كانت إفريقيا، والرحالة والاكتشافات الجغرافية هناك، ونشر المسيحية، كانت بالنسبة للبريطانيين، أموراً تماثل رحلات الفضاء، ورجال الفضاء والصواريخ التى ترسل إلى القمر بالنسبة للأمريكيين أثناء الحرب الباردة. كانت الكتب الضخمة الثقيلة التى كتبها الرحالة من أمثال ستانلى، وبيرتون، وليفنجستون أحد ملامح مكتبات أفراد الطبقة الوسطى البريطانية. أصبحت المحاضرات فى الجمعية الجغرافية الملكية مناسبات سياسية واجتماعية، وساد نوع من جنون العظمة الأخرق يشوبه التدين. قبل ميتته "البطولية" بشرق إفريقيا عام ١٨٧٢ دعا الرحالة دايفيد ليفنجستون الأوروبيين لاجتثات تجارة الرقيق. ونشر السيهات "Cs" الثلاث فى القارة التى مازالت مظلمة - أى نشر التجارة Commerce، المسيحية Christianity والمدنية Civilization. قال لجمهوره بجامعة كامبريدج عام ١٨٥٧ "أناشدكم أن توجهوا اهتمامكم إلى إفريقيا أعلم أن فى خلال بضع سنوات ستقطع علىّ الطرق فى ذلك البلد (بإفريقيا)، التى تقف مفتوحة أمامكم الآن. لا تتركوها تنغلق ثانية".

كان هوس الأوروبيين واندفاعهم ليُبقوا على الأبواب مفتوحة زخماً بدرجة أن عقد بسمارك، مستشار ألمانى، مؤتمراً ببرلين عام ١٨٨٤ لوضع قواعد لحُمى الاندفاع إلى إفريقيا (وهذا تعبير ابتدعته التايمز). بدون ريب، كان المسعى إلى المكاسب هو ما مهد الطريق لكن الأهم كان هو المسعى إلى المجد وتوهمه الخيلاء.. وبمزج تلك العوامل جيداً مع الرؤى الاستراتيجية للسويس والهند، أتت النتيجة خليطاً قاتلاً فتّاكاً.

استمرت شو فى دعم مغامرات لوجارد الإفريقية. نشرت التايمز عام ١٨٩٧ مقالاتها الخمس عن غرب إفريقيا، ومعها طرحت اسم "نيجريا" لأول مرة، وأوجزت التبريرات لمقاومة البريطانيين عمليات "جس النبض" الفرنسية التى تجرى فى

منطقة نهر النيجر. وقع اختيار تشمبرلين على لوجارد ليقود قوة مهمات غرب إفريقية أسمتها الصحافة الفرنسية "سباق خيل واقعى على السهول الإفريقية". نجحت الحملة. وحينما تجاوز لوجارد الأوامر الصادرة إليه، بذلت شو جهدها من أجل حفظ السلام بينه وبين تشمبرلين. أبلغت لوجارد قائلة "أنظرُ إلى الأمر كجزء من عملى الشخصى وأحاول تجميع كل التأثيرات التى أعتقد أنها ستعمل لخير (ما تقوم به) فى إفريقيا بحيث نتناغم معاً".

وبعد أن كان لوجارد قد عمل أجيراً لدى أربع شركات ذات امتيازات ملَكية، اتخذ موقعه كأحد كبار اللاعبين فيما وصفته مؤرخته مارچرى پرهام، بتأثر وحماس: "عمليات (نشر) الحضارة البنّاء، والتى خلالها سار الرجال البيض، بأسمال بالية، ولحى وشوارب طويلة، وهم على قناعة راسخة بسموّهم العرقى ومهمتهم القومية والإنسانية، ساروا أميالاً فى الغابات، تحت الشمس والأمطار، وسبحوا عبر الأنهار وأصطادوا الحيوانات، وغرسوا أعلام بلادهم، وسال عَرَقهم، أو ماتوا فى خيامهم من الملاريا!!"

فى ١ يناير عام ١٩٠٠، تسلم مهام منصبه بصفته المندوب السامى بشمال نيجريا، وبدأ بهذا حياة وظيفية جديدة فى الإدارة الإمبريالية وقام بالتنظير لما أسماه "الحكم غير المباشر". كانت تلك استراتيجية قديمة، يرجع تاريخها إلى الإمبراطوريتين الرومانية والمغولية، واستخدمها الصينيون، وأضاف إليها المغول بالهند المزيد من التفاصيل والتعقيدات، وتبناها حاكم الهند البريطانى - وفعّلها بنجاح الشقيقان لورانس: چون و/هنرى، اللذان حكما البنجاب - لكن تطبيقها فى نيجريا كان جديداً. استمر أمراء القبائل ورؤساؤها يُسيّرون الأمور، ولكن البريطانيين كانوا هم من يحكمون من خلالهم. أوضح كلود ماكدونالد أحد حكام لاجوس هذه الرؤية بالقول "إن رئيس القبيلة الكبير هو من الممتلكات النفيسة؛ وسلطته أداة ذات منفعة عامة عظمى، ومن المرغوب فيه بقوة الحفاظ على سلطته

كاملة". أما لوجارد، فقد عبّر عن هذا بعمومية أكثر موضحاً أن هدف الإمبراطورية البريطانية هو "الحفاظ على الحكم التقليدى كقلعة للأمن المجتمعى فى عالم متغير". كانت إدارة المستعمرات الاستوائية والشرقية والتى كان يلهمها العِرْق لا الطبقة، انعكاساً للتراتبية الاجتماعية البريطانية. تربع الجنس البريطانى على القمة، يليهم الأمراء من قبيلة الفولانى، ثم الهوْسا المسلمون، ثم بعد ذلك بقية قبائل "الغابات". وكما يقول داڤيد كانادين فى كتابه "الزخرفة" فقد كان "لون بشرة الأشخاص أقل أهمية من وضعهم حسب التراتبية الاجتماعية المحلية". من ثم، كان الحكم البريطانى دلالة على استمرار الماضى لا قطيعة معه، وكما أوضح لوجارد فى خطابه للسلاطين المحليين ورؤساء القبائل بعد أن فتح مدينة سوكوتو عام ١٩٠٢ "فتح الفولانى قديماً، بقيادة دان فوديو، هذا البلد. من ثم اكتسبوا الحق فى حكمه وفى فرض الضرائب وخلع الملوك، وصنع الملوك. وبدورهم، فقدَ الفولانى سلطتهم لأنهم هُزِموا واكتسبها البريطانيون. والآن تصبح كل تلك الأشياء التى ذكرتها كحق للفولانى ملكاً للبريطانيين، الفاتحين الجدد. سيتم تعيين كل سلطان وأمير، وجميع المسئولين الرئيسيين فى الدولة فى جميع أنحاء البلد بواسطة المندوب السامى".

وبصفته المندوب السامى البريطانى فى نيجريا الشمالية، أكبر مستعمرات التاج البريطانى، تمكن لوجارد من أن يحكم مساحة هائلة - حوالى ٣٥٠٠٠٠ ميل مربع - بميزانية متقشفة، وعيّن وكيلاً بريطانيا "الخط الأبيض الرفيع" فى كل بلاط لحاكم إسلامى محلى، ودعم هؤلاء النواب مساعدات يقدمونها للأمراء ورؤساء القبائل وأحياناً حملات عسكرية عقابية. كان جوهر نظام حكم لوجارد غير المباشر هو "ممارسة السلطة من وراء ستار". أوجز هيو كليفورد، أحد "نوابه" لدى الحكام النيجريين هذا المبدأ كالتالى: "ينبغى على المسئول السياسى البريطانى أن يكون الهمسة التى تنبعث من خلف كرسى العرش، لكن ليس العرش نفسه أبداً ولو لحظة". بيد أن الحكم غير المباشر اقتضى وجود نقيضين لا يمكن التوفيق بينهما.

فعلى الرغم من تبرير الإمبريالية الجديدة نفسها كعامل للتحديث أبقى البريطانيون على هرمية السلطة الموجودة بالفعل وعلى الحكام الذين كانوا مقاومين لأى تغيير جوهرى. هذا علاوة على ان السلاطين والأمراء كانوا مدينين بمناصبهم للأجانب والكفار، وبذلك فقدوا شرعيتهم بالنسبة لمواطنيهم، وفى أغلب الأحوال أصبحوا مرتبكين، فاسدين ومنحلين. لكن، وعلى الرغم من عيوب النظام، فقد طبق البريطانيون وصفة تصنيع الملوك ذاتها على الشرق الأوسط وغدت نتائجها جلية حتى يومنا هذا.

فى عام ١٩٠١، عرض فردريك الزواج على فلورا. فى البداية، رفضت العرض، ثم لانت، ووضعا الاثنان خططهما فيما كان هو يمارس مهامه الوظيفية كمندوب سام بنيچريا. أقيم حفل الزفاف عام ١٩٠٢ بماديرا وسط أشجار الچاكرندا والبوجياڤيل والورود. كانت العروس فى التاسعة والأربعين والعريس فى الرابعة والأربعين.

وعلى الرغم مما اشتهر به لوجارد من تقشف وعدم الاهتمام بالعيش المريح الرغد وزعمه أنه لا يأبه بالماديات، إلا أن نيچريا أبرزت شهوته للترف والانغماس فى ملذات الحياة. قبل زواجه بعامين، رست عبّارة محملة بالأثاث فى نهر النيجر. شَمل هذا الأثاث، وفقا لقائمة السير فردريك (لوجارد) نفسه طاولات ومناضد من جميع الأنواع والأشكال ولجميع الأغراض، آرائك، مقاعد وثيرة، دواليب، أحواض رخامية، خزانات، شيزلونجات، وكراسى من خشب الورد، وآلات لصنع الثلج، وأطقم صينى ضخمة (١٢٠ طبق للطعام من الصينى والزجاج والأطباق المطلية كهربائياً) وسجاجيد، وأدوات مطبخ، وكل ما يخطر على بال) أُضيف إلى هذا ست وأربعون حاوية خاصة بفلورا إلى جانب صناديق أخرى بحيث غدا من الضرورى توسيع قصر الحكم ليتسع لكل ما رآه الزوجان ضرورياً لمنصب البروقنصل.

وعلى الرغم من تلك الأبهة، واجهت شو، تلك الشخصية الكوزموبوليتانية حياة رتيبة فى نيچيريا المنعزلة المتخلفة، كما عبرت عن ذلك فى خطاب لابنة شقيقها:

"لا يوجد ما يحدث على الإطلاق فيما تمر الأيام. أستيقظ بين الرابعة أو الخامسة. يُحضَر إلىّ شاى الصباح المبكر فى السادسة. أبعث الخادم إلى حجرة فرِد ليخبره أن الشاى جاهز. يدخل ناعساً ويتناول فنجاناً ثم يمضى إلى مكتبه حيث يكون فى انتظاره أكوام من الورق... ينتهى فرِد من العمل فى السادسة مساء، حينما تكون الشمس على شفا الغروب ونخرج للتمشية سريعاً من أجل ممارسة الرياضة ونعود وقد تبللت ملابسنا بالعرق وكأنما قد أُلقى بها فى طشت غسيل.. بعد العشاء نمضى ساعة فى الشرفة ثم نفترق فى العاشرة أو الحادية عشرة ويذهب كل منا إلى غرفته".

ورغم أنها كانت تبدو امرأة يمكنها الذهاب إلى أى مكان حيث "تكتب بعناية ثلاثة أعمدة صحفية على ظهر حقيبة ملابس بالصحراء"، فقد اعترفت فلورا أنها لم تكن تهتم حقاً بتفحص حياة السكان المحليين. كان لوجارد كثير الأسفار، وكانت هى تشعر بالوحدة والاكتئاب. كما وجدت المناخ والحشرات الضارية تفوق قدرتها على الاحتمال. أصابها المرض بعد حياة من البطالة، وأمرها الأطباء بالعودة إلى وطنها. عادت إلى قصرهما الريفى فى غابات سارى بالقرب من أبينجر بإنجلترا. هناك حولّت الأبواب الخشبية الضخمة التى كانت فى الواقع جزءاً من قاعة الاستقبالات الرسمية بمدينة كانو بنيجريا وتذكاراً لغزوات لوجارد هناك حولتها إلى بارفانات. كانت غرفة الجلوس الرئيسية مُزيّنة بالرماح، والدروع ورءوس الطرائد وجلودها، وطبلة بوغندا الملكية "التى يُستَدعى بها الضيوف إلى العشاء". كتبت لفرديك تقول "يالها من أشياء جميلة تلك التى أحضرتنى إياها من جزر الكنارى، لكننى واثقة من أننى سأحب الرءوس والجلود التى اصطدتها أنت أكثر كثيراً. إنك تعلم بالفعل كيف يروقنى أن أرى القاعة مؤسسة بالكامل بغنائم قوسك ورمحك".

وبما ان طبيعة لوجارد كانت تجعله لا يستطيع ان يُفوّض أى عمل إلى الآخرين - كان يشرف بنفسه على شراء ورق المراحيض - فلم يترك شيئاً لخيال مرءوسيه.

كتب لفلورا قائلاً "أحب الحياة الفخيمة التى يوفرها لى مركز القيادة حيث أستطيع الشعور أننى المسئول الأوحد عن كل شىء". توقع من نوابه المقيمين (لدى الحكام المحليين) ان يكونوا إداريين وديبلوماسيين أيضاً وعلى الرغم من عدم وجود مساعدين لهم أو آلات كاتبة لديهم كان عليهم إعداد حوالى ثلاثين مجموعة من المحاضر والسجلات يتم ترتيبها فى ملفات، أو ترسل إليه، وكانت تُغطى تفاصيل كل شىء بدءاً من الضرائب حتى القوافل، وفقاً لما ذكره بالتفصيل فى كتابه الشهير "مذكرات سياسية" الذى نشره عام ١٩٠٦. شملت بروتوكولات إدارة "الرئيس" لجميع تفاصيل التعاملات اشترطات بمنح كبار رؤساء القبائل سجادة بدلاً من كليم، وان ينهض "المندوب المقيم" واقفاً حينما يستقبل أحد رؤساء القبائل أو يصرفه من مكتبه وألا يظل جالساً.

وعلى الرغم من ذلك، ظلت كل السلطات - الضرائب، التحكم فى الشرطة والجيش، سن القوانين، التعامل مع الأجانب أو فصل مرءوسى الحاكم - فى يد النائب البريطانى المقيم، رغم وجوب الحفاظ على مكانة "برستيج" الأمير أو السلطان.

يجد القراء اليوم مراسلات الزوجين لوجارد اليومية - المليئة بالتفاصيل الإدارية من جانبه، والتشجيع والأفكار من جانبها - يجدونها قراءة تبعث على الكآبة: كل هذا الجهد نظير كل هذا التجاهل أو الازدراء بعد وفاتهما. وعلى الرغم من تفانيهما فى "العمل" فقد وجدا الفراق صعباً. وكحل للموقف توصلا إلى خطة لـ"الإدارة المستمرة" والتى كانا يشيران إليها فيما بينهما باسم "المخطط". كانت تتيح للوجارد الذى كان يبغض الإجازات وإناطة المهام لأى أحد آخر، ان يحكم لمدة ستة أشهر من مكتب وزارة المستعمرات برئاسة الوزارة بداوننج ستريت، ولمدة ستة أشهر أخرى من قصر الحكم بنيچريا. وبهذا انتقلت أرض المعركة من إفريقيا إلى

هوايتهول، وست مينستر، فليت ستريت، وماى فير (مراكز الحكم والمال والصحافة بلندن). وكما ذكرت مؤرخة لوجارد، مارجرى برهام "كان هو يصدر التعليمات العامة ويكتب المذكرات؛ وكانت هى تعمل لكسب تأييد الشخصيات المهمة جميعها. وفى حماسها هذا، سعت إلى كسب تأييد كثيرين ممن لم يكن لهم أهمية كبيرة فى واقع الأمر". انهالت الزنابق التى كان لوجارد يجمعها بنفسه على تشمبرلين هذا على الرغم من أنه كان آنذاك، قد استقال من الوزارة عام ١٩٠٣ بعد تبنيه امتيازات التجارة الإمبريالية. نجحت فلورا فى إقناع وزير المستعمرات الجديد ألفريد ليتلتون، الرياضى الوسيم، ان يقضى عطلة نهاية الأسبوع فى قصرهما الريفى بأبينجر، لكن جهود الزوجين ذهبت أدراج الرياح حينما انحرفت "الخطة" عن مسارها نتيجة لانتخابات عام ١٩٠٦ التى أتت إلى الحكم بالحزب الليبرالى برئاسة هنرى كامبل - بانرمان بدلاً من حزب المحافظين برئاسة آرثر بلفور. حينما أصبح اللورد إلجين وزير الدولة للمستعمرات رفض المصادقة على الترتيب غير المكتوب الذى كان الزوجان لوجارد قد توصلا إليه مع ليتلتون.

التجأت فلورا إلى التايمز وقد رفضت ان تستسلم. كشف مقال تحريرى رئيسى طويل بالتايمز يصادق على "الخطة" عن أنها هى الكاتبة. ألقت محاضرات عن نيجريا بالمعهد الملكى الكلونيالى وجمعية الفنون، استثارت بها تعليق عتاب نادر من لوجارد الذى قال: ألم يكن بإمكانها أن تترك لى مجال تخصصى الوحيد؟". ظهر كتابها "التبعية الاستوائية" وعليه إهداء "إلى زوجى" عام ١٩٠٦، وأرسلت ست نسخ منه بأغلفة جلدية فاخرة إلى الملك إدوارد السابع، وبلفور وملينر وليتلتون. جاءت تعليقاتها فى الكتاب متأثرة بالكاتب راسكين حيث قالت إن بناة الإمبراطورية البريطانية "يتكونون بشكل أساسى من هذا النمط من الشباب الإنجليزى جنوداً كانوا أم مدنيين، العازمين على خدمة بلدهم بأقصى ما باستطاعتهم وبخوض قدر كبير من المغامرة.. وعلى الرغم من أنهم كادوا ألا يكون لديهم أية خبرة عن إفريقيا،

بيد أن تدريبهم في المدارس الإنجليزية الداخلية الأهلية، وبالجيش، والجامعات، حيث يُعدّ الرجال جميعهم بالتساوى للاضطلاع بالمسئولية، والخضوع بإخلاص وموالاةٍ للسلطة، (وبهذا فهم يمثلون) جوهر وقوام الأمة الإنجليزية الأمثل".

- وعلى الرغم من حملتها تلك، فقد وقعت "الخطة" ضحية، ليس فقط لتغيير الحكومة لكن أيضاً لمقاومة زملاء لوجارد بوزارة المستعمرات الذين رفضوا فكرة أن يتدخل "رجل موقعه هناك" (في المستعمرة) في عمل صناع السياسة بالوطن. كانت فلورا قد حاصرت أحدهم، أي ونستون تشرشل الوكيل الجديد لوزارة الدولة لشئون المستعمرات. كتبت للوجارد عن حوارها مع "الصبي الجاهل" الذي يبلغ الحادية والثلاثين من العمر، تقول لم ير أي سبب يصبح من أجله مقر وزارة المستعمرات بانثيوناً (مبنىً عاما) يتجمع فيه "البروقناصل".

لكن هذه ليست القصة كاملة. قبل انتخابات عام ١٩٠٦، كان تشرشل قد انتقل من حزب المحافظين إلى الحزب الليبرالي الذي كان يدين، جزئياً، بانتصاره لعدم شعبية حرب البوير التي انتهت واقعياً بالتعادل بين الفريقين المتحاربين. لدى توليه منصبه الجديد، قام الشاب ونستون على الفور بمواجهة المأزق الأخلاقية للعمليات البوليسية الإمبريالية وأنشطة الشرطة في المستعمرات. كانت انتفاضة قد اندلعت بمدينة سوكوتو بشمال نيجيريا بقيادة شخص يدعى مالام (معلم) نصّب نفسه "المهدي المنتظر" لقِيَ فيها اثنان من "نواب" الحكام البريطانيين، وضابط أبيض، وسبعون من خيّالة الشرطة حتفهم، حيث قتلوا بالمعازق والفئوس والرماح. اقترح لوجارد عملية ثأرية تُستخدم فيها رشاشات المكسيم. لكن تشرشل عارض "إبادة الغوغاء شبه العُزّل" واشتكى لزملائه قائلاً: إن لوجارد يتخيل نفسه قيصراً، ونيجيريا إقطاعيته الروسية الاستوائية. ألحق تشرشل المذكرة التالية بالأمر الذي يحظر الحملة العقابية: "إن عمليات إراقة الدماء المزمنة التي تلطخ المواسم غرب الإفريقية كريهة وباعثة على القلق. هذا على الرغم من احتمال إساءة تأويل المغامرة

بكاملها من خلال من ليس لهم دراية بالمفردات الإمبريالية بصفتها عملية قتل للسكان الأصليين والاستيلاء على أراضيهم".

عاد لوجارد غاضباً إلى إنجلترا فى إجازة فى صيف ١٩٠٦ واستقال فى سبتمبر. فى هذا الصدد، كتبت شو تقول "كانت تلك الملابسات العصيبة تدمّر صحته، وفيما نكثت الحكومة بعهدها معه شعر بعدم وجود إلزامات جديرة بالحفاظ عليها كى يستمر فى منصبه". وبعد فترة قضاها حاكما لهونج كونج، وفلورا إلى جانبه، تمكن مكتب المستعمرات من إغراء لوجارد للعودة لإنشاء اتحاد بين شمال نيجريا وجنوبها، الأمر الذى مثّل خاتمة مناسبة لحياته الوظيفية. خلال فترة حكمه الثانية بنيجريا ما بين عامى ١٩١٢ و١٩١٨، حيث عُيّن حاكماً عاماً لنيجريا المُدمَجة، واجه تحديا يصعب التحكم معه فى تطبيق نظام الحكم غير المباشر فى المناطق الجنوبية والغربية حيث لم يكن ثمة هرَمية اجتماعية قبلية على رأسها أمير أو سلطان. وعلى الرغم من اندلاع أعمال شغب عديدة ثابر فى تطبيق استراتيجيته. لكن، بأية نتيجة؟

يزعم لوجارد فى كتابه "الانتداب (التفويض) المزدوج فى إفريقيا الاستوائية البريطانية" الذى نُشر عام ١٩٢٢ بعد أربعة أعوام من تقاعده، أن نظامه لـ"الحكم غير المباشر" كان "أكثر الأنظمة شمولية واتّساَقاً وذيوعاً لإدارة الحكم فى تاريخ الامبريالية البريطانية". رأى أن أوضاع الانتداب كانت تبادلية إذ إن "أوروبا موجودة بإفريقيا من أجل المنفعة المتبادلة لطبقاتها الصناعية وايضا منفعة الأعراق المحلية (للعمل) على ارتقائهم إلى مستوى أعلى". زعم أن المناطق الاستوائية هى "إرث البشرية" جمعاء. وأن المهارات الأوروبية تُستغل نظير الحصول على موارد تلك المناطق الطبيعية. تصور لوجارد مستعمرات يديرها موظفون كولونياليون مؤلّهون من " الطبقة المناسبة من خريجى مدارسنا الداخلية الأهلية وجامعاتنا" تدفعهم مدركات شبه حماسية عن العدل، وحماية الضعفاء، والتزام بالقواعد

والقوانين. لكن ناقديه رأوا أن نظامه خنق المؤسسات الأهلية للسكان المحليين بتفضيله للأمراء القبليين المسلمين الذين يرتدى حراسهم دروعاً من الحلقات الحديدية المتداخلة، على خريجى المدارس التبشيرية المسيحيين، والأسوأ من هذا وفقاً للورد هايلى، المؤرخ المرجعى لإفريقيا البريطانية، فإن ما قصد به أن يكون سياسة مؤقتة، تيبّس ليصبح "مبدأ سياسياً" ثم "عقيدة دينية".

علاوة على ذلك، يرى الناقدون أن محاباة لوجارد لأمراء القبائل المسلمين بالشمال أوجد صدعاً مازال موجوداً حتى الآن، انقساماً فاقمه اكتشاف النفط فى الجنوب المسيحى بأسلوب يماثل اسلوب المسئولين بالهند. وسم لوجارد المتعلمين الأفارقة بلاجوس بوصفه اياهم بأنهم "بابوهاتbaboos" وهو مصطلح قدحى مهين كان يوصف به ذوو التعليم الغربى بالبنغال، كما منع تدريس الجزء الخاص بخلع الملك تشارلس الأول وقتله أثناء الحرب الأهلية الإنجليزية فى القرن السابع عشر خوفاً من أن تعمل تلك المعلومات على "تنمية عدم احترام للسلطة". اتبع خلفاؤه خطاه بتفضيلهم أمراء قبائل الفولانى والهوسا على سكان "الساحل الإفريقى" مما أدى إلى توليد المشاعر العدائية التى أسهمت فى النزاعات المدنية والأهلية التى ابتليت بها نيجريا منذ الاستقلال عام ١٩٦٠ وحتى يومنا هذا. الأهم من ذلك، وكما سنرى فى الفصول اللاحقة فإن وصفته للحكم غير المباشر كما فصّلها بوضوح لأتباعه فى كتابه "مذكرات سياسية" أصبحت النموذج المعيارى للمغامرات الإمبريالية المستقبلية بالشرق الأوسط، تلك الاستراتيجية التى وصفها أحد الكتاب الساخرين بأنها استراتيجية "شيخ للإيجار، وأمير للبيع".

وعلى الرغم من أن لوجارد تقاعد عام ١٩١٨، إلا أنه استمر يعمل فى اللجان والمجالس عالية المستوى، وفى المفوضية الدائمة لشئون البلاد تحت الانتداب التابعة لعصبة الأمم. استمرت فلورا، التى كان من غير الممكن لها، مثل زوجها، أن تظل دونما عمل، فى كتابة المقالات بين الآونة والأخرى. حصد لوجارد تنويعة من

الأوسمة والدرجات الجامعية الشرفية، وفى عام ١٩٢٨ مُنح لقب بارون ليصبح لوجارد، بارون إبينجر. وكالمعتاد، كان لليدى لوجارد الكلمة النهائية قالت وهى تعانق هدية عيد ميلاده التى كانت عبارة عن مجموعة مناديل من الكتان الفاخر المشغول عليها تاج النبالة" هذه هى الهدية التى أُحبها، هدية قضيت العمر كله كى أكسبها". وبعد مرض طويل، توفيت الليدى لوجارد فى ليتل بانكهرست يوم ٢٥ يناير ١٩٢٩ وهى فى السادسة والسبعين وطوال مدة السنوات الست التى عاشها زوجها بعدها أبقى على غرفتها تماماً كما تركتها. نقَش على الرخام فوق قبرها بكنيسة إبينجر العبارة التالية "كل ما فعلته كان أن أحاول وأصفّ قوالبى باتساق".

الفصل الثالث

"د. وايزمان..... مبروك جالك ولد"

مارك سايكس

١٨٧٩ - ١٩١٩

الفصل الثالث

أعطنى رمحى! أيتها السّحب انقشعى!

آتنى عربتى النارية!

لن أتوقف عن معركتى العقلية

ولن ينم سيفى فى يدى

وحتى نقيم أورشليم

على مروج إنجلترا الخضراء، وأرضها الطيبة.

ويليام بلايك "ميلتون" (١٨٠٨)

حينما نتناول السير مارك سايكس، سادس وريث للقب البارونتية فى أسرته، الرحالة وصانع الأمم، ورسام الكاريكاتير، والفارس المتجول المغامر، فإننا بذلك نترك عالم كيپلينج شاعر الإمبريالية وأبطالها، ونلج عالم الأديب ترولوب - ليس عالم أنطونى ترولوب الروائى صاحب بارشستر تاورز و"شخصياتها" الكنسية - بل عالم كاتب سداسية القصص البرلمانية الرائعة وشخصياتها من النبلاء غريبى الأطوار والمغامرين الوضعاء وربات البيوت المتعجرفات الآمرات الناهيات، وأعضاء البرلمان الأيرلندى المُبذرين السفهاء. وبشكل نمطى، تتمحور قصص ترولوب حول أحد الوجهاء الفرسان، من ملاّك الأراضى الريفيين، مُسْتَقل ماديا، ودود وحلو المعشر. تميزه العزيمة وقوة الشخصية، وعينه الزائغة.. أحياناً.. عادة ما يكون هذا الشخص طفلاً لوالدين عاطفيين غير متكافئين، يتكتمان، كما يكتشف القارئ، سراً

قاتماً دفيناً. فى الفصل الأخير، تتجمع الخيوط، ويحصل البطل على جائزة تليق بقبضته على الأمور، مثلما حدث مع مارك سايكس الأب الروحى غير المتوقع لدولة إسرائيل، والذى لا يذكره أحد، بعامة، بصفته هذه.

القليلون من وجهاء يوركشاير الفرسان هم من كانوا أكثر ثراء (أو تبطلاً) من والد مارك، السير تاتون سايكس مالك اقطاعية سلدمير، والذى كان يمتلك ثلاثة وأربعين ألف فدان، وكان زوجا لجسيكا (چيسى) كاڤنديش - بنتنيك، ابنة أحد أعضاء البرلمان البارزين عن حزب المحافظين، وحفيدة دوق پورتلاند الرابع. كان زفاف والد مارك، الوريث الخامس للقب البارونتية، بكنيسة وستمينستر، حديث الموسم بلندن، جزئياً بسبب الهدايا السخية التى قدمها العريس لعروسه (التى كان من بينها إكليل وطقم من الماس)، وجزئياً لأن چسيكا كانت فى الثامنة عشرة، وكان

تاتون فى الثامنة والأربعين. يذكر روچر أدلسون، مؤرخ مارك، وجود رواية مصوّرة بمكتبة سلدمير بها رسم لرجل عجوز ناعس على كرسيِّه كتبت تحته چسيكا بالقلم الرصاص (شهر العسل ١٨٧٤). يبد أن فارق السن لم يكن وحده هو الذى ألقى بظلاله على الزواج. يذكر "معجم البيوجرافيا القومى" بلباقة أن السير تاتون" كان يمارس هوايات طبقته وكان مدمناً للسفر إلى الخارج "كان لچسيكا اهتمامات أوسع". كانت قد درست الفن بباريس، وكانت مولعة براسكين (زارته بمدينة البندقية) ومثل الليدى كاربورى فى رواية "الأسلوب الذى نحيا به اليوم"، تحولت إلى التأليف وكتبت روايات استُقبِلت جيداً. كانت أنيقة اجتماعية، مسرفة ومتمردة؛ وكان هو ذا لياقة بدنية، شحيحاً، مهندم الزى والمظهر، مخلوقاً محافظاً، عاداته خشبية صارمة لا يغيرها.

فى عام ١٨٧٩، ولد للزوجان طفلهما الوحيد، الذى يعرفه العالم باسم مارك، لكنه قُيِّد فى سجلات الكنيسة باسم تاتون بنڤنتو مارك سايكس (أضافت چس الاسم الإيطالى بنڤنتو، وكان "تاتون" لقب عائلة والده واسماً قديماً من مقاطعة يوركشاير). حينما كان مارك فى الثالثة، تدخل فى حياتهم فعل إلهى. تقاسم والداه اهتماماً جادا بالدين، وحماسا لإحياء فن المعمار القوطى بدرجة أن السير تاتون أسهم فى تمويل إصلاح خمس عشرة كنيسة أنجليكانية من هذا الطراز. كان زمانهما زمان حماس وتقلبات دينية، نمذجتها "حركة أكسفورد" المقلقة التى أدت إلى انقسام أتباع الكنيسة، بين صفوة مؤسسة أكسبريدچ (أُكسفورد/كامبريدچ) المحافظين وأعضاء مجلس العموم (اعتبر جلادستون اعتناق چون هنرى نيومان الكاثوليكية "كارثة"). تبعت الليدى سايكس الطريق إلى روما والذى قاده الكرادلة نيومان وألفرد هنرى مانينج (الذى كانت تتبادل معه الرسائل أثناء رحلتها فى إيطاليا مع زوجها)، تقبل الكاردينال مانينج چسيكا فى العقيدة الكاثوليكية وأجرى لها المراسم ومعها ابنها الذى كان فى الثالثة. رفض السير تاتون المشاركة لكنه لم

يعارض قرارها. لكن طريقهما تشعب، وتساءل أصدقاؤه إلى متى، وإلى أى مدى، سيستمر البارونيت الخامس النزق فى إرضاء نزوات زوجته العنيدة، وبخاصة بعد أن استقلت بحياتها، وبدأت تستضيف أصدقاءها وتقيما الولائم بمنزلها بحى هايفير، وسعت، دونما جدوى، لإخفاء الديون المتضخمة لجلسات القمار.

لكن إدمان الزوجين للأسفار، عادة إلى أماكن بعيدة فى العالمين القديم والحديث، أجّل موعد المحاسبة. كانا يسافران بأسلوب فخيم، واحياناً كانت المجموعة التى تتنقل معهما تضم ابنهما، وطاهيا، ومرافقا ومدرسا خصوصيا. حينما بلغ مارك الحادية عشرة كان قد تفقد "طريق الآلام" بالقدس، وشاهد مصارعة الثيران بالمكسيك، وملأ دولابه بمختلف الخوذات وأغطية الرأس التى ابتاعها من البازارات العثمانية. كان أيضاً قد زار بصحبة والده أماكن غير مألوفة حيث شاهد نزلاء مستشفى المجانين بدمشق (قال عنهم: لن أنسى أبداً مشهد البؤس والرعب هذا) واحتسى الشاى مع شيوخ الدروز بجبل لبنان "ملأنى كرم ضيافتهم وكبريائهم بمشاعر الإجلال والتوقير). شملت أسفاره أيضاً الهند حيث قابل الحاكم البريطانى، ومصر، حيث حدّق وهو فى أسوان فى تخوم "الدراويش" وحيث أصبحت الليدى سايكس، فى القاهرة، عشيقة الدبلوماسى الشاب چون إلدون جورش (الذى خلف، فيما بعد اللورد كرومر كبروقنصل مصر، والذى أصبحت ابنته إديث ڤيوليت زوجة مارك).

حينما عادوا إلى إنجلترا سجلت چسيكا ابنها مارك بكلية بيمونت التى كانت تعرف بصفتها المناظر الكاثوليكى لمدرسة إيتون النخبوية، والتى كانت تقع هى الأخرى بضاحية ويندسور. وفيما هو طالب مقيد بالمدرسة، كان الصبى يأخذ إجازات لأشهر عدة ليسافر مع والديه ويعود ومعه مختلف أنواع العمائم والتُمهوك (فئوس صغيرة خفيفة كان يستعملها هنود أمريكا فى القتال) التى كان يستخدمها فى ألعاب الحرب التى كان يقوم فيها بدور أعرابى أو هندى أمريكى. حاز على

إعجاب زملائه فى المدرسة لجرأته وصلافته مع الكبار وعدم اهتمامه بملابسه. كان آنذاك قد أظهر موهبة فى الكاريكاتير حيث ملأ دفاتره باسكتشات مازحة مازال يُحتفظ بها فى أرشيفات سلدمير العائلية.

فى عام ١٨٩٥، وبدعوى إعداد ابنها البالغ من العمر خمسة عشر عاماً للجامعة، ألحقت ليدى سايكس ابنها بمدرسة جزويت فى مونت كارلو، حيث تشارك فى شقة مع أمه، وثلاثة كلاب صيد من فصيلة "التَريْر"، ومدرس خصوصى اسمه إجرتون بِكْ. تمهلت جسيكا فى إقامتها بموناكو، وأخذت تراكم الخسائر على موائد القمار، لكنها أيضاً كونت علاقة صداقة مع أمير موناكو وأميرتها.

تذكر مدرس مارك الخصوصى، بعد سنوات، ان مارك استوعب، أثناء إقامته بموناكو، ما رآه جديراً بالاستيعاب" كان يهتم بكلابه وبالأشخاص من حوله، وجد الأمور الغريبة بموناكو مدعاة للتسلية، مثلاً جيشها المُصغَّر، الجدار الأبيض الذى كان يُستخدم لكتابة الأخبار والتعليمات الرسمية عليه، وكيف أن كازينو القمار هناك هو الذى كان يدير مؤسسات الأمير والأساقفة والكنيسة والدولة بموناكو. وبعد أن قدمته أسرة جريمالدى الحاكمة بموناكو إلى المعارف والأصدقاء، كان مارك يتحدث فى حدائق القصر مع الدوق ريشيليو (شقيق أميرة موناكو)، وقام هو ووالدته بزيارة أوچينى، إمبراطورة فرنسا المخلوعة فى محل إقامتها بكاب مارتن. لكن، وفقاً لتعليق مارك كان أكثر ما حاز على اهتمامه هو الكازينو حيث "تعلمت كل شيء عن موائد القمار ومديرى الألعاب".

من الواضح أن طفولة مارك لم تكن عادية. قد يأسر اهتمام الأطفال البريطانيين الآخرين، القلاع، والدروع، والفروسية، لكن مارك، الوريث الصغير، أقام على مروج سلدمير نموذجاً لقلعة على مساحة عشرة أقدام مربعة، نموذجاً كاملاً بالتحصينات والأجزاء الناتئة، والكوّات والاستحكامات. والحصون الجدارية، والمدافع، على غرار تصميمات سباستيان ڤوبان المهندس العسكرى الفرنسى. ابتلع

إعادة تمثيله اللافت لحصار عسكرى حدث فى القرن السابع عشر، ابتلع مرجة القصر، تماماً مثلما فعلت المعارك التى مثلها مع الشباب المحليين بالبزات العسكرية وانقسموا فيها فريقين أحدهم يمثل الثوار البيوريتانيين (Round-heads) الإنجليز فى القرن السابع عشر والآخر يمثل أنصار الملك تشارلس الأول (Cavaliers). قد يحلم بعض من الصغار أيضاً بالماضى، لكن كان بإمكان الصبى مارك قراءة المخطوطات الخاصة بعائلته والتى يرجع تاريخها إلى العصر التيودورى فى القرن الخامس عشر. قد يبدى بعض شباب العائلات الراقية الفضول حول حياة الفيكتوريين الجنسية الخفية، لكن مكتبة العائلة بسلدمير التى امتلأت أرففها بمجموعات الكتب المنتقاة أتاحت لمارك الاطلاع على تعليقات ريتشارد برتون ومقاله "الختامى" الذى ألحقه بترجمته لكتاب ألف ليلة وليلة والذى كان يتعاطى مع الممارسات الأيروسية فى المنطقة التى كان الجميع يسمونها "الشرق".

بيد أنه وقعت أحداث غامضة غير متوقعة. فى عام ١٨٩٦، نُقل مارك من مدرسة مونت كارلو إلى معهد سانت لوى الكاثوليكى ببروكسل. ولدى عودته إلى مونت كارلو لقضاء إجازة عيد القيامة (وفقاً لما رواه مؤخراً حفيده كريستوفر سايمون سايكس) توقع استقبالاً حافلاً من كلابه، الذى كان عددها قد أصبح ثمانية، لكنه وجد بدلاً من ذلك صمتا صقيعياً فيما تحاشى الخدم النظر فى عينيه. ثم، وبناء على تعليمات كان السير تاتون قد أصدرها، رافقه أحد السياس إلى الطريق الطويل الذى تسير فيه العربات: "وهناك وتحت شجرة زان مرتفعة إلى جانب إحدى البوابات الحديدية، كان بانتظاره مشهد بشع: جثث كلابه الحبيبة متدلية من أحد الأفرع، بعد ان تم خنقها حتى الموت بناء على أوامر أبيه".

المُرجّح، أن السير تاتون، الذى كان يزداد عنفاً بمرور الأيام بعد أن أصابه الغضب والسخط نتيجة لتراكم ديون زوجته وانتشار الشائعات عن خياناتها الزوجية، قرر توجيه الضربات الثأرية لها، فى البداية من خلال ابنها، ثم بعد ذلك

من خلال الصحافة. نشر، بناء على نصيحة المحامين، الإشعار التالى فى التايمز "أنا، السير تاتون سايكس، وبارونيت سلدمير بمقاطعة يورك، ورقم ٤٦ شارع جروفر بمقاطعة لندن، أعلن بموجب هذا الإشعار أننى لن أكون مسئولاً عن أى ديون أو التزامات تلتزم بها زوجتى، الليدى چسيكا كريستينا سايكس، سواء بزعم أنها باسمى، أو بموافقة منى أو خلافه، مؤرخ يوم ٥ ديسمبر عام ١٨٩٦". "كان إخلاء المسئولية هذا قابلاً للتطبيق وفقاً لقانون كان البرلمان قد وافق عليه مؤخراً وأصبح السير تاتون أول من استخدم هذا السلاح المشين. وعلى الرغم من ذلك، ساورت الشكوك أصدقاءهما فى وجود أزمة فى الكواليس قد يعزى إليها غضب السير تاتون. اتضح أن ثمة أزمة بالفعل هذا على الرغم من أن طبيعتها غير المتوقعة ظلت سراً قرابة قرن من الزمان.

فى يونيو ١٩٧٦، تلقى كريستوفر هيو سايكس، ثانى أبناء مارك الثلاثة (وعم كريستوفر سايمون سايكس) خطاباً غريباً من امرأة لا يعرفها اسمها ڤيرونيكا روبرتس. بدأ خطابها كالتالى: "أبى، الذى اشتد عليه المرض الآن، هو ابن والدك وأليس كارتر، وكان قد وُلد عام ١٨٩٥ حينما كان كلاهما صغيرى السن". وأغلب الظن أن مارك سايكس، الذى كان آنذاك فى الخامسة عشرة، هام حباً بمُدرِّسة فى قرية كان والدها يعمل سائساً للخيل بسلدمير. هرب الوريث الولهان ومعه خطيبته إلى لندن حيث اقتفت الليدى سايكس أثرهما. ناشدتهما أن يعيدا النظر فى الوضع، وتقدمت إليهما بعرض سخى تعهدت فيه برعاية أليس كارتر وقامت على الفور بتوفير مأوى لها فى منزل لأصدقائها. أُرسل مارك إلى مونت كارلو فى معية أمه ومدرس خصوصى يقظ. وبعد عدة أشهر، وضعت أليس حملها، هكذا قيل، ووعدت چسيكا برعاية الأم والطفل إذا ظل أمر مولده سراً ولم يخبر به ابنها. تم الوفاء بالوعد، ووفقاً لجميع الروايات، لم يُخبر مارك أبداً، هو أو أولاد چورچ الستة بشئ عن هذه الواقعة.

أجّلت الليدى سايكس إخبار زوجها عن الولادة المرتقبة لأطول وقت مكن بعد أن تحملت نوبات غضبه لفترة طويلة. وحينما أُبلغ أخيراً، يقال إنه أقسم أن يحرم ابنه بعد فعلته الشائنة، من الميراث. ثم لان جانبه، لكنه صب جام غضبه على كلاب الوريث، أو هكذا يبدو الأمر الآن. وُلد چورچ ابن مارك غير الشرعى قبل موعده، ويبدو أن چسيكا نجحت فى إخفاء السجل الرسمى لمولده. بعد ذلك تبنت مارى بيدچ ابنه خال أليس هى وزوجها فردريك لوط، المولود. وحينما كبر، التحق چورچ، بمساعدة جدته، بمدرسة داخلية حكومية بمدينة كنت أهلته للانضمام إلى الأسطول الملكى لدى اندلاع الحرب العالمية الأولى. تطوع جندياً فى كتيبة غرب كِنت الملكية، وبمحض الصدف الغريبة، بُعث به إلى مدينة غليپولى التركية على متن نفس السفينة الحربية التى كان والده يعمل عليها ضابطاً بالجيش.

لِم لَمْ يكتب چورچ مذكرة للمقدم مارك سايكس "كما كان يلقب آنذاك" الذى كانت والدته قد أسرّت إليه بهويته؟ حينما وَجهت إليه ابنته هذا السؤال، يقال إنه أجاب "أنت لا تفهمين. لا يكتب العسكرى مذكرات للضباط، لو فعلت ذلك لواجهت متاعب عسيرة. وعلى أية حال، لم يكن ذلك وقتاً مناسباً لأن أذهب إليه أمام جميع الضباط الآخرين، وأقول له إننى ابنه المفقود منذ زمن طويل". ثم حدث أن وقع چورچ مريضاً وأُرسِل إلى مستشفى بالقدس، وهكذا تحاشى نيران المدفعية القاتلة على شواطئ غليپولى. لم ير مارك ثانية طوال عمره. ولدى انتهاء الحرب تزوج وأنجب ستة أطفال كانت ڤيرونيكا أكبرهم. احتفظ چورچ بسره طى الكتمان حتى عام ١٩٦٩ حينما كان ابن ڤيرونيكا يصمم شجرة للعائلة. لجأ إلى جده ليساعده. بيد أن الأب وابنته قررا عدم الاتصال بعائلة سايكس خوفاً من تجاهل القصة بصفتها تلفيقاً لمبتزين أو متصيدى الثروة.

فى عام ١٩٧٥ قررت ڤيرونيكا، بعد تدهور صحة چورچ، وظهور سيرة مارك سايكس لكاتبها روجر أدلسون، قررت كسر جدار الصمت. كتبت خطابا إلى

كريستوفر سايكس، بدلاً من أخيه الأكبر السير ريتشارد سايكس مالك إقطاعية سلدمير الذى رجحت أنه سيشك فى وجود دوافع مالية. عُرف كريستوفر هيو سايكس، الكاتب المحترم، بكتابة السير المعتمدة لإڤيلين ووه، كما كان قد كتب مرثية مديح ثاقبة محبة عن والده، ركز فيها على اعتناق مارك للصيهونية. لدى تلقيه خطاب ڤيرونيكا ركّز اهتمامه على التحقق من روايتها. اتضح، من البحث وجود سائس فى سلدمير عام ١٨٩٥ لا يكاد أحد يتذكره كان اسمه كارتر، وكانت ابنته أليس تعمل مدرسة بإحدى القرى. التجأ كريستوفر لشقيقته الكبرى فريا كى تتصل بأقربائهم المزعومين. بعدها، ذكرت له أن أخيها غير الشقيق چورچ شخص لطيف جداً، وأنها قد أخبرته أن عائلة سايكس لا تدرى شيئاً عن وجوده وعلى الرغم من ذلك، فقد رفض السير ريتشارد سايكس حتى وفاته عام ١٩٧٨، بإصرار الاعتقاد فى صدقية القصة، وفقاً لما ذكره ابنه الثالث كريستوفر سايمون سايكس الذى كان أيضاً كاتباً ذا مكانة وأشتهر بكتبه وصوره عن الحياة فى الريف الإنجليزى.

وجد كريستوفر سايمون القصة مصدّقة بدرجة أن ضمنها كلاحقة بعنوان "عَمٌ غير متوقع" فى كتابه "البيت الكبير" (٢٠٠٤) عن إقطاعية سلدمير ومالكيها، ومعها صورة نادرة لأليس كارتر بمدرسة القرية أيضاً. توحى الأبحاث التى أجريناها أن القصة تتفق تماماً مع شخصية السير مارك سايكس (بعد اكتسابه اللقب حينما ورث البارونتية عام ١٩١٣) وفقاً لشهادات أشخاص عديدين.

لا يستطيع أحد توضيح تأثير مارك سايكس على سياسة الشرق الأوسط دونما وصف تحليلى لكيميائه الشخصية: اندفاعه التلقائى للمخاطرة، ولعه بالتجوال بحثاً عن المغامرة، وسِحره المتوهج. يضاف إلى ذلك فصاحته وسلاسة تعبيره، وأيضاً إدراكه المنطقى بأن ليس لديه ما يخاطر به سياسياً أو مالياً نتيجة الخطط الكبرى والسياسات المتهورة التى تبناها. إذا أضفنا إلى ذلك خلوه من الخبث، التعصب

والتباهى، نجد أن السير مارك كان جالاهاد، فارس الملك آرثر عصر الأوسطى المغامر المرح الذى كان حتى خصومه، يطمحون أن يكونوه. لا غرو أن أضاف رودجر أندرسون عنواناً فرعياً لسيرته التى نشرها عام ١٩٧٥ وهو "صورة هاوٍ"، وأوضح أن سايكس نفسه كان يستخدم هذا المصطلح ليصف نفسه بصفته شخصا ذا تفكير مرن مستقل، لا طاقة له بالمتخصصين من ذوى المصالح الشخصية، أو بالتنابذات السياسية.

كتب ونستون تشرشل فى مرثية يمتدح فيها مآثر السير مارك بعد أربع سنوات من وفاته يقول "على الرغم من أنه كان محاطاً بكل الرفاهيات والمغريات التى تتيح له أن يعيش حياة بطالة ريفية بهيجة، اتجه خياله إلى الصحراء بدلاً من سهول إنجلترا الخضراء، وإلى الترحال لا الرياضة، إلى خدمة قام بها وحده للأهداف الإمبريالية فى مجاهل الشرق بدلاً من التمتع بالمهام المحلية كمالك إقطاعية فى الريف الإنجليزى". وكأنما كان يُحيِّى روحاً شقيقة لروحه، توسع تشرشل فى مديح سايكس فى التمهيد الذى كتبه لسيرته التى صدرت عام ١٩٢٣ والتى ألفها شين ليزلى الكاتب الأنجلو كاثوليكى:

"كان نتاجاً فريداً. منحه والداه ميزة التعليم فى المدارس الأهلية الداخلية البريطانية بجرعات متقطعة، وكانت النتيجة عدم إعاقة تفكيره الإبداعى كما أنه تمتع بعد ذلك بحياة جامعية دونما أن يصبح عبداً للأعراف التى كثيراً ما تغرسها الجامعات فى الشباب الطيعين الذين يسهل التأثير فيهم بسهولة.. ورث فن الحديث من أمه الفذة المتألقة، وكان معتاداً أن يمارس فن الرسم ليُبهج به أصدقاءه. استخدم قلمه بسلاسة وتمكُّن، أما فن الخطابة فكان ملكاً له، ومن خلال مزيج من الفحوى والأسلوب، تمكن من السيطرة على أسماع مجلس العموم حينما كان يتحدث عن شتى المواضيع مثل الشرق الأدنى، المستعمرات، الرقابة على المسرح وأيرلندا".

لم تكن الصورة التى رسمها له السير رونالد ستورز ذو الشخصية المصقولة وزميل كرومر الذى التقى مارك بالقاهرة، أقل مداهنة. يكتب السير رونالد قائلاً إنه كان بإمكان سايكس أن يمارس بنجاح دستة وظائف معاً، كان كخطيب، بين القلائل، الذين تمتلئ مقاعد مجلس العموم بالحضور للاستماع إليهم. أضاف "كان بمقدوره كرسام كاريكاتير وكارتون سياسى أن يملى شروطه على الصحافة.. كان من المحتمل لِنفس المواهب الفنية التى تمتع بها أن تجعل منه كوميديانا بمسارح المنوعات بحيث تتاح له فرصة الإبقاء على أى جمهور المشاهدين أسرى تقمصه السريع والكامل لمختلف الشخصيات" تذكّره ستورز وهو يؤدى محاكاة ساخرة لإحدى النقاشات البرلمانية سجّلها على ديكتافون، وقلّد فيها بكل دقة مزحات الأعضاء المعتادة ولكناتهم المختلفة. بعد أن التقاه بالقدس، حيث أصبح ستورز حاكماً لها بُعيد ذلك مباشرة، كتب السير رورنالد فى مذكراته "مرة أخرى مارك معى، مُحدِثاً، كما الحال دائماً، الحد الأقصى من المتاعب، والحد الأقصى من البهجة".

لنقارن ذلك بالصورة المراوغة والموجزة فى آن التى رسمها له تى. أى. لورانس، الذى عرف سايكس فى ميدان القتال: "كان يتناول أحد أوجه الحقيقة ويعزله عن ملابساته ويضخمه، ويلويه ويشكله" هكذا تذكره لورانس فى كتابه أعمدة الحكمة السبعة "... كان يرى ما هو شاذ فى جميع الأشياء ويُغفِل العادى الصحيح. كان أحياناً يرسم بضربات قليلة خطوط عالم جديد، غير متسق تماماً لكنه كرؤية، يمثل بوضوح شديد بعض جوانب ما كنا نأمل فيه". رأى لورانس أن موته وهو فى التاسعة والثلاثين أثناء وباء الإنفلونزا الإسبانية كان مأساة المآسى بالنسبة للقضية العربية(!!)- رغم أنه ثبت بالنظرة الارتجاعية أنه كان مأساة بالنسبة للصهيونية التى تبنى السير مارك قضيتها لإنشاء وطن قومى لليهود بفعالية وحسم شديدين.

منذ أيامه الأولى بجامعة كامبريدج، لفتت مواهبه الاستثنائية نظر مدرسيه

وكذلك نظر عميد كلية يسوع "التى اختارتها له الليدى سايكس بعد زيارة قصيرة لها". أثناء سنواته بالجامعة (١٨٩٧-١٨٩٩) حاز مارك على إعجاب البروفسور إدوارد جرانفيل براون أهم مستشرق بالجامعة الذى صادق على رغبته فى اسكتشاف أراضى الإمبراطورية العثمانية، ومنحته كليته الوقت اللازم لذلك. لكن الشقاق بين والديه كان قد استفحل بدرجة استحال معها إصلاح الأمور وأدى ذلك إلى التعجيل بمحاكمة علنية أُجبِر ابنهما على الإدلاء بالشهادة فيها عما إن كانت أمه قد قامت بتزوير خطابات اعتماد بمونت كارلو على حساب السير تاتون المصرفى. كانت شهادة مارك المؤلمة مراوغة بالقدر الذى سمح به القانون، لكن بعد الاستماع لخبراء الخطوط، أدانت المحكمة الليدى سايكس. لا غرو أن ابنهما كاد يهرب بالكامل إلى الشرق مدعوماً، بخطابات تزكية من البروفسور براون (كان براون يتقن الفارسية والعربية والتركية، وكان أيضاً يدافع بصراحة عن القوميين بالمنطقة، ويمثل مرجعية عن الأقليات التى تعيش هناك، كما أنه ألّف كتاب الأسفار الكلاسيكى: "عاما بين الفرس" سنة ١٨٩٣).

وجد مارك الوقت، بين قضايا والديه، ودراسته بكامبريدج، وأسفاره للخارج ليقدم طلباً للالتحاق بفرقة يوركشاير العسكرية التى كان جده الأكبر مارك ماسترمان سايكس قد أسسها. ولدى اندلاع حرب البوير عام ١٨٩٩، تم استدعاؤه، الأمر الذى وصفه سراً للجميلة إيديث ڤيوليت جورست التى كان يتودد إليها بهدف الزواج بأنه "مقيت وجهنمى". وحينما وصل إلى جنوب إفريقيا تلقى الملازم سايكس وجنوده فى السرية F بالكتيبة الثالثة بوحدة يوركشاير أمراً بحراسة جسر فى المنطقة المرتفعة ضد محاربى العصابات الأفريكان. وخلال عامين، شهد مارك عمليات حربية كانت كافية لإصابته بجرح فى رأسه، وبمرض الملاريا، وبالتهاب أصابه بصمم جزئى. شهد أيضاً وحشية الحرب، واكتسب حساسية طوال الحياة ضد التفكير العسكرى الأرثوذكسى. والأكثر غرابة، إذا

أخذنا فى الاعتبار تاريخه اللاحق، فإنه حمّل اليهود والمصرفيين، والإمبرياليين مسئولية تلك الحرب. اشتكى فى خطاباته التى أرسلها إلى الوطن من أنه كان، مع الأسف يحارب لحساب "أولئك الوحوش" - الماليين اليهود وملاك المناجم - وكانت هذه عقيدة (متميزة) يعتنقها رواد نوادى الجنتلمن البريطانية من أفراد الطبقة العليا. وعلى الرغم من تعاطفه مع المظلومين والمحرومين، إلا أن مارك كان يفترض، دوما أنه ينتمى إلى النخبة الحاكمة (مثلما كان يعتقد تشرشل، مؤسس النادى الآخر، وعضوه، وكان النادى تجمعاً لنخبة رجال الطبقة الراقية ذوى الأفكار المتماثلة الذين لا يتبعون أى رئاسات). لكن، بعد انتهاء حرب البوير، أى حياة مهنية كان من المفترض أن يختارها مارك؟

كان الأديب أنطونى ترولوب يتحدث بلسان أمثال مارك حينما قال فى سيرته النهائية عام ١٨٨٣، "دائماً ما اعتقدت أن عضوية البرلمان الإنجليزى، يجب أن تكون الهدف الأعلى لطموح جميع الإنجليز المتعلمين". وعملا باعتقاده، ترشح ترولوپ فى انتخابات عام ١٨٦٨ وقدم نفسه على أنه "ليبرالى محافظ تقدمى" فى بڤرلى، بحاضرة إقليم إيست ايدينج بيوركشاير. أعيد انتخاب العضوين بمجلس العموم (كان العضو المحافظ الذى أعيد انتخابه بالدائرة الثانية هو كريستوفر سايكس، عم مارك والذى كان يعرف باسم "سايكى" الصديق الموالى المخلص لولى العهد إدوارد الذى كان يسىء معاملته) ومن حسن حظ الأدب الإنجليزى، خسر ترولوب الانتخابات ولم يترشح ثانية.

لدى عودته من حرب البوير واستقباله كالأبطال الفاتحين سرعان ما جذبته الحياة السياسية، وفى عام ١٩٠٧، اختارته النقابات العمالية المحافظة كمرشحهم لمقعد سايكى القديم فى إيست رايدينج. كانت حملته الانتخابية متناغمة بامتياز مع شخصيته. كان يقوم بتوضيح خطاباته الانتخابية برسومات مرتجلة، وأوضح

لناخبيه المحتملين أنه وخلافاً للاشتراكيين الذين كانوا مهووسين بالمستقبل، والليبراليين وهوسهم بالحاضر، كانت توجهاته المحافظة متجذرة فى الماضى الذى جعل من بريطانيا دولة عظمى.

- رأى أن للرموز أهمية حاسمة. وحينما حذّر من اختفائها استشهد برؤية بنچامين ديزرائيلى القاتمة للمجتمع الذى يتساوى فيه كل أفراده فى روايته تانكيرد: "التاج لا قيمة له، الكنيسة مجرد طائفة، النبلاء متبطلون، أفراد الشعب يكدحون". ومثل ترولوپ، خسر سايكس الانتخابات.

لكن هذا لم يدم طويلاً. كان الوريث الشاب قد تزوج الجميلة إيديث جورست ألّف كتباً مُترفعة "بشياكة" عن بلدان الإمبراطورية العثمانية لقيت الترحيب. عمل لفترة وجيزة سكرتيراً برلمانياً لأيرلندا، ثم ملحقاً شرفياً بالسفارة البريطانية بإسطنبول والأهم على المستوى المحلى، فقد عمل عضواً بمجلس إيست رايدينج المحلى، وبذل جهده فى اللجان الفرعية التى تتعاطى مع الصحة العامة والتعليم. فى عام ١٩١٠ العاصف أجريت الانتخابات مرتين، وكان قد عجّل بذلك ميزانية الحكومية الليبرالية الراديكالية التى رفضها مجلس اللوردات فى تحد منه للحكومة.

رفضت إيست رايدينج سايكس فى المرتين بهامش ضيق. لكنه كان قد أصبح حينذاك شخصية معروفة بيوركشاير، ثم جرّب حظه مرة رابعة بمدينة هال الساحلية الصاخبة، حيث كان أحد أجداد سايكس عمدة لها ذات مرة. فاز، وحتى وفاته، استمر مارك يمثل دائرة هال المركزية، وأصبح فى عام ١٩١١ ثالث فرد من عائلته خلال نصف قرن يحوز مقعداً فى مجلس العموم.

كانت الرصاصة المواتية والتى أطلقت فى سراييڤو[1] هى التى غيرت حياة

---

(١) يشير المؤلفان إلى حادث اغتيال ولى عهد النمسا وآخر وريث للعرش الإمبراطورى، الأمر الذى أدى لاندلاع الحرب العالمية الأولى (الترجمة).

مارك وتاريخ الشرق الأوسط تبعاً لذلك قبل عام ١٩١٤، كان عضو البرلمان الجديد قد اشتهر بخطاباته المتقنة الخبيرة عن "المسألة الشرقية" وحججه المنطقية لمنح الحكم الذاتى لأيرلندا أثناء أزمة "الحكم الذاتى" التى شغلت البرلمان حتى أغسطس حينما دخلت حكومة الليبراليين الحرب العظمى.

كانت إحدى الخطوات الأولى التى اتخذها هربرت أسكويث رئيس الوزراء هى استدعاء هوراشيو هربرت كيتشنر المندوب السامى البريطانى بمصر وتعيينه وزيراً للحرب ببريطانيا. وفى عام ١٩١٥ أثناء زيارته له للجبهة الغربية، التقى اللورد كيتشنر شخصاً كان اسمه مألوفاً بين العاملين فى وزارة الحرب. قال له "ماذا تعمل فى فرنسا؟ ينبغى عليك الذهاب إلى الشرق". سأله سايكس "ما أنا فاعله هناك ؟" أجابه "فقط اذهب ثم عد إلى هنا".

كانت تلك إيماءة من أحد لوردات الحرب وهو فى ذروة مجده. كان قد عمل حاكماً للخرطوم، وقائداً عاماً للقوات البريطانية بالهند، ومصر، وجنوب إفريقيا؛ وهزم دراويش المهدى بأم درمان وقضى عليهم، وطرد الفرنسيين، دونما إراقة دماء، من فاشودا وضمن بذلك لبريطانيا التحكم فى منابع النيل. لم يكن ثمة قائد فى الجيش أكثر خبرة منه فى طوبوغرافيا الأرض المقدسة الاستراتيچية، وكان كضابط شاب فى الوحدة الهندسية قد قام بعمل مسح لها. كان من يعينهم ويرعاهم مسئولين عن مواقع استراتيجية فى الشرق الإسلامى. كان قد انتقى بنفسه السير هنرى مكماهون ليخلفه فى منصبه بالقاهرة كمندوب سامٍ. تضمن فريق كتشنر أيضاً السير رونالد ستورز ذا الشخصية الطيعة ومقر عمله مصر؛ والچنرال الطموح السير فرانسيس رينولد وينجيت الذى اختاره سردارا للجيش المصرى، ثم حاكماً عاماً للسودان بعد ذلك، والداهية السير جيلبرت كلايتون الذى أصبح فيما بعد الرئيس الأعلى للاستخبارات العسكرية البريطانية.

لكنٍ، من بين كل هؤلاء المساعدين كان السير مارك سايكس الذى لقب نفسه

هاوياً، والذى كاد كيتشنر ألا يعرف شيئاً عنه، ووظفه بأسلوب اعتباطى، هو الذى أصبح أقرب ما يكون لمدير مسرح الشرق الأوسط بعد الحرب الذى مازال جوهره وشَكْله وطبيعته التى اخترعها قائمة حتى يومنا هذا. من المجدى أن نتوقف لنبحث لِمَ وكيف حدث هذا.

ورغم نقّاده ومهاجميه، فقد أثبت السير مارك سايكس أنه أكثر من مجرد هاوٍ فى مجال الفنون السوداء للمؤامرات والمخططات البيروقراطية. تمكن لدى منعطفات حاسمة من حفز رؤسائه للسير فى الاتجاهات التى تخيرها فيما كان يُبقى طوال الوقت، على توازنات منزلقات مجلس الوزراء. وبفضل وضعه كشخص مطلع من الداخل، فقد رعى شبكة من "الخلان" المؤتمنين على الأسرار تمتد من مجلس الوزراء الإمبريالى وحتى المواقع المتطرفة النائية فى الشرق الإسلامى. أدرك، منذ وقت مبكر، أهمية وجود هيئة مختصة بالشئون بين/ الوزارية مهمتها تنسيق السياسة، وبخاصة مع لجنة بتنسين. كانت تلك اللجنة التى ترأسها السير موريس دوبنسن من وزارة الخارجية، قد تشكلت من أجل تطوير رأى إجماعى بشأن الشرق الأوسط بين وزارات الخارجية والحرب وشئون الهند، إضافة إلى البحرية، وهيئة التجارة، مع مُدْخلات من لجنة الدفاع الإمبريالية ورئيسها الذى كان قد عُيِّن مؤخراً، اللورد هانكى، ومساعده المتمكن السير مارك سايكس.

تحكّم سايكس، من موقعه المكين، فى الرياح المتغيرة، التى كان قد اكتسب القدرة على التكهن باتجاهاتها أثناء أسفاره شرقاً منذ الرحلة الكبرى التى كان كيتشنر نفسه قد قررها له. ومنذ آنذاك هيّأت مهارات السير مارك فى تشكيل الشبكات إمكانية الاتصال المباشر بجميع من هم فى واقع السلطة. مثلاً، قام لانسلوت أوليفانت، أحد زملائه الدبلوماسيين منذ كان يعمل بتركيا، بتقديمه إلى الكولونيل أوزوالد فيتزجرالد سكرتير وزير الحرب الأعزب وصديقه الحميم بدرجة

أثارت شكوك العصر. ومنذ آنذاك، وحتى اللحظة التى اختفى فيها كيتشنر بأسلوب دراماتيكى عام ١٩١٦ وهو على متن قطعة الأسطول الملكى السفينة هامشاير إثر أصابتها بلغم ألمانى، حرص فيتزاجرالد على أن تذهب مذكرات سايكس إلى كيتشنر مباشرة. ووفقاً لما نكره مؤرخ سايكس، فإن التوصيات التى أعدها بعد رحلته الكبرى لم تترك أثراً على كيتشنر، كذلك الأثر الذى كانت تتركه كلمات الإطراء التى أهالها عليه فتزجرالد أو فقاً لصياغة سايكس نفسه "كان الفعل لى، والكلام لفيتزاجرالد، والإلهام من كيتشنر".

لم يكن سايكس هاويا فى أحد المناحى الأخرى. أدرك منذ البداية الحاجة إلى تدفق الاستخبارات العسكرية، وبخاصة التقارير السرية المتعلقة بالعمليات البريطانية فى الشرق الأوسط. كان السير مارك هو من اقترح إنشاء "المكتب العربى" الذى أقيم بالقاهرة عام ١٩١٦ ورعاه، وراقب أنشطته، كان دايفيد جى هوجارث أستاذ الأركيولوجى والباحث بأكسفورد مديره المؤسس، والأب الروحى هو الجنرال كلايتون، مدير الاستخبارات العسكرية (DMI)؛ ونجمه الإعلامى تى. إى لورانس. كان المكتب، من الناحية الشكلية يتبع وزارة الخارجية لكنه سرعان ما اكتسب هوية مستقلة، ودائماً ما كان يدخل فى منازعات مع السلطة البريطانية فى نيودلهى (عارض نائب التاج بالهند إنشاءه بقوة)، وفى منازعات كثيرة أيضاً مع المشرفين عليه اسمياً بمقر رئاسة الوزراء بلندن. كان سايكس بنفسه يشرف على تحرير نشرة المكتب السرية Arab Bulletin، وكان هو الذى يحدد قائمة ما يجب أن يُعْرَف فى التقارير التى ترد بالنشرة عن "الثورة العربية" التى أعلنها فى يونيو ١٩١٦ الشريف حسين من مكة بدعم من البريطانيين. كان سايكس هو من صمم علم الثورة العربية (اللون الأسود رمز العباسيين فى بغداد، والأبيض رمز الأمويين بدمشق، والأخضر لأتباع سيدنا على بكربلاء، والشارة الحمراء شعار سلالة قبيلة مُضَر العدنانية).

وأخيراً وليس آخراً، كان سايكس يدرك أهمية الحاجة إلى اتفاقيات تحتمل

صياغاتها تأويلات عديدة. ظهرت الحاجة إلى مهاراته حينما كان أسكويث، رئيس الوزراء، ومعه لجنة بنسن يدرسون بتمعن مصير الإمبراطورية العثمانية الهرمة. وفيما الجيوش الإنجلو/ هندية تتقدم داخل أراضى بلاد الرافدين، حرص أسكويث على طمأنة فرنسا المُستنْزفة أن بريطانيا لم تكن على وشك الزحف سراً إلى أنحاء الشرق الأوسط.

عُرِف عنه أيضاً انه أسرّ إلى زملائه القول إنه لو ترك البريطانيون الأمم الأخرى تندفع للاستحواذ على أجزاء من تركيا دونما أن يأخذوا (البريطانيون) أى شىء لأنفسهم فهذا يعنى أنهم لا يقومون بواجبهم.

كان من المهم أيضاً استرضاء روسيا، والتى كانت آنذاك غارقة فى مستنقع "الجبهة الشرقية" وكانت كل موانئها الواقعة على البحر الأسود قد سُدَّت حينما دخلت تركيا الحرب وأغلقت مضيق البوسفور. اتفق اسكويث هو ووزير خارجيته أن المناقشات ضرورية، أولاً مع الفرنسيين الذين كان النقاش معهم صعباً دائماً. من ثم، رأيا أنه من المستحسن تكليف بريطانى متعاطف بجسٍ نبض الحليفين فى إطار خطوط إرشادية محددة رُسِمت بعناية - شخص مثل السير مارك الذى يتمتع بشعبية واسعة؛ المحب للفرنسيين، والذى يدين، مثلهم، بالكاثوليكية، هذا على الرغم من معدنه الإنجليزى الأصيل.

وبعد شهر من الإجراءات التمهيدية، بدأت المفاوضات الإنجلو فرنسية الجدية بلندن فى ديسمبر ١٩١٥ لدى عودة سايكس من جولة ممتدة بالشرق الأوسط. كان المتحدث باسم وزارة الخارجية الفرنسية، رجلاً متمرساً عمل بالسلك الديبلوماسى لعشرين عاماً، اسمه فرانسوا چورچ - پيكو (١٨٧٠-١٩٥١)، وكان إلى عهد قريب قنصل فرنسا العام ببيروت، وسليل أسرة كلونيالية، ومدافعاً صريحاً عن مهمة فرنسا ورسالتها التاريخية بالشام. تصور سوريا مدمجةً تسيطر عليها فرنسا وتشمل دمشق، حلب، بيروت ومعها الأماكن المقدسة بفلسطين وميناء الإسكندرية

وحيفا، وإقليم الموصل العثمانى، ومجموعة من الأراضى تمتد من جبال طرسوس حتى حدود مصر- مثلت هذه الإمكانية مشهداً مرعباً بالنسبة للمستعمرين البريطانيين بالقاهرة. تمكن سايكس وهو يعمل داخل إطار الحدود التى عينها مجلس الوزراء ووزارة الخارجية، من انتزاع تسوية. تم التوصل إلى اتفاق يُمنح بمقتضاه الفرنسيون التحكم الإدارى المباشر فى لبنان الكبرى ومعها المناطق الساحلية السورية، أو ما أسمى بالمنطقة الزرقاء، فيما يكون لبريطانيا حقوق مناظرة فى جنوب أرض الرافدين فيما اسمى بالمنطقة الحمراء تمتد متقطعة من بغداد وتصل إلى جزء صغير محصور يشمل حيفا وعكا، بما فى هذا أيضاً حقها فى إنشاء خط سكك حديدية يصل المدن الثلاث. أما فلسطين والأماكن المقدسة فتخضع لإدارة دولية داخل نطاق "منطقة بُنّية" أصغر، تُقرّر تفاصيلها بعد الحرب.

وافق الطرفان الموقعان على أنه فى الأراضى المتسعة الواقعة بين تلك المناطق الزرقاء والحمراء والبنية يتم الاعتراف بدولة عربية مستقلة أو كونفدرالية من الدول العربية وحمايتها "تخضع لسلطة رئيس عربى، وتشغل أراضى واسعة وتدمج فيها دمشق وحلب وحمص وحماة تلك المدن الداخلية التاريخية (المدن الأربع الشهيرة التى لاحظ المؤرخ جيبون أن الصليبيين لم يهزموها أبداً) ومعها إقليم الموصل. قسِّمت تلك الدولة العربية المفترضة إلى مجالات للنفوذ غير المباشر، بحيث تمتلك كل من بريطانيا وفرنسا، كل فى نطاق نفوذها، الحق الحصرى فى تزويد "الحاكم" بمستشارين أو موظفين أجانب بناء على طلب الدولة العربية أو كونفدرالية الدول العربية.

كان هذا هو جوهر معاهدة سايكس/بيكو سيئة السمعة. فى إبريل عام ١٩١٦، توجه مفاوضاها الرئيسيان إلى مدينة بتروجراد، وهناك نزل السير مارك بفندق أستوريا وابتاع صدرية من جلد الغنم (كما أبلغ زوجته إيديث) ثم التقى سفير جلالته ملك بريطانيا. واستجمع قواه للقاء سرچى سازانوف وزير الخارجية

الروسى. ثبت أن مخاوفه كانت دونما سند من الواقع. كانت روسيا قد تلقت بالفعل وعداً بالتحكم فى مضيقى البوسفور والدردنيل وفقاً لاتفاق سرّى، ولم يُثر سازانوف سوى اعتراضات هامشية على مسودة المعاهدة. لم يعترض على تشكيل دولة عربية مستقلة أو على وضع فلسطين تحت إشراف حكم دولى. بدلاً من ذلك، فقد أبدى قلقه من أن نفوذ فرنسا غير المباشر يشمل منطقة واسعة تمتد مباشرة من سوريا إلى الحدود الفارسية. وفى النهاية، ووفقاً لرواية الباحثَيْن البريطانيين إفريم وإنارى كارش، فى إعادة تشكيلهما الدقيق لوقائع ما حدث، تم التوصل إلى تسوية تُمنح روسيا بمقتضاها شريطاً مساحته ٦٠٠٠٠ ميل مربع من الأراضى الواقعة بين البحر الأسود وإقليم الموصل، بما فى هذا أقاليم إرزروم، وتربيزوند، وڤان، وبيرليس بأرمينيا العثمانية. بعد شهر، صادقت بريطانيا العظمى رسمياً على المعاهدة المعدلة وتم تبادل المذكرات. ظلت بنودها طى الكتمان إلى أن قام البلشفيك، بعد نجاح ثورتهم فى نوفمبر عام ١٩١٧، بفتح الوثائق والمحفوظات القيصرية، وعرضوا بنود معاهدة سايكس/ پيكو بصفتها مثالاً شائناً بشعاً للاستكبار الإمبريالى.

نادراً ما واجهت أية وثيقة ديبلوماسية أخرى مثل ذلك الهجوم والاستهجان واسع المدى، ليس فقط بالكلمة المطبوعة بل أيضاً من خلال الأفلام والمسرحيات مثل "لورانس العرب" لدايفيد لين، و"روس" لترنس راتيجان. بيد أننا إذا نظرنا إليها بهدوء أكثر يبدو من الصواب طرح أسئلة ثلاثة: أكانت المعاهدة تتناقض جوهرياً مع الأخلاقيات السائدة للدول الكبرى؟ أكانت بنودها صادمة بحقٍ للزعماء العرب الذين اعتقدوا أنهم قد وُعدوا بدولة مستقلة مترامية الأطراف؟ وهل تعارضت المعاهدة مع المهمات التى تم الاتفاق عليها سراً مع قائد الثورة العربية الشريف حسين فى الرسائل المستطالة المتبادلة عامى ١٩١٦ و١٩١٧ مع السير هنرى مكماهون المندوب السامى البريطانى بمصر؟ توحى قراءة السجل الكامل أن الإجابة عن الأسئلة الثلاثة هى "لا".

من المؤكد أن العرب الذين كانت أرضهم تُقسم وتوزع لم يُستشاروا بشأن الترتيبات السياسية التى ستنجم عن المعاهدة مثلما كان الحال مع شمال الأفارقة حول خطط فرنسا قبل ذلك لاستعمار أراضيهم، وكذلك كان الوضع فى حال سكان أمريكا الأصليين، وسكان هاواى، والمكسيك والفلبين وهيتى، وجزر الدومينيكان، ونيكاراجوا وپنما. كما لم يُستشر الكوبيون الذين كانوا قد حصلوا مؤخراً على السيادة والاستقلال حول مناورات واشنطن وتدخلاتها لتشكيل دساتيرهم. هذا علاوة على أن الأبحاث التى أُجريت لاحقاً تشير إلى أن الشريف حسين وأولاده كانوا على علم بوجود معاهدة سايكس/پيكو وجوهر مضمونها وأن تهمة الخداع - التى أطلقها بتمكن وفصاحة چورچ أنطونيوس المسيحى اللبنانى فى كتابه "الصحوة العربية" (١٩٣٨) - كانت مبالغاً فيها أما بروفيسور إيلى قدورى مثير المشاكل من كلية الاقتصاد بلندن، ذو الأصول اليهودية العراقية، فقد تسببت كتاباته أكثر من أى باحث آخر فى قلقلة أحكام جيلين من الباحثين حول تلك النقاط الخلافية. يظل كتابه "المتاهة الأنجلو/عربية" الذى نشر عام ١٩٧٦ وأعيد نشره عام ٢٠٠٠ بعد وفاته، أحد معالم الكتابات التعديلية. يزعم، بأسلوب مقنع، أن المندوب السامى محدود الذكاء كان مراوغاً بالفعل، ومشوشاً أحياناً، ونزاعاً إلى أن يحنث بوعوده، لكنه لم يقدم أبداً وعوداً قاطعة بدولة قومية عربية واسعة الأطراف كما يزعم الشريف حسين ويضمر تى . إى. لورانس فى كتابه "أعمدة الحكمة السبعة". وفى واقع الأمر، ومما لا يُذكر إلا نادراً، فقد عبر لورانس، فى أوقات مختلفة، عن أحكام متعارضة على معاهدة سايكس پيكو.

كتب لورانس فى نوفمبر ١٩٢٩ إلى الأمريكى ويليام ييل (ممثل شركة ستاندارد للنفط والذى كان حاضراً لدى إنشائها) معبراً عن دهشته لاعتقاد ييل أن المسئولين البريطانيين بسوريا حاولوا إخفاء سايكس/پيكو. كان رد لورانس أن هذا لم يحدث بإطلاقه إذ إن:

"معاهدة سايكس/بيكو كانت ملاذ العرب الأخير .عرف الفرنسيون ذلك وعملوا جاهدين على إيجاد بديل للانتداب ومن خلال صفقة مشينة، دعم الإنجليز كى يستحوذوا على بلاد الرافدين. كان الفرنسيون، وفقاً لسايكس/ بيكو قد مُنحوا الساحل فقط وكان للعرب (الإداريين المحليين) ان يحصلوا على حلب، حماة، حمص، ودمشق وشرق الأردن. لكن من خلال احتيال الانتداب حصلت إنجلترا وفرنسا على كل شيء. كانت الحدود التى عينتها سايكس/ بيكو عبثية لكنها على الأقل اعترفت بحقوق السوريين فى الحكم الذاتى، وكانت أفضل عشرة آلاف مرة من التسوية التى تم التوصل إليها فى النهاية(١)".

والحقيقة هى أن جميع من ارتبطوا بالسياسة البريطانية فى الشرق الأوسط كانوا يميلون إلى جانب أو آخر فى الأوقات المختلفة أثناء الحرب العظمى الطويلة، اعتماداً، فى الغالب، على البرقيات التى تصل فى يوم معين، أو التقارير الصحفية، أو مع من يتحدثون وعن ماذا. أما ملحمة السير مارك سايكس الخاصة فكانت لافتة لاتساع مدى المحيط الذى كان يتحرك داخله، والذى حمله من دائرة المحافظين البريطانيين المتشددين إلى صيغته الخاصة من عقيدة المحافظين الجدد، مما أوصله فى النهاية، وكأنما بفعل الأقدار إلى صهيون.

فى الأشهر الكئيبة فى نهاية عام ١٩١٦، ساد المملكة المتحدة شعور بالاستياء، بداية من أماكن العمل، وحتى المقاعد الخلفية بالبرلمان. حكم البريطانيون التعساء على هربرت أسكويث رئيس الوزراء بأنه قائد عاشق للحروب وسيئ الحظ. حينما بدأت المعركة فى يوليو ١٩١٤، أمل الناس، بل حتى توقعوا، أن ينتهى القتال سريعاً، ربما بحلول أعياد الميلاد. وبدلاً من ذلك، أشرف أسكويث على أضحيات مستمرة

(١) يشير لورانس هنا إلى الانتدابات التى منحتها عصبة الأمم للبريطانيين والفرنسيين كى يحكموا العراق، وفلسطين وسوريا ولبنان. (الترجمة)

بالدم فى الخنادق الغربية، وعلى متتالية هزائم فى الشرق - ورطة غليبولى، الهجوم الفاشل على بغداد، استسلام القوات الأنجلو/هندية الجائعة المهين بالكوت. قام الحزب بأكمله بثورة ليحل مكانه فى ديسمبر منافسه الويلزى بالحزب دايفيد لويد جورج، القلِق المتململ، حلو الحديث، والمبدع. كانت انتماءاته العائلية إلى الطائفة المستقلة المنشقة على الكنيسة الأنجلكانية NonconFormists، قد جعلته يهتم بخاصة بالشرق الإنجيلى. (حينما بدأ الجنرال إدموند ألنبى مسيرته إلى القدس على صهوة جواده، أرسل إليه لويد جورج نسخته الخاصة من "الجغرافيا التاريخية للأرض المقدسة" للباحث الإسكتلندى جورج آدم سميث، واحتفظ بها ألنبى أو "الثوْر" كما كان يُلقب، فى خُرج فرسه). جَمَّع لويد جورج ائتلافاً حكومياً ذا قاعدة عريضة شملت قادة من حزب العمال الصاعد، إلى جانب نجوم حزب المحافظين مثل آرثر بلفور، رئيس الوزراء السابق الذى أصبح وزيراً للخارجية، واللورد كيرزن حاكم الهند سابقاً (نائب التاج البريطانى) والذى عُيِّن رئيس مجلس وزراء الحرب، وسرعان ما أصبح، فيما بعد، رئيس "لجنة الشرق الأوسط".

كان مركز قيادة الإدارة الجديدة هو "مجلس وزراء الحرب" الذى كان أعضاؤه الخمسة (زاد عددهم فيما بعد) يجتمعون مرة يومياً وأحياناً مرتين فى اليوم الواحد، يرسمون مسار بريطانيا واستمر ذلك حتى مؤتمر باريس للسلام. كان أعضاؤه الأصليون يضمون إلى جانب لويد جورج وكيرزن، شخصاً آخر ذا شأن، هو الفايكونت ألفرد ميلنر، البيروقراطى الإمبريالى المكتمل، ووثيق الصلة بالتايمز، ومعه أثنان حديثا العهد نسبياً بالشئون الكوكبية هما أندرو بونار وزير المالية وآرثر هندرسون رئيس كتلة حزب العمال البرلمانية. اعتمد أعضاء مجلس وزراء الحرب المصغر، ومن أجل الاسترشاد فى الشئون الخارجية، على مساعدة شخصيْن رئيسيين هما ليوپولد آمرى والذى كان يؤخذ برأيه، بين أشياء أخرى فى الأمور المتعلقة بأوروبا والشرق الأقصى، وزميله، عضو البرلمان عن حزب المحافظين الذى لا يكل، السير مارك سايكس.

يكتب إيه. چيه. بى . تايلور، أستاذ أكسفورد، وأحد أبرز مؤرخى تلك الفترة قائلاً: "إن مقدم لويد چورچ كان "أكثر من مجرد تغيير حكومى، لقد كان ثورة بالأسلوب البريطانى". كان رئيس الوزراء الجديد (الذى يقول عنه تايلور إنه أقرب شىء إلى نابليون عرفته إنجلترا) أول بريطانى من أصول متواضعة يصل إلى القمة، والثالث (وفقاً لما قاله لويد چورچ نفسه) بعد ولينجتون وديزرائيلى الذى لم "يمر من خلال هيئات التدريس فى الجامعات القديمة" إلى الحكم. ورغم أنه لم يترأس حزباً، ولم يكن له أصدقاء (يقول تايلور إنه لم يكن يستحق أن يكون له أصدقاء)، فقد عين لويد چورچ رجالاً جدداً، وأنشأ وزارات وأقساماً جديدة كاملة تابعة للدولة، وجرب أشكالاً جديدة للحكم البرلمانى. وبما أن مجلس وزراء الحرب الذى ترأسه كان بحاجة إلى عاملين، قام بتجميع فريقه الخاص، بأسلوب البيت الأبيض، فى أكواخ على المروج الخضراء خلف مقر مجلس الوزراء، وعرفت المنطقة باسم "ضاحية الحديقة".

من ضاحية الحديقة تلك، روّج سايكس لآرائه المعدّلة حول الشرق الأوسط. قبل الحرب العظمى، كان قد صادق على السياسة البريطانية التى كانت قد ظلت قائمة منذ وقت طويل والتى كانت ترمى إلى الإبقاء على الإمبراطورية العثمانية المتصدعة فى آسيا سليمة، والعمل على إصلاحها برفق واعتدال، لأنه كان ينظر إليها على أنها مَصَدٌّ استراتيجيات ذو فائدة كبيرة يدرأ الأخطار عن قناة السويس والطرق الأخرى الموصلة إلى الهند. لكن حينما عرض تفاصيل آرائه على البرلمان عام ١٩١٣، كانت تركيا قد خاضت، بأسلوب أخرق حربين بالبلقان، فى ظل حكم سلطان مفلس مثقل بالديون، ومحاصَر من شباب الإصلاحيين فى حركة تركيا الفتاة. بعد حربها فى سراييفو، وافق السير مارك على الحاجة لاتباع نهج مختلف وفقاً لطروحات لجنة بنسن.

كان أعضاؤها يفاضلون بين خيارات ثلاثة لما بعد الحرب، وبعد دخول تركيا

الحرب: الإبقاء على الإمبراطورية سليمة مع إخضاعها لتحكمهم، ضمها مباشرة؛ أو تقسيمها إلى وحدات شبه مستقلة. فضّلت اللجنة الخيار الثالث بصفته الأكثر قابلية للتنفيذ. وبمطلع عام ١٩١٥، كان السير مارك قد غيّر آراءه باتجاه تقطيع الأوصال. كان قد كتب خطاباً شبه مازح يحث فيه صديقه أوبرى هربرت، الملحق السابق بأسطنبول، ويقول فيه "أشعر من خطابك أنك مازلت تؤيد الأتراك.. سياستك خاطئة. لابد أن تزول تركيا من الوجود. ستصبح سميرنا Smyrna يونانية، والأناضول إيطالية وجنوب طوروس وشمال سوريا فرنسية، وفلسطين بريطانية، وما بين النهرين بريطانية، وبقية الأجزاء روسية بما فى هذا إسطنبول.. سأُرتل تسبيحة الشكر Te Deum بآيا صوفيا، ونشيد الأناشيد بجامع عمر. سنرتلها باللغة الويلزية، والبولندية والكلتية والأرمينية، على شرف الأمة الصغيرة الباسلة".

بحلول عام ١٩١٧ كاد سايكس يتنكر تماماً للمعاهدة السرية التى كانت تحمل اسمه فى توقع تنبئى منه أن الكشف عنها سيحفز عاصفة غضب غير محببة. حاول دونما جدوى فى باريس، إقناع بيكو أن سياسة ضم الأراضى كانت من مخلفات الماضى الإمبريالى، وأن على فرنسا تعديل مطالبها بخصوص الشام. عبَّر عن استيائه حينما قدم الحلفاء إلى إيطاليا، التى كانت قد انضمت إلى الحرب متأخرة، أجزاءها الخاصة بها من أناضول ما بعد الحرب. وحينما انتقم الماجور جنرال (اللواء) ستانلى مود وجيشه الأنجلو/هندى لهزائمهم السابقة بالاستيلاء على بغداد، أقنع سايكس مجلس وزراء الحرب برفض الإعلان هادئ النبرة عن هذا الانتصار لصالح صيغته عالية النبرة التى تؤكد أن البريطانيين جاءوا إلى العراق مُحرِّرين لا غزاة(١). بذل السير مارك جهده لمساعدة الثورة العربية بقيادة الملك حسين من الحجاز (ذلك اللقب الذى كان الشريف قد اكتسبه لنفسه) والذى كان

---

(١) ما أشبه الليلة بالبارحة !!(الترجمة).

بيكو قد التقاه فى شهر مايو حتى أن السير مارك اقترح بروتوكولاً جديداً . اجفل بيكو يقضى بتخصيص عروش لأبناء الملك حسين فى سوريا والعراق(!!) بشرط أن يتوافق مثل هذا الترتيب مع رغبات سكان المناطق المعنية، واستبق بذلك توزيع تشرشل، بأسلوب فخيم ملكى لحكم العراق والأردن. بإيجاز، كانت العناصر الأساسية لتسوية ما بعد الحرب قد نبتت بذورها فعلاً فى عقل سايكس مع استثناء واحد، كان على وشك تقرير حل له: فلسطين.

أدت الأحداث المزلزلة فى جميع الأنحاء إلى إعادة التفكير فى مجمل السياسة البريطانية التى كانت قد ظلت قائمة منذ وقت طول وبخاصة عرضها الخطابى.. فى روسيا أدت الكوارث العسكرية والإضرابات الصناعية إلى تنحى القيصر، الأمر الذى كان غير متخيل فى وقت ما، وإلى بزوغ حكومة ثورية مؤقتة مؤيدة للديمقراطية فى مارس ١٩١٧ . وبعد شهر، دخلت الولايات المتحدة ورئيسها التنفيذى الأعلى نو المبادئ السامية الحرب ضد ألمانيا (لكن ليس ضد الإمبراطورية العثمانية، وعلينا أن نتذكر أن الولايات المتحدة، رسمياً، ظلت قوة مشاركة لا قوة حليفة). كان عام ١٩١٧ أكثر أعوام الحرب كآبة وقتامة بالنسبة للبريطانيين العاديين: زمن شح، وتوزيع الأغذية بالبطاقات والاصطفاف فى طوابير للحصول عليها . عمل كل هذا على انتشار التذمر والصيحات المطالبة بحقوق اتحادات العمال، وحق التصويت للمرأة، والدعوة إلى السلام، والامتناع الكلى عن المُسكرات، ومزايا الضمان الاجتماعى والحكم الذاتى الأيرلندى، وحق تقرير المصير للمستعمرات (وكان هذا تعبيراً جديداً راديكالياً طرحه وودرو ويلسون).

وفيما دخلت "الحرب التى ستنهى كل الحروب" مرحلة الذروة سيطرت على بريطانيا، وعلى كثير من المستعمرات التابعة للإمبراطورية رؤى عن عالم أكثر إشراقاً وشجاعة وتحرراً من المظالم – عالماً ديمقراطياً، بل ربما اشتراكياً، من

المأمول له أن يسوده السلام. اقترح آرثر هندرسون، زعيم حزب العمال أن يلقى خطاباً فى مؤتمر اشتراكى بإستوكهولم يدعو فيه إلى تسوية سلمية. كان هذا يفوق طاقة أعضاء مجلس وزراء الحرب، وقرر لويد چورچ أن بإمكان هندرسون أن يتحدث باسمه لكن ليس نيابة عن حكومة جلالة الملك. دافع السير مارك سايكس فى البرلمان عن قرار رئيس الوزراء بطلاقة وتمكُّن. قال إن البريطانيين كانوا بالطبع، يقاتلون دفاعاً عن الإمبراطورية، "لكننى لا أتحدث بأى معنى إمبريالى حينما أستخدم لفظ "إمبراطورية" إننا نقاتل من أجل الشعوب الحرة ذات الأصول الأوروبية دفاعاً عن مستعمراتنا فيما وراء البحار وشعوبها الذين يعيشون فى مجتمعات ديمقراطية(!!!) وإننا نقاتل كى نُدخِل الديمقراطية والحضارة والتمدن والتقدم إلى آسيا فى المدى البعيد".

"موافقون، موافقون" صاح لويد چورچ من المقاعد الأمامية. فقد أصبحت بهذا الحرب "حرباً عظمى من أجل الحضارة" لا من أجل الجشع والغنائم الخسيسة. كانت تلك هى اللحظة التى حفَّز فيها سايكس المناخ لاكتساب الدعم للمشروع الصهيونى، وعمل فيها تقدم الجيش البريطانى بثبات نحو القدس والأراضى المقدسة على نجاحه في جذب التأييد له.

ليس بوسع أحد ان يحدد بالضبط متى أصبح السير مارك صهيونياً. كتب ابنه كريستوفر سايكس يقول "لكن ليس ثمة شك حول أول شخص علّمه المبادئ الصهيونية". كان مرشده هذا هو الدكتور موشيه جاستر، مهاجر من أصل يونانى استقر بلندن، حيث أصبح حاخاما لمجموعة اليهود السفارديم. ولنا فى هذا أن نستشهد بما قاله السير مارك سايكس نفسه فى حشد صهيونى بدار أوبرا لندن يوم ٢ ديسمبر ١٩١٧: "أود أن أقول، قبل أن أنطق بكلمة أخرى، إن سبب اهتمامى بهذه الحركة هو أننى التقيت شخصاً من حوالى عامين، وهو موجود الآن على هذه

المنصة. شخصاً فتح عينى على ما تعنيه هذه الحركة .. أقصد الدكتور جاستر".

كان سايكس قد ناقش فى ثلاثة لقاءات مُبشّرة فى مايو ١٩١٦ مع الحاخام جاستر أصول الصهيونية السياسية الحديثة - وهى حركةٌ ولدت رمزياً من جديد فى كتاب صدر عام ١٨٩٦ بعنوان "الدولة اليهودية" وسط التوتر الذى ساد باريس أثناء قضية درايفوس وكان مؤلفه الصحفى وكاتب المسرحيات النمساوى تيودور هيرتزل - وبحثا أيضاً السياسات المبهمة والسرية ليهود الشتات فى روسيا، ألمانيا، وفرنسا، وبخاصة فى أمريكا المحايدة.

وبفضل عضويته فى لجنة بنسن، كان سايكس آنذاك على علم وثيق بالمذكرات التى كان السير هربرت صمويل قد سلمها فى فترة مبكرة من الحرب حيث كان يعمل آنذاك مديراً عاماً للبريد، ثم أصبح اعتباراً من عام ١٩١٦ وزيراً للداخلية بوزارة آسكويث الليبرالية. ووفقاً لما قاله شخصياً، كان صمويل "أول شخص من الجالية اليهودية يصبح عضواً فى مجلس الوزراء البريطانى" (أضاف قائلاً إن ديزرائيلى كان قد ترك الجالية اليهودية فى صباه ولم ينضم إليها أبداً مرة أخرى) . تبنى السيرهربرت، فى اثنتين من تلك المذكرات، بقوة وعزم، إنشاء محمية بريطانية فى فلسطين بعد الحرب، وفضل هذا الوضع على استمرار الحكم العثمانى، أو ضمها إلى فرنسا أو وضعها تحت حكومة دولية. أكد أن يهود العالم سيرحبون بإنشاء مثل تلك المحمية لاعتقادهم ان بريطانيا تشجع الاستيطان اليهودى، وتحسين الأوضاع فى فلسطين بحيث يتم وضع الأساس لإنشاء "وطن قومى" لليهود- وكان هذا مصطلحاً قد أصبح لتوه قيد التداول.

اعترف صمويل، مؤقتاً، أن الوقت لم يحن بعد لإقامة دولة يهودية ذات سيادة، وكان هذا هدفاً قد تم الاتفاق عليه وترسيخه ببازل بالمؤتمر الصيهونى الأول عام ١٨٩٧. بيد أن الدلائل كانت تبشر بالنجاح: أولاً، كان ثمة توجه صهيونى/مسيحى بريطانى راسخ، يمكن تقصّى جذوره إلى ثلاثينيات القرن التاسع عشر حينما تمرد

محمد على حاكم مصر على حكامه الاسميين العثمانيين وبعث بجيوشه إلى سوريا (كانت فلسطين جزءاً منها) الإقليم العثمانى، حيث كانت توجد الأماكن المقدسة. ومن أجل أن يكسب التأييد الأجنبى، وبخاصة فى إنجلترا، شجع محمد على الأوروبيين على فتح قنصليات بالقدس وعلى أن يعملوا بالتبشير دونما أية مضايقات. أنشأ البريطانيون قنصلية هناك عام ١٨٣٦، وكانت مهمتها المُضْمرة هى حماية المؤسسات البروتستانتية فى المدينة المقدسة، واضطلع الفرنسيون بدور مماثل بالنسبة للكاثوليك وروسيا بالنسبة للأرثوذكس. أُنشئ مقر أسقفى بروتستانتى عام ١٨٤١ أيضاً كثدرائية أنجليكانية، والتى تم تكريسها باسم كنيسة يسوع Christ Church عام ١٨٤٩ وكان البريطانيون قد نشروا استخدام اسم "فلسطين" للدلالة على الأرض المقدسة، وهو اسم أصله إغريقى (Phislistia) ويعنى أرض الفلسطينيين(١) ثم استخدمته روما للإشارة إلى الجزء الجنوبى من سوريا، لكنه لم يكن شائعاً بين الأتراك والعرب(٢).

من الصعب المبالغة فى مدى الحماس الذى حفزه إعادة اكتشاف فلسطين(٣) فى العصر الفيكتورى، وبخاصة بين البروتستانت المتعصبين الملتزمين. تم إنتاج كتب الأسفار، الأبحاث الجغرافية والكتيبات المصورة بغزارة. فيما بين عامى ١٨٤٢-١٨٤٩، استكشف داڤيد روبرتس، من الأكاديمية الملكية والإسكتلندى الأصل، الأرض المقدسة وأنتج بالطباعة الحجرية مجلدات كبيرة القَطْع مظللة. لم

---

(١) كانوا قوماً محاربين يسكنون الجزء الجنوبى من فلسطين (الترجمة).

(٢) كانوا يشيرون للمنطقة بأكملها باسم بلاد الشام التى كانت وحدة موحدة يسكنها العرب مسيحيون ومسلمون. لكن اسم فلسطين كان معروفا بين العرب، وبين أهل المنطقة، ولم يكن للغرب فضل فى ذلك. (الترجمة)

(٣) إعادة اكتشافها بالنسبة للمستعمرين فقط كانت فلسطين قد ظلت موجودة، عربية مسيحية إسلامية منذ آلاف السنين. (الترجمة)

يكن المصور فرانسيس فريث، أقل جسارة، حيث أبحر عام ١٨٥٦ باتجاه الشرق، وبصحبته غرفة تظهير أفلام مظلمة، تُجرّ على عجلات عبر الصحراء كي يلتقط صوراً فوتوغرافية للأرض المقدسة للمرة الأولى. فى روايتها "دانييل دروندا" (١٨٧٦)، أرسلت چورچ إليوت الروائية البريطانية و"الصيهونية المسيحية" بامتياز، بطل روايتها دانييل إلى الأرض المقدسة، كي يستعيد صلته بإرثه ويقيم كومنولث يهودياً مثالياً. وسرعان ما لحق الأمريكيون البريطانيين هذا السباق. بدأ رجل الدين البروتستانتى إداور روبنصون عام (١٨٣٨) فى تمشيط المنطقة للتعرف على عشرات المواقع الإنجيلية عرضها فى كتابه المؤلف من ثلاثة أجزاء "الأبحاث الإنجيلية فى فلسطين" والذى ظل زمناً طويلاً أحد المعالم فى المكتبات الكنسية. وفى عام ١٨٦٧، اعتلى الروائى الأمريكى مارك توين متن السفينة "كويكر سيتى" كى ينضم إلى "رحلة المتعة الكبرى فى أوروبا والأراضى المقدسة"، وهى رحلة ولّدت كتابه "الأبرياء فى الخارج" الذى رسخ مكانته كأحد حكماء أمريكا القوميين.

وبأسلوب مريح موات، تلاقى اللاهوت مع الضرورات العسكرية. بعد افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩، وشراء البريطانيين بعد ذلك بستة أعوام الأسهم التى تضمن لهم السيطرة على شركة القناة، أصبحت حماية "شريان الحياة الإمبريالى (القناة)" المسألة الأمنية الأكثر أهمية. أضاف هذا بُعداً جديداً للاهتمام الروحى بالأرض المقدسة حينما انشىء "صندوق استكشاف فلسطين" من أجل تشجيع التخصص العلمى لـ"أركولوجيا، جغرافيا، وجيولوجيا فلسطين وتاريخها الطبيعى"، لم ترحب بمولده فقط كنيسة إنجلترا والجمعية الجغرافية الملكية، بل أيضاً اللورد راسل وزير الخارجية. وسرعان ما تعاون الصندوق مع مهندس الجيش الملكى لرسم خريطة غرب فلسطين تحت إشراف ضابط بريطانى فى الجيش الهندى حاد البصر. فى عام ١٨٧٧ كتب الملازم كيتشنر تقريراً ذكر فيه ان فريقه قد سجل جميع الأنهار، والطرق، والآثار، كل واحد منها على حدة فى منطقته المحددة.

بيد أنه لم ير بعض المسيحيين الصهاينة البارزين جدوى فى يهود الجوار. كان هذا ينطبق على اللورد آشلى، الذى أصبح بعيد ذلك إيرل أوف شافستسبرى السابع، وكان أحد الأعضاء القياديين فى "جمعية لندن لنشر المسيحية بين اليهود". ووفقاً لما أورده الباحث البريطانى لينارد شتاين من تفاصيل. ففى ذات الوقت الذى كان يلح فيه اللورد آشلى على إعادة اليهود إلى فلسطين، فقد اعتبر رغبتهم فى حقهم فى عضوية البرلمان "إهانة للمسيحية". وفى واقع الأمر، فبالنسبة للداعين إلى "استعادة" اليهود فلسطين، وتجميع القبائل اليهودية هناك، وتحولهم الجماعى لاعتناق المسيحية، فقد كان ذلك تمهيداً ضرورياً لعودة المسيح الثانية، مثلما يظل هذا المعتقد قائماً الآن بالنسبة للإنجيليين الأمريكيين كلما اندلعت الحرب فى الأرض المقدسة.

ومَن ثم، ولأى سبب كان - رومانسى، عسكرى، رؤيوى، أو علمانى، أو حُب السامية أو كراهيتها - فقد وجد المشروع الصهيونى شخصيات بريطانية نافذة تمنت له النجاح بدرجة أنه، وفى وقت مبكر من القرن الجديد، فكرت إحدى الحكومات البريطانية من حزب المحافظين جدياً، فى احتمالات فتح سيناء المصرية و/أو قبرص التى كان يحكمها البريطانيون للاستيطان اليهودى. أما وزير المستعمرات جوزيف تشامبرلين، وبدعم من آرثر بلفور رئيس الوزراء المتعاطف، فقد طرح اقتراحاً أكثر جسارة عام ١٩٠٣: لِمَ لا يستوطن اليهود أوغندا ويستعمرونها؟ قدم المقترح رسمياً وبأسلوب مثير للدهشة إلى تيودور هرتزل ذلك المواطن العادى الذى كان يتحدث باسم اليهود فى الشتات.

انقسمت الحركة الصهيونية حول "مشروع أوغندا". وحينما مات هرتزل فى العام التالى توفى المقترح معه. بيد أن الحلم الصهيونى كان قد وجد طريقه إلى فكر بلفور المعقد، الذى كان بخلاف هذا، فليسوفا دنيوياً خلف عمه اللورد ساليسبرى رئيساً للوزراء وزعيماً لحزب المحافظين. وفيما كان يقود حملة انتخابية

فى مانشستر موطن حوالى خمسة عشر ألف يهودى، كان غالبيتهم لاجئون روس، توقف بلفور ليلتقى بالصهيونى الشاب حاييم وايزمان ويسأله عن السبب فى أن حركته رفضت أوغندا التى كان الإمبرياليون يعتبرونها "لؤلؤة إفريقيا". سجل وايزمان الحديث الذى تلى ذلك: "بدأت أجهد نفسى كى أجعل ما أعنيه واضحاً من خلال لغتى الإنجليزية. فى نهاية الحديث قمت بمحاولة. خطرت لى فكرة قلت: يا مستر بلفور هل ترضى بباريس بدلا من لندن؟ بدت عليه الدهشة.. قال! لكن لندن ملكنا قلت: كانت القدس ملكاً لنا حينما كانت لندن مستنقعاً قال: هذا صحيح. لم أره بعد ذلك حتى عام ١٩١٦".

وهكذا، أخذ بلفور اقتراح هربرت صمويل بفرض الحماية على فلسطين بعد الحرب، على محمل الجد. كانت العقبة الحقيقية آنذاك هى لهجة الرفض التى انبعثت من مجلس الوزراء. فى مذكرات رئيس الوزراء أسكويث الشخصية، ثمة فقرة مفعمة بالمشاعر جاء بها: "أعتقد أننى أشرتُ بالفعل إلى مذكرة هربرت صمويل المليئة بالحماس والعواطف الجياشة التى تحثنا حينما نقوم بتقطيع ممتلكات الأتراك وتقسيمها أن نأخذ فلسطين لتذهب إليها حشود اليهود المتناثرين من جميع أنحاء المعمورة، ثم يحصلوا على الاستقلال الذاتى هناك فى الوقت المناسب. الغريب فى الأمر، أن الطرف الآخر الوحيد لهذا الاقتراح هو لويد چورچ، الذى من المعروف عنه أنه لا يأبه البتة باليهود أو بحاضرهم أو مستقبلهم، لكنه يعتقد ان ترك الأماكن المقدسة يمتلكها الفرنسيون اللاأدريون الملحدون، أو وضعها تحت حمايتهم، هو أمر فاضح غير مقبول. بيد أن آراء آسكويث فقدت أهميتها بعد أن حل دايڤيد لويد چورچ محله فجأة فى ديسمبر عام ١٩١٦. لم يعد مسعى الصهيونية أمراً ميئوساً منه كان أعضاء مجلس وزراء الحرب ومستشاروهم جميعاً متعاطفين، وولد بلفور المؤيد للصهيونية من جديد وزيراً للخارجية فى حكومة لويد چورچ الائتلافية.

وهكذا اتخذت جميع العناصر موقعها بانتظار الشرارة المحفّزة، والتى أمدها بالأسلوب المناسب كيميائى مُلتحٍ من مدينة مانشستر.

حينما التقى مارك سايكس للمرة الأولى عام ١٩١٦، كان حاييم وأيزمان فى الثانية والأربعين وكان قد ظل يُدرّس الكيمياء بجامعة مانشستر لثلاثة أعوام. كان قد وُلد بقرية موتول الروسية، وحصل على الدكتوراه من سويسرا قبل أن يهاجر إلى بريطانيا حيث جذبت إنجليزيته المصقولة وسلوكه الآسر الأنظار إليه من الوهلة الأولى. فى كتابه "وعد بلفور" كتب لينارد شتاين يقول: "لم يكن وايزمان فقط داعية (للأهداف الصهيونية) ماهراً وملهماً - مرنا، واثقاً، شديد الحساسية للأجواء المحيطة، لا تخطئ غريزته التوقيت المناسب، بل امتلك أيضاً درجة عالية من القدرة على إثارة الخيال، ونقل بعضاً من إيمانه الروحانى بمصير شعبه وأهمية بقائهم للآخرين". كان بين مهندسى الوعد اثنان على الأقل - بلفور ومارك سايكس - على قدر كبير من الحساسية لتلك (القداسة) اليهودية. كان أحد الدبلوماسيين المبتدئين الذين يعملون مع سايكس هو هورولد نيكلسون الذى أصبح كاتباً فيما بعد، والذى علق على وايزمان بقوله "أحياناً لا أدرى ما إن كان زملاؤه اليهود يدركون الانطباع العميق الذى يتركه علينا نحن الأغيار لطبيعته البطولية المكابية (فى إشارة إلى المكابيين من أمراء اليهود الذين قيل إنهم حرروا يهوداً عام ١٦٦ ق م)".

منحته الصدفة، إضافة إلى مواهبه الطبيعية، فرصة مواتية. كان قد عاش لعقدين فى مانشستر حيث وجدت المثالية الراديكالية تعبيراً عنها فى أعمدة صحيفة "المانشستر جارديان" المقروءة، (والتى أصبحت تعرف بالجارديان فقط عام ١٩٥٩). التقى الدكتور وايزمان فى حفل خيرى فى خريف عام ١٩١٤ سى. پى. سكوت رئيس تحريرها المُهاب، وكان الإعجاب متبادلاً. بعد بضعة أسابيع، كتب العالم المهاجر ذو القدرة الغريبة على التكهن، خطاباً رَسَم فيه الخطوط العريضة لما سيحدث:

"ألا تعتقد أن فرصة الشعب اليهودى قد (أصبحت) داخل نطاق حدود النقاش

على الأقل؟ أُدرك بالطبع أن ليس باستطاعتنا "زعم" أى شىء أو المطالبة به، فنحن على درجة كبيرة من التشرذم لا نملك معها فعل ذلك. لكننا بإمكاننا القول بقدر من المعقولية، إنه إذا أصبحت فلسطين داخل نطاق مناطق النفوذ البريطانى، وإذا شجعت بريطانيا إقامة مستوطنات لليهود هناك، ذات تبعية بريطانية، فباستطاعتنا فى غضون ما بين ٢٥ إلى ٣٠ عاماً أن (نبعث) بحوالى مليون يهودى هناك، وربما أكثر؛ سيقومون بتنمية البلد ويأتون إليها بالحضارة، وسيشكلون حراسة بالغة الفاعلية لقناة السويس بل ربما ضد أى عدوان من الآستانة. لا حاجة لى للخوض أكثر فى جميع الإمكانيات. لقد ذكرت فقط الحد الأدنى. يمكن، بسهولة، أن تصبح فلسطين فى أيدى اليهود - بلچيكا آسيوية" (عملت بلچيكا مصداً لهجمات الألمان على إنجلترا)(١).

منذ تلك اللحظة اعتنق سكوت الأهداف الصهيونية، بل إنه أيضاً فتح أروقة السلطة أمام أكثر أنبياء الصهيونية قدرة. فى ٣ ديسمبر ١٩١٤، وبعد أن كان قد وصل على قطار ليْلىٍّ من مانشستر إلى لندن، التقى رئيس التحرير الدكتور وايزمان بمحطة بوستون وأعلن متباهياً "ستتناول الإفطار فى التاسعة مع لويد چورچ". فاق اللقاء توقعات وإيزمان، تماماً مثل لقائه الأول مع السير هربرت صمويل، الذى كان قد ظن خطأً أنه "متنجلز بدرجة يتعذر معها أن يكون صهيونياً جاداً". ثم بعد ذلك، عملت مسيرة الحرب على زيادة نفوذ الكيميائى وايزمان. بعد شهر من إفطاره مع وايزمان، تم تعيين لويد چورچ رئيس "لجنة العتاد الحربى" الحكومية، التى تحولت إلى وزارة جديدة تحت إشراف لويد چورچ المثمر (وسهل الاستثارة). ياللهول ما حدث! اكتشف الدكتور وايزمان بمعامله بمانشستر أسلوبا عمليا لإنتاج الأسيتون، مفتاح تصنيع الكوردايت أو مسحوق البارود الذى لا ينبعث

(١) بمعنى آخر، لقيت الفكرة القبول والتشجيع لأنها تخدم مصالح بريطانيا الاستعمارية في المنطقة ولأن ذلك الكيان سيكون وظيفيا. وهكذا تم تسويق الفكرة. (الترجمة)

منه دخان والذى استخدمته المدفعية البريطانية لقتل الآلاف. وبعد سنوات، أشار لويد چورچ إلى أن وعد بلفور جوهرياً هو أجر وايزمان عن خدماته أثناء الحرب، هذا على الرغم من أن لويد چورچ، كان يُباهى بأنه وقد تربى فى كنيسة منشقة على الكنيسة الإنجلكانية الرسمية، فإنه يتذكر ملوك إسرائيل بأفضل مما يتذكر ملوك إنجلترا، كما أنه مُلم بالجغرافيا الإنجيلية أكثر من إلمامه بالجغرافيا الفرنسية.

وبدون أدنى شك، فإن الاعتبارات الدنيوية النفعية عملت على تمهيد الطريق الذى أدى إلى مصادقة مجلس الوزراء على وعد بلفور. فى أثناء الحرب، كان أحد مصادر القلق الراسخ لمجلس الوزراء البريطانى هو تأثير اليهود الأمريكيين الواقعى أو الظنى على بيت الرئيس ويلسون الأبيض. كان قد لفت النظر بخاصة صداقة الرئيس مع لويس برانديس، الصهيونى الملتزم، وأول قاض يهودى عُين بالمحكمة العليا الامريكية. شعر صناع السياسية البريطانيون بالقلق ايضاً من المشاعر المعادية للحرب التى كانت تنتشر من خلال الأقلية اليهودية الروسية كبيرة العدد التى كانت تشعر بالاغتراب. علاوة على ذلك، كان بعض من المسيحيين الصهاينة يتشاركون مع المعادين للسامية فى الافتراض البدهى أن بإمكان الصهاينة، وبأسلوب ما، استدعاء دعم إخوانهم من ذوى النفوذ فى دوائر المال العليا، الفنون والصحافة فى أمريكا- وهو اعتقاد لم يصادق عليه الدكتور وايزمان وحلفاؤه، لكنهم لم يثبطوه أيضاً. وفى واقع الأمر، وكما بيّن المحامى والمؤرخ دايفيد فرمكين بفطنة، فإن من بين ما يقدر بثلاثة ملايين يهودى كانوا يعيشون بالولايات المتحدة عام ١٩١٤، فإن ما لا يعدو اثنى عشر ألفاً كانوا ينتمون إلى "فدرالية صهيونية" يقودها عدد من الهواة، والتى لم يكن لها سوى خمسمائة عضو فى نيويورك. وقبل عام ١٩١٤ لم تتعدّ ميزانياتها السنوية ٥٢٠٠ دولار، وكانت أكبر منحة تلقتها مجموعها ٢٠٠ دولار. ما أتى بوعد بلفور لم يكن هو حركة صهيونية قوية، بل العكس تماماً هو الصحيح.

كان كل ذلك يخيم على الجو حينما التقى السيرمارك سايكس حاييم وايزمان لأول مرة فى يناير ١٩١٦ وطلب منه إعداد مذكرة يحدد فيها أهداف الصهيونية وهكذا فعل. كانت كالتالى: "الاعتراف بفلسطين كوطن قومى لليهود، مع حرية الهجرة لليهود من جميع البلدان والذين ينبغى أن يتمتعوا هناك بحقوق قومية كاملة؛ يُمنح امتياز رسمى (من الحكومة البريطانية) لشركة يهودية، يعطى السكان اليهود حتى تشكيل حكومة محلية؛ ويُعتَرف رسمياً باللغة العبرية".

تم تداول هذا النص على مدى عامين خلال اجتماعات عديدة بين المسئولين رفيعى المستوى بمجلس الوزراء البريطانى والصهاينة البريطانيين؛ بين مستعمرين زراعيين يهود من فلسطين، ومثقفى المقاهى من أوروبا الشرقية، إضافة إلى الدبلوماسيين الفرنسيين والروس من ذوى الاهتمامات المحددة بالشرق الأوسط فى مرحلة ما بعد العثمانيين. وجدت صيغ متتالية منه طريقها فى أنحاء مجلس الوزراء، واستحثت لغتها معارضة غاضبة من جانب إدوين صمويل مونتاجو، ثانى يهودى ملتزم (بعد هربرت صمويل) يتولى منصباً كبيراً فى الحكومة البريطانية (كوزير للعتاد الحربى خلفاً للويد چورچ، ثم وزير دولة لشئون الهند)، كتب فى اغسطس ١٩١٦ لزميل له بوزارة الخارجية يقول إن القضية الجوهرية هى ما إن كان اليهود أتباع دين أم أنهم عِرْق: "بالنسبة لى، فقد حسمتُ خيارى منذ زمن طويل. أنظر برعب إلى الطموحات للحصول على كيان قومى. لو أننى قبلت بهذا، سيتوجب علىَّ، كرجل إنجليزى وطنى أن أستقيل.. لا يحق لأحد أن يشغل المنصب الذى أشغله إلا إذا كان حراً، ومصمماً على مراعاة مصالح الإمبراطورية البريطانية، ومراعاتها فقط".

كان مونتاجو صوت أقلية بمجلس الوزراء. كان يخيم على الأجواء بناء الأمم والتعويض عن المظالم التاريخية بدرجة أنه بحلول عام ١٩١٧ مضى السير مارك سايكس يبحث عن لغة للتوفيق بين طموحات اليهود والعرب والأرمن. عبّر فى حشد

صهيونى بلندن فى ديسمبر عن تصور له بأن تأتى فلسطين الصهيونية "بروحانية آسيا إلى أوروبا وبحيوية أوروبا إلى آسيا". بيد أنه استحث الصهاينة بقوله إن عليهم التفكير "فى رفاقهم فى البؤس، الأرمن والعرب". وبعد خمسة أيام، ردّ بأسلوب غير مباشر على مونتاجو" لن يكون أى يهودى بريطانى بريطانيا أقل، إن عليهم أن يتذكروا أن حوالى ثمانية مليون عربى ينعمون بقوة عمالة بشرية كبيرة، وتربة بِكر خصبة، ونفط، وعقول: "ماذا سينتج هذا بحلول ١٩٥٠؟ سيعاد إنشاء نظام قنوات فى بلاد الرافدين. لابد وأن تصبح سوريا مصدر الغلال لأوروبا. ستصبح كل من بغداد، دمشق وحلب فى حجم مانشستر. لذا، أحذّر اليهود بأن علهيم النظر من خلال عدسات العرب".

من جانبه، قام اللورد بلفور برحلة إلى أمريكا عام ١٩١٧ لمناقشة السياسات فى الشرق الأوسط، بين أمور أخرى. وبُعيد وصوله إلى واشنطون، تم تقديمه إلى القاضى برانديس أثناء غداء بالبيت الأبيض. قال وزير الخارجية "إنك أحد الأشخاص الذين أردت لقاءهم". أوضح برانديس، فى مناقشاتهما التى تلت، دعمه لإدارة بريطانية حصرية لفلسطين وإثباطه لأية آمال امريكية للمشاركة. وحينما عاد بلفور إلى لندن، كانت الآراء السائدة بين أعضاء حكومة لويد چورچ الائتلافية تثبت بقوة صواب التقييم الحدسى لرجل الدولة الشرفى الإمبريالى اللورد كرومر، الذى كان قد علق على الحركة الصهيونية بمجلة ذا سبكتايتور بقوله: "قبل وقت ليس بالطويل لن يكون بوسع السياسيين التغاضى عنها بصفتها حلماً خياليا يراود بعض المثاليين".

بالإمكان إيجاز فيض المذكرات والنقاشات التى لا حصر لها التى شُغل بها مارك سايكس عام ١٩١٧. فى يوليو تعاون فى صياغة مسودة لوعد بلفور والتى نُقلت إلى وزير الخارجية من الرئيس بالشرفى للفدرالية الصهيونية البريطانية اللورد ليونيل وولتر روتشيلد. كان النص كالتالى: "تقبل حكومة جلالته مبدأ وجوب

إعادة تشكيل فلسطين لتصبح الوطن القومى للشعب اليهودى. ستبذل حكومة جلالته أقصى جهودها لضمان إنجاز هذا الهدف وستكون مستعدة لدراسة أية مقترحات حول الموضوع قد ترغب المنظمة الصهيونية فى وضعها أمامهم". بعد ذلك، تجادل مجلس الحرب حول تعديل المسودة: أصبح "الوطن القومى": "وطناً للشعب اليهودى" ثم فى النهاية "وطناً قومياً للشعب اليهودى".

وفيما مضت النقاشات قدماً، تقدمت أيضاً الجيوش البريطانية فى الشرق الأوسط. تولى السير إدموند أللنبى، ضابط الفرسان المحنك، قيادة قوة مهمات مصرية، تم توسيعها وتحسين كفاءتها بناء على أوامر لويد چورچ الصريحة. فى أكتوبر غزت القوة التى كان قوامها ثمانية وثمانين ألف جندى فلسطين، وتقدمت مخترقة الدفاعات التركية فى هجوم كان غايته الاستيلاء على القدس بحلول أعياد الميلاد، واستعادة الهيمنة المسيحية على المدينة وأيضاً، إغلاق أبوابها فى وجه الفرنسيين. نجح أللنبى: سقطت القدس يوم ٨ ديسمبر، وبعد أن دخل الغازى البريطانى سيراً على قدميه بوقار، من بوابة يافا، أوضح، بأسلوب شخصى، بما لا يدع مجالاً للشك، لفرانسوا چورچ - پيكو - أىْ دولة أصبح لها السيطرة. فى تلك الأثناء، كانت مفاوضات مجلس الوزراء بلندن حول قرار الصهيونية قد انتهت. تسببت أزمة جديدة فى أن يصبح إعلان وعد بلفور أكثر إلحاحاً. كانت حكومة روسيا المؤقتة تتهاوى وكانت الإطاحة بها تعنى احتمال خروج روسيا من الحرب. وطُرِح السؤال: "لِمَ لا نُشجِّع يهود روسيا على استخدام نفوذهم ضد محادثات السلام؟".

كان القرار مناطاً بمجلس وزراء الحرب الذى كان أعضاؤه، بحكم تربيتهم وعقيدتهم يميلون للصيهونية. من بين الأشخاص الثقة الذين عملوا فى وقت أو آخر أعضاءً بمجلس وزراء الحرب كلى السطوة، كان اللورد كيرزن وحده قد نشأ بروتستانتياً إنجيلياً فى أسرة تتبع الكنيسة المستقلة المنشقة عن الكنيسة الإنجليكانية الرسمية. كان الشخص الوحيد غير البريطانى بالمجلس هو جان

كريستيان سماتس، الموالى للصيهونية بإخلاص وحماس منقطع النظير، وكان فى وقت ما جنرالاً بجيش البوير ثم أصبح بعد ذلك ضابطاً بريطانياً برتبة مشير وعضواً بالبرلمان جنوب الإفريقى. أبلغ جمهوراً يهودياً عام ١٩١٩ قائلاً: "لا حاجة لى أن أذكركم بأن شعب جنوب إفريقيا الأبيض وبخاصة السكان الهولنديون الأكثر قِدَماً، قد نشأوا بشكل شبه كلى على العقيدة اليهودية".

كان ثمة أعضاء آخرون يتبعون كنائس مستقلة Nonconformist عن الكنيسة الأنجليكانية من بينهم السير إدوارد كارسون، أو "ملك إقليم ألستر" الأيرلندى الشمالى، كما كان يُلقّب، وكان يتحدث باسم معظم البروتستانت المتشددين بأيرلندا الشمالية. وكان أيضاً عُضْوا حزب العمال بالمجلس آرثر هندرسون وچورچ بارنز بروتستانت منشقين عن الكنيسة الإنجليكانية، ومعهما أيضاً الأعضاء الثلاثة الممثلون لحزب المحافظين، أندرو بونار لو، واللورد ميلنر (نشأ مسيحيا لوثرياً) وأوستين تشامبرلين (مسيحى مُوحّد). الوحيد الذى كان قد ولد ونشأ أنجليكانيا كان هو اللورد كيرزن والذى كان أيضاً الأكثر تردداً حول الصهيونية، ويخشى" من رد فعل عربى انتقامى، ويحث الآخرين على تفحص دقيق للغة وعد بلفور غير المحكمة المليئة بالمسام". أضافت حقيقة أن أكثر أفراد جماعة الضغط من أجل الصهيونية نفوذاً وفاعلية داخل المجلس، أى السير مارك سايكس، كان كاثوليكياً، وأضاف بذلك لمسة مسكونية غير معتادة على إيماءة مسيحية غير مسبوقة لتعويض "شعب مضطهد"(!!)

عُرِض إعلان بلفور، الذى كان مَعْلَماً تاريخياً لتلك الفترة، على مجلس وزراء الحرب فى اليوم الأخير من شهر أكتوبر. قام اللورد بلفور بتلخيص الآراء المؤيدة والمعارضة، وتعاطى بخاصة مع اعتراضات كيرزن على المصطلح المبهم "وطن قومى" زاعماً أنه لا يعنى إقامة دولة يهودية مستقلة (هذا على الرغم من أنه قد أضمر فى مناسبات مختلفة أن المصطلح يعنى ذلك). قال إنه يعنى، بدلاً من ذلك،

أن على اليهود أن يعملوا بجد على خلاصهم وأن يخلقوا "مركزاً حقيقياً للثقافة القومية وبؤرة للحياة القومية فى فلسطين". حدث أيضاً أن صادقت حكومة جلالة الملك فى اليوم ذاته على إرسال خطاب إلى الرئيس الشرفى للفدرالية الصيهونية البريطانية. بدأ الخطاب "العزيز اللورد روتشيلد، يسعدنى جداً أن أنقل إليك، نيابة عن حكومة جلالة الملك، (الإعلان) الوعد التالى المُعبِّر عن التعاطف مع طموحات اليهود الصهاينة، والذى تم تقديمه إلى مجلس الوزراء والمصادقة عليه".

فى شكله النهائى، لخص الإعلان (الوعد) ألفى عام من "الدم والدموع" فى خمس وسبعين كلمة: "تنظر حكومة جلالته بتأييد واستحسان إلى إقامة، فى فلسطين، وطن قومى للشعب اليهودى، وستبذل أقصى جهدها لتسهيل إنجاز هذا الهدف. وليكن من المفهوم بوضوح أنه لا يجوز فعل أى شىء قد يلحق الضرر بالحقوق المدنية والدينية للجاليات غير اليهودية الموجودة بفلسطين، أو بالحقوق والمكانة السياسية التى يتمتع بها اليهود فى أى بلد آخر". اخُتتم الخطاب بعبارة رسمية لا إثارة فيها "أكون ممتناً، إذا أعلمتم الفدرالية الصهيونية بهذا الإعلان (الوعد): المخلص آرثر چيمس بلفور".

بعد مغادرته غرفة اجتماع مجلس وزراء الحرب، دوّن السير مارك سايكس على قطعة من الورق سلّمها للزائر المتوتر الذى كان يجلس مترقباً بغرفة الانتظار، صيحة ابتهاج تقول: "دكتور وايزمان، مبروك، جالك ولد".

فى البداية، لم يتسبب ما أُسمى على الفور "وعد بلفور"، فى استثارة، على الأقل بين المسيحيين. فى ٩ نوفمبر ١٩١٧ أى اليوم التالى لإعلان الوعد، كانت الأخبار التى جذبت اهتماماً أكبر هى الانقلاب الذى حدث فى بتروجراد بقيادة ڤى. آى. لنين الذى أقسم اتباعه البلشفيك على أن يمنحوا روسيا السلام، والأرض والخبز –

وناقضوا بذلك أحد مبررات وعد بلفور التكتيكية. نقلت عناوين الصحف البريطانية مثل "فلسطين لليهود" (التايمز) و"دولة لليهود" (الديلى إكسبرس) الاعتقاد الشائع أن "وطناً قومياً" كان يعنى دولة يهودية، هذا على الرغم من إصرار المسئولين البريطانيين، فى دفاع عن أنفسهم أمام العرب الذين تملكهم القلق، أنه لم يكن ثمة تصور لوضع كهذا. سرعان ما استشعر ويليام ييل، الأمريكى المحنك ومدير ستاندرد أويل التنفيذى المشاكل، فى تقرير له لوزارة الخارجية الأمريكية أرسله من القدس. قابل ييل بين الفرح العارم الذى عم اليهود، والإنكارات الفاترة للمسئولين البريطانيين المحليين الذين اعترف أحدهم قائلاً: "لا أستطيع أن أقول رسمياً إنها دولة لكن، وبأسلوب غير رسمى، فإننى، ببساطة، لا أعرف".

ولم يكن من الواضح أيضاً أن مجلس وزراء الحرب كان يعرف ما ينذر به هذا الوعد، الأمر الذى أصبح جلياً فى التصريحات الملتوية التى أدلى بها أعضاؤه للصحافة والبرلمان. بيد أنه كان ثمة إجماع من جميع المطلعين بمجلس الوزراء حول نقطة واحدة -فقد تكون فكرة المباركة البريطانية لـ"وطن قومى" ترجع فى الأصل إلى الدكتور وايزمان، لكن مارك سايكس هو الذى شجعها وعمل على تحققها. عبر ويليام أورمسبى - جور، المسئول بالمكتب العربى بين عامى ١٩١٦ و١٩١٧، والذى كان قد انضم إلى سايكس وليوبولد آمرى، سكرتيراً ثالثاً مساعداً فى مجلس وزراء الحرب، عبر عن حكم شخص مطلع. كتب أورمسبى - جور عام ١٩٢٣ يقول "كان مارك سايكس هو القوة المحركة الرئيسية لسياسة الحكومة البريطانية أثناء الحرب. ألهم السياسات العربية واليهودية، معاً. كان مسئولاً، بشكل رئيسى، عن تبنى الوزراء لها فى إنجلترا. كان مدافعاً لا تُقدّر خدماته بثمن عن أية قضية، وكان قد تبنى بكل النبل والحماس الذى كان يميزه قضية الشعوب غير التركية التى أُخضِعت أراضيها لسلطة الأتراك السيئة". أضاف أورمسبى - جور التفاصيل التالية! "لم يغفل أبداً عن القضايا الكبيرة وربما يكون هذا هو

السبب فى عدم اهتمامه بالتفاصيل". كانت أفكاره غير مصقولة مثل رسوماته، وكانت أساليبه مباشرة، وأحياناً صاخبة، ولذا كانت لندن تناسبه بأكثر مما يناسبه الشرق حيث إنه فى العالم العربى يحدث أن تتعقد كل قضية وكل خطوة من خلال التوجهات المتداخلة الشخصية أو الضيقة التى كانت بمثابة عوامل ضغط على قدرة احتمال كل موظف بريطانى يحاول المساعدة هناك وحسن أدائه.. كان يسيئه بخاصة التحيزات العرقية والعداوات بين اليهود والعرب باعتبار أن كلا من الجانبين سيستفيد من التعاون بينهما وتقبلهما لبعضهما أكبر فائدة. لكن مارك أساء تقدير إيمان العرب وتمسكهم بحقهم فى أراضيهم الإقليمية".

ما لم يقله أورمسبى- جور هو الجانب الأقل جدارة من شخصية سايكس. فمثلما كان، أثناء صباه يخوض معارك وهمية على مروج سلدمير الشاسعة وأيضاً مثلما وجد من دواعى التسلية أن ما كان يسمى بمملكة موناكو كان يدافع عنها جيش شبيه بالدمى ويُمولها كازينو القمار، كانت السياسة بالنسبة لسايكس الناضج أشبه بالاستعراضات والمهرجانات، والحروب أقرب ما تكون إلى مقارعات الفرسان عصر الأوسطيين. شكلت مكانته الاجتماعية حوله عازِلاً عن مضايقات الحياة اليومية العادية وأيضاً أبعدته عن تحمل المسئولية الكاملة عن علاقة متهورة نتج عنها ولادة ابن حُجبت حقيقة وجوده غير المريحة عنه. والقول بأنه كان، كباقى البشر، مخطئا ومعيباً، لا يقلل من قدر مواهبه الحقيقية أو إثاريته الفروسية.

وعلى الرغم من ذلك، فإن حكم أورمسبى - جور أكده معاصروه ودعمه المؤرخون. أسمت باربرا تاتشمان، مؤرخة الحرب العالمية فى تقصيها لأصول الانتداب البريطانى بفلسطين، أسمت السير مارك "الرجل الأوحد الذى كان أقرب ما يكون إلى تجميع الخيوط فى يده فى أى وقت من الأوقات"، كذلك. اختص حاييم وايزمان فى سيرته الذاتية وهو يشير إلى أحداث ١٩١٧ سايكس بالقول "بدا لى أن الشخص الوحيد الأوحد الذى كان بإمكان الحكومة البريطانية أن تتمثل فيه على

نحو كافٍ، والذى استوعب الشرق الأدنى بدقة واكتمال، والذى كان يتمتع بثقة العرب واليهود والأرمن بالكامل، هو السير مارك سايكس، الرجل الذى أمسك بتلك القضية لأعوام ثلاثة".

• من ثم، كان التعبير عن الأسى شبه شمولى لدى وفاة مارك سايكس فى ١٦ فبراير ١٩١٩، قبيل عيد ميلاده الأربعين ببضعة أشهر. كان قد وصل إلى مؤتمر باريس للسلام مرهقاً من أسفاره فى الشرق، ثم ذهب مع صديق له يوم ١٠ فبراير لمشاهدة مسرحية مسينه "تايس" التى تقع أحداثها بمصر فى القرن الرابع. فى تلك الليلة أصيب بمرض الإنفلونزا الإسبانية التى اجتاحت العالم وحصدت أرواح أربعين مليون شخص. أصيبت زوجته أيضاً، لكنها نجت من الموت. لدى انتشار خبر وفاته، نعاه الأصدقاء والزملاء والشعوب من أمثال اليهود والعرب(!) والأرمن التى تبنى قضاياها بمرثيات مذهولة مخلصة. حُملِت جثته فى جنازة عسكرية إلى إقطاعية سلدمير، حيث كان قد صمم نصباً تذكارياً حربياً للأصدقاء وجنود يوركشاير الذين لقوا حتفهم. كان ثمة لوحة نحاسية قد تُرِكتَ دونما كتابة، وعليها تم حفر صورة السير مارك وهو يرتدى درعاً عصر أوسطيا ويحمل سيفاً وفى الخلفية كانت "المدينة المقدسة". كتب زميله أورمسبى – جور قائلاً لو أنه عاش لكان تاريخ الشرق الأوسط منذ الحرب قد اختلف".

بيد أنه، أكان هذا القول مصيباً؟ أم أنه أفسد شئون المنطقة بأسلوب حتمى لا رجعة عنه؟

بعد تسعة عقود، وفى يوليو ٢٠٠٦، أمطر حزب الله اللبنانى إسرائيل بوابل من الصواريخ، وثأرت إسرائيل لنفسها على نطاق واسع مما حدا بكاتب الأعمدة بصحيفة واشنطون بوست، ريتشارد كوهين إلى التعبير عن رأى غير معتاد أثار وابلاً من الإيميلات الغاضبة. قال إن الغلطة الكبرى الذى يمكن لإسرائيل أن تقع فيها فى هذه اللحظة هو أن تنسى أن إسرائيل ذاتها هى غلطة "ثم استدرج بالقول

"غلطة بريئة حسنة المقصد، غلطة لا يلام عليها أحد لكن إنشاء دولة من اليهود الأوروبيين فى منطقة عرب مسلمين (وبعض المسيحيين) نتج عنه قرن من الحروب والإرهاب كما يحدث الآن. تحارب إسرائيل حزب الله فى الشمال وحماس فى الجنوب، لكن عدوها الأكثر ترويعاً هو التاريخ ذاته».

يستحق زعم ريتشارد كوهين أكثر من مجرد الرفض الغاضب من جانب أصدقاء إسرائيل. فما قاله ليس بجديد كان الأمريكيون من أمثال الكولونيل إدوارد هاوس اقرب مستشارى الرئيس وودرو ويلسون إليه، قد تنبأوا بأن وعد بلفور سيثير النزاع، كما كان هذا، وكما بيّنا رأى يهود بريطانيين بارزين من أمثال إدوين مونتاجو. تعلق استاذة جامعة أكسفورد اليزابث مونرو وهى تكتب ارتجاعاً عن لحظة بريطانيا العابرة بالشرق الأوسط، تعلق على وعد بلفور بالقول "قياسا على المصالح البريطانية وحدها، فقد كان إحدى كبرى الأخطاء فى التاريخ الإمبريالى» وليس هذا (ولم يكن) رأياً بريطانياً فقط. فى عام ١٩٤٧، أشار لوى هندرسون، مدير مكتب وزارة الخارجية لشئون الشرق الأدنى، أشار على الرئيس ترومان أن إقامة دولة يهودية يعارضه جميع أعضاء وزارة الخارجية، تقريباً، المهتمين بالشرق الأوسط. كذلك عارض جميع حكماء واشنطون - چورچ مارشال، دين أتشسون، چورچ كنان تشارلس بوهلن، چورچ فورستال، وروبرت لوفت - الاعتراف بإسرائيل دولة مستقلة، حيث رأوها. (كما يكتب روبرت دى كابلان فى دورية "المستعربون") "عقبة فقيرة نفطيًا فى طريق العلاقات الحسنة مع العرب الأثرياء بالنفط ذوى الموقع الاستراتيجى فى وقت تشرع فيه الولايات المتحدة فى خوض صراع فى جميع أنحاء العالم ضد الاتحاد السوڤييتى".

ثمة أمريكيون آخرون أبدوا الحذر والحرص حول التجربة الصهيونية. كان ڤينست شيان، المراسل الأجنبى ليبرالى التفكير، مثالاً على ذلك. يتذكر فى سيرته الشخصية "تاريخ شخصى" (١٩٣٥) والتى قرئت على نطاق واسع، يتذكر وصوله

إلى فلسطين بصفته حاجاً مؤيداً للصيهونية ليتحول إلى أحد نقاد الحركة. كان موجوداً أثناء الأيام الدموية الخمسة لأعمال الشغب العربية/ اليهودية التى انتشرت من حائط المبكى (حائط البُراق) فى القدس إلى الخليل وما بعدها وكانت الأرقام الرسمية للمصابين هى ١٢٠ قتيل يهودى و٧٨ قتيلاً عربياً، و١٩٨ جريح يهودى، و١٨٥ جريح عربى. رددت تقاريره عن الواقعة فى ذا نيويورك ورلد، وشهادته أمام لجنة التحقيق البريطانية اعتقاده بأن الامتهان المتعمد المنظم للأماكن المقدسة الإسلامية حفز، بدون داعٍ المذبحة. كان قد كتب فى أماكن أخرى عن حروب تنجم عن الضرورة التاريخية "لكن هنا، فى ذلك البلد الصغير البائس، الذى لا يتجاوز حجمه بالنسبة للعالم طرف أصبعك، لا يمكننى أن أرى أية ضرورة تاريخية. كان البلد شديد الصغر مأهولاً بالسكان، لِم لا يستطيع الصهاينة تركه وحده فى حاله؟ ليس من الممكن أبداً أن يضم عدداً كافياً بحيث يؤدى إلى بداية فقط باتجاه حل المشكلة اليهودية، سيظل دائماً معرضاً لمثل تلك البشاعات الرهيبة التى رأيتها كل يوم وكل ليلة: ضَمَنَ تصلب الدين الأزلى، عدم حل المشكلة أبداً. بدت لى الأرض المقدسة اقرب ما شهدته أبدا للجحيم على الأرض".

بيد أن بالإمكان النظر إلى الوقائع نفسها من منظور مختلف بالنسبة لكثير من اليهود، فإن ما حدث بعد وعد بلفور حمل إرهاصات بمخاطر الاعتماد على نوايا المسيحيين الصهاينة الحسنة. لم يكن ثمة سياسى بريطانى أكثر التزاماً بالقضية من دايڤيد لويد چورچ. بيد أن هذا السياسى البريطانى لم يفقد فقط اهتمامه، (لم ترد فى مذكراته الضخمة بعد الحرب سوى جملة واحدة عن وعد بلفور)، بل إنه أيضاً أصبح ولو لفترة وجيزة، مداحاً لأدولف هتلر. فى عام ١٩٣٦ قام بزيارة الفوهرر فى برختسجاردن وأثنى عليه بصفته "أعظم ألمانى على قيد الحياة". (كتب ونستون تشرشل عام ١٩٤٨ الذى كان تلميذا للويد چورچ يوماً ما، قائلاً إن تقاريره المنتشية عن أحاديثهما تبدو شاذة لدى قراءتها هذه الأيام). أبلغ لويد چورچ قراءه بالديلى إكسبرس أن هتلر كان "زعيماً بالفطرة شخصية مغناطيسية دينامية هدفه

الوطيد الأوحد هو رفع مستويات المعيشة فى ألمانيا التى لم تعد ترغب فى غزو أى بلد آخر". وبعد عام، حينما أصبحت طبيعة النظام النازى واضحة للجميع ماعدا المصابين بالعماء أسرّ لويد چورچ إلى أصدقائه بأنه أمنيته الوحيدة "هى أن يكون لدينا رجل يترأس شئون بلدنا الآن له صفات (هتلر) التى لا نظير لها".

(وبالمقابل برهن اللورد بلفور على أنه لم يكن صهيونياً مخلصاً فى السراء فقط علق قائلاً لكاتبة سيرته وابنة شقيقته بلانش واجدل، إنه ككل، يشعر بأن ما فعله من أجل اليهود شىء جدير بأن يُفعل تماماً).

وفيما تقدمت سنوات الانتداب البريطانى بفلسطين، غدا بإمكان الصهاينة الذين استوطنوا الأرض هناك أن يدركوا حقيقة شعار اللورد بالمرستون المثبطة القائل بأنه ليس "لإنجلترا حلفاء دائمون فقط مصالح دائمة".. فى عام ١٩٣٩ صادقت حكومة المحافظين برئاسة نفيل تشامبرلين على "الورقة البيضاء" التى، عملياً، أغلقت بوابات فلسطين أمام اليهود الفارين من ألمانيا النازية. يكتب المؤرخ الأمريكى دايفيد إس. وايمان فى كتابه "التخلص من اليهود" (١٩٨٤) قائلاً إنه فى هذا الوقت كانت فلسطين "تمثل المجتمع الوحيد على الأرض الذى كان على استعداد لتقبل أعداد كبيرة من اللاجئين اليهود". حددت "الورقة البيضاء" هجرة اليهود بخمسة وسبعين ألف شخص على مدى ثلاث سنوات، وكان من شأن ذلك أن يحصر عدد السكان اليهود بحيث يصبحون ثلث عدد سكان فلسطين مما يضمن غالبية عربية. برهنت الولايات المتحدة أيضاً، أثناء سنوات برنامج الإصلاح الاقتصادى، على أنها لم تكن أكثر ليبرالية أو تساهلاً بشأن قبول اللاجئين اليهود على الرغم من تبنى فرانكلين روزفلت لـ"الحريات الأربع". إلا أنه حينما اجتمع بالملك عبد العزيز آل سعود على متن البارجة USS Quincy عام ١٩٤٥، أغفل ذكر اللاجئين اليهود حينما اقترح الملك العربى أن عليهم ان يُوطَّنوا فى ألمانيا أو بولندا. لم يكن بوسع فرانكلين روزفلت أن يكون أكثر استرضاء للملك فقد وعد الحاكم السعودى بأنه لن يفعل شيئاً لمساعدة اليهود ضد العرب ولن يتخذ أية خطوة

معادية للشعب العربى. ثم مضى يقول إن معلومات الأمريكيين عن المسألة اليهودية كانت خاطئة. فى تقريره للكونجرس لدى عودته قال الرئيس بأنه قد "تعلم عن المشكلة اليهودية فى خمس دقائق مع الملك السعودى أكثر مما كان بإمكانه أن يتعلمه من خلال تبادل دستة خطابات". ومع كامل الاعتراف بتقدم سن الرئيس، وصحته المتدهورة آنذاك، فلم تكن تلك اللحظة مدعاة لفخره.

وحقاً، فقد تعلم اليهود فى جميع الأنحاء أثناء العقود التى تلت وعد بلفور، مخاطر إيكال أمر بقائهم للأغراب الأغيار واعتمادهم على عطفهم. كان ڤينسنت شيان قد اشتكى فى كتابه "تاريخ شخصى" من أن أصدقاءه اليهود يبدون دائماً وأنهم يسيطر عليهم هاجس "عقدة المحرقة"، وهو تعليق بدأ شاذاً بعد ذلك بعقد من الزمان بعد الحرب العالمية الثانية وجد الآلاف من اللاجئين اليهود المتواجدين فى معسكرات قذرة، والذين أُنكرت عليهم الهجرة القانونية إلى فلسطين، وجدوا طريقهم إلى هناك بأسلوب غير مشروع. أنهت بريطانيا العظمى بعد أن أضعفتها برودة شتاء عام ١٩٤٧ (!!) وعجزت على حفظ السلام فى فلسطين، أنهت رسمياً انتدابها، وسارعت بذلك من "الانتفاضة!!" التى أدت إلى إعلان إسرائيل دولة مستقلة فى عام ١٩٤٨. أصبح حاييم وايزمان أول رئيس لها واستمر فى منصبه حتى وفاته عام ١٩٥٢. أصبحت الوطن القومى، فى قرن تميز بالعنف والدماء التى أريقت، قارب نجاة. وبجعله وجود هذا الوطن ممكناً، اكتسب السير مارك سايكس درع الفروسية الذى يزين اللوحة البرونزية التذكارية بيوركشاير واستحقه بجدارة.

فكرة أخيرة: من الحقيقى يقينا ان حرب استقلال إسرائيل عام ١٩٤٨ اقتلعت مئات الآلاف من الفلسطينيين الذين ظلت محنتهم منذ آنذاك تمثل لوما(!!) مريراً لإسرائيل (!!!) بيد أنه من الحقائق المؤسفة أن معظم بلاد العالم وُلدت فى الخطيئة وأنه ليس ثمة واحدة منها وبالتأكيد ليس الولايات المتحدة، إسرائيل، كندا، فرنسا، ألمانيا، روسيا، الصين، الهند، تركيا، أو البلدان الإفريقية – بريئة من الاقتلاع. إنها

إحدى حقائق العالم التى يؤسف لها. إن البلدان القومية متجذرة فى طقوس للعنف نفضل جميعنا أن ننساها(١).

(١) أيمكن أن تصل المغالطات الأكاديمية إلى هذا الحد؟!!!

هذه واحدة فقط من المغالطات التى يسجلها المؤلفان الأكاديميان، فحزب الله لم يمطر إسرائيل بالصواريخ إلا بعد ان شنت هى هجوما شاملاً، بحريا / جويا / ارضيا على لبنان استخدمت فيه أطنان المتفجرات والأسلحة المحرمة دوليا، ولم يكن هذا رداً ثاريا على صواريخ حزب الله. تتمثل تلك المغالطات ايضا، ونذكر هنا قطرات من فيض، فى ذكرهما للقتلى والجرحى الصهاينة الذين وقعوا فى مواجهات مع الفلسطينيين أصحاب الأرض لكنهما يغفلان ذكر المذابح التى ارتكبتها عصابات مثل الأرجون والهاجاناه ضد الفلسطينيين الذين كانوا شبه عزّل، بل لا ياتى اى ذكر لتلك العصابات. احد الأساليب التى يتبعها الكاتبان الأكاديميان ايضا، هى إضفاء البطولة وصفات النبل والشهامة، ليس فقط فى هذا الفصل، بل فى عدد من فصول الكتاب، على الهواة والمغامرين والمتعصبين، بل والقتلة واللصوص احياناً، الذين استباحوا إفريقيا والشرق الأوسط وثرواتهما وسكانهما، وقرروا مصير المنطقة باكملها وتسببوا فيما تعيش فيه من نكبات وازمات حتى اليوم. لا يوجه إلى مثل هؤلاء اللوم إلا احياناً، حينما يتصرفون بغباء يؤدى إلى الإضرار بمصالح الإمبراطورية ومصالح الغرب. فلا يتبنى المؤلفان حتى منظوراً موضوعياً حياديا، ويتركان الحكم للقارئ وللتاريخ. لكن تعبيراتهما وسياقهما وأسلوب سردهما، كلها محملة بالأحكام المنطوقة والمضمرة المتحيزة مع الغرب، وضد الشرق وشعوبه.

لا غرو إذن أن يذكرا فى فقرة قصيرة فى نهاية هذا الفصل بعنوان فكرة أخيرة وكانهما حريصان على الصدقية التاريخية، ان مئات الآلاف من الفلسطينيين اقتُلعوا، (لا يذكران عمليات الإبادة والتطهير العرقى) فى سبيل إنشاء الدولة الصهيونية. لكنهما يبرران هذا كضرورة تاريخية رافقت إنشاء جميع الدول القومية!!! يغفلان أولاً، أن ما حدث فى فلسطين تم فى وجود "قانون دولى" و"عصبة امم" "وهيئة امم" ولا يقاس بما تم فى غياب كل هذا. ولا يعنى هذا مطلقاً ان ما اقترفه الأوروبيون البيض المتعصبون النهابون فى حق الشعوب الأصلية بأمريكا واستراليا وغيرها وغيرها جرائم يمكن ان تُغتفر او تنسى، لكن ما ارتكب فى حق الفلسطينيين، وما زال يرتكب، ناهيك عن العراق وافغانستان.. إلخ تم فى وجود قانون دولى ومنظمات دولية. (الترجمة)

الفصل الرابع

الشماس
(مساعد الكاهن)
السير آرنولد تالبوت ويلسون
١٨٨٤ - ١٩٤٠

الفصل الرابع

انتصارات صباكَ مغانمٌ لنا

فقد جعلت قلوبنا ضد الألم حصينة

ولا نعتبر حتى "كليفتون" عظيمة

سوى لأنها طوّعت إرادتنا لخدمة دولتنا

– السير هنرى نيوبولوت، ناظر مدرسة

كليفتون كولدج ١٨٨٦

كـان اللاهوت هو مـا شكّل بداية السـيـر آرنولد تـالبـوت ويلسـون، ذاك الرجل المَنْسى الذى أنجب العراق بحدودها الحالية. كان رجلاً طويلاً "ستة أقدام" داكن العينين، مهيب النظرة والهيئة. قبيل وفاته عام ١٩٤٠، كتب نصاً يوضح عقيدته وكأنما كان يكتب مرثية ذاتية. قال "قبل الحرب العظمى عمل جيلى فى خدمة رجال آمنوا بالمبررات الأخلاقية الدينية للمهام التى أناطها الله بهم، وشاركناهم إيمانهم وعقيدتهم. كانوا الكهنة، وكنا نحن الشمامسة فى طقوس عبادة - أيقونة سلام بريطانيا - من أجلها عملنا بسعادة، ولو اقتضت الحاجة، لقدّمنا حياتنا فداء لها بسرور، كان كيرزن وهو فى أفضل أحواله، المتحدث، باسمنا، والشاعر كيبلينج فى أكثر قصائده نبلاً مُلهمنا.. قرأنا أناجيلنا، كثيرون منا، وعشنا حياتنا مكتملة، وأحببنا وضحكنا كثيراً. لكننا كنا نعلم فيما كنا نفعل ذلك أنه سوف يحكم علينا طبقاً لثمار أعمالنا، فى المستقبل الآتى".

يبـدو أن أرنولد تالبوت كـان قد جُـبل منذ نعومـة أظفاره، ودونما خطأ، على أن يكون شماسا فى كنيسة عبادة بريطانيا العظمى. لم يكن ثمة ما هو غير مألوف فى أن يقوم والده المقدس جيمس ويلسون، رجل الدين الإنجليكانى، بتدريس العلوم لمدة عشرين عاماً بمدرسة راجبى Rugby لطلبة من أمثال طوم براون وزميله الفاسد هارى فلاشمان. لكن لأنْ يصبح المقدس ويلسون، بَعْد ان رُسّم كاهناً، ناظراً لمدرسة كليفتون كوليدج فهو أمر يكاد يكون من الخوارق. تحتل كلية كليفتون مكانة خاصة فى عالم المدارس البريطانيـة الداخلية الغريب. تقع المدرسة على تل أعلى مدينة بريستول. أعدَّت، وخرّجت آلافاً من جنود وإداريى الإمبراطورية، وتفخر بأنه قد تخرج فيها عدد من جنرالات الحرب العالمية الأولى، (بمن فيهم القائد العام للقوات المسلحة دوجلاس هيج)، ومن "الأبطال" الإمبرياليين (من بينهم السير فرانسيس

يونجهزباند الذى غزا التبت) عدداً يفوق ما خرجته أية مدرسة أخرى. لدى زياتنا لكنيسة الكلية ذات السراديب، وجدنا أن معتقدات ومقولات كيبلينج وكيرزن قد تحولت إلى كلمات تذكارية على نُصب خريجى كليفتون الذين حاربوا وماتوا فى سبيل التاج والإمبراطورية. كان الشاعر الذى صاغ تلك الأبيات التذكارية هو السير هنرى نيوبولت الذى كان أيضاً أحد خريجى كليفتون.

تفوّق الصبى أرنولد فى لعبة الراجبى "كرة القدم الإنجليزية"، وفى سنته السادسة، فاز لكليفتون بكأس الراجبى الذى طالما تمنته. درس الكلاسيكيات، وتمعن فى قراءة التاريخ العسكرى، وتعلم الفرنسية أثناء رحلة بالقارة وأظهر انضباطاً واكتسب من المعرفة ما حاز على إعجاب حتى والده الصارم. فى عام ١٩٠٢، اتبع ابن الناظر المتقاعد المسار المعتاد من كليفتون إلى ساندهيرست، أى الكلية الحربية الملكية، وهناك احتل قمة المتفوقين فى فصله وحاز على نيشان الملك، وسيف الجدارة العامة. تم تعيينه بالهند وعمل بالفرقة الثانية والثلاثين لرواد السيخ، واكتسب مهارة فى لعبة البولو وأتقن اللغات الآسيوية، وفى غضون عامين كان قد ترقى إلى "القسم السياسى" الذى كان يعين نصف موظفيه من الموظفين المدنيين بالهند، ونصفهم الآخر من الجيش. فى عام ١٩٠٨، وحينما كان ملازماً فى الثالثة والعشرين من العمر، بُعِث به إلى جنوب غرب فارس كممثل (عميل) سياسى.

كان ذلك منصباً مبشراً فى وقت حرج. تثير إنجازات أرنولد ويلسون اهتماماً من نوع خاص لأن حياته تُعتبر نموذجاً على التأثير الذى يمارسه مسئول متوسط المكانة له أجندة أيديولوجية على رؤسائه المُفترضين، تماما مثلما يجرِف التيار التحتى القوىُّ مسار فرطاقة تكاد ألا تتحرك لانعدام الرياح. ليس ويلسون وحده هو الذى شكّل لحظة هيمنة بريطانيا فى الشرق الأوسط باستثناء إنجازٍ مهم واحد - أى رؤيته لكيان قابل للحياة يسمى العراق - وهو فى هذا قد ترك بصمته على خريطة العالم، أيّاً كانت عواقب ذلك.

كان التوقيت الذى باشر فيه الملازم إيه تى. ويلسون مهامه نموذجياً. وصل إلى فارس فى الوقت الذى كانت فيه البحرية الملكية قد بدأت تستخدم السفن الحربية فيها النفط وقوداً بدل الفحم وما تبع ذلك من مكاسب ملموسة فى الطاقة البشرية والكفاءة. لكن البحرية كانت قلقة، وكما كان لوردات البحار يعلمون فإن الإمبراطورية الثرية فى مختلف الموارد، كانت فقيرة نفطياً. ومع مساعدة سرية من الأميرالية، بدأت مؤسسة مقرها لندن فى بداية القرن الجديد تجتهد فى البحث عن النفط الذى كان يُعتقد ومنذ زمن طويل، أنه موجود بكميات وفيرة فى بلاد فارس. وفيما مضى المسعى قُدماً، عقدت بريطانيا وروسيا صفقة برجماتية لإنهاء تنافسهما الجيوسياسى فى آسيا، كى تستطيع كل منهما مجابهة منافستيها الجديدتين، اليابان وألمانيا. كان أحد النصوص المهمة فى المعاهدة الأنجلو روسية لعام ١٩٠٧ يقضى بتقطيع أوصال بلاد فارس (إيران) إلى ما سُمّى "مناطق نفوذ". وفيما حازت روسيا لنفسها المنطقة الشمالية الأكبر بما فيها طهران، استولت بريطانيا على الجنوب الشرقى فيما تم تعيين المنطقة الجنوبية الغربية الواقعة بينهما على أنها منطقة محايدة. حدث ذلك فيما الإيرانيون مشغولون بأحداثهم الدرامية الخاصة التى سارع من وتيرتها قيام الثورة البيضاء ضد الشاه الهرِم، الذى أجازوا رغماً عنه، إجراء انتخابات لمجلس نيابى غير مسبوق. صاغ نواب المجلس دستوراً، الأول من نوعه أيضاً، وقّعه الملك قبل موته. ثم، بعد ذلك، أقنعت روسيا وحلفاؤها من الملكيين خليفة الشاه الطيّع بحل المجلس النيابى الذى كان يُعتبر نموذجاً مستفزًا لرعايا القيصر. تلى ذلك حرب أهلية واجه فيها الملكيون الفرس الإصلاحيين وزعماء العشائر. واستناداً منها إلى المعاهدة التى كانت قد وُقعت لتوها وبتواطؤ مع البريطانيين، تدخلت روسيا عسكرياً فى طهران وأخمدت الثورة الدستورية الواعدة (مزيد من التفاصيل فى الفصل التاسع).

كان ذاك هو المشهد حينما نصب آرنولد ويلسون وفرقة الفرسان المصاحبة له

خيامهم عام ١٩٠٨ بالقرب من مسجد إى سليمان على هضبته فى جبال زاجروس. هنا كانت مؤسسة بريطانية شبه مفلسة قد وافقت على أعمال تنقيب تجريبية أخيرة عن النفط. كانت التجهيزات تتوهج تحت الإشراف اليقظ لچورچ رينولدز المهندس البالغ من العمر خمسين عاماً والذى عُرِف عنه تحديه العدوانى لجميع المعوقات البشرية وغير البشرية. وعلى الفور كوّن ويلسون صداقة مع رينولدز الصموت، وكتب عنه فى خطابه لأهله يقول إنه "رصين فى المفاوضات، سريع فى أفعاله وطيد العزم فى تصميمه للعثور على النفط".

أتت جهود رينولدز وتصميمه ثمارها فى ٢٥ مايو ١٩٠٨، اندفع تدفُّق بعلو خمسين قدما وأغرق فريق التنقيب الذى أخذ فى التهليل. وهكذا أطلقت إيران شرارة طفرة الشرق الأوسط النفطية وكان من حسن حظ ويلسون أن كان موجوداً لدى مُستهلها. وعلى الفور أصدر الضابط الشاب أوامره إلى فرقة حاملى الرماح البنغالية بمحاصرة حقل النفط وكأنما هو أرضٌ بريطانية (هذا على الرغم من ان الحقل كان داخل نطاق المنطقة المفترض أنها محايدة) ثم أبرق ويلسون رسالته المشفرة إلى رؤسائه "انظر المزمور ١٠٤ آية ١٥ جملة ٣: (وخمرُ تفرح قلب الإنسان وجهه أكثر من الزيت..")". آنذاك، كان المسئول السياسى المستَجد الذى دائماً ما كان يرتدى زى الأهالى قد اطلق لحيته، تعلم طهو الأطعمة المحلية، وصادق شيوخ العشائر المحلية الذين كان الكثير منهم عَرباً يتمتعون بشبه استقلال ذاتى عن طهران البعيدة. كان تكريسه يثير الرهبة، وطاقته لا تنفد. كتب إلى أهله بإنجلترا يقول "لابد أن أُغرِق نفسى تماماً فى حياة هذا المكان - چيولوچيته، تاريخه الطبيعى، حياته النباتية والحيوانية، لهجاته، أعراقه، آثاره وحفرياته - حتى يصبح جزءاً من حياتى". وأثناء ما يربو على السنوات الخمس التى قضاها ببلاد فارس، تنقل فى أنحاء جبال زاخروس واستكشفها (كانت حتى آنذاك لم يزرها أى أوروبى، ولم تُرسم لها أية خرائط، وكانت غير متاحة تقريباً) وقام بعمل مسح

لحوالى ثلاثة آلاف ميل مربع سيراً على الأقدام أو ممتطياً جواده. جمع الأفاعى لمتحف بومباى، وأرسل خبيئة من العملات المعدنية القديمة لمتحف كلكتا، وتعلم أن يعيش على الكفاف فى الكهوف كى يهرب من حرارة الصيف (درجة الحرارة ٤٥ْ) واستغرق بأسلوب رومانسى فى مشهدِ جبّال زاخروس الأخاذ، كما نتبين من تلك اللقطة من مذكراته:

"يأتى الفجر متباطئاً وتتكشف كفافات التلال العارية المحددة مكسوة، فعلاً، بجميع الألوان على خلفية عُليا رمادية.. يتقدم قرص الشمس الذهبى فوق كتف التل، ويبدأ نشاط المعسكر فيما تختفى بقعة الصقيع الرمادية من فوق سطح خيمتى. التلال والسهول مفروشة بالزهور.. وفى الوادى، توجد هنا وهناك أحواض كبيرة لزهور النرجس. ينحنى رجالى، مثلما يفعل الفرس، من على خيولهم التى تسير ببطء ليستنشقوا عبيرها. لا أستطيع تذكر أن عقلى وعينىّ وأذنىّ قد استمتعت فى أى وقت مضى بهذا الكم الهائل من الأشياء الجميلة المثيرة. وكما يكتب هنرى نيوبولت "آه أيتها الأرض الأم، أقسم بالشمس العظيمة فوقك إننى أحبك، آه، أحبك".

أصبح ويلسون يُتقن اللهجات المحلية بدرجة أنه حينما أسره بعض رجال القبائل المعادية طلباً للفدية استطاع إقناعهم بإطلاق سراحه: "امتنعتُ عن أخذهم على محمل الجد، ومضيت أتحدث عن مواضيع خفيفة عملاً بمقولة روبرت والپول التى مفادها أنه دائماً ما كان يتحدث عن أشياء بذيئة بعد العشاء بحيث يستطيع الجميع الاشتراك فى الحديث". أطلق روساء العشائر أسيرهم حلو الحديث. وبعد عامين ولدى رحيله إلى إنجلترا فى إجازة عمل على الباخرة كوقّاد فحم من أجل توفير بعض النقود وتقوية عضلاته. ولدى وصوله إلى مرسيليا بفرنسا، اشترى دراجة قطع بها الأميال التسعمائة المتبقية حتى وصل إلى منزل أسرته. أنفق مدخراته على شراء بذلة أنيقة صُنعت خصيصاً له. لا غرو إذن، أن ويلسون، ومنذ

البداية، جذب انتباه السير بيرسى كوكس (١٨٦٤-١٩٣٧) كبير مسئول الراج (حكومة الهند البريطانية) السياسيين فى الخليج الفارسى الذى سيأتى ذكر دهائه ومكره على صفحات كثيرة من هذا الكتاب.

لكى نفهم كوكس، سيكون علينا أيضاً أن نفهم الوضع الشاذ للبريطانيين فى الخليج الفارسى. نظرياً، كانت بلاد فارس قوة مستقلة ذات سيادة، وكان لملكها السلطة على موانئ الخليج، إضافة إلى ذلك، كان من المفترض أن تكون إمارات الخليج العربى مثل الكويت ومسقط تابعة للإمبراطورية العثمانية المضمحلة. أما فى الواقع، ومنذ القرن الثامن عشر فقد تعامل حكام الهند البريطانية مع الخليج الفارسى بصفته بحيرة مملوكة لبريطانيا واعتبروا إماراته توابع شبه منفصلة. كان مفتاح نفوذ بريطانيا هى قوتها البحرية، حيث استخدمت السفن الحربية والتجارية لتخليص الخليج من القرصنة والقضاء على تجارة الرقيق البحرية، واستخدمتها استراتيجياً لفتح المناطق المجاورة أمام التجارة البريطانية ومنع المنافسين المعادين من تهديد الهند. وكان الراج (نظام الحكم البريطانى بالهند) باستخدامه لضغوطه يستنسخ نظام حكمه غير المباشر بالهند، حيث يقوم مندوب سامٍ بريطانى بتقديم "نصائحه" لولاية على رأسها أمير تتمتع اسمياً فقط بالحكم الذاتى.

كانت شركة الهند الشرقية، ومنذ عام ١٧٨٩، قد قامت بتعيين مندوبين ساميين فى ميناء بوشاير (اسمه الآن بوشهر، المركز الرئيسى لأنشطة إيران النووية). وفيما تنامى نفوذ بريطانيا وتجارتها، تنامت أيضاً سلطة مندوب الراج السامى فى بوشاير ومن بوشاير. انتشر مندوبون ساميون آخرون ومسئولون سياسيون فى أنحاء الخليج من أجل تقديم "المشورة" للشيوخ والسلاطين والأمراء. ضمن هذا التواجد التراكمى للهند البريطانية دوراً لا حدود له فى تشكيل الحياة السياسية ببلدان الشرق الأوسط الإسلامية.

ومن هنا كانت أهمية السير پيرسى زكاريا كوكس، الذى وُلد عام ١٨٦٤ لأسرة تنتمى للطبقة الوسطى، وتعلم بمدرسة هارو الداخلية وكلية ساندهيرست الحربية وأصبح أنفه المكسور نتيجة إصابة اثناء ممارسته الرياضة أحد ملامح شكله المميزة. كان ماهراً فى الرماية، ويجيد ركوب الإبل والخيل، وكان فضوله وحب استطلاعه النهم ومهاراته اللغوية مثار إعجاب، تبع كوكس المسار المعتاد من كلية ساندهيرست إلى الهند. وهناك ولكى يتحاشى منصباً غير واعدٍ، تطوع عام ١٨٩٣ للعمل مندوباً سامياً فى الصومال البريطانية بالقرن الإفريقى التى كانت تعمها الفوضى. وحينما واجهه هناك تمرد قبلى، تولى كوكس أمر قيادة "٥٢ من رجال الهجانة المدربين الهنود والصوماليين و١٥٠٠ جندى غير نظامى"، والذين أثبتوا، وكما دوّن هو فى مذكراته، أنهم غير أهل للثقة. وفى غضون ستة أسابيع من الحرب غير المصرح بها كان قد هزم المتمردين برباطة جأش حازت على إعجاب اللورد كيرزن حاكم الهند. آنذاك عرض كيرزن على كوكس منصباً حساساً، كمسئول (عميل/ سياسى) وقنصل بمسقط التى كان سلطانها قد وقَّع قبل ذلك بعقد من الزمان معاهدة سرية مع الهند البريطانية، انتهكها وعمل على اهترائها من خلال الميزات التى منحها لفرنسا دون إذن من حاكم الهند البريطانى. تمكن كوكس من استعادة العلاقة الودية بفضل معرفته للعربية، وكياسته الصبورة، ومظهره الذى يشبه الدوق ولينجتون. وبناء على ذلك، قام حاكم الهند البريطانى بزيارة رسمية لمسقط (فى حضور كوكس)، وقام بأسلوب الإمبراطورية الفخيم، بخلع أرفع النياشين على فيصل حاكم مسقط.

كانت تلك الواقعة إلماحاً بأسلوب عمل كوكس. كان مستمعاً ماهراً يومئ فى صمت ويبتسم بتواطؤ. كان يحدد بدقة مدى تعليقاته وتوجيهاته. ينقل لنا أرنولد ويلسون لمحة عن هذه الخاصية بتسجيله المحادثة التالية معه:

- "وصلنى خطاب سعادتك (كوكس) لدى بئر عين فارس".

- "لقد قام جدك بتنظيفه وتعميقه، أليس كذلك؟".

- "نعم سعادتك".

- "لم أستطع المجئ قبل الآن لأن ابن جاسم كان معى".

- "زبيد بن جاسم الذى يمثلك فى...؟"

- "نعم، هذا الرجل قُتِل شقيقه الشهر الماضى فى الغارة التى شنتها عجمان".

- "من ثم، سلكت طريقاً آخر؟"..

نعم، أرى أنك تفهم صعوبتى...."

فى عام ١٩٠٤ أصبح الماچور كوكس المسئول السياسى الرئيسى بالنيابة والمندوب السامى فى بوشاير، حيث وصل قبيل اضطرابات ثورة إيران الدستورية. كان قد أبدى أثناء جولته الزاخرة بالأحداث، حساً لا لبس فيه للتعرف على قادة المستقبل كان من بين الأوائل الذين تنبئوا بقدرات عبد العزيز بن سعود واستشفوها والذى كان آنذاك من لوردات الحرب الأعراب وقد استعاد لتوه عرش قبيلته فى نجد.

عمل كوكس على إتمام نقل ويليام هنرى شكسبير، ذلك الشاب البالغ الخامسة والعشرين من عمره، والواعد سياسياً، نقْله من موقعه بميناء فارسى قصى ليصبح مندوباً سامياً بالكويت، وبذلك، أصبحت الكويت قاعدة ويليام هنرى شكسبير لينطلق منها ويسكتشف قلب الجزيرة العربية غير معروفة الملامح والمعالم ويعقد صداقة مع ابن سعود الذى أسس، فيما بعد المملكة، وأعطاها اسمه.

منذ البداية، عرف كوكس أن ايه. تى. ويلسون، الذى كان قد تخرج بعده فى ساندهيرست سيكون له مستقبل مرموق. أُثنى عليه حينما قام بحصار حقل النفط الفارسى بواسطة مقاتلين بنغاليين. وصف ويلسون لقاءهم التالى فى مقدمته لكتاب عن حياة كوكس:

"فى مايو عام ١٩٠٩ أتى لورانس للتفاوض على المعاهدة مع شيخ مُحمَّرة نيابة عن شركة البترول الأنجلو فارسية كما أصبحت تعرف، تم استدعائى من مسجد/ إى. سليمان لأساعده وقضيت أسبوعاً كاملاً أعمل ككاتب شفرات وكاتب على الآلة الكاتبة بالطبع. كان يستجوبنى بدقة بشأن كل مرحلة من أنشطة الشركة، ويقدّر معلوماتى، وأيضاً بشأن كل ما رأيته وفعلته بعربستان وإقليم بختيارى.. كان قد جاب أراضى غير معروفة بالجزيرة العربية وقام بعمل بعض المسوحات، من ثم كان بوسعه أن يوجه النقد عن معرفة ويتحدث بثقة كان. يعلَم الكثير عن الطيور ويراقب عن كثب الحيوانات البرية والحياة النباتية، كان يتكلم العربية بطلاقة وكانت هيئته مهيبة.

"منذ البداية، مارس نفوذاً هائلاً على شيخ مَحمرة، لكنه حرص على ألا يضغط عليه بأكثر مما يجب. كانت تلك هى تجربتى الأولى فى هذا النوع من التفاوضات، وفى الأسلوب الذى كان البريطانيون يتبعونه فى البيزنس. كان كوكس يرتضى الجلوس على الوسائد على الأرض مثل الشيخ... وكان يولى بالغ الأهمية لإبداع ألفاظٍ لا تؤدى إلى جدالات، ودائماً ما كان يصيغ البنود بالعربية أو الفارسية ويناقشها بشكلها هذا وحينما يتم التوافق عليها باللغة المحلية كان يحاول الترجمة إلى الإنجليزية".

بإمكاننا أن نلمح، فى هذا المقطع، الأساليب التى اكتسب بها مبعوثو ورُسل إنجلترا - تلك الجزيرة الصغيرة التى لا تتعدى مساحة ولاية ماساتشوستس إلا قليلاً - اكتسبوا تلك السطوة المهيمنة فى الشرق الأوسط. لكن أيضاً، فإن مصير الشيخ وما آل إليه، والذى يأتى ذكره فى الفصل التاسع، يوحى بأن مصافحات مبعوثى إنجلترا وتحياتهم سرعان ما كانت تقابَل ببرود. لدى انتهاء جولته فى بلاد فارس، انضم أرنولد ويلسون إلى "لجنة الحدود الدولية" التى كُلِفت عام ١٩١٣ برسم حدود واضحة بين بلاد فارس وتركيا. وبنشاطه المتعاد، تمكن ويلسون من

رسم الحدود بحيث يحافظ على المصالح النفطية البريطانية فى بلاد فارس، ثم، وفى ٢٨ يونيو ١٩١٤، أنهت رصاصة أُطلقت بسراييڤو فترة السلام المخادع الطويلة التى تمتعت بها أوروبا.

•

مع اندلاع الحرب العظمى فى يوليو ١٩١٤، وبعد أن انضمت بريطانيا إلى القتال، أمدتها الهند باحتياطى من القوات بدا لا نهاية له. علّق اللورد ساليسبرى آخر رئيس وزراء للملكة فيكتوريا، ذات مرة بصراحة قائلاً إن الهند ثكنات عسكرية إنجليزية فى البحار الشرقية يمكن لإنجلترا أن تأتى منها بأى عدد من القوات دونما أن تدفع لهم أى شىء. كان هذا صحيحاً. فقد أمدت الهند البريطانية الحلفاء بقوات المشاة – قوات بلغ عددها ١,٢ مليون جندى ما بين عامى ١٩١٤ و١٩١٨، وكان نصفها يقاتل بالشرق الأوسط، ومعظم الباقين فى خنادق فرنسا – لكنها أيضاً دفعت "النفقات العادية" للقوات التى أُرسلت إلى الخارج، وأضافت الهند إلى ذلك منحة قدرها مائة مليون جنيه إسترلينى لخدمة قضية الحلفاء. وبنهاية الحرب كان ٢٥٠٠٠٠ من القوات الأنجلو/هندية مازالوا يخدمون فى الميدان فى فرقة ما بين النهرين (العراق) بما فى هذا كتائب كانت تحارب البلشڤيك فى بلاد فارس والقوقاز.

ومع أخذ هذا الإسهام فى الاعتبار، توقّع حكام الهند البريطانيون أنهم يستحقون مقعداً متساوياً على المائدة التى كان يجلس عليها من يخططون استراتيجية الشرق الأوسط ويصوغونها. حينما دخلت تركيا العثمانية الحرب إلى جانب ألمانيا فى نوفمبر ١٩١٤. انتهز حاكم الهند البريطانى الفرصة. فى غضون ساعات من إعلان بريطانيا الرسمى، وفى عملية كان قد تم التخطيط لها منذ زمن، اتجهت القوات الأنجلو/هندية إلى الخليج الفارسى حيث استولت على البحرين والفاو فى مدخل شط العرب، لدى الحدود بين بلاد الفرس وما بين النهرين. كانت

الأوامر الاستهلالية التى تلقاها الجيش والتى أشير إليها بصفتها غاية فى الأهمية، هى حماية ناقلات النفط، وخطوط الأنابيب، ومعامل التكرير، وحقول النفط التى تخص شركة النفط الأنجلوفارسية من أى هجوم تركى محتمل. كان نفط فارسى قد أصبح ضرورياً للبحرية الملكية بدرجة أن البرلمان صوت فى يونيو ١٩١٤ على تفويض الحكومة لشراء أسهم الغالبية فى شركة النفط.

وبحلول يوم ٢٤ نوفمبر، كانت ثلاث فرق هندية قد استولت على البصرة بالقرب من مصب نهر شط العرب وأقرب ميناء لخطوط أنابيب شركة النفط الأنجلو فارسية ومعامل تكريرها. احتل الغزاة مدينة القُرنة على رأس دلتا النهر وضمنوا بذلك الهيمنة البريطانية على الخليج الفارسى ونفطه. ومنذ آنذاك وحتى نهاية الحرب، تشكلت المسرحية من فصلين أحدهما عسكرى والآخر مدنى. تأرجح الممثلون فى كل منهما بين التفاؤل المفرط والكآبة المتعمقة، وكان يتبع ذلك عادة أزمة وتجديد، فيما عقّد الأمور فى تلك الأثناء الصراع بين المسئولين فى نيودلهى، ونظرائهم بلندن، والوكلاء (العملاء) فى المكتب العربى بالقاهرة الذى كان على وشك التأسيس. كان لكل مركز اولوياته وعقائده، وكان بكل مركز أيضاً شخصياته القوية حيث أسهم كل منها فى "الخليط" النهائى – شرق أوسط ليس بالحر واقعيا، ولا يخضع تماماً للمسئولية الإمبريالية وبعد نهاية "الحرب ابنة الحَرَام" كما أسماها قدامى المحاربين الذين تجرعوا مرارتها، ولّدت سياسات الحلفاء فى الأراضى العثمانية سابقاً ما يمكننا أن نسميه عن حق "سلاماً ابن حرام".

عسكرياً، بدت الأمور فى البداية وأنها تسير سيراً حسنا بالنسبة للجيش الأنجلو/هندى. تم صد الهجمات التركية المعتادة بدرجة من السهولة تمكن معها الغزاة من اجتياح المنطقة الواقعة أعلى نهر الفرات لمسافة ٧٥ ميلاً واحتلوا مدينة العمارة، ثانى مدينة مهمة. اندفع الجيش، وقد أسكره النصر، أعلى النهر لمسافة ١٥٠ ميل حتى وصل إلى مدينة الكوت، ومن هناك إلى الناصرية حيث يلتقى دجلة

والفرات. وفى هذا الصدد كتب فليب مايسون الذى عمل سابقاً مع حاكم الهند البريطانى، فى تاريخه العسكرى بعنوان مسألة شرف (١٩٧٤) يقول "تم التفوق على الأتراك من حيث القيادة والقتال فى اشتباك رائع تميزت فيه بخاصة الكتيبة ١١٧ المؤلفة من رجال المهراتا. والآن، أصبحنا نسيطر على زوايا المثلث الثلاث وبذا كان وقت التوقف قد حان. فى ٢ نوفمبر ١٩١٥ قال أسكويث رئيس الوزراء، مزهواً، لمجلس العموم لا أعتقد انه كان ثمة سلسلة من العمليات، فى مسار الحرب جمعيها، افضل تخطيطاً واروع تنفيذاً (من تلك)، كما أنها تومئ إلى أرجحية أفضل للنجاح النهائى". لكن مايسون يضيف قائلاً "كانت الكلمات الأخيرة المنذرة الثلاث تعنى بغداد".

بالنسبة لأسكويث، كان للاستيلاء على بغداد "الأمر الذى دعا إليه كوكس وويلسون" أهمية رمزية واستراتيجية أيضاً. فقد كانت مدينة اسمها معروف لكل من قرأوا ألف ليلة وليلة، كما أن بإمكان الاستيلاء عليها تحويل الانتباه عن فشل هجوم الحلفاء فى غليبولى حيث كانوا قد أرادوا بهذا الهجوم إخراج تركيا من الحرب .كانت خطة البريطانيين فى غليبولى من بنات أفكار ونستون تشرشل. وفى البداية عارضها جون فيشر قائد الأسطول البحرى، ثم قبلها. كانت الخطة قد أثارت توقعات منتشية. كانت تهدف إلى الاستيلاء على الدردنيل من خلال هجمة برية على شاطئ غليبولى ثم بعد ذلك يواصل الجيش المسيرة للاستيلاء على العاصمة التركية. كان الشاعر روبرت برووك ضِمْن القوات البريطانية، الأسترالية، النيوزيلاندية، الفرنسية التى تم حشدها من أجل الأتراك بغليبولى وكتب يعبر عن أمله المنتشى فى سقوط العاصمة التركية الأمر الذى سيتيح له أن يشهد أبراجها تتهاوى وأن يتمكن من نهب الفسيفساء من آية صوفيا!!

وفى الواقع، فبعد الهجوم البحرى الاستهلالى فى ١٨ مارس ١٩١٥، وللحظة واحدة مجيدة، بدا وأن بإمكان الحلفاء أن يندفعوا خلال المضيقين، ويستولوا على

إسطنبول ويخرِجوا تركيا من الحرب، وبهذا يفتحوا الدردنيل أمام السفن الروسية كان أداء تركيا العثمانية، أو رجل أوروبا المريض، بائساً فى جميع الحروب الأخيرة التى خاضتها. لكن سارت جميع الأمور على غير ما يرام بعد فشل الأميرال الفعلى فى ٢٤ إبريل: أغرق الديناميت التركى سفن الحلفاء المتهالكةَ، كما فشل الأميرال مفرط الحرص فى التقدم إلى إسطنبول التى كانت بلا دفاعات. ضلت بعض السفن طريقها نظرا لسوء الخرائط ورست على الشاطئ الخطأ، ولم يصل الدعم الضرورى، كما ظلت الرسائل دونما أن تُسلّم. أما الأهم من كل ذلك، فقد كان على رأس المدافعين الأتراك قائد عبقرى هو مصطفى كمال، أو أتاتورك كما أسمى فيما بعد.

كان عدد قتلى الحلفاء فى غليبولى ٢٥٠٠٠٠ جندى، وتكبد الأتراك عدداً مماثلاً. شوّهت تلك الورطة سمعة تشرشل ورسخت صيت مصطفى كمال. وبعد شهر من الجلاء عن غليبولى، صادق أسكويث الذى تملكه الارتباك، على التقدم إلى بغداد، هذا على الرغم من أن جيش الماجور جنرال تشارلس فى إف. تاونسند كان قليل العدد وكانت خطوط إمداداته قد قاربت على النفاد. فى سبتمبر ١٩١٥ شرعت قوة أنجلو/هندية قوامها عشرون ألف جندى فى التقدم أعلى النهر إلى أن أصبحت على بعد ١٦ ميلاً من بغداد. رد الأتراك بهجمة ثأرية قاتلة فى كتسيفون، بعد أن دعمت غليبولى معنوياتهم وأعْدَادهم.

فى ٣ ديسمبر ١٩١٥، "تراجع" (اللفظ المجازى الذى تستخدمه التقارير الرسمية) الجنرال تاونسند عن طريق النهر إلى الكوت، وهى بلدة عربية كان يسكنها حوالى ٦ آلاف نسمة. أعدت قوته التى تقلص عددها ولم يعد لديها سوى ثلاثين مدفعاً، نفسها لحصار ملحمى. بعد ستة أسابيع، ذكر الجنرال فى تقاريره إلى البصرة أن لديه تموينا يكفى اثنين وعشرين يوماً، وأضاف "لكننا إذا أكلنا الأحصنة فبإمكاننا أن نبقى مدة أطول كثيراً." انتظر، دونما جدوى، مقدم إغاثة.

وفى أبريل ١٩١٦، وبعد أن صمد لمدة ١٤٧ يوم استسلم تاونسند. قام الأتراك بأسر ٢٧٧ ضابط بريطانى، و٢٠٤ ضابط هندى، ٩٥٨٠ رجل هندى مُجنَّد، و٣٢٤٨ من غير المقاتلين. لقى الضباط معاملة حسنة فى الغالب: عومل تاونسند كضيف مميز وأقام فى فيللا ممتعة (سكنها تروتسكى فيما بعد) على إحدى جزر البرينسس بالقرب من إسطنبول.. لقى غالبية الأسرى حتفهم نتيجة الجوع والمرض - يتذكر الجيش الهندى تلك الفاجعة بمرارة. يعلق نائب رئيس الأركان الهندى السابق الجنرال إس . إل. منزس على ذلك بسخرية لاذعة فى كتابه "الوفاء والشرف" (١٩٩٣) أن "سبورت" كلب تاونسند لقى معاملة أفضل وكان حظه أحسن كثيراً من الأسرى الهنود الذين ماتوا. فقد تم نقله إلى بريطانيا، حيث لحق به صاحبه حينما أعيد إلى وطنه".

فى أواسط عام ١٩١٦، أعادت القوات البريطانية تجمعها لتشن هجمة ثأرية على بغداد. أنيط بالجنرال السير فردريك ستانلى مود (كلية إيتون، ساندهيرست، وفرقة كولدستريم) قيادة جيش ما بين الرافدين. أمضى مود، الذى كان قد حارب بالسودان، وحرب البوير، وُعرِف بدقة تخطيطه الذى لا تشوبه شائبة أمضى أربعة أشهر يُعد للهجوم الذى بدأ منهجياً فى ديسمبر. رسّخ مقاتلوه التحكم فى الأنهار الرئيسية، وأعادوا الاستيلاء على الكوت، وفى ١١ مارس ١٩١٧، دخلوا بغداد منتصرين. لكن ظل أمر كيفية حكم بغداد، بل معظم بلاد الرافدين غير محسوم.

كان لدى حكام نيودلهى، بدءاً من نائب الملك ومن يليه من المسئولين، مدرك مشترك عن الشرق الأوسط متجذر فى تجربتهم الطويلة فى حكم ما كان الجميع يسمونه "الشرق". كان افتراضهم البدهى هو أن البريطانيين يمتلكون مقدرة استثنائية على الحكم الكلونيالى، كما أثبتته حقيقة أن الهند، بملايينها مختلفى اللغات، ومتنوعى الديانات كان يحكمها بضعة آلاف من المسئولين دونما صعوبة

تُذكر. أما الفرضية الأخرى المتعلقة بالأولى (والتى كان يعتقد فيها كارل ماركس وفريدريتش إنجلز، رغم غرابة ذلك) فهى أن آسيا تخلفت عن الغرب بسبب ما أسماه ماركس "الاستبداد الشرقى" الخارج عن سياق التاريخ. من ثم، فالإمبريالية ذاتها هى نوع من التحرير، مِنّةٌ من الشعوب المُستعمِرة على الأعراق التابعة، طريق مختصر للانتقال من الشعوذة إلى التنوير، ممر إلى نعم التقدم العديدة. من ثم، فإن تهاوت الإمبراطورية العثمانية العليلة سيكون من الممكن أن تصبح "بلاد العرب التركية" (التعبير الذى كان يطلق على أرض الرافدين قبل الحرب العالمية الأولى) إضافة منطقية مفيدة للإمبراطورية البريطانية كمستعمرات أو محميات. وإلى أن يحدث ذلك، فليس ثمة من هو أفضل لإدارة الشئون المدنية فى "بلاد العرب التركية" المحتلة من السير بيرسى كوكس ومعه صنيعته وتلميذه النجيب، أرنولد تى. ويلسون.

منذ البداية، وبصفته كبير المسئولين السياسيين فى البصرة التى كان قد تم غزوها مؤخراً، جاهر كوكس بمعزوفه أبناء عمومته فى نيودلهى فى إعلانه الاستهلالى "لقد احتلت الحكومة البريطانية البصرة الآن، لكن، ورغم أن حالة الحرب مع الإمبراطورية البريطانية مازالت قائمة، لكننا لا نُكنّ عداءً أو نيةً سيئة للسكان الذين نأمل أن نصبح أصدقاء وحماة لهم. لن يتبقى أى أثر للإدارة التركية بالمنطقة. من ثم، ارتفع العلم البريطانى هنا الذى فى ظله ستتمتعون بمزايا الحرية والعدالة فى شئون دينكم ودنياكم". وهكذا أصبحت الروبية الهندية عملة الاحتلال. طُبِع فوق طوابع البريد العثمانية أشكال هندية. طُبّقت مدونات القوانين البريطانية وحكَم بمقتضاها قضاة هنود، وحلّ موظفون سياسيون هنود محل موظفى المجالس المحلية التى كان الأتراك قد أقاموها مؤخراً.

تولى نائب كوكس تنفيذ قرارات رئيسه بهمة ونشاط. كان أرنولد ويلسون قد طرح رؤيته فى رسالة إلى نيودلهى: "أودُّ لو تم الإعلان عن أن بلاد ما بين النهرين

ستُضم إلى الهند كمستعمرة للهند والهنود، وأن الهند ستدير شئونها، وتأتى تدريجياً بالزراعة إلى سهولها الصحراوية الخالية من السكان. وتسكنها بأعراق من محاربى البنجاب". ولدى نقله من موقعه كمسئول سياسى إلى رتل كان يتقدم باتجاه مدينة العمارة كتب ويلسون فى خطاب إلى أسرته يقول:

"لا أرى داعيا للقلق بشأن العمليات العسكرية برأس الخليج فإننا حذرون جداً، ولدينا مائة عام من خبرة العمل المتواصل خلفنا.. السكان العرب هنا مُذْعنون وقد لُقِّنَ من هم ضدنا فى الطرف الآخر من البلاد درساً فى الأيام القليلة الماضية بدرجة أننى أعتقد أنهم لن يتسببوا لنا فى المشاكل مرة أخرى. لديهم أمام أعينهم باستمرار سكان عرب كثيرون يعيشون فى سلام تحت سلطتنا (أى المصريون)... أما عن الطبيعة الاعتباطية والاستبدادية لقدومنا هنا، فأنا أوافق، لكن هذا لا يجعل منه بالضرورة غير ملائم أو نفعى. علينا مواصلة التوسع، ربما ببطء لكن علينا ان نستمر فى التوسع إلى أن يقضى الله بأننا وصلنا إلى حدنا الأقصى".

مما لا شك فيه أن حماس ويلسون كان له أثره على السير تشارلس هاردينج، نائب الملك بالهند، الذى أكد للملك چورچ الخامس بثقة فى أكتوبر عام ١٩١٥ قائلاً إن "مشهدى الصغير فى بلاد الرافدين مازال يمضى قويا وآمل أن ندمج بغداد سريعاً فى الإمبراطورية البريطانية". وفى تلك الأثناء، جمّع كوكس طاقماً إدارياً موهوباً بمساعدة إية. تى. ويلسون الذى لا يكل ولا يمل. كان الفريق السياسى المكون من تسعة عشر شخصاً والذى جمّعه كوكس، كانوا جميعهم باستثناء شخص واحد على معرفة وثيقة بالمنطقة ويتحدثون اللغات المحلية. وفيما بعد، أصبح الكثيرون منهم لاعبين نافذين على مسرح الشرق الأوسط.

كان كوكس وويلسون يتحدثان باسم نيودلهى. وفيما مضت الحرب قدما، هيمنت آراء مختلفة فى لندن والقاهرة. وبإيجاز، فبالنسبة لأسكويث، رئيس الوزراء ولخليفته لويد چورچ، كانت الأولوية الأهم فى أوروبا هى مساعدة فرنسا وروسيا

التى أنهكتهما الحرب وتشجيعهما واسترضاءهما. ومن أجل تحقيق هذا الهدف، دخلت لندن فى تفاوضات سرية عام ١٩١٦ حول تقسيم الإمبراطورية العثمانية المُقطعة أوصالها، وقت السلم. وعدت بريطانيا روسيا بأن تمنحها المضايق وأسطنبول، فيما وعدت فرنسا بسوريا ولبنان، على ان تُحسم التفاصيل بعد الحرب. فى تلك الأثناء دعم المسئولون البريطانيون بالقاهرة "الثورة العربية" التى أعلنها حسين، شريف مكة. تأرجحت لندن بين نيودلهى والقاهرة. أوجز هيبورت يونج الخبير فى شئون الشرق الأوسط بوزارة الخارجية، الموقف عام ١٩٢٠ كالتالى" أثَّرت شخصيتان قويتان - ولن أقول تحكمت - فى سياستنا بالشرق الأوسط أثناء السنوات الثلاث أو الأربع الأخيرة. لدينا على الجانب السورى، الكولونيل لورانس الذى يشجع الطموحات العربية.. وعلى جانب بلاد الرافدين لدينا السير أرنولد ويلسون الذى يكبح نفس الطموحات ولا يحاول إخفاء أسبابه لفعل ذلك". وبمرور الوقت، فاز لورانس وكتب رائعته "أعمدة الحكمة السبعة" التى احتفى فيها بانتصاراته؛ وبمعنى ما، كانت أكسفورد فى مواجهة كليفتون وانتصرت أكسفورد.

وعلى الرغم من ذلك، تكهن أحد المراقبين الأمريكيين فى وقت مبكر أن الإمبراطورية لم يكن لديها، بمعنى مجازى، ملابس، أى كانت عارية. كان المراقب هو ويليام ييل، التنفيذى فى شركة للنفط والذى أصبح مراسلا محنكا يكتب التقارير لوزارة الخارجية الأمريكية أثناء الحرب العالمية الأولى. كتب ييل فى تقرير سرى أرسله إلى وزير الخارجية بتاريخ ١٢ نوفمبر ١٩١٧، قال فيه عن السياسة البريطانية فى سوريا "يميل الدور الذى يلعبه البريطانيون لأن يجعل الناس يعتقدون أنهم يؤدون لعبة عميقة جداً، ذات هدف شديد التحديد، سيُكشف عنه فى اللحظة المناسبة. بيد أن الحقيقة تبدو وأنه ليس للحكومة البريطانية سياسة محددة.. وأنها لم تمد عملاءها وممثليها بأى برنامج واضح لينفذوه".

تعمق التشوش فى مارس ١٩١٧ حينما سقطت بغداد فى أيدى القوات الأنجلو/ هندية: قوبل هذا النصر بهتافات الابتهاج فى لندن لأنه ساعد على التعويض عن الإمتهان الذى واجهوه بالكوت. لكن، ماذا كان من الواجب فعله وقوله بخصوص رعايا جلالته الجدد؟ حذّر فاتح بغداد، الماجور چنرال مود، وهو يردد نصيحة السير پيرسى. كوكس من أن "الأوضاع المحلية لا تسمح بتعيين سوى الضباط البريطانيين من ذوى الكفاءة فى التعاطى مع السلطات العسكرية، ومع شعب البلد، تعيينهم فى المراكز المسئولة. وقبل أن يكون باستطاعتنا استخدام أية واجهة عربية حقيقية لتغطية حقيقة تحكمنا. يبدو أنه من الضرورى ترسيخ أسس القانون والنظام كما يجب أولاً".

تحدى السير مارك سايكس من وزارة الخارجية، والذى كان قد أصبح آنذاك صوتا له نفوذ فى مجال شئون الشرق الأوسط، تحدى وصفة مود. كان سايكس قد حذر، بالفعل، مجلس وزراء الحرب بقوله "إذا عملتم من الهند فسنعود إلى الأسلوب التقليدى للأسوَدْ والأبيض، ولا نستطيع إدارة شئون العرب على أساس أبيض وأسود" من ثم، حينما تقدم مود وكوكس بمسودة إعلان يدعوان فيه البغداديين للتعاون مع الإدارة الأنجلو/هندية وأرادوا الحصول على موافقة عليها تم رفض المسودة. وبدلاً منها أعد سايكس الأكثر ليبرالية خطاباً آخر صادق عليه وزراء لويد چورچ. أعلن الخطاب أن "جيوشنا قد قدمت إلى مدنكم وأراضيكم، ليس كغزاة أو أعداء، بل كمحررين" (ترددت هذه التعبيرات مرة أخرى فى إعلان مماثل حينما، سقطت بغداد مرة أخرى فى أيدى قوات الولايات المتحدة فى ٩ أبريل عام ٢٠٠٣). عبر الإعلان الذى باركته لندن عن الأمل فى أن ينهض الجنس العربى مرة أخرى ويستعيد مجده، ثم وجه الدعوة لنبلائهم وحكمائهم وممثليهم للمشاركة فى الحكومة. ولتسريع هذه العملية أصدرت لندن الأوامر فى نفس الوقت بسحب العاملين الأنجلو/هنود من أرض الرافدين المحتلة.

ومع كل الاحترام لإعلان بغداد، فقد كان البريطانيون فى واقع الأمر غير متيقنين من حجم السلطة التى كانوا على استعداد لإيكالها لسكان بلاد الرافدين المتنوعين. وحينما اتضح أن القليلين فقط من أهل البلاد هم من كانوا مؤهلين ليحلوا محل الإداريين الأنجلو/هنود قررت لندن الإبقاء على مسئولين هنود "مؤقتاً". وكما ذكر الباحث الأمريكى دايفيد فرومينج فى كتابه "السلام الذى انهى كل سلام" (١٩٨٩) فقد وجد الجنرال مود نفسه فى وضع زائف حيث مضى يدعو إلى الحكم الذاتى فيما كان يُثبطه عملياً. ربما قُصِد بصيغة التسوية التى توصل إليها البريطانيون تحديداً، إثارة التذمر والقلقلة، فبعد أن تطوعوا بما بدا وأنه تعهد بالاستقلال لمنطقة لم تطالب به شرع الجيش والسلطات المدنية لقوة الاحتلال فى إجراءات عدم السماح به (الاستقلال)".

حاول السير پيرسى كَوكس، الذى كان قد تم تمكينه مؤخراً بصفته المندوب السامى المدنى فى بلاد الرافدين واتخذ من بغداد مقراً له بدلاً من البصرة، حاول انتزاع إجماع من تلك الإشارات المختلطة المتعارضة. انضم، إليه كمساعده الرئيسى، ويلسون الذى كان قد غدا شخصية مهيبة. كان قد شرع ينظر إلى المعارك كنشاط كشْفى استخبارى وكان أداؤه بالناصرية قد كسب له استحقاق وسامٍ رفيع. حينما كان يتحدث بإسهاب فى مطعم القوات المسلحة، قامته منتصبة فى زيه ذى الياقة العالية والشارة البيضاء الخاصة تحدد وضعه كقائد "سياسى" كان زملاؤه الضباط يُصغون باهتمام إلى آرائه التى كان يعبِر عنها بيقين واضح، ويدعمها بالحكم الكلاسيكية التى كان مغرماً بها وسرعان ما كان له تلاميذه النجباء المُصطفون الذين أُسْموا "شبيبة ويلسون"، كما كانت الشخصيات النافذة التى تزور البصرة من أمثال رونالد ستورز، الذى كان يتقن عدة لغات والذى أصبح فيما بعد حاكم القدس، يسعون إليه. حاز ويلسون إعجاب ستورز الذى قال عنه: "ويلسون المسئول السياسى، صفىُّ كوكس، وسيم الطلعة، بارع ذكى، شديد

الطموح". أضاف أنه فقد شقيقين له فى الحرب وأن "من حسن حظه أنه عمل مع رئيس ممتاز لمدة أحد عشر عاماً، وما زال يعمل معه".

• حينما استُدعى كوكس إلى فارس عام ١٩١٨ للتفاوض على معاهدة معقدة، أصبح ويلسون المندوب السامى المدنى بالنيابة فى بلاد الرافدين بعد أن كان قد وصل إلى رتبة مقدم (كولونيل). ذكر الكولونيل الذى كان آنذاك فى الرابعة والثلاثين، متعجبا فى خطاب إلى والديه فى مطلع عام ١٩١٨ "لا أكاد أستوعب أننى الآن مسئول أمام الحكومة "البريطانية" عن إدارة تلك المساحة الشاسعة جميعها. لا يكاد يكون لدىّ عاملون ولا يمكن تجميعهم عشوائياً؛وأجتهدُ، وكأننى ساحرُ، أن أبقى على جميع الكرات فى الهواء ولا أدعها تسقط على الأرض. طرت إلى الرمادى – على بعد ٨٠ ميلاً وُعدت، أقلعت فى السادسة والنصف وصلت فى السابعة وأربعين دقيقة، وتناولت الإفطار وأنهيت عملى، وعدت فى العاشرة والنصف. يحدونى الأمل أن الحكومة سترسل لجنة، وبدأتُ بالفعل بتجميع المواد لها. بدون شك، سيكون لى كلمتى المسموعة، وحينما أنتهى من هذه المهمة، ويتم إعلان السلام سأكون على استعداد لوضع قلمى والذهاب فى إجازة".

آنذاك، كانت أحكام ويلسون قد تيبست دونما أمل فى تغييرها. أعتقد أن بلاد ما بين النهرين ملكٌ لمن غَزَوها بصفتها محمية إمبريالية تحت السلطة المباشرة لبريطانيا. رأى أن أراضيها يجب أن تشمل أقاليم بغداد والبصرة والموصل العثمانية. كانت الموصل قد وُعِدتْ لفرنسا، وكان الاعتقاد أن بها نفطاً، مما كان يعنى أن دمجها فى العراق يمكنه أن يضمن الدخل الكافى للمحمية الجديدة. فى سبتمبر ١٩١٨، وعملاً بسلطته هو، ألغى ويلسون الوضع المستقل للبصرة ولم يقَابل قراره هذا بأى اعتراض فى مجلس الوزراء البريطانى الذى كان مشغولاً. وفيما اقتربت الحرب من نهايتها، أصدر ويلسون أوامره باحتلال الموصل بأكملها، لأنه وكما ذكر أيماً كان شكل الحكومة التى ستقام فى بلاد الرافدين فى نهاية المطاف،

فإنه يجب، ومن أجل استمرارها الفاعل، أن تضم الولايات الثلاث، أى البصرة، بغداد، والموصل. استمرت القوات الأنجلو/هندية، حتى بعد هدنة ١١ نوفمبر، فى طرد الأتراك من الموصل.

وقبل وقف إطلاق النار بثلاثة أيام، ولدهشة كل المعنيين فى الشرق الأوسط، اتفقت بريطانيا وفرنسا على إعلان يعرض على جميع الشعوب التى "قمعها الأتراك لزمن طويل" الحرية فى اختيار حكوماتها المستقبلية. أكد الإعلان المشترك، فى إشارة واضحة إلى سوريا والعراق، أنهما، وكأبعد من أن يريدا فرض أى وضع معين، فليس للحليفين أى اهتمام سوى دعم الحكومات التى ستختارها تلك الشعوب التى قُمِعت لفترة طويلة وبإرادتها الحرة. ردد هذا الإعلان صدى النقاط الأربع عشرة التى أعلنها وودرو ويلسون فى ١٩١٨، بعد تسعة أشهر من دخول أمريكا الحرب. نصت النقطة الثانية عشرة على أن جميع "القوميات" تحت الحكم التركى لها الحق "فى فرصة كاملة، بدون أية مضايقة للنمو المستقل الذاتى الأمر الذى فهمه العرب على أنه الحق فى تقرير المصير، ذلك التعبير الذى طرحته الفدرالية "الاشتراكية الثانية" وصادق عليه بحرارة لنين ومعه الرئيس ويلسون.

ربما استاء البعض من النقاط الأربع عشرة (اشتكى رئيس الوزراء الفرنسى چورچ كلمنصو من أن الله أنزل عشر نقاط فقط)، ولكن مع تبدى مؤتمر للسلام فى الأفق، ودخول قوات وودرو ويلسون الوشيك منتصرة إلى عواصم الحلفاء، كان من المستحيل تجاهل النقاط، أو تجاهله. وأكثر من أى شىء آخر، فإن عدم التزام بريطانيا وفرنسا فيما بعد بوعود زمن الحرب أو الوفاء بها ترك الشعوب التى "قمعها الأتراك لزمن طويل" بحس بالخيانة مازال قائماً. لكن كان هذا من شئون المستقبل. شعر الكولونيل ويلسون الذى كان يعتقد أنه ليس للعرب المقدرة على حكم أنفسهم، بالحيرة والاستياء من الإعلان الأنجلوفرنسى. احتج لدى السير آرثر هيرتزل وكيل الوزارة الدائم لمكتب الهند برئاسة مجلس الوزراء البريطانى قائلا

"يورطنا هذا الإعلان هنا وعلى الفور فى استخدام رياءٍ ديبلوماسى نجحنا إلى الآن فى تحاشيه، ويضع سلاحاً نافذاً فى أيدى غير المؤهلين للتحكم فى أقدار الأمة.. يرى العربى العادى، بالتقابل مع حفنة من السياسيين الهواة ببغداد، المستقبل وأنه يسوده التعامل المنصف والتقدم المادى والأخلاقى تحت رعاية بريطانيا العظمى... إن أفضل طريق لنا هو أن نعلن بلاد الرافدين محمية يُمنح فى ظلها جميع الأعراق والطبقات أقصى حد من الحرية والحكم الذاتى بما يتفق مع الحكم البريطانى الرشيد الآمن".

أو، وكما فصَّل بعد ذلك بشهر، فإن إعلان العراق محمية سيكون له معنى وأهمية استراتيجية، بما أنه من المحتم أن تصبح بغداد مرتكزا للمنطقة بكاملها قال إننا "باحتلالنا بغداد فقد دقفنا إسفينا فى قلب العالم الإسلامى، وبهذا نمنع توحّد المسلمين ضدنا فى الشرق الأوسط. أؤكد أن سياستنا يجب أن تُبقى على بلاد الرافدين إسفينا، منطقة يتحكم فيها البريطانيون، ولا يمكن استيعابها فى العالم العربى أبداً بل يجب أن يُبقى عليها.. معزولة بقدر ما يمكن، وتكون نموذجاً للآخرين". (وكما سنرى، ومن منظور نقيض فقد طرح تى. إى. لورانس، بين الحين والآخر، رأياً مماثلاً).

من ثم، لم يكن هناك إجماع حول مستقبل الشرق الأوسط بين الحكومات المنتصرة، أو داخل كل منها، والتى اجتمع قادتها بمؤتمر السلام بباريس من يناير إلى يونيو عام ١٩١٩. وأثناء تلك الأشهر الطويلة، كان الثلاثة الكبار - رئيس الوزراء لويد چورچ، والرئيس ويلسون، ورئيس الوزراء كلمنصو - يجتمعون يومياً، أحياناً، لموازنة شروط السلام، والتعاطى مع مظالم الشعوب التى لا دُول لها، وتقسيم مغانم الإمبراطوريات الميتة الثلاث. وللأسف، وكما وصفت مارجريت مكميلان (حفيدة لويد چورچ) مجدداً فى كتابها "باريس ١٩١٩" فغالباً ما نسى

أولئك الحكام الثلاثة ما كانوا قد وعدوا به، ولمن كانت وعودهم. وفيما كانوا يعملون على قراراتهم التى وضعت نهاية "للحرب التى أنهت كل الحروب" خشى أحد البريطانيين (أرشيبالد ويڤل الذى كان قد حارب فى فلسطين) وبعد ان تبددت أوهامه، انْ تتمة ذلك المؤتمر ستكون "سلاماً ينهى كل سلام". أتت من الشرق الأوسط قافلة من المتوسلين. فى حالة العراق وسوريا كان ثمة بريطانيون ثلاثة نافذون على استعداد لتقديم النصيحة: الكولونيل ويلسون، وسكرتيرته لشئون الشرق المستعربة جرترود بل الشهيرة؛ والكونيل تى. إى. لورانس، المحرض على الثورة العربية. وفى المقايضة التى تلت، حصل إيه. تى. ويلسون، نو الإصرار والجلد، على الدعم لإقامة عراقه المكون من ثلاثة أقاليم. كانت رئاسة مجلس الوزراء البريطانية تفضل إقامة دولة كردستان المستقلة، واقترح لورانس إمارتين منفصلتين للبصرة وبغداد؛ ضغط الأمير فيصل (نجل الشريف حسين) من أجل إقامة فدرالية من سوريا والعراق، وأراد الفرنسيون ضم الموصل (ونفطها) إلى سوريا. حاز الكولونيل ويلسون على موافقة لويد چورچ الحاسمة، وصدّق عليها فى حديث موجز مع كلمنصو، على أن يتم تقرير الحدود لاحقاً. يقول جون مارلو، مؤرخ إيه. تى. ويلسون، عن حق إنه "إن كان ثمة رجل واحد بالإمكان تسميته مهندس دولة العراق الحالية، هذا الرجل هو أرنولد ويلسون".

لكن أرنولد ويلسون أثبت أنه أقل قدرة على الإقناع فيما يتعلق بوضع العراق فى المستقبل . كان قد تم استبعاد فكرة المحمية البريطانية فقد تغير الزمن. وكان الرئيس ويلسون قد عمل على نشر تعبير الانتداب وإضفاء الشعبية عليه، وكان يعنى مرحلة انتقالية تخضع فيها "الشعوب المتخلفة" لتحكم سياسى خارجى حتى يحكم عليهم أنهم صالحون لحكم أنفسهم - كانت تلك هى التعبيرات التى استخدمها الأمريكى الذى ابتدع مفهوم الانتداب، أى چورچ لويس بير المؤرخ الناقد لما أسماه "النظام الكلونيالى القديم". كان بير، بصفته عضواً فى فريق

مستشارى الرئيس ويلسون، قد وضع العراق نصب عينيه بصفتها حجرَ أساس نظامٍ للانتداب قُصِد به التوفيق بين مثالية الرئيس ويلسون وواقعية القوة العظمى. أو، وفقاً لحكم الأكاديمى البريطانى الليبرالى الذى لا يعرف المواراة إتيش. إيه. إل. فيشر" تم تغطية فجاجة الغزو بحجاب من الأخلاقيات" (ترك فيشر هذه الجملة دونما تغيير فى الطبعات المتالية من كتابه "تاريخ أوروبا" ذى التأثير العميق.

كان من يديرون سلطة الانتداب على غير الأوروبيين - فى الشرق الأوسط، ومستعمرات ألمانيا السابقة بإفريقيا، وجنوب المحيط الهادى - كانوا نظرياً مسئولين أمام مؤسسة عصبة الأمم التى كانت فى حالة جنينية. كان الأمريكيون مهتمين بخاصة بأوضاع الأراضى العثمانية سابقاً حيث كان المبشرون البروتستانت قد أقاموا، منذ عقود عديدة، كلياتٍ، وكنائس ومدارس. ولهذا السبب، جزئياً، لم تعلن الولايات المتحدة الحرب على تركيا، بل فقط على القوى المركزية "ألمانيا والنمسا"، من ثم كانت الولايات المتحدة رسمياً قوة مشاركة لا حليفة. ويمعنى أعمّ، فقد كانت ما تسمى بالإمبريالية المحجبة هى التى تناسب المزاج السائد آنذاك. لفت السير مارك سايكس قُبيل وفاته المبكرة عام ١٩١٩، الانتباه إلى التوجه الأوروبى المتغير بعد دخول الولايات المتحدة الحرب وقيام الثورة الروسية (البلشفية) فى مذكرة كان قد أرسلها إلى وزارة الخارجية حيث حذّر قائلاً لقد تم استبعاد "تعبيرات الإمبريالية، والضمّ والانتصار العسكرى، وعبء الرجل الأبيض من المفردات السياسية الشائعة. من ثم، يجب وضع الألفاظ من أمثال المحميات، مجالات النفوذ، الضم، القواعد العسكرية.. إلخ فى غرفة الخزين الديبلوماسية".

وعلى الرغم من أن هذا قد يكون ما جاهر به الخطباء، إلا أن البريطانيين والفرنسيين المنتصرين لم يقنعوا بأى شكل من الأشكال أن المناطق التى استولوا عليها حديثاً يمكن أن تصبح حرة، أو يجوز لها ذلك.. فى حالة العراق، سعت بريطانيا إلى الجمع بين مبدأ الانتداب مع ممارسة الحكم غير المباشر الذى استخدمته طويلاً فى ولايات الإمارات الهندية (ونيجيريا) أى إناطة الحكم، ظاهرياً،

بشخص عربى لكن مع "استشارة" المندوب السامى البريطانى وإشرافه. أبلغ هيرتزل، من وزارة الهند، إيه. تى ويلسون بصراحة "ما نريده هو نوع من الإدارة بها مؤسسات عربية نستطيع تركها بأمان، فيما نحرك نحن الخيوط بأنفسنا، شيئاً لا يكلفنا كثيراً، ويصبح بإمكان حزب العمال أن يبتلعه لاتساقه مع مبادئه، لكن مع ضمان أمن مؤسساتنا الاقتصادية والسياسية".

وفيما انتهى مؤتمر باريس للسلام، كان الاتفاق لم يتم سوى على كفاف الشرق الأوسط الجديد. وبعد أن كان الأمريكيون قد دعوا إلى دولتين مستقلتين للأكراد والأرمن، بدأوا يتراجعون، متوترين، عن أى تورط جدى فى المنطقة. كان مفهوم "وطن قومى" يهودى فى فلسطين وفقاً لوعد بلفور، مازال ضبابياً حتى أن الأمير فيصل، بعد أن حفزه لورانس، أبدى موافقة مشروطة على الفكرة. أما الوعود الإقليمية لروسيا القيصرية أثناء الحرب، فقد اعتُبِرت مُلغاة بعد الثورة البلشفية، لكن بريطانيا وفرنسا، وحسب اتفاقهما أثناء الحرب، استعدتا لتطبيق سياسة الانتداب لكل منهما فى سوريا ولبنان والعراق وفلسطين. عاد تى. إى. لورانس من باريس إلى وطنه ليقود حملة من أجل الحقوق العربية، فيما استأنف الكولونيل ويلسون، وقد أصابه الإحباط مسئولياته ببغداد.

أما چرترود بل، فقد قالت متأسية فى خطاب لها إلى صديقها عضو مجلس العموم، ورفيق اهتماماتها بالشرق أوبرى هربرت "ياللأسف، إنهم قد جعلوا من الشرق الأدنى "لخبطة" بشعة.. أتوقع بيقين أنه سيصبح أكثر سوءاً بكثير مما كان عليه قبل الحرب – باستثناء بلاد الرافدين التى قد نتمكن من الحفاظ عليها بعيداً عن الفوضى العامة".

لكن بل كانت مخطئة حول العراق. بعد المراسم النهائية لمؤتمر السلام التى أقيمت بقصر فرساى، بوقت قصير، بدأت تقارير الصحافة البريطانية تصور بلداً

محتلاً يفور ويمور بالقلاقل والاضطرابات. جاء فى تقرير لمراسل التايمز فى سبتمبر ١٩١٩ ما يلى "أظن أن الرأى السائد حول بلاد الرافدين لدى كثير من الإنجليز هو أن السكان المحليين سيرحبون بنا لأننا أنقذناهم من الأتراك، وأن البلد لن يحتاج سوى للتنمية من أجل تسديد الكلفة الهائلة من القتلى الإنجليز، وأموال الإنجليز. لن يصمد أى من هذا أمام الفحص. من وجهة النظر السياسية، فنحن نطالب الشخص العربى أن يستغنى عن كبريائه واستقلاله نظير القليل من الحضارة الغربية التى لابد وأن تمتص تكليفات الإدارة أية أرباح قد تجنى منها". (من المحتمل أن هذا المراسل المجهول كان پرسيڤال لاندون، الذى رافق، غزوة يونجهازباند للتبت مراسلاً للتايمز فى عامى ١٩٠٣-١٩٠٤).

فى إبريل ١٩٢٠، أطلق مؤتمر دعا إليه الفرنسيون والبريطانيون فى منتجع سان ريمو بالريڤييرا الإيطالية جذوة اللهيب. أعلن المؤتمرون بسان ريمو فى ٥ مايو، دونما حتى استشارة رمزية للشعوب المعنية، أن الأراضى العربية التركية سابقاً الممتدة من البحر المتوسط وحتى فارس ستخضع لسلطة الانتداب البريطانى والفرنسى. تقسم سوريا العثمانية إلى لبنان موسع وسوريا متقلصة، وكلتاهما تحت الانتداب الفرنسى وتُقتطع فلسطين من سوريا وتوضع تحت سلطة الانتداب البريطانى، مع إضافة شرط وهو تنفيذ وعد بلفور بإقامة وطن قومى لليهود هناك. تخضع العراق، بعد توسيع أراضيها (على حساب سوريا أيضاً، والفضل يعود إلى إيه. تى. ويلسون) بضم الموصل الغنية بالنفط، تخضع، للنفوذ البريطانى. أوجز العنوان الرئيسى لصحيفة الواشنطون بوست ما اقترفه المؤتمر: "تقطيع تركيا إلى شرائح". كان تقطيع الأوصال هذا إيذاناً بمولد مشاعر جديدة فى العالم العربى وفقاً لچورچ انطونيوس الكاتب اللبنانى فى مؤلفه المؤثر "يقظة العرب" (١٩٣٨)، أى مشاعر الاحتقار القوى للغرب. لم يكن فقط إنكار الهدفين الأثيرين للاستقلال والوحدة هو الذى أثار الشعور بالاشمئزاز - بل كان هو، وعلى مستوى أعمق،

خيانة العهد.. كانت قرارات سان ريمو، ترقى إلى الخيانة فى أعين العرب، وحقيقة أن تلك القرارات انتهكت ميثاقاً تم التوقيع عليه بالدم، جعل الخيانة أكثر مدعاة للبغض والاحتقار.

ظل ما قاله أنطونيوس عن حنث بريطانيا بوعودها محل جدل منذ وقت طويل، لكن، ومما لا مجال للشك فيه، فإن قرارات سان ريمو التى تم نشرها كمرسوم واجب التنفيذ، أثارت حنق النخبة السياسية الوليدة بالعراق. ذكّر وجهاء بغداد البريطانيين أن الفعل to manate يضع تحت الانتداب وفقا لمعاجمهم الإنجليزية يعنى "يسيطر، يأمر، أو يحظر" وأن هذا أبعد ما يكون عن مفهوم الديمقراطية، علاوة على ذلك فقد أتى إعلان مايو فى أعقاب تذمر، ظلت نبرته ترتفع، من زيادة قيمة الضرائب، التى فُرِضت للمساعدة على سد نفقات الاحتلال، ومصادرة المنازل لحساب العاملين البريطانيين: تلك الممارسات التى كانت دائماً وقودا للسخط ضد الاحتلال. بيد أن العراقيين أضمروا أيضاً مظالم أخرى محددة. فى الجنوب، هاجم رجال الدين الشيعة الخضوع لسلطة الكفرة، وذكّروا الأهالى أنه، وأياً كانت عيوب الأتراك، فهم إخوة مسلمون.

أما فى الشمال، فقد احتج الأكراد على دفع الضرائب لبغداد التى لا تأبه بهم، كما اعتراهم القلق حول من سيتحكم فى حقول نفطهم المرتقبة. وجهر كثير منهم بالمطالبة بالاستقلال الذين اعتقدوا أن وودرو ويلسون قد وعد به. وعبْر جميع الأطياف الإسلامية، اعتملت صدور المسلمين الشيعة والسّنة بالغضب إزاء ما أحسوه من تحيز الإنجليز للمسيحيين الأرمن واليونانيين والآشوريين، الذين كان بعضهم قد هرب إلى العراق من مذابح الأتراك الطائفية.

عقّدت العوامل الخارجية حالة الاضطرابات والقلقلة. كان الأمير فيصل قد افترض بدْهاً، وكما أوضح كبير مساعديه نورى السعيد فى نوفمبر ١٩١٩، أن مملكته ستشمل الأقاليم المحررة من سوريا وبلاد الرافدين "لتشكّل مجموعة واحدة

من ولايات فدرالية على غرار الولايات المتحدة الأمريكية". وحينما حثت رئاسة مجلس الوزراء البريطاني الإجابة على نوري باشا، الذي قد كان هرب من الجيش العثماني ليحارب مع فيصل، أجابهم الكولونيل ويلسون أنه من غير اللائق به مخاطبة "شخصية ثانوية". لم يُرضِ هذا وزارة الخارجية، وبخاصة خبيرها في الشئون العراقية الذي كان قد عُيّن مؤخراً، الماجور هوبرت يونج وكان قد خدم في بلاد الرافدين. أعدّ مذكرة أوضح فيها أن من بين الضباط البريطانيين البالغ عددهم ٢٣٣ والذين يعملون بالإدارة المدنية العراقية، كان أربعة منهم فقط هم من تجاوزوا سن الخامسة والأربعين. ألهمت تلك المعلومة برقية غير معتادة بعث بها اللورد كيرزن الذي كان قد أصبح وزيراً للخارجية إلى السير بيرسي كوكس الذي كان مازال بمهمته المستطالة بطهران. قال كيرزن المسن في برقيته "إن الوضع الحالي في بلاد الرافدين يتسبب في قدر كبير من القلق. إن الإدارة العسكرية الموجودة والتي اقتضتها ضرورة ظروف الحرب متيبسة صارمة، وباهظة التكاليف وتعيق تطور إدارة مدنية. وهي في معظمها في أيدي ضباط شباب يفتقدون الخبرة بالضرورة. من الواضح أن نظام الحكم المدني الذي يقام الآن لا يحقق إعلان نوفمبر ١٩١٨ المشترك ولا يرضي الطموحات المحلية.. إنه نظام للحكم البريطاني يعمل العرب فيه مستشارين (وهذا بقدر قليل فقط) بدلاً من أن يكون حكماً عربياً مع مستشارين بريطانيين. يصر الفرنسيون على التناظر التام بين بلاد الرافدين وسوريا ويسألون عن السبب الذي من أجله نفعل في بلاد الرافدين ما نعترض عليهم لفعله في سوريا".

أنهى كيرزن برقيته بأن بيّن أن الجميع يتفقون على الرغبة في عودة كوكس السريعة إلى بغداد، على الرغم من عدم إمكانية هذا قبل أن يكمل التفاوضات التي كانت قائمة مع فارس. وباستثناء هذا، ماذا كان رأي السير بيرسي؟ في رده على كيرزن، دافع كوكس بلباقة عن صنيعته الكولونيل ويلسون، أعاد النص على

تحفظاته بشأن الإعلان الفرانكو/بريطانى، وقلل إلى الحد الأدنى من أخطار استياء العراقيين. وسرعان ما تبين، أن تفاؤل كوكس كان فى غير موضعه.

ما الذى سارع حقاً بالتمرد الذى اجتاح الفرات فى ربيع عام ١٩٢٠؟ ذكرت برقية نمطية أرسلها المندوب السامى المدنى بالنيابة، أكثر من دستة أسباب لفقدان إدارته "الشعبية التى تمتعن بها يوماً ما" وبدأ باكتشافه أن شيوخ القبائل العراقية "لم يكن لديهم السلطة المفترضة على رجال قبائلهم". ومن حسن الحظ، وبمحض الصدفة أيضاً، أن شاهداً أمريكياً مؤهلاً كان موجوداً ببغداد أثناء ذروة التمرد العراقى وظل هناك حتى تم قمعه فى الخريف، كان هو كورنيليوس ڤان إيتش إنجرت (١٨٨٧-١٩٨٥) وكان أوروبيا نشأ بكاليفورنيا وتعلم بهارڤارد. وكمسئول ناشئ بوزارة الخارجية، فقد تم تعيينه بتركيا العثمانية لدى اندلاع الحرب العظمى وهناك أتقن التركية وعمل مترجماً وكتب تقارير مفصلة عن مذابح الأرمن العثمانيين بين عامى ١٩١٥ و١٩١٩، والتى يُعتقد بعامة أنها أول إبادة جماعية فى القرن العشرين. فى عام ١٩٢٠ كان إنجرت فى طريقه إلى منصب ديبلوماسى جديد بفارس، حينما وجد نفسه عاجزاً عن مغادرة بغداد فيما انتفض العراقيون ضد البريطانيين، أو بتحديد أكثر ضد ويلسون. تكوّن أوراق إنجرت، المتاحة بجامعة چورچ تاون بواشنطون، أرشيفاً قيّماً غير معروف، ونادراً ما يتم الاطلاع عليه عن تاريخ الشرق الأوسط. نورد هنا تقريره الموجز عن التمرد العراقى (الثورة العراقية: الترجمة) فى ٧ أكتوبر ١٩٢٠ والذى أرسله إلى وزير الخارجية الأمريكية روبرت لانسينج:

"بما أن الهدنة لم تُعيّن الحدود بين سوريا وبلاد الرافدين، سرعان ما اندلعت الاضطرابات بين المواقع المتقدمة للبريطانيين بمحاذاة الفرات العلوى والعرب الذين كان يُتحكم بهم من حلب ودمشق. انسحب البريطانيون من دير الزور فى ٢٥

ديسمبر لتحاشى المشاكل، ثم انسحبوا أيضاً من قرية أبوكمال فى فبراير من العام الحالى. تم شن غارات محدودة على خط بغداد/ الموصل الحديدى بدءاً من شهر مارس، وفى ٢٤ مايو تم إحراق أحد القطارات. فى ٤ يونيو، قتل ضباط وموظفون بريطانيون وأُوقع بعربتين مصفحتين فى كمين وقتل راكبوهما. انتشرت الاضطرابات سريعاً بين القبائل الأخرى. وعلى الرغم من أن البريطانيين أعادوا احتلال تلعفر، إلا أن الغارات استمرت على القرى المسيحية شرقى دجلة، وفى نفس الوقت تمت محاولة فى بغداد لإطلاق سراح أحد الموظفين المحليين بالقوة، وكان قد تم اعتقاله بناء على خطاب تحريضى، ثم جابت دوريات العربات المصفحة الشوارع. فى ١٦ يونيو تمت محاولة لإخراج قطار عن الخط بالقرب من الحِلة، وأصبح جلياً أن الاضطرابات تتخذ توجهاً جديداً حينما اكتشفت لافتات تحرض على قتل الضباط البريطانيين. تمت الدعوة إلى الثورة العلنية فى التجمعات القبلية ومن ثم، قصف البريطانيون بعض القرى المتمردة واعتقلوا القادة".

أمدّ إنجرت الوزير لانسيج بتقارير عن كل معركة على حدة لهجمات المتمردين وهجمات البريطانيين المعتادة، وانقضاض الفدائيين الشامل على نظام خطوط السكك الحديدية جميعه (الأمر الذى منع سفره إلى فارس). ذكر تفاصيل الصعوبات التى تواجهها قوات الاحتلال البريطانية غير كافية العدد، حيث كان قد تم تقليص عددها لتوفير النفقات، وأنيطت قيادتها إلى الجنرال المتقاعد ومُعْتلّ الصحة إيلمر هالدين الذى لم يكن يعلم شيئاً عن العراق والذى غادر البلاد فى إجازة فى اللحظة الخطأ. ووفقاً لإنجرت، ونقيضاً للتقارير الأخرى، كان الحجم الحقيقى للحامية البريطانية فى أغسطس ١٩٢٠، ٥٠٠٠ بريطانى، و٣٠٠٠٠ هندى من المقاتلين، مما يعنى أن رقم الـ ٩٠٠٠٠ الذى ذكرته المقالات الناقدة لويلسون كان مبالغاً فيه لأن ذلك الرقم "تضمن فرقاً من العمال المحليين". وبحلول فصل الصيف، وفيما بلغ التمرد ذروته – وفقاً لويلسون ومصادقة إنجرت – ثُبّت عدد

القوات عند ٤٧٠٠٠ مقاتل، منهم "٤٢٠٠ بريطانى فقط، و٣٠٠٠٠ هندى متاحين للخدمة فى بلاد الرافدين، والباقون موجودون بفارس أو مرضى، أو فى حالة عبور من مكان لآخر". قدّر المفوض السامى المدنى بالنيابة التكلفة السنوية للحامية بـ ٣٥,٥ مليون جنيه إسترلينى، وهو مبلغ ضخم بالنسبة للمملكة المتحدة التى كانت تئن تحت وطأة ديون الحرب التى لم تسدد، وانتفاضة أيرلندا، وأعمال الشغب المعادية للكلونبالية التى انتشرت من القاهرة إلى أمريتسار بالهند، والاضطرابات بفارس والحرب غير المعلنة ضد روسيا البلشفية.

فى العراق - هكذا روى إنجرت - واجهت القوات البريطانية "عدة مئات لآلاف من الفرسان العرب سريعى الحركة الذين لم تُنزع اسلحتهم أبداً، وكانوا منتشرين بطول البلاد وعرضها". حصل المتمردون على الأموال والأسلحة من تركيا القومية بقيادة مصطفى كمال، كما ذكر إنجرت، ومن عملاء الملكية التابعين للأمير فيصل الذى كان الفرنسيون قد خلعوه عن عرش سوريا. كثيراً ما كان يقود كوادر المتمردين ضباط جيش أتراك. وفقاً لشهادة إنجرت، وكان رجال الدين المسلمون يُحيّونهم ويمطرونهم بوابل من الثناء وكذلك فعلت روسيا البلشفية، بل إنها نادت بابن أحد آيات الله الشيعة بكربلاء "بطلاً للتحرير".

قد يشعر الشخص الأمريكى بوخزة منذرة وهو يقرأ التقارير عن هذا التمرد كانت الثورة قد شهدت اندلاعها العنيف فى تلعفر، ذات القرية الواقعة على الحدود السورية التى استشهد بها الرئيس چورچ دبليو. بوش عام ٢٠٠٦ كنموذج للهدوء والتصالح. فى عام ١٩٢٠، قاتلت القوات البريطانية من منزل إلى منزل فى المدن التى أضحت أسماؤها مألوفة الآن مثل النجف وكربلاء والفلوجة وسمراء، فيما وصل عدد القتلى المدنيين الذروة فى يوليو وأغسطس. يقول إنجرت "إن إصابات كثيرة وقعت نتيجة للصيف مفرط الحرارة". تجعل الأنهار المنخفضة بدرجة غير عادية الملاحة الصعبة. تم حرق المؤن العسكرية لعام كامل بمخزن التموينات

ببغداد.. لا يمكن للطائرات أن تعمل إلا لبضع ساعات فى الصباح المبكر بسبب الحر القائظ. إن قصف القرى غير مجدٍ عسكرياً، وينطوى على تدمير عشوائى وقسوة غير مجدية أو أليمة". لاقت القوة الجوية منخفضة النفقات قبولاً من الاستراتيجيين البريطانيين، وبخاصة من ونستون تشرشل بصفتها السلاح المفضل لقمع المتمردين، وسنورد تفاصيل ذلك فى الفصلين الخامس والثامن. أتى تشرشل أيضاً بتغيير لافت فى الاستراتيجية السياسية وكان رئيس الوزراء لويد چورچ قد استبق تلك النقلة أثناء جدل بمجلس العموم فى مارس ١٩٢٠ بادر به سلفه، ومنافسه زعيم حزب العمال الليبرالى هربرت إتيش اسكويث الذى حث، وبدعم من السير تشارلس تاونسند (نفس الجنرال الذى كان قد استسلم بمدينة الكوت، ثم ولد من جديد كنائب بالبرلمان)، على قصر سلطة بريطانيا بالعراق على "منطقة البصرة". وجد لويد چورچ أن من المستغرب ان يقترح أى أحد التخلى عن الموصل الواعدة والغنية بالنفط ثم أضاف التفاصيل التالية:

"ماذا سيحدث إذا انسحبنا؟.. بعد التكلفة الهائلة التى تحملناها لكى نحرر ذلك البلد من طغيان الأتراك المهلك، فإننا بتسليمنا إياها مرة أخرى للفوضى والإرباك، وعدم تحمل مسئولية تنميتها، سيكون فعل حماقة لا يمكن الدفاع عنه.. إذا حرمتهم من الحكومة المركزية الوحيدة التى شهدوها (أى العرب) فعلينا أن نضع حكومة مركزية أخرى مكانها.. لقد تمت استشارتهم بشأن رغباتهم فى هذا الصدد، وأعتقد أنهم، وبدون استثناء حريصون على أن يظل البريطانيون هناك. لا نقترح أن نحكم البلد وكأنه جزء من الإمبراطورية البريطانية ونسن قوانينها. ليست هذه وجهة نظرنا فإننا نرى أنهم يجب أن يحكموا أنفسهم ونكون نحن مسئولين، بوصفنا قوة انتداب عن تقديم النصح وإرشادهم ومساعدتهم، لكن لابد أن يكون الحكم عربياً".

كان جليا أن نظرة لندن إلى مستقبل العراق كانت تختلف عن رؤية بغداد وكان

من الواضح أيضاً أن المفوض المدنى بالنيابة، أى ويلسون، كان غير مواكب، ومن المحتمل له أن يفقد منصبه. أما من دبر الدفعة القوية الحاسمة، فكان هو الكولونيل تى. إى . لورانس.

•••

فى عام ١٩١٩ ، كان حديث حىّ وست إند الراقى بلندن، هو تلك المحاضرة المصورة التى كان يرويها صحفى أمريكى غير معروف، كان مازال فى العشرينيات من العمر، واسمه لويل توماس. كان توماس وكمراسل صحفى يبحث عن قصة، قد وقع مصادفة على ما يناظر منجم ذهب إعلامى فى الشرق الأوسط. افُتتح عرضه للشرائح المصورة بعنوان "مع أللنبى فى فلسطين ولورانس فى بلاد العرب" افُتتِح بمقطوعة استهلالية عزفت فيها ستون آلة محاكاةً للآذان.. ومن الظلام أتى المشاهدين صوتُ لويل توماس الصافر وهو يقول "كل ماً أنتم على وشك مشاهدته؛ الرحلة التى انتم على وشك القيام بها - كل هذا كان من المفترض أن يُعرض فى أمريكا فقط. لم يراودنى، حتى فى الأحلام أن البريطانيين قد يهتمون بسماع قصة حملتهم بالشرق الأدنى، قصة أبطالكم من خلال أنف يانكى أمريكى، إلى أن وصل إلى نيويورك بيرسى بيرتون منتج هذا العرض. لكننى هنا أمامكم والآن، تعالوا معى إلى الأرض، الأسرار، والتاريخ، والرومانسية".

كان من المفترض أن يستمر عرض توماس لمدة أسبوعين بعد استهلاله فى أغسطس. لكن نهم البريطانيين لخاتمة بطولية تعويضية عن الحرب المروعة بلغ درجة اضطر معها إلى عرضه مرتين فى اليوم أمام الجمهور فى صالة مكتملة العدد، ثم نُقِل عرضه من كوفنت جاردن إلى رويال ألبرت هول الأكثر اتساعاً، ثم إلى كوينز هول. وبالإجمالى أخذ لورانس محاضرته المصورة فى جولة حول العالم دامت أربع سنوات وشاهدها أربعة ملايين نسمة خلال أربعة آلاف عرض. وإلى حد كبير وبفضل شهرته الفجائية تبنت لورانس دوائر نافذة تضمنت برناردشو وزوجته

تشارلوت، وباسيل ليدلهارت المنظّر العسكرى؛ وونستون تشرشل الذى سرعان ما أصبح وزيرا للمستعمرات. كان يتم توسل آراء لورانس عن كل ما يتعلق بالشرق الأوسط. بالنسبة للجمهور، (وفقاً لتعبير توماس لويل) كان لورانس "ملك العرب غير المتوج" الذى قام، وهو "يتحدث العربية الفصحى السليمة" بقيادة جيش قوامه مائتا ألف شخص و"أصبح بطل العالم فى تحطيم القطارات" ومن ثم أنجز "ما لم يستطعه أى سلطان أو خليفة طوال خمسمائة عام". من ثم كان هذا الاهتمام حينما طرح لورانس الذى كان مؤخراً قد أصبح لورانس العرب - آراءه بعد أن تمعّن فى التمرد العراقى، فى خطاب إلى صحيفة التايمز فى يوليو ١٩٢٠ أعطاه المحررون عنوان "حقوق العرب - سياستنا فى بلاد الرافدين".

كتب لورانس يقول إنه "لا غرو فى أن تندلع انتفاضة لأن نظام الحكم الذى أقمناه هو نظام يعمل بالأسلوب البريطانى ويُسيِّر الأمور باللغة الإنجليزية. لدى الحكومة ٤٥٠ ضابط تنفيذى يديرونها ولا يوجد عراقى واحد. فى عهد الأتراك، كان ٧٠٪ من الموظفين المدنيين محليين. تقوم قواتنا البالغ عددها ٨٠٠٠٠ بمهام بوليسية، لا بحراسة الحدود.. إنهم يقمعون الشعب". اقترح لورانس تقليص عدد العاملين الأجانب بشكل جذرى وسحب جميع القوات الأنجلو/هندية فى غضون اثنى عشر شهراً. ختم خطابه قائلاً: "أعتقد أن العرب فى ظل مثل تلك الأوضاع سيثبتون ولاءهم مثل أى من شعوب الإمبراطورية الأخرى، ولن يكلفونا سنتا واحداً. بالطبع ثمة نفط فى بلاد الرافدين، لكننا لن نقترب منه طالما ظل الشرق الأوسط فى حالة حرب، وأعتقد أنه فى حالة الضرورة فبالإمكان جعله (النفط) موضوعاً للمساومة". وفيما غدا مقولة تتردد كثيراً، قال إنه يأمل أن يصبح العراق أول دمينيون بريطانى أسمر (دولة مستقلة تعترف بالتاج البريطانى حاكماً لها)، لا آخر مستعمرات بريطانيا السمراء.

تبع لورانس هذا الخطاب بمقالات موقعة بالأوبزرفر، والديلى هرالد العمالية

والصنداى تايمز التى نشر فيها مقاله الأكثر صراحة فى ٢٢ أغسطس. بدأ مقاله "لقد اقتيد شعب إنجلترا إلى مصيدة فى بلاد الرافدين. تم إيقاعهم فيها من خلال منع مضطرد للمعلومات. تصل البلاغات الرسمية من بغداد بعد فوات الأوان وهى غير صادقة وغير مكتملة. فالأمور أكثر سوءاً بكثير مما أُبلغنا إياه، وإدارتنا أكثر دموية وعدم كفاءة بكثير مما يعرفه الجمهور.. إن الخطايا التى ارتكبت هى من فعل المسئولين البريطانيين المدنيين فى بلاد الرافدين (الكولونيلات بخاصة) الذين أطلقت لندن أيديهم. لا تتحكم فيهم وزارة للخارجية، بل المساحة الخالية التى تفصل مكتب الشئون الخارجية عن مكتب الشئون الهندية". والنتيجة؟ طرح لورانس فيضا من الأرقام: "أنفقنا فى السنة الحالية ٩٢٠٠٠ رجل و٥٠ مليون جنيه إسترلينى... إن حكومتنا أسوأ من النظام التركى القديم. كانوا يحتفظون بـ ١٤٠٠٠ مجند محلى مدمجين فى الجيش وكانوا يقتلون مائتى عربى كل عام فى المتوسط أما نحن فلدينا ٩٠٠٠٠ رجل بطائرات، وسيارات مصفحة، وسفن مدفعية وقطارات مصفحة. قتلنا حوالى ١٠٠٠٠ عربى فى انتفاضة صيف هذا العام. تحكم كرومر فى ستة ملايين مصرى بواسطة قوة بريطانية قوامها ٥٠٠٠ جندى ويفشل الكولونيل ويلسون فى التحكم فى ثلاثة ملايين عراقى بواسطة قوة قوامها ٥٠٠٠٠ جندى" (سيلاحظ القارئ تنوعاً كبيراً فى تلك الإحصائيات تبعاً للمسئول الذى يطرح وجهة نظره).

ليس من قبيل المصادفة أن تُثار نفس القضية فى مجلس الوزراء من خلال وزير الحرب آنذاك ونستون تشرشل. كان تشرشل قد أدان رفض لورانس قبول أية أوسمة من الملك چورچ الخامس لاعتقاده أن بريطانيا قد حنثت بوعودها للعرب أثناء الحرب.. لكن تشرشل كان كلما علم المزيد عن لورانس زاد إعجابه به. اعتقد مثلما اعتقد لورانس، عام ١٩٢٠ "أن التمرد الخطير بالعراق" والذى اقتضى استخدام قوات قوامها ٤٠٠٠٠ جندى بتكلفة قدرها ٣٠ مليون إسترلينى سنوياً "لا

يجوز له أن يستمر". وعلى الرغم من أن الإجماع السياسى الذى تبدى آنذاك على وجوب تغيير المسار قد لا يكون قد استُلهم من الجهات الرسمية، إلا أن حملْة لورانس الصحفية دعمته. وفى بغداد استشعر ويلسون النقلة فى التوجهات، وحاول، متباطئاً، تغيير توجهه من خلال عكسه آراءه السابقة، حيث اقترح على وزارة الخارجية أن حليف لورانس، الأمير فيصل، وبعد أن خلعه الفرنسيون عن عرش سوريا، فمن الواجب أن يقدَّم إليه عرش العراق.

لكن هذا لم يُحدِث فرقا، إذ اتفق تشرشل وكيرزن على أنه يجب أن يحل السير بيرسى كوكس، وقد أكمل مهماته بطهران، محل ويلسون. وفى ١٢ أكتوبر، وصل السير بيرسى إلى بغداد وقد خُلِع عليه لقب المندوب السامى، واستقبله وجهاء بغداد بحفاوة، الأمر الذى أدخل الطمأنينة على قلوب رؤسائه بلندن. وفى غضون أشهر وبعد أن أصبح تشرشل وزيراً للمستعمرات، أقنع لورانس بالعمل رسمياً كمستشار لإقامة نظام سياسى جديد بالشرق الأوسط.

وفيما كان يستعد للرحيل، أسرّ الكولونيل ويلسون فى خطاب له إلى والديه بأنه يجد صعوبة فى فهم حقيقة أن أناساً مثل لورانس "يجرءون على التحدث بحزم وثقة عن بلاد الرافدين، فى حين أنهم لم يسبق لهم التواجد هناك. لقد قضى لورانس هنا أسبوعاً أثناء الحرب. وخلال هذا الأسبوع لم يحدث وأن تحدث لشخص واحد من أهل البلد، وعلى الرغم من ذلك ظل يكتب عن بلاد الرافدين بنفس السهولة والثقة التى يكتب بها عن سوريا، وبنفس القدر من عدم الدقة". وأضاف: "إذا كنتُ بدرجة السوء التى تصورنى بها التايمز والكولونيل لورانس وشركاؤهما، فمن المؤكد أننى لست أكثر سوءاً من أفضل سياسى، من ثم، فلا داعى للقلق". يشعر المرء بقدر من التعاطف مع هذا الديناصور السياسى. المكرّس العنيد المتشامخ. فعلى الأقل لم يخدع ويلسن نفسه بشأن الهشاشة الكامنة للبلد الذى ناضل من أجل اختراعه.

وكما كتب إلى أحد حلفائه العسكريين، أى الكولونيل السير چورچ مكمون "فى غضون شهر سأكون قد سلّمت (منصبى) إلى السير كوكس.. لقد كانت الوظيفة صعبة قاسية. لقد قتل بعض أفضل ضباطى والفوضى تعم جميع النواحى، ولا يوجد أى تفهم أو تعاطف فى لندن حيث يجثم السياسيون المتجهمون ويُربكون كل شىء.. ما نحن إزاءه الآن هو الفوضى مضافاً إليها التعصب. ليس ثمة سوى شعور قليل بالوطنية، هذا إن وُجد. لقد نُهبت المدن، الواحدة تلو الأخرى.. يُقتل اليهود وتُغتصب النساء.. لقد وضعت حكومة جلالته نبيذاً جديداً فى زجاجات قديمة، وانفجرت تلك الزجاجات". ثم أردف قائلاً عن الچنرال هالدين شريكه العسكرى أثناء الانتفاضة "إنه مريض، مكتئب، سريع الانفعال؛ تسببت تأرجحاته الدائمة فى شعور چنرالاته باليأس. لا يصلح لهذه الوظيفة بسبب كبر سنه ووَهنِه". قال عن الطائرات الحربية فى وجود قوات غير كافية العدد "كانت إنقاذاً لنا. أعتقد فعلاً أن لولاها لكنا خارج بغداد الآن".

أثناء أسابيعه الأخيرة، تحدّث ويلسون باستفاضة مع إنجرت لدرجة أنه أعطاه مقدّماً نسخة من نص خطابه الوداعى الذى كان مقرراً أن يلقيه فى ٢٠ سبتمبر (النسخة موجودة بين أوراق إنجرت). عبّر فى هذا الخطاب عن بغضه "للقومية" التى هى مفهوم غربى اعتنقته شعوب "لها أجزاؤها فى الإمبراطوريات القائمة، تم التأكيد فيها على المصالح المشتركة أكثر من الاختلافات بين الأجزاء المكونة لها، لكنهم لم يروا ذلك". فضلوا أجزاءً أصغر، وكانت حماية حقوق الأمم الصغيرة هو ما حارب الحلفاء من أجله. لم تكد أية فكرة أخرى تلقى مثل هذه الاستجابة الشائعة لدى الأعراق المختلفة المكونة للإمبراطورية البريطانية. ثم أعلن ويلسون: "أُخرِس نقاد القومية كسياسة بنّاءة وتم فرض الصمت بالقوة على المشككين فيها. غدا للقومية الصوت الأعلى، وأكد كل تصريح رسمى للحلفاء، ولقادة الدول الحليفة المختارين، أكدوا عليها بصفتها أساس السياسة فى المستقبل". لكن، هكذا

استطرد، "كان الأمر برمته ضبابياً. وحينما غزت بريطانيا بلاد الرافدين، توقف كل شيء في انتظار مؤتمر باريس للسلام، ومرت الأشهر، كان ثمة حرب على حدودنا.. أصبحت الإدارة العسكرية المؤقتة واستمرار أوضاع الحرب في المدن الكبيرة تسبب أقصى الانزعاج والضيق لطبقات معينة، لكن لم يكن بوسعنا فعل أي شيء لإرشاد نمو الرأي العام. كانت الأوامر واضحة. لم يكن لنا أن نبني (قواتنا) لكن كان بإمكاننا أن نتنبأ أن التأخير كان يعني المتاعب. على أية حال فقد استمر تسريح الجنود حتى شهر مايو الماضي، ولم يعد لدينا سوى ٥٠٠٠ جندي بريطاني و٣٠٠٠٠ جندي هندي من المقاتلين".

لهذه القصة التي تم نسيانها أصداء مألوفة حزينة تتردد الآن. في عراق عام ١٩٢٠ كانت قوات الاحتلال البريطانية أقل مما يجب لأسباب تتعلق بالميزانية. تم تسريح القوات التركية التي كانت موجودة من قبل بأسرع مما يجب. كانت حدود العراق مع سوريا وتركيا مليئة بالفجوات؛ تطايرت الأيديولوجيات الراديكالية - الدينية، القومية، البلشفية - كالشرارات في مخزن تبن، وُعد العراقيون الذين قد غُزوا حديثاً بالحرية لكن بدون خطة؛ بذر الاعتماد على سلاح الطيران المرارة بين جميع الأطياف الإثنية للأمة المشظاة؛ واشتعلت في البنية المتقلقلة الواهنة جميعها. وعلى الرغم من ذلك، فبالإمكان القول على سبيل التبرير ولو جزئياً، إن البريطانيين، في الشرق الأوسط، كانوا يخوضون منطقة لا معالم لها لديهم وأنهم كانوا يتحسسون طريقهم وسط طموحات العراقيين الجديدة إزاء حق تقرير المصير. كانت بريطانيا قد استُنزفت لحد الإفلاس من خلال الحرب، وكانت خزانتها منضبة لأسباب ليس أقلها أنه كان عليها أن تسدد ديون الحرب للولايات المتحدة التي كانت تمارس عليها الضغوط ("لقد استأجروا أموالنا" هكذا قال رئيس الولايات المتحدة كالفين كوليدج ببرود ولا مبالاة). ليس بالإمكان الحديث عن مبررات مثيلة لما تلى ذلك من عمليات غزو واحتلال للعراق وغيرها.

وكما سنفصل فى الفصل التالى، وفى عام ١٩٢١ ارتجل تشرشل حلاً لفترة انتقالية فى الشرق الأوسط أثناء مؤتمر عُقدِ بالقاهرة وحضره أرنولد ويلسون كمراقب مدنى من منطلق منصبه كعضو مجلس الإدارة المنتدب فى الخليج الفارسى لشركة النفط الأنجلو/فارسية. أثار قبوله هذا المنصب الذى أضمر تعارضا واضحاً للمصالح مقالاً افتتاحياً حاداً لصحيفة التايمز (جاء فى المقال "ننظر بقدر من الاستنكار لأن تستوعب فروع كبرى شركات النفط خدمات كبار موظفى الدولة") وحفز جدلا موجزاً بمجلس العموم. لم ير ويلسون أى دا ع للاعتذار. دافع عن نفسه فى خطاب له"أمام جمعية آسيا الوسطى" قائلاً: "لم أكن لأزعجكم بهذا البيان لولا حقيقة أنه قد تم التساؤل فى البرلمان عن مدى صواب الخطوة التى اتخذتها.. لم يكن الدافع هو فرصة حصولى على مرتب أكبر، بل فرصة إتاحة عمل مسئول بنَّاء فى منطقة كرستُ لها أفضل سنوات حياتي". كان هذا حقيقياً إلى حد كبير.. بيد أنه حينما سعى أنجرت فى عام ١٩٢٠ إلى الحصول على تصريح لاثنين من الجيولوجيين العاملين بشركة ستاندرد أويل أوف كاليفورنيا للتنقيب عن البترول العراقى، منع ويلسون دخولهما، وكتب برقية ملتبسة يوضح فيها الأسباب حيث قال "الهدف الأساسى المنظور هو استخدام النفط مصدراً للدخل من أجل تخفيض عبء تحمل دافعى الضرائب البريطانيين للنفقات فى بلاد الرافدين". (إذن، لِم عدم الترحيب بالأمريكيين؟).

لدى عودته إلى بريطانيا بعد استقالته من خدمة الحكومة، مُنِح ويلسون وسام الفروسية وتزوج من أرملة أحد ضباط الجيش اسمها روز كارفر، وكانت فى الثلاثين من العمر. نشر كتباً من عدة أجزاء عن سنوات خدمته أثناء الحرب، وأيضاً كتاباً ضخماً عن تاريخ الخليج الفارسى، ثم انتُخِب عام ١٩٣٣ عضواً عن حزب المحافظين فى البرلمان عن دائرة فى الريف الإنجليزى. كان ينظر إلى نفسه على أنه راديكالى فى الشئون الداخلية وإمبريالى فى الشئون الخارجية. بيد أنه كان ساذجاً

بخصوص هتلر وموسوليني ورأى ضرورة إرضائهما واستشهد كعادته بالإنجيل: "ومن منكم وهو يريد أن يبنى برجاً لا يجلس أولاً ويحسب النفقة هل عنده ما يلزم لكماله؟" (لوقا ١٤:٢٨) ليدعم فكرة التسوية مع ألمانيا. لكنه، يُحسب له بفخر، أنه حينما اندلعت الحرب فى سبتمبر ١٩٣٩، خاطب ويلسون أعضاء دائرته فى هيتشين قائلاً: "لا أرغب أن أعيش خلف متاريس من ملايين جثث الموتى". وبعد أسبوعين تطوع كمدفعيٍّ فى القوات الجوية. قاد طائرات لقصفِ روتردام، ونامور وآخن. وفى ٣١ مايو ١٩٤٠، لقى مصرعه فى إرينجهم بالقرب من دنكيرك حيث دُفنت بقاياه. هناك نقش على الصليب الخشبى الموضوع فوق قبره الكلمات التالية "مات هنا، وانطلقت جميع الأبواق فى الجانب الآخر تحية له". كان السير "المدفعى Gunner" كما اعتاد زملاؤه أن يلقبوه شمَّاساً، تم ترسيمه كاهناً وكانت عيوبه مصدرها عقيدته، لا طبيعته.

الفصل الخامس

"غارقة حتى رأسى فى تصنيع الملوك والحكومات"

چرترود بل

١٨٦٨ - ١٩٢٦

الفصل الخامس

من شرق البلاد لغربها

ينصاع الباشوات لها

تأمر فيهم وتنهى

عن هذا الشأن أو ذاك

أبيات مجهولة

تجـمّع كل من هم على عـلاقـة ببـزنيس تصنيع ملوك الشـرق الأوسط بفندق سميراميس بالقاهرة لحضور مؤتمر عُقد يوم السبت ١٢ مارس ١٩٢١ واستمر أسبوعين. وصف تى. إى. لورانس هذا المقر الواقع قرب النيل بأنه "رخام وبرونز، مكلّف جداً ومترف" قال إن هذا المكان "الرهيب" جعله بلشفياً بيد أنه كتب لشقيقه يقول "إن جميع من لهم علاقة بالشرق الأوسط موجودون هناك".

كانت الطائرات الحربية البريطانية تحلق فى السماء فيما تجمع آلاف المتفرجين بميدان المحطة. لكن حينما وصل القطار بعد أن تأخر لنصف ساعة، شعر الوجهاء، المنتظرون والذين كانوا قد تم تفحصهم بعناية بالإحباط. كان ونستون تشرشل وزير المستعمرات الذى كانوا فى انتظار استقباله، قد غادر القطار فى محطة بالضواحى، وركب السيارة دون "أن يراه أحد أو يزعجه" إلى سميراميس، متحاشياً "الغوغاء" الذين احتشدوا خارج فندق شبرد وهم يهتفون "يسقط تشرشل".

أبلغت چرترود بل، التى وصلت فى اليوم التالى، زوجة أبيها أن لورانس استقبلها بالمحطة (رافقها والدها هيو) : "سُرِرت لرؤياه. ذهبنا مباشرة إلى غرفة نومى وتحدثنا لمدة ساعة، وبعدها تحدثت طويلاً إلى كلمنتاين، فيما اجتمع سير بيرسى كوكس مع تشرشل فى جلسة مغلقة. لم أر الأخير بعد لأنه خرج لتناول العشاء. دعوت الجنرال كلايتون للعشاء وحديث مستفاض، ثم بعد ذلك قضينا أمسية مسلية. السير چون ماكسويل موجود هنا للسياحة، وقد قدم نفسه إلى. إيه. تى (ويلسون) موجود أيضاً! لا لحضور المؤتمر بل كعضو مجلس الإدارة المنتدب لشركة النفط الأنجلو/ فارسية. كان لنا لقاء ودى لكننى لم أره يتحدث ولا أريد ذلك.. أعتقد أن المؤتمر سيكون لطيفاً.. مثيراً للاهتمام بدرجة هائلة".

كانت، بِل هى المرأة الوحيدة التى دُعيت للمؤتمر؛ أما بَاقى النساء اللاتى ظهرن

فى الصورة (التذكارية) وهن يمتطين الجمال، فكن زوجات.. كانت بل، التى كان إلمامها بتعقيدات الشرق الأوسط يفوق أيا من الموفدين، مصدر إزعاج ضروريا بالنسبة لصناع السياسة هؤلاء. كان تقريرها المكون من ١٤٩ صفحة بعنوان "مراجعة للإدارة المدنية لبلاد الرافدين" قد قُدِم مؤخراً لمجلس البرلمان وتسبب فى كثير من الضوضاء الصحفية. أُرسلتْ إليها بعض قصاصات الصحف حيث كتب هى معلقة على الخط الذى اتبعه غالبية المعلقين "إنه من اللافت أن يستطيع كلب الوقوف على ساقيه الخلفيتين - أى أن تستطيع امرأة كتابة تقرير كهذا.. بالمناسبة لا يجوز أن تعتقد أمى أن إيه. تى (ويلسون) هو من طلب منى كتابته - لقد كتبته بناء على طلب مكتب الهند، وأصررت ضد إرادته على كتابته بطريقتى، التى، وعلى الرغم من أنها قد لا تكون جيدة، فهى على الأقل، أفضل من طريقته. على أية حال، فقد انتهى الأمر أياً كانت النتيجة كما أننى ممتنة لأننى لست بإنجلترا حتى لا يضايقنى الصحفيون".

وكقاعدة عامة، كانت چرترود بل تتحاشى الصحافة، وتستنكر الإعلان عن نفسها بهذا الأسلوب، كما أنها أكدت أنها كانت تُلقِى بجميع الخطابات التى تطلب منها حوارات صحفية أو صورا فى سلة المهملات على الفور. كانت بل تسيطر على كثير من النقاشات وذلك لحماسها، نوبات الحب التى تصيبها، واندفاعها، ومظهرها الذى يشع "ابتهاجاً وَرُقياً"، ومناعتها ضد النقد.

كان الاقتصاد البريطانى قد انهار بعد أن كان على دافعى الضرائب البريطانيين تحمل نفقات غزو روسيا، احتلال إسطنبول (الآستانة)، فلسطين ومصر؛ والحفاظ على الطرق المفتوحة المؤدية إلى الهند وضبط الأمن بأيرلندا. فحتى التايمز، التى كانت بوق الإمبريالية، حينما كانت الأوقات أفضل، أكدت فى مراجعة نشرتها عن أحداث عام ١٩٢١ قائلة "علينا الجلاء عن بلاد ما بين النهرين

فيما نحن قادرون على فعل ذلك، والآن، فاللحظة مناسبة" وأوصت فى سلسلة من المقالات أنه "طالما ظللنا هناك سيستجد من الأسباب ما يجعلنا نبقى، وستستجد الأسباب لمزيد من الإنفاق فلننهض ونرحل".

كانت الإمبراطورية قد تمددت بإفراط ولم يكن سوى قليل من الحماس لمزيد من المغامرات الإمبريالية. لكن حتى إذا لم يتقرر التخلى عن بلاد ما بين النهرين فقد كانت ثمة حاجة لوجود نوع من القوة العسكرية، على الرغم من أن تشرشل كان قد اعترف أن الجيش كان "بالغ الضعف والحفاظ عليه صعب جدا ومفرط التكلفة كما أننا لم نضمن صديقاً واحداً من القوى المحلية".

كانت أحلام البريطانيين بالإبقاء على القاهرة ودلهى جزءاً من الامبراطورية قد بدأت تنهار. حينما تجمعت خيوط سياسة الشرق الأوسط فى قسم فَرْعِىٍّ من وزارة المستعمرات كان لوزير المستعمرات الجديد، ونستون تشرشل أن يتحمل "ورطة ما بين الرافدين البغيضة". اعتقد اللورد كيرزن وزير الخارجية أن تولى تشرشل هذا الشأن محمَّل بالمخاطر لأن ونستون، وفقاً لكيرزن، "لم يكن على معرفة كافية بآراء دول الشرق الأوسط أو مصالحها". اعتقد تشرشل، ومعه المسئولون بمجلس الوزراء أن تكلفة الإبقاء على ما بين النهرين كانت باهظة إلى أقصى الحدود. كتب تشرشل فى تقريره عن "تقييمات الجيش" لعام ١٩٢٠ يقول "لا تضغط الأركان العامة من أجل الاحتفاظ ببلاد ما بين النهرين أو أى جزء منها على أسس استراتيجية من أجل أمن الإمبراطورية، هذا على الرغم من أهميتها كحلقة وصل فى الطريق الجوى إلى الهند، والدفاع الجوى فى الشرق الأوسط والأهمية العسكرية لمخزوناتها النفطية". وفى تعليق آخر له على سلوك لويد جورج، قال إنه يشعر أنه من غير المُسوّغ تبديد الموارد العسكرية الضعيفة وتدفق "الجيوش والأموال على تلك الصحارى الجاحدة".

كان من المفترض ان يساعد تى. إى. لورانس تشرشل فى القاهرة. كانت من

بين موضوعات المناقشة كيانات فلسطين وشرق الأردن الجديدة؛ كيفية حماية مصالح النفط البريطانية فى فارس، كيفية ترقيع "أقاليم ما بين الرافدين العثمانية الثلاثة معاً - أى إقليم البصرة، بغداد، والموصل - بتكلفة رخيصة مع استخدام القوات الجوية بدلاً من الأرضية؛ ثم الإتيان بملك طيّع وتنصيبه على عرش العراق ضد رغبات أهالى البلاد الذين من غير اليسير إخضاعهم".

سيصبح مؤتمر القاهرة ذاك علامة ذروة تشكيل السياسة البريطانية فى الشرق الأوسط فى زمن ما بعد الحرب. انقسم "الأربعون حرامى" كما أسماهم تشرشل إلى لجنتين: لجنة سياسية بإشراف وزير المستعمرات وأخرى عسكرية. ومنذ البداية، بدا لمحترفى بيزنس السياسة هؤلاء أن لورانس قد انتصر على البطة العرجاء أى الكولونيل إيه. تى. ويلسون بحيث كان المزاج العام يتجه إلى منح البلد "الحكم الذاتى" بدلاً من ضمه مباشرة إلى بريطانيا. أتت "النتيجة الإجماعية" بمؤتمر القاهرة بالموافقة على تقديم عرش العراق إلى الأمير فيصل الذى كان واعداً من حيث إنه "مثَّل أفضل الحلول وأقلها تكلفة". كتب تشرشل إلى لويد جورج، رئيس الوزراء مذكراً إياه بأسباب استحالة تزكية أى من المرشحين الآخرين "سيُغرق ابن سعود البلد بأكمله فى جحيم دينى. أما سيد (طالب ابن حاكم البصرة)، الذى يخطط بنشاط وإحكام لتولى المنصب فهو شخص فاسد غير أهل للثقة. كما أن النقيب (حاكم بغداد بالوراثة عبدالرحمن الجايلانى) فهو متهالك وعلى شفا الموت. يتيح نظام الأشراف (تقديم عرش العراق لفيصل) فرصاً أفضل كثيراً لنا من الباقين وهذه فى واقع الأمر هى السياسة الوحيدة القابلة للتنفيذ".

ونظير تنازله عن مطالبته بالعراق، مضى البريطانيون يعدون عبد الله، شقيق فيصل الأكبر، وكان شخصاً ممتلئ الجسد، حلو الحديث، متغربنا بدرجة أنه كان يتلقى نسخة من يومية الفيجارو الفرنسية معظم أيام الأسبوع، يُعدّونه لتولى عرش شرق الأردن المجاورة (أدان لورانس طموحات عبد الله لتولى عرش العراق، وقال

للمؤتمرين إن الأمير كان كسولاً ليس بإمكانه السيطرة بأى حال من الأحوال). أيضاً كان كوكس يفضل فيصل لحكم العراق لأن بطولته أثناء الحرب تؤهله لتكوين جيش بسرعة. رأى المؤتمرون أنه بالإمكان رشوة ابن سعود، الحاكم الأقوى فى المنطقة، بأن يُدفع له ١٠٠٠٠٠ جنيه استرلينى سنوياً يسلم جزءاً منها كل شهر وذلك لضمان استقرار وسط الجزيرة العربية، أى موطنه بنجد. يُدفع أيضاً مبلغ مماثل للشريف حسين والد فيصل كى يحمى مكة والمدينة المقدستين.

كانت مازالت تواجههم مشكلة "تلميع فيصل" لأن التضامن الفرنسى البريطانى كان قد تحلل مع مقدم السلام. من ثم لم تكن إعادة بعث فيصل، الذى كان الفرنسيون قد طردوه من سوريا مؤخراً، لتلقى القبول من وزارة الخارجية الفرنسية. كان القائم بالأعمال الفرنسية قد حذر من ان تتويج فيصل سيُنظر إليه على أنه عمل غير ودى تجاه فرنسا، وكانت الصحافة الفرنسية قد مضت تتنابذ بشأن "الأمير الأنيق بميدان بيركلى". (كان لورانس مؤخراً قد عمل رفيقاً لفيصل بلندن الذى ذهب بدعوة من الحكومة البريطانية حيث التقى الملك چورچ الخامس، واجتمع بوزير الخارجية كيرزن ثلاث مرات قال الوزير بعدها لتشرشل بما يشبه الهذيان إن الأمير تصرف مثل جنتلمان حقيقى، وبحس مرهف بالشرف والولاء).

لكن كانت الفكرة هى أن الفرنسيين لن يكون بوسعهم المعارضة إذا بدا الأمر وأن العراقيين هم من اختاروا فيصل تلقائياً. والحال كذلك فكيف يكون للبريطانيين مبرر للاعتراض على ترشحه!! استعلم تشرشل ما إن كان بوسع كوكس وبل أن يجريا استفتاءً شعبياً تأتى نتائجه فى صالح فيصل. سأل "أبستطاعتكما التأكد من أن يتم اختياره محلياً؟". كان المناط بهما تنفيذ هذه الاستراتيجية هما كوكس، الذى كان قد عاد ليشغل منصب المندوب السامى، وبل، سكرتيرته للشئون الشرقية. لكن بل كانت قد عبرت مؤخراً عن عدم موافقتها على هذه الاستراتيجية حيث كتبت فى تقريرها الذى قدمته بعنوان "مراجعة للإدارة المدنية لبلاد ما بين النهرين" تقول "إن

جمهور القبائل، الرعاة، سكان الأحراش، زراع الأرز والشعير والتمور بدجلة والفرات، والذين لا تتخطى معرفتهم بشئون إدارة الدولة مجرد التكهنات حول أداء جيرانهم لم يكن من الممكن سؤالهم عمن يفضلونه حاكما لبلدهم في المستقبل، ووفقاً لأى دستور ولو أن هذا قد تم، فلم يكن لهم أن يفعلوا أكثر من ترديد الصيغة التى يأمر بها رؤساؤهم المباشرون، من ثم، كان من المفيد والأسرع إحالة تلك الأسئلة على الرؤساء فقط"، وعلى الرغم من ذلك تُرِك لكوكس وبل أمر إجراء استفتاء عام وإدارة مسرحية دخول فيصل منتصراً إلى العراق.

أتت بل أثناء أحد الاجتماعات، بتعليق طائش كان الجميع بحاجة إليه وكما روى السير هيوبرت يونج، أحد المشاركين، والذى عمل سابقاً فى مكتب الشئون العربية ثم أصبح السكرتير الجديد فى قسم الشرق الأوسط بوزارة المستعمرات، روى ما يلى "أثناء أحد النقاشات الجادة أتى لورانس بتعليق طفولى نزق لم يستطع أحد التعليق عليه. هنا، استدارت جرترود نحوه وقالت "يالك من شيطان صغير مزعج!". كانت تلك هى المرة الوحيدة التى رأيت فيها لورانس يتفاجأ لدرجة الإحراج. احمر وجهه حتى أذنيه ولم يقل شيئاً".

أمام اللجنة العسكرية، لخّص المارشال الجوى السير هيو ترنشارد مقترحاته للتحكم فى بلاد الرافدين: خمسة أسراب من السلاح الجوى الملكى تشمل وحدتين للقصف، تدعمها ثلاث سرايا من العربات المصفحة البريطانية (فى ٢٩ أغسطس، كتب تشرشل الذى كان قد وصف استخدام الألمان للغازات بأنه "سم جهنمى"، كتب خطابا سيئ السمعة إلى ترنشارد كبير ضباط السلاح الجوى، دعا فيه إلى المضى فى استخدام تجريبى لقنابل الغازات، وبخاصة غاز الخردل، الذى من شأنه أن ينزل العقاب بالأهالى المتمردين بدون إصابات خطيرة. وفيما بعد، أصبحت القنابل أحد مكونات الاحتلال الأكثر إثارة للجدل، بعد ان أطلق البريطانيون الغازات المسيلة للدموع على المتمردين الأكراد).

كانت الطائرات، فوق كل شئ، أحد أساليب الترهيب الأقل لفتاً للنظر من القوات الأرضية، وكما أوضح ضابط بالسلاح الجوى الملكى: "يجب انتقاء أحد الأهداف - من الأفضل إحدى القرى التى من الصعب الوصول إليها والتابعة لأهم قبيلة نرغب فى عقابها.. يجب ان يكون الهجوم بالقنابل والمدافع الآلية بلا هوادة ومطرد، ينفذ باستمرار ليل نهار، على المساكن، السكان، المحاصيل والمواشى. ليس ثمة أنباء تنتقل مثل الأنباء السيئة. ستسرى تلك الأنباء مثل النار فى الهشيم وستثبت الوحشية أنها حل ناجع. إذا تم استيعاب الدرس كما يجب". كانت الغاية هى تخفيض النفقات المذهلة للاحتلال العسكرى للبلد باستخدام قوات عربية محلية وتقليص عدد القوات البريطانية من حوالى تسعين ألف جندى، إلى خمسة عشر ألفاً.

ناقشت اللجنة السياسية أيضاً إمكانية إنشاء منطقة صد عازلة، دولة كردستانية مستقلة بين تركيا والعراق. كان تشرشل قد عبر بالفعل عن بعض المخاوف -- وكان محقاً - عن مدى تواؤم الأكراد مع حاكم هاشمى(١) يدعمه جيش عربى، لكن ولسوء الحظ، قررت اللجنة أنه ومن أجل أن يصبح العراق دولة قابلة للحياة لابد من أن تتكون من الأقاليم الثلاثة معاً.

فى يوم الأحد، أرجئت الاجتماعات، حيث ذهبت المجموعة فى زيارة للأهرامات، تم تخليدها لأجيال المستقبل عن طريق الصور الفوتوغرافية. جاء بإحدى الصحف

---

(١) يشير اللفظ العربى إلى الشخص الذى ينتسب إلى عشيرة بنى هاشم، إحدى عشائر قبيلة قريش لكنه ايضا يدل على انتساب الشخص إلى سلالة الرسول من خلال ابنته فاطمة. وكان هؤلاء تقليدياً اشرافا يعملون، رعاة لمكة حتى عام ١٩٢٤ حينما طردهم عبد العزيز بن سعود من موطنهم وموطن اسلافهم بالحجاز . وكان للشريف حسين خمسة أبناء، على ، الذى خلف والده لفترة وجيزة بالحجاز ، عبد الله، الذى أصبح اميرا للأردن ثم ملكا لها، فيصل، الذى كان ملكا لسوريا حتى خلعه الفرنسيون ونصبه الإنجليز على عرش العراق والامير زيد الذى لحق بفيصل فى العراق وحسن الذى مات فى صباه. (المؤلفان)

المحلية أن تشرشل سقط من على دابته مما دفع زوجته إلى التعليق بالقول "ما أسهل سقوط الأشدّاء" لكن، حينما عرض عليه المصريون حصاناً بدلاً من الناقة رفض قائلاً: "لقد بدأت على جمل وسأنتهى على جمل". أحضروا إليه ناقة سهلة الانقياد، وامتطاها وزير المستعمرات وعاد بها إلى ميناهاوس، فيما فضل لورانس، وبل والآخرون العودة بالسيارة (لم يأبه تشرشل بحقيقة بغض المصريين له – علقت عربات كثيرة لافتات كتب عليها "عباس" – وفضل التركيز أثناء ساعات فراغه على رسم الأهرامات جالساً على كرسى يُستخدم فى الخيام وفى حراسة عربة مدرعة).

بعد انتهاء المؤتمر أبرق تشرشل إلى لويد چورچ رئيس الوزراء يعلمه أن "فرص ما بين النهرين واعدة". شعر أن بإمكانه طمأنة مجلس العموم أن أهدافه الأساسية قد أُنجزت: تقليص عدد القوات البريطانية المحتلة بالعراق، ضمان الخطوط الجوية؛ تقليل عبء النفقات على دافعى الضرائب بمبلغ قدره ٥ ملايين جنيه إسترلينى فى العام الأول، و١٢ مليون جنيه استرليتى فى العام الثانى. ذكر تشرشل أن العراق أو "البركان الجاحد" كما أسمى البلد قد يصبح نموذجاً عربياً للحكم الدستورى وحليفاً صديقاً. وفى نفس الوقت تقبل نظام الانتداب المقترح الذى كان قد أسماه "الهراء الذى عفا عليه الزمن" بصفته حلاً برجماتياً.

فى عام ١٩٢٢، عبر تى. إى . لورانس، الذى شعر بالارتياح، عن حكمه على ما تم فى المؤتمر لروبرت جرايفر، مؤرخه المبكر قال: "بإمكانى أن أنسب الفضل لنفسى لقرارات تشرشل المُرضِية بشأن الشرق الأوسط، ففيما كان هو المنفّذ ساعدته أنا بما لدى من معرفة وطاقة. كان لديه من الخيال والشجاعة ما يجعله ينحى منحىً جديداً، ومن المهارة ومعرفة الإجراءات السياسية ما مكنه من وضع ثورته السياسية موضع التنفيذ.. بالطبع كانت العراق النقطة الرئيسية وذلك لأنه لم يكن من الممكن وجود أكثر من مركز واحد للمشاعر القومية العربية؛ أو الأجدى لا يجوز أن يوجد؛ ومن المناسب أن يكون هذا المركز فى المنطقة البريطانية لا الفرنسية".

أسرّت بِل إلى أحد الأصدقاء قائلة "لقد كان رائعاً. حاز مستر تشرشل على الإعجاب، كان على استعداد تام للقاء الجميع فى منتصف الطريق، بارعاً فى توجيه الاجتماعات الكبيرة، وتسيير أمور اللجان السياسية الصغيرة الى قُسمنا إليها. كان من محاسن الصدف أننى والسير بيرسى حينما توصلنا إلى برنامج محدد وجدنا أنه لدى فتحنا مظاريفنا ان برنامجنا يتطابق تماماً مع البرنامج الذى توصل إليه وزير الخارجية. إننى على اقتناع بأن الخط العام الذى تم تبنيه هو الخط الوحيد الذى يُعطى أملاً حقيقياً فى النجاح".

كانت چرترود مارجرت لوثيان بِل هجيناً مميزاً، جزئياً، امرأة عصرية جديدة، وجزئياً امرأة فيكتورية محتشمة. كانت تماثل شخصيات بعض مسرحيات چورچ برنارد شو، وروايات هنرى چيمس. كانت تخطو وهى ترتدى فستانها الباريسى وتلتزم بسلوك البريطانيات المحافظات إلى داخل خيمات شيوخ العشائر بخطوات ذكورية واثقة. كثيراً ما تكون الكُنَى علامات دالة على الشخصية مثلها مثل العلامات المائية على الورق. كان ويلسون يُكنّى بالحرفين "إيه تى"، كنية موجزة لا معنى لها. على حين أصبحت كنية السير بيرسى هى "كوكوس" وفقاً للنطق المحلى لاسمه Cox. فى عام ١٩١٧ كتبت چرترود من بغداد إلى أسرتها معلقة على تلك الألقاب: "يدخل لفظ كوكس سريعاً إلى اللغة العربية، ليس كاسم، بل كلقب مثل استخدامهم للفظى فرعون وكسرى. أوصف الآن بأننى كوكوسة مؤنث كوكوس. أليس هذا لذيذاً".

بعد أن ترسخت سلطتها أصبحت تلقب بالختون، كونها سيدة مهمة، وغدت واحدة من القلة من ممثلى حكومة جلالة الملك الذين يتذكرهم العرب بشىء يماثل مشاعر الود.

وُلدت كوكوسة عام ١٨٦٨، ابنة خضراء العينين، بُنّية الشعر للسير هيو بِل صاحب مصانع الحديد الثرى المثقف، وزوجته مارجرت التى توفيت حينما كانت

جرترود فى الثالثة. وحسب تعبير جيمس موريس الدقيق، نمذجت عائلة بل من إقليم ديرام توجه تفكيرهم الليبرالى "عاشوا فى يسر وسخاء، قرءوا كثيرا أصبحوا بارونات وزملاء فى الجمعية الملكية، بنى لهم فليب ويب منازلهم، وصمم ويليام موريس ديكورات صالوناتهم". كان مستقبل جرترود الفكرى الواعد جليّاً منذ طفولتها. فى سن العشرين، أصبحت ميس بل أول امرأة بجامعة أكسفورد تتأهل لدرجة جامعية بمرتبة امتياز (First Class) التى يطمح إليها الكثيرون من الطلبة النابهين، فى التاريخ. قالت لمتحنها، إس. آر. جاردينز، المرجعية العظيمة فى تاريخ أسرة ستوارت الملكية، إنها "تختلف مع تقييمه للملك تشارلس الأول". (بيد أنه كان من غير المسموح للنساء أن يحزن على درجات جامعية من أكسفورد حتى عام ١٩٢٠).

بعد ذلك، اضطلعت بجسارة مركَّزة، برحلة سفريات كبرى مرهقة، وتراوحت الأماكن التى زارتها بين أعجوبات أوروبا الثقافية والطبيعية، والحوارى المتربة للشرق الأوسط العثمانى. تركت وهى فى مصر، بطاقتها مع اللورد كرومر. كانت هذه بداية صداقاتها التى دامت مدى الحياة مع اللوردات النافذين ذوى السطوة – كرومر – كيرزن، وروبرت سيسل. شاركتهم فيما بعد آراءهم المعارضة لحقوق المرأة، كما أهدت أحد كتبها إلى اللورد كرومر. يعطينا مجتزأ من يومياتها (٢ يونيو ١٨٩٨) فكرة عنها وهى فى الثلاثين، أو عن ذلك الدينامو المتحرك: "استيقظتُ فى الخامسة صباحاً وذهبت إلى الأهرامات. أكوام من الجمال العرب، الحمير، الفلاحين تعبر الكوبرى. نساء متشحات بالسواد، ذوات قوام رائع، يحملن غالباً أشياء على رءوسهن. اخترقتُ حدائق الجيزة، ثم الطريق الطويل الذى ينتهى بالأهرامات التى تقف حارسة على حافة الصحراء التى ترتفع عن الوادى والمليئة بالصخور والتلال الرملية. وقفت أسفل منزل بناه الخديوى إسماعيل لولى عهد إنجلترا. خرجتُ وسُرت إلى أبوالهول يتبعنى عرب يرتدون ثيابا بيضاء وعبايا

سوداء، طوال القامة أوجههم جميلة ومعهم الجمال. يبرز رأس أبوالهول الصغير المستدير فوق الرمال، وجهه خالٍ من التعبير ينظر من على السهل إلى الصحراء المقابلة والشمس ساطعة على وجهه. يمتلئ محيطه بتلال رملية صخرية وكأنما أنقاض معركة بين عمالقة. عينان واسعتان مفتوحتان تنظر وتنظر وتنظر وتنوّمك مغناطيسياً. هبطنا إلى معبد أبوالهول، ثم امتطينا الجمال إلى الهرم الثالث حيث دُفِعنا وجُذِبنا إلى داخله وخارجه، ثم عدنا إلى المنزل. كان ترجماننا يدعى حسن. توقفنا بمتحف الجيزة المبهر: مومياوات رهيبة مثيرة؛ امرأة متوّجة بالأزهار؛ كاهنة مسنة ترقد على جانبها تماماً كما كانت لحظة وفاتها، تماثيل لبانى الهرم الثانى، رهيفة بشكل استثنائى، تمثالان عملاقان لإلهين، مومياوات إغريقية ورومانية بصور على صناديق المومياوات. عدت إلى الفندق حيث تركتُ موريس وذهبت إلى القلعة، ثم مسجد حسن الأول؛ والمسجد غير المكتمل المواجه له والذى بدأته أم الخديوى إسماعيل ولم تكمله؛ منظر بديع من القلعة مجرى العيون، والأهرام، وأهرام سقارة عن بعد؛ هرم دهشور يحجبه الضباب والغبار، جامع عمرو بن العاص بمصر القديمة، وقباب ومآذن كثيرة".

لكن لم يكن فى القاهرة، بل فى لندن، ان التقت بِل بصديقة أخرى دامت صلتهما مدى الحياة، أى الليدى آن بلانت زوجة ويلفريد سكاون بلانت. كتبت ليدى آن، التى كانت مولعة بالأسفار وركوب الخيل، تعبر عن إعجابها بزميلتها الأصغر سناً. وعلى الرغم من فرق العمر البالغ ثلاثين عاماً، كتبت بلانت فى مذكراتها قائلة إن بل كانت "حيوية بطبيعتها، تعشق الكلام، تتمتع بنشاط جسمانى هائل.. وإلى جانب معرفتها الاستشراقية، تهتم بالقراءة العامة، الصور واللوحات، المجتمع، والصيد؛ كما أنها متسلقة جبال ماهرة وقامت بعدد من الرحلات المغامرة".

فى عام ١٩٠٥ وجدت جرترود نفسها فى بيروت "فى أعماق الشائعات الشرقية". ثم غامرت عبر الصحراء السورية إلى منطقة جبل الدروز وهى رحلة

لخصتها فى كتابها "الصحراء والأراضى المبذورة". وأفسدت بذلك فى نفس الوقت فرص أحد الرحالة الآخرين الذى له مثل صيتها، أى مارك سايكس الذى لم يستطع الحصول على تصريح المرور الضرورى من الأتراك بسبب أفعال بِل الطائشة. كتب لزوجته يقول "١٠٠٠ من أسوأ الألفاظ التى فى جعبتى على رأس تلك الحمقاء الملعونة". (كانت قد أخبرت، أحد الحكام المحليين، فيما بدا وأنه بدون قصد، أن صهر السير مارك هو رئيس وزراء مصر، على حين كان السير چون إلدون جورست مستشار الخديوى المالى فقط). وصفها سايكس لإيديث بقوله إنها "عاهرة"، "كذابة جهنمية"، "رعب الصحراء" وبأنها "ثرثارة متبجحة مغرورة مندفعة، مسترجلة، صدرها مسطح، جوّالة فى أنحاء الأرض، جحشة هاذرة تهزهز مؤخرتها". وبدورها، اتهمت بل سايكس بأنه يضخم نفقات الأسفار ويدفع أموالاً مبالغاً فيها نظير الخيول والبغال والحمير والترجمانات.

عَزت بِل قدرتها على البقاء بمفردها ودونما مساعدة، هذا على الرغم من أنها كانت تملك من الموارد المالية ما يمكّنها من استئجار ٢٠ ناقة، وفرِق من البغالين والترجمانات لنقل الخيام والبياضات والأوعية الخزفية الرهيفة وأطقم السفرة الفضية ومعها أدوات قياس الزوايا والبنادق للاستخدامات العملية، عَزت قدرتها هذه إلى كونها إنجليزية. قالت إن أسهم البريطانيين كانت قد ارتفعت فى العالم منذ خمس سنوات وذلك بسبب أصدقائها اللوردات من أمثال كيرزن وكرومر: "أعتقد أن نجاح حكومتنا فى مصر هو ما يأخذه المتعلمون، إلى حد كبير، فى الاعتبار هؤلاء الذين يرون ان باستطاعة إخوانهم فى مصر أن يكتبوا ويدرسوا كما يحلو لهم. تمثل هزيمة روسيا (بين عامى ١٩٠٤ و١٩٠٥ فى الحرب الروسية/ اليابانية) أهمية كبيرة، وانطباعى هو أن لسياسة اللورد كيرزن فى الخليج الفارسى وعلى الجبهة الهندية أهمية أكبر وأكبر. لا يستطيع من لا يعرف المشرق ارتباط كل هذا ببعضه. لا أعتقد أنه من المبالغة القول إنه لو كانت الحملة الإنجليزية قد طردت

من على بوابات كابول لكان السائح الإنجليزى شخصاً غير مرحب به فى شوارع دمشق".

وبعد أن صقلت مهاراتها فى عمل مسوحات للأماكن فى الجمعية الجغرافية الملكية بلندن، قامت بِل، فى رحلات لاحقة لها بالشرق الأدنى، برسم خرائط مناطق قفْر لم يكن قد جرى مسح لها من قبل. ترك لنا السير ويليام ويلكوكس، الذى كان يقوم بعمل مسح كبير لمنطقة ما بين الرافدين حينما التقاها، ترك لنا صورة لتلك الرحالة الجسورة. "كان ثمة فريق من راكبى الجمال يتجه نحوى. كان من الواضح أن جميعهم عرب باستثناء ما بدأ وأنها امرأة. وفيما كانوا يقتربون سمعت من يوجه إلى التحية الإنجليزية. كانت جرترود بِل وقد وصلت لتوها من رحلة الخمسمائة ميل عائدة من دمشق. لم أكن أتوقع مقدمها، وكدت لا أصدق عينى حينما رأيت امرأة أنيقة نظيفة المظهر بالرغم من الأسابيع التى قضتها فى الصحراء. لم أنس أبداً هذا الانطباع اللافت".

وبعد رحلة أخرى استمرت خمس ساعات امتطت فيها بل ظهر ناقة، هبطت على موقع كركميش. الحيثى، حيث قابلت شابين أركولوچيين هما كامبل طومسون، وتى. إى. لورانس. ورغم أنهما قالا إنهما يعملان على غربلة الرمال، فقد كانا أيضاً يراقبان الألمان الذين كانوا يبنون جزءاً من خط سكك حديد برلين- بغداد بالقرب منهما. أرياها ما عثرا عليه، فيما هى صوبت فى نظرة استهجان إلى حفرياتهما قائلة إن طريقتهما تنتمى إلى عصور ما قبل التاريخ. مضت، وقد كانت قد قدمِت مباشرة من المواقع الألمانية التى حُفرِت بدقة متناهية تلقنهما الدروس عن أساليب الحفر الحديثة. صمم الرجلان على "سحقها باستعراض ثقافتهما وعلمهما". ووفقا للورانس "اصطحبناها (فى خمس دقائق) إلى آفاق معمارية بيزنطية، صليبية، رومانية، حيثية، وفرنسية (قمت أنا بهذا)، وإلى آفاق الفنون الشعبية الإغريقية، المعمار الآشورى، وأعراق ما بين النهرين (طومسون) ثم تكفلتُ بأن أحدثها عن

خزفيات وعدسات ما قبل التاريخ المُقرِّبة، وعن تقنيات معادن العصر البرونزى، وأيضاً عن الكاتب مريديث، وأناتول فرانس والأكتوبربين، ومضى طومسون يخبرها عن حركة تركيا الفتاة، وأسعار ركوب الجمال، وعادات الدفن الآشورية وأساليب الحفر الألمانية ومعها سكة حديد بغداد". كان ذلك مجرد مقبلات، ثم جلسوا لتناول الشاى فيما بدت جرترود "مترنحة ومنبهرة فى آن" وفقاً للورانس الذى وصفها بأنها "لطيفة، فى حوالى السادسة والثلاثين" (كانت فى الثالثة والأربعين) ليست على شيء من الجمال (إلا إذا ارتدت حجاباً). قالت بل عن لورانس إن سيصبح "رحالة متميزاً" مذاك، غدا "الصبى العزيز" و"جرتى" صديقين حميمين طوال حياتهما.

تركتها مغامراتها القصيرة، الفاشلة للارتباط بالرجال، وكانت أكثرها جدية مع رجل متزوج هو الماجور تشارلس هوثمان مونتاجيو الذى مات فى غليبولى، ومُنح بعد وفاته وسام صليب فيكتوريا، تركتها حرة لتركز على أسفارها. توغلت ما بين عامى ١٩١٣ و١٩١٤ عميقاً فى صحراء الجزيرة العربية فى رحلتها الشهيرة إلى حايل، حيث التقت ابن رشيد أمير منطقة جبال شمر الوسطى. حازت على الميدالية الذهبية من الجمعية الجغرافية عام ١٩١٤ عن هذه الأسفار. (كانت أيضاً إحدى أوليات النساء اللاتى انتُخبن زميلاً بالجمعية عام ١٩١٣).

وعلى الرغم من ذلك، كانت تعانى نوبات اكتئاب تسبب فيها "شك عميق عما إن كانت "تلك المغامرة، بعد كل شيء، تستحق كل هذا العناء والإنفاق. ليس هذا بسبب الأخطار - لا آبه بها - لكننى بدأت أعجب أى ربح سيعود علَىّ منها. تجوال وعبور لبلد كان معروفاً بشكل أو آخر، إضافة بضعة أسماء للخريطة - أسماء جبال حجرية وسهول جرداء، وبئرين صحراويين عميقتين (كنا نتزود بالمياه من بئر آخر) - وربما كان هذا كل شيء.. أكاد أتمنى حدوث شيء ما - شيء مثير، غارة أو معركة.. ثمة طريق طويل بينى وبين الخطابات، أو بينى وبين أى شيء، ولا أشعر

أننى ابنة ملوك كما يظنوننى هنا. من الممل أن تكون امرأة فى بلاد العرب". بعد وفاتها، امتدحها الأركيولوچى دايڤيد هوجارث، الذى ربطته بميس بِل صداقة وإعجاب لوقت طويل، وأبدى تقديره لهذه الرحلة الرائدة بالذات التى، إلى جانب مراكمتها كمية كبيرة جداً من المعلومات عن القبائل فقد "وضعت على الخريطة خطا من الآبار، لم تكن هناك، أو كانت غير معروفة، وأيضاً، ألقت ضوءاً جديداً على تاريخ تخوم الصحراء السورية؟

ومع معرفتها المباشرة بشيوخ القبائل والعشائر المحليين، ومهاراتها فى رسم الخرائط، أصبحت بل فى وضع يسمح لها، لدى اندلاع الحرب العالمية الأولى، وبعد أن تخيرت تركيا العثمانية بحماقة بعد تردد أن تنضم إلى جانب الإمبراطوريتين الألمانية والنمساوية / النغارية، وضع يسمح لها بتقديم الخدمات إلى بلدها فى منطقة الشرق الأوسط[1]. سافرت فى نوفمبر ١٩١٥ إلى مصر لتلتحق بالمكتب العربى الذى كان قيد التكوين آنذاك بالقاهرة. كانت مهمة المكتب، وتحت إشراف الجنرال كلايتون، هى جمع الاستخبارات، ورسم الخرائط، وتوليد البروباجندا، وحفز العرب للثورة على الأتراك. تعاقد مديره هوجارث مع متخصصين مُجرِّبين فى أعمال الحفريات كثير منهم من جامعة أكسفورد وكان بينهم لينارد وولى، الذى اكتشف فيما بعد موقع أور (بجنوب العراق. أنقاض أور السومرية التى يرجع تاريخها إلى ثلاثة آلاف عام قبل الميلاد. وكانت عاصمة السلالتين الأولى والثالثة، ومنها نزح إبراهيم الخليل: الترجمة) وتى. إى. لورانس. بدأت تعمل على كتيب عن قبائل البدو فى شمال الجزيرة العربية وأنسابها المعقدة.

وجدت بِل نفسها، أثناء عشاء بفندق السافوى "الشيك" بالقاهرة حيث كان

(١) اى انها عملت جاسوسة تخطط لكى تكسب إنجلترا الحرب دون اى اعتبار لمصالح بلدان المنطقة (الترجمة).

المكتب العربى يحتل ثلاث غرف مكاتب له مجهزة بكل شىء حتى مراوح السقف الكهربائية، وكان بين الحضور عدد من ضباط الأركان يرتدون البوتس الصحراوية ويحملون عصيهم القصيرة، وجدت نفسها تدخن السيجارة فى أعقاب الأخرى، وتتفق مع زملائها على ما أصبح يعرف بـ"إجماع القاهرة". فى خطوطه العريضة، رأى المسئولون البريطانيون بالقاهرة أن طموحات فرنسا لما بعد ا لحرب فى سوريا كانت لا تُحتمل ويجب مقاومتها بعنف، وأن المرشح المرجح لقيادة ثورة عربية تدعمها إنجلترا هو الشريف حسين، شريف مكة وملك الحجاز، وليس منافسه عبد العزيز بن سعود الحاكم المحارب للإقليم الشرقى من بلاد العرب والمتزوج من ست وخمسين امرأة، والذى يعتنق المذهب الوهابى البيوريتانى المتشدد.

بعد عام، حينما التقت ابن سعود، أسرَها رجل بلاد العرب القوى وقالت عنه "شخص فذ - أحد أكثر الشخصيات الذين التقيتهم إبهاراً رائع المظهر" - قارب طوله المترين - ثم مضت وقد ملأها الحماس تقول "يملؤه الجلال والوقار ورباطة الجأش". أما ابن سعود وإن كان لنا أن نصدق ما قاله إيتش. إس. جيه. فيلبى فى هذا الصدد، فقد أبهر المحيطين به وهو يقلد نغمة صوت بِل العالية وهى تقول: "أبدو الأزيز (عبدو العزيز)! أبدوا الأزيز انظر إلى هذا! ما رأيك فى ذاك؟".

وعلى الرغم من أنها استمرت أسيرة العمل مع زملائها بفندق سافوى إلا أن فترة إقامتها بالقاهرة كانت وجيزة. بعد مجرد شهرين، كانت على ظهر سفينة نقل الجنود SS Euripides فى طريقها إلى الهند بدعوة من اللورد هاردينج نائب الملك بالهند الذى كان صديقاً لأسرتها، هذا على الرغم من أن الأرجح هو أن فالنتاين تشيرول، مراسل التايمز، كان هو الذى اقترح دعوتها. كانت العلاقة بين العاملين البريطانيين بالقاهرة ودلهى قد تدهورت بدرجة أن بِل كتبت قائلة إنه "لا يوجد أى اتصال بيننا سوى تبادل البرقيات الغاضبة". كانت مهمتها هى "إرساء علاقات ودية مباشرة، بحيث يتوقف الطرفان عن النظر لبعضهما على أنهم حفنة من الأشرار".

قضت بِل وقتها بالهند تدرس الملفات الاستخبارية وتساعد على تجميع مادة لدورية جازيت أوف أرابيا، وتحاول أن تصل إلى أفضل أسلوب تستطيع به الهند، التى كانت طبقتها السياسية تخشى من تمرد داخلى للمسلمين، والقاهرة التى كان الخبراء البريطانيون بها يراهنون على اندلاع ثورة عربية بقيادة الهاشميين، "إلى أسلوب يستطيع به الطرفان التعاون معاً بحيث لا تتقاطع إجراءاتنا أو تتكرر.. يبدو من المنطقى أنه لا يجوز لنا أن نعمل منفصلين فى غرف محكمة، لكن هذه الفكرة لا تسيطر على التعاملات الرسمية، هذا على الرغم من أننى أجد أن الجميع على استعداد لقبولها بمجرد أن تناقش". لكن، وطوال فترة الثورة العربية، مضى رجال حكومة الهند البريطانية يعبرون عن شكوكهم حول حِكْمة البريطانيين الذين يعملون بمكتب القاهرة و"يزعمون" أنهم محبون للعرب.

حينما زارت بِل دلهى كان الجميع يتحدث عن المعركة الكبيرة التى تدور رحاها بمدينة الكوت بين الأتراك والجيش الأنجلو/ هندى. هناك ناقشت چرترود الحملة الحربية فى أرض الرافدين مع كبار المسئولين البريطانيين بدءاً من نائب الملك. فى بداية ربيع ١٩١٦، بعث اللورد هاردينج چرترود بل إلى البصرة وكانت ما زالت لا تتقاضى راتباً، ومعها خطاب توصية قوى إلى پيرسى كوكس الذى كان يعمل آنذاك كبير المسئولين السياسيين جاء به "إنها امرأة ماهرة بدرجة لافتة، لها عقل رجل". نقلها ضباط قوة الحملة الهندية إلى شرفة لطيفة خلفها غرفة معتدلة الحرارة، حيث ساعدت على رسم الخرائط وأوصت ببعض الرجال لإرشاد الجيش الذى كان يكافح باتجاه بغداد. وجدت أنها كانت بحاجة لجميع من لها صلة بهم لكسب العشائر المحلية ومشايخها من أجل الحصول على مساعدة لهزيمة الأتراك وتحويل العشائر للوقوف فى صف البريطانيين. تحدث أحد المشايخ إلى أتباعه قائلاً: "نعلم جميعنا أن الله خلق المرأة أقل مرتبة من الرجل. إذا كانت جميع نساء الإنجليز مثل هذه المرأة، فلابد وأن رجالهم يضاهون الأسود قوة وشجاعة ومن الأفضل لنا أن نسالمهم".

تعاطى العاملون السياسيون بمكتب السير پيرسى مع بِل بأقصى درجات الشك. كانوا يتجاهلونها، بمطعم الضباط ووصفوها بالغرور، ومضوا يحاضرونها عن "قانون الأسرار الرسمية" ويُخضِعون خطاباتها للرقابة. لكنها ثابرت، وامتدحتها وزارة الخارجية التى ذكرت أنه لم تصل أية معلومات مهمة إلى القاهرة أو لندن قبل مقدمها.

تعاطفت بِل مع الجيش الذى كان يواجه ندرة فى الأطعمة، وحرارة جو غير معتادة. فى ٢٦ إبريل، اليوم الذى استسلم فيه الچنرال تاونسند بالكوت حيث اقتيد رجال الحامية البريطانية البالغ عددهم ١٣٣٠٩ - معظمهم هنود - إلى الأسر، فى ذاك اليوم أسرَّت فى خطاب كتبته لأسرتها بالتالى:

"لا ألتمس العذر لحكومة الهند، لكن من الإنصاف أن نتذكر أن اللورد كيتشنر القائد البريطانى، استنزف الهند تماماً فى بداية الحرب من القوات والمتطلبات الحربية بما فى ذلك المستشفيات والأطباء، وأن إنجلترا أجبرت حكومة الهند على إرسال الحملة وكان ذلك حينما تطور الوضع وأصبح شديد الخطورة - وضعاً أكبر كثيراً من أن تتعاطى معه الهند حتى ولو كانت تحوز كل مواردها - لم يكن ثمة قوات، مدفعية، وحدات مستشفيات، قوة طيران، ولم يرسَل أى شيء فى موعده بحيث يمكن الاستفادة منه. أما ما قد يكون أكثر خطورة فهو أنه كان قد تم إرسال أفضل جنرالاتهم جميعاً إما إلى فرنسا أو غليبولى حيث لم يعد كثيرون منهم أبداً.

"سياسياً أيضاً، اندفعنا فى هذا الشأن مع تجاهلنا المعتاد لخطة سياسية شاملة. تعاملنا مع بلاد ما بين النهرين وكأنها وحدة منعزلة بدلاً من كونها جزءاً من البلاد العربية ترتبط سياستها بأسلوب لا يفصم عراه بالمسألة العربية العظمى بعيدة المدى.. كان لابد لتنسيق السياسات العربية ووضع سياسة عربية موحدة أن يتم فى بريطانيا -لا يمكن أن يُنجز هذا بنجاح هنا. لم يكن ثمة من يقوم بهذا، ولم يفكر أحد أبداً فى هذا، وتُرِك الأمر لأناسنا فى مصر لرسم نوع من الخطة

العريضة التى ستشكل فى نهاية المطاف، أساساً لعلاقتنا مع العرب، وبهذا يحاولون إقناعى، وتُرك كل هذا ليفعله مسئولونا بمصر فى مواجهة المعارضة المتشددة مَن الهند ولندن. حسناً، يكفى هذا عن السياسة. لكن حينما يتحدث الناس عن خطواتنا الملخبطة المشوشة يتملكنى عظيم الغضب. نعم، خطواتنا متعثرة ملخبطة! نعم، نحن نفعل ذلك - نخوض فى بحور من الدماء والدموع التى ما كان يجوز أبداً أن تُزرف أو تُراق".

كانت تلك هى أفكار چرترود بل حينما تقاطع طريقها مع أرنولد تى. ويلسون الذى تمت الموافقة على إرساله للمركز الرئيسى لجيش الحملة بالبصرة ليتولى منصب نائب رئيسه السابق المفوض العام السير بيرسى كوكس. وحينما اتضح أنه كان ثمة حاجة لمهارات كوكس الدبلوماسية بلندن وطهران، مما اقتضى فترات غياب مستطالة، أصبح ويلسون الإدارى الرئيسى لشئون ما بين النهرين.

ذكرت چرترود بل، ما يلى فى خطاب لها لأسرتها تصف فيه الكابتن أرنولد ويلسون "لست متأكدة أنكم تدركون من هو، مخلوق شديد التميز، فى الرابعة والثلاثين، قدرات رائعة، مزيج من القوى الجسدية والفعلية، وهو أمر نادر إلى أقصى درجة". من الحقيقى، وكما فصّلت فى خطاب آخر، فقد تجاهلها ويلسون فى البداية بصفتها "مخادعة بطبيعتها تحيك المكائد"، لكنها ذكرت أن الأمر انتهى بهما بأن يصبحا "صديقين وطيدين، كما أننى أكنّ اقصى درجات الاحترام لذكائه المذهل. أعتقد أننى ساعدت قليلاً على تعلمه، لكنه يعلّم نفسه وسيصبح ذات يوم رجلاً ذا شأن. لقد أصبح أكثر تسامحاً وصبراً لدرجة كبيرة، رجل دولة كما يجب أن يكون. أحب العمل معه".

لم يبادل ويلسون بل هذه المشاعر الدافئة إلا نادراً. وكما ذكر صديق بل المتعاطف هارى سانت چون فيلبى، والد كيم سيئ السمعة، لم يجعلها ويلسون ابداً موضع ثقته فى القضايا السياسية التى كانت "تتنقل بالبرقيات المشفرة والرسائل

السرية بين مقر مجلس الوزراء البريطانية بلندن والمقر الصيفى للحكومة الهندية. وأُنكِر عليها أية معرفة مسبقة بها. وكان عليها أن تعتمد فى معرفتها لمحتوياتها على ما ينطق به ذلك الرجل "العظيم" ويزج به بأسلوب عرضى فى أحاديثه على موائد الشاى بمطعم السياسيين".

اعترف ويلسون، الذى كان أعزب، بلهجة متعالية، أنها كانت مفيدة فى تنظيم الحفلات. وفى الواقع، فإن بِل اجتذبت بمظهرها الذى ينم عن شعورها بقيمة نفسها كراهية الذكور. كانت تعرف أنها مغرورة، وفوق كل شيء، فقد كانت تفتقد اللباقة. مثال واحد يكفى. قالت فى تعليق لها على ڤيوليت، عروس زميلها هارولد ويلسون الإنجليزية "من المؤسف أن يمضى الشباب الإنجليز الواعدون ليتزوجوا مثل هؤلاء الحمقاوات". و(أصبحت بِل عضواً رئيسياً ومعها اللورد كرومر واللورد كيرزن فى عصبة معاداة حقوق الاقتراع للمرأة). وحتى كرومر الذى كان معجبا بها، كتب يقول عنها فى خطاب إلى كيرزن "لا تمتلك كثيراً من الحكمة وتمتلك لساناً".

كانت آنذاك قد أصبحت "الختون"، السيدة المهمة، من ثم اعتادت تخطى سلسلة القيادات وممارسة الضغط على رؤساء رؤسائها. منحتها قراباتها النافذة، وتعليمها النخبوى، وأسفارها العديدة فرصة الوصول إلى شبكة من ذوى النفوذ الأقوياء - تمتلئ خطاباتها بأسماء مونتاجيو، هرتزل، هاردينج، ترڤيليان، ستانلى، راسل، لاسلى، وكاڤنديش، بل حتى اسم هنرى چيمس الروائى الأمريكى المغترب، كما أنها كانت تتمتع بوضع مطلع متعضون فى الصحافة - كانت تربطها بڤالنتاين تشريل، الشاب المترف الملتحى أحمر الشعر، والذى كان محرر الشئون الأجنبية بالتايمز قبل أن يلتحق بوزارة الخارجية - تربطها به صداقة وثيقة. لم تقتصر أسلحة بِل على الحيوية وسرعة البديهة، بل أيضاً كان هناك مخزون معرفتها عن المنطقة التى غدت أهميتها الاستراتيجية تناظر جهل الطبقة الحاكمة وتشوشها بقبائلها المشاكسة وعقائدها المتصارعة.

وعلى الرغم من مصاعبها مع ويلسون، اتفق كوكس والمسئولون بالقاهرة ودلهى على أن تبقى بِل هناك، مؤقتاً، وتحمل لقب "السكرتير الشرقى"[1] بمرتب ثلاثمائة روبية، مما جعلها الأنثى الوحيدة التى تعمل مسئولاً سياسياً فى القوات البريطانية (كان مرتبها خُمس ما يتقاضاه ويلسون وغيره من الرؤساء وأقل من نصف ما يتقاضاه موظفو البريد)، كتبت تقول لوالدها "لا أستطيع بأى حال أن أغادر المكان الآن" وعبرت عن أملها عن أن يكون لها "سلطة حاسمة فى القرارات النهائية.. إنه لأمر مذهل.. إن عالماً جديداً يُصنع الآن". فى تلك الأثناء أسهمت بمقالات فى دورية أريبيان ريپورت Arabian Report التى يحررها هوجارث وذى آراب بولتين The Arab Bulletin اللتان كانتا تُعتبران افضل مصدر معاصر فى حرب الصحراء. لكن أمل بِل فى تقريب بغداد من آراء المكتب العربى بالقاهرة كان بلا جدوى إذ كان كل من كوكس وويلسون ثابتين فى معسكر دلهى.

فى ١١ مارس ١٩١٧، استولت القوات الأنجلو/هندية على بغداد، وقد قوبل هذا النصر بالتهليل وسيْل من الأوسمة فى لندن لأنه ساعد على محو ذكريات المهانة بالكوت. عادت جرترود بِل، التى كان شعرها، كما علقت هى، قد أصبح أبيض، للاستقرار ببغداد. وهناك فى بيت من طابق واحد على شاطئ النهر، مخبّأ بالأسلوب العربى خلف جدار عالٍ بشارع ضيق (أسماه مرءوسوها متفاكهين زقاق العفة) كانت تقيم حفلات الشاى فى أيام الآحاد (أصبحت تلك العصارى تُعرَف PSAs أى Pleasant Sunday Afternoons). ثم، وبناء على اقتراح كوكس، كانت تدعو زوجات الوجهاء العرب أيام الثلاثاء لتناول الشاى معها، وكانت غالبيتهن مُحجبات. زرعت فى حديقتها الواسعة الورود، وفرضت شجيرات الزهور

(١) وفقاً لتعريف السير رونالد ستورز نفسه فإن "السكرتير الشرقى بالقاهرة، أى الشخص الذى يحتل هذا الموقع الرئيسى وهو "أعين، آذان، مؤول، واستخبارات و(بالمعنى العسكرى)، رئيسه ويحتمل أن يصبح أكثر من هذا كثيراً". (المؤلفان)

الإنجليزية المستوردة - النرجس البرى - الهوليهوك، والأقحوان - على مشهد بغداد القاحل بنفس درجة الضراوة التى طبّقتها فيما بعد، بصفتها المسئولة الإمبريالية، على المهام التى أوكلَتها إلى "مشايخ القبائل والعشائر القليلين الممتازين التى أناطت بهم المسئوليات وحفظ النظام".

فى عام ١٩١٤، كان إيه. تى. ويلسون قد كتب يقول "أود بقوة لو شهدت إعلان ضم بلاد ما بين النهرين للهند كمستعمرة للهند والهنود" وأن أشهد صحاريها القاحلة تسكنها "أعراق محاربة من البنجاب". أعتقد أن العراق، تحت الحكم البريطانى المباشر ستصبح "جوهرة متلألئة فى التاج البريطانى". سيتطلب الدفاع عن أرضها جهود جميع ولاة بغداد والبصرة والموصل العثمانيين. ومن الحقيقى أن الإقليم الأخير "الموصل" كان قد وُعِد لفرنسا لكن بدأ الآن وأن المنطقة قد تكون غنية بالنفط (بدأ الحفر عام ١٩٢٧) وإنه بالإمكان استخدام عائداته لتمويل الدولة البازغة. آنذاك، وافقت بِل على معظم هذا، وكتبت إلى تشيرول تقول إن هذا سيتسبب فى حدوث تشوش واهتياج.

رأت فى خطاب إلى والدها أنه "لا يحدث كثيراً أن تبلّغ الشعوب بأن مستقبلهم كتول فى أيديهم ويسألوا عما يريدونه (فى هذا الخصوص)". لكنها قالت إن جميع الأهالى تقريباً فى بلاد الرافدين يتفقون على نقطتين. "يريدوننا أن نتحكم فى شئونهم ويريدون أن يكون السير پيرسى هو المندوب السامى. وفيما عدا ذلك فهناك اختلافات. يريد غالبية أهالى المدن أميراً عربياً لكنهم لا يستطيعون تحديد الشخص. عقيدتى (رغم أنه ليس بإمكانى بعد أن أعرف تحديداً) أن الجماعات القبلية فى المناطق الريفية لن يرغبوا فى أمير طالما أن بالإمكان أن يكون السير پيرسى هو من يحكمهم - له صيت هائل بينهم - وأعتقد شخصياً أن هذا هو الأفضل. إن إقامة بلاط وسلطة لأمر جلل".

لم يكن أهل السنة الحضريون هم من مثَّلوا المشكلة العظمى، الأحرى بل كانوا الشيعة الذين وصفتهم قائلة "المواطنون الوَرِعون المتجهمون الموجودون بالمدن المقدّسة وبخاصة المرجعيات الدينية، المجتهدون الذين يؤولون الألفاظ كما يرون وفقاً لسلطتهم التى تستند إلى إلمامهم الوثيق بالمعارف المتراكمة التى لا علاقة لها بالشأن الإنسانى ولا قيمة لها فى أى فرع من النشاط البشرى". كان التحكم فى مدينتى النجف وكربلاء المقدستين أمراً ملحاً، لكن لم يكن لدى بِل سوى أوهى السبل للوصول إلى قادتهم الذين كان ابرزهم هو آية الله العظمى السيد إسماعيل الصدر (جد السيد مقتدى الصدر الذى يمثل إله الانتقام لقوات الاحتلال الأمريكية فى الوقت الراهن). كانت لا تستطيع الوصول إليهم، وفقاً لما قالته لأن "تعاليمهم تحظر عليهم النظر إلى امرأة غير محجبة، وتعاليمى تحظر علىّ ارتداء الحجاب"، (ليس من قبيل الخيال القول إن تاريخ العراق كان سيختلف لو أن بِل، التى كان لها تأثير نافذ على السير بيرسى، استطاعت إقامة علاقة عمل وثيقة مع القادة الشيعة كتلك التى كانت لها مع الوجهاء السنّة).

فى تلك الأثناء، كانت بِل تقضى وقتها تسافر فى أنحاء الريف ممتطية الجواد، أو راكبة السيارة، تزور شيوخ العشائر وتعود إلى بغداد بهدف إقامة، وكما علقت إحدى الصحف ساخرة مستاءة، حكومة بريطانية ومعها مستشارون عرب بدلاً من الحكومة العربية والمستشارين البريطانيين كما كان الأهالى قد وُعِدوا. كتبت بِل تقول "إنها لعبة مسلية حينما تكون على معرفة تامة بالبلد مثلى، فأنا أكاد أعرفها جميعها. أليس من حسن الحظ البالغ أننى قد قطعتها ذهاباً وإياباً، فى جميع الاتجاهات تقريباً؟".

أثملتها سطوتها تلك - كتبت خطاباً لعائلتها تقول "أشعر أحياناً وكأننى الخالق فى منتصف الأسبوع. لابد وأنه، وقتئذ، كان يتعجب بشأن ما ستكون عليه خليقته" ثم وقّعت الخطاب: المحبة، المندوب السامى: جرترود. لكن النوايا الحسنة التى كانت

قد عبّرت عنها تجاه رئيسها قد بدأت تتدهور فيما تشعبت آراؤهما حول مستقبل العراق حينما انتدبها ويلسون لتمثل المصالح البريطانية فى مؤتمر باريس للسلام. وبمجرد وصولها هناك، وقعت تحت تأثير تى . إى. لورانس والتقت بصنيعته الأمير فيصل.

ذكرت بأسلوب عملى فى خطابٍ لها لأسرتها "سأتناول الغداء غداً مع المستر بلفور. آمل أن أتمكن من الإمساك بلويد چورچ من ذيل سترته إذا استطعت وأعتقد أن بإمكانى كسب تعاطفه مع آرائى. فى تلك الأثناء، أرسلنا فى طلب حضور الكولونيل ويلسون من بغداد، والمستر هوجارث من القاهرة - الأخير بتحريض منى - وحينما يحضران سأقترح أن نكوّن كتلة صلدة ومعنا المستر لورانس ونقدم رأياً موحداً". بخلاف ذلك، كان رفيقها الدائم هو تى. إى . لورانس الذى مضت تدعوه بـ"العفريت الصغير" و"الصبى الشقى العزيز".

كان لورانس مرشدها إلى مطاعم باريس الفخمة بعينيه اللازورديتين وزيه الكاكى وغطاء رأسه العربى. وبعد عشاء آخر، "شرح لورانس الوضع بين فيصل وأهالى سوريا من ناحية، وفرنسا من ناحية أخرى، والخطوط العريضة لبرنامج الاتفاقية الممكنة.. فعل ذلك بأسلوب يحوز الإعجاب.. ترك سحره، بساطته، وإخلاصه أثراً عميقاً وأقنع مستمعيه".

قدّم لورانس بِل إلى فيصل. وكعادتها فى الافتتان بمن تراهم، أُعجبت بِل بوجه فيصل الذى يماثل وجه الصقر، وحسّه الفكاهى الماكر، وبساطته وصدقه، تلك السمات التى كان يعبر عنها أحياناً بلغة فرنسية محببة تعلمها فى المدرسة بالآستانة. لكنها لم تكن الوحيدة التى أسرها سحره. عبر عن ذلك أحد المراقبين الأمريكيين بلغة محملة بالأفكار الاستشراقية حيث قال عن الأمير إن "صوته يعبق بعطر البخور ويوحى بوجود الأرائك زاهية الألوان، والعمائم الخضراء، وبريق الذهب والمجوهرات".

فى طريق عودتها من فرنسا، زارت بِل دمشق حيث اعترفت بأن "الحكومة العربية أسوأ من حكومة الأتراك فى جميع المناحى بدرجة ملموسة". رددت فى تقريرها المعنون "سوريا فى أكتوبر ١٩١٩" قولها بأن الحكومة المحلية تحت إمرة فيصل(١) تركت الكثير مما هو مطلوب لكنها إذا فشلت سيكون ذلك بسبب "عدم مبالاة البريطانيين وطموح الفرنسيين". انتهت إلى أنه ليس ثمة خيار للبريطانيين سوى دعم قيام حكم ذاتى عربى فى بلاد ما بين النهرين (بعث ويلسون بمقترحاتها هذه ومعها مذكرة تغطية بتعليقاته الخبيثة: زعم أن اقتراحاتها بإمكانية قيام دولة يحكمها العرب فى بلاد ما بين النهرين كحلٍّ عمليٍّ ذى شعبية كانت "خاطئة").

بعد إطاحة الفرنسيين بفيصل عن عرش سوريا، غدت بِل نصيره الذى لا غنى عنه فى بغداد. كانت قد كتبت فى ورقة نبوئية قبل ذلك تقول:

"إن الاتحاد السياسى مفهوم غير مألوف فى مجتمع لازالت تشوبه إلى حد بعيد سمات أصوله القبلية وعناصر التنظيمات القبلية الكثيرة التى تعمل على تمزقه.. إن الشخص الوحيد الذى يمكن اعتباره رئيساً صوريا ممكناً هو ملك الحجاز (الشريف حسين والد فيصل)، ورغم أن من المحتمل له ان يكون ممثلاً للوحدة الدينية بين العرب، فلن تكون له أية أهمية سياسية حقيقية، ولأن غالبية سكان بلاد مابين النهرين من الشيعة، فليس لاسمه أهمية هناك.. يعتبر وضعه الدينى مكسباً، وربما كان هذا هو العنصر الوحيد الموجود للاتحاد. لكن لا يمكن تحويله إلى تسيّد سياسى".

لكن انقلابها المفاجئ ودعمها للهاشميين كان له أن يؤدى إلى صراع مباشر مع ويلسون الذى حمّل لورانس وفيصل مسئولية مشاكل الحدود العراقية/السورية التى كانت قد أخذت تتحرك شرقاً مع بداية عام ١٩٢٠. أعلن العراقيون فى دمشق ان العراق يجب ان تصبح ملكية يحكمها عبد الله شقيق فيصل. لكنها كانت تتفق مع

(١) كان فيصل ملكاً لسوريا من مارس ١٩٢٠ وحتى هزمه الفرنسيون فى معركة ميسلون (٢٧ يوليو ١٩٢٠) كان يتصور تشكيل مملكة موحدة من سوريا والعراق تحت إمرته. (المؤلفان)

رئيسها (ويلسون) حول نقطة واحدة: كان ثمة حاجة لمزيد من القوات. لم يكن بوسع ويلسون ان يتوقع ان يحكم ١٥٠٠٠٠ميل مربع بواسطة سبعين ضابط شرطة، لكنه رأى أن الانسحاب كان يمثل أسوأ خيار. "إذا تركنا هذا البلد يذهب إلى الجحيم سيعنى هذا إعادة التفكير فى وضعنا فى آسيا بأكملها. إذا تركنا ما بين النهرين، سنفقد بلاد فارس حتمياً وبعدها الهند. وسيحتل المكان الذى نتركه سبعة شياطين أكثر سوءاً بكثير من أى شىء كان موجوداً قبل مقدمنا".

تم توزيع سلطات الانتداب على أراضى الإمبراطورية العثمانية سابقاً فى مؤتمر سان ريمو فى إبريل ١٩٢٠: تظل الجزيرة العربية مستقلة؛ تذهب سوريا إلى فرنسا، وما بين النهرين وفلسطين إلى بريطانيا. ثم حدث بعد ذلك وأن انفجر "بركان" تشرشل "الجاحد"، أى العراق. سعى القوميون إلى استقلال تام، واندلعت التظاهرات ضد الانتداب فى مايو أثناء شهر رمضان ببغداد؛ نادى رجال الدين فى مساجد السنّة والشيعة بالجهاد. واثناء الصيف، وفيما انتشرت الثورة، سقط الكولونيل جرالد ليتشمان الذى كان يماثل لورانس من حيث شخصيته الأسطورية، لكنه كان مكروهاً إلى أبعد الحدود لأنه كان يدعو إلى قتل المتمردين بالجملة، سقط فى كمين وقُتل بالقرب من الفلوجة. (بعد سنوات طويلة، تلقى صدام حسين البندقية ماركة Brno التى استخدمها الشيخ ضارى فى قتل ليتشمان هدية فى عيد ميلاده. عُرضت فى مكان بارز بمتحف قائد النصر). دعا القادة الشيعة بالنجف وكربلاء والكاظمية، بمساعدة عملاء فيصل الذين عبروا الحدود السورية، إلى وحدة السنة والشيعة وحرّضوا أتباعهم ضد البريطانيين. فقط بغداد هى التى ظلت هادئة، وكان ذلك، جزئياً، بسبب جهود السيد طالب، أكبر أبناء نقيب البصرة السنى، والذى كان قد عاد مؤخراً إلى العراق بعد منفاه فى الهند الذى أجبرته عليه بريطانيا. علقت بِل، والتى كانت قد استفاقت من أوهامها، على الوضع بالعاصمة "إن عدم وجود سوى قلة قليلة من الحكماء – أى أشخاص يريدون الانتداب البريطانى – فى بغداد

لأمر بالغ الدلالة. لا أحد يعرف ماذا يريدون تحديداً، بل إنهم هم لا يعرفون سوى أنهم لا يريدوننا".

كان ويلسون الذى كان قد أصبح استبدادياً بأسلوب متزايد، قد تمكن، فى وقت من الأوقات من ممارسة التحكم من خلال قوات الطيران. ووفقاً لإليزابث مونرو، الباحثة المتخصصة فى شئون الشرق الأوسط، كانت طائرات القوات الجوية الملكية "تحمل القائم بأعمال المندوب السامى لإنزاله فى مكان ما، وبعض القنابل لإسقاطها فى مكان آخر". ورغم ضغط ويلسون، كان الجنرال السير آيلمر هالدين، قد اتخذ قراراً طائشاً بالرحيل فجأة فى شهر يونيو ومعه قواته الى مواقعهم الصيفية على حدود فارس. تناولت بِل الغداء مع السير آيلمر فى اليوم الذى رحل فيه، وجلسا يثرثران عن معارفهما المشتركين فى لندن فيما كان يتناولان البطيخ المثلج والمايونيز. قالت فيما كان يغادرها "أظن أنك إذا سمعت لدى وصولك إلى مدينة كاريند الحدودية أن القبائل قد استولت على بغداد، ستمضى إلى كرمنشاه بالداخل الإيرانى؟". أجاب "لا أشعر بأية مسئولية عما يحدث فى غيابى". اشتكت بِل الغاضبة إلى والدها قائلة "لسنا معتادين على وجود قيادات عسكرية لا تشارك بحماس فى اللعبة مثلنا، وقد ترك تخليه عنا فى مثل تلك اللحظة أثراً ماضيا فى حدته".

فسدت العلاقات بين ويلسون ووكيلته بشكل لا رجعة عنه حينما تبادلت بِل نسخة من الدستور الذى صاغه أحد القوميين مع صديق عربى. وكما ذكرت فى خطاب إلى والدها"، تملك الغضب من ويلسون: أخبرنى أن حماقاتى لا تحتمل، وأنه لا يجوز لى أن أقرأ ورقة أخرى بالمكتب. اعتذرتُ عن تلك الحماقة بعينها لكنه مضى يقول إننى تسببت فى أضرار أكثر من أى شخص آخر، ولولا أنه كان على وشك الرحيل لطلب فصلى منذ شهور عديدة - أنا وأميرى". كانت تلك الخلافات القائمة آنذاك تتمحور حول تبنيها، منذ لقائها مع لورانس وفيصل بباريس، حلاً هاشميا. وفى وقت مبكر فى ذاك العام، كانا قد تشاجرا حول رسائل بِل التحذيرية إلى الحكومة البريطانية معبرة عن آرائها الشخصية.

وصفت هى إحدى تلك الرسائل، وكانت قد أرسلتها إلى إدوين مونتاجيو وزير الدولة لشئون الهند بأنها "خطاب بالغ الأهمية" عن نوع الحكومة التى يجب أن نقيمها هنا وأنها "مسودة لصيغة للدستور". وبّخها مونتاجيو فى برقية شخصية سرية قال فيها: "إذا كان لديك آراء تريدينا أن نأخذها بعين الاعتبار، أكون مسرورا لو أنك طلبت من المفوض السامى المدنى إيصالها إلينا، أو أن تقدمى على إجازة وتحضرى إلى الوطن لطرحها". أرسلت رسالة أخرى إلى السير آرثر هرتزل، نائب وكيل وزارة الدولة لشئون الهند، تذكر فيها الخطر الوشيك المستطير من سوريا فى الغرب ومن البلاشفة فى الشمال. وكما كتبت إلى والدتها "لابد أن يُبصروا. لابد أن يعرفوا فى الوطن. لا يمكن أن يكونوا على هذه الدرجة من العماء بحيث لا يُبصرون ما هو مكتوب بحروف عملاقة على الجدران أمام أعينهم".

اعتذرت، لكن ويلسون كان "يخنقه الغضب". بعث سريعا بخطاب إلى كوكس اقترح فيه فصل محدثة الشغب على الفور. قال "إذا استطعت أن تجد وظيفة لميس بِل فى إنجلترا أعتقد أن من المستحسن أن تفعل هذا، إن أنشطتها غير المسئولة مصدر بالغ القلق لى، كما أن المسئولين السياسيين مستاءون منها. بنهاية الشهر ستكون قد انتهت من "الكتاب الأزرق". [مراجعة إدارة ما بين النهرين المدنية] وبعد ذلك لن يكون لديها ما تفعله فى واقع الأمر".

كتبت بل بعد أن تسلم إيه. تى. ويلسون وسام الفروسية تقول "أنا مسرورة جدا جدا. إنه يستحقه عن جدارة، ومسرورة بخاصة لاعتراف جلالة الملك بعمله"، لكنها مضت تقول غاضبة "أود وهم يمنحونه الفروسية، لو أنهم علّموه أيضا السلوكيات التقليدية التى يتميز بها الفارس". وفى تلك الأثناء، استمرت تعبر عن آرائها الصريحة، وإن كان بأسلوب غير مباشر فى الخطابات التى ترسلها إلى أسرتها، تلك الآراء التى أوحت بأن رئيس الوزراء السابق هربرت أسكويث، وتشيرول يشاركانها فيها.

عبر تشرشل، وقد حفزته دونما شك مقالات لورانس بالتايمز، عن سخطه على ويلسون فى خطاب إلى لويد چورچ، لم يرسله، قال فيه: "إنه لأمر غير طبيعى أن تنجح الإدارة المدنية البريطانية فى وقت قصير فى التسبب فى اغتراب البلد بأكمله لدرجة أن العرب طرحوا جانبا ضغائن الثأر التى يُكنّونها لبعضهم منذ قرون، ومضى السنة والشيعة يعملون معا. لقد أشير علينا محليا أن أفضل طريقة ترسل بها إمداداتنا أعلى النهر هى أن نرفع العلم التركى الذى يحترمه رجال القبائل".

وكان لبِل تعليقها حيث قالت "أظن أننا لم نقدّر حقيقة أن هذا البلد هو فى واقع الأمر كتلة بدائية من القبائل ليس بالإمكان بعد إخضاعها لنظام. لم يفرض الأتراك حُكماً وحاولنا نحن أن نحكم.. لكننا فشلنا".

استمر "التمرد" فى بلاد ما بين النهرين عدة أشهر. ثم تم قمعه فى النهاية حينما حظر ويلسون الاجتماعات بالمساجد وفرض حظر تجول عاماً. كانت التكلفة قتل عشرة آلاف عربى، قُدِّر أن تسعة آلاف منهم قتلوا فى عمليات قصف القوات الجوية الملكية، كثير منها على أهداف مدنية؛ وبضع مئات من القتلى الهنود والبريطانيين، وفاتورة قدرها ٥٠ مليون جنيه إسترلينى. كتبت بِل تقول "قد تكون هجمة القومية الجامحة المتمردة الآتية من سوريا، والإسلام المتمرد من تركيا قد برهنت على أنها تفوق قدرتنا على بعد النظر، لكن هذا لا يبرر عماءنا".

أتت نهاية الثورة معها بنهاية لويلسون ومحاولته "هندنة" بلاد ما بين النهرين، وأيضا بنهاية النظام العسكرى وبداية الحوكمة العربية المؤقتة. فضّل ويلسون الاستقالة على أن يتحمل إنزال رتبته (كان كوكس فى طريق عودته من طهران حيث كان وزيرا بالنيابة ليشغل منصب المندوب السامى بالعراق). لم تشعر چرترود بالأسف على رحيل ويلسون وأقسمت أنها تفضل رؤية المستقبل فى أيدى رجال قدراتهم العقلية أقل وقدراتهم الإنسانية أعظم.

فى ١٧ أكتوبر عام ١٩٢٠، استُقبِل السير پيرسى كوكس على رصيف محطة سكك حديد بغداد بسبع عشرة طلقة بندقية ترحيبا به فيما عزفت الفرقة الموسيقية لحن "ليحمى الله الملك"، وكذلك بحشد من المهللين، وسكرتيرته للشئون الشرقية وهى ترتدى فستانا باريسيا جديدا. كانت مشاعر بل تجاه كوكس رومانسية بدرجة لا براء منها: "شعرتُ وهو يقف هناك، بمُقدمة قميصه المصنوعة من الدانتيلا البيضاء والذهبية، ومظهره الجميل الجليل البسيط أنه ما وصل أحد أبدا أكثر أهمية وكاريزما - لم يصل أحد أبدا تركزت عليه مشاعر وآمال، وشكوك، ومخاوف أكثر تناقضا، لكن فوق كل هذا تركزت الثقة فى نزاهته الشخصية، تخيرت الشمس المنخفضة أن تسطع على شخصه الطويل الأبيض من بين المحيطين به الذين يرتدون الأزياء الكاكى وكأنما عينها مثل أعيننا جميعا الذين كنا فى انتظاره لم تُثبّت على أحد سواه. حينما دخل الساحة المُسيجة وقدمنى السير إدجار (بوتام كارتر، مستشار وزارة العدل) إليه وفيما انحنيت تحية له، كان كل ما باستطاعتى أن أفعله هو منع نفسى من البكاء".

فوّض السير پيرسى، على الفور، بل وچاك فيلبى لإنشاء مجلس للحكومة المؤقتة. ومن قراءة بل للصحف، ظهر أن مستوى التوقعات فى إنجلترا قد ارتفع بدرجة كبيرة: "يبدو وأنه لم يكن على السير بيرسى سوى أن يقول: تواً وفى الحال، إلا وتقفز حكومة عربية على المسرح وكأنها أثينا أخرى وهى تقفز من جبهة الإله زيوس. بالإمكان القول، إن أردت، أن السير پيرسى سيلعب دور الإله زيوس، لكن أثينته ستجد المسرح تعوقه تفاهات مثل مشكلة الشيعة، مشكلة القبائل وشئون أخرى، التى من المحتمل لها أن تجعل حتى الإلهة تتعثر. لكنه وإن لم يكن زيوس، فهو طبيب شديد المهارة، طبيب يُكنّ له مريضه ثقة مضمرة".

بعد ذلك، كان السؤال الصعب هو كيفية التعاطى مع عقوبة "المتمردين" القبليين. كان جوهر المشكلة كما عبرت عنه چرترود هو: "كيف يتسنى لنا عقاب أناسٍ لتمردهم على الحكم العسكرى البريطانى الذى لم يعد موجودا؟ بالإمكان معاقبتهم

على الدمار الذى ألحقوه ببلدهم، لكن حتى فى تلك الحال، فليس ثمة أمر يقينى، لأن معظم الدمار أحدثته القوات البريطانية. من ثم، وبعد انتهاء العمليات الحربية، لا يتُرك لنا سوى إصدار عفو شامل مع استثناء الأشخاص الذين عُرِف عنهم أنهم ارتكبوا جرائم قتل".

كان قد وُعد بانتخابات، لكنها لم تُجرَ. وبدلا من ذلك، جمّعت بِل وفيلبى حكومة مؤقتة لها مجلس مكون من وزراء، اختارتهم السلطات البريطانية وفقا للممارسة العثمانية من بين الأقلية السنية، ثم ألحق البريطانيون أنفسهم بكل وزارة كمستشارين. وحينما احتج الشيعة، أوضحت بِل لوالدها أنهم ليسوا عراقيين فى واقع الأمر لأن "قادتهم، ومرجعياتهم الدينية، رعايا فارسيون" أصبح نقيب بغداد ورئيس الأهالى السنة رئيسا للوزراء وعُيّن السيد طالب، ابن نقيب البصرة الذى كانت تدعمه القبائل السنية بالجنوب وزيرا للداخلية، ويهودى بغداد البارز ساسون أفندى، وزيرا للمالية.

كان بين القوميين العرب الذين حرروا دمشق مع فيصل ثم انضموا إليه فى العراق، جعفر باشا العسكرى وزير الدفاع الجديد، وصهره نورى باشا السعيد. فيما بعد رافق كلاهما بِل وكوكس فى رحلتهما إلى مؤتمر القاهرة الذى عُقِد بعد بضعة أشهر، كما أن كليهما لقيا حتفهما فيما بعد فى انقلابات عسكرية. وعلى مدى السنين، سيصبح نورى السعيد، ضخم الجثة، أزرق العينين، ذو الصوت الرصين رئيسا لوزراء العراق أربع عشرة مرة، وحليف بريطانيا الأوثق.

أدركت بِل على الفور فائدة نورى باشا: "بمجرد أن رأيته تحققت أننا أمام قوة شديدة البأس ومطواعة علينا إما أن نستخدمها أو نشتبك معها فى معركة صعبة". تسجّل بل أيضا حديثا مع جعفر باشا يصف فيه كيف أنه يجد القوميين المتطرفين بالعراق عازفين عن الاستماع إلى صوت العقل تماما كما كان أقرانهم فى سوريا

إلى عهد قريب: "أقول لهم" أتريدون استقلالاً تاماً؟ هذا ما أريده أيضا. ألا يحلم كل منا جميعنا بعذراء جميلة فى الرابعة عشرة، يصل شعرها إلى وسطها؟ لكنها غير موجودة بالنسبة لأعمارنا! وهكذا الاستقلالاً فى ظل الأوضاع الراهنة: إنه مستحيل، أسهبت بل قائلة إن الاستقلال التام هو ما يرغب البريطانيون فى منحه فى نهاية المطاف. لكنه رد قائلا "سيدتى، إن الاستقلال التام لا يُمنح أبدا؛ إنه دائما يُنتزع..". وكان أن انتُزِع، كما كتبت بل فى خريف ١٩٢٠ "لم يكن أحد بإطلاقه، ولا حتى حكومة جلالته، ليفكر فى إعطاء العرب حرية التصرف فى شئونهم بهذه الدرجة كما سنفعل الآن - نتيجة للتمرد".

بدأ عام ١٩٢١ بنقاش بين سير پيرسى وبل عما إن كان على البريطانيين، وبالنظر لعدم دعمهم لفكرة احتلال عسكرى مستدام، التخلى عن بلاد ما بين النهرين. اقترح تشرشل انسحاب القوات من الموصل لكن هذا كان يعنى إمكانية استيلاء الجيش التركى، الذى أعيد إحياؤه بقيادة كمال أتاتورك، عليها. اقترح أن ينسحب البريطانيون إلى البصرة، لكن بِل أقنعت كوكس باستحالة بقاء البريطانيين فى البصرة فى وجود دولة مسلمة ذات حكم ذاتى تطالب بمينائها الوحيد.

سرت شائعة بأن الحكومة السنية المؤقتة بقيادة نقيب بغداد كانت تفكر فى تنصيب أمير تركى على العراق لأنهم، وكما ذكرت بل "يخشون اجتياح الشيعة لهم ويعتقدون أن الأمير التركى سيكون دعامة أقوى من ابن الشريف (حسين)". وفى تلك الأثناء، لم يتم فعل أى شىء لاسترضاء الشيعة. كتبت بل لشقيقها هيو تقول "تجرى الآن دراسة عدد من التعيينات الإدارية فى الأقاليم؛ جميع الأسماء المرشحة تقريبا من السنة، حتى للأقاليم الشيعية على نهر الفرات مع استثناء كربلاء والنجف حيث لا يملك حتى البريطانيون قدرا من الصلافة والجرأة يمكّنهم من اقتراح شخصيات سنية".

كان هذا هو الوضع لدى عودة بِل من مؤتمر القاهر وقد تملكتها "حُمَّى الاستثارة" واستُحِّثت على بدء وظيفتها الجديدة كصانعة للملوك. لكن، وعلى الرغم

من نشاط تشرشل وطلاقته، ومع الآمال الرائعة التى عبر عنها تى. إبى. لورانس وجرترود بل، وبالرغم من شعبية پيرسى كوكس الجلية كأول مندوب سام بالعراق، فقد فشل البريطانيون. لم يكن العيب عيب النجوم، لكن فى افتراض البريطانيين البدهى بحتمية عرفان الأمة العراقية الجديدة الموحدة على أسس هشة، عرفانها بالجميل. عندما عادت من المؤتمر، اعترفت بل أن فرْض فيصل كان نتيجة الضعف لا القوة. كتبت تقول لكورنليوس إنجرت، صديقها الدبلوماسى الأمريكى "إن قبائل الفُرات وقد أثبطهم فشل الثورة الذى ينظرون إليه الآن على أنه انتكاسة مجنونة، يشعرون الآن بالحيرة والارتباك لأننا نعتبر آل الشريف الذين كانوا فى العام الماضى (هكذا أبلغوا) حريصين على طردنا، مصدرا مناسبا للأمير المرتقب".

كانت بل على استعداد للتغاضى عن الدور الذى لعبه فيصل (وعملاؤه) فى إثارة الحمى الثورية منذ عهد قريب. تصف فيصل، فى نفس الخطاب بصفته "رجلا ذا مبادئ عالية ومُثل رفيعة". اعتقدت، ومعها لورانس، أنه بمجرد أن يلتقى رؤساء القبائل العراقية ذلك المطالب الكاريزمى بالعرش الجديد، سيملؤهم الإعجاب. فبعد كل شيء، كان الأمير فيصل من نسل الرسول المباشر، وقائد الثورة العربية وابن شريف مكة. كان هذا أقرب ما توصل إليه البريطانيون لإنشاء أسرة مالكة يمكن إرسال أبنائها إلى مدرسة هارو النخبوية الإنجليزية وكلية ساندهيرست العسكرية مثل أبناء الأسرة المالكة الإنجليزية (ومثل السير پيرسى كوكس نفسه).

بيد أن الهاشميين كانوا من أهل السنة، المذهب الغالب فى الإسلام. أما طبقة الشيعة الدنيا، والذين كانوا يشكلون غالبية العراقيين، فقد سادتهم الشكوك، عن حق، فى أن البريطانيين كانوا يدعمون فيصل من أجل تمكين أقليتهم المفضلة(١). هذا علاوة على أنه إلى جانب نقيب بغداد الذى رؤى أنه مسن بدرجة لا تمكنه من الحكم، كان ثمة مُطالب آخر برئاسة الدولة، ألا وهو السيد طالب الذى كان يقود

(١) ولزرع جذور عميقة للشقاق المذهبى عملا بالمبدأ البريطانى المفضل "فرق تسد". (الترجمة).

حملته تحت شعار "العراق للعراقيين" ويمنح آلاف الجنيهات الإسترلينية لداعميه المحتملين. وصفته بل بأنه "الرجل الأكثر مهارة وذكاء، وربما كان الوغد الأعظم الذى لم يتم شنقه حتى الآن"، وكان چاك فيلبى، مستشار وزارة الداخلية العراقية يعتبره "شخصية ذات مقدرة وإن كان مراوغا زلقاً". أما بل، فكان حكمها علَى طالب أشد قسوة حيث رأته أنه زعيم دهماوى بلا أخلاق أو ضمير "يمكن له فعل أى شيء" وساعدت السير پيرسى على التخلص من ذلك المرشح المشكوك فى أمره.

أقام طالب عشاء ديبلوماسيا فى إبريل على شرف برسقال لاندون مراسل صحيفة الديلى تلجراف. كان بين المدعوين القنصلان الفارسى والفرنسى، وآرثر تود رجل الأعمال الإنجليزى صديق بل. تغيبت بل وكوكس وفيلبى. وفى خطبة له بعد العشاء، اشتكى طالب أن ثمة أشخاصاً فى بطانة كوكس (كان يعنى بل) يمارسون نفوذا مفرطا لصالح فيصل. أراد أن يوضح لجميع الحضور أن شعب العراق لا يؤيدون ملكا هاشميا. ثم أطلق إنذارا متوعدا البريطانيين بأنهم إن لم يتركوا العراقيين يختارون شكل الحكم الذى يريدونه فسيحرّض على رفع ٣٠ ألف بندقية ضدهم. قال إن والده نقيب البصرة "سيناشد الإسلام والهند وفرنسا وإسطنبول ومصر وباريس"(١).

---

(٢) ما يخبرنا به المؤلفان هو فقط وجهة نظر بل وفيلبى ولورانس وكوكس وغيرهم من المستعمرين البريطانيين المغامرين صناع الملوك والحدود. أما السيد طالب، فى التاريخ العراقى، ووفقا لما جاء فى كتاب الأعلام الجزء الثالث لمؤلفه خير الدين الزركلى فقد كان طالب النقيب ابن رجب بن سعيد محمد سعيد الرفاعى النقيب، من أعيان البصرة. ولد وتعلم بالبصرة وكان سياسيا محنكا اجاد العربية والتركية والفارسية والإنجليزية وجمع حوله انصار وقوى نفوذه فى بلده فدعاه السلطان عبدالحميد إلى الآستانة لأنه كان قد نمى إليه ان طالب يدعو إلى الثورة واستقلال العراق وأرسل إليه جيشا بالبصرة للقضاء عليه لكنه اظهر الطاعة واحسن السياسة فانعم عليه السلطان بالرتب واهداه سيفا مرصعا.. ولما أعلن الدستور العثمانى (سنة ١٣٢٦ هـ) استقر طالب فى بلده، فانتخب مبعوثا عنها فى مجلس النواب العثمانى، فشخص إلى =

أسرع تود لإبلاغ بل التى أرسلت تقريرا فى اليوم التالى إلى السير بيرسى تقول فيه: "كان هذا تحريضا على التمرد لا يقل سوءا عن أى شىء قاله الرجال الذين حرضوا البلاد على "التمرد" العام الماضى، ولا يبعد كثيرا عن كونه إعلانا للجهاد. ليس من غير المستبعد أن يواصل طالب حملته الانتخابية، بدرجة من الضراوة بحيث يجد نفسه داخل السجن". شعر كوكس أنه سيتعذر عليه الدفاع عن موقفه إن هو تغاضى عن مثل تلك التهديدات وقرر بعد أن أقنعته بل، اتخاذ إجراءات عنيفة صارمة.

وجهت ليدى كوكس إلى طالب دعوة إلى الشاى، وعملت بل مترجمة. وفى طريقه إلى منزله، وفى خرق لقواعد الضيافة (الإنجليزية!!) والعربية تم إلقاء القبض عليه ودفع به إلى سيارة القائد العام المدرعة، ورُحّل فى ظلمة الليل إلى جزيرة سيلان (سريلانكا الآن) التى كانت تحت الحكم البريطانى حيث سرعان ما لحقت به عائلته. أخبر أحد الشيوخ المحليين الروائى الأمريكى جون دون پايسوس الذى كان فى

= الآستانة، فكان من اعضاء مجلس الأعيان وَمنح رتبة سامية. ولما نشبت الحرب العالمية الأولى كان فى البصرة. واحتل البريطانيون العراق فنفوه إلى الهند. فاقام زهاء عامين وأُخلى سبيله. فزار مصر وعاد إلى العراق فولى وزارة الداخلية - ببغداد - وعَيّن المستر فيلبى (المستشرق البريطانى) مستشارا له. واتجهت سياسة الحكومة البريطانية إلى إقامة ملك سوريا السابق "فيصل بن الحسين" الهاشمى، ملكا على العراق. ولم يكن له مزاحم غير السيد طالب. وجاهر هذا بالخلاف، فاختطفه البريطانيون وحملوه إلى الهند ثانية، حيث نفى بدعوى انه هدد باستعمال القوة المسلحة إذا لم تنجز بريطانيا للعراقيين وعدها باختيار نوع الحكومة التى يريدونها وحاكمهم الذى يتفقون عليه. ثم سمحوا له بالسفر إلى اوربا فذهب إلى ميونيخ، واجريت له عملية جراحية لم يحتملها فمات متاثرا بها ونقل جثمانه إلى البصرة. كان جريئا مغامرا، رقيق الحديث سريع الغضب، محبا للانتقام، كريما بإفراط. (الأعلام، الجزء ٣ ص ص ٣١٥- ٣١٦). (الترجمة)

زيارة لبغداد ما يلى "سررنا بمساعدة الإنجليز فى حربهم ضد الأتراك، لكن الأمر مختلف الآن. فالإنجليز يماثلون البَحّار العجوز: فى البداية كانوا بالغى الخفة، لكنهم غدوا أثقل وأثقل.. وإذا عارضهم أحد الرجال المهمين.. يدعوه كوكوس على الشاى.. ثم يستيقظ غدا ويجد نفسه فى طريقه إلى سيلان". قال له إن جميع الشخصيات العراقية "يتملكهم الخوف الشديد من أن يدعوهم كوكوس على الشاى".

قال فيلبى الذى كاد ألا يصدق ما حدث، والذى أُوفد بعد ذلك للقاء فيصل فى البصرة ومرافقته لدى دخوله بغداد "إن أكثر رجل دهاءً فى بلاد العرب قد دخل إلى أكثر الفخاخ بساطة". لكن، وعلى الرغم من أن الأمير فيصل قد زعم انتسابه إلى الرسول فقد كان استقباله فاترا فى المدن الشيعية المقدسة بكربلاء والنجف. لم يكن قد زار العراق أبدا من قبل، وكانت لهجته العربية غريبة على آذان العراقيين، كما أن معرفته بالسياسات القبلية العراقية المعقدة (والذى كان وزير الشئون الشرقية قد أوجزها له) كانت مازالت معيبة. علاوة على ذلك فقد شعر فيصل بالأسى عندما أخبره فيلبى وهما فى طريقهما أنه على الرغم من أن الختون (بل) تريده، فقد كان كوكس محايدا، أما فيلبى نفسه فكان يفضل نظاما جمهوريا.

لم يُغْفر لفيلبى طيشه هذا؛ أُجبر على الاستقالة. علّقت بِل قائلة وإنها مأساة حقيقية، لقد تم فصله، لكنه لا يجوز أن يلوم إلا نفسه لقد منحه السير پيرسى قدرا كبيرا من حرية التصرف والعمل. من الصعب معرفة أى شيطان تملك المستر فيلبى، لكن النتيجة النهائية هو أنه غدر برئيسه وعصى أوامر حكومته. لا يتردد السير پيرس أبدا فى عمل ما يعتقد أنه واجبه، وأنهى المشكلة بالطريقة الممكنة الوحيدة. وعلى الرغم من ذلك، فأنا أشعر بقدر كبير من الأسى".

وبرحيل طالب، مُهد الطريق لإجراء استفتاء فى يوليو، بيد أنه تقرر أن الانتخابات العامة ستحتاج إلى وقت طويل للإعداد لها. وبما أن عامة العراقيين لم يكن لهم رأى فى هذه العملية، فمن الصعب وصفها بالديمقراطية. كان الاستفتاء

مكوّناً من سؤال واحد وضعه كوكس وبِل: "هل تريد فيصل ملكا؟".. وكانت نتيجة الاستفتاء هى موافقة غالبية العراقيين الساحقة (٩٦٪) مما أثار الشكوك حول العملية. لم يصوّت الأكراد الذين كانوا يعارضون حكم شخص عربى، كما أن شيعة جنوب العراق لم يصوتوا أيضا. حينما سأل دوس پايسوس الشيخ الأعرابى المحلى عن الاستفتاء ضحك وقال "آه، بالطبع، لقد وزعوا أوراقاً فى الأسواق لكنها كانت الأوراق المطبوع عليها أيضا استفتاء عن حكومة الانتداب بحيث يصوت الجهلة فى صالح الحكومة دون أن يدركوا ذلك. اليهود وقلة قليلة من الجهلة هم من صوتوا؛ إذ كيف لأى رجل متعلم ويلم بالقانون أن يحط من نفسه ويدلى بصوته على أية حال؟ "علّق پايسوس بالقول "إلى أين تؤدى لعبة حق تقرير المصير هذه؟".

لم تكن بغداد عام ١٩٢١ مدينة إمبراطورية، ولم تكن قد استُخدِمت عاصمة منذ انتهاء حكم الأسرة العباسية عام ١٢٥٨. لم يكن هناك سوى شارع رئيسى واحد موحل أطلق عليه اسم الجنرال مود بعد موته أثناء وباء الكوليرا عام ١٩١٧، وكان هو من استولى على بغداد. لم يكن بالمدينة التى كانت منازلها مبنية من القرميد الطينى، ثمة مكان يصلح لسكنى فيصل، ومن ثم نزل مؤقتا بالقلعة. قامت چرترود بل بالترتيبات لمراسم تتويج فيصل بفناء سراى بغداد فى الساعة السادسة مساء ٢٣ أغسطس. تقدم الملك وهو يرتدى البزة العسكرية الكاكى فى ممر مغطى بالسجاد حتى وصل إلى المنصة التى وضع عليها عرش خشبى منمذج على العرش البريطانى الموجود بوستمينستر (لكنه، ووفقا لإحدى الروايات فقد تم تجميع ذلك العرش على وجه السرعة من خشب حاويات البيرة الفارغة). نظرت بل، وهى تجلس مع ١٥٠٠ ضيف آخر وترتدى وسام نجمة القائد العسكرى بالجيش الإمبراطورى وشرائط الحرب الثلاث، نظرت إلى عينى الملك وأومأت إيماءة خفيفة بالتحية. وبمساعدة والدها، انشغلت باختراع تقاليد ملكية للبلد الجديد: صمّمت علماً جديدا،

وشعار نبالة ونسب دقيق ومعه السترة الملكية التى تُلبس فوق الدرع، ونشيدا وطنيا، هذا على الرغم من أن الفرقة عزفت النشيد الوطنى البريطانى "ليحفظ الله الملك" أثناء تتويج فيصل. وصفتها التقارير الإخبارية بأنها "ملكة العراق غير المتوجة" (وعدها فيصل أيضا بكتيبة عسكرية عربية – كتيبة الختون الخاصة – لكنه لم يوفِ بعهده). على أية حال، وكما كتبت إليزابث مونرو، فلبضع سنوات تالية "احتفظت جرترود بعلاقتها الوثيقة مع فيصل، كانت تركب الخيل معه، تختار له أثاث منازله، وتضع بروتوكالات لنساء القصر، وتقدم له المشورة بشأن وصيفات الملكة، أو من هو الشخص التالى الذى عليه أن يستقبله. كانت لصداقته قيمة كبيرة لديها بدرجة أن شعرت بعميق القلق حينما ظنت أنه يساير الأحزاب والطوائف المختلفة ويتفاوض معهم، ويتصرف بأسلوب اعتقدته غير لائق". ولدهشة بِل واستيائها أنه بمجرد أن تم تتويجه، عارض فيصل المصادقة على معاهدة تُثبِّت سلطة بريطانيا بصفتها حاكم العراق الخاضع للانتداب، وترسّخ "الحقوق" البريطانية بالعراق. ذلك لأن الملك الجديد كان أجنبياً بلا أتباع حقيقيين فى البلد، من ثم، فسرعان ما اكتشف أن الهجوم على البريطانيين كان هو الموضوع المحتمل له أكثر من غيره أن يُوحّد رعاياه ويثير حماسهم وهتافهم. وصل الأمر بكوكس الذى أصابه الإحباط لحد وصفه صنيعته بأنه خبيث وغير مخلص. أدانت بل، فى لقاء مع الملك على الشاى فى يونيو ١٩٢٢، دعمه "للمتطرفين الحُقرَاء"، وفى خطاب إلى والديها وصفت بصراحة ما ظنته ضعفا بالغا فى شخصيته "رغم مُثله بالغة السمو، نجده يتعثر كل لحظة فى أكثر العوائق حقارة– لقد شد عَرَبته وثبّتها فى النجوم، لكن الحبل الذى استخدمه طويل بدرجة أنه يتعقد فى كل مُنعطف" أخبرت بِل الملك وقد شعرت بالتعاسة "لقد كونت صورة جميلة نبيلة ورأيتها تذوب أمام عينى. فضلّت لو أننى رحلت قبل أن يُطمس الكفاف النبيل بأكمله بالرغم من حبى للأمة العربية وشعورى بالمسئولية تجاه مستقبلها، لم أعتقد أن بإمكانى تحمل رؤية تبخّر الحلم الذى كان مُرشدى". كانت قد لعبت بورقتها الأخيرة.

كانت تلك عملية تعليمية بالنسبة لجرترود بل التى أوجزت العيوب فى السياسة

البريطانية فى خطاب حكيم نبوئى: "ثمة قناعة راسخة فى خلفية تفكيرى بأنه لا يوجد شعب يحب أن يحكمه آخر بشكل دائم. والآن، فنحن نحاول تبنى التوجهات القومية، لكننى مستعدة على الدوام للاعتراف بأن القومية التى ليست معادية للحكم الأجنبى من المرجح لها أن تكون نباتاً ضعيف النمو. إن فيصل الذى يسير يدا بيد معنا لا يُحتمل له أن يكون الشخصية الرومانسية كفيصل الذى يقود الجهاد! لكنه لن يقود جهادا، فليس هذا توجهه، أبستطاعتنا أن ننفث فيه الحياة بدون تبنيه لهذا التوجه، بحيث نمكنه من أن يبث إلهاما حقيقيا فى الدولة العربية؟ .. يتوقف هذا جميعه على شخصيته وعلى حذر السير بيرسى وحرصه على عدم الظهور اللافت وعلى أن يظل فى الخلفية".

فى أغسطس، وفى الذكرى الأولى لارتقاء فيصل عرش العراق، ومع انقسام العراقيين العميق حول المعاهدة مع بريطانيا، تعرض كوكس وبل اللذان كانا قد ذهبا لتقديم تهانيهما، إلى إهانة أخيرة: كان ثمة حشد غاضب بقيادة اثنين من القوميين يُلقيان خُطبا معادية للبريطانيين من شرفة القصر الملكى ويصيحان وسط عاصفة من التصفيق "يسقط الانتداب". وحينما طلب كوكس معاقبتهما، أحجم فيصل، وادعى إصابته بالتهاب الزائدة الدودية، من تم، تولى كوكس أمر الحكومة بنفسه، وأصدر الأوامر بالعقوبات: تم إلقاء القبض على المحرضين الرئيسيين وأُغلقت الصحف المتطرفة. وفى النهاية، وبعد حصول فيصل على تطمينات من الحكومة البريطانية تَحفَظ لُه ماء وجهه بأنها ستزكى عضوية العراق الفورية بعصبة الأمم بصفتها دولة ذات سيادة، أقنع البرلمان بالمصادقة على المعاهدة غير ذات الشعبية. ظلت الأوراق الرابحة بحوزة البريطانيين: احتفظ المندوب السامى البريطانى بحقه فى استخدام الفيتو على قرارات الحكومة العراقية؛ كما استمرت بريطانيا تتحكم فى الشئون الخارجية للعراق وفى سياساته المالية والدفاعية.

استمر تشرشل فى النظر إلى فيصل بصفته خادما مطيعا لبريطانيا: كتب يقول

لكوكس عام ١٩٢١ "لا يمكننا القبول بوضع يكون لفيصل فيه حرية التصرف ثم يرسل إلينا الفاتورة فى النهاية.. إذا كان علينا دفع أجر الزّمار فلابد أن يكون لنا رأى نافذ فى النغمة التى يعزفها". بعد عامين، كان بإمكان تشرشل أن ينتهى إلى أن مناورة القاهرة قد آتت ثمارها: "لقد تقلصت مصاعبنا ونفقاتنا بمرور كل شهر. تنامى نفوذنا ورحلت جيوشنا". رحل أيضا السير پيرسى، كلىّ الأهمية، حيث تقاعد عام ١٩٢٣. خلفه فى منصب المندوب السامى نائبه هنرى دوبس، الذى كان قد عمل سابقا مديرا للإيرادات العامة والذى زكته لتولى منصبه بالعراق مصلحة الأموال فى هيئة الخدمة المدنية الهندية. لم يكن دوبس يتحدث العربية، ولم يتشاور مع بل، سكرتيرته للشئون الشرقية. كان دوبس، الذى كان يتمتع بسحر آسر، يشاركها كراهيتها لإيه. تى. ويلسون، لكنه، وفى وجود الضغط الداخلى للانسحاب، كان واقعيا. كتب يقول "أملى هو أن يتمكن العراق من تسيير أموره بالأسلوب الشرقى الفاسد غير الكفُء بأفضل قليلا مما كان تحت الحكم التركى.. إذا تحققت هذه النتيجة، وبالرغم من عدم كونها شيئا رائعا، سنكون قد شيدنا بنيانا أفضل".

جِيْم تعنى چرترود

ملكة العرب، وأم المؤمنين

إذا دخلت الجنة مع الصالحين

ستسأل الله:

ما اسم قبيلتك؟ وما موقعها من الحدود؟

(أهزوجة من وضع المُبشّر الأمريكى چون ڤان إس)

كان لها منزل مريح، مزين بالستائر الفاخرة، والسجاجيد الفارسية، يحوى قطعا أثرية سومرية، وخَدما، وكلبين من نوع السلوقى شعرهما كالحرير، وفرساً بيضاء، وأحيانا، غزالا أليفة. حياتها مكرسة لرحلات دورية، السباحة فى نهر دجلة، مباريات فى ركوب الخيل، حفلات صيد، حفلات راقصة، وجلسات للعب البريدج—

وكانت تلك أنشطة تميز حياة البريطانيين المغتربين. لكن، مع تناقص أعبائها، اضطلعت بل بدور جديد، مديرا شرفياً للمقتنيات الأثرية بمتحف بغداد الذى كان يقع فى القصر الملكى، تُشرف على الحفريات، وتقسّم ما يُعثَر عليه من آثار بين بغداد، لندن، وفلادلفيا!! وفيما أرضى لقبها الجديد غرورها، كانت تعلم أن منصبها مؤقت: إذ لابد لمدير متحف بغداد أن يكون مسئول متحفٍ مدربًا، مُلِمًّا تماما بالأحرف المسمارية السومارية القديمة.

أثقلها حزنها على وفاة أخيها غير الشقيق هوجو عام ١٩٢٥، وإحباط مشاعر الولع تجاه زميلها المتزوج: كينان (كِن) كورنواليس الذى كان يصغرها بأكثر من خمسة عشر عاما. تلقى تعليمه بكلية هايليبرى المتميزة والتى كان يتدرب بها موظفو الإمبراطورية المدنيون، ودرس بيونيڤرستى كوليدج، أكسفورد حيث اشتهر فى مسابقات ربع الميل. ثم خدم بالسودان ثم بالجيش، ووزارة الخارجية وانتهى به المطاف فى العراق. فى عام ١٩١٤ تم تعيينه بالمكتب العربى، وخلف هوجارث مديرا له. وصف الكولونيل لورانس معاصره المقدّم كورنواليس فى كتابه "أعمدة الحكمة السبع" بقوله "رجل يوحى مظهره بالفظاظة والقسوة، لكنه من الواضح أن المعدن الذى صُنِع منه لا تَصهره سوى حرارة تبلغ آلاف الدرجات. من ثم، كان باستطاعته أن يظل عدة أشهر أكثر حرارة من حرارة الرجال الآخرين البيضاء وبالرغم من ذلك يبدو باردا صلبا".

أنابه اللورد كيرزن، كونه صديقا لفيصل موثوقا به، ليعرض عليه عرش العراق، ورافق الأمير فى رحلته من جدة إلى العراق فى يونيو ١٩٢١. قضى كورنواليس أربعة عشر عاما مستشارا دائماً لوزارة الخارجية ومستشارا شخصيا لفيصل، ثم تقاعد، فى النهاية، كسفير عام ١٩٤٥. كتبت بل تقول "قد يمسك الملك بيدى كثيرا، لكنه يعانق المستر كورنواليس أكثر. نتبادل الملاحظات". وصفت رفيقها فى حفلات البريدج والعشاء وفى صناعة الملوك بأنه ملاذ حصين وقلعة من الحكمة. اعتقدت أن

بإرشاده فيصل، فإن كليهما كان يوجهان مصائر العالم العربى. كانت قد أملت أن يتزوجها كِن حينما رحلت زوجته فجأة عائدة إلى إنجلترا وأنهت زواجهما عام ١٩٢٥. لكن، لم يكن لهذا أن يحدث. وعلى الرغم من أن اغترابهما الذى تلى ذلك كان بسبب آمالها المحبطة، إلا أنها رتقت العلاقة فى النهاية؛ بسبب اهتمامهما المشترك بأمور كلابهما.

مضت بل، وبتزايد، تشعر بالوحدة والاكتئاب، وتراوحت خطاباتها لعائلاتها بين الآمال المشرقة واليأس المرير. لم يعد فيصل يستشيرها "باستثناء المتحف، لا تُمتعنى الحياة بإطلاقه" هكذا كتبت لصديقها چيه. إم. ويلسون "يغامرنى حس حاد بقربى من نهاية الأشياء مع عدم وجود أى يقين عما سأفعله بعد ذلك، وإن كنت سأفعل أى شىء. أيضا، الحياة كئيبة جدا باستثناء العمل.. الحياة هنا الآن تشعرنى بالوحدة الشديدة". وازدادت مرات مرضها، وفى زيارتها الأخيرة لإنجلترا عام ١٩٢٥ أشار عليها أطباء لندن بتحاشى جو العراق القاسى. لكن، عودتها إلى إنجلترا بدت أمرا غير وارد. قالت "لا آبه كثيرا بأن أكون موجودة بلندن.. أحب بغداد وأحب العراق. إن هذا هو المشرق الحقيقى، ملىء بالحركة والنشاط؛ تحدث أمور رومانسية كثيرة هنا، تؤثر فىّ رومانسية الأمور جميعها، وتستغرق كيانى".

فى مساء ١١ يوليو ١٩٢٦، وقبل عيد ميلادها الثامن والخمسين بأيام ثلاثة، ودونما أن تترك رسالة على الرغم من أنه كان معروفا أنها تشعر باكتئاب، ابتعلت جرعة حبوب مميتة وتوفيت أثناء نومها. طلبت فى آخر رسالة منها لزميلها كِن أن يرعى كلبها إذا حدث أى شىء لها. (لم يفعل). تم تكريمها بتسيير جنازة عسكرية لها، وتبع آلاف العرب نعشها إلى مدافن البريطانيين ببغداد، حيث تولى زملاؤها مهمة السير به ورفعه قبل أن ينزلوه إلى قبرها - الذى تحجبه الآن أنقاض وزارة التعليم العالى التى قصفتها القوات الأمريكية. أقيم لها قداس تذكارى بكنيسة سانت مارجريت بوستمينستر (لندن).

كال فيصل لها المديح المتدفق بعد موتها وهو يرثيها فى حوار أجرته معه صحيفة إفربوديز ويكلى: "إن چرترود بل اسم كُتب فى التاريخ العربى بأسلوب لا يُمحى - اسم يُنطق برهبة - مثل اسم نابليون، نلسون أو موسولينى.. بالإمكان القول إنها كانت أعظم نساء عصرها. وبدون شك فإن مكانتها العظيمة تماثل مكانة چان دارك، فلورانس نايتنجايل، إديث كاڤل، مدام كورى وأخريات". وبعد أن حذف البعثيون ذكرها من تاريخ العراق عام ١٩٧٣، فقد أعيدت سيرتها الآن لتتضمنها المقررات التعليمية (وفقا لما نشرته الديلى تلجراف بتاريخ ٢٥ سبتمبر ٢٠٠٤، (أى بعد الاحتلال الأمريكى للعراق). بيد أن فيلبى، الذى كان قد اغترب عنها ذات مرة، هو من كتب أبلغ مرثية لها بعد وفاتها بحوالى عشرين عاما:

"على الرغم من التغييرات التى طرأت على مكانة المرأة وأنشطتها المدنية أثناء القرن الحالى، فمن الصعب التفكير فى أية امرأة من زماننا يمكن مقارنة إنجازاتها، على وجه جاد، بسجل چرترود بل الفريد. بالإمكان القول إنه باستطاعتنا مضاهاة عملها وجودته، وليس تفاصيله فقط، بأفضل ما أنجزه عظماء الرجال على مر العصور. كما أنه يمكن تقدير جودة عملها على أحسن وجه إذا أدركنا أنها فى عصر كان يُثبط فيه اقتحام النساء لمجال ظل حصريا على الرجال منذ القدم، وفى جزء من العالم يمثل نوعها عائقا دائما فى طريق النجاح، أدركنا أنها لم تنجح فقط فى الاضطلاع بعمل من النوع المقصور على الرجال، بل أنجزته بتميز لم يقترب منه أبدا سوى أفضل الذكور من معاصريها. لم تتلق نظير هذا أيا من المكافآت المعتادة نظير العمل الجيد - لا مناصب عظيمة فى الدولة، لا مكافآت مالية تستحق الذكر، ووسام واحد فقط قليل الأهمية! لكنها كانت فى غنى عن مثل هذه الأشياء، كان عملها ينطوى على مكافأته الخاصة به. وبعد كل شىء، فقط خلقت بالفعل مملكة، فيما كان تأثيرها على السياسة البريطانية أثناء السنوات المهمة بين عامى ١٩١٦ و١٩٢٣ أعظم كثيرا مما يدركه غالبية الناس".

أثناء المؤتمر الذى استمر خمسة أيام عام ١٩٢٢ بعقير شرقى السعودية، أقنع السير پيرسى ابن سعود، ملك الجزيرة العربية فى المستقبل، بالاعتراف بالعراق، وطبقا لنصيحة بل المعتادة، رسم حدود العراق مع الكويت، ومع نجد (فيما بعد المملكة العربية السعودية)(١). وعلى الرغم من نجاح ابن سعود فى طرد منافسيه من نجد، مضى پيرسى كوكس يعامله وكأنه تلميذ شقى (وفقا لمذكرات هارولد ديكسون الملحق العسكرى بالكويت). قرر كوكس أنه هو وحده من له حق تقرير الحدود. رسم كوكس الحدود بين العراق ونجد، وبنفس الأسلوب رسم أيضا الحدود بين سوريا وشرق الأردن. أما حدود سوريا والعراق مع تركيا فقد تُركت للجنة الحدود الدولية عام ١٩٢٦: احتفظت العراق بالموصل ونفطها (مُنِح امتياز النفط لشركة النفط العراقية التى كانت ملكا للمساهمين البريطانيين، الفرنسيين، الأمريكيين والشركة الأنجلو/ هولندية).

نادرا ما كانت تلك الخطوط الحدودية العشوائية تتوافق مع أى واقع سياسى أو جغرافى، ولم تعكس قط رغبات السكان. كما أن حكومة العراق لم تكن تمثيلية أو ذات شعبية، حيث كانت مكونة من الأقلية السنية الحضرية(٢). علّق الحكيم البغدادى، المؤرخ إيلى قدورى ، الذى اعتبر الحل الهاشمى كارثياً، علق فى مقال له بعنوان Chatham House Version: "حينما نتأمل تجربة بريطانيا الطويلة فى حكم البلدان الشرقية ونقارنها بأسلوب الحكم البائس الذى خلعوه على سكان ما

(١) أعلن صدام حسين فى حرب الخليج ١٩٩١ - ١٩٩٥ ان تلك الحدود الخلافية جائرة وغير صحيحة. (المؤلفان)

- (كعهدهم دائما، زرع البريطانيون عامدين، بذور الخلاف والشقاق برسمهم العشوائى للحدود بين البلدان العربية، (الترجمة)).

(٢) بمعنى آخر، ابتدع البريطانيون المحاصصات الطائفية ولم يشكلوا الحكومة على أساس المواطنة العراقية والكفاءة، بل على أساس المذهب وظل هذا الوضع آفة يعانى منه العراق حتى يومنا هذا (الترجمة).

بين النهرين تتملكنا دهشة غاضبة.. لا نملك منع أنفسنا من التعجب من كيفية نبذ البريطانيين كل هذا (خبرتهم الطويلة فى فنون حكم البلدان الشرقية)، وكيف أنهم بعد أن غزت جيوشهم بلاد ما بين النهرين، مضوا يتقاذفونها، جيئة ورواحا، بين مهارة لويد چورچ وفصاحته فى الترويج لأساليبه، وخطب اللورد كيرزن الطنانة العبثية، بين الفينة والأخرى، وأكاذيب الكلونيل لورانس الهستيرية، ومهارة ميس بل الهشة واندفاعاتها العاطفية، وإذعان السير پيرسى كوكس وخنوعه".

كما أنه لم تكن ثمة نهاية سلمية للدولة التى ابتدعوها ومعها أساليب الحكم والإدارة. فى عام ١٩٣٠ تفاوض رئيس الوزراء نورى السعيد على معاهدة مع بريطانيا تنص على "تحالف وثيق"، الأمر الذى كان يعنى استشارة البريطانيين فى شئون السياسة الخارجية، وأيضا أنه فى حالة وجود تهديد باندلاع الحرب سيشارك الطرفان فى الدفاع المشترك. وبهذا ضمنت بريطانيا لنفسها، من خلال تلك المعاهدة، ليس فقط القواعد الجوية فى العراق، بل أيضا الحق الحصرى فى تزويد العراق بالسلاح وتدريب الجيش العراقى، علاوة على عدم خضوع العاملين بالجيش البريطانى هناك للضرائب والقوانين العراقية. فى عام ١٩٣٢، أصبحت العراق أول عضو عربى فى عصبة الأمم، وغدت رسميا، ذات سيادة. لكنها، وحيث إن الحراب البريطانية هى التى كانت تدعم استقرارها، فقد كانت العراق، فى أفضل الأحوال، ديمقراطية زائفة.

فيما كان جلوب باشا (سنلقاه لاحقا) يجول فى أنحاء وادى الفرات عام ١٩٢٧، التقى أحد زعماء الشيعة القبليين الذين كانوا قد شاركوا فى ثورة العشرين التى نتج عنها تمكن فيصل وأتباعه من الإمساك بالسلطة. علق جلوب قائلا للزعيم القبلى بأن لدى العراق الآن "حكومة، ودستوراً، وبرلماناً، ووزراء، ومسئولين" فماذا يريد العراق أكثر من هذا؟ أجاب الزعيم القبلى بمرارة "نعم، لكنهم يتحدثون بلكنة أجنبية". وَعدت العراق، لدى قبولها عضوا بعصبة الأمم بحماية أقلياتها الدينية. وعلى الرغم من ذلك،

فبعد وفاة الملك فيصل عام ١٩٣٣ أدينت القوات العراقية، عن حق، بارتكاب مذبحة ضد الجالية المسيحية الآشورية التى كانت تعيش بإقليم الموصل.

شارك اللورد لوجارد فى نقاش اندلع فى أعقاب المذبحة التى أوضحت تقلبات الحكم غير المباشر السلبية. وبصفته عضوا فى مفوضية الانتدابات التى كان مقرها جنيف، قضى لوجارد عام ١٩٣١، بأنه لم يكن بوسع عصبة الأمم فعل أى شىء لمعاقبة العراق حينما ارتكب جيشها تلك المذبحة ضد هذه الجالية المسيحية. كان هؤلاء القوم الرعاة البالغ عددهم حوالى أربعين ألف نسمة، يسكنون فى الأصل، الجبال الجنوبية الشرقية لتركيا كما هى الآن، وكان ينظر إليهم أثناء الحرب العالمية الأولى على أنهم حلفاء خونة للغزاة الروس. وبعد الانهيار العسكرى للجيش الروسى، هرب الآشوريون للعراق المحتلة من قِبل البريطانيين ووجدوا أنفسهم فى خضم فوضى ثورة العشرين ضد الحكم الأجنبى. حاربت الميلشيات الأشورية فى صفوف البريطانيين مما نجم عنه حتميا توليد مشاعر عدائية ضدهم بين العراقيين. وحينما سئل اللورد كيرزن فى البرلمان فى ١٧ ديسمبر عام ١٩٢٠ عن مصيرهم أجاب "بقدر ما أنهم الآن مستقرون داخل حدود النفوذ البريطانى، فنحن نؤكد لهم على اهتمامنا الودى وحمايتنا"(١).

وفى عام ١٩٣١ حينما درست عصبة الأمم إنهاء حكم الانتداب البريطانى على العراق، والاعتراف بها دولة مستقلة، سعى الأشوريون للحصول على الحكم الذاتى. أُنكر عليهم ذلك وكان أفضل ما استطاعوا الحصول عليه هو وعود أبلغها العراقيون لمفوضية البلدان الواقعة تحت الانتداب بقيينا بعدم القيام بأعمال عدائية ضد

---

(١) ما لم يذكره النص ان الغرب ظل، ومازال، يمارس سياسة فرق تسد التى يُجلّونها منذ القدم. فهم يستقطبون أطرافا لا مصلحة لها فى التعاون معهم بحيث يضمنون عدم استقرار البلدان الواقعة تحت نفوذهم أو التى بها مصالح لهم، وزرع الفتن بين اهلها ويضمنون بذلك لجوء تلك الأطراف إليهم وطلبها حمايتهم نظير القيام بالأدوار التى يحددونها لهم ثم يتخلون عنهم كعهدهم دائما. (الترجمة).

جاليتهم. وبدافع الحذر، سافر قادة تلك الجالية صعبة المراس التى تعمل بالرعى إلى سوريا سعيا للحصول على حق عودتهم للاستيطان هناك من السلطات الفرنسية. ومرة أخرى، تم رفض طلبهم، وفى طريق عودتهم "اشتبكوا فى عراك مع حراس الحدود العراقيين وقتلوا واحدا منهم" وفقا لويليام بيل المراقب الأمريكى الموثوق. أثار هذا صراعا مسلحا بين المقاتلين الآشوريين الذين كان البريطانيون قد دربوهم، وبين الجيش العراقى الجديد. يكتب بيل الذى كان قد أصبح مستشار وزارة الخارجية الأمريكية لشئون الشرق الأوسط قائلاً: "وقبل أن تعلم الحكومة المدنية ببغداد بما حدث، كان القائد العراقى الجنرال بكر صدقى، والذى عرف عنه عداؤه للآشوريين، قد سمح بقتل ٤٠٠ آشورى أعزل ودعا رجال القبائل الكردية والعربية لنهب القرى الآشورية".

لكن، ما كان أمام مفوضية البلدان تحت الانتداب فعله للدفاع عن تلك الأقلية الموصومة المعرضة للخطر؟ فى خطاب أرسله إلى لوجارد، احتج إيه . تى. ويلسون، الذى كان قد شغل منصب القائم بأعمال المفوض السامى المدنى فى أرض الرافدين، على أن السلطات البريطانية كانت ترغب الآن فى التخلص من مسئولياتها تجاه العراق، "وإذا أدى ذلك إلى تعرض أوضاع الأقليات للخطر، فهذا من سوء حظهم. إنه لموقف فظ أنانى سيقود حتما إلى مصاعب خطيرة فى المستقبل تبلغ ذروتها، فى حالة المسيحيين، إلى إبادتهم فعليا". صدر عن جيلبرت موراى، أستاذ العلوم الكلاسيكية الأسطورى بأكسفورد، والأب الروحى لعصبة الأمم، احتجاج مماثل وإن كان محملا بظلال من المعانى. حذّر من أن العراق كان بحاجة إلى خمسة وعشرين عاما على الأقل كى تصبح أعراقه المختلفة ("الأكراد، الآشوريون، الكالدانيون، اليهود، اليزيديون وبقيتهم"(١)) "على التعاون مع القبائل العربية لصنع مملكة موحدة". وأضاف أن تحقيق هذا هو "الهدف الرئيسى للانتداب"(!!!).

لكن لوجارد لم يتقبل أيا من هذه الآراء، فقد أصر على أنه بمجرد أن وافق

(١) يتم هنا الخلط بين الملل والنحل والأديان والأعراق (الترجمة).

البريطانيون على المعاهدة التى تعترف باستقلال العراق "لم تعد الشئون الداخلية العراقية موضع اهتمام خاص منا". كان هذا عمليا يعنى نعباً لجاليات الأقليات التى خاطر أعضاؤها بالتعاون مع إدارة المستعمرين التى كانت تعمل وفقا لمبادئ لوجارد للحكم غير المباشر.

توفى الملك غازى بن فيصل وخليفته عام ١٩٣٩ فى حادث سيارة غامض (يقال إنه قُتل بأوامر من نورى السعيد، رئيس الوزراء الذى كان البريطانيون يدعمونه"(١) أما الحكومة فقد برهنت على أنها على نفس الدرجة من الهشاشة: تولت خمس وسبعون وزارة الحكم فى الفترة ما بين صعود فيصل إلى عرش العراق عام ١٩٢١ ومقتل حفيده عام ١٩٥٨. تُعتبر مذكرات آلان ماكدونالد ضابط الاستخبارات بالقوات الجوية الملكية والتى يصف فيها العامين اللذين قضاهما بالعراق قبل أن تحصل على سيادتها الاسمية عام ١٩٣٢، تُعتبر جد كاشفة. كان ماكدونالد يتحدث العربية وكان مقر عمله فى جنوب العراق. يقول فى مذكراته التى نشرها بعنوان "منفى الفرات" (١٩٣٦)، والتى كتبها بأسلوب مباشر صريح لاذع يذكرنا بجورج أورويل، يقول ما يلى:

"هنا فى العراق، لا نستطيع الهمس بالكلمات، ليس بوسعنا قبول الحقيقة البشعة، أى أننا غير مرغوب فينا، محل كراهية، بل وبغض حقيقى. تُرسم سياستنا بافتراض أن علاقتنا مع هؤلاء الناس دافئة وحميمة.. ثمة كراهية سائدة، وعلى الرغم من ذلك، يُزعم أن تلك الكراهية ليست شخصية، وأنه، وبقدر وجود تلك الكراهية السياسية، فهى محصورة داخل نطاق شرائح الطبقات المتعلمة غير المهمة والتى غالبا ما تكون عاطلة عن العمل".

(١) كان غازى داعما للتيارات القومية الراديكالية التى ظهرت فى العراق وكان معاديا للبريطانيين ويبغض نورى السعيد. أنشأ محطة إذاعته الخاصة التى كانت تشجب المخططات الأنجلو صهيونية بانتظام.. ثم حاول استخدام العناصر القومية بالجيش للإطاحة بالوزراء الموالين لبريطانيا (طارق على، بوش فى بابل) (ويرجح هذا أن موته كان مدبرا) (الترجمة).

ثم يمضى يقول إن هذا حقيقى جزئيا، لكن علينا أن نتذكر أن المسئولين العراقيين يعلمون أنهم لا يمكنهم الاستغناء عن مساعدة البريطانيين، وأن الاختلافات فى اللغة والثقافة كانت تمثل عوائق كئودة فى طريق تكوين صداقات بين البريطانيين والعراقيين العاديين. ثم يضيف:

"والنتيجة هى وجود عدم تناغم سياسى هائل يتغذى على خزعبلات الماضى الكئيبة ويعيق فاعليتنا فى الشرق .. تقبُلنا القديم للإمبراطورية، تحيزاتنا ضد اللون والعرق ورضاؤنا الطاغى عن القدرات التى نمتلكها واقتناعنا بها. أمن الباعث على الدهشة أن يثير هذا الرضا عن الذات الاستياء والغضب؟ لم يصل العراقيون بعد إلى المرحلة التى يستطيعون فيها النظر إلى كل هذا بسخرية واستهزاء، أى السلاح الوحيد الذى يمكّنهم بفاعلية ومقدرة من مجابهة هذا الوضع".

لدى وفاتها، بدا وأن صيتها قد ترسخ دون أدنى شك. وكما عبرت النيويورك تايمز فى مرثية لها "لم يحدث، منذ أيام زنوبيا، أن لعبت امرأة مثل هذا الدور الطاغى فى مصائر الشرق الأوسط". ومن الحقيقى أن زملاءها الذكور بينوا سرعة تقلب آرائها. (كتب لورانس يقول إنها كانت تتبع عواطفها وأهواءها، "تغيّر توجهاتها كل مرة مثل تقلبات ديك الرياح). تقلبت بين تأييد استقلال العرب، ثم حكم البريطانيين المباشر لهم، وفى النهاية إقامة حكم ملكى هاشمى على العراق. لكن، بالإمكان القول الآن، إنها تبدو وأنها كانت أكثر حرصا بكثير من زملائها، تدهمها الشكوك من قراراتهم. بل ربما أن نعزو تأرجحاتها إلى قدرتها المفرطة على الإلمام بالجوانب العديدة للرؤى- رؤى وزارة الخارجية، مكتب الهند، وزراء المستعمرات الذين كانت تراسلهم، وأخيرا رؤى العراقيين. وفرت ممارسات چرترود بل المتمثلة فى السعى إلى لقاء شيوخ العشائر فى مواقعهم وزيارة حريمهم واستضافتهم لتناول الشاى معها. وفرت لها درجة من الإلمام بآراء العراقيين لم يشاركها فيها زملاؤها الذكور. بعد وفاتها، انهال عليها الإطراء واللوم بسبب أهم

إنجازات حياتها: خلق سلالة ملكية هاشمية فى العراق. لكن ذلك النظام ظل صامدا لحوالى أربعين عاما قبل وقوعه تحت وطأة الثورة وإراقة الدماء(١). أحبِطت ما أملت فيه بقسوة من خلال صعود صدام حسين، ثم فى عام ٢٠٠٣ تم تدمير متحف بغداد الذى أسسه ونهبه، فيما وقف (الغزاة الجدد) الأمريكيون يتفرجون لكن المسئولية الأكبر لمأساة العراق المبكرة تقع على عاتق المندوبين الساميين البريطانيين الذين كانوا يجيئون ويرحلون، وعلى رؤسائهم فى مجلس الوزراء البريطانى بلندن. وعدوا بدعم حكم ديمقراطى بالعراق، ثم مضوا يفرضون معاهدات تجعل من الحكم البريطانى غير المباشر جزءا متأصلا من نظام حكم العراق الأمر الذى بذر الاحتقار والاستياء وأدى بأسلوب مميت إلى تآكل شرعية الملكية التى زرعها الأجانب، كما ظل الشقاق بين الأكراد والسنة والشيعة قائما(٢).

لا يستطيع أحد، بالتأكيد، إلقاء اللوم على نوايا چرترود بل النبيلة (!!) أو على خبرتها التى اكتسبتها بشق النفس فى تعقيدات السياسات العراقية. لكن، لا يمكن لسفينة الإبحار لمسافة طويلة فى وجود عارضة فولاذية معينة بها، وبالرغم من كل النجاحات التى حققتها (لنفسها وبلدها) فقد ساعدت چرترود بل على إغراق العراق فى بحر مرير ملىء بما أسماه الشاعر الرومانى ڤيرچيل "دموع الأشياء".

(١) كان ذلك نتيجة طبيعة لما يسمى باهم إنجازات چرترود بل التى حققتها بعشوائية وفقا لأهوائها ولما فيه مصلحة للمستعمرين البريطانيين. (الترجمة)

(٢) الأمر الذى يعود الفضل فيه إلى البريطانيين الذين عمدوا إلى المحاصصات الطائفية والعراقية واتبعوا سياسة فرق تسد. (الترجمة)

الفصل السادس

جنون الشهرة
توماس إدوارد لورانس
(١٨٨٨ - ١٩٣٥)

الفصل السادس

جميع الرجال يحلمون
لكنهم فى هذا غير متساوين
هناك من يحلمون ليلا
فى دروب عقولهم المتربة
ثم يستيقظون نهارا
ليجدوها خيلاء تافهة
أما الحالمون بالنهار
فرجال مخاطر وأخطار
نراهم يتّبعون الحلم المستحيلا
ليجعلوه ممكنا يسيرا
وهذا ما فعلته أنا

توماس إدوارد لورانس

أعمدة الحكمة السبعة (١٩٢٦)

هاهم العرب يصدقوننى
واللنبى وكلايتون يثقون بى
ها هم حراسى يموتون من أجلى!
واعجبى!!
أتقوم الشهرة وذيوع الصيت
على الدجل والخداع والتزوير؟

تأملات لورانس لدى بلوغه الثلاثين "أعمدة الحكمة السبعة"

بين الملايين الذين قاتلوا فى الحرب العالمية الأولى، ذلك الصراع الذى دام سنوات أربع وتورطت فيه ثمانى إمبراطوريات ومعها الولايات المتحدة، وقُدّر ضحاياه بـ٣٢٧٨٠٩٤٨ شخص، ثمة اسم واحد من بين هؤلاء الملايين مازال يتذكره الجميع بأسلوب شمولى. وبعامة، فقد تم نسيان آلاف الجنرالات، البريجاديرات، الأميرالات، والكوماندرات - الذين تكفى أعدادهم لقلب بارجة حربية كبرى - ومعهم جميع رؤسائهم السياسيين تقريبا. لكن ليس لورانس العرب. يرجع الفضل فى هذا إلى عبقريته فى مواجهة كل الأرجحيات، فقد أصبح أعظم مقاتلى هذه الحرب ذيوعا وشهرة هو ضابط المخابرات ذاك ضئيل الحجم، ذو التوجهات الجنسية المُلتبسة، والذى حوّل تمردا مغمورا إلى عملٍ فنى خالد. هنا، نجد تناظرا مضمرا بين هذا وبين اهتمامات لورانس الأدبية. ظل، ومنذ أن كان طالبا بأكسفورد، مولعا بالشاعر هوميروس، وقام عام ١٩٣٢ بنشر ترجمة بليغة لملحمة الأوديسة (الترجمة الثامنة

والعشرين إلى الإنجليزية وفقا لإحصائه هو). وحتى لا ننسى، فإن هوميروس، ذلك الشاعر الأعمى، يُرَكّز فى ملحمته الإلياذة، السابقة على الأوديسة، والتى تروى أحداث حرب طروادة، يركز على أخيل، لورد الحرب الأقل مرتبة والأحدث سنا، الذى اكتسب شهرة خالدة من خلال ثأره لزميل سقط فى القتال.

كان لورانس أخيل الحرب العظمى، الممثل الكومبارس الذى يسرق العرض هيمنته راسخة. مثلا، فى نوفمبر ٢٠٠٦، ذُكِر اسمه ١٩٢٠٠٠٠ مرة على الشبكة العنكبوتية فى أنحاء العالم، وكان أقرب منافسيه من العسكريين البريطانيين هم كيتشنر (٣٣٩٠٠٠ مرة)، وأللنبى (٤١٩٠٠) وهيج (٣٣٦٠٠). ومثل البقايا عصر الأوسطية المقدسة، فقد اكتسب كل ما لمسته يدا لورانس هالة قدسية (تسويقية).

فى سبتمبر ٢٠٠٦، بيعت بوصلة نحاسية قيل إن لورانس استخدمها لمعرفة اتجاهاته وناقته فى الصحراء أثناء الثورة العربية بمائتين وأربعة وستين ألف جنيه

إسترلينى بصالة كريستى للمزادات (الشارى كان مجهولا وكان تقدير ما قبل البيع هو ١٦٠٠٠ استرلينى فقط؛ تم تبدت الشكوك، على الفور، حول أصالة البوصلة وصحة نسبها). يذهب أعداد لا حصر لها من أتباعه المتحمسين فى رحلات للحج من مسقط رأسه بإقليم ويلز وعن طريق أكسفورد إلى كوخه بدورست ومثواه الأخير بكنيسة قريبة فى مورتون. تعلن الوكالات السياحية بالأردن عن "رحلات لورانس" إلى مدينة البتراء بوادى رَم. حتى أن أوهى الأشياء التى تنسب لتى. إى تكتسب ثقلا وأهمية. يمكن لزوار فندق البارون المهيب بمدينة حلب السورية التمعن بوقار فى فاتورة للورانس موضوعة بإطار (لم يُسددها) نظير ست زجاجات من الشمبانيا. ولدى جولة مؤلفىْ هذا الكتاب فى أنحاء سوريا اكتشفا طبعة ثانية غالية الثمن من الصعب العثور عليها من رسالة تخرج لورانس من أكسفورد بعنوان "قلاع الصليبيين" (والتى ساعدته على الحصول على مرتبة الشرف فى التاريخ التى هى مطمح ليس سهل المنال) فى خانٍ للمسافرين مُتاخِم لمدينة پالميرا (تدمر شرقى حمص) التاريخية.

تعتبر ما يسميه هواة جمع القيِّم من المطبوعات "مادة لورانس" ظاهرة تماثل العبادات السرية. صدر من الطبعة الأولى، أو طبعة كرانويل Cranwell من "أعمدة الحكمة السبعة" عام ١٩٢٦ عدد محدود من النسخ بلغ حوالى مائتى نسخة بيعت كل منها بثلاثين جنيها إنجليزيا. وخلال أشهر معدودة عُرِضت النسخة الواحدة بخمسمائة وسبعين جنيها. واليوم، يُعلن عن وجود نسخة واحدة من طبعة كرانويل فى إحدى صالات البيع بأسلوبٍ مدوٍّ وكأنما هى طبعة أولى من إحدى مسرحيات شكسبير. تُرجم "أعمدة الحكمة السبعة" إلى عشرات اللغات – وهو من الكتب الكلاسيكية الحديثة التى لا يُعثر عليها بسهولة – وتقترب مبيعاته من مليونى نسخة على المستوى الكوكبى.

أما فى عام ١٩٨٤، فقد ذكرت إحدى الإحصائيات صدور ثلاثين سيرة كاملة

للورانس بالإنجليزية،! ووفقا لإحصائنا، فقد تضاعف هذا الرقم، مع عدم تضمين ما كتبه الأتراك، الأرجنتينيون، العرب، الإيطاليون، الفرنسيون، الألمان، والإسبان عن حياته. وحقا، فيمكن الآن للفرد المهتم الرجوع إلى خمس بيبليوجرافيات رئيسية تتضمن أعمالاً كتبها لورانس وأخرى عنه، وقد جمع أحدث تلك البيبليوجرافيات فى ٨٩٤ صفحة فيليب أوبريان أمين مكتبة كلية ويتيار Whittier College ومدرب سباق الضواحى. وعلى الرغم من ذلك، كاد لورانس ألا يكون معروفا أثناء الحرب العظمى، واكتشفه مصادفة صحفى أمريكى غُر.

ما يلى هو رحلة انتقائية خلال تلك الأدبيات الضخمة فى محاولة منا للتعاطى من جديد مع أسئلة ثلاثة: هل يتناسب صيته بأية درجة عقلانية مع إنجازاته؟ كيف اكتسبت أسطورة لورانس تلك الأبعاد الملحمية؟ وعلى أية حال، أيستطيع أحد تفسير إغرائه المتنامى المتطور فى عصر يقلل من قيمة البطولات؟

من الأمور الدالة أن فيلما سينمائيا كان أول من استحضر "لورانس العرب" وسحره. باستطاعتنا استحضار صورته السينمائية فى مخيلاتنا: فى بداية عام ١٩١٨ يصل شاب يُعرف باسم لِول توماس فى العشرينيات من العمر، شبّ فى ولاية كلورادو، وصُقل فى جامعة برينستون، يصل إلى لندن سعياً وراء دعاية لقضية الحلفاء ترفع المعنويات. يطلب النصح من الروائى چون بوكان مدير المعلومات فى زمن الحرب بوزارة الخارجية . يعلم توماس أن دايڤيد لويد چورچ رئيس الوزراء البريطانى قد سئم الطريق المسدود الذى انتهت إليه الأوضاع على الجبهة الغربية، وأنه قد أرسل السير إدموند أللنبى، الجنرال بسلاح الفرسان المولع بالقتال والذى كان يخدم آنذاك بفرنسا، كى يحرك "المشهد الفلسطينى" ويزلزله.

نقلة مفاجئة سريعة إلى الشرق الأوسط حيث يصل الشاب لِول وينضم إليه هارى تشيز المصور الأمريكى. يتذكر توماس قائلاً "لم أكد أصل القاهرة إلا وانهالت

الشائعات الممتعة عن ثورة عربية ضد الأتراك. بيد أنه من اللافت أن اسم لورانس لم يكن معروفا سوى لحفنة من الضباط البريطانيين، تحدث بعضهم عنه بلا مبالاة، أو شوهوا أفكاره بصراحة، ومعها تكتيكاته، وتململه بالروتين المقدس للجنود المهنيين". وفيما مضى يخترق سيناء، فى طريقه إلى فلسطين، أخذ الأمريكى يسمع المزيد والمزيد عن ذلك المحارب غريب الأطوار، ولم يكن لقاؤهما الأول بالقدس محبطا. يُبصر توماس رجلا نحيفا قصيرا مَكسُواً ("اللفظ الوحيد لوصف ملبسه") برداء أبيض فخيم بطوّقه حزام علّق فيه رمح من الذهب، يرتديه عادة نسل الرسول. يحملق توماس فى تلك الشخصية المهيبة الباردة الذى قدمه إليه السير رونالد ستورز الذى كان قد عيّن لتوه حاكما للمدينة المقدسة. وتحت الغُترة البيضاء المثبتة بعُقال ذهبى، يرى الأمريكى عينى لورانس الزرقاوين الوامضتين وملامحه النورمندية/ الإنجليزية: "بدا حقا تجسيدا لجندى صليبى فى جيش الملك ريتشارد -، ولو أنه كان قد أُنعم عليه بجسد قوى ضخم، لكان تجسيدا لقلب الأسد ذاته".

كان ذلك لقاءً أوّليًا تمت روايته ببراعة تماثل تلك التى استخدمها صحفى آخر، أى مورتون ستانلى فى روايته للقائه بالدكتور ليڤينجستون (مكتشف شلالات ڤيكتوريا) فى برارى أوجيجى. يرافق لوِل توماس، وقد وقع فى أسر سحره، فى خطواته إلى دمشق فيما تلتقط كاميرا هارى تشيز، جزافيا، صورا للورانس الراغب فى ذلك "فى ثيابه الأكثر بريقا". وعلى الرغم من ذلك، فحينما قام توماس بدور الراوى فى العرض المصور الذى دام طويلا وأطلق بذلك اسم "لورانس العرب"، أكد على تواضع اكتشافه (لورانس) وإنكاره لذاته، ولم يصحح توماس الذى كان أول من قام بالدعاية للورانس، ما قاله فى هذا الصدد إلا بعد حادث الموتوسيكل المميت بشارعٍ بدورست والذى راح ضحيته لورانس عام ١٩٣٥. اعترف لوِل توماس فى كتاب تذكارى جمْعىٍ عن لورانس بالقول: "والآن، وقد رحل، فليس ثمة ضرورة لمثل هذا الهراء. فقد كان لورانس يتموضع أمام الكاميرا لالتقاط صورٍ له بزيه العربى برغبة منه، بل إنه أيضا، حضر فيما بعد، سراً، خمسة من عروض توماس المصورة عن أسفاره وسيرته فى لندن: "لم أُخبر أحداً أبدا بمكانه ولم أقل شيئا عن تلك

الزيارات. وبما أننى، كنت، وبكل إخلاص، أرسم له صورة كأكثر الرجال تواضعا بإطلاقه، أردت أن أتحاشى التفسيرات المعقدة (أى أنه كان تواقا للشهرة لكنه لم يكن على استعداد لتقبل ثمنها بتطفل الناس على حياته)". جاء حكم توماس المدروس فَطِناً، يليق ببطله الأنجلو/ نورماندى، وختمه بفقرة غدت الآن مبتذلة لكثرة تداولها:

"أعتقد شخصيا أننى ارتكبت خطأ جسيما فى علاقاتى بلورانس. كثيرا ما كان يكرر أنه يرغب أن يتركه العالم وحده. وكان يصر ضاحكا أنه لم يُرد أبدا أن تقال كلمة واحدة عنه. لكنه كان يحب ذلك فى أعماقه (أن يكون موضوعا للأحاديث). الخطأ الذى ارتكبته هو أننى صدقت قوله فى نهاية المطاف. وبعد أن كرست عددا من السنوات لنشر قصة إنجازاته، تركته وحده تماما. من ثم، فربما اكتسب الانطباع بأننى فقدت اهتمامى به.. ثمة مثل تركى قديم يوضح جيدا شخصية تى. إى وتعنى ترجمته امتلكَ عبقرية الرجوع إلى بريق الشهرة".

قال چورچ أورويل عن غاندى إنه يجب الحكم بإدانة جميع القديسين إلى أن تثبت براءتهم. كان من المحتم أن يصبح لورانس هدفا لا يقاوم للهدم والتقويض، وهى عملية استهلها فى بريطانيا الروائى ريتشارد ألدينجتون الذى نبش فى كتابه "Biographical Enquiry" (١٩٥٥) أحداثا منوعة كانت قد ظلت مجهولة بدا فيها تى. إى بأسلوب جلى أو ظاهرى يطلب المستحيل. ولأول مرة أخرج ألينجتون إلى العلن ما ظلت أسرة لورانس وأصدقاؤه يخفونه: أن لورانس كان ابنا غير شرعى لبارون أنجلو/أيرلندى يسمى تشابمان كان قد هرب مع مربية العائلة، وهجر زوجته وبناته الأربع واستقر بويلز ثم بأكسفورد حيث نشأ "ند" (لورانس) وأشقاؤه الأربعة (كان السير توماس تشاپمان قد غير اسمه قانونيا، وعَرَف "ندِ" فى صباه حقيقة نسبه بما يضمره هذا من ظلالٍ فروسيةٍ ومخزية فى آن).

وبعد ذلك بعقد من الزمان حينما وثّقت صحيفة الصنداى تايمز ميول لورانس السادو/مازوكية الشاذة اتسعت الشروخ المعيبة لسمعته. وفى عام ١٩٧٧ كتب

الراحل هيو ترفور - روبر، المؤرخ بأكسفورد (الذى يعتبر مقياسا موثوقا للتوجهات الأكاديمية فى عصره) كتب مستخفا بلورانس بصفته أقل "المشعوذين والمحتالين" جاذبية فى ذلك القرن. رأى ترفور - روبر فى مقاله بالنيويورك تايمز أن "الأمر الذى لا يصدق" هو نجاح ذلك، أى أن ثمة عقلاء فطنين أخذوا "دجالا عملاقا" على محمل الجد، دجالا سِجِّله الحربى ملتبس مشبوه، تماما مثل طموحاته الأدبية، هكذا أكد ترفور- روبر.

لكن، وعلى الرغم من الوقائع التى فضح ألدينجتون أمرها، فإن التيار تحول مرة أخرى لصالح لورانس فى المخيلة الشعبية. أظهر المخرج دايڤيدلين تعقيدات شخصية لورانس واستغلها دراميا فى فيلمه الملحمى "لورانس العرب" الذى حاز على الأوسكار، والذى جسّد فيه بيتر أوتوول شخصية لورانس بأسلوب لا يمحى ذكره. ومنذ حرب الأيام الستة، ولدى كل انفجار للأحداث فى الشرق الأوسط، يعيد المدنيون والجنود معا اكتشاف "الثورة العربية" من خلال الفيلم والكتاب. فى ربيع ٢٠٠٥، كانت ذروة الموسم بلندن معرضا تفصيليا بعنوان "لورانس العرب: السيرة، الأسطورة" بمتحف الحرب الإمبريالى، رافقته سيرة تصويرية سخية، وبنفس العنوان، جمّعها مالكولم براون منتج البى بى سى. (بين الأشياء اللافتة فى العرض، كان إكليل من البرونز وضعه القيصر ويلهلم الثانى على قبر صلاح الدين بدمشق، واستولى عليه لورانس وأرسله إلى متحف الحرب ومعه تعليق بالقلم الرصاص: "انتزعته لأنه لم يعد يصلح لصلاح الدين"). كانت رسوم الدخول إلى المعرض ٧ جنيهات إسترلينى، ودفع كل من مهاويس لورانس ٣٥ جنيها إسترلينيا لحضور منتدى ليوم واحد عنه. اكتملت احتفالية تألّية لورانس بإعلان البى بى سى عن أنهم يعدون فيلما وثائقيا مهما آخر عن الكولونيل لورانس، فيما بُثّت العديد من القصص الإخبارية على جانبى الأطلس وتقارير تقول إن قوات التحالف فى العراق يقرأون تأملاته عن التمرد، وعن الشراكة مع العرب ويتمعنون فيها!!!

بالإمكان فهم هذا الاهتمام المتجدد، وعلى الرغم أن لورانس كان غير تقليدى

كاستراتيجى إلا أنه من الصعب القول إنه كان دجّالا. كان السير بازيل ليدل هارت، المحلل العسكرى البريطانى الفذ (١٨٩٥- ١٩٧٠) من أكثر المشاهير اللامعين الذى دافعوا عنه. كان قد حارب على الجبهة الغربية، ومن ثم غدا يبغض الأسلوب المتبلد لاستنزاف الدماء فى الخنادق. وبعد الحرب، وفيما كان يعمل مراسلا حربيا للديلى تلجراف، استرجع ليدل هارت إنجازات "القادة العظام" من أمثال جنكيز خان الذين اعتمد رُماتهم وهم يمتطون الخيول على المفاجأة والحركة لسحق الأعداء الذين يفوقونهم عدداً. أصبح ليدل هارت من المناصرين المبكرين للحروب الميكنة وطبق نظرياته بنجاح مفرط الجنرال هاينز جودريان من القوات الألمانية. انتهى ليدل هارت بعد أن درس كتاب "الثورة العربية للورانس" إلى أنها "قلبت المبدأ العسكرى التقليدى بأسلب حوّل ضعْف العرب إلى قوة وقوة الأتراك إلى ضعف"، لا تستطيع أية دولة محاربة خوض حرب برية دون أن تعتمد على خطوط السكك الحديدية من أجل الإمدادات، هكذا ذهب منطقه، وتنبأ بأن ما فعله العرب أمس، من المحتمل أن تضطلع به غدا الطائرات والدبابات ورجال حرب العصابات المتحركون.

حدث وأن كان ليدل هارت المحرر العسكرى لدائرة المعارف البريطانية، وفى عام ١٩٢٧ حث لورانس على كتابة مدخل عن حرب العصابات. أجابه لورانس من الهند، حيث كان متموضعا كفنى طائرات فى سلاح الطيران الملكى، يعمل تحت اسم شو، واقترح عليه أن يُجمّع معا مجتزآت ذات علاقة من "أعمدة الحكمة" ومن مقال له عن الثورة العربية كان قد نشر عام ١٩٢٠ بدورية آرمى كوارترلى. وهكذا فعل ليدل هارت، وضمت الطبعة الرابعة عشرة من دائرة المعارف البريطانية (١٩٢٩) تحليلاً مستقى من المصدر مباشرة عن الحرب غير النظامية. وتحته توقيع لورانس بالحروف الأولى "T.E.L" حينما يُقرأ اليوم، نجد به ترددات واضحة للمشاق التى يواجهها الأمريكيون بالعراق.

يروى لورانس أن التمرد بدأ عام ١٩١٦ بهجوم شنه رجال قبائل تعوزهم الخبرة على حامية تركية بالمدينة المنورة. فشل الهجوم وتمكن الأتراك من إرسال دعم للحامية بالقطارات من سوريا. ثم تمكن المحاربون العرب من الاستيلاء على مكة التى تقع على بعد ٢٥٠ ميل من المدينة. تقدمت بعض من القوات التركية، بعد أن تأخرت، لاسترداد مكة. وفى هذه الأوضاع، هكذا يكتب لورانس، "فإن الجنود من جميع البلاد اعتمدوا فقط على النظاميين لكسب الحرب. كان الرأى العسكرى مهووسا بمبدأ فوخ (المارشال الفرنسى فرديناند فوخ) بأن قاعدة الحرب الحديثة هى السعى إلى جيش العدو، مركز قوته، وتدميره فى المعركة. وبما أنه لم يكن لغير النظاميين أن يهاجموا المواقع، فقد رؤى أنهم غير قادرين على فرض القرار".

يمضى بقول فى مقاله بالموسوعة إنَّه قد خَطر للكاتب أن فاعلية غير النظاميين تكمن فى (الضرب) فى العمق، لا فى المواجهة، وأن السبب فى تردد العدو طويلا كان هو التهديد بحدوث هجوم على الجناح الشمالى للجيش. "كان الجناح الفعلى التركى يمتد من خط الجبهة إلى المدينة، لمسافة تبلغ حوالى ٥٠ ميلا، لكن إذا تحركت القوات العربية شمالا باتجاه خط الحجاز الحديدى خلف المدينة، فقد يمتد هذا التهديد (ومعه جناح العدو) حتى يُحتمل له الوصول إلى دمشق.. كان لهذا التحرك الغريب مفعول السحر".

ظلت نصف القوة التركية بالمدينة المنورة وسيطرت عليها حتى الهدنة، فيما تم نشر بقية الجنود بمحاذاة خطوط السكك الحديدية فى مواجهة رجال حرب العصابات العرب. "وطوال المدة التى تبقت من الحرب، ظل الأتراك فى وضع دفاعى وكسب رجال القبائل العرب الميزة بعد الميزة حتى أنهم، حينما حل السلام، كانوا قد أخذوا ٣٥٠٠٠ أسير تركى وأوقعوا مثلهم من القتلى والجرحى والمنهكين، واحتلوا ١٠٠٠٠٠ ميل مربع من أراضى العدو ولم يتكبدوا سوى خسائر قليلة".

وفى الواقع، فقد كانت الحسابات فى صالح غير النظاميين. قدَّر لورانس أن المنطقة المتنازع عليها تتكون من حوالى ١٤٠٠٠٠ ميل مربع. وبدون شك، كان

بإمكان الأتراك الدفاع عن كل تلك المنطقة بحفر خندق لو أن العرب حاربوا كجيش نظامى بأعلام مرفرفة. "لكن تخيل المتمردين وأنهم شىء أثيرى، شىء يتعذر إلحاق الضرر به أو إصابته، غير ملموس، دونما مقدمة أو مؤخرة، ينجرف فى الأنحاء كالغاز؛ كانت الجيوش كالنباتات، ثابتة كوحدة مكتملة، متجذرة برسوخ، تتغذى من خلال سيقانها الطويلة حتى الرأس. وكان العرب يماثلون البخار، يهبون موجهين ضرباتهم حيثما تخيروا. بدا وأن الجندى النظامى عاجز فى عدم وجود هدف. بإمكانه أن يشعر أنه يمتلك الأرض التى يجلس عليها والهدف الذى يستطيع توجيه بندقيته إليه". وفقا لحسابات لورانس، كان الأتراك بحاجة إلى ٦٠٠٠٠٠ جندى ليتمكنوا من التعاطى بفاعلية مع هجمات الأعراب المحليين مجتمعة - لكن لم يكن لدى الأتراك سوى ١٠٠٠٠٠ رجل متاح. (قُدِّرت مساحة العراق، على سبيل المقارنة بـ ١٦٩٢٤٩ ميل مربع).

أما عن الوضع القانونى لرجال حرب العصابات، فمن المجدى أن نضيف أن ذلك المقال الذى نشر فى دائرة المعارف البريطانية سبقته فقرة بليغة محكمة كتبها السير توماس باركلاى عضو الجمعية القانونية الدولية. أوجز الأحكام التى تم الاتفاق عليها فى بروكسل عام ١٨٩٩ ولاهاى عام ١٩٠٧ونصت على أن غير النظاميين يستحقون الاعتراف بهم كمقاتلين شرعيين إذا كانوا يقاتلون تحت إمرة قائد، ويرتدون سمة مميزة، ويحملون الأسلحة علنا، ويعملون وفق قوانين الحرب. وفى حالة الغزو أو الاجتياح، فإن من يحملون السلاح تلقائيا "سوف ينظر إليهم على أنهم قوات مقاتلة إذا حملوا الأسلحة علنا واحترموا تقاليد الحرب وأعرافها، هذا على الرغم من أنهم قد لا يكون قد أتيح لهم الوقت لتنظيم صفوفهم".

بيد أن سجل الحسابات هذا بحاجة إلى ترصيد وموازنة. إن استراتيجية لورانس هى صياغةٌ لإنكار النصر، تنويع على القول المأثور أن رجال العصابات يكسبون إذا هم لم يخسروا، وتخسر الجيوش إذا لم تكسب. وفى الواقع، فقد

احتاج الأمر إلى جيش ألنبى الضخم التقليدى فى عامى ١٩١٧ - ١٩١٨ لاقتلاع القوات التركية والاستيلاء على القدس ودمشق، فى وجود القوات غير النظامية تقوم بدور داعم. لم يكن لورانس جنديا محترفا، وكان يعمل ضابط علاقات استخباراتية مع العرب، لا كقائد أو استراتيجى كبير. استاء ضباط الجيش البريطانى الذين كانوا يتعاونون كفريق مع الضباط الأتراك الهاربين من الجيش، استاءوا من خصٍّ لورانس بالمديح المفرط لتدميره خطوط إمدادات الجيش التركى. كما عاب الأتراك الموالون عليه عدم اهتمامه الواضح بالضحايا المدنيين نتيجة منعه نقل شحنات الأطعمة والمواد الطبية إلى المدينة المنورة. أما ليدل هارت فيشك المرء أن تكريسه لمبدأ الحركة شكل بؤرة المنظار الذى كان ينظر من خلاله إلى "الثورة العربية"، ورأى ما كان يرغب فى رؤيته، (ومضى حتى وفاته عام ١٩٧٠ يدافع عن لورانس ضد جميع ناقديه).

إن النقاط الأكثر هشاشة وأكثر عرضة للتفنيد فى عمل لورانس كمخطط استراتيجى تكمن فى مجال أهداف ما بعد الحرب، ذلك المجال الرخو المطاط المليء بالمسام. كان أحيانا يتحدث عن رجال حرب العصابات بصفتهم محاربين بازغين من أجل الحرية يقودهم أمراء مستنيرون سعوا إلى استعادة مجد بلاد العرب القديم بشراكة ودية مع البريطانيين. كان هذا هو البعد النفسى الذى أكد عليه فى "أعمدة الحكمة" وعلّق على رجال حرب العصابات بالقول "كانت عقولهم غريبة مظلمة، مليئة بحالات الاكتئاب والانتشاء، تعوزهم الأحكام والقواعد، لكنهم يفوقون أى أحد فى العالم من حيث الحماس والولاء وخصوبة عقيدتهم. كانوا شعب بدايات فقط، الأفكار المجردة هى أقوى حوافزهم، يُبدون شجاعة بلا حدود وتنوعا أثناء المسيرة، لكنهم لا يكملون حتى النهايات ولا أهداف لهم". وباستثناء حديثه عن تقسيم المملكة العربية المستقبلية بين أبناء حسين، فليس ثمة إلمام فى كتابات لورانس بما ستكون عليه تلك المملكة فى المستقبل، أو أين تقع حدودها، أو ما سيحدث لأقلياتها الدينية والقبلية والإثنية كبيرة العدد. ومثل رجاله فى حرب العصابات، كانت أفكار لورانس وخططه السياسية مجرد بخار.

أضيف إلى هذا قدر متعارض من البرجماتية الصلبة القاسية. كان، ومعه معظم الضباط البريطانيين بمسرح الأحداث، يعارضون المخططات الفرنسية الكلونيالية بالنسبة لسوريا ولبنان. لكنه كان يعلم أن اتفاقية سايكس/بيكو سيئة السمعة لعام ١٩١٦ كانت بالفعل قد قسّمت أراضى الإمبراطورية العثمانية بين بريطانيا وفرنسا وروسيا وكانت الشام من نصيب فرنسا. يعترف فى "أعمدة الحكمة" بأنه كان "منذ وقت مبكر قد أفشى سر وجود المعاهدة" إلى الأمير فيصل، القائد العسكرى للثورة، وحثه على "أن يساعد البريطانيين لدرجة تجعلهم، بعد تحقق السلام، لا يستطيعون، خجلاً منه، أن يطلقوا عليه النيران كى ينقذوا بنود المعاهدة". ثم نراه، فى كتابات أخرى، وهو يخاطب رؤساءه سرا، يكتب باحتقارٍ متعالٍ عن العرب، كما جاء فى ورقة استشارية كتبها لهيئة الأركان عام ١٩١٦ حيث قال "إذا تم التعاطى معهم كما ينبغى فسوف يظلون فى حالة من الفسيفساء السياسى، نسيجا من الإمارات والولايات الصغيرة المتنافسة غير قادرين على التلاحم (وهذا هو الهدف)" (كتب هذه الجملة بأحرف مائلة على سبيل التوكيد).

وككل، فقد ترك لورانس وراءه كتابات محيرة مربكة. أحيانا نجده مدافعا تقليديا يتبنى المصالح الإمبريالية البريطانية، وأحيانا أخرى نجده على عكس ذلك مدافعا عن المقموعين، ويتوقف هذا على اللحظة التاريخية، النزوة، أو الظروف. تعبر عالمة النفس البريطانية كاثرين تيدريك عن إحباط شائع فى دراستها عن المستعمرين البريطانيين عام ١٩٩٢، تكتب قائلة "لا يمتلك أى أحد منا اتساق الشخصية، تلك السمة التى نُحب أن نعتقد أنها طبيعية معيارية. لكن يبدو هذا التوجه (عدم الاتساق) مبالغا فيه فى شخصية لورانس. إنه حرباء متلونة متقلبة بما يفوق أى أحد منا، جزئيا بدافع فضوله عن نفسه وعن تأثيره فيمن حوله، وجزئيا لأنه لم يكن بوسعه سوى ذلك". لا يملك المرء أن يعجب ما إن كان لورانس الحقيقى قد تبلور وأصبح متسقا أبدا فى سنوات نضجه!

وعلى الرغم من شخصيته المتلونة المتقلبة، فقد ترك لورانس بصمته المهمة على

السياسة. ولفهم السبب، علينا أن نقدم رسما تخطيطيا للمشهد. لدى اندلاع الحرب العظمى عام ١٩١٧، لم يكن سوى القليلين من النخبة الحاكمة يملكون خبرة واقعية مباشرة عن الشرق الأوسط العثمانى. كان بين هؤلاء السير مارك سايكس عضو البرلمان المداهن المتملق، وعضو آخر ماهر بالبرلمان هو المحترم أوبرى هربرت؛ والسير رولاند ستورز المثقف سريع البديهة والذى كان يحتل منصب وزير شئون المشرق بالقاهرة، وجرترود بل والتى كانت قد أصبحت بالفعل شخصية بارزة فى مجال الدراسات العربية؛ واللورد كيتشنر بطل أم درمان الذى ترك منصبه كبروقنصل بريطانى فى مصر ليترأس مكتب الحرب (وزارة الحرب) بلندن.

كان هؤلاء هم من كان يطلق عليهم "المَشرقيين"، وكان دورهم مفصليا إذ كان عليهم عكس استراتيجية بريطانيا تجاه الإمبراطورية التركية متعددة الإثنيات تلك الاستراتيجية التى ظلت تمارَس لمدة قرن من الزمان. كانت السياسة الإمبريالية البريطانية التى ظلت راسخة لمدة طويلة هى الحفاظ على سلامة آسيا العثمانية لأسباب واقعية- حماية الطرق المؤدية للهند، كبح جماح توسع روسيا باتجاه الشرق، وتعزيز التبادل التجارى حتى فيما أصابت الإمبراطورية التركية الشيخوخة والوهن. لكن، ومنذ اللحظة الطائشة التى تخلت فيها تركيا عن حيادها لتتحالف مع ألمانيا فى أواخر عام ١٩١٤، تحدى "المشرقيون" تلك السياسة التقليدية.

لكن حتى قبل دخول تركيا، رسميا، الحرب، كان الشريف حسين، راعى مكة، وحاكم الحجاز، قد كتب خطابا فى سبتمبر ١٩١٤، إلى كيتشنر وزير الحرب البريطانى، يقترح فيه أن العرب بإمكانهم مساعدة الحلفاء بفاعلية. أتت إجابة كيتشنر فى أكتوبر، والتى ربما كان ستورز هو من صاغها، مرحبة أشد الترحيب "ظللنا حتى اللحظة ندافع عن الإسلام ونؤازره فى شخص الأتراك: لكن من الآن فصاعدا (سنفعل ذلك) فى شخص العرب النبلاء. ربما يتولى عربى أصيل الخلافة فى مكة والمدينة، ومن ثم، قد ينجم الخير، بعون الله، من كل هذا الشر القائم الآن"

(كان السلاطين العثمانيون قد تولوا منصب الخلافة بعد أن غزت تركيا بلاد العرب فى القرن السادس عشر، وكان الخليفة هو أسمى منصب روحانى، وكان العرب قد سعوا منذ وقت طويل، إلى عودة نظام الخلافة).

كان لدى مارك سايكس، وبدرجة أقوى من غيره، موهبة، استبصار مغزى تلك التوجهات والتغيرات المتقلبة، من ثم أسرَّ إلى صديقه أوبرى هربرت ذى الصلات الجيدة، ونجل إيرل كارنارڤون بما يرى أن على البريطانيين فعله من أجل اغتنام الفرص:

"إن بنى صدر هم من علينا أن نجتذبهم إلى صفوفنا. إنهم بدو صحراويون ويكرهون الأتراك من أعماقهم. بيد أن عليهم هم أن يأتوا إلينا، لا العكس. وعلينا أن نقيم قاعدة فى العقبة ونعين بها ضابط استخبارات له سلطات واسعة.. على ضابط الاستخبارات هذا أن يستشف أفكارهم - عليه أيضا أن يعرف ما إن كان بنو صدر على استعداد للصلح مع الدروز. ثم يعرض عليهم أثمانا عالية مبالغا فيها نظير الجمال، ولنقل ما بين خمسين وستين جنيها إسترلينيا عن الناقة الواحدة، ثم مكافآت (لتخريب) أعمدة التلغرافات، ٢ فرنك عن كل عامود، ثم مكافآت عن أعمال تدمير خط الحجاز الحديدى، وأثمان مرتفعة نظير مدافع موزر التركية، ومبالغ تدفع للهاربين من الجيش التركى - سيتولى بنو صدر تلك الأمور كلها كما يجب(١)".

ثمة ما يُقال فى صالح سايكس إلى جانب دوره فى معاهدة سايكس/ بيكو المُدانة على نطاق واسع. لقد كان صديقا للحركات القومية - العربية، الصهيونية، والأرمينية - وكان هو صاحب فكرة إقامة "المكتب العربى"(٢) بالقاهرة الذى كان تى. إى. لورانس بطل العملاء به. كان سايكس، قد تنبأ فى خطابه إلى أوبرى هربرت، وبأسلوب يدعو للاستغراب، بالمسار الذى ستتبعه الثورة العربية (التى كان

(١) الأرجح انه كان يقصد بنى صخر، لا بنى صدر، وهذا منطقى من الناحية الجغرافية. (المؤلفان)

(٢) مكتب استبخاراتى للتجسس. (الترجمة)

هو قد صمم لها علمها). دعا، جوهريا، إلى دعم سخى للانتفاضة القومية، وإلى تقديم حوافز مالية للمتمردين، وإلى تخريب خطوط السكك الحديدية التركية، والاستيلاء على ميناء العقبة ثم استخدامه قاعدة، وفى تلك الأثناء، يتم الاعتماد على العملاء البريطانيين لإنشاء روابط مع البدو الرحل، أو العرب النبلاء الخالصين- أى الأعمدة السبعة جميعها تقريبا، لخطة لورانس، مع عدم اهتمام مماثل بما قد يحدث بعد ذلك.

فى ذاك اليوم من شهر أغسطس الذى دخلت فيه بريطانيا الحرب كان لورانس موجودا بإنجلترا ومعه عالم الحفريات لينارد وولى، لإكمال مسحهما المشترك لشبه جزيرة سيناء، لحساب "صندوق استكشاف فلسطين"(١). كان لورانس آنذاك قد قضى أربعة فصول مع وولى يعملان على حفريات لإحدى المدن الحيثية على شاطئ الفرات (موقع الحدود السورية التركية الآن) وكان يعلم مواقع المنطقة وتضاريسها، وفى غضون أسابيع كان قد استلم منصبا بالقسم الجغرافى بوزارة الحرب، ثم فى ٢٦ أكتوبر تم تقليده رتبة ملازم ثانٍ. بعد ثلاثة أيام، وفيما أعلنت تركيا الحرب رسميا، توجهت قوة مهام أنجلو/هندية إلى ما بين الرافدين. وبعد أن احتلوا البصرة، بدأ الغزاة فى التحرك أعلى النهر باتجاه بغداد، أول هجوم فى العملية التى سرعان ما أطلق عليها المقاتلون مسرح ما بين النهرين Mespot Theater.

أُرسِل لورانس، فى شهر ديسمبر، إلى مصر حيث انضم إلى وحدة الاستخبارات التى يرأسها الكولونيل المجرّب جيلبرت كلايتون، وكانت تلك هى الشرنقة التى خرج منها فيما بعد "المكتب العربى Arab Bureau" الشهير. كتب مؤرخ المكتب، بروس وسترايت يقول إن لورانس اندفع فجأة إلى القاهرة بحماس

(١) لخدمة المشروع الصهيونى (الترجمة).

يفوق توقعات رتبته "استغرق باستمتا ع فى دور الشخص المزعج الخارج على الجماعة- مضى يلوى قواعد العمل الرسمى الرصينة المبجلة كلما سنحت له الفرصة". أسمى هو وزملاؤه أنفسهم "المقتحمين Intrusives" وكان هذا هو الاسم الكودى التلغرافى للمقر العام للاستخبارات. فيما بعد كتب لورانس يقول فى هذا الصدد" كان مقصدنا هو اقتحام صروح السياسة البريطانية التقليدية، وتشكيل شعب جديد فى الشرق". كان بين الوافدين الجدد لينارد وولى، أوبرى هربرت، وفليب جريڤر (مراسل التايمز المتحدث بعدة لغات). ثم زارتهم فيما بعد چرترود بِل، "المقتحمة" الأنثى الوحيدة. اتخذوا من فندق السافوى، الذى كان ديكوره مزيجا من الموتيفات الشرقية والغربية، عرينا لهم، وكان يؤم باره العسكريون من مختلف الرتب.

أثناء عام ١٩١٥ بدت جبهة الشرق الأوسط وأنها تمور بالتوقعات. فى إبريل انضمت إلى المتطوعين من أستراليا ونيوزيلاندة تحت القيادة البريطانية قوة فرنسية من أجل بدء هجوم دام عشرة أشهر على غليبولى، تلك المحاولة المُجهَضة لإخراج تركيا من الحرب. فى بلاد الرافدين، تموقع جيش أنجلو/ هندى مستعدا، بقيادة الماچور جنرال السير تشارلس تاونسند، لهجوم خانق شامل للاستيلاء على بغداد. فى تلك الأثناء، كان الملازم لورانس يجلس على مكتبه، بصفته محلل خرائط، ومستجويا للأسرى. بدا نافد الصبر قاتم المزاج بسبب المذبحة التى حدثت بفرنسا وكان بين ضحاياها شقيقه الأكبر فرانك، والأصغر ويل. فى نوفمبر، كتب لأسرته خطابا يقول فيه "لا يبدو من الصواب، بأسلوب ما، أن أمضى أعيش فى سلام بالقاهرة". بيد أنه كان ثمة تبادل للخطابات أثناء الحرب، هو الأكثر إثارة للفضول والجدل حتى الآن، والذى أدى إلى إرسال لورانس إلى بلاد العرب دونما تخطيط، وتثبيته هناك.

أتت المبادرة من حسين شريف مكة بالوراثة والذى كتب إلى السير هنرى

مكماهون المندوب السامى البريطانى بمصر، يقترح فيه القيام بـ "عملية مشتركة" نظير اعتراف بريطانيا باستقلال "الأمة العربية جمعاء". التُقِط عرضه، أضيفت إليه التفاصيل، وُضِعتَ له شروط، وأعيد تعريفه بأسلوب مُلتبِس فى مراسلات سرية استمرت حتى مارس ١٩١٦، مولِّدة جدلا خلافيا مازال قائما حول من وعد ماذا ولمن. تزامن ذلك التبادل مع مفاوضات سايكس پيكو السرية مع فرنسا أولا، ثم مع روسيا حول تقسيم الغنائم العثمانية بعد الحرب. كان ثمة تناقض واضح فى المغزى، إن لم يكن فى المحتوى الحرفى، بين اتفاقية سايكس پيكو والرسائل المتبادلة بين مكماهون وحسين. وعلى الرغم من ذلك، وكما تُذكرنا المؤرخة إليزابث مونرو، لم يبدُ الفرق كبيرا آنذاك، إذ إن "عام ١٩١٦، كان آخر أعوام العالم القديم المألوف للإمبراطوريات سليمة الحدود، للخطابات المتبادلة بين الشخصيات المختلفة، للاتفاقيات السرية التى يتم التوصل إليها فى الخفاء، وللتعاطى مع جميع السكان المختلفين وكأنهم ملكيات منقولة وعبيد. كان أيضا العام الأخير لغياب النقد من قبل الحلفاء المعادين للإمبريالية".

كان ذاك هو المشهد فى يناير ١٩١٦ حينما، وبمبادرة من سايكس، ومعارضة قوية من اللورد تشارلس هاردينج نائب الملك بالهند، حينما وافقت هيئة من مختلف الدوائر والأقسام على إنشاء مكتب عربى بالقاهرة. لكن بحلول الربيع، كان الحماس قد فتر بالقاهرة. انهارت حملة غليبولى وفشلت، وأُجبرت قوة تاونسند الأنجلو/ هندية، بعد أن كادت تصل إلى أبواب بغداد، على الانسحاب إلى مدينة الكوت الصغيرة الواقعة على شاطئ النهر. وفى الكوت، عاش حوالى ١٣٠٠٠ جندى، ومعهم مدنيون غير مقاتلين على حصص طعام مقننة شحيحة وسط العرب المتململين، بانتظار قوة الإغاثة المرتقبة التى لم تصل. وفى لندن، سعت حكومة الائتلاف المتململة، وقد واجهتها الخسائر على جميع الجبهات، إلى عقد صفقة لإخراج القوات من مدينة الكوت. ولتحقيق هذا، تم إرسال لورانس إلى بلاد

الرافدين، وكانت تلك أولى مهامه الميدانية، حيث ذهب إلى هناك بزعم إعطاء المشورة حول الرقابة الجوية، فيما كانت حقيقة مهمته هى المساعدة على دفع فدية نظير إطلاق سراح الجنود المحاصرين. بمجرد وصوله إلى البصرة، انضم إلى أوبرى هربرت الذى كانت رئاسة مجلس الوزراء البريطانى قد فوضته فى تقديم مليون جنيه إسترلينى (تضاعف هذا المبلغ فيما بعد) إلى خليل باشا القائد التركى نظير رفع الحصار عن القوات. تجاهل الجنرال العثمانى بعجرفة عرض الفدية قائلا إنه لن يوافق إلا على تبادل الأسرى الجرحى وعلى شروط متساهلة لاستسلام الجنرال تاونسند (وكلبه). وبعد ١٤٧ يوم، اقتيد ١٣٠٠٠ جندى معظمهم من الهنود، ومن غير المقاتلين كأسرى حرب: لم يتبق منهم على قيد الحياة بعد الحرب سوى حوالى ربعهم.

ساعدت هذه المهمة على تشكيل لورانس، أتاحت له إطلالة مباشرة على الجيش التركى وقادته، وأيضا على قوة المهمات الأنجلو/هندية (لفت نظره ما بدا وأنه نفور الهنود من العرب). التقى بالبصرة باللاعبين السياسيين البريطانيين الرئيسيين، ومن بينهم السير پيرسى كوكس المسئول السياسى البريطانى رفيع المستوى فى بلاد الرافدين. لكن وبشكل أعم، كانت مهمته إيذانا بالجانب الأكثر فظاظة من الاستراتيجية البريطانية، اعتمادها على الذهب كطُعمٍ ورافعة.

بحلول ربيع ١٩١٦، كان صناع سياسة الشرق الأوسط برئاسة أعضاء مجلس الوزراء البريطانى، قد اتفقوا على الخطوط العريضة لما شعروا وأنه الطريق الصائب إلى الأمام. ورغم حواشيها غير المصقولة كانت صفقة ما بعد الحرب لتقسيم الإمبراطورية العثمانية - سايكس/ پيكو - قد عُقِدت مع فرنسا وروسيا. كُشِف عن فحواها، لا عن تفاصيلها، لكبار المسئولين البريطانيين بمصر. كان المكتب العربى الوليد بالقاهرة قد اكتسب هيكله وحصل على هيئة العاملين به. أما

الشريف حسين، فقد أعلن بدء الثورة العربية فى مايو ١٩١٦، عملاً بالوعود شديدة الحذر من مكماهون، المندوب السامى البريطانى. ونتيجة لحفز أبناء حسين الأربعة - فيصل، عبدالله، على وزيد - استولى آلاف المقاتلين غير النظاميين العرب على مكة، رابغ، الليث، الطائف وينبع، لكن المدينة المنورة صمدت. وبحلول الخريف كانت الثورة قد توقفت. لم يكن لدى محاربى العصابات سلسلة قيادة، أما بالنسبة لمستشارى الثورة البريطانيين فقد رأوا أن هؤلاء الأعراب لا يتعدون مجموعة من الغوغاء غير المنظمين. خشى رؤساء الاستخبارات بالقاهرة من أن الانتفاضة قد فشلت. لكن ليس لورانس، الذى كان، ومنذ البداية، يعتقد فى الحركة العربية القومية، وكما تذكر لاحقا فقد كان "واثقا، قبل أن أحضر، أنها كانت فكرة لتمزيق تركيا إربا، لكن الآخرين بالقاهرة، كانت تعوزهم الثقة، ولم يكونوا قد تعلموا شيئا على أى قدر من الذكاء عن العرب فى الميدان". وفى أكتوبر، وبعد أن علم أن رونالدستورز كان ذاهبا إلى جدة، حصل لورانس الذى كان مازال لديه عشرة أيام رصيدا من إجازته، على إذن بالذهاب هناك، للقائه ولتقييم قادة التمرد، بالمرة. استمع لورانس، وهو على ظهر الباخرة لورا فى الطريق إلى جدة، إلى ستورز (الذى كان يتحدث الألمانية، الفرنسية والعربية) وهو يناقش فن الموسيقيين دوبوس وفاجنر مع عزيز المصرى، الضابط التركى الهارب والذى كان آنذاك قد أصبح قائدا فى جيش الأشراف (كما كان رعاة الجيش بمصر يسمونه). وفى جدة، التقى لورانس أولا بالأمير عبدالله الذى وصل إلى القنصلية البريطانية ممتطيا فرسًا بيضاء ويرفقته دستة من العبيد المسلحين. لم يترك عبدالله انطباعا حسنا على لورانس. بدا له، وكان فى الخامسة والثلاثين، مفرط السمنة وقصر القامة، مفرط الطموح بشكل واضح "مفرط الاتزان ورباطة الجأش"، "ذا حس فكاهى مفرط، بدرجة لا يصلح معها نبيا!!". وعلى الرغم من ذلك، تمكن ستورز، بموافقة الأمير، من إقناع الشريف حسين الممانع (عبر الهاتف إلى مكة) بأن يسمح للورانس

بتوسيع نطاق رحلته. وفى رابغ، تفحص لورانس الأمير على ووجده "جنتلمان لطيفا، حيّ الضمير، تعوزه قوة الشخصية، متوترا، يبدو تعِبا". وبعده الأمير زيد الذى لم يتجاوز التاسعة عشرة، خجول أجرد "ليس هو القائد بالسليقة الذى أسعى إليه، بدرجة أقل حتى من عبدالله".

وفى النهاية، تعرّف لورانس، بقرية الحمراء غير مميزة الملامح والتى لا يتجاوز عدد منازلها المائة، على شخص فى ثياب بيضاء، كان يترقب مقدمه متوترا "شعرت من اللمحة الأولى أن ذاك كان هو الرجل الذى قَدِمتُ إلى بلاد العرب سعيا إليه - القائد الذى سيأتى بالثورة العربية إلى مجدها الكامل. بدا فيصل فارِه الطول يماثل العامود، شديد النحافة، يرتدى ثيابا حريرية بيضاء، ويثبت غترته البنية بعقال قرمزى وذهبى متألق. كانت جفناه مسدلتين، ولحيته السوداء ووجهه الشاحب قناعا بالتقابل مع يقظة جسده الغريب الساكن. كانت يداه متقاطعتين أمامه على رمحه". كان من العوامل المساعدة أن فيصل الذى كان فى الثالثة والثلاثين قد درس بالآستانة وكان يتحدث اللغات الأوربية وبدا غير متعصب دينيا. شعر لورانس أنه، فى شخص فيصل، فقد تم تقديم نبىٍّ إلى الأيدى البريطانية التى يجب أن تكون كبيرة بما يكفى لتلقيه، القائد الذى سيمنح الثورة العربية شكلها: "لقد كان هذا كل ما تمنيناه بل وأكثر منه، أكثر بكثير مما تستحقه مسيرتنا المتوقفة. لقد أُنجِز هدف رحلتى".

لكن، وبمرور الوقت، سيمضى لورانس يبدى نفس الثقة العظمى الذاتية فى القضية العربية - وفى قدرته على التأثير فى فيصل - الأمر الذى أدى به فى النهاية إلى مقارنة نفسه، ككاتب، بتلستوى، بل إنه من الأمور الأكثر بعثا للدهشة، فقد أقنع، بأسلوب ما، رؤساءه، الأقل منه خيالا وأكثر واقعية أن يعملوا وفقا لحدسه وإلهامه. فى العامين التاليين، راهن البريطانيون، فعليا، بمليارات الدولارات بقيمة اليوم، على احتمالات تحيطها المخاطر فى سبيل قضيته، وإقامة سلالة ملكية حاكمة، لم يعرفوا عنها، أو عن أفرادها، سوى القليل نسبيا.

من الصعب المبالغة فى أهمية "الإعانات المالية"، ذلك التعبير الرسمى الذى كان يُستخدم مجازا عن السبائك والجنيهات الذهبية التى استُخدمت لضمان ولاء الشريف حسين، وأبنائه، وأتباعه القبليين. أورد برووس وسترايت، باستناد إلى سجلات بريطانية عن تاريخ "المكتب العربى" ظلت سرية لوقت طويل قبل الإفراج عنها، أورد تفاصيل المبالغ التى دُفعت بدءا بالعشرين ألف جنيه استرلينى التى تسلمها حسين كقسط استهلالى، والتى تضخمت لتصبح ١٢٥٠٠٠ جنيه إسترلينى معونة تدفع شهريا، ومعها مِنح مالية متكررة من الجنرال السير فرانسيس رينالد وينجيت سردار الجيش المصرى والحاكم العام للسودان. (حدث فى إحدى المرات أن منحه وينجيت ٣٧٥٠٠٠ جنيه استرلينى لتغطية نفقات الحج). وبالرغم من ذلك، اشتكى شريف مكة من أنه مازال بحاجة إلى ٧٥٠٠٠ جنيه إسترلينى إضافى كل شهر تم منحها إياها على مضض وذلك لأن (وفق ما قاله وسترايت) "المسئولين البريطانيين كانوا يعلمون أن معظم الذهب قد اختفى ببساطة، وتُرِك رجال العشائر المتململين دون استلام حصصهم من النقود لأشهر عديدة".

كان نقل هذا الذهب إنجازا لوجستيا. كان ويندهام ديدز أحد خريجى كلية إيتون القدماء، والجندى السابق فى فرقة الرماة الملكية، والذى خدم بعد ذلك فى الدرك العثمانى، هو من يتولى شأن الإعداد للنقل. كان يقضى أيام السبت (وفقا لما وجده دايڤيد فرومكين أثناء إجراء أبحاثه لكتابه "السلام الذى أنهى كل سلام") يعبئ الجنيهات الإنجليزية الذهبية فى صناديق الخراطيش، ثم يشرف على تمويهها فى أخراج الإبل المتجهة إلى الجزيرة العربية. أثبت لورانس أنه كان محاسبا لا مبالٍ. حدث ذات مرة، ودونما تفويض من أحد، أن نقل ٢٥٠٠٠ جنيه من الذهب من العقبة، وأرسلها إلى الأمير الخطأ الذى كان قد تسلم بالفعل مبلغا مماثلاً من القاهرة. لا غرو إذن أنه، وبعد مرور نصف قرن، حينما سُئل شيخ بدوى عما إن كان قد عرف لورانس، أجاب مبتسما "كان هو الرجل الذى لديه الذهب".

تتعارض صورة لورانس كصراف مع لورانس الذى كان يسرف فى الثناء على وحشية البدو النبيلة. وبشهادة شبه إجماعية، فقد كان لورانس يتعامل مع العرب باحترام وتماهٍ، واكتسب ثقتهم. وعلى الرغم من ذلك، فقد لوّث الذهب علاقتهم، وليس ثمة شاهد على ذلك أفضل من الملك الذى اختاره لورانس، حيث حذر الملك فيصل وهو يتحدث عام ١٩٣٠ إلى الكابتن چون باجوت جلوب (جلوب باشا فى المستقبل) قائلا "بالإمكان استثارة البدو لفعل أى شىء فى سبيل الشرف، لكن بمجرد أن تمنحهم الأموال، تنخفض النغمة الأخلاقية لعلاقاتك بهم". وبأسلوب أعم، اصطنع لورانس فسيفساء من الأوهام الرومانسية عن الحركة العربية، رعاها واحتفى بها. فى فقرة كاشفة بأعمدة الحكمة يصف لورانس مارك سايكس بصفته "مدافعا خياليا عن الحركات العالمية غير المُقْنعة" وبأنه "حزمة من التحيزات، والبدهيات الحدسية، وأنصاف العلوم" وأن أفكاره متقلبة لأنه يعوزه الصبر "لاختبار المواد قبل اختيار أسلوبه للبناء". لكن إذا أضفنا إلى ذلك درهماً من العبقرية، يمكن لهذا المزيج أن يكون وصفا جيدا للورانس نفسه.

لنأخذ، على سبيل المثال، رواية لورانس فى أعمدة الحكمة السبعة عن الاستيلاء على دمشق فى أكتوبر ١٩١٨، أو الخاتمة العسكرية للثورة العربية. كان هجوم أللنبى الهائل الشامل الذى كان رأس حربته قوات الآنزاك الأسترالية/ النيوزيلاندية بقيادة الجنرال الأسترالى السير هنرى تشوڤل، كان هو ما جعل النصر ممكنا. كما سهّل حدوث الانتصار الرحيل المفاجئ لمسئولى المدينة الأتراك، الذين أنهوا بذلك بأسلوب مُخزٍ أربعة قرون من الحكم العثمانى. لكننا نجد فى "أعمدة الحكمة" أن الأشراف هم من يهيمنون على الدراما. يُستقبل فيصل بهتافات مدوية، ويتظاهر ومعه لورانس بأنهما صُدِما حينما يُخبران أن بريطانيا قد وعدت سوريا للفرنسيين وفقا لمعاهدة سايكس بيكو، وبأنهما يجهلان المعاهدة تماما. وكما اعترف لورانس بصراحة، فقد كان أعمدة الحكمة "سردا شخصيا تم تجميعه من الذاكرة" بعد

سنوات من الأحداث التى رواها. اعترف لورنس فى خطاب له إلى مؤرخ سيرته روبرت جرايفر بأنه كان "فى وضع مخاطرة حينما كتبتُ الفصل الخاص بدمشق" الذى كان "مليئا بأنصاف الحقائق". وكمثال على أنصاف الحقائق تلك، إلقاء مسئولية تدمير المستشفى العسكرى التركى ونهبه على المغيرين من الجزائريين، أو الدروز المجانين الذين قيل إنهم ارتكبوا تلك الأعمال الفوضوية.

تصادف حضور شخص أمريكى: ويليام ييل التنفيذى فى شركة للنفط والذى تحول إلى ديبلوماسى فى الشرق الأوسط (مسرح عسكرى كانت الولايات المتحدة محايدة فيه لأنها لم تكن قد أعلنت الحرب على تركيا). رُوِّع ييل لما رأى أنه تدمير ثأرى قام به البدو العرب للمستشفى. فى عام ١٩٦٦ حينما حاوره الدكتور چون إى. ماك، المحلل النفسى بجامعة هارڤارد وأحد مؤرخى لورانس، تذكر ييل أنه احتج لدى السلطات البريطانية التى أبلغته "ألا يتدخل فيما لا يعنيه لأنه ليس جنديا".

ثمة كثير من الأدلة على أن البدو اشتركوا بنشاط فى أعمال النهب التى تلت الغزو، وأن جنود الأشراف غير النظاميين لم "يُحرِّروا" دمشق، وأن معاهدة سايكس/بيكو كادت ألا تكون سرا - نشر البلشڤيك فى روسيا نصَّها كاملا قبل ذلك بعام - وأن استقبال فيصل كان فاترا فى أحسن الأحوال. بالإمكان استدعاء شاهدْين مُصدِّقين. كان ألِك كيركبرايد ملازما بالجيش البريطانى يتحدث العربية وكان قد وصل إلى دمشق فى معية محاربى فيصل غير النظاميين. أدهشه الاستقبال البارد للمُطالِب الهاشمى بالعرش: "لم يكن ثمة هتافات أو مظاهر للفرح، تلك الأمور التى قد يتوقعها المرء من سكان يُفترض أنهم فى مسيرة للتحرر.. شعرت بقدر من الألم لغياب الحماس الشعبى".

أنضم كيركبرايد إلى لورانس حيث وجد أن لغته العربية فصيحة وإن كانت نبرتها أجنبية واضحة ("كان يفشى أصله فى اللحظة التى يتحدث فيها"). ويضيف فى تعليق آخر (مخالف لتصوير بيتر أوتوول الدموى لشخصية لورانس):

"كانت ميوله أبعد ما تكون عن التعطش للدماء، بدا وقد أصابته صدمة حقيقية من استخدامي الدائم لمسدسي أثناء المساء الذى أعقب دخولنا دمشق.. لابد وأننا بدونا شخصين غير متسقين، كان هو قصيرا فى رداء عربي، لا يحمل سلاحا باستثناء رمح للزينة، وكنت أنا طويلا هزيلا يتدلى من ملابسي مسدس خدمة ضخم. حينما كنا نجد أى أحد يذبح الأتراك كان يذهب إليهم ويسألهم (أن يتوقفوا) بصوت رقيق، فيما كنتُ أنا أقف ألوّح بمسدسي. وبين حين وآخر كان أحدهم يتصرف بعدوانية (أى الأتراك) وكنت أطلق عليه الرصاص على الفور قبل أن تنتشر أعمال الشغب. كان لورانس يتملكه الغضب ويقول "توقف عن تلك الدموية بحق الإله".

يضيف كيركبرايد أن المشكلة تمثلت فى أن العثمانيين الهاربين خلّفوا وراءهم فراغا وكان ثمة ندرة فى قوات الاحتلال: يكتب قائلاً إن الشرطة الدمشقية كانت "قد توقفت عن العمل وكانت ثمة معارضة سياسة لاستدعاء القوات البريطانية التى كانت تعسكر على تخوم المدينة لدخولها لأن ذلك كان يعنى الاعتراف بأن الإدارة العربية الجديدة كانت عاجزة عن التحكم فى أناسها".

أما الشاهد الثانى فهو بدر الدين صلاح، الذى كان قد ظل طويلا كبير طائفة التجار بالمدينة، وعثر عليه الكاتب الأمريكى ميلتون ڤيورست وحاوره، وكان قد بلغ الرابعة والثمانين. قال إنه كان فى الثالثة عشرة حينما وصلت قافلة فيصل:

"كان معظم الأهالي مشدوهين مرتبكين. لم يكن سوى القليل من القوميين. كان شبابنا مازالوا يحاربون فى صفوف الجيش العثمانى. رحبت الجماهير بفيصل لكن ليس بدافع الوطنية بل لأنهم أملوا أن التحرير سيضع نهاية لمعاناتنا زمن الحرب. كانت مشاعرنا متناقضة تجاه العثمانيين. لم نكن نعتبرهم قوة استعمارية لأنهم كانوا مسلمين مثلنا، وكنا نعتمد عليهم ليحمونا ضد روسيا القيصرية والعلمانية الأوربية. لكن حكمهم لنا كان سيئا. كان معظم شعبنا فقراء ولم يكن يوجد سوى حفنة من المتعلمين، غالبيتهم فى مدارس إسلامية. كان من المثير للأسى أنه فيما كانت أوربا تعيش عصرا ذهبيا كانت الحياة كئيبة قاسية فى سوريا.. اعتقد غالبية الناس أن الوقت قد حان لبداية جديدة. ولهذا كان الترحيب والفرح".

تتوافق رواية بدر الدين مع ما قاله الراحل ألبرت حوراني الأكاديمي البارز بجامعة أكسفورد ذو الأصول اللبنانية المسيحية والذي كان والده يعرف لورانس. رأى حوراني أن ثلاث مجموعات فقط ذات مصالح جد مختلفة دعمت الثورة العربية: "أولا، كان ثمة مجموعة صغيرة جدا غالبيتها من السوريين ومعهم بعض العراقيين. كان هؤلاء قوميين وكانت غالبيتهم جنوداً في الجيش العثماني، أو مسئولين. ثانيا، الهاشميون، الشريف حسين من مكة وأبناؤه. وثالثا، الحكومة البريطانية". كان لكل مجموعة أجندة مختلفة، وكانت كل منها لا تثق في الأحزاب، ولم يكن لأيها أتباع من أهالي البلد الأصليين، وطوال الحرب، فكرت كل منها جديا (بما في هذا البريطانيون) في عقد سلام منفرد مع العثمانيين. الحقيقة اللافتة هي أن لورانس تمكن من إضرام نارٍ من تلك الجذوة شبه الخامدة - هذا على الرغم من حُكمِه المعيب على الهاشمين. برهنت الأحداث على أن الشريف لم يكن بأي معيار صنواً لمنافسه العربي الرئيسي عبدالعزيز عبدالرحمن بن سعود، الذي وحد المملكة التي تحمل اسم عائلته وأسسها (والذي أطاح بحكم حسين في الحجاز موطنه ومواطن أجداده). وكما أثبتت الأحداث أيضا، فإن الثورة العربية لم تنبثق عن حركة قومية ذات قاعدة عريضة، بل برهنت (وفق التعبير اللاحق لأحد وزراء الخارجية المصريين) على أنها تحالف لقبائل تحمل أعلاما (وحتى الأعلام كانت من تصميم الأجانب). وعلى الرغم من ذلك، فإن تأثير لورانس وسحره الشخصي لم يكن لافتا فقط، بل استثنائياً أيضا. وفي هذا قدر من التفسير لإغرائه الذي مازال قائما مستمرا. كتب حوراني قائلا: "لم يعتقد أحد من كل الذين قابلوه، حتى هؤلاء الذين التقوه قبل ١٩١٤، أنه كان يماثل الرجال العاديين، وهذه حقيقة علينا أن نتذكرها عنه". وجده المبجل أوبري هربرت، وكان حكماً لاذعا، بعد لقائه الأول به عام ١٩١٦ "عفريتا، قزما غريباً، نصف وغد - به لمسة من العبقرية".

تبدت تلك العبقرية الشاذة في أعقاب "انسحاب" لورانس المفترض من الحياة

العامة سنة ١٩٢٢ . كان آنذاك قد ساعد فى التنسيق لاندلاع انتفاضة من رجال حرب العصابات، وكان قد دعم بشرف الأمير فيصل فى مؤتمر باريس للسلام عام ١٩١٩، وقدم أيضا، بصفته مستشار تشرشل المختار، بعد ذلك بعام، المساعدة الحاسمة لضمان صعود الملكَين الهاشميين إلى عرش العراق وشرق الأردن (أيضا، حاول بدون قدر كبير من النجاح، أن يتقبل القادة العرب إنشاء "وطن قومى" صهيونى فى فلسطين). لدى عودته إلى إنجلترا، انتُخب لورانس زميلا بكلية أول سولز All Souls بأكسفورد، وبدأ فى كتابة ما أمل أن تكون رائعةً تناظر أعمالا مثل "الحرب والسلام"، "موبى ديك" و"الإخوة كرامازوف".

ولتحقيق هذا الهدف التقى لورانس بشو، هاردى، وفورستر، وكيبلينج، أو تراسل معهم أوصادقهم؛ وأيضا بأصوات مميزة قيمة، قديمة وحديثة، مثل تشارلس مونتاجو داوتى، مؤلف "الصحراء العربية Arabia Deserta" المبجّل، وفرانسيس ييتس براون الرمّاح البنغالى الذى حققت مؤلفاته أعلى المبيعات؛ ومعهم مواهب بازغة مصقولة مثل دايفيد جارنت، وروبرت جرايفز (كاتب سيرته الأول). كان أيضا ملِّما بأسماء كل الحداثيين فى الفنون جميعها. خطط تحت مقاطع من قصيدة تى. إس . إليوت "الأض اليباب" واقتنى أعمال جيمس جويس جزءا جزءا، وأثنى بإفراط فى مقاله بدوريه Spectator كتبه باسم مستعار على روايات دى إيتش. لورانس الإبداعية. يعلق الناقدان الأمريكيان ستانلى و رودل وينتراوب بقولهما "من الجلى أنه كان يحب التمهل فى اختيار النعوت المميّزة، وتُمتعه التغيرات الأسلوبية، الأمر الذى كان لابد وأن يُنهك صبر الكاتب ذى الخبرة".

ثم تلى ذلك الفصل الثانى – بل الثالث فى الواقع– الذى لم يكن بوسع أى كاتب مسرحى أن يصنع حبكته. فى يناير ١٩٥٢ كتب خطابا إلى المارشال الجوى السير هيو ترنشارد يقول فيه إنه يود الالتحاق بالقوات الجوية ("فى صفوف الجند بالطبع"): خشى لورانس من أنه وقد بلغ الثالثة والثلاثين فقد لا يجتاز "الكشف

الطبى" وسعى إلى نفوذ ترنشارد للتأثير فى مكتب التجنيد. دافعه؟ كان كتابه عن الثورة العربية الذى كان قد أكمل معظمه "يكاد يكون جيدا" و كان يسعى للحصول على مادة جديدة له وهو فى القوات الجوية لأن "أفضل مكان لرؤية الأشياء هو القاع أو القاعدة. الكتابة من موقع الضباط لن تكون دقيقة أو ملائمة". فى ٣٠ أغسطس غادر فنى الطائرات بالسلاح الجوى تى. إى. روس (كما أصبح يدعى فى الأوراق الرسمية) مكتب التجنيد بكوفنت جاردن وهو يشعر بالرضا، بعد، ووفقا لاتفاق مسبق، أن ذكر أنه كان فى الثامنة والعشرين ومهنته "مساعد مهندس معمارى". تلقى روس تدريبه كمجند عادى فى منطقة أوكسبريدج، ثم فى مدرسة القوات الجوية الملكية للتصوير بفارنبرو، فيما مضى يراسل برنارد شو، طوال الوقت، حول اختزال "أعمدة الحكمة" الذى كان قد تمدد، إلى مجرد ١٣٠٠٠٠ كلمة. كان من المحتم، ولأن هويته كانت معروفة لزملائه المجندين ولرؤسائه، أن تتسرب الأخبار وظهرت العناوين التالية بالديلى إكسبرس" "الملك غير المتوج" كعسكرى مجند/ لورانس العرب بطل الحرب الشهير يصبح مجندا يسعى إلى السلام، ولفرصة لإكمال كتابه".

استاء السير صمويل هور، وزير الدولة للشئون الجوية من كشف الصحافة للأمر، وكذلك (كما زعم لاحقا) ضباط القوات الجوية الذين كانوا يدربون المجند الجديد: "كان من الطبيعى أن يتساءلوا كيف لهم التعاطى فى ميدان الثكنات مع عسكرى مجند كان كولونيلا سابقا وحاملا لوسام الاستحقاق وأكثر أبطال الحرب شهرة؟". تم تسريح المجند روس. لكن هذا لم يثنه عن هدفه حيث أقنع لورانس وزارة الحرب بالسماح بتجنيده فى فرقة الدبابات الملكية، مرة أخرى كعسكرى مجند. وفى مارس عام ١٩٢٣ قدم لورانس نفسه لاستلام مهامه إلى معسكر بوفينجتون فى دورست لبدء تدريبه الأساسى لمدة ثمانية أسابيع بصفته تى. إى. شو العسكرى المجند بفرقة الدبابات (فى وزارة الحرب، أبلغ أحد الضباط لوارنس

أن عليه اختيار اسم جديد. رد لورانس. ما اسمك؟" أجاب الضابط "لا، ليس هذا". فتح تى. إى قائمة بأسماء جنود الجيش كانت قريبة منه، واختار عشوائيا أول اسم من مقطع واحد صادفه - شو - على الأقل وفقا لروايته).

أكمل المجند شو مسودته الأولى من "أعمدة الحكمة"، ثم حاز على كوخ صغير بمنطقة كلاودز هيل (على بعد ميل من معسكره) وفى نوفمبر، سلم مخطوطة ضخمة (٣٣٠٠٠٠ كلمة) من الكتاب إلى دار نشر أكسفورد. وحينما رفض مراجعو دار نشر أكسفورد "أعمدة الحكمة"، وقد خشوا أن تكون ذات صبغة تشهيرية، قرر لورانس نشر نصه الأصلى على نفقته. كانت حسابات لورانس متفائلة، إذ قدر أنه إذا نشر طبعة محدودة من حوالى مائتى نسخة تباع كل منها بثلاثين جنيها إنجليزيا، فسيغطى هذا تكاليف ورقها الفاخر وتغليفها المميز، وأيضا رسوماتها الكثيرة ومن بينها رسوم لثلاثين صورة، غالبيتها من الحياة مباشرة، قام برسمها إريك كنيجتون (ذهب الفنان فى جولة بالشرق الأوسط كى يرى بعينيه مصادر رسوماته ولوحاته).

وكما تنقّلتْ بروفات الكتاب المطبوعة ذهابا وعودة بين مختلف الأيدى، هكذا فعل مؤلفه، الذى، وبعد أن سئم من سلاح الدبابات، مُنِح، على مضض، إذنا بالعودة إلى سلاح الطيران الجوى - هذه المرة باسم شو لا "روس". فى يناير ١٩٢٧ كان تى. إى. شو، الفنى بسلاح الطيران على متن سفينة لنقل الجنود متجهة إلى كراتشى، بعد أن وافق على اختزال كتابه "أعمدة الحكمة" الذى نشره چوناثان كيپ بعنوان "ثورة فى الصحراء" للكاتب "تى. إى. لورانس" نُشر منه عشرون مجتزأ على حلقات بالديلى تلجراف، وحينما نفدت تسعون ألف نسخة من الكتاب، أمر لورانس/ شو بسحبه من الأسواق. كتب لوكيل أعماله ريموند ساڤيدچ الذى أصابه الذهول يقول "لقد وضعت الأوزة حصتها من البيض" إن المبالغ التى جلبها لى "أعمدة الحكمة"

كافية وليس ثمة سبب للمضى فى تحقيق مزيد من الأرباح غير المرغوب فيها على حساب راحتى وحسى بالأصول واللياقة". وتمضى القصة لتصبح أكثر غرابة. من الواضح أن الكلمة التمهيدية للكتاب والتى كانت موقعة بالأحرف الأولى تى. إى. إل T.E.L كان برنارد شو هو من كتبها، وحينما تلقى لورانس نسخا مُجلّدة فى كراتشى، اقترح إضافة كلمة المؤلف التالية، أو للفُتات الذى قَذِف به لاسترضاء من هم فى مناصب عليا:

"يرجع تاريخ النص إلى عام ١٩١٩، حينما كان مصير الأقاليم المتحدثة بالعربية التى كانت تابعة للإمبراطورية التركية، مازال على المحك، ومن ثم تأثرت نغمته بعدم اليقين السياسى الذى أحاط بالعرب. لكن بعد عامين، أوكل مجلس وزرائنا المنهك إلى المستر ونستون تشرشل عملية التسوية بالشرق الأوسط، وفى غضون أسابيع قليلة بمؤتمره بالقاهرة، حلّ جميع التعقيدات، وأوجد حلولا أوفت (على ما أعتقد) بوعودنا، بنصوصها وروحها، وبقدر الممكن دونما تضحية أى من مصالح الإمبراطورية، أو أى من مصالح الشعوب المعنية. ومن ثم، انتهينا من المغامرة الشرقية لزمن الحرب بأيد نظيفة، بعد كل شىء".

عمل لورانس فى كراتشى على ترجمته للأوديسة وأكمل مسودة The Mint، وهى مذكرات لحياة ثكنات سلاح الطيران الملكى محملة باللغة الفظة (نُشرت على حسابه عام ١٩٣٦، وتجاريا فى نسخة معدلة عام ١٩٥٥). وفى أثناء تلك المهمات الأدبية، كان "ثورة فى الصحراء" مازال فى أكشاك الكتب، أتى جدلٌ غُير متوقع بلورانس إلى العناوين الرئيسية مرة أخرى. كان قد نُقِل فى مايو ١٩٢٩ إلى موقع متقدم للقوات الجوية بوزيرستان على حدود الهند المتوترة الشمالية الغربية. استقر، ومعه حوالى عشرين من القوات الأنجلو/ هندية، فى قلعة ميرانشاه المُتربة القصية، على بعد عشرة أميال فقط من أفغانستان. كتب لورانس خطابا إلى الوطن، وقد شعر بالسأم والتعطش إلى الموسيقى، اشتكى فيه من عدم وجود جرامفون. فى ١٦

أغسطس، ذلك "اليوم المشهود" بما أنه كان "عيد الميلاد الأربعين الأوحد الذى سأحتفل به أبدا" تلقى جرامفونا فخما، هدية من تشارلوت شو، زوجة چورج برناردشو. وذكر ممتنا "استمعت إلى سيمفونية إلجار اليوم.. وفيما أُنصِتُ أشعر دوما أننى على الحافة المثيرة لفهم شيء شديد الندرة وعظيم وبالطبع أخذ يتسرب مبتعدا".

انتهت تلك الفترة الرعوية فى خريف ١٩٢٨. فى أفغانستان، اندلع تمرد قبلى ضد أمان الله خان، الملك التحديثى الذى أغضب السلفيين المسلمين بتعزيزه التعليم الغربى، وألّبت عليه جهوده لجمع الضرائب لوردات الحروب. (تسبب أمان الله أيضا فى توتر الغرب لاعترافه بالاتحاد السوڤييتى وإقامة علاقات ودية معه). فى ٢٦ سبتمبر أعلنت الإيڤنيج نيوز اللندنية ما يلى: "مهمة لورانس العرب السرية/ مجابهة الأنشطة الحمراء بالبنجاب/ يتقمص شخصية القديس/ يمنع الحَسَد ويشفى الأمراض". زعم مراسل الصحيفة فى بومباى أن لورانس يسكن "منزلا للشواذ"، فى أحد شوارع أمريستار القصية، ويتظاهر بأنه أحد أولياء الله المسلمين وأنه يمتلك قوى خارقة. وأن ذلك هو غطاؤه لإحباط المؤامرات السوڤييتية.

ثم تلى ذلك قصص إخبارية مثيلة غير محتملة بالتايمز فى ٩ يناير ١٩٢٩، وبالديلى هرالد ذات التوجهات اليسارية التى وصفت تى. إى بصفته "كبير الجواسيس فى العالم". التقطت كبريات الصحف الأوربية القصة وزخرفتها، وكذلك الصحافة السوڤييتية لكن بأسلوب أكثر قتامة. فى ١٦ ديسمبر أكدت الإمپاير نيوز، التى اختفت منذ آنذاك، أن الكولونيل لورانس كان قد زار كابلُ خلال الأسبوع الثالث من نوڤمبر، لُيطلع الملك، ورئيس الشرطة على المستجدات ثم رحل "وفى مكان ما فى جبال أفغانستان المقفرة الموحشة، أعلى المنحدرات الصخرية، وعلى مقربة من سكان الكهوف، يقبع فى الأعالى على ضفاف مجرى مائى جبلى رجل مقدس نحيل يرتدى رموز الحجاج والنسّاك ويمضى وحيدا فى طريق رحلته المقدسة. إنه

الكولونيل لورانس أكثر رجال الإمبراطورية غموضا. إنه، فى واقع الأمر، بروقنصل بريطانيا المطلق فى الشرق. يشترك فى المعركة الآن رسول الكراهية ورسول السلام". (كانت القصة ملفقة بكاملها، وقد نُسِبت إلى أحد المبشرين غير الموجودين، والأرجح أنه كان قد تم تلفيقها فى أحد بارات فليت ستريت. وفى مجال الصحافة فإن القاعدة الخالدة هى أن قصص الجواسيس مُحصنة بأسلوب مريح ضد دعاوى التشهير، وضد إنكار المسئولين).

بيد أنه كان ثمة بذرة صغيرة من الحقيقة فى كل هذا المزيج. فى الواقع، فإن أفغانستان أيقظت غرائز صناعة الملوك لدى لورانس. فى خطاب إلى إدوارد مارش، صديق تشرشل ومساعده، شكك لورانس فى حماس رئيسه "للهجوم على روسيا" إذ إن بريطانيا لا تستطيع سوى الذهاب من تركيا، فارس، أفغانستان، أو الصين، "وأتخيل أن الجيش الأحمر لديه القدرة الكافية أن يحول أيا من تلك البلدان إلى جزء من الاتحاد السوفييتى. أما النقطة الأكثر خطراً فهى أفغانستان. أتعلم أننى كنت على وشك الذهاب هناك الأسبوع الماضى؟ يحتاج الملحق البريطانى فى أفغانسان إلى كاتب من القوات الجوية، ولو أننى كنت أمتلك سرعة أكبر فى الكتابة على الآلة. لرشحتنى الجهة التى أعمل بها للمنصب". ثم ذكّر مارش بأن له خبرة طويلة فى العمل السرى وأضاف "وتثير روسيا اهتمامى بقدر كبير. من المحتم أن يقع الصدام، هكذا أعتقد". وعلى أية حال، تنازل أمان الله عن العرش فى بداية عام ١٩٢٩. ومنحته الهند حق اللجوء السياسى، ثم استقر فى إيطاليا وتوفى فى سويسرا عام ١٩٥٠. (بإمكاننا أن نعجب عما إن كان لهذا التاريخ أن يصبح مختلفا لو أن "شو" كان أكثر كفاءة فى استخدام الآلة الكاتبة؟).

أثارت التقارير عن دور لورانس السرى أسئلة بالبرلمان، تبعتها إنكارات مبهمة من وزارة الطيران. وبعد فترة عامين قضاهما بالخارج تم تهريب المجند شو إلى الوطن فى فبراير ١٩٢٩، حيث رسا فى بلايموث فى ملابسات هى خليط من أعمال

جون بيوكان والإخوان ماركس. توخى رئيس أركان الطيران ومجموعة مرافقيه من القوات الجوية توخوا السرية والحرص. لكن، وكما يقول جيرمى ويلسون مؤرخ لورانس المفوّض، "فشلت محاولتهم للإبقاء على أماكن تواجد لورانس طى الكتمان فى كل خطوة تقريبا. ولكى يتحاشوا محطة سكك بلايموث، ذهبوا بالسيارة إلى نيوتن آبوت، لكن بمجرد صعودهم القطار المتوجه إلى لندن تم التعرف عليهم ولدى وصول القطار إلى بادينجتون كان ثمة حشد من الصحفيين بانتظارهم. كان ترنشارد قد طلب من لورانس أن يتحاشى إجراء حوارات صحفية معه بقدر ما يستطيع. من ثم، شقوا طريقهم بين الصحفيين دونما النطق بكلمة. بعد ذلك حدثت مطاردات هزلية بسيارات الأجرة دامت حوالى الساعة. زحف سائق التاكسى الذى كان يستقله لورانس ببطء، وكان قد تلقى رشوة ليفعل ذلك. حتى ساوث كنسينجتون يحيطهم من الجانبين حشود الصحفيين الذين يطاردونهم وهم يصيحون. كانت الكلمات الوحيدة من طرديتهم الصامت هى "لا، اسمى هو المستر سميث".

من المعقول أن نفترض أن لورانس قد خشى أن الضجة قد تُنهى عمله بالقوات الجوية، لكن هذا لم يحدث. تم استبعاد إرساله إلى الخارج، لكن سطوة أسطورته (وشبكة أصدقائه) كانت من القوة بدرجة أن استمر "فنى الطائرات شو" فى وظيفته بالمملكة المتحدة حتى تقاعده من الخدمة فى فبراير ١٩٣٥. وطوال حياته بالقوات الجوية مضى لورانس يعبر عن مخاوفه وقلقه بشأن تلقى الجمهور والنقاد "أعمدة الحكمة السبعة"، ذلك الكتاب الذى أمل أن يحوز مكانة أسطورية عملاقة.

من النادر أن ظلت رائعة أدبية على قيد الحياة بعد حَمْل عسير كان قد بدأ أثناء مؤتمر السلام بباريس عام ١٩١٩، وقيل إن مسوداته المبكرة فُقدت أو سُرِقت بمحطة قطار بريطانية، وأضيف المزيد إلى مادته فى القاهرة أثناء مؤتمر آخر، ثم عمل مؤلفه عليه بجدة وعمان، وتم تنقيحه بكلية أول سولز بأكسفورد، وصَقْله وتملكه القلق بشأنه أثناء تعيينات متتالية بعدة مناصب فى أنحاء نصف الكرة الأرضية.

ومثل أشجار الزيتون، أنبت النص حلقات جديدة. عنوانه مستمد من سِفْر الأمثال: ٩: ١ "الحكمة بَنَتْ بيتها. تحت أعمدتها السبعة"، أو كما أوضح أرنولد، شقيق المؤلف الأصغر، الذى قال إن "العنوان فى الأصل كان اختياراً للمؤلف لكتاب عن سبعة مدن. لكنه قرر عدم نشر ذلك الكتاب المبكر لأنه اعتبره غير ناضج ثم نقل العنوان كتذكار".

لكن الإهداء الذى ظهر على الكتاب كان أكثر إبهاما: إلى إس إيه TO: S.A ، يتلوه أربعة مقاطع شعرية لها أصداء هومرية نورد هنا الأولين منها:

أحببتك
وجذبتُ طوفان الرجال إلى كفىّ
وكتبتُ وصيتى بالنجوم عبر السماء
كى أمنحك الحرية،
المنزل المجيد ذو الأعمدة السبعة،
من أجل أن تضىء عيناك لى
حينما تأتيه.

على الطريق بدا الموت تابعى،
حتى اقتربنا ورأيتك تنتظر
هرول وتخطانى حسودا حزينا
وفرقنى عنك، اصطحبك
إلى صمته وسكونه

لم يحدث منذ أهدى شكسبير سونتتاته إلى "W.H" أن سَال هذا الكم من المداد وبُدِّد على لغز أدبى لا حل له جوهريا. لا يسع المرء سوى أن يساوره الشك فى أن

لورانس روس شو، الذى أسمته چرترود بل "العفريت الصغير المؤذى" قد زرع ألغازه عن عمد. أعطى، بمكر وخبث، عنوانا فرعيا لأعمدة الحكمة، ألا وهو "انتصار". بيد أنه كان ثمة انتصار أكثر شمولية مازال فى الطريق.

يظل سؤال توجه تى. إى. لورانس الجنسى (وفقا للغة عصرنا الطنانة) لا إجابة له. وقد يكون من المحال الإجابة عنه. لم يكن لديه أية علاقات حب معروفة مع الإناث، ومازالت النقاشات المشتعلة تدور حول درجة ميوله المثلية المحتملة. أكان له عشاق عرب؟ من المؤكد أنه كتب بأسلوب حسى شهوانى عن الصبية البدو. أتَعرّضَ لتجربة اغتصاب أليمة حينما كان أسيرا فى مدينة درعا التى كانت تحت الحكم العثمانى بأوامر من البيه التركى الذى لم يُدرك، وضد كل منطق، أن أسيره كان جاسوسا إنجليزيا يرتدى ثيابا عربية؟ يؤكد لورانس فى أعمدة الحكمة حدوث هذا، وكتب تفاصيل محنته فى خطاب إلى تشارلوت شو فى مارس ١٩٢٤. لكن المتشككين يستشهدون بوثائق تشير أنه كان فى مكان آخر فى نوفمبر ١٩١٧ فى الأيام التى زعم فيها أنه جُلد واغتُصب من قبل الرجال الأتراك. (بعد عقود، فنّد البيه التركى الذى كان مازال حيًّا الحكاية بأكملها حين اتصل باثنين من كتاب سيرة لورانس التعديليين وهما الصحفى الأردنى سليمان موسى، والكاتب البريطانى دزموند ستوارت).

بيد أن ثمة محاولة لحسم تلك الألغاز بشكل قطعى قام بها چيمس بار الباحث البريطانى الشاب فى كتابه "إشعال النار فى الصحراء" (٢٠٠٨). كان الروائى سومرست موم قد أسرَّ إلى ريتشارد ألدينجتون، الذى صور لورانس فى كتابه Biographical Enquiry بصفته كذابا ومحتالا؛ أسرّ له بالحكاية الأقل احتمالا. أبلغ موم ألدينجتون أن ترنشارد أخبره أن لورانس علم بأنه يواجه القبض عليه بتهمة إغراء الجنود ومراودتهم عن أنفسهم وأن الحادث المميت الذى تعرض له كان محاولة انتحار لدرء الفضيحة. المشكلة رقم ١: كان معروفا عن موم أنه مغرم بنشر

الشائعات السامة المغرضة، رقم ٢: لم يُعثر على أى دليل داعم لشائعة كان الدينجتون نفسه غير راغب فى نشرها، رقم ٣: يبدو تصادم الموتوسكيل الذى كان يسير على السرعة الثانية وسيلة غير محتملة لشخص أراد قتل نفسه. (فى واقع الأمر، فقد ظل لورانس فى غيبوبة لمدة ستة أيام، وكان، قبيل تلك الحادثة، قد أرسل برقية يوافق فيها على الغداء مع الكاتب هنرى وليامسون إلى اتحاد الفاشيين البريطانيين برئاسة سير أوزولد موزلى الذى كان يعتقد بحماس أن هتلر ولورانس يجب أن يلتقيا).

بيد أن الأكثر مصداقية كانت هى تلك التقارير التى ذكرت أنه كان يشارك عام ١٩٢٢ فى حفلات جلْد بالأسواط كان يستضيفها رجل ألمانى زلِق يعرفه زبائنه والشرطة المتروبوليتانية باسم "ذى اللحية الزرقاء Bluebeard"، وكان يستضيفهم فى حى تشلسى بلندن. وبعد عامين وكما أكد مراسلان للصنداى تايمز يتشممان الفضائح فى عام ١٩٦٨، فقد كان لورانس قد عمل الترتيبات مع شاب اسكتلندى يسمى چون بروس ليجلده على ظهره (دفعت له الصحيفة ٢٥٠٠ جنيه إسترلينى للحصول على التفصيلات منه)، وقالا إن ذلك كان طقسا يبدو وأنه استمر لمدة عقد من الزمان. بيد أن لورانس جيمس وهو أحد مؤرخيه البريطانيين، يبلور النقطة الجوهرية بفطنة: "فيما لابد وأن تظل البواعث الأساسية لميول لورانس الجنسية مبهمة، فإن تجلياتها أثناء عشرينيات وثلاثينيات القرن الماضى كانت تعنى أنه كان يعيش على شفا الفضيحة بدرجة خطيرة" - ومن المؤكد أن هذا كان طيشا يساعد على تفسير سحره الذى مازال قائما.

لكن الثابت بدرجة جازمة هو أن لورانس كان ومنذ صباه متيّما بالآلات كما يدل على ذلك ولاؤه لدراجاته (موتوسكلاته) ماركة بروه ذات الإسطوانتين (٢ سيلندر). استمر يشترى الموديلات المتتالية منها، وخلع على كل منها اسما إنجيليا يعنى "أبناء الرعد". أبلغ صانعها چورچ بروه، بشكل نبوئى، قبل عام من الحدث، إن

كسره عداد السرعة كان له أثر غريب إذ جعله يزيد من سرعته المعتادة، أى ستة أميال فى الساعة وأضاف أنه قاد الدراجة البخارية فى آخر رحلتين طويلتين له بسرعة ٤٩ و٥١ ميلا فى الساعة على التوالى وأنه يبدو من المحتمل له أن يكسر رقبته أثناء القيادة.

أحد عشاق لورانس وصفه بأنه "راهب الآلات". بارك لورانس وهو فى الجزيرة العربية أثناء الحرب "القديس رولز" و"القديس رويس". أبلغ روبرت جرايفر أنه انضم إلى سلاح الطيران الملكى "ليحقق هدفا ميكانيكياً، ليس كقائد؛ لقد ظللت ميكانيكيا منذ آنذاك، وميكانيكيا جيدا، لأن تدريبى لنفسى كى أصبح حرفيا فنانا قد عمل على اتساع مجال إبصارى بدرجة هائلة". أوضح لورانس أن التحاقه بالقوات الجوية كان "أقرب مُناظر معاصر للالتحاق بالدير فى العصور الوسطى". ورأى أن هذا حقيقى بأسلوب مزدوج "لأن العمل كميكانيكى يمنع المرء من أى اتصال حقيقى بالنساء.. أعتقد أنه ليس بإمكان أية امرأة أن تفهم سعادة الميكانيكى وهو يستغرق فى آلاته وفى قطعها الكبيرة والصغيرة".

كان بين زوجاته الميكانيكية الطائرات البحرية والدبابات وقوارب السباق والدراجات الآلية، ومن البداية وحتى النهاية، الكاميرات. أثناء رحلته بالدراجة فى صباه لتفحص الكنائس والقلاع عصر الأوسطية بفرنسا، وأيضا أثناء رحلته إلى الشام سعيا وراء القلاع الصليبية، كانت تلازمه، الكاميرا الكوداك تماما مثل دفاتر الرسم. عمل لورانس أثناء أربعة مواسم للتنقيب والحفريات (١٩١٠- ١٩١٣) فى موقع مدينة كركميش بسوريا مصورا لبعثة الحفريات (قام فى كركميش أيضا بتدريب سائق حمير مراهق، اسمه سليم أحمد كمساعد مصور معه. يظل سليم أحمد، وكنيته "داهوم" أو "الصبى الأسمر الصغير" المرشح الأول ليكون S.A الشهير الذى أهداه لورانس أعمدة الحكمة). يقال أيضا إن لورانس، وهو يقوم بدور العميل البريطانى غير الرسمى، قد سلط عدسة كاميراته ماركة زايس من موقعه

على الفرق الألمانية التى كانت تشيّد خط سكك حديد برلين/ بغداد الاستراتيجى. فى عام ١٩١٤ اشترك مع لينارد وولى فى عمل مسح لسيناء لحساب صندوق استكشاف فلسطين (الصهيونى) (ووزارة الحرب)، والتقط صورا توضيحية لإرفاقها بالتقرير الذى كتباه. وحينما دخلت تركيا الحرب العظمى فى أواخر عام ١٩١٤، وأضحى الشرق الأوسط "مسرحا للعمليات وعرض القوة" كان لورانس بين أوائل رواد استخدام التصوير الجوى لتحديد أهداف قصف العدو بدقة.

وكما رأينا فإن شهرته بصفته "ملك العرب غير المتوج" طُوِّرت لأول مرة فى عرض لوِل توماس للشرائح المصورة. من ثم كان من جد المناسب أن يؤلّه لورانس بعد موته من خلال إنتاج فيلم سينمائى عنه أخرجه دايڤيد لين. واليوم حينما نفكر فى لورانس نتخيل پيتر أوتوول، الأشقر كرمال الصحراء، النصير الباسل للعربى المضطهد المحتقر، سوْط الإمبرياليين الأشرار، والفنان الذى ينزف جرحه الداخلى. من المجدى تفحص كيفية حدوث تلك الملحمة، وما إن كانت قد أمسكت بجوهر تلك الحياة التى تفوق الخيال، وإن لم يكن بتفاصيلها.

من الواضح أن كتاب لورانس "ثورة فى الصحراء" كان بطبيعته قابلا للتحويل إلى عمل سينمائى جاذب للسينمائين منذ صدوره. فى عام ١٩٢٧، فاتح ركس إنجرام المخرج والمنتج الهوليوودى لورانس فى الأمر. كان من بين أرصدة إنجرام السينمائية الشهيرة فيلم حربى بعنوان "فرسان سفر الرؤيا الأربعة" (١٩٢١)، وفيلمان رومانسيان عن الصحراء: "العربى" (١٩٢٤) و"جنة الله" (١٩٢٧). قاوم لورانس العرض بأدب وقال إن القيمين على أعماله الأدبية قد رفضوا بالفعل عرضا من هوليوود قيمته ٦٠٠٠ جنيه إسترلينى "أو ما شابه ذلك". أضاف "أتمنى أن يستمروا طويلا فى الرفض. أكره أن أرى محاكاة لنفسى على أساس ما سجلته عما قام به رفاقى معى". لكن رفضه لم يكن قاطعا، وسرعان ما تتالى الخُطّاب.

كان ألكساندر كوردا، المنتج السينمائى المهيمن فى بريطانيا، والإمبريالى الصريح بالرغم (أو ربما جزئيا بسبب) أنه كان من مواليد المجر، كان هو أكثر المتحمسين. حصل كوردا عام ١٩٣٤ على حقوق إنتاج "ثورة الصحراء" سينمائيا من "صندوق لورانس". وقيل إن ذلك كان نظير ٦٠٠٠ جنيه استرلينى، خصصها مجلس أمناء الصندوق لأرامل وأيتام سلاح الطيران الملكى. كان كوردا واثقا لدرجة أنه أعلن فى مايو أن ليزلى هوارد سيقوم بالدور الرئيسى فى الفيلم الذى سيخرجه لويس مايلستون (مخرج فيلم كل شىء هادئ على الجبهة الغربية). بدأت النقاشات مع الكابتن بازيل إيتش ليدل هارت الخبير العسكرى، وكاتب سيرة لورانس، ليعمل مستشارا للفيلم. ولدى هذه النقطة، يبدو أن لورانس غيّر رأيه ووفقا لما رواه لتشاولوت شو، فقد التقى، فى يناير ١٩٣٥، المنتج كوردا، الذى أثبت، وخلافا للتوقعات، أنه شخص رقيق المشاعر: "حينما أوضحت له المتاعب التى سيتسبب فيها فيلمه المقترح لى.. أنهى النقاش بأن وافق على أنه لا يجوز محاولة إنتاج الفيلم دونما موافقتى وقال إنه لن يعلن عزوفه عن إنتاجه لأنه طالما ظل على قائمته سيتجنب المنتجون الآخرون التفكير فيه. لكن لن يُنتج". لكن خيار إنتاج الفيلم ظل قائما.

بعد الحادث المميت الذى تعرض له لورانس فى مايو ١٩٣٥، تجددت فورة الاهتمام بُعيد الجنازة شبه الرسمية. حمل نعشه إلى المقبرة بكنيسة القرية فى مورتون ستة أشخاص: السير رونالد ستورز. إريك كنينجتون، العريف برادبرى، المُجند راسل، پات نويلز وستوارت نيوكومب. كان فى حياته قد رفض التكريم الملكى، تلقى فى مماته من الملك چورچ الخامس رسالة إطراء موجهة إلى شقيقه إيه. دبليو. لورانس: "سيعيش اسم أخيك فى التاريخ، ويعترف الملك بامتنان بخدماته المميزة لبلده". وبعد سبعة أشهر، كُشِف النقاب فى لندن عن تمثال للورانس فى دهليز كنيسة سانت پول كجزء من تحية تذكارية أخيرة من جانب كبار القوم وعظمائهم.

وفى الحقيقة، كانت ملابسات موت لورانس حلم المهتمين بالدراما وكتابها. فقد

توفى فى ريعان شبابه، مثل چون كيندى وچيمس دين، ومن ثم، استطاع الهرب من بصمات الزمن التى لا ترحم. سرعان ما أُنتج فيلم وثائقى مدته ست وثلاثون دقيقة اضطلعت به أفلام إيس واستند إلى فيلم اُلتقطت صوره أثناء الحرب، كما فوض "صندوق لورانس الائتمانى" كوردا لتحويل "الثورة العربية" إلى فيلم سينمائى. كان كفاحه التالى الذى دام أربعة أعوام لتنفيذ الفكرة ملحمة فى حد ذاته. استُبعد تماما التصوير فى موقع الأحداث بفلسطين وذلك بسبب المعارك الدائرة (بين الصهاينة والعرب). كما ضغطت وزارة الخارجية من أجل حقوق الرقابة وبعد حصولها على مسودة السيناريو، احتجت السفارة التركية لدى الحكومة البريطانية لأنه "تم تصوير الأتراك كطغاة قامعين للعرب" مما يُلوث "التاريخ التركى والشخصية القومية". تكشف الوثائق التى تم الإفراج عنها عن نقاشات على مستويات عليا بشأن تلطيف التدخل الرسمى من خلال عرض رتبة الفروسية على كوردا. عارض السير روبرت ڤانسيتارت، وكيل وزارة الخارجية الدائم (قريب لورانس من بعيد، والذى كان قد وقّع لتوه عقدا كمستشار لكوردا فى المواضيع الإمبريالية) عارض الفكرة بصفتها مُهينة.

امتدت المفاوضات برئاسة مجلس الوزراء لمدة أشهر. عرض المنتج تلطيف صور الأتراك والعرب السلبية وقدم موجزا للسيناريو مشهدا مشهدا. بيد أن رئيس مراجعى السيناريوهات فى المجلس البريطانى للرقابة على الأفلام، الكولونيل هانا، رأى أن إغضاب العرب فى تلك المرحلة سيمثّل حماقة سياسية جسيمة. فى تلك الأثناء، طلب كوردا من شقيقه زولتان إخراج الفيلم، فيما استمر البحث عن ممثل مناسب يضطلع بالدور الرئيسى فيه. كان بين المرشحين لورانس أوليڤيه وروبرت دونات، لكن كوردا تمسك باختياره الأصلى، أى ليزلى هوارد. فى مقال له بدورية فيلم مجازين بعنوان "كيف سأمثّل لورانس" شعر هوارد أن التيمة المركزية يجب أن تكون الهزيمة المأساوية لمُثُل لورانس على أيدى البيروقراطية البريطانية الجامدة. ثم

مضى يقول "آمل، فى المشاهد أن الأخيرة، أن أظهره راكبا دراجته البخارية القوية إلى حيث يلقى حتفه فى الحارة الريفية. ثم لقطة سريعة، عودة إلى فلسطين بمؤامراتها وتمرداتها - أرض منهكة معذبة والتى، لو أتيح للورانس أن يحقق ما أراده، لكان من المحتمل لها أن تكون بلدا موحداً يعمه السلام" (!!) (نُشِر سيناريو كوردا (١٩٣٨) والحوار مع هوارد فى كتيب صغير عام ١٩٩٧، بعنوان صناعة فيلم تى. إى. لورانس جمعه ثلاثة من المؤرخين الثقافيين البريطانيين).

وإذا كان لابد من الاعتراف بجهود السير ألكساندر كوردا (الذى حصل بالفعل، فى النهاية، على الرتبة)، فقد كان ونستون تشرشل من حسم الأمر. بعد الحرب، ذكر المنتج كوردا لابن شقيقه الناشر مايكل كوردا مارلى "أردت أن أنتج أعمدة الحكمة بعد الحرب واعتقدت أن الدور سيكون مثاليا لزولتان وأنه سيصبح فيلما رائعا، وأن علينا أن نسميه لورانس العرب. لكن زولتان لم تعجبه الفكرة، جزئيا بسبب فلسطين، وكان تشرشل يشعر بالقلق لأنه اعتقد أنه من المهم جدا أن يكون الأتراك حلفاء لنا حينما تندلع الحرب. من ثم، لم نفعل شيئا. والآن، لا أدرى، مازال من الصعب تنفيذه، وأيضا مع الصراع بين الإسرائيليين والعرب، لست متأكدا أن الأمر سينجح. إنه فيلم عظيم وليس لدىّ الرغبة فى صنعه، لذا، أظن أن علىّ أن أبيعه لآخرين". وهذا ما نجح فى إنجازه.

ذهبت حقوق "أعمدة الحكمة" أولا إلى چيه. آرثر رانك فى خمسينيات القرن العشرين والذى رشح أليك جينس للدور الرئيسى. بيد أن المشروع انهار حينما سدت مواقع التصوير المتتالية بتفجر المشاعر القومية فى الأردن، ثم التوتر الناجم عن حرب السويس فى مصر، ومذبحة الأسرة الملكية الهاشمية بالعراق فى أعقاب انقلاب عسكرى عام ١٩٥٨. وهنا يدخل سام سبايجل المنتج الهليوودى المولود بڤيينا، الذى حصل بتصميم ودونما وجل على حقوق الفيلم من إيه. دبليو لورانس الذى كان آنذاك، يقوم بتدريس الأركيولوچى بجامعة كامبريدچ. ثم مضى، بفروسية

رومانسية مثل الضابط البريطانى فى فيلم دايڤيد لين "كوبرى نهر كواى" (الذى أنتجه أيضا سبايجل وحاز على الأوسكار)، مضى مثابرا ضد جميع العقبات.

من العوامل المساعدة أن فيلم لورانس العرب كان مشروعا أنجلو/أمريكيا، اشترك فى تمويله أفلام هورايزن اللندية وشركة أفلام كولومبيا من لوس أنجيليس كان البريطانى دايڤيد منتجا مشاركا وأيضا مخرجا، واشترك فى السيناريو مايكل ويلسون الأمريكى وروبرت بولت البريطانى. بعد حصوله على الأوسكار عن سيناريو "مكان فى الشمس" (١٩٥١)، وُضِع ويلسون على القائمة السوداء فى هوليوود كونه «شاهدا غير صديق" علي أنشطة مضادة للروح والتقاليد الأمريكية. أصبح أحد المنفيين في عصر مكارثى، وكان أحد شروط عقده مع سبايجل أن يُقدّم إفادة مرضية عن تاريخه السياسي. علي أية حال، لم يكن لين راضيا عن سيناريو ويلسون إذ رأى أنه "أمريكى بدرجة مفرطة" ومن ثم، توجه هو وسبايجل إلى بولت الذى كانت مسرحيته عن السير توماس مور "رجل لكل العصور" تُحِقق آنذاك، نجاحا كبيرا على مستوى دخل الشباك وعلى المستوى النَقْدى. نُسِب الفضل فى كتابة سيناريو فيلم لورانس إلى بولت وحده، لكن المقارنة المتفحصة للسيناريوهات المتعاقبة تثبت أن بولت اتبع بنية ويلسون الروائية وتبنى كثيرا من أفكاره (التجأ ويلسون إلى نقابة كتاب السينما البريطانية التى حكمت لصالحه، لكن بولت رفض أن يشاركه أحد فى التقدير الذى حظى به لكتابته ذلك السيناريو).

فى البداية، فاتح سبايجل مارلون براندو، الذى كان مازال فخورا بانتصاره الذى حققه فى الفيلم "On the Waterfront" (إنتاج آخر لسبايجل) ليقوم بالدور الرئيسى. لكن كان لدى براندو عرض لا يتطلب منه جهدا مماثلا ليلعب الدور الرئيسى فى فيلم "ثورة على السفينة بونتى" وفضل التصوير فى تاهيتى. وحينما رفض مرشحهما الثانى (ألبرت فيينى)، غامر المنتج والمخرج بالرهان على ممثل مسرحى كاد لا يكون معروفا، أى بيتر أوتوول الذى كان ابنا لصانع كتب أيرلندى

وكان قد تلقى تعليما غير منتظم وكان أطول من لورانس بقدمٍ واحدة. ولإعداده لدوره فى الفيلم أصبح شعر أوتوول أشقر (وظل هكذا) وأُخضِع لعملية جراحية بأنفه. جمع بين التيه والخيلاء، وعذاب عدم الثقة بالنفس فى أداء مؤسس على قراءته الخاصة لأعمدة الحكمة. وكما عبّر عام ١٩٦٢ فى حوار صحفى، فقد قضى "لورانس حياته فى مسعى وراء الحقيقة عن نفسه، وحينما وجدها أخيرا، كانت مرعبة".

استغرق إكمال الفيلم عامين، وتضخمت ميزانيته لتتجاوز ١٢ مليون دولار. زعم صانعوه أن الأمر تطلب إنفاق ٨٠٠٠٠ دولار فى اليوم فى الموقع لنقل المياه بالشاحنات إلى ١٥٠٠٠ من العاملين، و٥٠٠٠ ناقة، و٥٠٠ حصان. ظهر أوتوول فى كل مشهد تقريبا بالفيلم الذى يستغرق عرضه ٢٢٧ دقيقة وهيمن ظهوره على مجموعة قوية من الممثلين الذكور كان من بينهم ألِك جينس، كلود رينز، عمر الشريف، جوزيه فِرر، چاك هوكينز، أنطونى كوين، دونالد وولفيت وآرثر كيندى. تنقل الفريق، أو بعض أعضائه، ذهابا وأوبة بين مواقع فى إسبانيا، المغرب، والأردن (حيث حظرت السلطة الملكية المتقلبة المتوترة عرض الفيلم فى البداية). حضرت الملكة إليزابث الثانية العرض الافتتاحى للفيلم فى ديسمبر ١٩٦٢، وحينما افتتح بعد ذلك بأسبوع فى نيويورك بلغ ثمن التذكرة سعرا غير مسبوق أى ٤,٨٠ دولار. وفى حملة دعائية تجارية، رَوّجت كولومبيا بيكشرز لِ "هَوَس لورانس" وهى ظاهرة أسمتها مجلة ڤوج "إبهار الصحراء"، امتدت لتشمل منتجات شركة إليزابث أردن لمستحضرات التجميل من "كريم الشيخ للوجه" إلى "برانِسْ لورانس الصغير للبلاج والحمام" التى سوّقتها شركة جيبس للملابس الداخلية بنيويورك. أتى التّلقى النقدى المبدئى متفاوتا. كان فيلم لورانس العرب قد رفض كليشيهات الملاحم العسكرية وبدلا من ذلك صور بطلا مضطربا يثير تمردا قوميا ليعلم فى النهاية أن المرجح هو أن يُخدع محاربوه ويُحرموا من التحرر الذى وعدهم به. وجد محرر النيويورك تايمز بوزلى كروذر، وهو يتحدث بلسان متوسطى الثقافة المشوشين،

الفيلم مبهرا بصريا لكنه "خالٍ من المشاعر الإنسانية" وأن السيناريو "يعوزه الرونق وطنّان فى آن". لكن پولين كيل، الناقدة ثاقبة البصيرة من النيويوركر، رأت أن الفيلم، من "أكثر الأفلام صقلا وإتقانا ورقيا وإثارة بمشاهده باهظة التكلفة" هذا رغم أنه من الواضح أن غالبية جمهور المشاهدين "ليس لديهم أدنى فكرة عما كان يفعله العرب والأتراك فى الحرب العالمية الأولى، ولم يميزوا الأشياء والأشخاص أو يعرفوا سبب اهتمام الإنجليز". وتساءلت ما إن كان بإمكان الجمهور استيعاب الأحداث التاريخية المتداخلة، وطبيعة البطل المعقدة من خلال مشاهد فيلم.

وعلى أية حال، ليس ثمة سوى القليل من الأفلام التى شاهدها مثل ذلك الجمهور العريض أو بثت رسالة على ذلك النطاق الواسع مثلما حدث فى حالة فيلم لورانس العرب. حصد الفيلم أيضا جوائز الأكاديمى لعام ١٩٦٢، ورُشح لعشر جوائز، وفاز بسبع جوائز أوسكار (أفضل فيلم، أفضل إخراج وتصوير وإخراج فنى وموسيقى ومونتاج وصوتيات). حينما شاهد الشاب ستيڤن سپيلبرج "لورانس" فى تكساس قرر أن يصبح مخرجا، وهذه ظاهرة تكررت مع الكثيرين غيره. ومنذ آنذاك، وكلما اندلع الصراع فى الشرق الأوسط، يتم إحياء الفيلم. أعيدت المشاهد التى كانت قد حُذفت من النسخة الأمريكية لتقصير مدة عرض الفيلم وتعتبر عمليات الإحياء تلك ليست فقط شاهدا على جودة الفيلم السينمائية بل أيضا على غموض رسالته الشعبوية/ الإمبريالية. ووفقا لما انتهى إليه ستيڤن سى. كايتون أستاذ الأنثروپولوچى بهارڤارد فى تأويله المفصل للفيلم، فإن "لورانس العرب" مُعادٍ للإمبريالية واستشراقى فج فى آن. ومن منظور كايتون ما بعد الحداثى فإن سبب تعقيدات خطاب الفيلم وتصويره للأحداث والشخصيات تعود إلى تعاليه الإمبريالى وإلى سياقات أصوله "التاريخية (ما بعد حرب السويس) والثقافية (حركة الشباب الغاضبين)".

وأيا كانت مكوناته، فقد أثبت مزيجها أنه لا يتأثر بمرور الزمن. صوَّت صنّاع الأفلام فى استطلاع للرأى أجرى عام ٢٠٠٤ على أن "لورانس العرب" هو أفضل فيلم بريطانى صُنِع على الإطلاق (كان بين الأفلام المرشحة "لقاء عابر Brief En

counter وآمال كبار. "Great Expectations" وبعد عامين، وفي مسح أجرته Premiere، الدورية السينمائية البريطانية، تم اختيار دور البطولة الذي أداه بيتر أوتوول أعظم أداء في تاريخ السينما. أيضا، زايد عُملاء للقصر الملكي الأردني، بأسلوب غير مباشر، عام ٢٠٠٦ بصالة سوثبي للمزادات على العَلم القطني الفعلي الذي قيل إنه كان يرفرف على الحصن التركي بالعقبة والذي أعيد تمثل عملية الاستيلاء عليه في مشهد مفعم بالفيلم، زايدوا بمبلغ ١٦٤٨٠٠ جنيه استرليني وحصلوا عليه. وعلى الرغم من كل ذلك، فمازالت الشكوك مثابرة. أكان الأمر كله مجرد تلفيق ودجلاً واحتيالاً؟ أسمى لورانس التمرد العربي "مشهدا جانبيا لمشهد جانبي". هل أسطورة "ملك العرب غيرالمتوج" برمتها مجرد فبركة؟

أضحت حجة هذا الادعاء مألوفة اليوم. من الجلي أن أفكار لورانس السياسية كانت غامضة مشوشة، متجذرة في مُثل الفروسية التي عفا عليها الزمن، أضيفت إليها طبقة من الأبوية الإمبريالية لتجعلها خصبة. كان يجيد إبداع الخرافات، بالأسلوب الهومري إذا حكمنا عليه من منظور خيِّر، لكن، يُعتقد بعامة أنه كان ملُفّقا بالسليقة اخترع أسطورته التي أدّاها بنفسه دون غيره. سعى إلى الشهرة دونما خجل أو حياء، حتى حينما كان يُقلل من أهميتها. وبدون شك، كان يؤدي الألعاب التي يقوم بها بنوع من الاستغراق الذاتي المُستخف النزِق، وأحيانا، أن يعترف بهذا بصراحة آسرة. كتب في خطاب له عام ١٩٢٩ يقول "لابد أن أضيف كلمة أخيرة حول تصرفاتي الشاذة. لابد لأي أحد صعد إلى القمة بمثل سرعتي (تذكر أنني كدت أكون عصاميا بالكامل، كان لوالدي خمسة أبناء ودخل لا يتجاوز ٣٠٠ جنيه إسترليني في العام) ورأى الكم الذي رأيته داخل قمة العالم، لابد له وأن يفقد طموحاته ودوافعه العادية التي حركته إلى أن وصل القمة. لم أكن ملَكاً أو رئيسا للوزراء، لكنني صنعتهم، أو لعبت بهم، وبعد ذلك لم يتبق لي الكثير مما يمكنني فعله في هذا الاتجاه".

من الواضح أن هذا هو مفتاح الموقف برمته. لم يأخذ لورانس نفسه أو الحياة على محمل الجد التام. ظل تلميذا نزقا حتى حادث التصادم المميت الأخير. بالغ البعض فى أهمية ميلاده غير الشرعى التى عرفها العالم للمرة الأولى من خلال أدلينجتون عام ١٩٥٥. لكن من بين أولاد لورانس الأب الخمسة، وكلهم غير شرعيين، فقد أصبح ند Ned فقط لورانس العرب. ومن الحقيقى أنه ظل يتوق للاعتراف بنسبه إلى النبالة الأنجلو/ أيرلندية وفقا لرأى الدكتور حورانى الذى يعرضه باقتدار، لكن هذا ينطبق أيضا على أشقائه الذين لم يصنع أى منهم ملوكا أو رؤساء وزارات.

أما استنتاجنا الذى نعرضه ببساطة فهو أن شخص لورانس يلقى أصداء من ذلك الشيطان الشعبوى المشاغب الذى يكمن داخلنا جميعا، يروق لمحطم القواعد فى أعماقنا، متحدى الأرثوذكسية والإجماع الذى يُجبر العالم على قبول تقييمه الخاص الوقح لذاته. قد يكون أسلوبه النثرى منمقا، لكنه نادرا ما يكون متكلفا طنانا. أضافت معرفته الأكاديمية بالأدب الكلاسيكى ومكانته ككاتب إلى سحره كرجل أفعال، وبخاصة بالنسبة للمثقفين الملتصقين بمكاتبهم. من ثم، قلّدُوه مكانةً فى مصاف المبدعين والعظماء بدءاً من أندريه مالرو، ووصولاً إلى الشاعر والروائى جابرييل دانو نزيو، وإرنست يونجر. أما بالنسبة للعاديين من الناس، فقد كان لتكفيره عن ذنوبه بالتحاقه بصفوف المقاتلين نفس وقع سحر تخليه عن تفاهات المكانة الاجتماعية التقليدية. اقتربت معتقداته السياسية من العاطفية المتهافتة، وعصر الأوسطية البالية لكنها لم تكن وضيعة أو مبتذلة. بصرياً، كان رجلا يصلح لكل الوسائط. وجعلت نظرته الساخرة ثيابه العربية حصينة ضد الضحك. علّق أورويل على غاندى بقوله إنه بالرغم من كل أخطائه وعيوبه فقد خلّف وراءه رائحة نظيفة، وهكذا فعل أيضا توماس إدوارد لورانس.

الفصل السابع

المرتدّ

هاري سانت چون بريدچر فيلبي

١٨٨٥ - ١٩٦٠

الفصل السابع

العقل مكان خاص مستقل بذاته

يستطيع بنفسه

أن يصنع من الجحيم جنة

ومن الجنة جحيما

ما أهمية المكان إن ظللتُ أنا كما أنا..؟

الأفضل أن أحكمُ فى الجحيم على أن أخدم فى الجنة

- الشيطان فى "الفردوس المفقود"

للشاعر چون ميلتون (١٦٦٧)

إذا كان ٧ ديسمبر عام ١٩٤١[1] يعيش فى الذاكرة الجمعية الأمريكية يوما للعار، فكيف للمرء أن يصف ٢٩ مايو ١٩٣٣، ذلك التاريخ الأقل ذيوعا؟ تاريخ زواج نسْر أعمى من ناقة صماء نتج عنه ذرية شائهة جروتسكية؟ بداية هطول مكاسب اقتصادية غير متوقعة، ولغز استراتيجى لا حل له؟ أم أنه كان فى جوهره ثأراً اكتمل أنجزه شخص بريطانى مُرْتد؟ بالنظرة الارتجاعية، كان هذا التاريخ يعنى كل هذا وأكثر.

المكان هو السعودية العربية: "مجموعة متناثرة"!! من القبائل الخاضعة، جمّعها معا عام ١٩٢٥ تحت وطأة السياط مؤسس المملكة عبدالعزيز بن عبدالرحمن سعود المعروف بابن سعود، أكثر منها أمة. المكان: قصرٌ رثٌّ (الملك بحاجة إلى أموال)

(١) تاريخ هجوم پيرل هاربور (الترجمة).

بالنزلة، إحدى ضواحى جدة. الشخصيات الرئيسية فى مراسم التوقيع هى الشيخ عبدالله سليمان، أمين الخزينة الملكية الماكر، ولويد هميلتون الأمريكى الدمث الذى يبلغ الأربعين من العمر وممثل شركة ستاندارد أويل أوف أمريكا (سوكال Socal).

من الحاضرين أيضا المترجم نجيب صلية، وكارل تويتشل مهندس التعدين الأمريكى، الذى وببصيرة مثمرة، عيّن الحدود فى عقد يمنح شركة سوكال الحقوق الحصرية لاستخراج النفط من المنطقة الشرقية لمدة ستة عقود (بما فى هذا التنقيب تحت سطح البحر وفى الجُزر) نظير مبلغ ٣٥٠٠٠ جنيه إسترلينى ذهب يدفع مقدما، يلى ذلك ٢٠٠٠٠ جنيه إسترلينى ذهب بعد ثمانية عشر شهرا. كان ثمة ١٠٠٠ جنيه إسترلينى من مجموع هذا المبلغ عبارة عن منحة مباشرة، والباقى ريع متوقع حُدِّد بأربعة شلنات عن كل طن يُدفع ذهباً. تلك كانت هى العناصر الجوهرية لما أسمته وزارة الخارجية الأمريكية "الجائزة التجارية العظمى فى تاريخ الكوكب".

تم منح مختلف المسئولين الذين حضروا المراسم أقلام حبر وأهديت حقيبة أوراق إلى المترجم. يتذكر تويتشل قائلا: "لم تدخل أية أموال أو هدايا أخرى تلك الصفقة مع الاستثناء التالى: منحتنى الحكومة السعودية (جائزة) وفقا لوعدهم ولم تعترض عليها الشركة التى أعمل بها". (من جانبها، تعرض عليه سوكال ١٠٪ ريعا مستقبليا لخدماته، لكن تويتشل، الأمريكى المُقتِّر، يختار بدلا من ذلك تلقى استحقاقاته دفعة واحدة قدرها ٧٥٠٠٠ دولار، وهو مبلغ ضخم فى تاريخ شركات النفط الكبرى). ثم تحدُث عقبة غير متوقعة. يصر ابن سعود على أنه لن يقبل سوى نقود ذهبية، وكانت إدارة فرانكلين روزفلت التى كانت قد تولت الحكم لتوها بواشنطون، قد قررت الاستغناء عن معيار الذهب الاحتياطى فى محاولة منها للتعاطى مع فشل البنوك الضخم. تحاول سوكال الحصول على إذن باستثنائها، لكن دين أتشسون الذى كان قد عُين لتوه مساعدا لوزير الخزانة يرفض ذلك. تلجأ شركة النفط بإلحاح إلى مكتب مورجان جرانتى بلندن ليحصل لها على ٣٥٠٠٠ جنيه ذهب من مصلحة سك النقود الملكية. تصل الجنيهات الذهب فى موعدها فى سبعة صناديق على سفينة للركاب تابعة لشركة P&O، وكل جنيه منها مدموغ بصورة أحد ملوك بريطانيا الذكور مراعاة لما يُفترض أنه الهاجس الذكورى لدى السعوديين. تتم كل هذه الترتيبات بمساعدة الشاب الأمريكى الدمث لويد هاميلتون الذى يصل إلى جدة مع زوجته إيرى وكأنما لقضاء إجازة (ومعه أقلام الحبر) ثم يختفى من التاريخ.

وبالأسطر التى خطتها تلك الأقلام، أنهت أمريكا السيطرة البريطانية على نفط الشرق الأوسط. أما ما لم يكن بنفس الدرجة من الوضوح آنذاك فهو أن ذلك الحلف قد ورّط واشنطون دونما رجعة فى أوحال منطقة ترتبط بالكراهيات والأحقاد الجهنمية كتلك التى تصورها قصيدة "الفردوس المفقود" للشاعر چون ميلتون أكثر

من ارتباطها بـ "حقوق الإنسان"، لطوم پين. لذا كان من المناسب أن يلعب دور القابلة فى الصفقة هارى سانت چون بريدچر فيلبى، الملاك البريطانى الذى هوى. كان فيلبى هو من وجّه الأمور بالملعب ضد اتحاد شركات بريطانى كان يسعى للحصول على حق التنقيب بالسعودية. شجع فيلبى ذلك الاتحاد على رفع قيمة العطاء فيما طمأن وزارة الخارجية البريطانية مؤكداً أن "كل معلوماتى وجهودى ستكون دونما تحفّظ تحت إمرة السيد أندرو ريان الوزير البريطانى الموجود بجدة." وفى الواقع، كان فيلبى يتلقى سرا ١٠٠٠ دولار شهرياً من شركة كاليفورنيا التى وعدته بزيادة سخية إذا فاز عطاؤها – ولم يُكشف عن هذا الترتيب سوى كملاحظة استطرادية فى سرد فيلبى لتفاصيل الصفقة الذى نشر فى عام ١٩٦٤ بعد وفاته من خلال معهد الشرق الأوسط بواشنطون.

بالنسبة لفيلبى أتته تلك الأتعاب فى وقت حرج. كان آنذاك مستشارا بدون أجر فى البلاط السعودى، وكان يحيا متقشفا على معاش متواضع من الحكومة البريطانية بالإضافة إلى عمولات من الشركات البريطانية التى كانت لها أعمال بالسعودية – عمولات مشروطة بتسديد القصر قيمة فواتيره المستحقة، الأمر الذى غالبا ما كان يستغرق سنوات. هذا علاوة على وجود مطالبات متراكمة على مكتبه بمصاريف المدارس الداخلية لبناته الثلاث، ورسوم دراسة ابنه هارولد الذى كان طالبا بالسنة الأولى بكلية ترينتى بكامبريدج، الجامعة التى درس بها فيلبى. وُلِد هارولد عام ١٩١٢ عندما كان والده نجما صاعدا بالخدمة المدنية الهندية. لُقّب بـ"كيم" اسم الجاسوس الطفل فى رواية كيپلينج التى نشرت عام ١٩٠١. وهكذا حدث وأن سنوات كامبريدچ التكوينية فى حياة أشهر جاسوس سوڤييتى فى القرن العشرين موّلتها شركة ستاندارد أويل أوف كاليفورنيا التى كان يملكها چون دى. روكفلر الرأسمالى الكبير.

بيد أن النقود وحدها لم تكن حافز "چاك" فيلبى. لنتأمل وصفه للقائه مع السير

أندرو ريان بعد أن تمت الصفقة. كان فيلبى وزوجته دورا يستعدان للسفر للقاهرة حيث كان من المقرر أن يناقش أمر حصوله على توكيل سيارات شركة فورد بالسعودية (وقد تم له ذلك). يصف فيلبى ما تلى: تحدثنا عن كل شىء تحت الشمس العربية، لكن فقط كان حينما وقفتُ لأستأذنه فى الذهاب أن قلت له: أظنُّ أنك قد سمعت أن الأمريكيين قد حصلوا على الامتياز .نزل عليه قولى كالصاعقة وأعتم وجهه غضبا وإحباطا. كان قد تأكد أن نفوذه الذى مارسه من وراء الستار دونما تدخل مباشر، كان لابد أن يقلب الموازين فى صالح المنافس البريطانى. لكن هذا لم يحدث: فحتى هو لم يُقدّر المسألة الجوهرية التى كانت على المحك، أى حجم القرض المبدئى الذى كانت حكومة ابن سعود فى أمس الحاجة إليه".

أضاف فيلبى بأسلوب مكبوح نادرا ما استخدمه "كان وداعنا الأخير على قدر من التوتر، هذا على الرغم من أننا كنا دائما قد أبقينا على علاقات ودية بالرغم من الفجوة العريضة التى تفصل آراءنا السياسية وغيرها، وطموحاتنا. كان حقا "آخر الترجمانات". تربى فى مدرسة الهيمنة الغربية التقليدية على العالم الشرقى، فيما كنت أنا بالتأكيد من أوائل مناصرى تحرر الشرق من كل تحكمات الغرب وحصوله على سيادته".

وكان هذا حقيقيا. كان فى عام ١٩٢٥ قد استقال من منصب مميز فى الخدمة السياسية الإمبريالية لأنه عارض سياسات حكومته شرق الأوسطية، وأيضا (وكان السببان مرتبطين) لأنه شعر أنه لم يكن ثمة تقدير كافٍ لنصائحه وجدارته. انتقل فيلبى إلى جدة، مقره فى دوره الجديد كمستشار رفيع المستوى لابن سعود الذى كان قد التقاه أثناء عمله كعميل سياسى بريطانى فى الحرب العالمية الأولى. كان قرارا جسورا فى توقيت لم يسبق وأن خُطِط له. كان ابن سعود مازال يتعلم أساليب القوى الأوربية العظمى التى كان حكامها، بدورهم، أكثر منه جهلا بأهمية مملكته الوليدة. فى عشرينات القرن العشرين، كانت المملكة العربية السعودية

مازالت بشكل أساسى تعتمد للحصول على العملات الأجنبية من تدفق الحجاج الموسمى غير المنتظم على مكة والمدينة، اللتين أصبح ابن سعود راعياً لهما بعد إطاحته بحسين وابنه على، آخر الأشراف الهاشميين. وعلى الرغم من ذلك، فمن تلك البدايات غير الواعدة، ظهر فيلبى كصانع ملوك غربى ترك أعمق البصمات الاستراتيجية على الشرق الأوسط.

بدا چاك فيلبى، وهو المقاتل، المشاكس، شديد التحمس لذاته، وأنه يحدق فى العالم، كالبومة، من أيكته الخاصة. كتب السير ريدر بولارد، زميله عالى الرتبة، وكان أيضا ديبلوماسياً لا يتسمك بالتقاليد، لكنه يتمتع بموهبة وصف المواقف والشخصيات العبثية، كتب يقول "كان به مسحة من الجنون. تعارك مع إدارات ثلاث - بالهند، العراق وشرق الأردن - ولا أستطيع أن أصدّق أنه كان الشخص الوحيد الشريف ذا التفكير الصائب بين كل هؤلاء. بيد أن هذا كان اعتقاده الراسخ، وبهذا الإيمان، وطاقته الهائلة، والقدرة الحقة التى تعمل بالتوازى مع مسحة الجنون لديه، فقد كان يثير الكثير من المتاعب.. لابد وأن فيلبى كان يشعر ببساطة أنه مثيل لبرمثيوس، يتحدى الآلهة من أجل الخير العام".

كان تقدير بولارد هذا (١٩٤٢) تَنَبُّئياً. بالنسبة لزملاء كثيرين كان فيلبى جلفا. أرعن، لكن الدافع البرومثيوسى كان دائما هناك. فوصف چاك ببساطة بأنه وغد يماثل وصف هاملت بأنه لا يعدو أن يكون شخصا متناقضا ودون چوان وأنه مجرد شخص شهوانى. وفى الحقيقة، كانت شخصية فيلبى معقدة تعقيد نشأته. أُرسل والده هارى مونتاجو فيلبى وكان ابنا أصغر لأسرة متوسطة الحال بنوفوك، أرسل إلى سيلان فى سبعينيات القرن التاسع عشر ليبدأ حياته من جديد كمزارع بُن. وهناك، وعلى جزيرة كلونيالية عُرِف عنها تنوعها الدينى - البودية، الهندوسية، الإسلام، والمسيحية- وُلِد چاك عام ١٨٨٥ . كان ثانى أربع أبناء لوالده "مونتى"

وزوجته كوينى الابنة الكبرى للكولونيل چون دانكان، قائد حامية كولومبو. ومثل ابنه، كان مونتى أيضا جلفا أرعن: كان يشرب ويقامر وكان فاسقا يطارد النساء، ومزارعا مفلسا. كانت كوينى التى كانت تناديها عائلتها باسم ماى هى التى كانت توجه قرارات الأسرة باتساق، وتلتجئ فى المآزق الحرجة لأقاربها الأكثر ثراء لدفع مصاريف مدارس أبنائها الداخلية بإنجلترا.

فى سنواته المبكرة بمدرسة قبل المرحلة الإعدادية، التى كان ناظرها چيه. ڤى. ميلن (والد الكاتب إيه. إيه. ميلن) أبهر فيلبى الصغير مُدرّسيه. وبتوصية من ميلن، حصل چاك وهو فى الثالثة عشرة على منحة "الملكة" للدراسة بمدرسة وستمينستر التى كانت تقع (كما تذكّر هو وكله حنين إلى المكان) ".. فى ظل كنسية وستمينستر ومجلسىْ البرلمان، ورنات ساعة بيج بن تعلن عن الساعات المتلاشية". حصد كل الجوائز المتاحة - بساحة الكريكت وملاعب كرة القدم، ورقعة الشطرنج، ومنصة المناظرات - وفى سنته النهائية أصبح قائد الطلبة بالمدرسة. كان فيلبى أحد الحاصلين على منحة الملكة الذين شاركوا فى قدّاس الملكة ڤيكتوريا الجنائزى عام ١٩٠١ بكنيسة وستمينستر. وبعد ذلك بعام، وبصفته حاصلا على منحة الملك، ساعد فى حراسة الشعارات والأزياء الملكية أثناء مراسم تتويج الملك. عرّف نفسه بأنه "محافظ" و"مسيحى"، ولم يتسبب فى دهشة أحد حينما فاز بمنحة دراسية لدراسة الكلاسيكيات بترينتى كوليدچ، كامبريدچ.

ومثل وستمينستر، كانت ترينتى مهيبة، ملكية الطلعة والأصول. لا يستطيع الزائر الذى يلج من بوابتها العظيمة (بُنيت بين عامى ١٥٢٨- ١٥٣٥) إلى فنائها العظيم (الأكثر اتساعا من بين كليات كامبريدچ أو أكسفورد) سوى أن يستشعر أشباح إنجلترا (Albion الاسم الرومانى لإنجلترا) القديمة. تُذكّر حجرات إسحق نيوتن التى تواجه الفناء الداخلى الزوار بتفوق ترينتى فى العلوم بدءا من فرانسيس بايكون وحتى نيلز بور. وفى عام ٢٠٠٧، كان باستطاعة الكلية أن تحصى ما لا يقل

عن واحد وثلاثين من خريجيها نالوا جائزة نوبل (أكثر من فرنسا وبلچيكا مجتمعين) وخمسة حائزين على ميداليات رياضية (ومثلهم فى أفرع الرياضيات). ثمة تماثيل نصفية فى جميع الأنحاء للعظماء فى الكنيسة والدولة وسط تماثيل الموهوبين الذين أهدتهم ترينتى للآداب ابتداء من أندرو مارڤل واللورد تنيسون وحتى فلاديمير ناباكوف. وبين المقنيات الثمينة فى مكتبتها الرائعة التى صممها السير كريستوفر رِن توجد أول مسوَّدة للفردوس المفقود للشاعر چون ميلتون. حينما التحق چاك فيلبى بترينتى فى الفصل الدراسى الذى يبدأ يوم ٢٩ سبتمبر (فصل القديس مايكل) عام ١٩٠٤، كان هذا الإرث موضع إعادة تفحص ضارٍ فى جدالات حول الاشتراكية، فرويد، الحركة النسوية، حركات السلام، الإلحاد، وداروين (الذى كانت علاقاته وتلاميذه يطغون على المشهد).

تذكر فيلبى فيما بعد ذلك المشهد حيث قال إن النقد والجدالات كانت تشكل "نكهة ومذاق الحياة بكامبريدچ فى تلك الأيام" وإن ترينتى كانت بالنسبة لكامبريدچ ما كانته تلك الجامعة بالنسبة للمملكة المتحدة، أى منطقة الجدل الثقافى الحاد الحر. كان أبرز فلاسفة الجامعة (برتراند راسل، ألفرد نورث هوايتهد، وچى. إى. موور) من ترينتى، وكذلك كان المجدِّدون الثقافيون الذين شكلوا الدائرة الداخلية فى جماعة بلومسبرى (ليتون ستراتشى، كلايف بل، ولينارد وولف، وكانوا جميعهم قد تخرجوا مؤخرا فى ترينتى). كانت "شلة" فليبى الخاصة تضم چيمس ستراتشى، شقيق ليتون ومترجم فرويد، وجواهرلال نهرو الذى دعم چاك عضويته لجمعية المناظرات بالكلية وكانت تسمى The Magpie and Stump. بيد أن فيلبى، وطوال سنواته بالكلية أخفى راديكاليته المتنامية. ومن الأمور الكاشفة أنه عمل بالتمثيل واشترك فى إنتاج طلاَّبى لمسرحية الدكتور فاوستاس لمارلرو.

وفى الواقع، فقد كان فيلبى قد أصبح بالفعل ضمن جماعة الفابيين، (أى أنه أصبح اشتراكيا حر الفكر). وفى سنته النهائية بالكلية أججت صراعاته الفكرية

المضطربة أزمة أخلاقية لديه. كان قد طُلِب منه إعداد ورقة بحثية يُلقيها فى "جماعة مقال الأحد المسائية" بترينتى واختار موضوعه "الأعراف وإرباكاتها". قال فيلبى عن تلك الورقة إنها كانت "آخر عمل (Swan Song) اختتمت به مرحلتى الأرثوذكسية، وأدركت فيما كنت أكتبها أننى لم أعد أومن بأى من الرؤى التى طرحتُها. كان العالم الذى كنت قد عشته حتى آنذاك ينهار على مرأى منى، لكننى تمسكت ببنادقى دفاعاً عن أى موقف يتعذر الدفاع عنه. كان هذا قرب نهاية عامى الأخير بكامبريدج، وكان الميدان جد المختلف الذى ظهرتُ فيه لأول مرة كمدافع عن الاشتراكية، والفكر الحر، واللاأدرية، وغير ذلك مما يحرّمه ذلك الكيان الشرائعى الذى كان قد بدا حتى آنذاك آمنا ومُرضياً، كان ميدانا مختلفا بالفعل". كان "الميدان جد المختلف" الذى أشار إليه چاك هو "المشرق"، كما كان الجميع يسمونه، بلغاته وعقائده المتعددة، وكان من جذب فيلبى إلى المشرق هو أستاذ مرموق بكامبريدچ.

كان إدوارد جرانفيل براون بين المؤثرين على تفكير جيله عن "المشرق" رغم أنه لا يحتفى به كثيرا. أثناء السنوات التى قام فيها بالتدريس بكلية بمبروك بكامبريدج كان جميع من بالجامعة يعرفونه رؤية العين. كتب لورانس جرافتى - سميث أحد تلاميذه يقول عنه "من الناحية الجسدية كان تجسيدا لعمليات التطور: كان قصير القامة، عريض المنكبين، مُطأطأُ الرأس ومُنحنِي الكتفين، تتدلى ذراعاه الطويلتان بأسلوب جروتسكى أثناء سيره المتثاقل. لكن وجهه ذا الملامح الوسيمة الواضحة كان يتوهج فكرا وحبا للبشر". أضاف جرافتى - سميث الذى أصبح فيما بعد مسئولا قنصليا بالشام قائلا إن محاضراته كانت تماثل "قطيعا من كلاب الصيد تنبح بأعلى صوتها". كما تذكره بولارد الذى كان يعمل مساعد أستاذ بكامبريدچ وأصبح ديبلوماسيا أيضا بأنه كان "شهاباً، لا قاطرة"يلقى محاضراته بتدفق

وسرعة رهيبة. كان براون لغوياً لا نظير له يُتقن التركية والعربية والفارسية والهندوستانية إضافة إلى اللغات الأوربية المعتادة (وكان قد أتقن تلك اللغات وهو يستعد للحصول على درجته الجامعية بمرتبة الشرف رغم أنه كان قد تلقى التحذيرات من أنه لا تكاد توجد وظائف تدريس باللغات الشرقية). ترجم الأعمال الأدبية الفارسية التى كان يُقدرها أيما تقدير وأسف لأن إنجلترا "لا تشجع أبناءها على دراسة اللغات الشرقية بما يكفى مقارنة بالأمم الأوروبية العظيمة".

وبإيجاز، كان براون مستشرقا، نموذجا لذلك الصنف من الأكاديميين الذين استهجنهم الراحل إدوارد سعيد بصرامة فى كتابه "الاستشراق" (١٩٧٨)، وكان سعيد ذو الأصول الفلسطينية المسيحية قد رأى أن الأكاديميين من أمثال براون قد صنعوا الدرع الثقافى الواقى الذى برروا به قمع الغرب للشرق وأعدوا له. بيد أن هجوم البروفسور سعيد، من حيث شموله وعنفه، لم يكن جد منصف لبراون، بين آخرين. فى عام ٢٠٠٦ نشر المؤلف البريطانى روبرت إيروين كتابا بعنوان "شهرة المعرفة" ساق فيه محاجات يردّ بها على اتهامات الراحل إدوارد سعيد. دافع إيروين عن براون وبيّن أنه لم يكن أبدا مؤيدا للهيمنة الإمبريالية، بل بدلا من ذلك كان يوجه النقد اللاذع لوزارة الخارجية. حينما قسمت بريطانيا وروسيا عام ١٩٠٧ بلاد فارس إلى مناطق لنفوذهما، ثم بعد ذلك أخمدتا معا الثورة الدستورية هناك، كان "چونى" براون هو الذى قاد، دون كلل أو ملل، الحملة المنادية بحرية الفُرس. وأصبح براون، المدافع النارى عن حقوق السكان الأصليين، وفقا لتعبير إليزابث مونرو "أكثر الرجال شعبية بكامبريدچ" (وهذه مرتبة بالإمكان القول إن البروفسور سعيد قد تمتع بها فى كولومبيا فى تسعينيات القرن العشرين).

بعد أن اجتاز فيلبى الاختبارات الصارمة التى أهلّته للالتحاق بـ "الخدمة المدنية الهندية ICS" أى بالشريحة الحاكمة بالإمبراطورية، وقع فى إسر سحر البروفسور براون. ولأنه لم يكن قد غادر إنجلترا أبدا منذ عودته من سيلان عام ١٨٩١، أقام

فيلبى بترينتى فى محاولة منه لتعلم الهندوستانية والفارسية. وفى ذلك العام، وبدافع من إحدى نزواته، قرر براون تدريس منهج للمبتدئين فى اللغة العربية، الأمر الذى رآه فيلبى فيما بعد وأنه "كان إصبع القدر تستدعينى للسير فى طريق لم أكن قد حلمتُ أبدا أن أخطوه". يصف فيلبى فى سيرته الذاتية "أيام عربية" براون بأنه "كان بالتأكيد أكثر مدرس مُلهم التقيته فى حياتى، مشاكسا متقلبا إلى أقصى الدرجات لكنه كان متحمسا بضراوة - غزير الثقافة والعلم- بدرجة يصبح المرء معها وقد تملكه الشغف لمعرفة الشرق وأناسه".

فى ديسمبر ١٩٠٨، رحل جاك فيلبى إلى الهند حيث توجه إلى لاهور، عاصمة إقليم البنجاب، ووصلها فى وقت احتفالات الكريسماس بأسلوب المغتربين. بدأت الاحتفالات بحفل "لاهور" الراقص واستمر الرقص حتى الفجر، ثم تلاه مباريات فى الكريكت والپولو، وبلغت الذروة فى سباقات للخيل افتتح مراسمها نائب الحاكم السير لويس داين الذى وصل فى عربة تجرها الجمال، تتبعه سيارة رولز رويس على شكل بجعة بداخلها أمراء هنود يرتدون عمائمهم. بعد ذلك استقر فيلبى فى منصبه الجديد بچولوم، وهى محطة على طريق جراند ترانك الذى يربط البنجاب بالحدود شمال الغربية. وهناك، عُرِف مسئول المقاطعة الشاب بقراراته الحكيمة كقاضٍ محلى، وتمكن من حفظ السلام بين السيخ والمسلمين والهندوس. وعملياً، مثّل هذا انطلاقته على الطريق الوظيفى التقليدى بـ ICS.

لكن لم يكن له أن يسير فى هذا الطريق.. فى كلكتا، التى كانت مازالت عاصمة البنجاب، كان الإصلاحى اللورد مينتو قد خلف مؤخرا اللورد كيرزن ذا العقلية الإمبريالية كنائب الملك، وترأس المكتب الهندى بلندن چون مورلى الليبرالى وكاتب سيرة جلادستون. كان مينتو قد تسبب فى ترويع المسئولين البريطانيين التقليديين حينما تحدث عن إضافة هندى حقيقى إلى "مجلس الحكم" وعن تقليص الغالبية

"الرسمية" أى البريطانية التابعة لسلطة الانتداب فى مجالس الأقاليم. تمت الموافقة على هذا التغيير على الفور، وكانت إصلاحات مينتو- مورلى بين الخطوات التجريبية الأولى باتجاه الحكم الذاتى بالهند. وسار التغيير قُدما بشكل ملموس، لكن فيلبى استبق منحنى السير بجسارة. يؤكد قائلا فى مذكراته "ربما كنت أول اشتراكى يدخل الخدمة المدنية الهندية، وأظن أننى روّعت معظم أصدقائى بإعلانى منذ البداية أننى متمسك بمثال استقلال الهند".

حينما كان يظهر بمطعم سلاح الفرسان أو بنادى الضباط، كان يتسبب فورا فى تلميحات الحضور وتعليقاتهم. أسموه الراديكالى الشيوعى المتحمس. بيد أن أول تمرد لفيلبى لم يكن سياسياً، بل كان هو زواجه. فى عام ١٩٠٩ التقى فى حفل راقص براولبندى فى الكريسماس بدورا جونستون وأغرم بها. كانت فتاة جميلة حمراء الشعر ابنة موظف بريطانى صغير. كتب فيلبى إلى والدته يقول "ميس جونستون إحدى فاتنات راولپندى، رقصها جميل، وقد شرفتنى بعدة رقصات فى جميع حفلات الرقص التى استطعت حضورها"؛ بيد أن والدة فيلبى لم تعتقد أن مكانة دورا تليق بابنها الموهوب، وعارضت خطبتهما فى إحدى الشجارات النادرة بينهما. فى ١٩١٠، تزوج جاك ودورا بالكثدرائية الأنجليكانية بمورى، وهى مدينة جبلية قصد بها أن تُحاكى القرى الإنجليزية (ومازالت تحاول ذلك كما اكتشف مؤلفا هذا الكتاب لدى زيارتهما لباكستان عام ١٩٨٩). كان إشبين فيلبى الملازم برنارد مونتجومرى قريب أمه الشاب الضابط بفرقة وارويكشير الملكية، (والذى اشتبك فيما بعد، وهو برتبة فيلد مارشال مع رومل قائد الجيوش الإيطالية بإفريقيا، وأيضا بپايتون فى أوروبا).

بيد أن غضب نائب الحاكم داين من فيلبى تعمق حينما أُتهم فيلبى، مسئول الإقليم الجديد، بتوجيه لكمة غير قانونية إلى أذنى مدرس هندى قيل إنه أبدى ازدراءه أثناء شجار بالقرية. بيد أنه حينما عوقب فيلبى لانتهاكه إحدى السياسات

الراسخة للحكم المدنى البريطانى (ICS) بالهند، لم يكتف بتحدى قرار داين، بل إنه التجأ إلى نائب الملك حاكم الهند لعكس ذلك القرار، وكان هذا من حق العاملين بالخدمة المدنية. خفف نائب الملك العقوبة لكنه أبقى التوبيخ. يكاد يكون من المؤكد أن فيلبى لم يخضع لأى إجراء تأديبى آخر وذلك بسبب مهاراته اللغوية الهائلة، ووصول السير مايكل أودياور، الرئيس الإقليمى الجديد، ذلك الأيرلندى الذى تربى بكلية باليول بأكسفورد على قاعدة عدم تقديم اعتذارات أو تفسيرات أبدا. راقت دورا وفيلبى للسير مايكل، وأعجب بروح فيلبى المشاكسة، وهناك ظنٌ فى أنه طلب من فيلبى فرض الرقابة على الكتابات المحرضة بالصحف البنجابية التى تُنشر باللغة المحلية. قال فيلبى فى خطاب إلى والدته "أحظُر أوهى إشارة مُحرضة على العصيان، ولو أننى صحفى، لكنت الأكثر تحريضا، ولغدوت شوكة فى جسد الحكومة". وبعد اندلاع الحرب العالمية الأولى أصبح فيلبى الشريك المحلى لـ"الفرع الخاص" ومقره لندن للرقابة على المقاتلين السيخ المشتبه فى تلقيهم مساعدة من ألمانيا، وبذلك اتسع نطاق مهامه.

وصلت إلى أسماع السير پيرسى كوكس تقارير عن نشاط فيلبى ومواهبه اللغوية، وكان كوكس مكتشفا للمواهب من الدرجة الأولى وكبير المسئولين السياسيين بالبصرة، قاعدة القوات الأنجلو/هندية التى كانت آنذاك تتقدم داخل بلاد الرافدين. وبتزكية– أودياور – التحق فيلبى بالقسم "السياسى والسرى"، الذى كان يبدأ قرنه الثانى، بصفته وكالة الجاسوسية التى يفخر بها نائب الملك، حاكم الهند. كتب فيلبى إلى دورا متحمسا" فرصتى أخيرا! المجال الذى ظللت أطالب بدخوله لوقت طويل". وكانت تلك حقا فرصته، واستغلها إلى أقصى الحدود. فى نوفمبر ١٩١٥، وكانت چاكته قد زينت لتوها بشارات "الضابط السياسى" البيضاء، ذهب فيلبى إلى البصرة لاستلام مهام منصبه. وسرعان ما كوّن علاقات ودية مع تلميذة كوكس الموهوبة چرترود بِل، المستعربة المتمكنة مثل فيلبى نفسه. وفى غضون

أشهر أصبح جزءا من شبكة إقليمية من المسئولين متوسطى المستوى - السير مارك سايكس، تى. إى. لورانس، دايفيد هوجارث، والكولونيل إيه. تى. ويلسون - الذين كان لكل منهم نهج جد مختلف لكنهم كان لهم ذات الهدف المشترك لجعل بريطانيا جزءا عضويا من الشرق الأوسط بمجرد انتهاء "الحرب العظمى من أجل المدنية والحضارة".

كانت العلاقة بين فيلبى الذى كان فى الثلاثين من العمر، وميس بِل التى كانت فى أواخر الأربعينيات، ودية ورسمية فى آن. كانت چرترود تناديه، لا باسمه "چاك" أو "سانت چون" بل "عزيزى المستر فيلبى"، وبدوره كان دائما يدعوها "ميس بِل" حتى حينما سافرا معا للاجتماع بشيوخ العشائر العربية فى الأحراش الجنوبية، أو لعمل مسح لشط العرب، النهر الذى يفصل بلاد الرافدين عن فارس. وأثناء عام ١٩١٦، بلغت نكسات البريطانيين العسكرية ذروتها باستسلام الجيش الأنجلو/هندى المحاصر بمدينة الكوت العراقية. وفى هذا العام المحبِط، كانت مهمة فيلبى الشاقة هى المساومة مع العشائر المحلية حول تعويضاتهم نظير الأطعمة التى استولت عليها قوة المهمات الغازية. وهكذا تعلم المساومة والسباب بالعربية، مستخدما اللهجات المحلية، أو اللغة التركية/ العربية الرسمية التى كان يُفضلها مشايخ العشائر. وفى مارس ١٩١٧، تحول التيار العسكرى فى صالح بريطانيا. اقتحم الجيش المتقدم بقيادة الماچور جنرال ستانلى مود بغداد، عاصمة المنطقة المحتلة التى كانت قد بدأت تُعرف باسم العراق. اتخذ كوكس بغداد مقرا له بصفته "المفوض السامى المدنى" ولحقت به چرترود بِل كسكرتيرته للشئون الشرقية. سعى كلاهما للتوفيق بين رأى نيودلهى- جعل العراق "محمية بريطانية يستعمرها مهاجرون هنود" - ووعود لندن بالتحرير التى كان الجنرال مود قد أعلنها رسميا.

فى مايو عام ١٩١٧، تم نقل فيلبى، مؤقتا، إلى بغداد حيث رحبت به چرترود فور وصوله بتلك الكلمات الحارة (التى تذكرها فيلبى فيما بعد): "لقد سعدتُ

بقدومك. إن الفوضى تعم المكان هنا. السير پيرسى مرهق فوق الاحتمال، ولا يوجد بالمكتب من يعرف المبادئ الأولية عن أى شىء؛ إنه لوضع بشع وعليك أن تجعل الأمور تستقيم". يضيف فيلبى فى مذكراته، فى محاولة منه للتظاهر بالتواضع، "إن چرترود كانت دائما تميل إلى استخدام صيغة التفضيل - ولم يكن فى جعبتها ثمة نعوت معتدلة معتادة". حوّل المفوض السامى المدنى الذى شعر بالارتياح والامتنان، الرسائل الواردة كى يقوم فيلبى بعمل غربلة أولية لها. صاغ چاك ردوداً مناسبة ليعرضها على كوكس للموافقة، الأمر الذى كان يعنى، كما تذكّر "أننى، وفى وقت وجيز، أصبحتُ مُلمًا تماما بجميع شئون القسم السياسى، ومتبصرا بأبعادها". من ثم استطعت "أن أضمّن أفكارى الخاصة بحرية فى المسودات التى كنت أقدمها لكوكس كى يتفحصها".

ومن موقعه المطلع المميز ذاك، علم فيلبى فى أغسطس ١٩١٧ أن الكولونيل آر. إى. إيه. هاميلتون، العميل السياسى بالكويت، كان يقترح إرسال بعثة خاصة إلى الرياض لاستطلاع احتمال التعاون مع شيخ القبائل العربية الصاعد ابن سعود. وتصادف، فى ذات الوقت، وصول الكولونيل آرنولد ويلسون إلى بغداد على أمل إعفائه من مهامه الشاقة بالبصرة. بعد لقائه مع كوكس، توقف ويلسون فى مكتب فيلبى المجاور لمكتب كوكس. بدأ يقول "لقد تحدثت مع كوكس واقترح علىّ التحدث إليك".. إن الوضع الحالى مستحيل". سأل فيلبى (بأكبر قدر مستطاع من البراءة) لِمَ؟ ماذا حدث؟". أجاب ويلسون "لا أستطيع إنجاز شىء مع كل تلك التجاذبات بين بغداد والبصرة. الأمور بحاجة إلى تنشيط هنا. هذا علاوة على أن كوكس مرهق بالعمل، ويحتاج إلى من يساعده". لدى تلك النقطة، تحدث فيلبى بأسلوب مباشر "انظر يا ويلسون، هل تعنى أنك تريد أخذ مكانى هنا على هذه المائدة؟" أجاب الكولونيل ويلسون "نعم، أظن أن هذا هو خلاصة الأمر". قال فيلبى "فى تلك الحالة، يمكن ترتيب الأمر بمنتهى السهولة - بشرط واحد. تعلم أمر البعثة المقترحة إلى

ابن سـعـود.. أقنِع كـوكس بإرسـالى فى تلك المهـمـة وبإمكانك أخـذ وظيـفـتى مـتى أردت". رد ويلسون "حسنا، سأذهب للقاء كوكس مباشرة".

وبعد خـمس دقائق، عـاد الكولونيل ويلسـون، و الذى سرعـان ما أصبح القـائم بأعمال المفوض السياسى والمهندس لأراضى العراق وحدوده فى المستـقبل، عـاد وقـال ببسـاطة "كوكس موافق". وهكذا، تفـادى فيلبى الكولونيل هاميلتون الذى كـان يكبره بأربعة عشر عاما، والتف حوله، وأصبح مبعوث كوكس إلى ابن سعود. قال فيلبى عن هذا برضا بعد ثلاثة عقود، "وبهذا الأسلوب وصلت إلى عتبة قَدَرى".

هنا، نصبح بحـاجـة إلى الخطو خلفا. فى عـام ١٩١٧، كـانت ثمـة ثلاث ممالك تتنافس على السيطرة فى وسط شـبـه الجزيرة العربيـة. كانت هـناك الحجـاز التى يحكمـها حسين شريف مكة، والذى كان فى العـام السابق، وبمسـاندة بريطانيـة، قد دعا إلى الثورة العربية ضد الإمبراطورية العثمانية، أما فى حـائل، فقد ظل أحد لوردات الحرب ويدعى ابن رشيد مواليا للأتراك ومعارضا لكل من حسين، والأمير ابن سـعـود، حـاكم نجد وعدو آل الرشيـد التـقليـدى. ووسط ذلك التنافس كـان ابن سـعود يمـتلك سـلاحـا حـاسـمـا ذا حدَّين: الوهابيين، المحـاربين الجـهـاديين الذين اشتهروا منذ زمن بضراوتهم وتعصبهم.

كانت مملكة ابن سعود تدين بأصولها إلى مصلح إسلامى شهير اسمه محمد بن عبـدالوهاب الذى وُلد عـام ١٧٠٣، ويقـال إنه حـفظ القرآن فى سن العـاشـرة. وبعون من عمله وحماسه، هـاجم عبدالوهاب انحلال المسلمين، ووجه غضبه بخاصة إلى عبّاد الأصنام والقديسين، وخصّ من بينهم الشيعة الكفار. كان أبرز معتنقى دعوة ابن عبـدالوهاب عام ١٧٤٥ محـمـد بن سـعـود الذى أسس أول مملكة وهابية بنجد والتى تمت بأسلوب يثير الإعجاب لتصبح فى ظل ابنه عبدالعزيز إمبراطورية صـحـراوية مـهيبة. وبالتـزامـن مع هذا، بدأ المسلمون الذين يذهبون للحج يعـتنقون

العقيدة الوهابية القتالية ويحملون رسائلها إلى أركان العالم الإسلامى القصية التى تمتد شرقا من حدود الهند الشمالية الغربية إلى سومطرة التى كانت خاضعة للحكم الهولندى، وباتجاه الجنوب من السودان إلى الصومال والقرن الإفريقى.

أعجب الرحالة الغربيون المبكرون فى القرن التاسع عشر ببساطة الوهابيين الورعة لكن تعصبهم أثار قلقهم. كانوا يحظرون الموسيقى والرقص والشعر والأضرحة والزينة الجسدية لأنهم رأوا أن الرسول لم يُقرّ تلك الممارسات. لم يوافق البدو جميعهم على هذا. وخلال قرن من الحروب القبلية المستدامة، تفاوت حجم المملكة الوهابية، وفى عام ١٩٠٠ انكمش تمددها الشاسع إلى مركزها الداخلى (نجد) حينما فقدت مكة والمدينة. وفى فترة الاضطرابات تلك، تعلم الحجاج المسلمون والرحالة الأوروبيون معا الإبقاء على مسافة بينهم وبين الوهابيين الغاضبين والذين كانوا يتميزون بلحاهم الشعثة وأثوابهم القصيرة وسيوفهم المنذرة. حذّر ويليام جيفورد بالجريف - تعلم بأكسفورد، وعمل ضابطا بالجيش الهندى، ثم انضم إلى أخوية الجزويت الفرنسيين - حذر فى عام ١٨٦٥ من أن الوهابيين "لا يملكون القدرة على التقدم، يعادون التجارة، ويبغضون الفنون بل وحتى الزراعة، ويتميزون بالتعصب والعدوانية إلى أقصى الدرجات". كما عبر عن مخاوفه من أن تلك الطائفة تشكل مصدرا جديداً لحروب الإسلام المريرة" التى قد تهدد العالم غير الإسلامى تهديدا خطيرا".

ردد مخاوفه الكولونيل لويس بلى، الذى كان خلافا لذلك شخصا تقليديا، وكان المندوب السامى البريطانى فى منطقة الخليج الفارسى فى ستينيات القرن التاسع عشر، وكان لا يثق فى بالجريف بسبب ارتباطه بالفرنسيين والجزويت. وعلى الرغم من ذلك، فقد حذّر بعد زيارته لنجد من أنه "وعلى حين أن الإمام نفسه كان شخصا عاقلا ورجلا مُجرِباً.. إلا أنه كان محاطا بأكثر الرجال الذين يمكن للمرء أن يلقاهم خطورة وتعصبا وانعدام ضمير وسرعة اهتياج". أو كما عبر مراقب آخر، أى

فيلبى، الذى تحدث مستندا إلى مرجعيته الخاصة، قائلا إن الحركة الوهابية متزاوجة مع "فكرة عظيمة" التى كان لابد من أجل الإبقاء عليها أن تظل مشتعلة بدرجة حرارة عالية: "مثل حرائق الغابات التى لا يمكن السيطرة عليها طالما ظل هناك وقود يغذيها، وفى هذه الحال، فإن وقودها هو العدوان المستمر، والتوسع على حساب من لا يشاركونهم فى تلك الفكرة العظيمة". هكذا كتب فيلبى عام ١٩٣٠ (كان الوهابيون يبادلونه الكراهية، وكان كلما وصل إلى الرياض للذهاب إلى بلاط ابن سعود يقابلونه بازدراء حقيقى).

بيد أن هؤلاء كانوا المؤمنين ملتهبى الحماس الذين مكنوا ابن سعود من طرد ابن الرشيد من الرياض عام ١٩٢٠ م، وفى أعقاب حرب أهلية مستطالة، كانت سيوفهم هى التى استولت على مكة والمدينة من على ابن الشريف حسين عام ١٩٢٥. وهكذا، جمّع ابن سعود بالقوة إمبراطورية وهابية ثانية، خلع عليها بفخر عام ١٩٣٢ اسم عائلته. كان إنجازه أكثر إثارة للإعجاب لأنه لم يكن لديه جيش نظامى بل اعتمد على مقاتلى الوهابيين القبليين الذين كانوا يُعرفون بالإخوان ويسكنون تجمعات منغلقة متناثرة. لم يحتفظ الإخوان بأى أسرى، فقد أجادوا قطع الرءوس والأطراف واحتفوا بانتصاراتهم بصفوف من الرءوس المغروسة فى أسياخ من الحديد مدببة الأطراف. وفى تقدير لناقد معادٍ لهم ومُطَّلِع فى آن أن الكاتب الفلسطينى سعيد ك. أبوريش، فإنه ما بين عامى ١٩١٦ و١٩٤٧ حدث ستة وعشرون تمردا على الأقل ضد ابن سعود، وانتهى كل منها بعمليات قتل جماعى قادها الإخوان".

وعلى الرغم من أنه لابد من الإقرار بوجود قدر من التحيز والمبالغة، لكن، وبدون أدنى شك فإن من عينوا أنفسهم "جنود الله" قتلوا مُبَشّرا بروتستانتيا كان من بين الأمريكيين الأوائل الذين سافروا إلى المنطقة الوسطى بجزيرة العرب. كان هو المقدس هنرى بيلكرت، وكان مسافرا بصحبة تشارلس آر. كراين رجل البِر من

شيكاغو، والذى كان مناصرا لحقوق العرب. أثناء الفصل معتدل الحرارة عام ١٩٢٩ كان متوجها بسيارته الشيفورليه من الكويت إلى الرياض على أمل لقاء ابن سعود. وبالقرب من سلسلة تلال حمصة سقطوا فى كمين لمقاتلى الإخوان المُميّزين بغطاء رأسهم الأبيض ذى الشراريب السوداء، ولحاهم المصبوغة بالحناء، واللون الأسود المحيط بأعينهم. قُتِل بيلكرت بإطلاق الرصاص عليه، لكن كراين نجا بأعجوبة ولم يصب بأذى. وفيما كان يتماثل للشفاء تلقى خطابا يقطر بالندم من ابن سعود (أغلب الظن بإيعاز من فيلبى)، أعرب فيه عن أسفه من أن يتعرض "صديق للعرب للهجوم فى أراضى العرب". ودعا المليونير لزيارة الرياض.

تُلقى هذه الحادثة وتتمتها (التى سنصفها لاحقا) الضوء على الإرباكات الراسخة التى تواجه ذوى النوايا الحسنة(!!) من الغربيين الذين يحاولون جاهدين فهم المملكة العربية السعودية. من يصدق المرء من، وماذا يصدق؟ التصريحات الرسمية الحثيثة الجادة عن صداقة المملكة للغرب؟ أم الحقيقة الملموسة حيث تغدق نفس الحكومة التى تطلق تلك التصريحات الأموال والميزات على المقاتلين الإسلاميين الذين يزعمون التفويض الإلهى بذبح الكفار وتعذيبهم وتشويه أجسادهم؟

كانت تلك هى الحيرة التى وجدت بريطانيا العظمى نفسها تواجهها حول المنطقة الوسطى من الجزيرة العربية أثناء السنوات المؤدية للحرب العالمية الأولى. طرَح الكابتن ويليام هنرى شكسبير، سَمِىُّ جده الشاعر المسرحى، وأول مسئول بريطانى يحث على عقد تحالف عسكرى مع ابن سعود، طرح تفسيرا متفائلا لذاك الموقف الملغز. كان السير پيرسى كوكس، قد عين شكسبير ممثلا لبريطانيا فى الكويت وعميلا له، وأضاف إلى مهماته أمر استكشاف منطقة الربع الخالى التى لم تكن موجودة على الخريطة. فى يناير ١٩١٤، توجه شكسبير على ظهر ناقة إلى الرياض

لإجراء مناقشات مع ابن سعود الذى كان قد التقاه لأول مرة بالكويت عام ١٩١٠ . وبعد الترحيب به فى الرياض التى كانت قد غدت مرة أخرى عاصمة المملكة الوهابية، أكد الحاكم الشاب للكابتن أنه كان شديد الاهتمام بالتحالف مع البريطانيين ضد تركيا. ذكر شكسبير أن الملك قال له "نحن الوهابيين نكره الأتراك، بدرجة أقل فقط من كراهيتنا للفرس، بسبب ممارساتهم الكافرة التى أتوا بها إلى العقيدة الحقة النقية التى أُنزلت علينا فى القرآن". وفى الواقع، كما اختتم الكابتن. "فإن كراهية الأتراك تبدو الفكرة الوحيدة المشتركة بين جميع القبائل، من ثم، فليست الثورة فقط أمر محتملا، بل ستكون موضع ترحيب فى جميع أرجاء شبه الجزيرة".

ومع اندلاع الحرب العظمى فى أغسطس عام ١٩١٤، وجد تبنّى شكسبير لابن سعود دعما فى نيودلهى أكبر مما وجده فى لندن، حيث كان فريق "الشرقيين"، فيما كانوا يبحثون قيام ثورة عربية محتملة، يفضلون حسين شريف مكة، رأوا أن "حسين" وأبناءه، ولأنهم عاشوا بالآستانة كانوا أكثر صقلا ورقيا، من ابن سعود البدوى الفظ، وفى جميع الأحوال، فبصفتهم من نسل الرسول، كان من المحتمل للهاشميين أن يكونوا أكثر قدرة على حشد التأييد العربى. لكن تقدير شكسبير أثبت أنه نبوئى، وبمرور الوقت، قُدِّر لآل سعود أن تكون أحد أكثر الذريات الملكية فى العالم ثراء وقوة وعددا.

فى ١٩١٥، توفى شكسبير بطلقات نارية بينما كان يوجّه الوهابيين وهم يقاتلون أثناء معركة بين ابن سعود وقوات ابن رشيد الموالية للأتراك فى حائل. كان الكابتن شكسبير فى السادسة والثلاثين وقبل بدء القتال تم حثه مرتين على ارتداء الثوب العربى بدلا من زيه العسكرى لكنه رفض فى المرتين. استولى جنود ابن رشيد على خوذة شكسبير حيث عرضها الأتراك فى المدينة المنورة كدليل على إدانة ابن سعود بالقتال ومعه أحد الكفار. نشرت دورية ذا وورلد البريطانية مرثية أكثر سماحة

ورُقياً فى ٢٣ فبراير ١٩١٦ تكريما للكابتن شكسبير جاء بها "كان أحد الرجال الإنجليز الذين كان كيبلينج يعشق تصويرهم فى كتاباته. لم يثنه شيء. كان يحمل اسما إنجليزيا ليس من السهل إضفاء المزيد من المدح عليه، لكنه فعل". بعد سنوات، قال فيلبى مُسترجِعا الأحداث إنه كان من المحتمل لشكسبير أن يقود هو الثورة العربية بدلا من لورانس وإنه بعد ما حدث "فقد تأثرت حكومة الهند عميقا بموته لدرجة أنها قررت التخلى عن المغامرة العربية، وكان أن أمسك العاملون بمصر بزمام الإشراف عليها وأتت النتائج مرضْية ورومانسية".

فى نوفمبر ١٩١٧، كان فيلبى نفسه متوجها إلى الرياض ممتطيا ناقة. كان قد أفاد من النوايا الطيبة التى رعاها شكسبير ومما سبق من جهود دبلوماسية قام بها كوكس وبِل اللذان كانا قد التقيا معاً ابن سعود بالكويت قبل ذلك بعام وكونا معه علاقات ودية. وبفضل نفوذ كوكس بشكل أساسى، وافق البريطانيون على منح ابن سعود ٥٠٠٠ جنيه إسترلينى ذهب شهريا كجزء من تحالف محدود. كان المبلغ متواضعا نسبيا، وحينما علم ابن سعود أن منافسه الشريف حسين كان يتلقى أربعين ضعف هذا المبلغ: ٢٠٠٠٠٠ جنيه إسترلينى ذهب شهريا وأطنانا من الأسلحة، جُرِحت كبرياؤه. لكنه قابل معاملته كشخص أدنى منزلة بعزة نفس. كان هذا متسقا مع تقييم چرترود بِل القاطع لشخصية ابن سعود الذى أعدته للمكتب العربى والذى تضمن هذه الصورة الكلامية بظلالها الحسية:

"بلغ ابن سعود الأربعين لتوه رغم أنه يبدو أكبر من هذا ببضع سنوات.. تكوينه الجسمانى رائع، ويبلغ طوله أكثر من ستة أقدام، ويتحرك بمظهر شخص متعود على الأمر والقيادة. ورغم أن بنيته الجسدية أضخم من المشايخ الرحّل النمطيين إلا أن لديه شيم العربى الأصيل محدد الملامح كالنسر، منخاراه ممتلئتان، شفتاه ناتئتان، ذقنه طويل ضيق تُبرزِه لحية مدببة. يداه جميلتان ذات أصابع نحيفة.. لا

تتوافق حركاته المتأنية وابتسامته الحلوة البطيئة، مع نظرة عينيه مسدلتي الجفنين المتأملة، ورغم ما تضيفه إلى سحره ووقاره، مع المدرك الغربي عن الشخصية النشطة القوية. بيد أن التقارير تعزو إليه قدرات على التحمل الجسدي نادرة من نوعها حتى في بلاد العرب ذات الطبيعة القاسية.. أثبت كقائد للقوات غير النظامية جسارته، ويجمع مع مناقبه كجندي إلماما بفن إدارة الدولة ذي القيمة الكبيرة لدى رجال القبائل.. يمثل ابن سعود كسياسي وحاكم ومُغير نمطا تاريخيا. والرجال من أمثاله نادرون في أي مجتمع، لكن الأعراب ينجبونهم بانتظام".

حينما وصل إلي تخوم الرياض، التقى فيلبي بالكولونيل هميلتون الضابط الذي كان سيحل هو محله، وأعطاه خطابا من كوكس يؤكد فيه على أن چاك سيكون هو المتحدث باسم بغداد. لم يعترض هميلتون، لكنه تمهل بأسلوب مهذب لعشرة أيام أجرى فيها محادثات مع ابن سعود ودعم مصادقة فيلبي على قائمة طلبات الأمير: أربعة مدافع ميدان، ١٠٠٠٠ بندقية بما يلزمها من ذخائر، ٢٠٠٠٠ جنيه إسترليني تدفع مقدما للإمدادات، ٥٠٠٠٠ إسترليني شهريا لدفع رواتب ١٠٠٠٠ مقاتل من الإخوان في حملة لمدة ثلاثة أشهر ضد ابن رشيد. ثم رحل هميلتون، وترك زميله الأصغر سنا لمواصلة المحادثات السرية مع زعيم الوهابيين.

لم يترك فيلبي سجلا مفصلا لتلك المحادثات، لكن إليزابث مونرو وازنت بعناية بين الإشارات المتاحة وانتهت إلى أن المواضيع الرئيسية كانت هي موقف ابن سعود من المسيحية وطموحه لأن يبز شريف مكة. ووفقا لإعادة تشكيل مونرو للأحاديث التي دارت بينهما فإن ابن سعود أكد أن المسيحية عقيدة تنتسب إلى أصول الدين الإسلامي وأن المسيحيين هم من أهل الكتاب، وأصر على أن "نقاء" العقيدة كان أهم من أي شيء آخر بالنسبة له" (تضيف مونرو أن من الواضح إن ابن سعود لم يكن يعبر عن آراء الإخوان الذين كانوا يعتبرون المسيحيين كلابا، لا يجوز أن يأكل المرء معهم أو حتى أن يتحدث إليهم).

وحينما افترقا كان فيلبى مقتنعا أن ابن سعود كان مقدرا له أن يقود المنطقة الوسطى من جزيرة العرب ويوحدها، وأن الموجودين بالقاهرة قد أخطأوا بفداحة حينما وضعوا رهاناتهم على الشريف حسين. أبلغ ابن سعود صديقه الجديد بأسلوب شبه مازح بألا يعود إلا إذا أمده البريطانيون بكل المساعدات التى طلبها. وفى أول رسالة بعث بها إلى كوكس قال فيلبى إنه إذا كانت الأسلحة، والأموال الموعودة وشيكة الوصول "سيكون الجيش الوهابى على استعداد للسير للقتال ضد حائل فى مطلع إبريل ١٩١٨". ثم رحل دون أن ينتظر إجابة. قرر فيلبى أن يسلك الطريق الطويل إلى مصر بحيث يعبر شبه الجزيرة العربية من البحر إلى البحر. كان هذا عبورا وعرا شاقا لم يكمله قبله سوى شخص أوربى واحد، الضابط البريطانى الكابتن فوستر سادلير عام ١٨١٩ . كان ذلك أول إنجاز لفيلبى فى قوة التحمل فاز عنه بوسام الفاوندر من الجمعية الجغرافية الملكية (يحتفظ أرشيف الجمعية الجغرافية بمذكراته المتسخة صفحاتها من كثرة التقليب والمبقعة بعرقه وما تحويه من وصف نموذجى للحياة النباتية والحيوانية للمنطقة. وأيضا مذكرات عن المسافات والارتفاعات والمعالم المميزة).

توقف فيلبى فى طريقه بالحجاز حيث عقد اجتماعا مهذبا مع الشريف حسين الذى قبّله على وجنتيه وخاطب إياه قائلاً: "يا ابنى". رسم فيلبى صورة تمجيدية لعدو ابن سعود الرئيسى: رغم صغر بنية حسين واقترابه من سن السبعين آنذاك، إلا أنه كان منتصب القامة قاطعا فى حديثه.. كان يرتدى ثيابا حجازية جميلة فاخرة ويلف عمامة على طاقيته المكاوية. تحدث بالفصحى السليمة بجمل رنانة أبهجتنى، ونادرا، وفقط فى اللحظات العاطفية، ما ارتد إلى الاستخدامات المحلية للمدينة أو الصحراء".

ثم مضى فيلبى إلى القاهرة وارتاد "ملاهى مصر" للمتعة، حيث التقى السير رينالد وينجايت خليفة السير هنرى ماكماهون كمندوب سام، ودايفيد هوجارث

ومرءوسيه بالمكتب العربى (باستثناء لورانس الذى كان برفقة الجيوش العربية وهى تتقدم إلى دمشق). تمكن جاك من القيام برحلة فرعية إلى القدس التى كانت الجيوش البريطانية قد استولت عليها لتوها وأقام بالفندق الذى أطلِق عليه من جديد اسم "فندق" أللنبى والتقى حاكم القدس المُعيّن حديثا السير رونالد ستورز. أسعده حَظُّه واستطَابه. تمتع ببهجة التحديق من جبل الزيتون حيث كان بإمكانه أن يرى خيام الأتراك بوادى الأردن. كانت الإمبراطورية العثمانية تتهاوى، وبدت الحرب الأوروبية الطويلة قرب نهايتها فيما بدأ تدفق المشاة الأمريكيين على الجبهة الغربية. من ثم كان الاهتمام الفاتر بزيادة المساعدات لابن سعود من أجل أن يخوض المعركة ضد ابن رشيد بحائل الأمر الذى نظر إليه على أنه عرضٌ جانبى لعرضٍ جانبى لعرضٍ جانبى. وهكذا كان قدر فيلبى أن يعود إلى ابن سعود ومعه الأنباء غير المرحب بها. وكما جاء فى مذكراته:

"كان ابن سعود مبتهجا لعودتى وكان شديد الاهتمام بسماع قصة تجاربى مع الملك حسين. سرّه أن يسمع أن السلطات العسكرية فى بلاد الرافدين كانت على استعداد لإمداده بـ ٥٠٠٠ بندقية و١٠٠ صندوق من الذخائر ودعمه بخمسة آلاف جنيه إسترلينى ذهب شهريا. وبدوره، كان بإمكانه أن يشير إلى الصحراء حيث كانت نوقه الملكية تملأ بطونها بالكلأ استعدادا للرحلة الشاقة للمعركة الوشيكة، وإلى خيام جزء من الحشود التى سترافقه. بدا هذا وأنه جيش مهيب".

غيّر الأمير، بحكمة، توجهاته تبعا للظروف المتغيرة، و تخير تلك المناسبة ليتيح لفيلبى لمحة عن عاداته الزوجية غير المعتادة. حوالى الساعة الواحدة صباحا علّق ابن سعود بالقول "حسنا، هذا يكفى الليلة. علىّ الذهاب إلى زوجتى الجديدة – تعلم أننى تزوجتُ عصر اليوم". كان فيلبى قد سمع الأنباء بالفعل، لكن فى الصباح التالى، استيقظ محارب الصحراء فى الخامسة، ليرحل فى الفجر، ولا يرى زوجته التى قضى معها تلك الليلة مرة أخرى أبدا. كان قد تم طلاقهما رسميا، مُنِحت

زوجته التى أضحت زوجة سابقةً الهدايا الملكية وكما قيل، فقد شعرت قبيلتها بالامتنان لتوقف الملك لديها ليلة واحدة. علق فيلبى قائلاً: "أدركتَ ومع مزيد من الخبرة أن كثيرا من زيجات ابن سعود الأسطورية كان لها لون سياسى أو دبلوماسى".

قيل إن ابن سعود ضاجع ما يربو على ستين من العذراوات، ومن المعروف أنه أنجب ثلاثة وخمسين ابنا معترفا بهم. لا يوجد أى إحصاء لعدد البنات اللاتى أنجبهن أو لذريته من جواريه العديدات. يكفى القول إنه وفى غضون أجيال ثلاثة ازداد عدد آل سعود أسيًا؛ يبلغ عدد طاقم الأمراء ما يقارب السبعة آلاف أمير، غير أن العدد المضبوط يظل من أسرار الدولة. من المعقول أن نتخيل أن ابن سعود كان يروق له أن يدغدغ مشاعر فيلبى بالفوائد الأيروسية المغرية التى يجنيها الذكور من اعتناق الإسلام، ولنا أيضا أن نحدس أن چاك كان يُنصت إليه.

بعد أن تراجعت الحرب التى كان من المفترض لها أن تنهى كل الحروب فى نوفمبر ١٩١٨، عاد فيلبى إلى إنجلترا فى إجازة ممتدة بعد أن استحق المجد عن جدارة لمنجزاته فى الصحراء. وفى لندن، تمت استشارته كما يجب برئاسة مجلس الوزراء، وبخاصة حول الصراع المتنامى بين الشريف حسين وابن سعود. ورغم انتهاء الحرب، استمر البريطانيون فى دفع الدعم المالى المتفق عليه للطرفين المتصارعين مع زعمهم الحياد فى تلك الحرب الأهلية. وفى واقع الأمر، جزئيا وبفضل فصاحة تى . إى. لورانس وصيته، حابى مجلس الوزراء بالإجماع جيش الأشراف بالرغم من انتصارات المقاتلين الوهابيين غير النظاميين على النظاميين الحجازيين الذين سلحتهم بريطانيا. وخوفا من حدوث مذبحة فى مكة والمدينة، حث اللورد كيرزن بصفته وزيرا للخارجية فيلبى على الاضطلاع بمهمة لإحلال السلام. قبل چاك هذا التكليف بحماس، وفى طريقه إلى بلاد العرب، التقى لورانس، ووجد

(كما كان متوقعا) أنه ليس ثمة حاجة لخدماته لأن ابن سعود كان قد اتخذ قرارا حكيما بكبح جماح مقاتليه من الإخوان، وذلك، جزئياً، لتحاشى حدوث مواجهة مع بريطانيا.

وفى تلك الأثناء، كان تمرد قد اندلع فى ربيع ١٩٢٠ فى العراق بتلعفر فى الموصل تم خلاله قتل حامية بريطانية؛ وسرعان ما انتشرت الثورة فى منطقة أسفل الفرات رغم محاولات القائم بأعمال الحاكم المدنى، إيه. تى. ويلسون لاحتوائها. تزامن هذا مع إطاحة فرنسا بفيصل ابن الشريف حسين عن عرش سوريا. ومرة أخرى، ظهرت الحاجة إلى مواهب فيلبى، وأيضا إلى وجود السير بيرسى كوكس ببغداد (وكان هناك بالفعل) ليحل محل ويلسون المتخبط، لما له من قدرة على تهدئة الأوضاع. وهناك ببغداد، طلب كوكس من چاك أن يعمل مستشارا لوزارة الخارجية فى الحكومة المؤقتة التى كانوا قد "رقعوها" من عناصر متنافرة. وهكذا، أصبح فيلبى صديقا وداعما لوزير الخارجية السيد طالب نجل نقيب البصرة، والذى كان سنيًا وقوميا وكان كوكس قد نفاه إلى الهند عام ١٩١٥، لكنه عاد ليقود العراق (كما كان يأمل). استمر كوكس ينظر إلى طالب على أنه زعيم للدهماء مثير للشغب، كما كانت چرترود بل تحتقره وتميل إلى دعم الأشراف كحلٍّ، فيما اعتقد إيه. تى. ويلسون أن الحكم الذاتى العربى هو، جوهريا، إرداف خُلفى، أو جمع بين لفظين متناقضين. وكما فصلنا سابقا، تم اختطاف طالب بالقوة فى الوقت المناسب، ونفيه إلى سيلان.

كانت السياسة البريطانية قد استقرت آنذاك، ووفقا لاتفاق تم أثناء مؤتمر رفيع المستوى بالقاهرة فى مارس ١٩٢١، على خلق عرشٍ لفيصل بالعراق، وتنصيب عبدالله، شقيقه الأكبر على شرق الأردن التى كانت قد أنشئت مؤخرا. وهكذا حدث أن طلب كوكس من فيلبى مرافقة فيصل فى أول جولة له بالعراق للتعرف على رعاياه الجدد. ووفقا لما قاله شخصيا فإن فيلبى أخبر فيصل أنه من شبه المؤكد أن

يخسر فى الاستفتاء النزيه الذى وعد البريطانيون بإجرائه فى العراق. حينما عاد فيلبى إلى بغداد استدعاه كوكس إلى مكتبه وقال له إنه يبدو أن الأمور لم تكن على ما يرام بينه وبين فيصل الذى اشتكى بمرارة من موقفه منه أثناء رحلتهما فى أنحاء العراق وأعلن أنه لن يمكث هناك إلا إذا تأكد من دعم جميع المسئولين البريطانيين له. أجاب فيلبى ببراءة إنه التزم فقط بسياسة كوكس لأن البريطانيين كانوا قد وعدوا العراقيين باستفتاء والجميع كانوا يعلمون أنه ليس ثمة فرصة لفيصل كى يفوز، وأنه قد أخبره بذلك بصراحة. أجابه كوكس قائلا إنه يعلم أنه قد فعل ذلك، لكنه لابد وأنه يعرف أيضا ما تريده الحكومة البريطانية. رد فيلبى بالقول إنه يعرف ذلك بالتأكيد لكنه لا يفهم لِم لا تُعين الحكومة فيصل ملكاً بأسلوب صريح ومباشر إن كانت تريده ملكا للعراق بدلا من إصرارها على مهزلة الانتخابات. انتهت المقابلة باستقالة فيلبى وتعبير كوكس المهذب عن أسفه ونقاش ودى حول الشخص المناسب الذى سيخلفه فى منصبه.

لكن رد فعل دورا فيلبى لم يكن وديا حينما أعلن زوجها أثناء حفل شاى فى صالون الأسرة أنه قد استقال. حينما قالت جرترود بِل التى تصادف وجودها "جاك، أشعر بالأسف لسماعى هذه الأبناء" سارت دورا مسرعة متخطية إياها إلى الباب وقالت "لا، لست آسفة". كانت دورا حاملا، وقلقة بشأن كثرة التنقل، ولم تهدأ جزئيا إلا بعد أن سمح كوكس للزوجين بالإقامة مؤقتا بمنزلهما فى بغداد. لكنها انزعجت حينما أخبرها فيلبى أنه سيتركها وحدها لمدة ثلاثة أشهر أثناء عطلته ببلاد فارس.

عاد فيلبى من طهران فى أكتوبر بعد مولد ابنته الجديدة بشهر. وعلى الفور، أطلعه كوكس على البرقية التالية من وزارة المستعمرات: "يريد لورانس الذى يعمل مؤقتا كبير ممثلى بريطانيا بشرق الأردن إعفاءه على الفور من منصبه ويقترح فيلبى خليفة له نحن نوافق. فضلا اعرض المنصب على فيلبى، وعليه، وفى حالة

قبوله، أن يذهب بالطائرة فورا إلى عمان لإجراء مشاورات مع لورانس وعبدالله. ومن هناك، عليه زيارة المندوب السامى بالقدس والذهاب من هناك فى أسرع وقت ممكن إلى لندن حيث يقابله وزير المتسعمرات (تشرشل). يتوقف تأكيد التعيين على موافقة جميع الأطراف المذكورة". استعلم كوكس "حسنا، وما رأيك؟" "بالطبع أقبل". عبّر كوكس عن ارتياحه وأبلغ فيلبى بالذهاب إلى عمان على أول طائرة متاحة، وأضاف إن دورا ستكون موضع الرعاية وأن بإمكانها اللحاق به بعد الولادة. يعلق فيلبى فى مذكراته بالقول "تفاجأت زوجتى بهذا التطور الجديد، وربما شعرت بقليل من الحزن لتركها وحدها مرة أخرى فى هذا الوضع الحرج. لكن حقا، لم يكن لى خيار فى الموضوع". توحى مثل تلك الجمل بالسبب الذى أدى إلى انفصال الزوجين لاحقا رغم عدم طلاقهما أبدا. وإلى النهاية، ظلت دورا تدعم زوجها بإخلاص واستمرت تفعل ذلك حتى بعد أن تزوج فيلبى ثانية من جارية عربية. ورغم اعتراض والدته فإن چاك فيلبى (أو هكذا يبدو للمؤلفيْن) هو من كان قد تزوج من امرأة (دورا) تفوقه مكانة وجدارة.

بعد أن أصبح كبير الممثلين البريطانيين لدى الأمير عبدالله فى أكتوبر ١٩٢١، استقر سانت چون ودورا فى منزل غير مريح من أربع غرف ليس به صرف صحى أو مدفئة فى عاصمة تشكلت بأسلوب فورى وكانت أشبه بمحطة قوافل كبيرة. يمكن تمييز ثلاث مراحل فى علاقاته بعبدالله: شهر عسل قصير، هدنة طويلة، وأخيرا، حرب باردة. كانت ثمة مشاكل منذ البداية إذ اعتقد عبدالله أن مناطق سوريا والعراق وفلسطين وبلاد العرب المجاورة جزء من إرثه، وغدت الغارات عبر/الحدودية دائمة، دموية ومتبادلة. كان الأمر الأكثر حساسية هو تعاملات الملك مع السير هربرت صمويل، المندوب السامى بفلسطين والذى كان يحكم فى ظل "نظام انتداب" غير محدد الهوية أو الشكل من أجل إنشاء "وطن قومى" ليهود

العالم، دون توفير أى دور سياسى حقيقى لغالبية السكان الأصليين العرب. كانت علاقات فيلبى بصمويل ودية. لكن فيما مضت الأشهر، تملكه الضيق حينما علم أن السير صمويل قد غرف من ميزانيته الخاصة ليرضى، سرا، إسراف عبدالله، الذى، وحتى كملك، قاوم توسلات فيلبى لكبح إسرافه والوفاء بوعوده بإنشاء برلمان.

كانت السنة الفاصلة هى ١٩٢٤ حينما أدت أحداث ثلاثة إلى قلقلة الشرق الأوسط الإسلامى. كان أولها هو قرار مصطفى كمال أتاتورك فى مارس إلغاء الخلافة، ومعها لقب الخليفة الوراثى الذى ظل يحمله السلاطين العثمانيون لفترة طويلة من الزمن، والذين كان مؤسس الجمهورية التركية الجديدة قد أطاح بآخرهم قبل ذلك بعامين. كانت الخلافة منصبا روحيا له تاريخ معقد. فى قرون الإسلام الأولى، أدى الجدل حول من هو أحق بالخلافة إلى انقسام بين من أصبحوا شيعة "على" وبين أهل السنة. وبعد أن فتح الأتراك بلاد العرب اكتسب السلاطين العثمانيون لقب المنصب ومكانته. فى عام ١٩٢٤، تصادف أن أنهى البريطانيون الدعم المالى الذى كانوا يدفعونه أثناء الحرب للحفاظ على السلام بين الشريف حسين وابن سعود. منح هذا الإجراء ابن سعود حرية شن الحرب على حسين، الذى كان فى نفس العام ذاك – التطور الكبير الثالث – قد تهور ولقّب نفسه "خليفة" بناء على حفز ابنه عبدالله أثناء زيارة رسمية قام بها الحسين لشرق الأردن. أدى ذلك إلى إغارة مقاتلى ابن سعود المتعصبين على الحجاز لمعاقبة "الخليفة" حسين الوقح الذى تفرقت قواته فيما هرب الحاكم متنازلا عن سلطاته الملكية لابنه على. سقطت المدينتان المقدستان فى يد مقاتلى ابن سعود من الإخوان، وحوصرت جدة من قبل قائد وهّابى نحيف أشعث أصبح فيما بعد أول ملك، منذ أكثر من قرن يوحّد الجزيرة العربية.

آنذاك، كان فيلبى قد سئم نهائيا بلادة عبدالله؛ وكانت صورة ابن سعود هى التى تزيّن مكتبه. كانت انتصارات ابن سعود قد أشعرته بالنشوة، ومن ثم قام فى

إبريل ١٩٢٤ بالاستقالة من الوكالة المدنية الهندية ليشق طريقه مستقلا بنفسه. نُدين للكاتب البريطاني إيتش. ڤي. إف. ونستون الذي تخصص في التنقيب دون كلل في الأرشيفات الاستخباراتية ندين له بالمعلومة المثيرة التالية: كان أحد أجهزة الرقابة في القوات الجوية الملكية قد اعترض، بحسن نية، مراسلات فيلبي السرية مع ابن سعود في الوقت الذي كان يعمل فيه كبير الممثلين البريطانيين لدى الملك عبدالله، ومستشاره الموثوق به، وعندئذ (هكذا يكتب ونستون) "أدار فيلبي ظهره لكل الكيانات الواقعة تحت الانتداب وذهب لخدمة القائد العربي الوحيد الذي كان يكن له الإعجاب". كانت رسائل فيلبي السرية السابقة (قد اكتشفها موظف يدعى ديلون تعرف على خط فيلبي العربي ونبّه رئاسة مجلس الوزراء إلى ولاء چاك المزدوج).

وبعد أن تحرر أخيرا من قيود البيروقراطية، استغل فيلبي ما يستحقه من إجازة نهاية الخدمة عام ١٩٢٤ لإعادة صلته بجذوره الإنجليزية ولترتيب أمر استقرار دورا وأطفالهما بلندن. وهناك، أمل أن يحول معلوماته ومعارفه الخاصة إلى ميزة ككاتب، وأيضا أن يستخدمها بأسلوب مربح أكثر بالعمل كوكيل للمستثمرين البريطانيين. لكنه اكتشف أنه لم يكن ثمة اهتمام كبير بإقامة مشروعات في بلاد العرب. عبر دايڤيد هوجارث رئيس المكتب العربي زمن الحرب عن الحكمة السائدة في مجلس الوزراء البريطاني في محاضرة بعنوان: "الوهابية والمصالح البريطانية" ألقاها بلندن في يناير ١٩٢٥ أمام جمهور من النخبة. اعترف هوجارث بأن انتصارات ابن سعود كانت لافتة بالطبع، وبأن شبه الجزيرة العربية كانت بالفعل طريقا سريعا استراتيجياً إلى الهند، لكنه تساءل "ما مصالحنا في شبه الجزيرة العربية؟" وقدَّم هذه الإجابة "قد يكون الأفضل أن نذكر ما ليس ضمن مصالحنا. وعلى خلاف المصالح التي لنا في الأجزاء الأخرى من العالم فإن ما لنا من مصالح هناك لا تنجم بأية درجة تستحق الذكر من احتياجنا لأية منتجات لهذا

البلد أو من أى اهتمام بالتجارة معه. لا يبيع البلد أو يشترى قدرا شبه كافٍ لرجحان الميزان السياسى لصالحه. كما أننى لا أتوقع، مع كل الاحترام للمضاربين من الهيئات والأفراد الذين مضوا يسعون وراء الامتيازات منذ الحرب، لا أتوقع أن يأتى اليوم الذى فيه يصبح هذا (عدم وجود مصالح) غير حقيقى". (من الأمور الدالة أن فى المناقشات التى تلت المحاضرة وسُجلت كتابةً، أنه لم يقدم أى من المرجعيات البارزة، بمن فيهم السير بيرسى كوكس والسير أرنولد ويلسون أى رأى مخالف).

ما كان يهم الحكومة البريطانية بالفعل هو أمن الأوروبيين الموجودين فى مصيدة بلاد العرب وبخاصة حينما حاصرت قوات ابن سعود جدة. تكدس حوالى خمسين ألف مدنى أوروبى فى ثانى أقدم مدينة بالجزيرة العربية، ميناء بحرى يتمتع بالرياح المواتية وفجوة استراتيجية وسط الشعب المرجانية تحمى مرفأه على البحر الأحمر. كانت جدة تعتمد اعتمادا كليا على الأجانب- على التجار، لكن وبدرجة أكبر على الحجاج المسلمين الذين كان يصل عددهم سنويا، آنذاك إلى مائة ألف نسمة الذين لا يتكلم غالبيتهم سوى القليل من العربية ويحتاجون إلى "مطوفين" لمرافقتهم إلى مكة. أما بالنسبة للبدو الذين كانوا يقيمون بالقرب منها فكانت جدة تعرف باسم "بلاد القناصل" المرادف للمرقة والكفار. من ثم كانت المخاوف بالخارج حينما بدأت مدافع ابن سعود تدك أسوار المدينة العثمانية وتهدم مدينة جدة القديمة الجذابة بشوارعها الضيقة وشرفاتها المطلة عليها.

وعلى الرغم من أن فيلبى كان مازال، رسمياً، موظفا مدنيا بريطانيا إلا أنه توجه إلى جدة متطوعا بخدماته لإحلال السلام، مما تسبب فى غضب وزارة الخارجية البريطانية. تلقى ريدر بولارد، القنصل البريطانى فى جدة التعليمات ليوضح للجميع أن فيلبى لا يتمتع بأية صفة رسمية وأنه إن أبدى "أى نزوع لعصيان أوامر حكومة جلالة الملك" فسيخاطر بفصله وحرمانه من معاشه. تلافى

فيلبى بفطنة أية معركة مباشرة مع مجلس الوزراء، ومضى ينمّى سرا روابطه مع ابن سعود، وترك الانطباع بأنه مازال بشكل ما ممثلا ذا نفوذ لدى حكومة جلالة الملك. حينما استسلم على، ابن حسين الأكبر، وأبلغَ فيلبى أن باستطاعته دخول جدة بأمان، فعل ذلك وواجه نظرات مقاتلى الإخوان المنتصرين المحدّقة المعادية.

وصل دانييل ڤاندر مويلن، القنصل الهولندى الجديد فى ذات الوقت الذى استولى فيه الإخوان على جدة. كان منصبه القنصلى ذا أهمية خاصة وذلك لأن (كما كان يُحبّ أن يذكّر من بيدهم السلطة محلياً) الملكة ويلهلمينا، ملكة هولندا كانت تحكم أكبر ثانى جالية مسلمة بجزر الهند الشرقية الهولندية (كانت أكبر جالية فى الهند). تعلّم ڤاندر مويلن أن يعيش فى ود وسلام مع عالمىْ جدة، عالم العرب المسلمين، وعالم المسيحيين الغربيين اللذين وحّدهما آنذاك نفور مشترك من الوهابيين. أصبحت الپيوريتانية (التشدد الوهابى) النظام السائد وكانت الشرطة الدينية (رجال الأمر بالمعروف) يفرضونها بصرامة. حظِر التدخين ومعه كل أنواع الموسيقى، هذا مع السماح للغربيين باقتناء الإسطوانات طالما لا تلوث موسيقاها شوارع المدينة الضيقة. أُمِر جميع المسلمين بإطلاق لحاهم، أما من قاوم من الأجانب، فكانوا معرضين لجذب الأنظار إليهم واحتقارهم بصفتهم نصارى. وعسكرياً، ظل الإخوان قوة راسخة منذرة. ووفقاً لتقديرات القنصل الهولندى، فقد كانوا منتشرين فى مائتى مستوطنة، وكان بإمكانهم تجميع خمسة وعشرين ألف جندى فى الميدان بسرعة. وبعد انتصاراتهم فى الحجاز، بدأوا بأسلوب مُنذر فى الضغط لتوسيع المملكة الوهابية أكثر "لأن رسالتهم كانت مقدسة وكانت مشيئة الله وسبيله واضحيْن أمامهم".

بعد لقائه الأول الودى مع ابن سعود تشجع ڤاندر مويلن. حينما سأل عن استبعاد المسيحيين من مكة والمدينة أجاب الملك "كان الرسول يسمح للمسيحيين بالحق فى دخول مكة والبقاء فيها". هل كان ذلك يعنى أن بإمكان زائره الهولندى

الذهاب هناك؟ قال ابن سعود إن من حقه الذهاب "لكننى لن أعطيك إذنى بذلك. إذا سمع زملاؤك أنك قد ذهبت فسيصرون على أن تكون لهم حقوق متساوية، وأنا لا أريدهم فى مكة. هذا علاوة على أن أتباعى البدو متعصبون جهلة. ستواجه المشاكل معهم وقد تُقتل قبل أن أستطيع مساعدتك". يضيف ڤاندر مويلن فى مذكراته قوله إنه لم يحدث وأن تحدث إليه أى مسلم، أو أى قائد مسلم بهذا الأسلوب الواضح الصريح. أحب الدبلوماسى الهولندى فيلبى وصادقه، وكان فيلبى يخبر جميع من كانوا على استعداد للاستماع إليه أنه مبتهج لتولى "مليكى" عرش الحجاز.

ذكر فى خطاب أرسله إلى أسرته واختار، شبه مازح له عنوان "رسالة إلى الفيلبيين (أتباع فيلبى)" أنه حينما وصلت أنباء التتويج فى مكة إلى جدة "رفرفت الأعلام مبتهجة على سواريها وأُطلقت ١٠١ قذيفة مدفع تحية للمناسبة معلنة للعالم أن چاك كان مصيبا مرة أخرى. لكنه بالطبع دائما ما يكون مصيبا!". لكن من الناحية المادية، كانت الفترة ما بين عامى ١٩٢٥، ١٩٣٠ سنوات عجافا بالنسبة لچاك فقد كانت المشاريع التجارية التى بدأها قد نضجت لكنها لم تكن قد أثمرت بعد: كان، و من أجل زيادة دخله الهزيل يرسل طوابع بريد عربية نادرة إلى دورا التى كانت قد استقرت نهائيًا بلندن لإعادة بيعها إلى هواة جامعى الطوابع.

كان يشعر أنه بحاجة إلى الاقتراب أكثر من ابن سعود الذى احتفى باسمه فى عديد من الكتب والمقالات. يذكر ڤاندر مويلن، الذى كان يتباهى بأنه يعيش بمودة وسلام على الخط الذى يفصل بين العالمين الإسلامى والمسيحى، يذكر أن فيلبى اقترح فى نهاية عشرينيات القرن العشرين أن يخطوا معا عبر ذلك الخط: "فلنصبح مسلمين. إنك أيضا تريد أن ترى المزيد على الجانب الآخر. لن نخسر شيئا، بل ربما نكسب من هذه الخطوة". وبصفته مسيحيا ملتزماً، رفض ڤاندر مويلن بأدب، لكن فيلبى الذى كان قد عرّف نفسه منذ وقت طويل بأنه "حر الفكر"، وجه ناظريه الآن إلى مكة "لو أننى مسلم أو لو أصبحت مسلما، أعتقد أننى سأحصل على تلك الامتيازات بمجرد طلبى إياها، هكذا كتب إلى دورا.

فى عام ١٩٢٨، أبلغ ابن سعود أنه يرغب فى اعتناق الإسلام، لكن الملك وقتئذ كان مشغولا فى استرضاء محاربيه من الإخوان المتململين، وكان من غير اللياقة الترحيب باعتناق فيلبى الدين الحق. وبعد عامين، وكان ابن سعود وقتئذ قد أحكم قبضته بعد مواجهة دامية حاسمة مع تابعيه من الإخوان الجهاديين، أرسل چاك خطابا ثانيا يطلب فيه إذن الملك. أجاب ابن سعود بالهاتف (الذى كان فيلبى قد ساعد على إدخاله إلى المملكة) من منتجعه بمدينة الطائف قائلا إن على فيلبى الذهاب إلى مكة من أجل أداء الشعائر. وبسرعة، حزم فيلبى أمتعته وسافر إلى خارج المدينة المقدسة حيث كان اثنان من وزراء الملك بانتظاره، وارتدى ثياب الإحرام. وفى مكة أدى فيلبى، التائب، الطواف، وقبّل الحجر الأسود وتلى الدعوات، وصلى لدى مقام إبراهيم وشرب من مياه زمزم، وسعى بين الصفا والمروة، ولدى شروق الشمس نطق بالشهادتين. بعد ذلك استُدعى إلى الديوان الملكى حيث تلقى من ابن سعود اسمه الجديد: عبدالله. بالنسبة لنقاده البريطانيين، كان اعتناق فيلبى هو خطوته الأخيرة فى الرِّدة، لكنها كانت رِدَّة من نوع محير. قال السير چيمس كريج كمستعرب ودبلوماسى وزميل لفيلبى، والذى عمل ذات مرة سفيرا لبريطانيا بالسعودية، قال عن چاك: "كان متناقضا بأسلوب يثير الأعصاب، متسقا فقط فى عدم اتساقه، نصيرا للعرب ومؤيدا للهجرة اليهودية إلى فلسطين، بريطانياً وطنياً تم اعتقاله أثناء الحرب بصفته خطرا على بلاده، متمردا على المؤسسة ومحبا لنادى الأثنيوم المؤسسى التقليدى، وللتايمز، ومباريات الكريكت وقوائم الشرف. عامل زوجته بخساسة وسخاء ولم يلاحظ الفرق. كان أنانيا، سهل الاستثارة، لا يعرف التواضع، مرءوسا صعبا وزميلا مستحيلا". وعلى الرغم من هذا، فقد كان ذاك الشخص "الجلف" هو من كان أيضا (باعتراف كريج) أعظم رحالة بالصحراء ومكتشفا لها فى زمنه، وأيضا كان (وهذا ما لم يُضفه كريج) أكبر من أسهم أكثر من أى بريطانى آخر فى قلب أوضاع الشرق الأوسط رأسا على عقب.

أما بالنسبة للمسلمين فقد شكك الكثيرون ممن عرفوا فيلبى فى صدق إيمان

أخيهم المسلم الجديد. علق الأمير عبدالله بن حسين نيابة عنهم بمقولته اللاذعة حينما أتته الأنباء من مكة عن كبير الممثلين البريطانيين السابق" لم يكسب الإسلام سوى القليل ولم تخسر المسيحية سوى الأقل".

ومنذ توجهه إلى مكة وحتى وفاته فى لبنان فى ٣٠ سبتمبر ١٩٦٠، عاش چاك فيلبى حياة مزدوجة متناقضة وغرائبية فى تعقيداتها. كان يقوم برحلات شبه منتظمة بين بريطانيا العظمى والمملكة العربية السعودية (كما أصبحت تسمى فى يناير ١٩٣٢). كان بيت بغداد، السكن الذى منحه إياه الملك فى جدة، والذى كان ذات يوم مقر سكن الحاكم التركى، كان قصرا بمعنى الكلمة تقاسمه مع مجموعة من القرود أبقى عليها لإبعاد الحجاج المزعجين. إلى جانب ذلك، قدم الملك عددا من الجوارى للترويح عن الحاج عبدالله. وفى نهاية المطاف أهداه زوجة فى السادسة عشرة، اسمها روزى، وصفها السائق الحاقد الذى سلمها كهدية بأنها "فتاة ذات ثمانى سلندرات". من المحتمل أنها كانت ذات أصول فارسية، ومن الممكن أيضا أن يكون الملك هو من أنجبها. أنجبت روزى ابنين لفيلبى، الأمر الذى أبهج ابن سعود فأهدى الوالد الذى كان قد تجاوز الستين من العمر قصرا يسكنه بالرياض. وأيضا، وبفضل رعاية الملك تمكن فيلبى بالقيام بغزوتين آمنتين، مستطالتين اقتحما فيهما منطقة الربع الخالى ورسَّخ بذلك مكانته كرحالة مكتشف.

دعم هذا الصيت، الذى عززته كتاباته الغزيرة، مكانته فى لندن. وهناك، تحول الحاج عبدالله ليصبح المحترم هارى سانت جون بريدجر فيلبى وهو يرتدى بذلته التويد من المرتادين الدائمين لنادى الأثنيوم، الذى كان يضم إلى عضويته الشخصيات العلمية والأدبية، حيث تم انتخابه سريعا كـ "عضو مرشح متميز". كان فيلبى، وهو جالس فى صالون النادى الفخم، وغليونه مثبت بين شفتيه، يقرأ التايمز (دائما ما أحتفظِ بصفحات البرلمان لأغلِّفها") ويتسامر مع أصدقائه عن التقدم

المدهش الذى يحرزه ابنه كيم الذى كان قد تبع خُطًا والده إلى وستمينستر وترينتى وبدا مُعدًا لمنصب نافذ فى الحكومة (وكان هذا طموحا، وكما كان للعالم أن يعرف، حققه كيم).

كان دور فيلبى المفصلى الذى لعبه فى تزاوج أمريكا الكورپوراتية (الشركاتية) والمملكة الوهابية هو الذى جعل حياته المزدوجة ممكنة. لم يكن هذا التزاوج سهلا أو واضحا للعيان. بعد الحرب العالمية الأولى، كان البريطانيون مصممين بتصلب على الحفاظ على هيمنتهم على المصادر النفطية بالشرق الأوسط، إذ إن النفط كان سلعة ضرورية للبحرية الملكية لم تكن موجودة بالإمبراطورية. فعلوا هذا بتملكهم المباشر لشركة النفط الأنجلو/ فارسية، وبالهيمنة السياسية على الشرق الأوسط العربى، ومن خلال "نصوص تفضيلية" فى العقود لتشغيل المواطنين البريطانيين، وبالتواطؤ مع الشركات الفرنسية والهولندية للحد من تنافس الغرباء (الأمريكيين). فى عام ١٩١٩، كان باستطاعة قطب بترول بريطانى اسمه إى. ماكاى إدجار أن يفاخر بأن وضع بلاده (فى الشرق الأوسط) حصين. أعلن أن جميع حقوق النفط المعروفة أو المحتملة خارج الولايات المتحدة موجودة "فى حيازة أيدٍ بريطانية أو تحت إدارة أو تحكم بريطانى، أو يمولها رأس مال بريطانى". وكان هذا، بالحد الأدنى، وضعا ضايق منتجى النفط الأمريكيين وحلفاءهم السياسيين؛ ولم تهدأ الضغوط من واشنطون من أجل "باب مفتوح". اشتكى أكثر من شخص بريطانى من أنه سيكون "بابا خفيًا، له عادة الانغلاق بمجرد أن يدخل الأمريكيون منه". لم يكن حتى عام ١٩٢٨ أن سُمِح لأول شركة أمريكية بإجراء عمليات فى الشرق الأوسط وفقط كشركاءٍ أصغر فى شركة النفط العراقية متعددة الجنسية والتى كان يهيمن عليها البريطانيون. أيضا كان على كل الشركاء فيها الحصول على موافقة الآخرين جميعهم حينما يحاولون الحصول على امتيازات داخل "الخط الأحمر" الذى كان قد تم رسمه حول الإمبراطورية العثمانية سابقا. ثم تم حفر ثقب فى الخط

الأحمر حينما دفعت شركة من الخارج (ستاندارد أويل أوف كاليفورنيا) مبلغ ٥٠٠٠٠ دولار للحصول على امتياز (للتنقيب) كان فى حيازة عضو داخلى (جلف أويل) بالبحرين، وكانت جلف قد حصلت عليه قبل أن تصبح شريكا فى الكارتل (المجموعة الاحتكارية). لكن حتى بالرغم من هذا، فقد أصر البريطانيون على أنه لا يمكن لحاكم الجزيرة (البحرين) الموافقة إلا إذا كانت الشركة الفرعية خاضعة للإدارة البريطانية. ثم تم العثور على وسيلة للالتفاف حول ذلك بتحويل شركة البحرين بتروليوم ليمتد وإخضاعها للقانون الكندى. وفى عام ١٩٣٢ تم العثور على النفط فى البحرين، الأمر الذى كان يشتهيه حكام تلك الجزيرة الصحراوية الكبيرة التى تبعد عن المملكة بحوالى ٢٥ ميلا.

كان ابن سعود قد تنهد قبل ذلك بعام قائلاً :"آه يا فيلبى"، لو أعطانى أحدهم مليون جنيه لمنحته جميع الامتيازات التى يريدها". كانت خزينته الملكية خاوية (فى الواقع كانت أمواله السائلة المتاحة توضع فى صندوق صاج نقّال يحمله أمين خزينته)؛ وكان الكساد الكبير قد قلّل تدفق الحجيج إلى ٤٠ ألفا بدلا من مائة ألف سنويا؛ وكان بحاجة ماسة إلى الأموال لتحسين الخدمات الأساسية. من ثم وجد فيلبى (حسب روايته) أذُناً مصغية حينما ذكَر الملك أن بلده كان مليئاً بالثروات المدفونة وأنه يعرف رجلا يمكنه المساعدة: "لقد أتى هنا منذ بضع سنوات، ورفضت لقاءه. هو الآن بالقاهرة، وإذا حدَّدت وقتا تكون فيه موجوداً بجدة سأبلغه بالبرق وأضمن لك أنه سيحضر". كان الشخص الذى تحدث عنه فيلبى هو تشارلس كراين الأمريكى الذى اغتال الإخوان المتعصبون صديقه المقدس هنرى بيركرت عام ١٩٢٩. أما هذه المرة، فلن تكون ثمة مشاكل. فبعد أن وحّد ابن سعود بلده وتملكه الغضب العارم من مثل تلك الأحداث، قام بالانقلاب بقوة ضد محاربيه المقدسين، وكبح عنفهم، وإن لم يكبح تعصبهم.

تشارلس أر. كراين رجل من الشخصيات التى لا يحتفى بها الكتاب. كان يظهر

خلسة فى التاريخ ويصادق صُنّاعه ويعمل كوسيط مرموق، وبالرغم من ذلك يتملص من أعين الأجيال التالية ولا تدركه أبصارهم. كرّس كراين حياته، بعد أن ورث ثروة من السباكة وصناعة الأنابيب بولاية إلينوى، لشئون العالم، وبخاصة العلاقات بين الغرب والشرق، وأيضا للسياسات الأمريكية الليبرالية. فى عام ١٩٠٩، أمد السناتور الأمريكى روبرت إم. لا فولت الأب بالأموال الضرورية لإطلاق صحيفة ذا بروجرسيف the Progressive اللاذعة التى مازالت تصدر فى ماديسون. فى جامعة شيكاغو، أقام مؤسسة وقفية استضافت عام ١٩٠٢ سلسلة من المحاضرات ألقاها توماس ماساريك وبذلك استهل الرابطة التى أثبتت فائدتها الكبرى فى إنشاء الجمهورية التشيكوسلوفاكية.

سافر كراين فى أنحاء الصين وروسيا وتعرف على الثوريين من جميع الأطياف. وبعد رحلة له عام ١٩١٧ إلى بتروجوراد مع الصحفى لينكولن ستفنز، نبه وودرو ويلسون إلى اتفاقية سايكس بيكو لتقسيم الشرق الأوسط قبل نشر البلشفيك تفاصيلها. وفى مؤتمر باريس للسلام تم اختيار كراين - الذى كان قد تبرع بسخاء لحملة إعادة انتخاب الرئيس ويلسون عام ١٩١٦- ليكون رئيسا مشاركا مع الدكتور هنرى كينج رئيس جامعة أوبرلين، للجنة تقصى الحقائق التى أدان تقريرها الصهاينة فى فلسطين ودعم حقوق العرب فى فلسطين وسوريا ولبنان.

حينما وصل كراين إلى جدة فى فبراير ١٩٣١، كان قد أتى كصديق مُعلنٍ للعرب وأول ضيف أمريكى على ابن سعود (لم يكن لدى وزارة الخارجية الأمريكية قنصلية أو سفارة فى السعودية حتى عام ١٩٤٢). كانت ذروة وليمة الترحيب به رقصة بالسيوف وتلاوة للقرآن بواسطة مقرئ ضرير، ثم سباقا للخيل والهجن، أهدى كراين أثناءها حصانين عربيين أصيلين. رد كراين الهدية بتقديم صندوق من التمور التى زرعها بكاليفورنيا وبعرض لضمان القيام بمسح لموارد المملكة يقوم به كارل تويتشل مهندس التعدين الذى كان رجل البِّر كراين قد عينه للاضطلاع بمشروع لتنمية الموارد المائية باليمن.

فى إبريل، أتم تويتشل رحلة تُقدّر بألف وخمسمائة ميل فى أرجاء شبه الجزيرة، تفحص فيها رمال المملكة بحثا عن المياه والذهب والنفط. لم يجد سوى القليل مما يُثبت أن ثمة مياهاً عذبة، وبعض آثار للذهب واعدة تجارياً، لكنه اكتشف فى الحسا بالمنطقة الشرقية بُنى جيولوجية على شكل قباب والتى قد تعنى وجود نفط. حينما عثر منقبو شركة سوكرال على النفط قريبا من شواطئ البحرين حصل تويتشل على موافقة ابن سعود ليستعلم ما إن كانت الشركة مهتمة بالحصول على امتياز التنقيب بالسعودية. أبدى تنفيذيوها الاهتمام، وفى مايو ١٩٣٣، كما رأينا، فتِح الباب السعودى للولايات المتحدة حصريا.

بدأت أعمال الحفر التجريبية فى عام ١٩٣٤ لكن النتائج المبدئية كانت محبطة، ثم تزايدت المخرجات تدريجيا. وفى النهاية، فى ١٦ أكتوبر ١٩٣٨"انفجر" البئر بالدمام واندفع النفط منه بما يزيد عن ١٥٠٠ برميل يوميا بالمقارنة مع متوسط مخرجات آبار النفط بالولايات المتحدة والتى تبلغ حوالى ١٠٠ برميل عن كل بئر. وسرعان ما تسلم ابن سعود أول شيك مقابل حقوق الملكية (١,٥ مليون دولار). الذى ألهمه بالذهاب إلى رحلة حج من نوع مختلف كما تصفها رايتشل بنسون الباحثة المقيمة فى مجلس العلاقات الخارجية فى كتابها "أكثر كثافة من الزيت". فى ١ مايو ١٩٣٩، استقل الملك ومعه حاشية تتجاوز ألفى شخص خمسمائة سيارة فى رحلة إلى حقول نفط المنطقة الشرقية. "أدار الملك الحنفية التى بدأت تدفق النفط فى أولى شاحنات النفط. وفى رحلة العودة، مضى الملك ومعه بعض إخوانه وأبناؤه الأكبر سنا يَشْدُون بأهازيج الغارات البدوية كما كانوا يفعلون فى شبابهم".

وعندما واجهت شركة سوكال الإنتاج المهول لنفط السعودية، سعت إلى شركاء ضروريين لضخ، نقل، تكرير وتسويق كنوزها. اندمج فرعها السعودى، شركة كاليفورنيا أرابيان ستاندارد للنفط عام ١٩٣٦ مع شركة تكساكو، وأفادت بذلك من شبكة التسويق التى تمتلكها تلك الشركة فى سوق كوكبى متحكَّم فيه بإحكام. لكن،

وبالرغم من ذلك، ظلت ثمة حاجة لمزيد من رأس المال لامتياز يوازى تكساس ونيومكسيكو وأريزونا مجتمعة. وبعد شيك حقوق الملكية الأول، زاد ابن سعود مساحة امتياز الشركة بثمانين ألف ميل مربع مانحا إياها بهذا الحقوق الحصرية للنفط الموجود فى أكثر من ٤٤٠٠٠٠ ميل أو أكثر من نصف مساحة المملكة. فى عام ١٩٤٤، أصبحت كاسكو شركة النفط العربية الأمريكية (أرامكو)، والتى عقدت شراكة بعد ذلك بعامين مع شركة ستاندارد أويل أوف نيوچيرسى (إكسون) وشركة سوكونى/ڤاكيوم (موبيل) مكونة بذلك تكتلا ذا أبعاد إمبريالية. ارتفع إجمالى المُخرَج السعودى من ٢١٠٠٠ برميل عام ١٩٤٤ إلى ٥٤٨٠٠٠ برميل عام ١٩٥٠، وظلت المِلْكية، بإصرار مِن الملك، أمريكية بالكامل وذلك لأنه لم يكن يثق فى الأوربيين.

كان لثقته مردودها أثناء الحرب العالمية الثانية. ظلت المملكة العربية على الحياد رسمياً، لكنها، ولأسباب براجماتية، كانت تميل إلى جانب بريطانيا لأن إمدادات الغذاء الضرورية كانت تأتيها من مصر والهند. ثم دخلت أمريكا الحرب وانهالت مساعداتها فى أعقاب ذلك. فى عام ١٩٤٤ وجدت وزارة الخارجية أن أمن المملكة العربية السعودية مسألة حيوية بالنسبة للولايات المتحدة، مما أهّل المملكة لمساعدات زمن الحرب الأمريكية المباشرة وغير المباشرة، التى وصل مجموعها عام ١٩٤٥ إلى حوالى ١٠٠ مليون دولار. كان قد استبق تطور سياسة واشنطون هذه مذكرة أعدها فى يناير عام ١٩٤٥ ولاس مورای مدير شئون الشرق الأدنى وإفريقيا بوزارة الخارجية لدين أتشسون مساعد وزير الخارجية. حذّر موراى "إذا انهار اقتصاد المملكة العربية السعودية ونتج عن هذا تحلل سياسى، سيصبح ثمة خطر أن تحاول إما بريطانيا العظمى أو روسيا السوڤييتية الدخول إلى المملكة لمنع الآخرين من فعل ذلك. قد يشكل مثل هذا التطور فى بلد ذى موقع استراتيجى وثروة نفطية مثل المملكة العربية السعودية سببا لحرب تتهدد سلام العالم": من ثم، كانت الحاجة

الماسة للإبقاء على الموارد النفطية السعودية فى أيد أمريكية، ولتطوير علاقة عسكرية توفر، مثاليا، قواعد عسكرية ومزايا لطائرات الولايات المتحدة الحربية.

تم التصديق على هذا الإجماع المتبدى وسط المراسم المناسبة فى فبراير عام ١٩٤٥ حينما توقف الرئيس روزفلت فى رحلة عودته من مؤتمر يالطا للقاء ابن سعود على متن البارجة الأمريكية كوينسى. ووفقا للتعبير الحماسى الذى أدلى به مسئول وزارة الخارجية الذى عمل مترجما للطرفين، ويليام إيه. إيدى فإن اللقاء كان "إنجازا مرغوبا فيه بورعٍ وإخلاص" يؤذن بتحالف أخلاقى واستراتيجى مع شعب معادٍ للشيوعية من منطلق عقائدى فى منطقة ثرية بالموارد. وكنتيجة لهذا التحالف الماكر والتآزرى، ظلت المملكة الوهابية تنفق على الأسلحة أكثر من أى بلد آخر فى العالم بالنسبة لنصيب كل فرد من سكانها، وظلت غالبية مشترواتها من الأسلحة من الولايات المتحدة مما جعلها العميل الأول للأسلحة الأمريكية. لكن، وبالرغم من تلك الأعداد الهائلة من الصواريخ والطائرات المقاتلة، برهنت المملكة على أنها عاجزة فى عامى ١٩٨٩، ١٩٩٠، حينما هددت فيالق صدام حسين المملكة بعد أن ضمت الكويت إليها. اقتضى تحرير الكويت وحماية حقول النفط الحيوية بالمملكة اشتراك قوات أجنبية تعدادها نصف مليون جندى فى عملية "عاصفة الصحراء".

أيضا، مما يثير الفضول بدرجة مماثلة على الأقل، فإن أقدم جالية من المغتربين الأمريكيين نمّت جذورها فى بلد معادٍ للقيم الجوهرية التى تعتنقها الولايات المتحدة. تظل المملكة تخضع لحكم ملكى مطلق بدون برلمان، أو دستور أو انتخابات؛ تتجنب حرية العبادة، الكلام، الصحافة والتجمعات. لكن، داخل تلك البيئة غير الواعدة ووسط خواء المنطقة الشرقية التام، يوجد استزراع أمريكى غريب: ثلاث مدن لأرامكو تشكلت فى الخمسينيات: الظهران (١٠٠٠٠ نسمة)، أبقيق (حوالى ٥٠٠٠ نسمة) ورأس تنورة (حوالى ٥٠٠٠ نسمة). كان حوالى ثلث سكان تلك المدن الثلاث

من العاملين بأرامكو الأمريكيين وعائلاتهم. كانت كل مدينة تتكون من حلقة داخلية بمساحات عُشْبية ومنازل من مستويين لكبار العاملين الأمريكيين، ومنطقة أخرى "متوسطة" أكثر تواضعا للعاملين الأجانب المهرة، ومنطقة أكواخ رثة نائية للعمال السعوديين. وبعد نصف قرن، مازالت تلك المعازل الغريبة موجودة، وقد نجت بأسلوب ما من الحروب الإقليمية، الثورات، الهجمات الإرهابية، وأزمات الخلافة السعودية، "وصدمات النفط" لأوبك، وتأميم أرامكو التدريجي الذى تم تنفيذه بالتعاون مع المدراء الأمريكيين الذين مازال العديد منهم يعملون تنفيذيين فى الشركة التى تملكها الدولة.

وبالرغم من ذلك لا يمكن القول بأن القُرب قد ولّد الاحترام ناهيك عن مشاعر المحبة والود. لعقود ظلت معنويات الأرامكويين تعانى من حظر الكحوليات، التدخين، القمار، ومن قواعد الزى القاسية للنساء اللاتى يغامرن خارج حدود "أمريكا الصغيرة"، وحيث ظلت حتى زينات الكريسماس وصور بابا نويل تثير حفيظة رجال الأمر بالمعروف. وعلى الرغم من التواجد الأمريكى الذى طال أمده أو ربما، ومعه الاستياء من اعتماد السعودية على قوة عظمى متعالية، ظل النفور متبادلا بحرارة. وجد استطلاع رأى أجراه مركز جالوب للدراسات الإسلامية على عشرة آلاف مسلم فى عشر دول إسلامية أن السعوديين عبروا عن أكبر قدر من الكراهية للولايات المتحدة، حيث كانت النسبة ٧٩٪ مقارنة بـ٥٢٪ من المستطلَعين بإيران المعادية رسميا لأمريكا(١). علّق المؤرخ نيال فرجسون بريطانى المولد بالقول

(١) يتغافل المؤلفان عن ان سبب كراهية تلك الغالبية من الشعب السعودى، لا الحكام، للولايات المتحدة قد يكون مرده سياساتها الموالية لإسرائيل والصهيونية، واحتلالها لبلدان من العالمين العربى والإسلامى، وتواجدها العسكرى الكثيف بالمنطقة، ونهبها لثرواتها، وان ذلك لا علاقة له بتواجد الأمريكيين وقربهم الفزيائى بأرامكو وغيرها!! (الترجمة)

"توحى تلك الأرقام بالتناقض الموجود بالعالم الإسلامى" إن الأكثر كراهية للولايات المتحدة ليسوا هم أعداء أمريكا، إنهم الشعوب فى البلدان المفترض أنها صديقة للولايات المتحدة، إن لم تكن حليفة". هذا علاوة على أن أكثر المسلمين عداء يميلون لأن يكونوا المستطلَعين الأكثر ثراء وتعليما.

وبما لم يكن هذا ليتسبب فى دهشة فيلبى الذى عاش طويلا بقدر كافٍ ليشجب نتائج هبوط الثراء الجم المفاجئ الذى غيّر المجتمع السعودى. عبر عن استيائه من أعداد السيارات المتنامية على الطرق السريعة السعودية، هذا على الرغم من أنه كان قد ظل الوكيل الرئيسى لشركة فورد للسيارات. تحدث فى مقالات وكتُبٍ له عن إسراف الأسرة المالكة بالرياض وفسادها، مما جعل الملك سعود الابن الأكبر لابن سعود الذى خلفه على عرش المملكة عام ١٩٥٣، يشعر بالإهانة لدرجة أُجبر معها فيلبى على الذهاب إلى المنفى واستقر ببيروت. لكن فيلبى لم يكن لديه أى نزوع للرقابة الذاتية. أثناء ثلاثينيات القرن العشرين، سعى دونما جدوى وبأسلوب كيشوطى للتوفيق بين الدول العربية والحركة الصهيونية مما نجم عنه غضب راعيه ابن سعود. كان، فى فترات منوعة، اشتراكيا، داعيا للسلام، مسترضيا، ووطنيا. فى عام ١٩٤٠ حينما خطط لرحلة لإلقاء المحاضرات بالولايات المتحدة، عبر عن آراء مشكوك فيها بدرجة أن ألقت الشرطة البريطانية القبض عليه فى بومباى ورحّلته إلى إنجلترا حيث احتُجز فى الحبس بسبب "أنشطة مجحفة بأمن المنطقة" حتى مارس ١٩٤١ حينما أُطلِق سراحه عن طريق نادى الأثينيوم ليلحق بزوجته دورا. كان عنوان مذكرات فيلبى التى لم تكتمل "الخطوات المتنافرة" وهذا عنوان مناسب. دُفِن، بعد موته فى بيروت عام ١٩٦٠، بمقبرة مسوَّرة للمسلمين بحى البصرة، واختار ابنه كيم أن يكتب على شاهد قبره "أعظم الرحالة فى بلاد العرب ومكتشفيها". وبعد ثلاث سنوات، وحينما واجه كيم افتتضاح أمره كجاسوس للمخابرات السوفيتية، هرب من بيروت إلى موسكو، حيث لحق بزميليه القديمين بكامبريدج جاى برجس ودونالد ماكلين.

يبدو أنه كان ثمة رابط تحتى يكاد يكون خفيا بين ردة جاك فيلبى وخيانة ابنه وهو موضوع بحثه باستفاضة أنطونى كايف براون فى السيرة المزدوجة التى كتبها بعنوان "الخيانة تسرى فى الدماء". فقد كانت حياة كل منهما تتميز بالشيزوفرانيا، وكان كلاهما يتقن الفنون السوداء للسحر البيروقراطى الشرير، وانقلب كلاهما على القِيَم التى تربيا عليها. بيد أنه يبدو ثمة توازٍ أقل وضوحا. يمكن النظر إلى حياة فيلبى الأب المزدوجة كمجازٍ لشراكة أمريكا مع السعودية، الدولة الوحيدة ذات السيادة فى العالم التى تحمل اسم عائلة مؤسسها. كان هذا أيضا تحالفاً شيزوفرينيا غير متكافئ[1]. إذا نظرنا إلى هذا التزاوج من مستوى معين فقد ضمن للولايات المتحدة إتاحة الطاقة الرخيصة الضرورية لثقافة السيارات. لكن تحقيق هذا كان يعنى التغاضى عن نظام سياسى متحجّر يستهلك فى ظله حوالى سبعة آلاف أمير خمس ريع النفط المهول، وعن ثقافةٍ تشوّه فيها سمعة النساء بصفتهن "عاهرات شيوعيات" لتجرئهن على قيادة السيارات (مازالت القيادة غير مسموح، بها للنساء). إن الظلم الفادح ملموس فى حياة المملكة بدرجة اعتماد حكامها المتوترين على الدين بإفراط لقمع المعارضة وإضفاء الشرعية على السلطة. لقى هذا المجهود مساعدة مفرطة غُفِل عن عواقبها من قبل الولايات المتحدة فى أعقاب الغزو السوفييتى لأفغانستان. طلب البيت الأبيض فى عهد كارتر من السعودية فى صفقة بدت وأنها حصيفة دفع دلاور مقابل كل دولار تدفعه أمريكا لدعم المقاومة الأفغانية سرا. وافق الملك فهد بحماس لأن ذلك كان سبيلا لإرضاء واشنطون وتعزيز نفوذ المملكة الكوكبى فى آن، وأيضا شراء السلام فى الداخل السعودى. وسرعان ما صدرت عديد الكتب والكتيبات التى تدعو الشباب السعودى

(١) لم لا يُذكر فى هذا المقام تحالف البريطانيين مع ابن سعود ومحاربيه الوهابيين ودعمهم لهم بالمال والسلاح، ناهيك عن تحالف بريطانيا (العظمى) مع عدد اخر من الأنظمة الفاسدة والحكام الطغاة!! ليس هذا تبريرا لأمريكا، بل فقط لفت نظر إلى ازدواج معايير المؤلفين. (الترجمة)

لشن حرب جهادية ضد الكفار الروس، وبحلول عام ١٩٨٤ كان حوالى ستة عشر ألف طالب قد التحقوا بكليات الشريعة بالمملكة. وفيما بين عامى ١٩٨١ و١٩٨٦ زاد الدعم الأمريكى والسعودى للمتمردين الأفغان عشرة أضعاف (حسب تقدير رايتشل بنسون من ١٢٠ مليون دولار إلى ١,٢ مليار دولار دفعتها أمريكا والسعودية مجتمعتين. ومررت كل المساعدات إلى المجاهدين من خلال المخابرات العسكرية الباكستانية). كان هذا هو البرنامج الذى فرّخ القاعدة ومنح أسامة بن لادن قاعدته كلية الأهمية. حينما تحلل الاتحاد السوفييتى عام ١٩٩١، وكانت هزيمته فى أفغانسان قد استبقت انهياره، ظهرت فرصة جديدة لنشر رسالة الإسلام القتالى. ذكرت وزارة الحج والأوقاف السعودية فى مطلع التسعينيات أنها رصدت ٨٥٠ مليون دولار لبناء المساجد وإرسال الأئمة لنشر صيغة الإسلام الوهابى فى الجمهوريات السوفييتية السابقة بوسط آسيا التى يسكنها غالبية من المسلمين. تعبر مسز بنسون بقدر كبير من الاعتدال عن النقطة الجوهرية التالية "ظلت الأسرة المالكة السعودية لسنوات طويلة تستغل الإجراءات السياسية الداخلية لإدارة تحديات الحرب الباردة. ومن أجل إقامة مشروعية داخلية وصد العدوان الخارجى رعى القادة السعوديون العناصر الأكثر راديكالية فى المؤسسة الدينية بالمملكة. لم يكن الأمر أن واشنطون قد تجاهلت جهود المملكة فى الدعوة، بل الأحرى أن واشنطون قبلتها بل وأحيانا شجعتها عملياً لضمان أهداف استراتيجية. كان ثمة ثمن طويل الأمد كان على الولايات المتحدة أن تدفعه نظير تلك السياسات. وفى ١١ سبتمبر، حان موعد السداد".

كان بين التسعة عشر إرهابيا الذين نفذوا هجمات ٢٠٠١ الانتحارية خمسة عشر مواطنا سعوديا تمكنوا بسهولة من دخول الولايات المتحدة بموجب سياسة منح التأشيرات السريعة التى ظلت سارية منذ وقت طويل كميزة لرعايا المملكة - نوع من "المَهْرِ" الديبلوماسى الذى اقتضاه هذا الزواج السوريالى.. لكن أيضا فإن

أحداث ١١ سبتمبر هى تعقيب تذكارى مناسب على حياة وأعمال هارى سانت چون بريدچر فيلبى وعلى المملكة التى ساعد على إنشائها[١]. نتج عن صفقة النفط عام

(١) ليس ثمة سبب واضح مقنع يطرحه المؤلفان لاتهام فيلبى، وللهجوم الذى يشنانه عليه وازدرائهما له، وذلك بعكس التمجيد الذى يضفيانه على غيره من الشخصيات التى يستعرضانها وتسويغهما اخطاءهما، تلك الشخصيات التى لابد وان يُنظر إليها على انهم مغامرون وغادرون من منظور الشعوب التى تلاعبوا بمقدراتها ودمروا حاضرها ومستقبلها من اجل مجد الإمبراطورية!!.

وعلى الرغم من التناقضات فى شخصية فيلبى وفى بعض معتقداته، إلا انه يبدو، من سياق مقال المؤلفين، انه اعتنق الإسلام لأسباب برجماتية بل وربما عن بعض القناعة، كما انه لا يمكن نعته بالمرتد لأنه كان "حر التفكير" لا ادرياً، اى انه كان قد تخلى عن العقيدة المسيحية التقليدية، على عكس ما يلمح إليه المؤلفان بسخرية من انه فعل تلك لانتهازيته وتحت تاثير ابن سعود الذى اغراه بالملذات الشهوانية. فلم يتزوج فيلبى سوى من روزى إلى جانب دورا التى كانت تعيش بعيدة عنه والتى ظل وفيا لها، كما ان الكاتبين لا يسوقان ما يثبت انه انغمس فى الشهوات. اما القول بأنه ارتد وانقلب على مصالح بريطانيا بأن فتح باب النفط السعودى للأمريكيين، فهو لم يفعل ذلك، ووفقا لما يذكره المؤلفان سوى من اجل إخراج راعيه ابن سعود من ازمته المالية حيث وفر له الحل المتاح امامه وقدّم له رجل البر الأمريكى الذى كان، وخلافا للبريطانيين، جاهزا لإنقاذه. ولم يُعرَف عن فيلبى انه اثرى من وراء ذلك بل كان يعيش على ما يكسبه من عمله كوكيل لسيارات فورد. هذا علاوة على انه حينما عزف آل سعود عن القيم السوية والأخلاقية هاجمهم وكان مصيره النفى. ولا يمكن لمنصف ان يعتبره مسئولا عن تصرفات ابنه الذى أصبح جاسوسا. او انه كان ثمة عامل وراثى، كما انه تربى بإنجلترا بعيدا عن والده. من اللافت أيضا ان المؤلفين لا يوفيان فيلبى حقه كرحالة ومكتشف حقق إنجازات مهمة فى هذا المجال، كما لا يعيران كتاباته اهتماما بل يمران عليها مرور الكرام. ليس هذا دفاعا عن فيلبى الذى لابد وان ثمة تحفظات كثيرة على سيرته وسلوكه، او عن آل سعود، لكننا فقط نجذب النظر إلى الانحيازات التى لا يخلو منها هذا الكتاب (الترجمة).

١٩٣٣ أن تدفق ريع يُقدّر بتـرايـون دولار على تلك المملكة الصحراوية التى كانت فقيرة مجدبة، ورغم ذلك فما ثمار ذلك؟ ثمة سعودى واحد يعرفه كل شخص ناضج على الكوكب، وللأسف فهو ليس رجل دولة، أو عالماً، أو قطباً من رجال الإعلام أو أكاديمياً أو باحثا إنه قاتل جماعى، غذاه دونما قصد منهم رعاية السعوديين والأمريكيين له.

الفصل الثامن

"جيش صغير رائع"

الفريق السير چون بايجوت جلوب

(جلوب باشا)

١٨٩٧ - ١٩٨٦

الفصل الثامن

دولة فلسطين يهودية؟
إذا أقمتُها
لن أجنى سوى الندامة
دولة فلسطين عربية؟
اقتراح لا تقبله
الدول القوية.
فدرالية؟
تحت أى حيثية؟
يليها انفصال
ثم طلاق.
التقسيم؟
التقسيم والتجاور
أقل مشقة من الصبر على اللصوصية
وتحميل الانتداب المسئولية

– چون جلوب، أسطر مُقفاة، تعليقاً على تقرير
اللجنة الأنجلو/ أمريكية (حوالى عام ١٩٤٦)

في عـــام ١٩٢١، وبعــد وعــد بلفــور بما يربو على سنوات ثلاث، كـــانت أرض فلسطين تعـانى وتغلى. كان البريطانيون يـحاولون إعادة توحيد العرب واليهود على أرض كان الطرفان يعتبرانـها مقدسة. وحـينما انتـهى مؤتمر القاهرة، اسـتدعى ونسـتون تشـرشل وتى. إى. لورانس، شـقيق فـيصل الأكبر عـبدالله، إلى القدس. عرض تشرشل الذى كان مصمما على وضع فيصل على عرش العراق، فى حضور لورانس الذى قام بالترجمة، عرض على عبدالله الذى كان يتوقع منحه نفس المملكة، جائزة ترضِية: إمارة خاصة به إن هو وعد بعدم مهاجمة الفرنسيين فى سوريا. فيما بعد تفاخر وزير المستعمرات بقوله إنه قد "خلق الأردن بجرة قلم عصر يوم أحد". أصبح عبدالله، بدعم مالى بريطانى، ومندوب سام بريطانى يعمل مستشـارا له، حاكم شرق الأردن التى تبلغ مساحتها مساحة ولاية إنديانا، وتقع شرق نهر الأردن على أرض كانت تعتبر أرضا خلفية لجنوب سوريا، التى غدت مملكة تحت

التجربة لمدة ستة أشهر. أثناء تلك الفترة التجريبية، منحت بريطانيا عبدالله راتبا قدره ٥٠٠٠ جنيه إسترليني شهريا. وفيما بعد، ظلت فلسطين تحت الإدارة البريطانية المباشرة، وشرق الأردن جزءا من منطقة يتحكم فيها الانتداب البريطاني. لكن وخلافا لجارتها الغربية (فلسطين) لم تصبح خاضعة للاستعمار الصهيونى عملا بوعد بلفور. و كان لعبدالله أن يصبح حاكما رمزيا لشرق الأردن.

فى عام ١٩١٩، كان ابن سعود قد محق على الحدود الشرقية للحجاز جيشا هاشميا من ٥٠٠٠ جندى بقيادة على، شقيق عبدالله. والآن، كان عبدالله محاصرا من قبل اللاجئين السوريين المصممين على الانتقام والعازمين على مواصلة الحرب على نطاق ضيق، وكان محاصراً أيضا بحدود لمملكته غير محددة، وحتى من قِبَل والده الشريف حسين الذى كان يطالب بشرق الأردن جزءا مما تبقى من الحجاز. استقر عبدالله فى قصر متواضع بوادى الأردن ومعه زوجتاه ومحظية إفريقية،

ومضى يبدد راتبه الذى يمنحه إياه البريطانيون بدفع رشاوى لا جنوى من ورائها.

لا يعنى هذا أن عبدالله لم يكن له معجبون. وجده رونالد ستورز وزير كيتشنر للشئون الشرقية والذى كان قد التقى الأمير أثناء زيارة له للقاهرة قبل الحرب، وجده مزيجا آسرا يجمع بين الذائقة الجمالية ومناقب الجنود. وجد ستورز نفسه مذهولا من كم معارف عبدالله، وذكر أنه قد جلس مسحورا فيما كان زائره يلقى على مسامعه "مقاطع رائعة من المعلقات، وأمجاد عنترة بن شداد وأحزانه"، وهما يرتشفان القهوة العربية. ثم انتقل برهافة من "ماضى العرب القتالى المجيد إلى حاضرهم الأعزل العاجز". وبعد ذلك، تساءل عبدالله بجسارة "عما إن كان البريطانيون سيوافقون على منح والده شريف مكة دستة، أو حتى نصف دستة. بنادق آلية". وحينما سئل عن هدفها، أجاب عبدالله بصراحة "للدفاع" ضد هجوم الأتراك. أبلغ ستورز الأمير، على مضض، أنه ليس بوسع البريطانيين إمداد والده بسلاح يستخدم ضد قوة صديقة - كان ذلك مطلع عام ١٩١٤- لكنهما افترقا وهما يعبران لبعضهما عن أفضل المشاعر. وعلى الرغم من أنه كان لفيصل علاقات أفضل مع العرب الآخرين، لكن عبدالله ظل الداعية الرئيسى للتحالف بين البريطانيين ووالده الشريف حسين.

وجد تى. إى. لورانس، الذى كان قد بُعث إلى عمان فى نهاية عام ١٩٢١ ليعمل "مستشارا" للأمير وجد عبدالله، ووفقا لتعبير إليزابث مونرو "يتحسس طريقه، أحيانا يهدد بالرحيل، وأحياناً أخرى يغازل فرنسا؛ وأحيانا يدرس إمكانية الاندماج مع الحجاز بهدف إنشاء مملكة تماثل مملكة فيصل بالعراق". كان لورانس مناصره المبكر حيث وصف إياه للمكتب العربى عام ١٩١٦ كالتالى "يبلغ من العمر ٣٦ عاما لكنه يبدو أصغر من هذا. قصير القامة ذو بنية متينة، ومن الواضح أنه قوى كالحصان، عيناه ضاحكتان بُنيتان قاتمتان، وجهه مستدير أملس، شفتاه مكتنزتان لكنهما قصيرتان، أنفه مستقيم، لحيته بنية.. سلوكه غير متحفظ باصطناع، لا

يتمسك إطلاقا بالرسميات، بل يمزح مع رجال القبائل وكأنه أحد مشايخها. أما فى المناسبات الجادة، فإنه يزن كلماته بعناية ويبرهن على أنه محاور ماهر". بيد أن حماس لورانس المبكر لأمير الأردن المؤقت الذى كان قد وصفه بأنه "شخص ليس كلى السلطة.. بل يعتمد على حكومة جلالته للإبقاء على منصبه" تضاءل حتى وصل إلى خيبة أمل. أسرً لورانس لجرترود بل عام ١٩٢٢ بالقول إن "عبدالله شخص بغيض.. بغيض تماما". بدا وأن عبدالله الكسول، والضعيف بدرجة لا يستطيع معها الحكم، كان بحاجة إلى شخص إنجليزى آخر قوى إلى جانبه. قرر هوبرت يونج، خبير الشرق الأوسط بوزارة المستعمرات، أن ذلك الشخص الإنجليزى هو هارى سانت چون بى. فيلبى.

كان أول لقاء لنا بـ "چاك" فيلبى بالعراق، حيث تبادل هو وچرترود بل قصصهما عن إيه. تى. ويلسون الذى استدعى سخطهما. ظل فيلبى بالعراق حتى فصلَه السير پيرسى كوكس بعد معاملته الفظة لفيصل لدى مرافقته الملِك المختار من البصرة إلى بغداد. أصبح فيلبى الإدارى المقتدر، داعما متحمسا لقضية عبدالله. قال "إنه ملك دستورى مثالى، لا يشارك بنشاط فى إدارة المملكة إلا حينما يحال إليه أمر لاتخاذ قرار أو مشورة من قبل الحكومة المحلية أو الشعب".

كانت أولى مهام فيلبى هى كبح إسراف الأمير المالى. أسرّ فيلبى إلى بِل بقوله "بصراحة، إننى أحب عبدالله، رجل مختال لكنه قارئ جيد لديه أفكار ممتازة، رغم عدم وجود مبادرات لديه أو طاقة للفعل. بالطبع لا يريده أى أحد هنا أو فى سوريا، ولا يريدون أى فرد من أسرة الأشراف، لكن ما أهمية هذا؟ إنه هنا، وهو لا يقل صلاحية عن غيره لأن يكون ملِكا صوريا. طالما أنه لا يستنزف الدخل القومى الهزيل، فهو مقبول، لكن ديونه التى تبلغ حتى الآن ٢٥٠٠٠ جنيه استرلينى تمثل مشكلة لن يكون ثمة حل لها دونما صعوبات. من حين لآخر يرسل إليه "بابا" و"ماما" بخاصة مبالغ لا بأس بها، وقد قام مرة أو مرتين باعتراض مرتبات مرسلة

إلى الحامية الموجودة بمعان ومصادرتها لحساب جيبه الخاص. أيضا، ألمح لفيصل منذ بعض الوقت بأنه، ونظرا لأنه اغتصب العرش الذى كان من حقه هو، فعليه أن يقسم للغنائم. أجاب فيصل بأنه لا يحصل على القدر الذى كان يأمله وأرسل له شيكا بألف جنيه استرلينى ككل ما بإمكانه أن يوفره".

وعلى الرغم من القيود المالية التى وصفها فيلبى، رفضت الخزانة البريطانية عام ١٩٢٤ تقبل أى سفه أو إسراف آخر. ومقابل دعم بريطانيا المالى، رؤى أن يتولى كبير ممثلى بريطانيا، والذى أصبح فيما بعد المندوب السامى، التحكم فى خزانة الأردن وشئونه العسكرية بحيث يصبح، واقعيا، السلطة العليا فى البلد. وبعد أن أُجبر عبدالله على ذلك المأزق المستحيل، شجع فيلبى الأردنيين على المطالبة باستقلال عربى كامل والبرهان على أنهم قادرون على ذلك على أرض الواقع وذلك لقناعته أن "العرب لن ينجحوا أبدا فى إقامة حكومة (خاصة بهم) إلا إذا أتيح لهم تعلم الحكمة من أخطائهم". صدّ فيلبى محاولات السلطات بفلسطين للتعدى على منطقة نفوذه، وأعطى المشورة لكنه لم يغضب لعدم اتباعها. لكن فى نهاية المطاف، لم يستطع فيلبى ممثل بريطانيا العنيد المشاكس، مجاراة السير هربرت صامويل المندوب السامى بالقدس والذى تشبث باعتقاده أن شئون شرق الأردن لا يمكن فصلها عن الشئون بفلسطين. وكما حدث فى حالة العراق، لم يوافق فيلبى على سياسة الحكومة البريطانية المتقلبة العشوائية بالشرق الأوسط. واستقال من الخدمة العامة.

لم يأسف عبدالله على خسارة زميله فى لعب الشطرنج والذى كان قد أبقى على مكتبه صورة لابن سعود، أو خصم الأمير الرهيب الذى يبغضه. خلف هنرى كوكس عام ١٩٢٤ فيلبى فى منصبه، ثم تلاه فى عام ١٩٤٠ أليك كيركبرايد (الذى مُنِح لقب السير فيما بعد)، وكان قد عمل المندوب السامى البريطانى فى عمان. كان كيركبرايد الذى شب فى مصر يتحدث العربية بطلاقة، وكان قد حارب مع فيصل ولورانس فى "الثورة العربية"، وفى عامى ١٩٢٠ و١٩٢١ أصبح رئيس حكومة

انتقالية بعد الحرب لم تدم طويلا فى مؤاب (الكرك) وكان مقرها الرئيسى على بعد ٥٠ ميلا جنوبى عمان، أى فى تلك المنطقة التى أصبحت بجرة قلم من تشرشل "شرق الأردن". كما عمل شقيقه الأصغر الآن رئيسا للحكومة المؤقتة فى عمان بين عام ١٩٢٠ و١٩٢١ أيضا.

قبل بضعة أشهر من انعقاد مؤتمر القاهرة فى ١٢ مارس ١٩٢١، غادر الشيخ عبدالله الحجاز فى قافلة جمال على رأس جيش صغير. كان شقيقه فيصل قد خلعه الفرنسيون عن عرش سوريا وأشيع أن عبدالله كان يخطط لضربة استباقية باتجاه دمشق لطرد المغتصبين واستعادة العرش للهاشميين. وبعد أن استقل قطارا من المدينة، وصل إلى معان بواسطة خط سكك حديد الحجاز فى ٢١ نوفمبر ١٩٢٠ وفى معينه ثلاثمائة رجل وست بنادق آلية فى "جولة تفقدية". وبما أن معان كانت تقع فى إقليم تابع للحجاز يحكمه والده الذى أصبح يلقب بالملك حسين، لم يكن بوسع البريطانيين الخضوع لضغط الفرنسيين لطرده. غادر إلى عمان فى شهر مارس. وفى غياب أى تعليمات واضحة من صامويل بالقدس، قرر أليك كيركبرايد أن يذهب من الكرك إلى محطة القطار لاعتراض زائره غير المرغوب فيه: سأله عبدالله بعظمة "أمصيب أنا فى افتراضى أنك هنا للترحيب بى نيابة عن حكومة بريطانيا العظمى؟".

أجابه كيركبرايد ذو الأعوام الثلاثة والعشرين بدون أن يطرف له جفن.. فى الواقع، أنا هنا مع زملائى للقاء معاليك بصفتنا مجلس وزراء الحكومة القومية فى مؤاب.

أتوقع أن ترسل حكومة جلالة ملك بريطانيا ممثلا لها، فى الوقت المناسب، ممثلا يفوقنى مرتبة" .

أجاب عبدالله بسحره المعهود "لم أكن أتمنى أن يرحب بى أحد أكثر قبولا منك،

أنت الذى قاتلت منذ وقت ليس بالبعيد فى الجيش الذى قاده شقيقى فيصل. كلى ثقة أنك ستبقى كى تمنحنى دعمك ومشورتك فى الأيام القادمة الصعبة. وبالمناسبة، هل نالت حكومة مؤاب القومية اعترافا دوليا؟". أجاب كيركبرايد، معبرا عن تقديره العميق لكرم الشيخ وتعطفه، ثم أضاف "أما عن الحكومة المحلية، فلست متأكدا تماما من وضعها الدولى بيد أننى أشعر أن هذا سؤال أصبح ذا طبيعة أكاديمية إلى حد كبير بعد وصول معاليك هناك".

انحنى عبدالله أماما وقال، "آه، كنت متأكدا من أننا نفهم بعضنا".

وإذا كانت ضربة عبدالله الاستباقية فشلت فى تمكينه من الحصول على دمشق، فإن مسيرته إلى عمان كانت تعنى فى مؤتمر القاهرة، أن قبضته على شرق الأردن معترف بها كأمر واقع. وهكذا بدأ ارتباط كيركبرايد الطويل والمثمر بالمملكة الهاشمية.

والآن، نلتقى بچون جلوب، الذى عرفه العرب باسم أبوحنيك، وأصدقاؤه بچاك، وباقى الجمهور المهتم باسم جلوب باشا. يستحق جلوب، الذى قد يكون قد سقط تماما من الذاكرة اليوم، تخصيص فصل له فى هذا الكتاب لأسباب ستة: ١- لم يكن ثمة من هو أفضل من جلوب كنموذج للجندى المحترف الذى أولع بالبدو الرحل، والذى قاد الفيلق العربى وأمده بالنصيحة، ذلك الفيلق الذى كان الأفضل تجهيزا وتدريبا ونظاما بين الجيوش العربية وأصبح العمود الفقرى للمملكة الأردنية لمدة تربو على الربع قرن. ٢- أثناء عمله المبكر بالعراق كان بين الذين نفذوا إحدى أكثر السياسات الخلافية لسلطات الانتداب: ترويع القبائل عن طريق القوات الجوية. ٣- أثناء عام ١٩٤١، تلك الفترة اليائسة بالنسبة للبريطانيين بالعراق، منح جنود فيلق جلوب دعما حاسما للجيش فى معركته لإنقاذ العراق (للبريطانيين). ٤- قاد الباشا فيلقه إلى أحد الانتصارات القليلة فى الحرب العربية الإسرائيلية الأولى، أى

احتلال القدس الشرقية. ٥- كان نموذجا لتناقضات الحكم غير المباشر ومعضلاته، كان وجوده ذاته وسلطته يقوضان شرعية الهاشميين، ومن ثم، ظل ولاؤه للأردن موضع شك دائم. ٦- كان فصله الفجائى من قبل حسين حفيد عبدالله فى ١ مارس عام ١٩٥٦ هو الذى سارع بحدوث أزمة السويس التى انهت نفوذ البريطانيين وسيطرتهم على شرق المتوسط.

يبدأ جلوب تمهيده لسيرته الذاتية وعنوانها "جندى مع العرب" (١٩٥٧) كالتالى "قضيت ثلاثين عاما أعيش وسط العرب. أثناء السنوات التسع عشرة الأولى من تلك الفترة، عشت كلية معهم، نادرا ما كنت أقابل أوروبيا وأحيانا كانت تمضى الأسابيع دون أن أتحدث لفظا إنجليزيا واحدا. ذهبتُ أولا إلى العراق عام ١٩٢٠ كضابط نظامى بالجيش البريطانى، سعيا وراء ميادين جديدة للمغامرة ومعرفةٍ أوسع بفنون الجندية الكثيرة الحديثة. لكننى وبعد أن أمضيت خمس سنوات مع العرب، قررت أن أغير أساس حياتى الوظيفية تغييرا كليا: اتخذت قرار الاستقالة من الجيش البريطانى وتكريس حياتى للعرب. كان قرارى، إلى حد كبير، عاطفيا. لقد أحببتهم".

جسَّد جلوب شريحة من صبية المدارس العامة البريطانية التى وصفها المؤرخ الإمبريالى چيمس موريس حينما قال "كان الأعرابى البدوى بأسلوبه الأبوى ومظهره الغريب اللافت، وقطعان معيزه وجماله الكبيرة وذائقته للقهوة وللصُّبية والجمال، مزيجه من الصلافة وكرم الضيافة، حبه للأنساب، قدرته على القتال والتى ستسمى فيما بعد فحولته، كان تجسيدا لفكرة كل رجل إنجليزى عن جنتلمان الطبيعة. بل إنه كاد يبدو وأنه إنجليزيا تُرجم إلى تعبير أجنبى. كان للبريطانيين أن يؤسسوا بأسلوب متقلقل محفوف بالمخاطر وضعهم الجديد فى الشرق الأوسط على هذا التثبيت الرومانسى، وتقديسهم لذلك النمط أو تلك الأسطورة".

ولد چون بايجوت جلوب لأسرة أنجلو أيرلندية عسكرية عام ١٨٩٧. كان والده

لواء فى فرقة المهندسين، وتبعه چون بفرقة الألغام. بعد تخرجه من كلية تشلتنهام والأكاديمية العسكرية الملكية بوولويتش، خدم بفرنسا أثناء الحرب العالمية الأولى. جُرِح مرات ثلاث - كادت إحداها بفكه أن تكون قاتلة - وتلقى وسام "الصليب العسكرى". عاد إلى الجبهة الغربية لكن بعد أن تشوه فكه (من هنا كانت كنيته: أبوحنيك أو الحنك الصغير). وجد من الصعوبة، وكان رجلا صغير البنية عالى الصوت، برئ الوجه، ذا شارب أصفر، وبسالة لافتة وتوق للعمليات الحربية، وجد من الصعوبة أن يرضى بتحوله إلى جندى لزمن السلام.

فى عام ١٩٢٠، تطوع للخدمة فى بلاد الرافدين التى كانت آنذاك تشهد ثورة كبرى. لكن حينما وصل جلوب إلى العراق فى سبتمبر، كانت القوات الإمبريالية قد قمعت الثورة بين القبائل إلى حد كبير بتكلفة قدرها ما بين ٣٠ مليون و٤٠ مليون جنيه استرلينى (تختلف التقديرات). لكن وحينما تمكن الإنجليز من إحكام قبضتهم فى فبراير ١٩٢١، كان السير پيرسى كوكس قد حل محل تى . إى ويلسون، وكان مازال بالإمكان العثور على چرترود بل، سكرتيرته للشئون الشرقية، كلية الحضور وهى تعمل، وتستضيف الناس فى نزهات صغيرة وعلى موائد الغداء بمنزلها فى "حارة العفة" (يظهر جلوب فى مشاهد قصيرة فى خطاباتها حيث تقول عنه "كابتن جلوب، ضابط الاستخبارات الصغير الماهر").

قد يتذكر القارئ أن مؤتمر القاهرة اتخذ القرار المصيرى بإحلال القوات الجوية الملكية محل الجيش البريطانى (بالعراق). كان أبو هذا القرار هو المارشال الجوى السير هيو ترنشارد، وكان أبواه الروحيان لورانس وتشرشل، وكانوا جميعهم قد أملوا أن يحكموا بلاد الرافدين من خلال "الهواء الساخن، والطائرات ، والعرب". واستُخدم هذا النظام المثير للجدل لفرض الأمن من الجو - والذى كان له أن يُجرب بالفعل فى الصومال وأفغانستان- فى أرجاء الشرق الأوسط حتى خمسينيات القرن العشرين. عرّفه السير صاموويل هور وزير الدولة للقوات الجوية فى العشرينيات بأنه "التحكم دونما احتلال". اعتقد نائب المارشال الجوى السير جون

سالمون والذى كان قد أوكل إليه تنفيذ مهمة وزارة المستعمرات لإخضاع القبائل المتمردة، اعتقد فى وجود ثلاث آليات قمعية ممكنة - التدمير، تحطيم المعنويات، والتدخل - وكلما عظم التدخل تعاظم القمع. تبدو نظرته، التى فصلها باستطالة فى مذكرة للعاملين عام ١٩٢٤، وكأنها كتيب إرشادى تكتيكى خُصِّص للقوات الجوية السودانية بدارفور فيما بعد. جاء به:

"تعلم القبيلة التى تزمع القيام باضطرابات جيدا متى ينفد صبر الحكومة. دائما ما تنتهى التفاوضات حتميا بما هو فى واقع الأمر إنذار بشكل أو آخر. إن المفاجأة الكاملة محالة، ويكمن الثقل الحقيقى للعمليات الجوية فى زعزعة الاستقرار اليومى للحياة العادية، ولفترة غير محدودة إذا اقتضى الأمر، فيما لا يتيح ذلك سوى فرص ضئيلة لأعمال النهب والضربات الثأرية. يمكن أيضا تدمير سقوف الأكواخ والحيلولة دون إصلاحها، وهو أمر مزعج فى فصل الشتاء - يمكن أيضا لتلك العمليات تعويق حرث الأرض والحصاد - وهو شأن حيوى؛ ويمكن أيضا إحراق مخازن الوقود الذى بُذِل جهد كبير فى تجميعه وتخزينه لاستعماله فى الشتاء؛ أو الهجوم على الماشية التى تشكل رأس المال الأساسى ومصدر الثروة للقبائل الأقل استقرارا، وبالإمكان أيضا، عملياً، فرض غرامة كبيرة، أو التدخل الخطير فى مصدر الطعام الفعلى للقبيلة - وفى النهاية، يجد رجال العشائر أن الأفضل كثيرا هو إطاعة الحكومة".

حينما كان جلوب مازال فى فرق الألغام والخنادق، أنيط به بناء أكواخ وحظائر طائرات لقاعدة القوات الجوية الملكية بالهنيدى على مشارف بغداد. وحينما حان الوقت ليصبح ضابط استخبارات فى القوات الجوية الملكية مسئولا عن توجيه ضربات على مساحة تمتد لحوالى خمسمائة مِيل بمحاذاة شاطئ الفرات، كان يتحدث العربية بطلاقة (وقيل فيما بعد) بأفضل مما يتحدث بها معظم العرب. أشرف على عمليات كادت تكون مستمرة. ووفقا لما ذكره جلوب فى كتابه "مشاهد الحياة

المتغيرة" (نشر عام ١٩٨٣): "كانت النظرية هى أنه حينما تندلع التمردات القبلية فى أى أقليم – ربما على بعد مئات الأميال – تقلع الطائرة من هنيدى وتقصف المتمردين.. وهكذا تنتهى أعمال الشغب فيما بين الإفطار والغداء" . أما على الصعيد العملى فقد تسبب السهل الطويل المغبر الذى تقاطعه أعداد لا نهاية لها من القنوات وحُفر الرى، فى صعوبة تحديد الطيارين للأهداف، واعترف جلوب بأنه، كان يحدث أحيانا أن تُقصف أكثر العشائر ولاء للحكومة" عن طريق الخطأ.

كانت قبائل بنى هشيم قد ظلت تعسكر بمحاذاة الفرات جنوبى العراق على مسافة قريبة منذرة من خط حديد بغداد /البصرة، حيث كانوا مصادر متاعب لا تنتهى. كانوا من كبار المقاتلين فى ثورة العشرين- لم يستطع البريطانيون مهاجمتهم فى موطنهم بسبب العقبات الفيزيقية العديدة ومن بينها حفر الرى العشوائية الكثيرة التى جعلت من المستحيل على الدواب أو السيارات المرور. كان العثمانيون قد فرضوا ضرائب على القبائل لكنهم لم يجتهدوا فى جمعها. والآن، رفض بنو هشيم الاعتراف بحكومة فيصل. وكما علّق زميل لجلوب بالقول إنه بما أن القبائل لم تتلق أية عائدات ملموسة نظير الضرائب التى كانوا يدفعونها "فقد شعر الكثيرون منهم أنهم يزودون الأفندية من آكلى الطماطم فى بغداد بالأموال". كانت ضرائبهم متأخرة، والغرامات على البنادق لم تجمع، ولم يعاقب أحد على أعمال الإغارة والخطف. وبتوصية من وزير الداخلية العراقى، أُتخِذ القرار بتلقين عشيرتين – بركات وسفران – من تلك القَبائل درسا قاسيا.

كانت مهمة جلوب هى تحديد مشايخ معينين، وقصف "الذين كان نفوذهم بين رجال القبائل يجعل منهم هدفا مناسبا بخاصة للهجوم عليهم". وفى صيف عام ١٩٢٣، ارتحل الكابتن جلوب ومعه خادم ومرشد فقط، مرتديا عباءة على زيه العسكرى، ودخل إلى قرية الشيخ بركات. قُدِّمت له ضيافة الشيخ وبعدها زار قرى

القبيلتين. كتب فى تقريره أن القبيلتين كانتا "فقيرتين بدرجة استثنائية"، وأنهما قد تركتا الفلاحة كلية بعد أن حول أُحد زعماء العشائر الأكثر قوة مياه القبيلتين إلى قنواته. ذكر جلوب أن "من الحقائق المؤسفة أن الحكومة الآن تقدم نفسها لهم على أنها مالك أرض متغيب ولا تهتم بهم أبدا إلا من حين لآخر حينما تطلب الجبايات". يكتب جلوب قائلا بصراحة إنه أثناء تلك الرحلتين، وفيما كان يتمتع بكرم ضيافة القبائل، كان يرسم الخرائط لتمكين سلاح الطيران الملكى من قصفهم. يتذكر أنه شعر أن عليه تحذيرهم من أنه، بشخصه، سيقود القاصفات إذا تمردوا.

وفى الوقت المناسب، أسقطت طائرات السلاح الجوى منشورات على قبيلتى بركات وسفران استدعت فيها المشايخ للذهاب إلى بلدة سماوه القريبة بعد إعلانهم بثمان وأربعين ساعة. وهناك تلقوا إنذارا بأن عليهم دفع مقدم مالى لضمان أن تدفع قبائلهم الضرائب والحفاظ على أمن الحياة. برهن ذلك على أنه مستحيل. أصر المشايخ على أنهم فقدوا القدرة على التحكم فى رجال العشائر منذ وقت طويل، وعلينا الرجوع إلى ما كتبه جلوب لمعرفة ما حدث بعد ذلك. "حينما استُدعوا، لم يذهب المشايخ، وقمت بتوجيه القاصفات كما كان مُخططا، وكان لدى كل قائد طائرة نسخة من خريطتى. وحالما سمعت القبائل صوت الطائرات - وكانوا قد عرفوا منى ما كان مخططا له أن يحدث - هرولوا إلى خارج قراهم ورقدوا فى حفر الرى. لم يُقتل سوى امرأة واحدة. بيد أنه، وكنتيجة للقصف، ذهب كل مشايخ القبائل (ليس فقط بركات وسفران) إلى مقر الحكومة، وتم التحكم فى المنطقة جميعها دونما إراقة دماء".

بيد أن ذكريات جلوب التى دونها فيما بعد تتناقض بشكل مؤسف مع التقرير الرسمى الذى يذكر تفاصيل يومين من القصف المتواصل بواسطة طائرات دو هافيلاند، وكانت بعض الهجمات تحدث بالليل للحاق برجال القبائل لدى عودتهم إلى قراهم بعد غزواتهم بالنهار. (ألقى جلوب نفسه قنبلة كبيرة على الهدف الرابع عشر من على جانب مقعد الملاحظ فى الطائرة القائدة). ووفقا للتقرير الرسمى

توفى ١٤٤ شخص وجُرحت أعداد كبيرة لم تحص. ومن أجل مزيد من التفاصيل عن العمليات، ورد فعل بغداد المستحسِن، علينا أن نتوجه إلى بِل كلية المعرفة فى خطاباتها إلى والدها:

"نُحقق إنجازات هائلة. آخر نجاح لنا هو بعض العمليات ضد قبائل متمردة بإصرار بالقرب من سماوة – أعتقد أننى أخبرتك أنه لم يكن ثمة ما هو سياسى فى ذلك – لقد رفضوا إطاعة الأوامر وانتظروا بتحدٍ ليروا ما هو حادث. ولقد حدث بالفعل، وكان التنظيم رائعا. أوكل إلى فرقة عراقية أمر حراسة كبارى السكك الحديدية والمطارات، وتم قصف القبائل واستسلموا رجلا رجلا، وفى اليومين التاليين هدمت الشرطة حصونهم جميعها. أتى الجميع من بعيد ومن قريب. وأمس، ذهب كِن [كينهان كورنواليس المستشار العسكرى البريطانى لحكومة فيصل] ووزير الداخلية [على جودْت] بالطائرة وعقدا مجلسا ضخما وأوضحا كل ما عليهم فعله مخبرين إياهم أنه قد تم العفو عنهم.. رائع، أليس كذلك؟".

حذر تشرشل السير پيرسى كوكس فى يونيو ١٩٢١ قائلاً: "العمليات الجوية وسيلة مشروعة لقمع الاضطرابات ولفرض النظام، لكن لا يجوز بأى حال أن تستخدم لدعم إجراءات سياسية محضة مثل جمع الضرائب والجبايات"، وبالرغم من ذلك غدا القصف الجوى لعدم دفع الضرائب سياسة حكومية. وفيما رأى فيصل تكوين جيش أكبر من المجندين، كان البريطانيون يفضلون فرض الأمن عن طريق القصف الجوى الذى كان "فاعلا إلى أقصى الحدود" و"آلية رحيمة للحكم". أوضح جلوب فى مذكرات للجيش عام ١٩٢٦ أن "الطائرات. كقاعدة عامة، لا تحدث إصابات ثقيلة. يرجع أثرها المعنوى الهائل إلى فقدان الروح المعنوية الذى يولده فى رجال القبائل الحس بالعجز وعدم القدرة على الرد بفاعلية على الهجوم".

يمكن اعتبار تجارب السلاح الجوى الملكى بالعراق، أى استخدام أقل قدر من القوة لإحداث أكبر الأثر، عودة إلى الممارسات البريطانية فى الهند فى القرن التاسع عشر حيث كان يتم ربط مثيرى الشغب إلى المدافع وتمزيقهم إربا مع إطلاق المدافع. وبهذا كان يتم بعث رسائل إلى المتفرجين، و نادرا ما كان يناقش هذا

الجانب الخفى من الحكم غير المباشر. وبصفتها هذه، كانت تلك الممارسات نموذجا معياريا مبكراً لاستراتيجية "الصدمة والترويع" التى مارسها البنتاجون فى القرن الحادى والعشرين.

أول من عبر بأسلوب محدد عن تلك الرسالة الرمزية كان هو إيه. تى. ويلسون عام ١٩٢٠، ثم استخدمها السير پيرسى كوكس وهنرى دوبس بفاعلية وفقا لما سجلته بِل عام ١٩٢٤.

"كان أكثر ما حدث أثناء الأسبوع إثارة للاهتمام هو أداء القوات الجوية، تجربة القصف. أتت أكثر لفتا للنظر مما رأيناه العام الماضى فى استعراض القوات الجوية لأنها كانت أكثر واقعية. كانوا قد صنعوا قرية متخيلة على بعد حوالى ربع ميل من أماكن جلوسنا لدى ديالى وذهبت القنبلتان الأوليان اللتان ألقيتا مباشرة من ارتفاع ١٣٠٠٠٠ قدم إلى وسطها وأشعلت فيها النيران. كان ذلك رائعا ومروعا. ثم ألقوا القنابل فى جميع أنحائها وكأنما للحاق بالفارين. وأخيرا استُخدِمت القنابل الحارقة التى، وحتى فى ضوء الشمس المشرق، صنعت ألسنة لهب ذات شعل متوهجة.. ترك العرض انطباعا هائلا علىّ ونال إعجابى. إن الحرب من الجو لا تعرف الرحمة، ورهيبة بدرجة مذهلة مروعة".

أسرّ أحد رجال العشائر لأحد زملاء جلوب قائلاً: "ثمة شيئان فقط يخشاهما المرء، الله، وحكومة الطيارات". لكن، وحتى بالرغم من أن سلطة الانتداب قد ذهبت إلى أن القصف الجوى كان نوعا من الحروب المشروعة، إلا أن المذابح التى ارتكبت فى حق المدنيين حفزت، وكما كان محتما، مساءلات برلمانية. وصف چورچ لانسبرى النائب العمالى، وزير الطيران بأنه من نسل المغول الهون وأضاف قائلاً: "أعلم أن ثمة شعوراً بأن الشخص الملون أقل قيمة من الأبيض، لكننى لا أعتقد ذلك. أعتقد أنكم قتلة أطفال، وقتلة أطفال مجردون من الرحمة، سواء قتلتم طفلا أسود أم طفلا أبيض. لا أرى أى فرق. أعتقد أن تلك جريمة والأخرى جريمة أيضا".

قام وزير الدولة لشئون المستعمرات، ليوپولد إمرى بجولة فى العراق عام ١٩٢٥ لتقييم الحكم غير المباشر وفرض الأمن من الجو. أُعجِب بخفض النفقات من ٢٠ مليون جنيه استرلينى فى الفترة ما بين عامى ١٩٢١ و١٩٢٢ إلى أقل من ٣,٤ مليون، وذهب إلى أن العراق كان مفيدا جدا "كميدان تدريب تجريبى رائع" للقوات الجوية الملكية. ثم انتهى إلى أنه "بالنسبة للقوات العسكرية، فإن القوات الجوية الملكية.. هى العمود الفقرى لكل هذا التنظيم. ويرجع الفضل كلياً للطائرات البريطانية فى فرض إرادة الملك فيصل على جميع أنحاء المملكة.. أما إذا سُحِبت الطائرات غدا فمن المحتم أن ينهار البنيان كله ويصبح أنقاضا. لا تستطيع أية قوات يتم تشكيلها محليا الإبقاء على النظام الداخلى أو مقاومة العدوان الخارجى دونما مساعدة من الجو. لا أعتقد فى احتمال وجود أية شكوك حول هذه النقطة".

من غير المستغرب، أن قام قائد السرب آرثر هاريس باتخاذ العراق حقلا لإجراء تجاربه فى الغارات الجوية على الأهداف المدنية، تلك الغارات التى أتقنها هناك ثم استخدمها لاحقا فيما بعد على المدن الألمانية ذات الدفاعات الضعيفة فى الحرب العالمية الثانية، مما أكسبه لقب "القصّاف". كتب هاوس نفسه عام ١٩٢٤ وهو يكاد يزهو: "يعلمون [العرب والأكراد] الآن ما يعنيه القصف الحق من حيث الإصابات والأضرار، يعلمون إنه بالإمكان عملياً محو قرية كاملة فى غضون خمس وأربعين دقيقة، وقتل ثلث ساكنيها أو إصابتهم". علّق ويليام بيل، الأمريكى الذى كان شاهدا على جل هذا التاريخ بالقول إن البريطانيين، عملياً، قد ضمنوا فى العراق "مصالحهم الإمبريالية بدون أعباء الحكم الاستعمارى المثير للبغضاء".

كان للتبعات السياسية للحرب الجوية التى شُنت على السكان المدنيين العزل أن تطارد البريطانيين طوال فترة الانتداب، كما كان للقوة الجوية أن تظل وسيلة العقاب المفضلة، ميزة تكنولوجية تطورت لتصبح بديلا للإدارة الديمقراطية. أصبح قصف الأكراد أكثر سهولة من حكمهم.

فى عام ١٩٢٦ حينما استقال جلوب من الجيش لينضم إلى الإدارة البريطانية بالعراق، كان قد كون علاقات وثيقة مع البدو المحليين بالصحراء الجنوبية، وسافر لمسافة خمسمائة ميل من العراق إلى الأردن ممتطيا ناقة بصحبة خادمه علِى فقط، وكان جلوب محاربا سابقا بالحملات التى تم شنها على المغيرين الوهابيين الأصوليين (المعروفين بالإخوان)، والذين كان لابن سعود، راعيهم، أن يظل يمثل الشوكة الكبرى فى جانب الهاشميين.

وعلى الرغم من أن جلوب كان يرى وجوب زيادة القوات الأرضية، إلا أن القوات الجوية كانت هى التى أخضعت الإخوان، فى النهاية ولو مؤقتا. كتبت بِل فى هذا الصدد تقول "الملك.. جد مسرور بما حدث للإخوان – وكذلك أنا. فى اليوم التالى لتوجيههم النيران إلى طائراتنا قصفنا معسكرهم. هربوا إلى مسافة ٤٠ ميلا جنوبا وفى الصباح التالى تعقبتهم طائراتنا وقصفتهم مرة أخرى. كانوا قد شنوا هجوما بدون أى استفزاز منا، ونهبوا الرعاة المسالمين وقتلوهم واستولوا على قطعانهم. لا أعلم أننى شعرت بمثل هذا الفخر لقدرتنا على توجيه الضربات الثأرية. يثير فىَّ الإخوان واحتكامهم المتعصب إلى عقيدة عصر أوسطية أكثر أشكال البغض قتامة".

فى عام ١٩٢٨ تم تعيين جلوب المفتش الإدارى للصحراء الجنوبية، وحضر اجتماعا بجدة حيث قابل ابن سعود للمرة الأولى ووجده "شخصية هائلة" مُبينا أن شخصا مثله "كان لابد أن ينتهى به الأمر رئيسا للوزراء فى أى بلد بالعالم". يذكر سعيد أبو الريش فى كتابه آل سعود The House of Saud أنه فيما مضى ابن سعود يعزز سلطته فى أنحاء شبه الجزيرة العربية" تم قتل أو جرح ما لا يقل عن ٤٠٠٠٠٠ شخص لأن الإخوان لم يحتفظوا بأسرى حرب، بل كانوا، فى غالبية الأحيان، يقومون بقتل المهزومين". كان جلوب قد راقب المذابح، وعمليات الهروب الهلعة. وحينما تم إخضاع منطقة الحجاز، شَهد قبيلة شمر، إحدى كبرى قبائل الحجاز، وهى تفر مذعورة شمالا باتجاه العراق.

حينا تقدم جنود جيش الإخوان الكبير وهم يركبون الجمال باتجاه عمان عام ١٩٢٥، لم ينقذ العاصمة سوى العربات المصفحة والمدافع الآلية التى كانت بريطانيا قد زودت بها المقاتلين، و معها قاصفات السلاح الجوى الملكى مجتمعة. وكنتيجة لهذا، تمت دعوة جلوب للالتحاق بفيلق الأردن العربى برتبة فريق من أجل حفظ أمن الحدود وإنهاء المنازعات بين/ القبلية. قبل جلوب العرض مباشرة لأنه كان قد توقع عدم وجود مستقبل له كجندى إنجليزى بالعراق بعد توقيع المعاهدة الأنجلو/عراقية عام ١٩٣٠ .

لم يكن الفيلق العربى الذى سيرتبط به جلوب دائماً من إبداعه، بل من ابتكار شخص إنجليزى آخر، أى فردريك چرارد پيك (١٨٨٦- ١٩٧٠) الذى اشتهر باسم پيك باشا. بعد تخرجه فى كلية ساندهيرست خدم پيك فى سيناء عام ١٩١٨، حيث تولى قيادة فرقة الهجانة المصرية التى ساعدت لورانس فى هجماته على خط سكك حديد الحجاز. وفى نهاية الحرب، تمت التثنية على اقتراح بتعيين پيك، والذى كان برتبة مقدم، لمنصب مفتش الدَرك بشرق الأردن. فى عام ١٩٢٣، أعاد تنظيم قوات الدرك ودمجها مع قوات الاحتياط والشرطة وأسماها الفيلق العربى (أعلن البريطانيون أن ١٥٠٠ رجل لا يمكن أن يسموا جيشا). كان پيك، وهو من كان يتمسك بالإتيكيت والبروتوكولات، يرتدى الزى الرسمى لدى تناول العشاء رغم أنه عادة ما كان يتناوله بمفرده. ولأنه لم يكن من مهاويس البدو الرُحّل، فقد جمع قواته فى بلدات وقرى شرق الأردن وفلسطين. فى عام ١٩٢٦، أنيط بوحدة إمبريالية، وهى قوة شرق الأردن الحدودية، التى كان البريطانيون يدعمونها ماليا ويمدونها بالضباط تحت القيادة العملياتية لسلاح الجو الملكى والقيادة العليا لفلسطين وشرق الأردن، أنيط بها مسئولية حماية حدود البلد. صدرت الأوامر إلى تلك القوات فى الأعوام ١٩٢٩، ١٩٣٦، ١٩٣٩، ١٩٤٥، و١٩٤٨ بالدخول إلى فلسطين لقمع أعمال العنف المعادية للصهيونية وبذلك أصبح الفيلق العربى، أو الجيش العربى التابع للأمير عبدالله وقد تقلص عدده، قوة أمن داخلية.

وصل جلوب عام ١٩٣٠ ليصبح الرجل التالى لبيك باشا فى القيادة. كانت ضمن أولى إجراءاته جعل قوة الحدود تنسحب من الصحراء لتحل محلها قوة تعرف بالبادية، أو دورية الصحراء. كانت تلك القوة التى تشكلت فى البداية من عشرين رجلا يركبون أربع شاحنات بويك مسلحين ببنادق آلية من نوع لويس وڤيكرز من مخلفات الحرب العالمية الأولى، كانت تتكون من مجندين بدو من قبائل الصحراء مثل شمر وبنى صخر والحويطات التى كان شيخها عودة أبوطاية حليفا للورانس وفيصل. قَوْلَب جلوب هؤلاء الرجال ليشكلوا وحدة نخبوية تمتطى الإبل وخصص لهم معاقل إقليمية صغيرة تتصل ببعضها بالبرق. قبل ذلك، كان التحيز ضد البدو سائدا فى أنحاء الشرق الأوسط. قال عنهم لورانس إنهم حينما يُستشارون يصبحون متقلبين مثل الماء، وانزعج الضباط الأردنيون من دعم منافسيهم الصحراويين وتعزيز مكانهم. لكن كان لجلوب أن ينجح بتلك القوة الصغيرة المتحركة بزيها المميز- عباءات كاكى على بنطالات قطنية بيضاء يُرَبط حولها أحزمة حمراء عريضة تستخدم للاحتفاظ بالطلقات، ورماح فضية، ومسدسات - كان له أن ينجح بمرور الوقت فى قمع الإخوان المغيرين وصدٍّ هجماتهم. لكن كان لقمعه سرقة الماشية آثار سلبية غير مقصودة: كان الغزو والإغارة مصدر دخل ومتعة (رياضية) للبدو. كتب جلوب "أنه حينما انتهت أعمال الغزو اكتشفنا بأسلوب غير متوقع أن الغزو لم يكن يمثل فقط تسلية للفروسية العربية لكنه كان أيضا نظام ضمان اجتماعى ونتج عن تدخلنا سيئ التوقيت تدمير التوازن".

كان رجال جلوب مكرسين وموالين - كان بعضهم قد تبعوه من العراق. فيما بعد، زعم ألِك كيركبرايد أن قدرة الباشا "على جذب العرب والاحتفاظ بودهم" كان مردها إلى أن أصوله كانت من "أيرلندا وكورنوول" ولم يكن مثل الشخص الإنجليزى النمطى. كان خيِّراً وأبويا الأمر الذى أدى إلى ظهور عُرْف سبب إزعاجا له:

"إن إحدى المضايقات الجدية والمتزايدة بوضوح فى الصحراء هى تلك الموضة التى تنتشر بين الآباء البدو المُحتَضرين الذين يختاروننى وصيًا على أطفالهم. يزعم العرب أنه لابد من احترام تلك الرَغبات التى يعبِّر عنها على فراش الموت والالتزام بها وأنه ليس ثمة

وسيلة شريفة للهرب. وبالطبع، فإن أولئك الآباء المهتمين يموتون دائما وأحوالهم المالية متردية إن لم يكونوا غارقين فى الديون.. ولو أن الأمر اقتصر على المشايخ لما كان بهذه الدرجة من السوء، لكن فى شرق الأردن، يوجد فى كل نقطة شرطة بالصحراء اثنان أو ثلاثة ممن هم تحت وصايتى حيث يتعلمون القراءة والكتابة. يغفل الآباء عن ترك شىء لأولادهم وديعة لدى الوصى، وتكلفة ملبسهم ومطعمهم مسئولية شهرية ثقيلة".

كان جلوب مسيحيا ورعا ذا نوازع سخية، وكثيرا ما كان يدفع مصروفات المدارس ونفقات المستشفيات لرجاله من راتبه المتواضع. كان جلوب أبويا لكنه لم يكن متعاليا أبدا، ومن ثم كان يسرع للدفاع عن رجاله ضد تحيزات الضباط الإنجليز مفضلا الضباط الذين يراعون مشاعر الغير على ذوى التدريب العسكرى الأفضل. دائما ما يتم تصويره وهو يتمتع بكرم الضيافة العربى حيث يجلس مربع الساقين على أرض الخيام المصنوعة من شعر الماعز يرتدى الشماخ ويحرك حبات المسبحة (كان دائما ما يرتدى زى التدريب العسكرى الكاكى ولم يرتد أبداً الثياب العربية الحريرية الفضفاضة مثل لورانس). وفيما بعد، حينما كان الباشا يظهر ببزته العسكرية، كان يزينها بخمسة صفوف من شرائط الأوسمة.

كانت تقارير جلوب الشهرية إلى المقر الرئيسى للفيلق العربى تُرسل إلى القدس، ومن هناك إلى لندن. ورغم تعبيراته الطنانة، وصراحته وتشبثه بآرائه فإن تلك التقارير تشكل قراءة آسرة. كان أحدها، والذى اجتزأه چيمس لانت كاتب سيرة جلوب، يدور حول ما أشيع عن اكتشاف النفط فى السعودية: "إذا كان هذا صحيحا فقد يعنى تغييرا فى التاريخ المستقبلى لشبه جزيرة العرب. سياسيا، فربما يمكّن هذا آل سعود من إحكام قبضتهم على الحجاز واستبعاد الأشراف". عبر جلوب عن قلق نبوئى بأنه إذا تملك الوهابيون النفط فإن هذا سيغير جذريا أسلوب حياتهم كعرب رحّل وسيكون له أثر هائل على بقية الشرق الأوسط.

لم يكن البريطانيون أبدا موضعا للكراهية فى الشرق الأوسط مثلما أصبحوا بعد سحقهم للثورة العربية فى فلسطين بين عامى ١٩٣٦ و١٩٣٩. فجروا المنازل، وحيًّا بأكمله فى حيفا وسجنوا الثوار أو أعدموهم ونفوا قادتهم. كانت بداية الثورة

إضرابا عاما دام لستة أشهر من قبل الفلسطينيين وشمل التوقف عن العمل ومقاطعة البيزنستات التى يملكها البريطانيون والصهاينة. أمدها بالوقود إجراءات الريخ الثالث المعادية للسامية مما أدى إلى تزايد سريع للهجرة اليهودية إلى فلسطين وزاد لهيبها التحريض المعادى للصهيونية للحاج أمين الحسينى مفتى فلسطين الأكبر. كان السير هربرت صامويل المندوب السامى والنائب الليبرالى السابق، فى إيماءة غير محسوبة، قد اخترع لقب "المفتى الأكبر"، الذى كان حامله يعتبر ذا منزلة أرفع من باقى المفتين، وعينه كبير الجالية الإسلامية بفلسطين (كان هربرت، اليهودى، شديد الاهتمام بأن يبدو فى غاية الإنصاف للعرب وعدم إبداء تحيز للصهاينة).

وعلى الرغم من أن شرق الأردن ظل هادئا نسبيا أثناء الثورة، إلا أن "المخربين" هاجموا تجهيزات الاتصالات فى البلد، وأنابيب النفط، والمكاتب الحكومية. حاول البريطانيون عكس سياسة السماح بدخول مزيد من اليهود إلى فلسطين وقيدوا الهجرة، وهى خطة أوضحت تفاصيلها "الورقة البيضاء" لعام ١٩٣٩، ووافق عليها مجلس العموم. وعلى الرغم من ذلك، فحينما جاءت الحرب، كان عبدالله هو الحاكم شرق الأوسطى الوحيد الذى قدم المساعدة. أمل القادة العرب الآخرون فى هزيمة بريطانيا. لكن وحتى وقوع انقلاب موالٍ للنازيين فى العراق فى مطلع شهر إبريل عام ١٩٤١ بتحريض من أربعة كولونيلات (المربع الذهبى) ودعم رشيد على الجيلانى رئيس الوزراء، ظلت مهمة الفيلق العربى الوحيدة هى حراسة مطار بريطانى فى فلسطين.

كانت تلك هى أحلك الأوقات بالنسبة لبريطانيا العظمى المنعزلة. بعد سقوط فرنسا وجلاء البريطانيين عن دنكيرك فى مايو/يونيو ١٩٤٠، انتقلت العمليات العسكرية إلى الشرق الأوسط والبلقان. فى إبريل ١٩٤١، أُجبرِت قوة مهمات بريطانية كانت قد أرسلت فى محاولة يائسة للدفاع عن اليونان على الانسحاب إلى البحر. أيضا كان الفيلق الإيطالى الإفريقى بقيادة الجنرال إيروين روميل قد أجبر قوات أرشيبالد ويفل القائد العام البريطانى فى الشرق الأوسط على الانسحاب من بنغازى باتجاه مصر

وقناة السويس. وحاصرت مدرعات روميل ميناء طبرق بليبيا بالغ الأهمية بالنسبة لطريق الإمدادات البريطانية والذى كان يسيطر عليه الأستراليون. وبعد استسلام الفرنسيين فى أوروبا، انتقل التحكم فى سوريا ولبنان إلى نظام ڤيشى العميل، وأصبح الجنود الفرنسيون، وكان بينهم كثيرون من شمال إفريقيا، أعداء. استقبلت المطارات السورية واللبنانية طائرات دول المحور، ونقلت قطاراتهم الذخيرة والمؤن حتى الموصل كان عملاء، دول المحور الذين اتخذوا من دمشق قاعدة لهم يعملون بحرية فى الأردن الأمر الذى سبب الانزعاج لعبدالله. تم التعبير عن نوايا هتلر الاستراتيجية بوضوح فى مذكرة عسكرية توجيهية بتاريخ ٢٣ مايو "لقد قررت الدفع قدما بالعمليات بالشرق الأوسط من خلال الذهاب لدعم العراق".

فى العراق، كان غازى قد خلفَ والده الملك فيصل، ثم مات فى حادث سيارة (مدبر) عام ١٩٣٩، تاركا مملكة متقلقلة فى رعاية عبدالإله، الوصى على العرش الموالى للبريطانيين، وابن شقيق الأمير عبدالله، وعم فيصل الثانى - الملك الطفل. وبعد إبلاغه سريًّا عن انقلاب الكلونيلات الوشيك، تم تهريب عبدالإله، وهو يرتدى بيجامته، خارج بغداد يوم ٣١ مارس فى المقعد الخلفى لسيارة مبعوث أمريكى إلى قاعدة القوات الجوية الملكية بالحبانية، ثم نُقِل جوا إلى البصرة حيث استقل الزورق الحربى البريطانى كوكتشيافر، ثم، وفى عمان الآمنة نسبيا، كان عليه أن ينتظر الأحداث مع نورى السعيد رئيس وزراء العراق السابق الموالى لبريطانيا، وفيصل، الملك الطفل الذى كان فى السادسة من العمر.

فى ١٩ إبريل، واستنادا إلى الحقوق البريطانية بمقتضى معاهدة ١٩٣٠ - التى مُنح بمقتضاها العراق السيادة الشكلية لكنها تركت لبريطانيا الحق فى القواعد العسكرية، والحق فى استخدام "السكك الحديدية، والأنهار، والموانئ والمطارات، ووسائل الاتصالات" العراقية - رست فرقة بريطانية هندية مشتركة بعث بها الجنرال كلود أوتشنلك القائد العام بالهند، رست بالبصرة من أجل إقامته قاعدة عسكرية وحماية النفط الفارسى. وفى بغداد، شجب رشيد على المعاهدة بعد أن رست فرقة ثانية من القوات الهندية بالبصرة. وفى ٣٠ إبريل، استيقظ نزلاء قاعدة

القوات الملكية الجوية بالحبانية ليجدوا الجيش العراقى، وقد شعر بالبهجة للانتصارات التى كان الألمان قد حققوها مؤخرا بشمال إفريقيا والبلقان يحتل التلال المحيطة بالقاعدة الجوية. كان يسكن معسكر الحبانية تسعة آلاف مدنى إضافة إلى ٢٢٠٠ من الجنود ورجال القوات الجوية داخل محيط قدره سبعة أميال. وفى بغداد، أحاط كوردون من الشرطة العراقية بالسفارة البريطانية التى كان قد احتشد فيها أعداد غفيرة من المدنيين الأجانب والديبلوماسيين ومن بينهم السير كينان كورنواليس السفير البريطانى والذى كان قد وصل حديثا، والذى كان يعرف العراق منذ وقت طويل وكان قد وصل لتوه؛ وكذلك فريا ستارك، كاتبة الأسفار.

كان المفتى الأكبر، الموالى للنازية قد هرب من فلسطين وأُجبِر على مغادرة لبنان، ثم وجد ملاذا بالعراق. كان البرلمان العراقى بدعم من المفوضية الإيطالية قد وافق على منحه الأموال، ومكنه ذلك من أن يصبح مصدرا للمخططات المعادية للبريطانيين والصهاينة. (وفقا لوصف فريا ستارك له، بعد لقائهما ببغداد، فقد كان "رجلا شاب المظهر رغم بياض شعره، وسيماً، يرتدى عمامته وكأنها هالة نورانية، عيناه زرقاوان فاتحتان متألقتان، ويحيطه وهج وكأنما إبليس وقد هوى لتوه")(١). تسارعت بروباجندا الحرب حينما حاز ممثل ألمانيا الرئيسى وداعيتها المتحمس

(١) تُكال التهم للحاج أمين الحسينى وتشوه صورته ويصور على انه تجسيد للشيطان وذلك لتصديه للمؤامرة البريطانية الصهيونية للاستيلاء على فلسطين لحساب الصهاينة. الم يكن هذا من حقه؟ بل ويُحمد له؟ حينما التجا امين الحسينى طالبا المساعدة من الفاشيست والنازيين فلم يكن ذلك لإيمانه بمبادئهم بل لأنهم اعداء لإنجلترا وجيوشها التى ارتكبت من الجرائم والمذابح ما ارتكبته فى حق الثوار الفلسطينيين والعراقيين باعتراف الكاتبيْن. هذا علاوة إلى ان عددا من المفكرين والأدباء البريطانيين اعتنقوا الفاشية فى وقت ما، بل إن الشاعر البريطانى الشهير إزرا پاوند كان يبث إذاعات مؤيدة لهتلر، ولم تشوه صورة اى من هؤلاء، بل اعتبر ذلك إما حرية راى، او خطا ارتكب نتيجة التضليل!! الم يتعاون الصهاينة انفسهم مع النازيين لتحويل ممتلكات اليهود الألمان إلى فلسطين والسماح بالهجرة كما هو مثبت بالوثائق؟ (الترجمة).

فريتز جروبا على صحيفة العالم العربى التى نشرت ترجمة عربية لكتاب هتلر "كفاحى" على حلقات. بث راديو برلين "أدلة" على أن البريطانيين دسّوا السم لفيصل الأول ثم قتلوا ابنه غازى.

كان وضعا محفوفا بالمخاطر بالنسبة للبريطانيين: إذا فقدوا العراق، فقد تقف إيران وأفغانستان إلى جانب دول المحور، ويصبح من المحتمل لبريطانيا أن تواجه ثورة بالهند، هذا علاوة إلى أن الرابطة الجوية الحيوية بين مصر والهند قد تُقطع وتتعرض إمدادات البريطانيين من النفط للأخطار. حث وايفل والسفير كورنواليس على التفاوض مع رشيد على، بل إن كورنواليس حتى اقترح الاعتراف بالحكومة العراقية الجديدة كأمر واقع لخشيته من أن أية عملية تُستخدم فيها القوة قد يُنظر إليها على أنها اعتداء على استقلال العراق "وأنه من المحتمل جدا أن بإمكانه [رشيد على] إثارة ذلك الشعب المتعصب عديم التفكير ضدنا". ذكَّر وايفل، وفى مواجهة الوضع المتدهور بشمال إفريقيا، تشرشل بتحذيراته ضد التورط فى العراق، وأقسم "أنه بغير الإمكان وصول أية مساعدات من فلسطين إلى العراق فى الأوضاع الحالية.. إن قواتى تمددت إلى حدها الأقصى فى جميع الأماكن، وببساطة لا أستطيع تحمل المخاطرة ببعضها فى عمل لا يمكن أن يكون له تأثير". رد تشرشل الذى لم يقتنع قائلاً: "من الأمور بالغة الأهمية أن نفعل كل ما فى وسعنا لإنقاذ الحبانية والتحكم فى خط الأنابيب إلى البحر المتوسط". لكن وايفل المتشائم مضى يصر عن أنه حتى إذا تمكنت قواته المجهدة من إنقاذ قاعدة الحبانية فلن تتمكن من دخول بغداد أو التحكم فى العراق. كان وايفل يرى أنه من المحتمل للتدخل حفز انتفاضة عربية بما لهذا من عواقب عسكرية رهيبة "سيكون لها ارتدادات فى فلسطين، عدن، اليمن، مصر وسوريا الأمر الذى قد يتطلب نسبة كبيرة جدا من قواتى للحفاظ على النظام الداخلى".

لكن تشرشل، الذى دعمته حكومة الهند، وأيضاً أوتشينلك القائد العام للقوات

المسلحة، انتصر لرأيه. وافق وايفل على نقل كتيبة من فلسطين. تم استدعاء جلوب إلى القدس للقاء ضابط القيادة فى فلسطين والأردن الجنرال السير هنرى ويلسون، والذى كان معروفا باسم "چامبو" وكان قد وصل حديثا بعد الهزيمة الكارثية فى اليونان. كان تعداد الفيلق قد بلغ حوالى ١٦٠٠ جندى، وكان، مع دعم بريطانيا اللوجستى له، القوة العربية المقاتلة الرئيسية. حينما نوقشت خطط "قوة الحبانية" التى كان من المفترض أن تنقذ القاعدة الجوية، سأل ويلسون جلوب "هل سيقاتل الفيلق العربى؟"، طمأنه جلوب. وبالتقابل، فإن قوة شرق الأردن الحدودية التى كان يقودها ضباط بريطانيون ويمولها البريطانيون أعلنت العصيان: رفضت إحدى فرقها عبور الحدود، وتآمر سبعة من ضباط الصف للاستيلاء على السلاح ومحاربة البريطانيين، بزعم أنه "لا يوجد بيننا وبين العراقيين أى نزاع وأن البريطانيين يجعلون الآخرين يحاربون نيابة عنهم"[١]. تجمعت "قوة الحبانية"، وكان قوامها حوالى ٦٠٠٠ جندى، فرقة فرسان ملكية بأسلحة آلية، وكتيبة من فرقة إسكس، وبطارية مدفعية ميدانية، وسرية من الشاحنات تحمل الإمدادات، تجمعت لدى H4 مستودع شركة نفط العراق بالصحراء الأردنية، بهدف القيام بما أعتُقِد محليا أنها عملية محكوم عليها بالفشل: التقدم إلى بغداد للإطاحة برشيد على. رافق قوة الحبانية ثلاثمائة وخمسون رجلاً من كتيبة الفيلق العربى بأسلحتهم الآلية. حُمِّلوا فى شاحنات مفتوحة ماركة فورد مجهزة بمدافع ماركة لويس من الحرب العالمية الأولى، وأيضا فى أربع سيارات مصفحة محلية الصنع.

كان "فتيات جلوب" – هكذا أسماهم البريطانيون بسبب شعورهم الطويلة السوداء المعقوصة، وثيابهم الفضفاضة– يحملون البنادق والرماح، ولم يكن لديهم مدفعية أو هاونات (كان ضمن بنود معاهدة ١٩٣٠ التى تسببت فى رجحان كفة القوات العراقية، بند اقتضى أن تكون تجهيزات القوات المسلحة العراقية مماثلة

(١) وهذا موقف كان يجب الإشادة به لا إدانته. (الترجمة)

لتجهيزات القوات البريطانية مما كان يعنى أن يواجه جنود الفيلق بأسلحتهم التى عفا عليها الزمن القوات العراقية المسلحة بأحدث مدافع بيرن الآلية). قامت قوة الحبانية، وقد أعاقتها وسائل النقل غير الكافية، بمصادرة سيارات، وشاحنات وسائقين مدنيين غاضبين من فلسطين. ذكر كيركبرايد، أنه لدى تعطل إحدى المركبات، كان يتم دفعها إلى جانب الطريق وتركها هناك. ووفقا للتقديرات الاستخبارية، واجه الفيلق أربع فرق، أو حوالى ستين ألف عراقى. اتخذت إحدى الفرق موقعها شمال العاصمة للدفاع عن حقول النفط فى محيط كركوك؛ وشكلت أخرى طوقا حول الحاميات البريطانية بالبصرة، أما الاثنتان الأخيرتان فَوُضعتا لحراسة مطار الحبانية وبغداد. ونظرا لإلمامه المتمكن بالسياسات القبلية العراقية، استطاع جلوب حفز ثورة داخل العراق فى وجود الفيلق يخدمه كمرافق وحارس له. كان قد تبنى طويلا فكرة القوة غير النظامية - قوة صغيرة، مدربة، ذات دوافع حماسية مسيطرة - يمكن أن تنتشر بسرعة كبيرة للقيام بعمليات فدائية؛ وحانت له الفرصة لإثبات فكرته. لكن كان على جلوب أن يتغلب أولا على تحيزات بريجادير (قائد) الفرقة. كان القائد جيه. چيه. كينجستون قد تمتم قائلا لضابط مخابراته الكابتن سومرست دوتشير، والذى كان أيضا عضو البرلمان عن حزب المحافظين قائلا عن جلوب "هذا الرجل يعتقد أنه ملك السعودية. سأتخلص منه بمجرد أن نغادر هذا المكان. لكن المشكلة، أننى لا أدرى إن كان أعلى منى رتبة أم لا". أكد جلوب لكينجستون أنه لم يكن حتى ضابطا بالجيش البريطانى، بل كان مدنياً، وحيئنذ استطاع الاثنان التعاون عن كثب (على الرغم من شكوك جلوب أن السبب فى إرسال رجال فيلقه فى المقدمة، كان بأمل القضاء عليهم).

عبَر رجال الفيلق العربى الحدود العراقية ووصلوا إلى قلعة الرطبة الضخمة فى ٥ مايو. وبعد أن وجدوا دفاعات القلعة قوية، انسحبوا فى نفس اللحظة التى ظهرت قوة آليات عراقية دعمت حامية القلعة، لكن القوات الجوية الملكية قصفت القلعة بنجاح ليلا وأجبرت العراقيين على تركها واحتلت قوة الحبانية قلعة الرطبة فى ١١

مايو. حينما وصلت القوة البريطانية الرئيسية فى المساء التالى، تم الاتفاق على ترك مائة من مقاتلى الفيلق كحامية بالرطبة، فيما يرافق الباقى وعددهم ٢٥٠ جندى رتلاً يُدعى "كينجكول" على اسم قائده، ومعا يمضون قدما لتحرير الحبانية.

فى ١٣ مايو، غادر الرتل الرطبة إلى الحبانية وكان الفيلق العربى فى المقدمة. لكن حينما وصل مقاتلو الفيلق على مسافة مرمى البصر من بحيرة الحبانية لم يكن ثمة أثر لسرب كينجكول. استاء جلوب حينما وجد أن الجيش كان مغروزا فى رمال الصحراء لأن ضباطه، كما كان قد خشى، كان لديهم "النزوع القاتل" للاعتماد على بوصلاتهم بحرْفية مفرطة. اضطلع رجال الفيلق العربى، وكان بعضهم من أهالى العراق، بمهمة إنقاذ رتل الجنود. كتب دوتشير يقول فى كتابه "السجادة الذهبية".

"كانت الصحراء بيئتهم الطبيعية يعرفونها بالفطرة، وكانوا يجوبون فى أنحائها وهم يهرولون فى دوائر حولنا وكأنما هم مدمرات ترشد قافلة من السفن الكبيرة؛ كثيرا ما يختفون من آفاقنا القاسية المحددة ليعودوا للظهور فجأة من اتجاه غير متوقع". قاد رجال جلوب القوات فى أنحاء الحبانية ليجدوا أن الحصار كان قد رُفع فى ٦ مايو حينما أصاب الجيش العراقى الذعر نتيجة مدفعية وقنابل القوات الجوية الملكية، ولأن دعم دول المحور لم يصلهم، فقد انسحبوا إلى الفلوجة.

وعلى الرغم من أن الفيلق لم يتكبد سوى إصابتين (تعرضا لإطلاق النيران من مدافع ألمانية) فقد وصلت التقارير إلى الصحف البريطانية والأمريكية فى منتصف مايو بأن الرجل الذى يدعى "لورانس العرب الثانى" قد قُتِل فى العمليات. وفيما بعد ذكرت التقارير أنه جُرِح فى اشتباكات مع العراقيين ثم زال عجب جلوب حينما تبين أن تلك التقارير كانت معلومات مضلّلة نُسبت إلى رشيد على.

وفيما بقيت القوة الرئيسية بالحبانية، تم نشر الفيلق العربى بطول الطريق بين دجلة والفرات حتى سمراء شمالا والكاظمية (من ضواحى بغداد اليوم) جنوبا. استولى رجال جلوب على محطة السكك الحديدية بالمشاهيدة وقطعوا خط سكك

حديد بغداد الموصل وخطوط الهاتف لمنع الإمدادات والأسلحة من الوصول إلى العاصمة. بدأ التقدم النهائى إلى بغداد فى ٢٧ مايو بتحرك الفيلق من الشمال ورتلين بريطانيين من الغرب والجنوب. وبعد يوم من هذا التاريخ أسَر رجال الفيلق حاكم بغداد المتمرد، ونظرا لعدم وجود تعليمات لديهم، وضعوه فى قارب على مياه نهر دجلة. فى ٣٠ مايو، فاتح عمدة المدينة والضباط المتمردون السفارة البريطانية بطلب هدنة. وخشية منهم من تطويق العاصمة، فرَّ رشيد على والموفدون الإيطاليون والألمان ومعهم الحاج أمين الحسينى إلى إيران. تم توقيع اتفاقية هدنة، صاغها جلوب جزئيا، نص البند الثانى بالاتفاقية على السماح "للجيش العراقى بالاحتفاظ بجميع أسلحته وتجهيزاته وذخيرته".

حينما وصلت عمّان أنباء استيلاء البريطانيين على بغداد، عاد الوصى على العرش ونورى السعيد رئيس الوزراء العراقى الموالى دائما لبريطانيا. فى ١ يونيو، وفيما كان الفيلق المنتصر يعد نفسه للرحيل إلى شرق الأردن كان اليهود يحتفلون بعيد الشاقوت. هاجم الدهماء مجموعة منهم كانت تعبر جسر الخور ببغداد. وكما حدث فى دمشق عام ١٩١٨ وفى بغداد عام ٢٠٠٣ فشلت قوات الاحتلال فى الحفاظ على الأمن بالمدينة. (قيل) إن وايفل الذى كان مازال يتولى القيادة ساوره القلق من أن يبدو جيش الاحتلال وكأنه ينتهك استقلال العراق(!!)[١]. وخشى ضباطه من القتال فى الشوارع الضيقة. نتيجة لهذا، ظل البريطانيون على الضفة اليمنى لدجلة حيث كانت تقع السفارة البريطانية. يزعم سومرست دو تشير قائد قوة الحبانية فى سرده للحملة العراقية بكتاب "السجادة الذهبية" أن التعليمات بالبقاء خارج بغداد أتت من وزارة الخارجية: "نفذت تعليماتهم من ساعةِ وقف إطلاق النار. فبعد أن قاتلنا وشققنا طريقنا خطوة خطوة إلى أعتاب المدينة، كان علينا الانتظار خارجها. كان من الواضح أن الوصى على العرش، حليفنا، إذا شوهد مدعوما بالحراب

(١) اى استقلال هذا والعراق محتل؟ ما اشبه الليلة بالبارحة (الترجمة).

البريطانية لدى وصوله، فإن هذا سيعمل على تدنى هيبته وكرامته". وفى غياب أية حكومة ببغداد مضى مثيرو الشغب، وكان الكثيرون منهم من الجيش والشرطة العراقيين، ينهبون الأحياء اليهودية بالمدينة ومحلاتهم بشارع الرشيد.

وأخيرا تم فرض حظر التجول، لكن أعمال العنف كانت قد استمرت يومين. حدثت أسوأ أعمال النهب فى اليوم الثانى حيث عبرت حشود البدو الجسور غير المتحكم بها من غرب بغداد. جاء بتعليق لفريا ستارك أن القوات البريطانية "كانت حريصة على عدم دخول المدينة إلا إذا تمت دعوتهم، كما حرصت قوات فرض القانون العراقية على كسب معركتهم دونما مساعدة". وهكذا تم الحفاظ على الزعم بأن البريطانيين لم يهزموا الجيش العراقى وأن الوصى على العرش "سيعود لاستئناف مهام سلطته الشرعية التى قوطعت مؤقتا من قبل حفنة من المتآمرين الذين ولوا هاربين". وقبل أن يفرض الوصى على العرش حظر التجول، كان حوالى سبعمائة عراقى، معظمهم من اليهود وقلة قليلة من المسيحيين قد قتلوا وأصيب آخرون لا حصر لهم[1] كانت إحدى نتائج أعمال العنف هى تأكيد ظن العراقيين أنها قد تم تدبيرها من قبل البريطانيين الخبثاء غير الجديرين بالثقة لتحقيق نوايا شيطانية؛ إذ بدا من غير المتصوَّر أن يسمح رجال لهم من الخبرة ما لدى وايفل وكورنواليس بوقوع مثل هذا الهجوم على اليهود. كانت تلك الأعمال إيذانا بالتدمير الشامل بعد عام ١٩٤٨ لأكبر جالية يهودية وأقدمها فى الشرق الأوسط العربى.

وعلى الرغم من أن جنود الفيلق لم يلقوا سوى القليل من المقاومة ولم يتكبدوا

---

(١) لا يذكر المؤلفان ان أيا من المسلمين قد قتل او اصيب وهذا عكس الواقع. كما ان إقحام المسيحيين هنا لا يخلو من هدف ليس بالبرئ. ويُغفل المؤلفان تماما اسباب الهجوم على "اليهود" الذين كانوا قد ظلوا يعيشون بأمان حتى تدخل البريطانيين. لنا ان نقارن هذا بأعمال العنف الطائفية والعراقية التى ارتكبت ومازالت ترتكب فى العراق بعد الاحتلال الأمريكى. (الترجمة)

سوى إصابات خفيفة، فقد رأى قائدهم أنهم "إن لم يكونوا موجودين، ما تم الاستيلاء على بغداد". كان جلوب يزعم باستمرار بأنه يتجنب السياسة، لكن آراءه حول النظام الملكى الذى فرضه البريطانيون على العراق، كما عبر عنها فى تقرير كتبه لوزارة المستعمرات، كانت قاسية:

"وهكذا، استطاعت مجموعة صغيرة من السياسيين احتكار المناصب طوال خمسة عشر عاما تقريبا. كان كل مجلس وزراء يضم نفس المجموعة القديمة التى تتبادل المقاعد مع كل تغيير حكومى. وأثناء تلك العملية أثروا ثراء فاحشا، وأصبح غالبيتهم ملاكا لضيعات وأراض شاسعة على حساب الفلاحين وصغار المزارعين الذين أصبحوا أُجراء زراعيين لدى كبار السياسيين بعد أن كانوا من صغار المستأجرين والملاك المستقلين. وفى تلك الأثناء، استعار هؤلاء السياسيون مصطلحات الديمقراطية ورطانتها من إنجلترا وأمريكا، كما تحكموا أيضا بالصحافة والإذاعة.. من ثم، فالبنسبة للمراقب غير الخبير، تركت العراق الانطباع بأنها ديمقراطية نموذجية صغيرة فاعلة. أما على أرض الواقع فقد مضت عصابة من المرتزقة السياسيين المبتذلين تعزف نفس النغمات النشاز القديمة وتتسول بها على الأرغن الديمقراطى، فيما اشتغل عامة الناس، الذين تملكتهم اللامبالاة وقدر من الحنق نتيجة لتلك الضوضاء المتنافرة، انشغلوا فقط بكسب رزقهم وقوت يومهم".

كانت بغداد هى أولى المدن الكبرى التى سقطت فى يد البريطانيين بعد الجلاء عن دنكيرك، وأتى احتفاء فريا ستارك بتحرير السفارة متمثلا فى شراء ثلاث قبعات جديدة حيث بدت حملة العراق "نقطة تحول فى الحرب شرق الأوسطية". بعث جلوب بتقارير عن نجاحات الفيلق وإصاباته الخفيفة إلى عبدالله الذى ابتهج ثم عبر الفيلق الصحراء السورية ليحاصر القلعة الواقعة على أطلال مدينة بالميرا (تدمر) الرومانية. استسلمت الحكومة التابعة لڤيشى فى دمشق فى ١١ يوليو، واستولى الفرنسيون الأحرار الموالون لديجول على السلطة مما أحيا آمال عبدالله مرة أخرى فى أن يصبح ملك سوريا العظمى.

وصف دوتشير فى كتابه "السجادة الذهبية" إسهام جلوب بأنه حاسم، وكتب يقول "إن أسطورة جلوب متجذرة بثبات فى قلوب البدو أكثر من أسطورة لورانس.. كان اسم لورانس اسما ذا تأثير واسع فى الشرق الأدنى، أما اسم أبوحنيك فقد تم تقبله على أنه أمر واقع ثابت كالشرق الأدنى نفسه". حرم انتصار بريطانيا فى العراق هتلَر من الوصول إلى الجزء الشرقى من الشرق الأوسط وأيضا من النفط العراقى والإيرانى. كتب جلوب يقول "لو تمكنت قبضة الألمان من العراق لأصبح الأمر مسألة وقت فقط، بل ووقت قصير أيضا قبل أن يغزو شرق الأردن وفلسطين، ثم يتقدموا إلى مصر شرقا فيما كان روميل يهاجمها غربا. لم تكن لدينا أية فكرة آنذاك أن ألمانيا ستهاجم روسيا بعد بضعة أسابيع، وأن أنهارا من الذخائر والمؤن ستتدفق بطول طريق حيفا/بغداد ومن الخليج الفارسى ثم إلى البصرة لنجدة حليفنا (السوفييت) فى مأزقهم وسد حاجتهم".

فى تقريره عن "حرب الثلاثين يوما" أمام مجلس العموم، حيث بلغ مجموع القتلى البريطانيين أربعة وثلاثين فقط (مقارنة بحملة ما بين النهرين فى الحرب العالمية الأولى التى استغرقت ثلاث سنوات وكانت كلفتها حوالى مائة ألف قتيل أنجلو/هندى) عظّم تشرشل من شأن ذلك النصر إلى الدرجة القصوى:

"لو أن أحداً قد تنبأ منذ شهرين حينما كان العراق فى ثورة، وكان أناسنا فى مأزق خطر، وعلى شفا الموت بالحبانية وسفيرنا معتقلا فى سفارتنا ببغداد، وحينما اجتاح السياح الألمان جميع أنحاء سوريا والعراق اللتين كانتا فى أيدى قوات تتحكم فيها السلطة الألمانية بأسلوب غير مباشر وإن لم يكن أقل سطوة - لو أن أى أحد تنبأ أنه بحلول منتصف يوليو (بعد الاستيلاء على سوريا) سنكون بالفعل قد نظفنا الشام بأكمله وحققنا هذا الانتصار الكبير، وأعدنا ترسيخ سلطتنا هناك لأجل، لاعتُبر مثل هذا النّبى مفرط الحماقة".

بعد أن اهتزت ثقة تشرشل فى وايفل، عين أو تشينلك مكانه فى يونيو. أقام رشيد على مؤقتا بالسعودية. واستمر الحاج أمين الحسينى المفتى فى ترحاله، ونزل

ضيفا فى برلين كموظف فى وزارة الخارجية حيث قام بتجنيد المتطوعين العرب فى صفوف الألمان حتى سقوط الرايخ الثالث. وحينما عاد نورى السعيد إلى السلطة تم إعدام الكولونيلات الأربعة الذين خططوا للانقلاب، ثم تطهير الجيش والشرطة من مئات عدة من الضباط المتمردين وكان بينهم خير الله الذى، وبعد قضاء خمس سنوات بالسجن، عاد إلى العوجة، قريته الواقعة بالقرب من تكريت. أصبح خير الله ناظر مدرسة وربى ابن شقيقته صبحة وكان فى العاشرة من عمره واسمه صدام حسين. (بعد أعوام، قام صدام، الذى لم يكن أبدا عاطفيا، بخلع خاله عن منصبه كعمدة بغداد متهما إياه بالفساد).

وعلى سبيل المكافأة لها على ولائها أثناء الحرب، مُنِحت الأردن استقلالها الرسمى عام ١٩٤٦، استقلالا كلّلته معاهدة تحالف جديدة مع البريطانيين الذين تلقوا تسهيلات عسكرية واسعة (بالأردن) ومرة أخرى، أُحبط أمل عبدالله فى إقامة سوريا العظمى الموحدة (رأى تشرشل أنه إذا كان للبلاد العربية أن تُوحّد فمن الأفضل أن يتم هذا تحت لواء ابن سعود). فى ٢٤ مايو، ازدحمت الطرق المؤدية إلى عمان بالجمال والحمير والسيارات. ذُبِحت مئات الأغنام لولائم دامت ثلاثة أيام. تنافست طلقات المدافع الاحتفالية مع رنين أجراس الكنائس وأصوات الآذان من على المآذن. توج عبدالله نفسه، وهو يرتدى العباءة وغطاء الرأس العربيين بصفته "الملك عبدالله بن الحسين" ملك المملكة الأردنية الهاشمية.

وبعد مراسم القصر، استعرض عبدالله الفيلق العربى - فرقة الهجانة، الفرسان، وفرقة مزودة بمدافع الميدان الآلية - بمرافقة موسيقى القرب وآلات النفخ النحاسية. وإلى جانب الملك، وقف البريجادير جلوب مرتديا بزة عسكرية صيفية، وخوذة، وسيفا. وفيما بعد أقام وليمة ضخمة لمليكه ولكبار الزوار.

لم يلاحظ سوى القليلين أن السلام الوطنى الذى أُعدّ سريعا لحفل التتويج

وسُمِع وسط أنغام موسيقى القرب كان يبدو، وبأسلوب مثير للشكوك، مثيلا للسلام الوطنى الإنجليزى "ليحمى الله الملك". وحتى حينما انتهى الانتداب، استمر أبناء الحكام الهاشميين يتحدثون الإنجليزية بلكنة خريجى كلية هارو، ويتلقون تدريبهم الإلزامى كضباط فى الأكاديمية العسكرية الملكية بساندهيرست. أيضا، مضوا حتى الآن يستعرضون ولعهم بالسيارات السريعة والطائرات، ويشعرون بالألفة وهم يرتدون البذلات الإنجليزية من الماركات الراقية الشهيرة والأزياء العسكرية بأكثر مما يشعرون به وهم يرتدون الثياب العربية. بعد أن أصبح عبدالله ملكا بأسلوب رسمى وشكلى، كتب السير أليك كيركبرايد مستاءً "لقد أمسك، تدريجيا، بالسلطة بدرجة لا تكاد تتسق مع وضع شرق الأردن كمملكة دستورية"

فى انتخابات عامة غير متكافئة أجريت عام ١٩٤٥، تولت حكومة عمالية بقيادة كملنت أتلى السلطة فى بريطانيا الحرب، مما تسبب فى دهشة عارمة. كانت استراتيجيتها المبدئية بالنسبة لفلسطين هى تحاشى التقسيم وإقامة دولة ثنائية القومية تضمن الحقوق السياسية والاقتصادية للأقلية اليهودية فى ظل بلد عربى. كانت تلك الخطة مناسبة لعبدالله طالما أصبح هو ملكا، لكنها كانت غير مقبولة للصهاينة. وعلى الرغم من التزامه بالوفاء بتعهد بريطانيا، إلا أن وزير الخارجية إرنست بيڤن ومعه كثير من مواطنيه بمن فيهم چرترود بِل كانوا يعتقدون أن وعد بلفور كان "أعظم خطأ فى التاريخ الإمبريالى". بلغت عمليات الصهاينة الإرهابية ذروتها فى ٢٢ يوليو ١٩٤٦ بتفجير فندق الملك دايڤيد (داود) رمز الحكم البريطانى وقُتل فى العملية واحد وتسعون بريطانيا وعربيا ويهوديا. (فيما بعد، تباهى مناحم بيجن، قائد (عصابة) الأرجون قائلا لجولدا مائير "لقد ابتدعنا أسلوب حرب عصابات المدن").

كان بيڤن يدرك الأثر المدمر (لصورة بريطانيا) وهى تبدو وكأنها تشن حربا على الناجين من الهلوكوست من خلال نشرها قوة من مائة ألف جندى - عُشر عدد

القوات المسلحة البريطانية بأكملها - للدفاع عن مساحة لا تتجاوز مساحة منطقة ويلز البريطانية. أيضا، كان بحاجة إلى قروض أمريكا وتعاونها في هذا، لكن ترومان انحاز للصهاينة. كما أنه كان يتودد إلى الناخبين اليهود، إذ كانت لا تفصله عن الانتخابات سوى سنة واحدة. (أما وزارة الخارجية، ومدير قسم شئون الشرق الأدنى والشئون الإفريقية بها، روى هندرسون، فقد ثبتوا فى موقفهم المؤيد للعرب بسبب قلقهم على إمدادات النفط). وأخيرا، وبعد أن كبله اقتصاد بريطانيا الذى أُضعف بعد الحرب، والتعامل مع المطالبات باستقلال الهند، ومواجهة التهديد السوفييتى فى اليونان وتركيا، خضع بيفن للضغوط الصهيونية والأمريكية وأحال المشكلة إلى الأمم المتحدة.

من جانبه، سعى عبدالله لتوسيع حجم مملكته من خلال ضم أجزاء من فلسطين مجاورة للأردن. فضل الصهاينة مملكة مجاورة موسعة وصديقة فى أن على وجود فلسطين عربية مستقلة يرأسها قائد معادٍ - ربما المفتى نفسه. تقاسم عبدالله آراءه، بمساندة من جلوب وكيركبرايد، بأسلوب غير رسمى، مع الوكالة اليهودية، ذلك الكيان الذى كان قد مضى يُجرى مفاوضات سرية مع عبدالله منذ ثلاثينيات القرن العشرين.

فى ٢٩ نوفمبر عام ١٩٤٧، صوتت الجمعية العامة للأمم المتحدة، مع اتفاق غير معهود بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى، على قرار تقسيم فلسطين إلى قسم عربى وآخر يهودى، مع وضع القدس الكبرى تحت التحكم الدولى. كانت مصر، والعراق، ولبنان، والسعودية، وسوريا واليمن بين الدول الثلاث عشرة التى رفضت القرار. شجب المتشددون من العرب ومن عصابة الأرجون، والذين كانوا يعارضون أية تسويات أو تنازلات، القرار. وفيما شكل فيما بعد سابقة بائسة، لم ترسل الأمم المتحدة قوة دولية لتفعيل قرارها. ومن جانبهم، لم يعمل البريطانيون على نقل السلطة بطريقة نظامية بل عجّلوا بسحب قواتهم من فلسطين وتركوا العرب والصهاينة يواجهون بعضهم.

وسرعان ما اشتعلت الحرب "الأهلية" بعد تبنى الأمم المتحدة القرار مباشرة، وتصاعدت فى الأشهر الأخيرة للانتداب. فى ديسمبر، وبعد عودة المفتى من ألمانيا إلى الشرق الأوسط، أرسل كتيبة فدائيين - رائدة جيش التحرير العربى - إلى فلسطين بأوامر بالتحكم فى طريق القدس/ تل أبيب والاستيلاء عليه، وكان العرب يأملون أن ينطلقوا من هناك لاجتياح المنطقة اليهودية. تبع ذلك وقوع قتلى كثيرين فيما كانت قوافل المركبات اليهودية تُهاجم، لكن الخطة فشلت واستولى الصهاينة بدورهم على جزء كبير من الأراضى العربية. وفى تلك الأثناء شنت عصابة الأرجون بقيادة مناحم بيجن وعصابة شتيرن بقيادة إسحق شامير حملة وحشية تضمنت اختطاف جنود بريطانيين وشنقهم، وارتكاب مذبحة دير ياسين فى يومى ٩ و١٠ إبريل، التى قتل فيها ٢٤٥ فلسطينى غالبيتهم من المسنين، والنساء والأطفال، وذبحهم وتشويه جثثهم.

وفى فبراير عام ١٩٤٨، التقى وفد أردنى رفيع المستوى فى لندن بوزير الخارجية بيڤن لتوضيح ترتيبات المعاهدة مع بريطانيا. رافق جلوب، الذى كان قد أصبح مؤيدا للتقسيم، الوفد بصفته مستشاره العسكرى. طلب توفيق أبو الهدى، رئيس الوزراء الأردنى لقاء خاصا بوزارة الخارجية مع وزير الخارجية فى يوم ٧ فبراير الساعة الحادية عشرة والنصف، استُبعد منه وزير الخارجية الأردنى. وافق بيڤن، فى حضور جلوب الذى كان يقوم بالترجمة بين الطرفين، على الخطة الصهيونية/الأردنية التى تقضى بسيطرة الفيلق العربى على الضفة الغربية للحفاظ على النظام والقانون. ووفقا لرواية جلوب فقد علّق بيڤن بالقول "يبدو هذا هو الشىء الواضح الذى يجب فعله، لكن لا تذهبوا وتحتاجوا مناطق مخصصة لليهود".

فى ١٣ مايو، وصل عزام باشا، أمين عام الجامعة العربية (التى كانت قد تشكلت عام ١٩٤٥) إلى عمان لإبلاغ الأردنيين أن الجامعة العربية قررت الحرب وأن المصريين سيجتاحون فلسطين، ويبطلون بذلك اتفاقية التقسيم المزعومة التى

عقدها عبدالله مع الدولة اليهودية. وفى ذات المساء، وبناء على أوامره سحب جلوب جنوده من القدس، الأمر الذى حفز فيما بعد اتهامات العرب له بأنه ترك المدينة "تحت رحمة العصابات الصهيونية" وبأن "الفيلق العربى هو كتيبة بريطانية فى قلب العالم العربى". وفى منتصف ليلة ١٤- ١٥ مايو، سحب الملك عبدالله مسدسه وأطلق "رصاص رمزية" فى الهواء فيما كان رتل طويل من جنود الفيلق يعبرون جسر أللنبى ليحتلوا الضفة الغربية الفلسطينية. رحل البريطانيون فى اليوم ذاته، وفى تل أبيب، أعلنت حكومة مؤقتة برئاسة دايڤيد بن جوريون، قيام دولة إسرائيل. وقبل انتهاء اليوم، منح الرئيس ترومان الدولة اليهودية اعترافا بصفتها أمرا واقعا، وتبعه السوڤييت. ثم اجتاحت خمس جيوش عربية دولة إسرائيل الوليدة، مصر من غزة، والعراقيون من الضفة الغربية (يهود والسامرة!)، (هذا على الرغم من أنهم ومثل الأردنيين حرصوا بعناية على عدم عبور المناطق التى حددتها الأمم المتحدة لليهود). دخلت وحدات رمزية سورية إلى الجليل (وحرك اللبنانيون قواتهم إلى حدودهم). وفقط حينما أصبح من الواضح أن الإسرائيليين عازمون على احتلال القدس فى انتهاك منهم لقرار الأمم المتحدة بوصفها تحت تحكم دولى، وبناء على أوامر عبدالله المتكررة التى أصدرها بعد صلاة الاستخارة، قاد جلوب، على مضض، ثلاثمائة رجل إلى داخل المدينة القديمة.

وبعد شهر من القتال الضارى ضد قوات "الدفاع" الإسرائيلية، التى كانت سابقا عصابة الهاجاناة غير النظامية، استولى المصريون على النقب ووصل العراقيون إلى مسافة خمسة عشر ميلا من حيفا واحتلوا جزءا كبيرا من الجليل. وبعد قتال عنيف من حارة إلى حارة، استولى الفيلق العربى على القدس الشرقية. بعد ذلك، حرك جلوب ثلاث كتائب إلى اللطرون لاعتراض طريق تل أبيب/القدس، لكنه حرص كل الحرص على عدم الاشتباك مع قوات "الدفاع" الإسرائيلية فى مناطق خصصها قرار الأمم المتحدة لليهود. (من جانبهم كان اليهود أقل حرصا فى

شنهم هجمات داخل المناطق المخصصة للعرب). وأثناء القتال، احترم البريطانيون والأمريكيون القرارات الدولية بحظر الأسلحة عن المنطقة فيما نقلت تشيكوسلوفاكيا الأسلحة والذخائر إلى إسرائيل بالطائرات. وغدا من الواضح بتزايد أن الجيوش العربية قليلة العدد والعتاد، غير المنظمة، المحبطة سيئة التجهيز والتسليح والإعداد لم تكن ندا للإسرائيليين المنظمين ذوى الأهداف والدوافع القوية الواضحة.

وبعد أشهر من القتال المتقطع الذى أثبت فيه الفيلق أنه أكثر الجيوش العربية فاعلية توسطت الأمم المتحدة فى التوصل إلى اتفاقية هدنة فى مطلع عام ١٩٤٤ وسّعت بها أراضى الأردن، مصر، وإسرائيل[١]، وقسمت القدس، وتركت أكثر من سبعين ألف فلسطينى مشردين بلا وطن. انسحب العراقيون، وواجه الأردنيون وحدهم الإسرائيليين بمحاذاة حدود طولها ثلاثمائة ميل. أُجبر الأردنيون، فى مواجهة التفوق الساحق لخصمهم، على الإذعان لطلبات إسرائيل وتنازلوا لها عن شريط من الأرض بمحاذاة البحر المتوسط، وعن اللد والرملة، مما عرض جلوب وعبدالله لكثير من النقد. هرب الفلسطينيون من يافا وحيفا ودُمّرت أكثر من خمسمائة من قراهم، وموررست عليهم عمليات التطهير العرقى[٢]، مما أشعل مزيدا من الغضب العربى الذى لا يهدأ. يسمى الفلسطينيون طردهم من موطنهم وموطن أسلافهم "النكبة".

كان جلوب يدرك جيدا أن ولاءه منقسم بين سيدين: المكتب الكولونيالى وعبدالله. كانت براجماتيته قد أفادته جيدا أثناء فترة الانتداب. أما الآن، فقط أصبح هو المصد الذى يتلقى الغضب المعادى للبريطانيين. وأثناء السنوات القليلة التالية تمكن

---

(١) لم تمنح اتفاقية الهدنة مصر والأردن ملكية الأراضى الفلسطينية بل الحق فقط فى إدارتها. اما إسرائيل فقد توسعت فى المناطق الفلسطينية (الترجمة).

(٢) هذه مغالطة اخرى فقد كان الاقتلاع قد بدا ونُفّذ قبل اتفاقية الهدنة بكثير واستمر بعدها نتيجة هجمات العصابات الصهيونية الإرهابية (الترجمة)

من الحفاظ على هدنة هشة، يقاتل ضد المغيرين الإسرائيليين على أراضى الأردن، وضد المتسللين العرب، لكن عبدالله أهمل الاهتمام بتحذيراته ضد إدماج فلسطينيى الضفة الغربية فى شرق الأردن. وأصبح اللاجئون الفلسطينيون يشكلون ٦٠٪ من رعايا عبدالله، وبعد عقد من الزمان، كتب جلوب، باكتئاب، يقول "أدخل اتحاد شرق الأردن مع فلسطين العربية سكانا جددا إلى البلد - سكانا تكبدوا ظلما مهولا نتيجة للسياسات الغربية. وتدريجيا، غُمِر سكان شرق الأردن الأصليون جزئيا، وتحللت صخرة الأردن باعتدالها الحكيم واستيعابها واسع الأفق للشرق والغرب، لتصبح فَيَضَاناً من الكراهية".

فى سنواته الأخيرة، غدا الملك عبدالله حاكما محبطا، إن لم يكن مهزوما. فقد فشل أن يصبح ملك سوريا العظمى أو حتى فلسطين الكبرى. لم يُعِد فتح الحجاز، إرث أجداده، ولم تتحقق آماله بتوحيد الأردن والعراق بعد وفاة فيصل. كان اليهود لا يثقون فيه، وغالبية العرب يبغضونه: كان الفلسطينيون فى المقدمة، لكن السعوديين، والمصريين، والسوريين واللبنانيين كانوا أعداءه أيضا. غادر الملك عمان يوم ٢١ يوليو ١٩٥١ ليصلى الجمعة فى الحرم الشريف بالمسجد الأقصى أقدس موقع لدى المسلمين بعد الحرمين المكى والمدنى. رافق عبدالله حفيده حسين. توسل كيركبرايد إلى الملك بعدم الذهاب إلى القدس لكنه رفض وقال له مثالا عربيا مفاده أنه حتى يحين الأجل لا أحد يستطيع أذيته، وإذا حان أجله لا يستطيع أحد حمايته. كان الجو متوترا فى عمان. كان بعض القوميين السوريين قد اغتالوا رئيس الوزراء اللبنانى السابق رياض الصلح منذ ثلاثة أيام وهو فى طريقه من القصر الأردنى إلى المطار. وكان عبدالله قد تلقى، قبل يومين، خطابا من مجهول يقسم فيه أنه وجلوب سيقتلان. وحينما سمع جلوب باحتمال أن يكون أحدهم قد تسلل عبر الحدود الإسرائيلية القريبة وأرسل بضع مئات من جنود الفيلق إلى القدس. وفى يوم الجمعة، قامت الكتيبة الملكية الهاشمية بمسح الطريق الذى سيمر به عبدالله من مقبرة والده حسين أعلى التل وحتى المسجد الأقصى.

وقبيل الظهر مباشرة وحينما تراجع حرس الملك الخاص خطوة إلى الوراء ليتيحوا لشيخ عجوز بالمسجد تقبيل يد عبدالله، قفز القاتل من وراء باب الدخول الضخم وأطلق على عبدالله الرصاص خلف أذنه اليمنى من على مسافة قريبة. كان القاتل فلسطينيا فى الحادية والعشرين يعمل صبيا لخياط وكان يرتبط بصلات عائلية مع أسرة المفتى. وفيما تدحرجت عمامة الملك على الأرض الرخامية انطلقت رصاصة ثانية ثم ارتدت عن وسام كان يرتديه الأمير حسين على صدره. قام أحد حراس الملك بإطلاق الرصاص على القاتل وأرداه قتيلا على الفور مع عبدالله. تملك الذعر من رجال الفيلق العربى، فى غياب جلوب، وأخذوا يطلقون النار عشوائيا. قُتل عشرون شخصا وجرح حوالى المائة. اتضح فيما بعد، أن عبدالله التل، أحد ضباط الفيلق العربى السابقين، وحاكم القدس العسكرى، وكان قد فر إلى القاهرة بعد محاولة انقلاب فاشلة، اتضح أنه هو من خطط لعملية الاغتيال بالقاهرة هو والدكتور موسى الحسينى شريكه الرئيسى، من أولاد عمومة المفتى من بعيد. عُقدت محكمة خاصة لمحاكمة عشرة رجال: برِّئ أربعة منهم وشُنق أربعة آخرون وحُكِم على عبدالله التل وموسى الحسينى غيابيا بالإعدام، لكن لم يكن بالإمكان استردادهما من مصر.

علق ونستون تشرشل وهو يرثيه "لقد فقد العرب مناصرا عظيما، وفقد اليهود صديقا كان من المحتمل له توفيق المصاعب، و... فقدنا نحن صديقا وحليفا مخلصا" خلف عبدالله ابنه الأمير طلال المريض نفسيا والذى حكم لعام واحد قبل أن يتنحى ثم خلفه حفيد عبدالله حسين، وكان فى السادسة عشرة ومازال طالبا بكلية هارو. لم يكن بوسع كيركبرايد أو جلوب إقامة علاقات وثيقة مع حسين كتلك التى كانوا قد تمتعوا بها مع عبدالله. ذكر جلوب أن "الضوء خبا من حياة كيرك بموت الملك"، لكن، فإن "سنواته الذهبية" (جلوب) انتهت أيضا بانتهاء حياة عبدالله.

●●●

فى الخمسينيات وُلِد فيلق عربى موسع من جديد وعُرِف باسم الجيش الأردنى

العربى الذى بلغ عدد جنوده حوالى عشرين ألف رجل. كان جلوب قد أمِل، بتفضيله البدو على الحضريين المُسيسين المتعلمين، فى تعقيم الجيش الأردنى ضد التدخلات الحكومية والمحسوبيات التى كانت قد أفسدت القوات المسلحة السورية والعراقية. والآن، كان الكثيرون من المجندين الجدد فلسطينيين ممن لا يُكنون ولاءً خاصا للملك. تمت زيادة عدد الضباط البريطانيين بالجيش الأردنى على الرغم من احتجاجات جلوب. كانت الخزانة البريطانية تدفع قيمة فواتير (الجيش الأردنى) مقابل احتفاظ البريطانيين بقواعد جوية هناك.

كان جلوب، كما وصفه ضابط بريطاني بالفيلق العربى، حِرباء، شخصا متلونا من الطراز الأول "لم يكن بالإمكان معرفة ما يدور فى ذهن جلوب أبدا.. كان عقله قد بدأ يعمل بالأسلوب العربى. كان يتعاطى بغموض وغير تحديد.. تعامل مع القصر الملكى كعربى، وكبدوى مع القبائل، وكضابط بريطانى مع لندن. وباستثناء جلوب، لم يكن ثمة من يعرف ما يحدث فعلا". شك العرب فى أنه منع تدخل الفيلق عام ١٩٤٨، والآن، اتهموه بعدم الاستجابة كما يجب لغارات إسرائيل على قرى الأردن الحدودية. فى إبريل عام ١٩٤٨، قام أحد السوريين بزرع قنبلة خارج منزله مما أدى إلى جرح زوجته روزمارى، ومن ثم، أصبح الباشا يتحرك فى عمان بقافلة من سيارات الجيب. اعتقد اليهود أنه كان يعد لمسيرة إلى تل أبيب؛ وهددته عصابة الأرجون بالقتل.

وجد الصحفيون فى جلوب باشا مادة جيدة للنشر، ومن المحتمل جدا أن استعداده الدائم لتزويدهم بالبيانات وعقد المؤتمرات الصحفية أسهم فى سقوطه. خلعت عليه الصحافة لقب "ملك الأردن غير المتوج" وأيضا "لورانس الحديث"، مما أدى، دونما شك، إلى إثارة حفيظة الملك الشاب. كان الجيش قد أصبح الصناعة الرئيسية للأردن، وكانت مهارات الملك حسين العسكرية – درَس مُقَرر تدريبى مكثف بكلية ساندهيرست – هزيلة مقارنة بمهارات جلوب. زعمت "نكتة" إسرائيلية

تم تداولها آنذاك أن أول صوت نطقت به الأميرة علياء بعد مولدها كان "جلوب، جلوب، جلوب". رأى حسين أنه "طالما ظل جلوب يتحكم بالأردن، ستمضى الحكومة الأردنية تستشيره هو أو السفارة البريطانية حينما تواجه قرارا سياسيا مهما، قبل أن تستشير مليكها".

كان عبدالله قد وفر للأردنيين استقرارا وهميا. بعد اغتياله بثلاث سنوات، خشى جلوب من أن تصبح الأردن "مرة أخرى بلدا عربياً غير مستقر، يسوده الحماس العاطفى، ملطخاً بالدماء". اختلف حسين وجلوب حول الدفاع عن الضفة الغربية: فضل جلوب انسحابا عسكريا إلى أن تستطيع بريطانيا التدخل وفقا للواجبات التى تمليها عليها المعاهدة؛ ورفض حسين ذلك. قدم جلوب إلى حسين قائمة بأسماء ضباط من الجيش زعم أنهم "مخربون انقلابيون" غير موثوق بهم ويجب فصلهم؛ رفض حسين. وكما يقال، كان حسين يعتبر جلوب شخصا متعاليا، عجوزا، لا صلة له بالواقع، كما أن عدم استطاعة الباشا جذب مزيد من التجهيزات العسكرية البريطانية أحبط الملك. وفى ١٩٥٥، وفى محاولة من جانب بريطانيا تعزيز نفوذها الآفل فى الشرق الأوسط، حثت الأردن على الانضمام إلى تركيا، العراق، باكستان وإيران فى حلف بغداد (يعرف أيضا باسم CENTO أى Central Treaty Organization والذى كان ينظر إليه بعامة على أنه تحالف معادٍ للسوفييت ومعادٍ لمصر. شن الرئيس عبدالناصر، وقد استثاره السعوديون الذين كانوا يوزعون الرشاوى بسخاء على الأردنيين النافذين، حملة على الحلف، واتهم نورى السعيد بالخيانة لحساب "الإمبريالية والصهيونية". رفضت الأردن وسوريا الانضمام إلى الحلف.

انصاع حسين فى ١ مارس عام ١٩٥٦، فى وقت شهد ذروة الناصرية، وكانت فيه إذاعة القاهرة تبث بانتظام الهجمات على جلوب، الذى اتُهم حتى بأنه يترأس مؤامرة بريطانية للتحكم فى القوات المسلحة الأردنية، انصاع حسين للضغوط

القومية وقام بفصل جلوب ومعه عدد من كبار الضباط البريطانيين والأردنيين، وبدا الأمر وكأنما حسين قرر أن يسير فى ركاب ناصر. تم تغيير أزياء الفيلق العسكرية الجذابة وكأنما نكاية فى جلوب، وبدلا من الأثواب الفضفاضة والكوفيات الكاروهات ارتدى الجند الزى الكاكى وكابات الميدان. وحلت الدبابات والعربات المصفحة محل الخيول والجمال.

ولخشية حسين من حدوث انقسام فى الجيش وانقلاب محتمل من قبل مؤيدى جلوب من البدو، منح جلوب بضع ساعات يغادر بعدها البلد. أسرع جلوب بسيارة القصر إلى المطار ومعه عائلته و حقيبة ملابس واحدة وصورة موقعة للملك (عبدالله) حيث استقل طائرة خاصة إلى قبرص. ورغم أنه شعر بالإهانة العميقة من أسلوب طرده، إلا أنه سلك مسلك الجندى الصالح النموذجى. فى تصريح مقتضب للصحافة لدى وصوله إلى لندن، أكد جلوب على العلاقات الوثيقة التى تربط الأردن وبريطانيا وأعلن أن أخر ما يرغب فيه هو التسبب فى إضعاف تلك الصداقة. "لست مصدوما، مذهولا، أو غاضبا. لقد قضيت ما يربو على ثلاثين عاما فى خدمة ثلاثة أجيال من الأسرة الملكية الهاشمية.. وظللت أعامل دائما بأقصى درجات الكرم من قبل الأسرة الملكية، وليس لدىّ ما أشكو منه. كان لى شرف الخدمة لمدة ستة وعشرين عاما كضابط بالفيلق العربى لا أتردد فى القول إنه جيش صغير رائع، أتمنى له من كل قلبى كل نجاح فى المستقبل".

لدى سماعهم الأنباء ، رقص آلاف الفلسطينيين فى الشوارع.. اتهم تشارلس ديوك، سفير بريطانيا فى عمان الملك حسين بأنه طرَد جلوب وكأنه "خادم حرامى". تسببت المعاملة الفظة التى لقيها جلوب فى حالة من الغضب العارم فى بريطانيا، حيث رد رئيس الوزراء البريطانى أنطونى إيدن بسيل من البرقيات السريعة إلى عمان ينصح فيها حسين بأنه "لا يستطيع التنبؤ بعواقب هذا الفعل النهائية على العلاقات بين البلدين". وأمل إيدن، وقد ساورته الشكوك بدور لعبدالناصر فى

الموضوع، فى أن الأردن ستعيد النظر فى القرارات لكن حسين، وقد استغرق فى متعة التأييد والثناء العربى، رفض. حث جلوب السلطات البريطانية على توخى الحذر، وتم استدعاء كيركبرايد - الذى كان قد تقاعد - إلى مجلس الوزراء للتشاور فى الأمر. أشار عليهم بضبط النفس وقد خشى من احتمال الإطاحة بالملك.

فى ٢٦ يوليو ١٩٥٦، وأثناء حفل عشاء برئاسة مجلس الوزراء البريطانى أقيم على شرف الملك فيصل الثانى ملك العراق ورئيس وزرائه نورى السعيد، أُبلِغ إيدن أن عبدالناصر قد أمم قناة السويس. أمل نورى السعيد، وقد تملكه الغضب من عدم استشارة ناصر للعراقيين، أن تقوم بريطانيا بالثأر سريعا. انضم إيدن، الذى كان مازالت تؤلمه الضربات المتتابعة التى تلقاها من رجل كان يعتبره ديكتاتورا مغرورا مدّعيا، انضم إلى فرنسا فى مؤامرة للإطاحة بناصر، بمساعدة من إسرائيل. فشلت المؤامرة التى مثّلت أيضا نهاية هيمنة فرنسا وبريطانيا على الشرق الأوسط.

حينما اندلعت أعمال العنف المعادية للهاشميين والمؤازرة لناصر فى الموصل، النجف، الكوت وبغداد، فرض نورى السعيد الأحكام العرفية، وعلّق عمل البرلمان، وألقى بمئات من معارضيه فى السجون. بلغت الأمور ذروتها فى ١٤ يوليو ١٩٥٨ حينما حاصرت القوات الموالية لعبدالكريم قاسم والمسلحة بمدافع البازوكا والمدافع المضادة للدبابات الفيلا التى كانت تُتخذ قصرا ملكيا وأشعلوا فيها النيران. هربت العائلة الملكية إلى البدروم. أُمِر الوصى على العرش، وفيصل الثانى وبقية أفراد الأسرة الملكية بمغادرة البدروم والمدافع مصوبة إليهم، ثم أُعدِموا بإطلاق الرصاص عليهم. زحف نورى السعيد، الذى كان قد تولى رئاسة الوزراء أربع عشرة مرة، خارج منزله وهو متخفٍ فى زى امرأة. أبصر واحد من الحشود المتجمهرة بيجامته تحت زى التخفى. خُلِعت عنه ملابسه، وقتِل وأُخصِى، وقطعت أوصاله، وسحلت جثته بدون أطراف فى الشوارع خلف شاحنة. ووفقا للتقارير من

بغداد، فقد تم قتل جميع أفراد عائلة نورى السعيد بمن فيهم زوجته المصرية وطفلاه"(١).

يسجل جيمس موريس المشهد حينما تجمع الدهماء حول السفارة البريطانية، بجانب النهر والتى كانت حتى آنذاك كلية القوة والحضور "اندفعوا متخطين حراسها وداسوا بأقدامهم مساحات الحشائش الحبيبة، ونهبوا مكاتبها، وقتلوا قهرمانها الملكى، وحطموا تمثال الجنرال مود الذى كانت جيوشه قد طردت الأتراك من بغداد منذ أربعين عاما. التجأ السفير إلى غرفة بفندق قريب حيث زاول أعماله هناك، وقام سكرتيره بترتيب أمور السفارة جالسا على مكتب الاستقبال".

فى عام ١٩٦٧ تكبد العرب نكستهم الخاصة حينما هزمت إسرائيل هجوماً جماعياً من جيرانها العرب(٢). حثت إسرائيل الملك حسين على عدم دخول ما أصبح يعرف بحرب الأيام الستة. وبدلا من ذلك، انضم الجيش الأردنى إلى الجيش السورى والسعودى(٣) تحت لواء القيادة المصرية: وفى غضون ست وثلاثين ساعة، فقد حسين كل ما كان جلوب قد كسبه له عام ١٩٤٨. طرد الإسرائيليون الأردنيين خارج القدس الشرقية والضفة الغربية . كان عبدالله ووالده حسين الكبير قد طُردا من الحجاز؛ وفقد فيصل الأول سوريا، وفقد حفيده العراق. أما الملك حسين فقد فقد ضفة الأردن الشرقية.

---

(١) يسرد الكاتبان الواقعة وكأنما ما حدث هو نتيجة وحشية الشعب العراقى الذى استثارته إذاعات القاهرة وخطابات عبدالناصر. لا يذكران شيئًا عن نتائج الأحداث التى أدت إلى انتقام العراقيين من نورى السعيد والهاشميين، وما أوقعه هؤلاء بهم من مذلة وتبعية وقتل وسجن وتنكيل". (الترجمة)

(٢) مغالطة فجة أخرى، فلابد أن المؤلفين قد اطلعا على الوثائق التى أصبحت متاحة ومتداولة والتى تثبت أن الهجوم العدوانى كانت إسرائيل هى من شنته. (الترجمة).

(٣) فرية أخرى. فلم يشارك الجيش السعودى فى تلك الحرب، فقط بعد اندلاعها أرسلت السعودية قوة رمزية. (الترجمة).

وصل جلوب بريطانيا وهو فى التاسعة والخمسين وليس معه سوى خمسة جنيهات استرلينى. لم تمنحه بريطانيا أو الأردن معاش جنرال، رغم أن الملكة منحته لقب فارس. وكان عليه إعالة روزمارى وأطفالهما الأربعة. أصبح مسيحيا ورعًا "وُلِد من جديد"، والتجأ إلى قلمه وإلى إلقاء المحاضرات، غالبها بالولايات المتحدة، لإعالة أسرته. كتب جلوب اثنين وعشرين كتابا، تراوحت بين السيرة الذاتية، والكتابات التاريخية. يظل كتابه عن سنواته بالعراق "حرب فى الصحراء" (١٩٦٠) كتابا عسكريا كلاسيكيا. تبادل الباشا الرسائل مع زميله القديم جاك فيلبى الذى أبدى شماتته فى فشل السياسة الخارجية البريطانية. كتب فيلبى فى أحد خطاباته له: "الخط الذى يفصلنى عنك وعن أمثالك هو قناعتك أنه لا يمكن تحقيق مصالح العرب سوى بشكل من خضوعهم للسياسة الإمبريالية البريطانية مع تحليتها بمساعدة مالية بريطانية سخية، على حين أننى مقتنع بنفس الدرجة أن العرب لن يستطيعوا تحقيق مصائرهم سوى بإقامة الوحدة بينهم.. ربما لن توافقنى على أنكم قد خسرتم قضيتكم إلى الأبد".

فى ١٧ مارس عام ١٩٨٦، توفى چون بايجوت جلوب أثناء نومه قبل عيد ميلاده التاسع والثمانين بشهر. أقيم له قداس بوستمينستر أبى حضره الملك حسين الذى غدا يدرك فضائل الجندى الذى كان قد فصله على نحو مفاجئ: "انتمى إلى جيل فريد من رجال مرموقين سخّروا حياتهم بأكملها لترسيخ فهم حقيقى، صداقة عميقة، واحترام متبادل بين المملكة المتحدة ومملكة الأردن الهاشمية.. كان جنديا واقعيا، ذا قلب رهيف وأسلوب حياة بسيط، واستقامة معصومة، كان يؤدى المهام التى كان بلده الثانى الأردن ينيطها به فى لحظة حاسمة من تاريخها ونموها فى صمت وتواضع".

لابد وأن جلوب كان سيسره أن كُتب الأردن الدراسية تعمل على استدامة تلك الأسطورة القومية (التى كان يعلم أنها غير صحيحة) بأن الهاشميين لم يكونوا

أفرادا من النخبة الحاكمة العثمانية بل شيوخا بدوا من سكان البلاد الأصليين، رموزا أبوية لبلدهم، اكتسبوا شرعيتهم من نسبهم المباشر للرسول ومن دورهم فى الثورة العربية. لا يذُكر دور بريطانيا فى اعتلاء تلك الأسرة العرش. ولا يُعترف بدور الباشا الهائل فى بناء الجيش وقيادته، ذلك الجيش الذى ضمن للأردن القدس الشرقية والضفة الغربية عام ١٩٤٨. مازالت ذكرى جلوب تعيش بين جنوده البدو القدماء، لكن لا يذكره أحد من السياسيين بعمان سوى بسبب واقعة طرده. يتمثل ما بقى من إرث جلوب فى الاستقرار النسبى الذى تتمتع به الأردن فى الشرق الأوسط الإسلامى. وخلافا لنظيراتها فى غالبية المنطقة - سوريا، مصر، العراق- فقد أثبتت القوات المسلحة الأردنية القدرة على الاستمرارية بقوة وبخاصة أثناء أزمات خلافة العرش.

فى عام ١٩٩٩، وفيما كان حسين يخضع لعلاج كيماوى واستزراع للنخاع لإصابته بالورم الليمفاوى بمستشفى مايو بالولايات المتحدة، استعد شقيقه الحسن ولى العهد المُسمَّى لخلافته على العرش لدرجة أنه أشيع أن زوجة الحسن، الأميرة ساراڤاث ذات الأصول الباكستانية، كانت تعد القصر الملكى وتغير ديكوره. كتب حسين وقد تملكه الغضب خطابا لشقيقه واتهمه بعدم الولاء. عاد إلى الأردن ليموت، لكن ليس قبل أن يسمى خليفة جديدا، عبدالله الثانى أكبر أبنائه من زوجة إنجليزية (كانت والدته ابنة ضابط إنجليزى يعمل بالجيش الأردنى)(١).

لم تكد تهدأ نغمات موسيقى الغرب الجنائزية، حتى قام الملك عبدالله الثانى بصفته القائد الأعلى للجيش، وبتجاهل منه لفترة الحداد التى تستمر أربعين يوما، بفصل أربعة من كبار الجنرالات لتأكيد تحكمه فى الجيش، الذى بدا وأن فيه بقية

(١) ثمة رواية أخرى فى هذا الصدد وهى ان الأمريكيين. وقد تحققوا من دنو اجله. أرسلوه إلى الأردن للقيام بهذا التغيير، إذ إنه من المعروف ان الأمير الحسن كان ذا ميول إسلامية وقومية. (الترجمة).

من دعمٍ للأمير الحسن. كانت وصية الملك حسين قبل موته هى أن يكون الأمير حمزة، ابنه من زوجته الأمريكية الملكة نور، هو ولى العهد. لكن الملك عبدالله الثانى حرم فجأة أخاه غير الشقيق من هذا اللقب فى نوفمبر ٢٠٠٤ ومنحه لحسين، ابنه من زوجته الفلسطينية الملكة رانيا. وعلى الرغم من ذلك، فمن بين كل الممالك شرق الأوسطية، التى أقامتها بريطانيا أو حكمتها بأسلوب غير مباشر، ظلت أسرة ملكية واحدة تتوارث العرش لما يقرب من قرن، أى الأسرة الهاشمية الأردنية. مازالت تلك المملكة التى تعوزها الموارد والموقع الجغرافى المتميز قائمة حتى تاريخه (٢٠٠٧) فى وقت غدت جاراتها العربية التى تتمتع بميزات كبيرة تعانى إما من الديكتاتورية[١] أو الفوضى[٢].

---

(١) الا تعانى المملكة الأردنية الهاشمية من الديكتاتورية؟ (الترجمة).

(٢) يصور النص الذى يقدمه المؤلفان جلوب على انه "صانع" ملوك من الطراز الأول وقد كان بالفعل كذلك، إذ صنع من عبدالله ملكاً على المقاس البريطانى. ينتقى المؤلفان المناقب والمواقف والأفعال التى تصنع فى مجموعها صورة رجل كرس حياته لتشكيل الفيلق العربى ورعايته وتدريبه، ذلك الفيلق الذى اصبح "جيشا صغيرا رائعا" وحقق مغاويره البطولات.

لكن القراءة المتمعنة تخبرنا بان ذلك المستشرق المغامر فهمَ صفات البدو وطبيعتهم، وبانهم يدينون بالولاء، لا لأرض او قضية بل لمولاهم.. وكان هو مولاهم. دربهم وطوعهم لإرادته، لخدمة الإمبريالية البريطانية، سواء فى العراق حيث جعلهم يقتلون ابناء جلدتهم، او للمساعدة على تحقيق اهداف الصهاينة بفلسطين، او لضمان حكمها المباشر وغير المباشر للمنطقة. وتجلى ذلك فى انه صنع من عبدالله ملكاً صوريا، وفق قوله، واصبح فيلقه العربى عمود المملكة الفقرى فى خدمة بريطانيا العظمى. (الترجمة).

الفصل التاسع

انقلاب بريطانى جدا

البريجادير جنرال السير پيرسى مولزورث سايكس

(١٨٦٧ - ١٩٤٥)

الفصل التاسع

ثلاثة رجال اسمهم پيرسى

ملأوا جيوب فارس من الخزائن البريطانية

أغدق پيرسى كوكس عليها الجنيهات الذهبية

ليقيها شر الصدمات الخارجية

ثم بدد الأحمق پيرسى سايكس

مزيدا من الذهب على البنادق لفارس الجنوبية

كوكس الحريص! سايكس الشجاع

ذهبت جهودهما أدراج الرياح!

فليحالف الحظ پيرسى أوف لوراين

ليسترد ما ضيعه الآخران!

– كتبها أندرو بارستو بمناسبة تعيين پيرسى أوف لوراين وزيرا مفوضا بفارس عام ١٩٢١

طهران، ٢٥ أبريل ١٩٢٦. العاصمة الفارسية تغرقها الشمس ويغطيها السجاد- الكيرمان، الكاشان، الكشمير - يمتد من حافة إلى حافة، يغطى الشرفات والنوافذ. تمتد الرايات الحمراء، البيضاء، والخضراء عبر الشوارع، ومئات من صور العاهل الجديد، الكولونيل القوقازى والفارس السابق، معلقة على السقالات. يشق رضا خان بهلوى، فى عربته الزجاجية التى تجرها ست أحصنة، طريقه من قوس النصر، وسط صفوف من الجند، إلى مراسم تتويجه. وبعد أن يمر بمبنى البنك الإمبريالى الفارسى المنخفض الرمادى، يصل إلى قصر جوليستان الذى تكسو واجهته القراميد الملونة. ينتظره فى البهو المقنطر، حيث تعلق الرايات والذى يُستخدم اليوم كغرفة تتويج، كاهن أرمينى يكاد يختنق فى زيه القطيفة الثقيل الأرجوانى؛ رجل دين تركمانى يرتدى رداءً كهنوتيا طويلاً من الحرير القرنفلى

والأحمر وتلتف حول رأسه قبعة ضخمة من صوف الغنم؛ ومجموعة من الأكراد فى عمائمهم الحريرية المزينة بالشراشيب؛ ومجموعة من رجال العشائر البختيارية يرتدون قبعات سوداء؛ والملالى الشيعة الملتحون فى أرديتهم الطويلة وعمائمهم الضخمة. فى أحد الأركان المضاءة بالشموع الخافتة تجمع عدد من أقارب حاكم القاجارى الذى كان قد أطِيح به مؤخرا. وعلى اليمين، يقف أمير بخارة الطويل ذو اللحية السوداء، الذى كان البلشفيك قد طردوه من موطنه بآسيا الوسطى. كان بين المشاركين أيضا شيخ المحمرة جليل الطلعة بثيابه السواد وكوفيته العربية، وكان صديقا للبريطانيين حرمه رضا من استقلاله القَبَلى. كان قد أصبح منْفياً فى طهران بعيدا عن قصره المهيب بالفيلية الذى تحيطه بساتين النخيل على شاطئ نهر قارون.

التجأ الفارسيون، ونظرا لعدم وجود خبرة لديهم فى مراسم التتويج – لم يكن القاجار يتبعون أية تقاليد راسخة فى هذا الصدد – التجأوا إلى مشورة الليدى لوراين، زوجة رئيس البعثة البريطانية(١) السير بيرسى لوراين، وإلى ڤيتا ساكڤيل–وست المتزوجة من هارولد نيكلسون الذى كان قد عيّن قنصلا مؤخرا. استغرقت السيدتان فى دراسة تفاصيل وصف تتويج چورچ الخامس بكنيسة وستمينستر ودققتا فى رموز السلطة – العروش، السيوف، الأحجار الكريمة، التيجان، الخواتم، والصولجانات – تلك الأشياء التى عزمتا على محاكاتها فى المراسم الفارسية. قامتا بتفتيش الدهاليز والأقبية التى اعتاد القاچار أن يخبئوا فيها مجوهراتهم، انطلق الخدم يضعون الأشياء الثمينة التى عثرتا عليها على مائدة مغطاة بالنسيج الأخضر. فيما بعد وصفت ڤيتا ساكڤيل المشهد قائلة:

"كانت الأكياس الكتان تفيض منها المجوهرات المصنوعة من الزمرد واللؤلؤ؛ اختفى وسط المائدة الأخضر وأصبح بحرا من الحجارة الكريمة. فُتحت الشنط الجلدية لتعرض السيوف الحدباء المرصعة بالجواهر، والرماح التى يعلوها الياقوت، و"توكات" الأحزمة المنحوتة من زمردة واحدة، وعقود من لآلئ ضخمة. ثم أتى الخدم مرة أخرى من غرفة داخلية يحملون أزياء رسمية مخيطة بالماس؛ طاقية بحلية طويلة تمسك بها ماسة أكبر من ماسة كوهى النور؛ تاجان يماثلان عمامتين كهنوتيتين ضخمتين، أو إكليلين بربريين مرصعين، مكونين من أروع اللآلئ الشرقية.. غرسنا أيدينا حتى الرسغين فى أكوام من الزمرد الخام، وتركنا اللآلى تتساقط من بين أصابعنا. نسينا فارس الحديثة، وانجرفنا عودة إلى عهد القائد أكبر وغنائم الهند".

وسرعان ما أُرسلت الطلبيات إلى المحال فى جميع أنحاء إنجلترا. مُنحت ڤيتا السلطة لطلب الأوانى الصينى، والزجاجية، وأدوات المائدة، والأوراق والأقلام من المزوِدين الملكيين بإنجلترا. كلّفت المختصين بعمل بزات لخدم القصر على غرار تلك

(١) كان رئيس البعثة البريطانية وزيرا مفوضا. أصبحت البعثة اثناء الحرب العالمية الثانية سفارة وترقَى رئيسها سفيرا بدلا من وزيرا مفوضا. (المؤلفان).

التى يرتديها خدم البعثة البريطانية. درست وزارة الخارجية منح رضا شاه وساما بريطانيا لكنها رفضت الفكرة لاعتقادهم أنه سيرفض ذلك لكى لا يبدأ حكمه وكأنه مدين بالفضل للبريطانيين. كتبت ڤيتا ساكڤيل - وست تقول لجرترود بِل بخصوص استعدادات التتويج إنها ولويز لوراين مشغولتان بطلاء غرفة العرش باللون القرنفلى.

فى الثانية والنصف، احتل الدبلوماسيون وهم يرتدون چاكتاتهم الطويلة الرسمية والدانتيلا الذهبية، والمستشارون العسكريون، أماكنهم على منصة مرتفعة. انتظر الجمع ساعة فى صمت؛ لم تُعزف الموسيقى احتراما للملالى. وفى الثالثة والنصف، سار ولى عهد فارس محمد رضا البالغ من العمر ستة أعوام، وهو يرتدى نسخة مصغرة من بزة والده العسكرية وبووتس من الجلد المصقول اللامع، سار وحده خجِلا عبر الغرفة، ثم أدى التحية، وجلس فى مكانه على الدرجة السفلى من نسخة طبق الأصل من "عرش الطاووس"- كان العرش الأصلى الذى أُخِذ غنيمة من المغول قد دُمّر، لكن تلك النسخة كانت أيضا مثيرة للإعجاب. كان مغطى بالذهب والمينا والأحجار الكريمة وتتدلى من ذراعيه شراشيب زمردية. دخل القاعة الجنرالات والوزراء يرتدون بزات رسمية من الأزرق الفاتح، وعباءات كشمير شرقية. ثم دخل الشاه. كان أطول مَنْ بالغرفة، يرتدى زياً عسكريا محلىّ بميداليات تم صكها حديثا، وأوسمة، ووشاحاً يعلوه ثوب فضفاض من القطيفة الزرقاء المزركشة المرصعة باللؤلؤ. كان غطاء رأسه العسكرى الفرنسى مزينا حول أطرافه بحلية مثبتة بجوهرة تعرف باسم "محيط النور Daria-I-Nur"، أكبر ماسة نقية فى العالم. وفيما سار باتجاه العرش انحنى أعضاء الوفود الأجنبية بالتحية، وتقدم الملالى إلى الأمام، واختبأ ولى العهد خجِلاً، تحت طرف من عباءة والده. قدم وزير البلاط، عبدالحسين تيمور تاش الذى عمل بلا كلل على مساعدة رضا على تولى السلطة، قدم التاج المتألق الجديد للشاه، الذى صنعه جواهرجى روسى محلى، على

وسادة. (كوفئ تيمورتاش، على ولائه، بأن قُتل فى زنزانته بالسجن بعد سبعة أعوام. كان من بين التهم التى وُجهت إليه، بخلاف المعهود منها مثل الرشوة والفساد، تهمة التآمر للإطاحة بمليكه). كان من أعراف التتويج لدى القاچار، أن يقوم أحد كبار أفراد العائلة بوضع التاج على رأس العاهل الجديد، لكن، ونظرا لتواضع أصول الشاه الجديد لم يكن ثمة قريب لائق فى أسرة بهلوى، لذا خلع الشاه الكاپ العسكرى، ووضع التاج بنفسه على رأسه.

كتبت مسز ستوارت وورترلى، حماة لوراين، التى كانت فى زيارة إلى طهران ": خلع رئيس المجلس عليه الصولجان المرصع بالجواهر، وجثا وزير الحرب وثبّت سيف ندير شاه المرصع بالماس. وهكذا، وبعد أن لبس التاج، وحمل الصولجان، وطُوق بالحزام المثبت عليه سيف الفاتح العظيم، قرأ الشاهنشاه خطاب العرش بصوت خفيض، دونما أية إيماءات. وخلا سلوكه من أى شىء مسرحى، وكأنما لم تكن اللحظة هى الأعظم فى حياته... وحينما انتهت المراسم، وقف الشاه، وسقطت عباءته كاشفة المجوهرات الرائعة التى رُصِّع بها زيه. سقط الضوء على ماسة داريا – إى – نور، وتلألأ مقبض سيفه، وبرأس أبىّ مرفوع، غادر ذلك الملك العسكرى القاعة". علّق السير پيرسى بامتنانٍ أن المراسم كانت "اقتصادية، تبعث على الإعجاب بقدر، ووجيزة".

أصبح رضا شاه مؤسس أسرة بهلوى، وعضوها قبل الأخير. نسب التاريخ الفضل فى وضع الشاه على العرش إلى جنرال بريطانى اسمه السير إدموند أيرونسايد، هذا على الرغم من أن مذكرات هنرى سميث، الرجل الذى كان يلى الجنرال، والتى اكتُشِفت مؤخراً، تلقى ببعض الشكوك على هذا الإسهام. فى نفس يوم الانقلاب، كان أيرونسايد فى طريقه إلى القاهرة لحضور مؤتمر عام ١٩٢١، ويبدا أن رئاسة الوزراء ببريطانيا والبعثة البريطانية بطهران لم يكن لديهم معلومات عنه. لكن، وكما هو الحال فى الشرق الذى يسيطر عليه هاجس المؤامرة، فإن الحقيقة ليست على مستوى أهمية ما اعتقدَت أجيال الإيرانيين أنه هو الحقيقة. وفى

هذا الصدد، علّق أحد المراقبين الأمريكيين بالقول "لا يوجد مكان فى العالم من يبالَغ فيه فى قدر دهاء البريطانيين بهذه الدرجة من الإفراط كما هو الحال فى إيران، ولهذا السبب لا يوجد مكان أيضا تعتمل فيه نفوس الشعب بكراهية البريطانيين مثل إيران".

لمعظم سنوات القرن العشرين - أى قبل ثورة ١٩٧٩- كانت قصة إيران هى قصة شاهيْنِ من أسرة بهلوى ومحاولاتهما، غالباً فى مواجهة التدخلات الأجنبية والمعارضة الدينية المحلية، لتحويل إيران إلى دولة حديثة تقدمية قبل نضوب نفطها. كان التدخل الأجنبى قبل عام ١٩٥٣ بريطانياً وروسياً، ثم انضمت أمريكا إلى ركابهما فيما بعد. كانت آلة التحكم البريطانى الأصلية هى شركة الهند الشرقية. كانت الشركة، التى منحتها الملكة إليزابث الأولى صك امتياز، وسلطة إصدار العملة وإقامة الجيوش، كانت شبه مستقلة ذات سيادة حتى الثورة الهندية بين عامى ١٨٥٧- ١٨٥٩ . تمكنت الشركة من مقرها فى كلكتا، ومن خلال المعارك والرشاوى، من إخضاع غالبية الهند وحكمها مباشرة أو عن طريق وكلاء من الأمراء. آنذاك، كان الخطران التوأم اللذان يتهددان نائب الملكة (حاكم الهند) هما فرنسا وروسيا، المتحالفتان وقتئذ، وكان نابليون وألكساندر الأول قيصر روسيا قد بحثا بالفعل المقتضيات اللوجستية لهجوم مشترك على الهند: خمسين ألفا من جنود الجيش الفرنسى العظيم يسيرون بطريق البحر عبر فارس وأفغانستان لينضموا إلى جيش ألكساندر من القوقازيين ثم يقطعوا نهر الهندوس (السند) إلى داخل الهند. أرسل البريطانيون المنزعجون بعثات دبلوماسية إلى طهران وكابول. ثم انهار التحالف. فى عام ١٩١٢، أحرق الفرنسيون بقيادة نابليون موسكو؛ رد ألكساندر الأول إمبراطور روسيا بأن سار إلى الشانزليزيه عام ١٩١٤. راقب البريطانيون الوضع متوترين فيما تقلصت المسافة بين الإمبراطورية الروسية والهند - ألفى ميل فى

مطلع القرن التاسع عشر - لتصبح في، نهاية القرن، وفيما توسعت الإمبراطورية الروسية شرقا بسرعة مذهلة بلغت في المتوسط خمسة وخمسين ميلا مربعا في اليوم، لتصبح المسافة التي تفصل الإمبراطوريتين في منطقة جبال الپامير بآسيا الوسطى مجرد عشرين ميلا. وبين تلك القوتين المتوسعتين انحشرت فارس التي وصفها چورچ ناثانيل كيرزن، الذي كان نائب الملك بالهند، ثم وزيرا للخارجية بأنها "إحدى القطع على رقعة شطرنج تجري عليها مباراة للهيمنة على العالم".

في عام ١٧٨٥ ظهرت أسرة فارسية حاكمة جديدة، أي القاجار الذين اشتهروا بالرشاوي المخجلة التي كانوا يتقاضونها والرذائل التي قيل إنهم كانوا يمارسونها جلس القاچار، الذين كانوا من نسل زعماء العشائر التركمانية في آسيا الوسطى، متقلقلين على عرش الطاووس. عمد المبعوثون البريطانيون، وقد شعروا بتزعزع شاهاتهم الثمانية، إلى إشباعهم بالتملق والرياء حينما كانت الرشاوي والاستثناءات تفشل. وعلى مدى قرن من الزمان، ضمن البريطانيون لأنفسهم دورا مميزا في البلاط الفارسي وفازوا بامتيازات استثنائية. ومما فاقم تلك التعقيدات كان ذلك الترتيب الشاذ الذي بمقتضاه كان البريطانيون يرسلون مجموعتين من المبعوثين. كان المبعوث إلى بلاط القاچار بطهران يمثل لندن وكان مسئولا أمام وزارة الخارجية. وفي تلك الأثناء عينت كلكتا، بداية من تسعينيات القرن الثامن عشر مندوبا ساميل لها يمثل حكومة الهند، ويقيم في بوشيار (بوشهر الآن)، وهي مدينة غير جذابة على الشاطئ الجنوبي للخليج. وهكذا بدأ التنافس الذي كان له أن يفسد العلاقات بين وزارة الخارجية وبين عدد متالٍ من نواب الملك أو الحكام العامين. كانت حكومة الهند تفضل نظاماً فارسيا لا مركزيا إلى درجة كبيرة، ومن ثم ومنذ البداية، عمد المندوبون السامون المتتالون ومن بينهم الماچور السير پيرسي كوكس (١٩٠٤ - ١٩١٣) والليفتنانت كولونيل إيه. تي. ويلسون (القائم بالأعمال بين عامي ١٩١٢- ١٩١٣) إلى تنمية روابط مع المشيخات القريبة. في زيارة له

لفارس عام ١٨٨٩، أبصر اللورد كيرزن العلم البريطانى "يرفرف أعلى السارية بمقر المندوب السامى". وكتب معلقا إن هذا لم يكن مجرد رمز لا جدوى له للسطوة البريطانية، بل إن المندوب السامى البريطانى هو "حتى هذه الساعة الحَكَم الذى يلجأ إليه جميع الأطراف". وبما أن لديه، تحت تصرفه، قوة بحرية فاعلة يستغلها حسب إرادته، فبالإمكان "أن يُلقّب بملك الخليج الفارسى غير المتوج".

توافد الممولون، التجار، المضاربون، و المغامرون إلى بلاد فارس، وكان غالبيتهم من بريطانيا وروسيا. فُتحت الأسواق فى المناطق النائية، وازدهرت القنصليات، وبدأت شركات الملاحة الأجنبية تتنافس على الأسواق الفارسية. أتى البارون جوليوس دو رويتر، البريطانى المُجنَّس الذى وُلِد بألمانيا، ومؤسس وكالة الأنباء التى تحمل نفس الاسم، أتى بأكثر انقلاب مذهل عام ١٨٧٢ . بضربة واحدة، فاز بحق بناء خطوط سكك حديدية، وإنشاء بنك، و جمع الجمارك لمدة عشرين عاما. ولم يكن هذا هو كل ما فى الأمر. فقد تم منحه الحقوق الحصرية لسبعين عاما للقيام بأعمال التعدين، وتسيير خطوط الترام، إنشاء محطات المياه، وحفر قنوات الرى، وقطع الأخشاب، علاوة على خيار إنشاء المرافق، ومكاتب البريد ومشروعات أخرى. قال اللورد كيرزن عن هذه الصفقات إنها تخلٍّ لمملكةٍ عن مواردها الصناعية وتسليمها لأيد أجنبية بشكل استثنائى وكلى تماما، الأمر الذى من المستبعد له أن يكون قد راود أحلام أحد، ناهيك عن أن يكون قد تحقق طوال التاريخ".

يُبين السير دنيس رايت، المبعوث البريطانى الرسمى إلى طهران، فى كتابه "الإنجليز وسط الفرس" إن اهتمام الشاه لم يكن مالياً فقط "فقد كان، هو ورئيس وزرائه يعتريهما القلق من التهديد الروسى لاستقلال فارس. اعتقدا - أو أنهما أملا أن منح البريطانيين مصالح اقتصادية كبرى فى البلاد يجعلهم يلتزمون بالدفاع عن استقلالها".

إلا أن الروس ورجال الدين فى فارس ساعدوا على استثارة الرأى العام ضد

الأجانب. تراجع الشاه وألغى امتياز خطوط السكك الحديدية لكن رويتر استطاع، بدعم من وزارة الخارجية البريطانية، الاحتفاظ بحقوق البنوك والتعدين.

وهكذا وُلِد بنك فارس الإمبريالى، الذى حقق صيتاً لنزاهته. لكن الغضب الشعبى للانبطاح الفاسد أمام رغبات الأجانب تفاقم حينما منح الشاه أحد ضباط الجيش البريطانيين احتكارا مدته خمسون عاما لإنتاج التبغ وبيعه وتصديره، وكان الماچور جرالد تالبوت قد دفع ٢٥٠٠٠ جنيه إسترلينى لملك الملوك و١٥٠٠٠ جنيه إسترلينى لرئيس الوزراء، ليحصل على هذا الحق فى الاحتكار. كانت تلك الصفقة بغيضة بدرجة أن خشى الدبلوماسيون من حدوث مذابح للأوربيين فيما خرجت التظاهرات العارمة فى أعقاب دعوة رجال الدين الشيعة غير المعتادة بالامتناع التام عن التدخين. وحينما وجد نفسه فى مواجهة مقاطعة آخذة فى التجمع، ألغى الشاه الامتياز، ودفع تعويضا قدره نصف مليون إسترلينى- اقترضها من البنك الإمبريالى البريطانى - إلى شركة التبغ الإمبريالية التى يملكها تالبوت.

فى مقابل البنك البريطانى أنشأ الروس بنكهم الخاص فى فارس الذى تدعمه الدولة وكان مفيدا فى منح "قروض" لكبار المسئولين. أيضا حصل الروس على ترخيص ببناء الطرق فى منطقتهم. وحينما قام الشاه نصر الدين بزيارة جارته الشمالية عام ١٨٧٩، أبدى إعجابه بفرقة ألكساندر الثانى من القوقازيين بدرجة أنه أنشأ حرسه الإمبراطورى الخاص، أى كتيبة القوقاز، ورغم أن الفرس كانوا هم من تكفلوا بنفقات الكتيبة، إلا أن ضباطها كانوا من الروس ويتلقون أوامرهم من وزير الحرب الروسى. فيما بعد برهنت الكتيبة على فاعليتها فى قمع أعمال الشغب، بيد أنها فشلت فى منع اغتيال الشاه نصر الدين فيما كان يزور أحد الأضرحة وسنقرأ المزيد عن كتيبة القوقاز الفارسية لاحقا.

•••

كانت فارس فى مطلع القرن الماضى أرضا تعمها الفوضى، ملعبا للجواسيس الروس والبريطانيين. كانت مكانا ينظر إليه على أنه خطر بدرجة أنه، وضد رغبات الفرس الذين انزعجوا، فقد أبقى القناصل البريطانيون علاوة على الحرس الفارسى، على مرافقين من السباهيين والسُّوار (الهنود المجندين فى الجيش البريطانى) يرتدون أزياء فرقة الملكة العسكرية، والرماحين البنغال وغيرها من الفرق، فيما رافق الروس جنود من فرقة القوقاز الروسية.

كانت مشهد، عاصمة إقليم خراسان الشمالى، ذات أهمية خاصة فى "اللعبة الكبرى" المندلعة بين الأسد والدب. غدت مشهد، المدينة التى يؤمها الحجيج، موقعا للتنصت يقوم فيه الروس بتجنيد العملاء ومراقبة الحدود الأفغانية. ومن مشهد كانت الاستخبارات البريطانية تبعث بعملائها إلى آسيا الوسطى لمراقبةٍ أفضل لتقدم روسيا باتجاه الهند.

حينما مرّ كيرزن بمشهد أثناء رحلته الكبرى فى أنحاء فارس عام ١٨٨٩، ترك المقر الروسى الضخم وحرسه المهيب انطباعا عميقا لديه "إن ممثلا روسيا نشيطا بمشهد لرمز مرئى للقوة الواقعية التى غدت حركاتها ونواياها تشكل موضوع الحديث فى كل بازار شرقى، تلك التى يتبدى ظلها الذى لا يتوقف عن التضخم أبدا والذى تبصره شعوب البلاد وأهاليها بنوع من السكون العاجز، يتبدى مثل سحابة رعدية فوق البلاد". استاء كيرزن أيضا من القنصلية البريطانية التى كان مبناها لا يوفر "أوهى دليل ممكن على مكانة ساكنها أو أهميته. يكاد يكون من المخزى أن يُجبَر القنصل العام البريطانى على سكنى هذه البيئة الهزيلة البائسة". حينما تجاهلت وزارة الخارجية توصياته، كتب كيرزن بصحيفة التايمز يطالب بأن يكون للقنصلية "مقر على قدر من المهابة بحيث يترك فى عقول الأهالى انطباعا بمكانتنا كقوة عظمى ثرية". تم بناء سكن لائق من طابقين على الطراز الهندى بأعمدة يونانية وڤراندا متسعة وسط مجمع على ثمانية فدادين ضم منازل، ومكاتب

وإسطبلات لفرقة الفرسان الهندية المرافقة للقنصل والمؤلفة من أربعة وعشرين شخصا، ولفرقة التركمان المؤلفة من اثنين وعشرين جنديا والتى كانت تنقل البريد بين مشهد وهرات، ومن هناك إلى الهند عن طريق أفغانستان. مولت حكومة الهند المبنى، وتسببت المبانى الفاخرة والتمويل السخى - كانت ميزانيتهم حوالى عشرة أضعاف ميزانية البعثة البريطانية بطهران - فى انزعاج مجلس الوزراء البريطانى وغيرتهم. كانت قنصلية مشهد مسئولة أمام حكومة الهند البريطانية التى كانت أيضا تعين العاملين بها، رغم أن مشهد سارَت على غرار طهران من حيث إبلاغ وزارة الخارجية مُقدما عن التقارير الرسمية المرسلة إلى كلكتا.

وفى تطور غير متوقع مثير للاهتمام، كان للعبة الكبرى أن تنتهى بالتعادل فى أعقاب الاتفاقية الأنجلو/روسية لعام ١٩٠٧. ومن المفارقات أن هذا النموذج الوقح من الصلافة الإمبريالية كان نتاج حكومة ليبرالية تزعم أنها معادية للإمبريالية. كانت انتخابات عام ١٩٠٦ العامة قد أدت إلى غالبية ليبرالية كبيرة بالبرلمان. كان السير ادوارد جراى، وزير الخارجية الجديد، عازما على تسوية الأمور مع سانت بطرسبورج. كان اللورد مورلى، الليبرالى المحترم، والذى أصبح وزير الدولة لشئون الهند، قد رأى منذ وقت طويل أن التهديد الروسى مبالغ فيه وأن التوافق أفضل من المواجهة. هذا علاوة على أن ألمانيا وقيصرها ويلهلم، وأسطول بوارجها الثقيلة الضخمة، هى التى ظهرت كمنافس رئيسى لبريطانيا، وليس روسيا. والآن، فاتحت لندن سانت بطرسبورج بشأن الوصول إلى اتفاقية شاملة حول أفغانستان، التبت، وفارس - تلك المناطق التى كانت قد حفزت تنافسا أنجلو/روسياً استمر قرنا. أخذ السفير البريطانى السير آرثر نيكولسون (الذى أصبح فيما بعد اللورد كارنوك، ووالد الكاتب والدبلوماسى هارولد نيكولسون). أخذ مبادرة التفاوضات مع وزير الخارجية الروسى ألكساندر إيزفولسكى.

فى ٣١ أغسطس، تم توقيع الاتفاقية. وبدون إبلاغ قادتها، ناهيك عن استشارتهم، قسّمت القوتان فارس، إلى منطقتين للنفوذ: منطقة بريطانية فى

الجنوب الشرقى، وأخرى روسية فى الشمال. فى وجود منطقة محايدة (حيث كانت بوشاير تقع) تعهد فيها الروس والبريطانيون، بأسلوب متبادل، بعدم السعى إلى الحصول على امتيازات حصرية بها. وعلى الرغم من أن حقول البترول فى المنطقة المحايدة كانت تكتشف إلا أن ثراءها لم يكن معروفا بعد . كانت منطقة النفوذ الروسى أكبر كثيرا وشملت طهران العاصمة، إلى جانب تبريز وأصفهان الأمر الذى عكس نفوذ روسيا الجارة الأقوى. عبر وزير جلالته المفوض بطهران، السير سيسل سبرينج - رايس عن مشاعر الحكومة السائدة: "إذا استطاع جراى (وزير الخارجية) الوصول إلى اتفاق فعلى مع روسيا فإن هذا الاتفاق يستحق أن نُضحى بفارس رغم أن الدول العظمى لا تملك أن تكون خسيسة حتى فى أمور أبسط من هذا بكثير". هاجم اللورد كيرزن، الذى لم يعد نائب الملك بالهند بل زعيما للمعارضة بمجلس اللوردات، المعاهدة وزعم أن بريطانيا قد ضحت بجهود قرن كامل "نظير لا شىء، أو ما يكاد يكون لا شىء". اعترف سپرينج - رايس أنه بالتنازل لروسيا عن كل هذا "نُعتبر أننا قد خذلنا الشعب الفارسى".(!!) وبالتقابل، ضجّ مجلس الدوما بسانت بطرسبورج بصيحات "براڤو" حينما كُشِف النقاب عن المعاهدة.

أصيب الفرس بالذهول. تزامنت أنباء تقسيم بلادهم جِراحِياً، مع الثورة الدستورية التى هدفت بشكل أساسى إلى استرداد استقلال فارس واحترامها لذاتها. أذعَن مظفر الدين شاه، الحاكم القاجارى الذى أُضعِف، بعد أن وُجّهت إليه الاتهامات بالفساد وإساءة الحكم، أذعن بعد ثورة بيضاء فى ديسمبر ١٩٠٥، لانتخاب مجلس قومى، الأول من نوعه فى فارس. اجتمع المجلس على الفور وصاغ دستورا جديدا من واحد وخمسين بندا وقعه الشاه بفتور قبل موته. حشدت روسيا حلفاءها الفرس لتقويض البرلمان، الذى كان قد رفض، مزهوا، قرضاً روسيا جديدا، والذى قد خشيت من أن يصبح استقلاله نموذجا مقلقلا لرعايا القيصر المسلمين فى المناطق المجاورة. يكتب روح الله رامزانى، من مواطنى طهران، فى

كتابه عن تاريخ إيران الديبلوماسى أن تدخل روسيا التالى "هدم أسس الحكومة الدستورية مرتين فى حوالى أربع سنوات".

بدأ محمد على شاه؛ الحاكم القاجارى الإقطاعى العنيد، والذى كان قد تُوِّج حديثا، إجراءاته العدائية على الفور عام ١٩٠٨ بسجن رئيس وزرائه. وبواسطة قرض وافق عليه البنك الروسى.. رهن مجوهرات تاجه ضمانا له، استأجر الشاه مثيرين للشغب لاقتحام المجلس. وحينما قاوم النواب الهجوم بنجاح، تحركت كتيبة القوقاز بضباطها الروس سريعا لتحل البرلمان وتفرض الأحكام العرفية. أطلق القوقاز النيران على مبنى البرلمان وأشعلوا نيرانا دمّرت سجلاته وقتلت ثمانية إيرانيين. أعلن قائد الكتيبة الروسى نفسه حاكما عسكريا لطهران. أما فى لندن، فلم يعبر السير إدوارد جراى عن شىء سوى عن الحيرة والارتباك. يوجز رامزانى الموقف غاضبا بقوله "قبل اتفاق عام ١٩٠٧، كانت بريطانيا تعمل قابلة للنظام الجديد، لكن، وبالرغم من نوايا جراى الطيبة، كان الأداء البريطانى بعامة يحابى روسيا على حساب إيران. كانت سياسة جراى تجاه إيران منذ البداية وحتى النهاية هى عدم التدخل، والحرص على صداقة روسياً". وعلى الرغم من ذلك، اشتكى جراى بقوله "أفقدنى هذا القدرة على الاحتمال أكثر من أى أمر آخر".

ثم، وبأسلوب غير مصدق، وحّدت انتفاضة شعبية الفصائل الإثنية، والدينية والمتغربنة التى لم تكن تتفق على أى شىء أخر، وسحق المتمردون قوات الدرك القوقازية وأجبروا الشاه المُحتقر على التنحى. نودى بابنه أحمد البالغ من العمر اثنى عشر عاما خليفة له. وفى عام ١٩١٠ اختير مالك أراضٍ من حمدان يدعى عبدالجاسم خان ناصر الملك، والذى كان قد زامل كيرزن وجراى وسيسل سبرينج - رايس فى كلية باليول، أكسفورد، اختير وصيا على العرش. وكما لم يكُن متخيلا، سجلت الصحافة الحرة التى كانت قد ظهرت أثناء المجلس الأول تاريخ كل تلك الأحداث. ووسط تلك الاضطرابات، أصدر وزير الخارجية الفارسى تعليماته إلى

سفارته بواشنطون للبحث عن "خبير أمريكى محايد يعمل مسئولا عاما عن الخزانة" كى يؤسس لفارس، التى كانت على شفا الإفلاس، نظاما صحيحا لجباية الضرائب. وقع الاختيار على دبليو. مورجان شوستر المحامى الأمريكى البالغ من العمر ثلاثة وأربعين عاما والذى اشتُهِر عن جدارة كجامع للجمارك فى جمهورية كوبا الجديدة. كان شوستر أيضا، بين عامى ١٩٠١ و١٩٠٦ قد أعاد تنظيم جباية الضرائب بالفلبين بدعم كامل من الرئيس الأمريكى تافت الذى كان قد عمل سابقا حاكما عاما بمانيلا. وافق شوستر على العمل ثلاث سنوات بفارس. أبحر، برفقة أربعة من مساعديه من نيويورك فى إبريل عام ١٩١١ متجها إلى فارس. وعلى الفور قوبل ببرود (بادله شوستر من قلبه) من الجالية الأوروبية بطهران وكان عليه أن يتعلم بسرعة كيف له أن يميز بين اصدقائه من الفرس وبين أعدائه المداهنين. ثم وصله التقرير الذى أفاد أن الشاه المخلوع، كان يتآمر لاستعادة العرش بدعم روسى. حدث المشهد الختامى فى نوفمبر ١٩١١ حينما انطلق رجال شرطة شوستر الخاصة بخفة متجاوزين حارسا قوقازيا وحجزوا على منزل شقيق الشاه المتغيب نظير عدم دفع ضرائب متأخرة. طالبت السلطات الروسية، بدعم من البريطانيين، فصْل شوستر لتعديه على مناطق نفوذهم. حينما لم يستجب المجلس، تقدمت القوات الروسية إلى طهران وقتلت الليبراليين ورجال الدين المعادين لروسيا وقصفت المجلس. قام الروس أيضا بقصف ضريح الإمام رضا بمشهد مما استحث أعمال الشغب من قبل المسلمين الشيعة. وبعد أن أنزل البريطانيون قواتهم فى الجزء الجنوبى لفارس بزعم حماية منطقة نفوذهم، وقفوا ينظرون دون أن يحركوا ساكنا فيما احتل الروس الشمال. وفى يوم الكريسماس طردت حكومة فارس الدستورية شوستر الذى كتب وهو فى طريقه إلى وطنه سردا مفعما عن مهمته بعنوان "خَنق فارسى" ختمه بالتالى:

"يستحق الشعب الفارسى، الذى يكافح من أجل فرصته فى العيش وحكم نفسه بدلا

من أن يظلوا عبيد أرض للحكام الغلاظ الفاسدين، يستحقون مصيرا أفضل من أن يجبروا، كما هو حادث الآن، على أن ينحطوا مرة أخرى إلى وضع أسوأ من عبودية الأرض، أو أن يطاردوا ويقتلوا بصفتهم "حثالة ثوريين".. تمنى الجميع، باستثناء الوجهاء الفاسدين والموظفين العامين المنحطين، أن ننجح. أدركت روسيا هذه المشاعر، وبدون قصد، وجهت إلينا الثناء بخوفها من أن ننجح فى مهمتنا. وهذا ما لم تكن أبدا لتسمح به، أما باقى الخلاف فمجرد تفاصيل".

كان هذا هو الثمرة الاستهلالية لاتفاق عام ١٩٠٧ . علّق سفير بريطانى سابق فى طهران، السير دنيس رايت، فيما بعد قائلا "صُدِم الفارسيون الذين كانوا قد أخذوا بتزايد ينظرون إلى بريطانيا بصفتها حاميتهم ضد روسيا والمدافعة عن الأفكار الليبرالية، صُدِموا إلى أقصى الحدود المتخيلة من هذا التحالف مع الشيطان". يكتب فيروز كاظم زاده الباحث بجامعة ييل فى كتابه المرجعى "روسيا وبريطانيا فى فارس: ١٨٦٤– ١٩١٤" قائلاً: "كان فى سبتمبر ١٩٠٧ أن تبلورت الصورة الفارسية الحديثة عن بريطانيا.. وسواء كان هذا مبررا أم لا، فمنذ آنذاك وحتى الآن ظل غالبية الفرس على استعداد لاعتقاد الأسوأ عن بريطانيا". أما الحساب فلم يحن إلا بعد عقد من الزمان، بعد الحرب العظمى.

دافع السير إدوارد جراى عن الروس فيما شجبهم اللورد كيرزن. وفى واقع الأمر، فقد كان چورچ ناثانيل كيرزن، ماركيز كدلستون، هو من أبقى الخليج الفارسى على أجندة بريطانيا الإمبريالية، وكان إبقاؤه عليه هناك فكرته الخاصة الثابتة المسيطرة. كان وهو عضو بالبرلمان فى الثلاثين من العمر، قد زار فارس لأول مرة على صهوة جواد عام ١٨٨٩. وثّق كيرزن تلك الرحلة التى استغرقت ستة أشهر فى كتابه المرجعى المؤلف من جزأين "فارس والمسألة الفارسية" الذى نُشِر عام ١٨٩٢ فيما كان يعمل وكيل الوزارة لشئون الهند. فى عام ١٩٠٣، ذهب، بصفته نائب الملك بالهند، فى زيارة أخرى أكثر مهابة على متن سفية برفقة أسطول (أرمادا) الخليج البحرى المؤلف من السفينة التجارية هاردينج، وأربع طرادات،

وبعض القوارب الأصغر. عقد معاهدة مع شيخ الكويت المبهور الذى وافق على عدم التخلى عن منطقته لأى طرف ثالث، وأجبر سلطان مسقط (حيث كان پيرسى كوكس صنيعة كِيرزن متَموضِعاً) على إلغاء عقد إيجار مع الفرنسيين لإقامة محطة للتزود بالفحم الحجرى. أرسل برقية سريعة إلى لندن زعم فيها أنه "يجب إغلاق الخليج الفارسى، حتى بالمخاطرة بحرب، فى وجه جميع الدخلاء". كان كِيرزن أيضا هو الذى أطلق تحذيرا لا يُنسى بأن طموح روسيا النهائى هو السيطرة على آسيا. علّق فى مذكرة عام ١٩٠١ بالقول "إن هذا لهدف أبىّ، ليس وضيعا، جدير بالجهود العظمى العَمَلية لأمة قوية نشيطة". بيد أنه إذا كان من حق روسيا تحقيق أهدافها "فإن لبريطانيا حقا أقوى، بل إنها مجبرة على الدفاع عما كسبته، ومقاومة الانتهاكات والاعتداءات الثانوية التى هى جزء من خطة أشمل". من ثم يجب تحاشى التنازلات التدريجية لأن كل قطعة "تشحذ الشهية للمزيد وتشعل العاطفة للهيمنة على آسيا بأكملها". إن وحدة بلاد فارس وسلامة أراضيها هى "التى يجب أن تُسجَّل بصفتها من التعاليم الرئيسية فى عقيدتنا الإمبريالية".

كان الذى جعل من فارس أولوية عليا للبريطانى هو ذلك المكوّن الجديد الذى هيمن على دبلوماسية القرن العشرين: النفط. أثبتت الحفريات أن النفط كان معروفا فى بلاد الرافدين وفارس منذ العصور القديمة. كان النفط فى باكو المطلة على بحر قزوين يرشح، حرفياً، من التربة، الأمر الذى وضع روسيا على الطريق لأن تصبح قوة نفطية عالمية. فى عام ١٨٩٢، زعم مقال كتبه جاك دو مورجان الأركيولوجى فى دورية حوليات المناجم أن ثمة تراكمات نفطية فى جنوب غرب فارس، وكان الكاتب قد لاحظ تسريبات نفطية أثناء رحلاته فى فارس. وُضِعت استنتاجات مورجان تحت تصرف المفوض العام البريطانى فى فارس الذى فاتح السير هنرى دروموند وولف، عضو البرلمان عن حزب المحافظين، فى الأمر وأثناء

معرض باريس لعام ١٩٠٠ . وبدوره، قدمه وولف إلى ويليام نوكس دارسى المليونير المضارب المغامر و الذى كان يُنفق ببذخ، وكان قد راكم ثروته أثناء "هوجة الذهب بأستراليا. حينما طفت التقارير عن النفط الفارسى على السطح، تنافست روسيا مع بريطانيا للحصول على الامتيازات، لكن كان لعملاء دارسى الغلبة من خلال المساعدات الديبلوماسية ودفع الرشاوى لمن فى يدهم الأمر. ونظير ٢٠٠٠٠ جنيه إسترلينى نقدا، إضافة إلى ١٦٪ من صافى الأرباح، و٦٥٠ استرلينى إيجارا سنويا، ورشاوى للوجهاء، انتزع أصحاب الامتياز فى عام ١٩٠١ الحقوق الحصرية من شاه فارس. كان العقد، الذى كُتب بالفرنسية، سارىَ المفعول لمدة ستين عاما وغطى ثلاثة أرباع (٤٨٠٠٠٠ ميل مربع) مساحة بلاد فارس، واستثنيت الأقاليم الشمالية احتراما لروسيا. يكتب البروفسور كاظم زاده قائلا "كان هذا هو العقد الذى اتضح أنه أحد أهم الوثائق فى القرن العشرين. لم يكن بإمكان الموقعين أن يتكهنوا بمصيره فيما بعد، أو بالمجمّع الصناعى الهائل الذى قام نتيجة له، أو بالكراهية العميقة التى أثارها، أو بالصراعات التى عجل بها.. هؤلاء الموقعون الذين قاموا، فى مدينة قصية عن مراكز القوة العالمية، وفى شبه سرية تامة، بأداء تلك الدراما التى لم يكونوا سوى نصف مدركين لتضميناتها".

وعلى الرغم من ذلك، فقد كاد ذلك الامتياز السخى أن يؤدى إلى إفلاس دارسى الذى أنفق ما يزيد على ٢٢٠٠٠٠ جنيه إسترلينى - أى قيمة فدية ملكية آنذاك - لتوصيل النفط إلى الأسواق. كانت شراكته مع شركة نفط بورماه ومقرها جلاسكو، هى التى أنقذته حيث نُقل إليها امتياز دارسى وضخت مزيدا من رأس المال، إضافة إلى چورچ رينولدز التقنى البريطانى (وردت حكاية الاكتشاف بمسجد - إى - سليمان بالفصل الرابع). ثم بعد ذلك، تم نقل جميع الحقوق عام ١٩٠٩ إلى شركة النفط الأنجلو فارسية (APOC) التى تطورت بعد لتصبح شركة النفط الأنجلو إيرانية (APOC)، وفى النهاية أصبحت بريتش بتروليوم (BP) كما نعرفها

اليوم. تفاوضت BP مباشرة مع زعماء البختيارى المحليين (الخانات) الذين كانوا يتحكمون فى المنطقة التى كان يجرى فيها التنقيب عن البترول، ونظير حماية آبارهم، اتُفِق على خصم ٣٪ من أرباحهم من حصة طهران (رفضت الحكومة الفارسية الاعتراف بتلك الاتفاقية لعام ١٩٠٥).

وبضربة معلّم، تفاوض المندوب السامى السياسى للراج (حاكم الهند) فى بوشاير، وبروقنصل الخليج على أرض الواقع، الماچور پيرسى كوكس، بمساعدة آرنولد ويلسون الضابط السياسى المسئول، على اتفاقية عام ١٩٠٩ مع خازال شيخ محمرة (خورامشهر اليوم). تضمنت أراضيه التى كانت تعرف باسم عربستان (خوزستان) شط العرب حيث كانت أنهار دجلة والفرات وقارون تلتقى وتندمج. تم الاتفاق على أن تقوم BP بإنشاء معامل تكرير فى جزيرة عبدان التى تبعد ١٣٨ ميل عن حقول النفط. ونظير عقود استئجار سنوية تمنح الشركة بمتقضاها ستمائة فدان، توسعت لتصبح ٢٤٠٠ فدان عام ١٩١٨ لتضمن حق طريق لخط أنابيب. نظير هذا سُمِح للشيخ أن يُمنح قرضا قدرة ١٠٠٠٠ إسترلينى مع ضمان نوايا بريطانيا الحسنة وحمايتها: "ستكون حكومة جلالة الملك مستعدة لتوفير الدعم اللازم لكم للحصول على حلٍّ مُرْضٍ فى حالة انتهاك الحكومة الفارسية لنطاق سلطتكم وحقكم المعترف به على أملاككم فى فارس".

انزعجت طهران من أن البريطانيين، وفى جميع تفاوضاتهم، تعاملوا مع الشيخ العربى والزعماء المحليين وكأنهم مستقلون ذوو سيادة. بعد إتمام الصفقة عام ١٩١٠ أبحر كوكس إلى أعالى شط العرب فى لنشه الرسمى "لورانس" وكانت حمولته ٩٠٠ طن، وخلع على الشيخ، فى حفل رسمى مهيب، وسام القائد الفارس من أعلى المراتب فى إمبراطورية الهند، ومنحه البريطانيون أيضا تحية من ١٢ طلقة مدفعية. ومقابل ذلك، أمدهم الشيخ بألف عامل من القرى المحيطة، وفى انتهاك منهم للسيادة الفارسية، فُتِحت على الفور مظلة حماية بريطانية على الحقل،

فيما تم استيراد ألف عامل آخر من الهند. اعترف ويلسون فى مذكراته حول تلك التفاوضات قائلاً: "قضيت أسبوعين أتدبر شأن شركة النفط، وأتوسط بين الإنجليز الذين لا يستطيعون دائما أن يقولوا ما يعنونه والفرس الذين لا يعنون دائما ما يقولونه. فكرة البريطانيين عن الاتفاقيات هى أنها وثائق مكتوبة بالإنجليزية تصمد أمام هجوم المحامين فى المحاكم: أما فكرة الفرس فهى أنها إعلان عن نوايا عامة من الطرفين، مع دفع مبلغ نقدى كبير سنويا، أو دفعة واحدة".

خصصت BP أفضل الوظائف للبريطانيين والهنود، وأوكلت إلى الفرس الأعمال الوضيعة، مما أصبح مصدر شكوى مزمنة. احتل الأجانب أفضل المنازل، وحصلوا على عضوية النادى الفارسى النخبوى، وألحقوا أطفالهم بمدارس فى كانتونات منفصلة، حتى أنه كان ثمة نوافير كُتب عليها "محظورة على الإيرانيين" مما غذى دورة الاستياء الذى ظل قائما والذى ميز العلاقات فيما بعد.

كانت السرعة التى بها ألزمت بريطانيا نفسها بالنفط الفارسى مدينة بالكثير للصداقة القائمة بين دارسى، والأميرال السير چون فيشر رجل البحرية البريطانى البارز و"المهووس بالنفط". كان أول لقاء لهما فى يونيو ١٩٠٣ بمرينباد المنتجع الصحى البوهيمى الراقى، الذى كان "جاكى" فيشر يرتاده بانتظام للراحة والمتعة والانغماس فى الرقص الذى أولع به طوال حياته. كان اهتمام فيشر المسيطر هو تحويل البحرية البريطانية من الفحم إلى النفط. راقه دارسى، وحينما أصبح لورد البِحَار الأول بعد ذلك بعام، وجد فيشر الدعم الضرورى للإبقاء على العملية الفارسية قائمة. ثم تلاقت كل هذه العناصر - تزويد الأسطول البحرى بالنفط، امتياز دارسى. والاستراتيجية البريطانية - عام ١٩١١ حينما أصبح ونستون تشرشل، وكان مازال عضو برلمان بازغاً، لورد الأميرالية الأول. كان تشرشل معجب چاكى فيشر المكرس، وتمكن من إغراء الأميرال العجوز - الذى كان قد

تقاعد وكان يبلغ من العمر ضعف أعوام تشرشل السبع وثلاثين - يترأس اللجنة الملكية للوقود والآلات.

كان قد تبدى فى آفاق عابرات المحيطات البريطانية أسطول ألمانيا البازغ ذو البوارج الثقيلة. كانت السفن التى تعمل بالنفط أسرع، وتقطع مسافات أطول، ولا تحتاج إلى فصائل من الوقّادين أقوياء الجسد. قام تشرشل، وقد تسلح بهذه المعلومات بالمضى قدما فى تنفيذ المشروع وأصبح التحول واقعا. لكن إحلال النفط الذى لم يكن متوفرا لدى بريطانيا أو مستعمراتها، محل الفحم الذى كانت تمتلكه بكميات كبيرة، تطلب ٥٠ ألف طن من النفط سنويا. فى ١٧ يونيو عام ١٩١٤ وضع تشرشل أمام البرلمان اقتراح شراكة جسوراً: تستطيع الحكومة البريطانية نظير ٢,٢ مليون إسترلينى تملّك ٥١٪ من أسهم شركة دارسى الأنجلو/فارسية للنفط إضافة إلى مقعدين فى مجلس إدارتها المكون من البريطانيين فقط. بإمكان ذلك أن يضمن للبحرية الملكية الحد الأدنى من أسعار نفط APOC لمدة ثلاثين عاما، الأمر الذى ثبتت صحته بالفعل (ظلت الأسعار المحددة سرا لعقود عديدة). فى ٢٨ يونيو وافق البرلمان على صفقة لم يكن ثمة منافس لها سوى الانقلاب الذى قام به ديزرائيلى بحصوله على حصة الأغلبية من أسهم شركة قناة السويس. فى نهاية الحرب، علق كيرزن بالقول إن الحلفاء "طفوا إلى النصر على موجة من النفط".

لدى اندلاع الحرب العالمية الأولى، أعلنت فارس على الفور وقوفها على الحياد رغم أن مشاعرها كانت مع ألمانيا التى كانت تخوض حربا مع أعدائها القدامى بريطانيا وروسيا. لم يردع هذا الطرفين المتحاربين عن انتهاك الأراضى الفارسية منذ الطلقة الأولى وحتى وقت طويل بعد الطلقة الأخيرة. حينما بدأت الحرب العالمية الأولى احتلت القوات الروسية تبريز، مشهد ومدناً شمالية أخرى. احتل الطابور الخامس الروسى، أى فرقة القوقاز الفارسية المدعومة من القيصر والتى يقودها ضباط روس، موقعا قرب طهران وأقامت حامية هناك. ثم حينما انضمت تركيا إلى

القوى المركزية فى نوفمبر ١٩١٤، دخلت كتائبها إلى المنطقة الغربية فى إيران لتحول دون مزيد من الإغارات الروسية. وزاد الفوضى فرقة درك فارسية تشكلت مؤخرا وكان يُعتقد أن ضباطها السويديين موالون لألمانيا.

وحتى قبل اندلاع أعمال القتال، أرسلت بريطانيا كتيبة فرسان هندية لتتقدم أعلى شط العرب لحماية معامل تكرير النفط. بمنتصف عام ١٩١٥ كان ثمة حوالى ٢٥٠٠ من القوات فى فارس، لكن البريطانيين كانوا قد أجبروا على سحب الحرس القنصلى من وسط فارس لتوفير القوات للجبهة الغربية ولحملة بلاد الرافدين. ثم حدث فى عام ١٩١٦ أن شكل البريجادير جنرال السير پيرسى سايكس، الضابط ولاعب البولو، والذى كان قد عمل مكتشفا وقنصلا بإيران، شكل قوة من المحليين وأدمج فيها قوة درك شيراز ووضع على رأسها ضباطاً بريطانيين. بدل السويديين الموالين لألمانيا. وبعد الثورة الروسية، كانت حتى كتيبة القوقاز الفارسية بقيادة الكولونيل ستاروسلسكى من روسيا البيضاء تعتمد على بريطانيا لدفع نفقاتها. ولدى نهاية الحرب، كاد الطعام يختفى وذلك لأن محصول عام ١٩١٧ كان ضعيفا وأخفى ملاك الأرض الفرس الحبوب على أمل الإفادة المادية من ندرة الغذاء. مما جعل الأمور أكثر سوءا هو أن الروس كانوا قد صادروا أسقف المنازل والنوافذ وإطارات الأبواب لاستخدامها وقودا للتدفئة، الأمر الذى أدى إلى تشريد آلاف الفارسيين. مات ما يربو على مائة ألف فارسى من الجوع والكوليرا، وهُجرت عشرة آلاف قرية مما دفع الدبلوماسى البريطانى هارولد نيكلسون إلى أن يُعلّق متأسيا "لقد تعرضت فارس لانتهاكات ومعاناة لم يتكبدها أى بلد محايد آخر".

كان الحرمان والفوضى منتشرين بدرجة جعلت القوات البريطانية تحتل مساحات من الأراضى الفارسية عام ١٩١٨ وذلك بشكل أساسى للحيلولة دون تقدم البلاشفة بعد الثورة فى الأراضى الإيرانية. ولدى انتهاء الحرب كان ثمة

حوالى ٥٥٠٠ رجل فى كتيبة جنوب فارس للرماة وأصرت الحكومة البريطانية، بعد أن تمددت قواتها فى بلاد الرافدين بإفراط، وفى مواجهة الثوار الأيرلنديين والاضطرابات العمالية بالداخل، أصرت على تخفيض النفقات وتسريح المجندين. وعلى الرغم من ذلك، رأى اللورد كيرزن الذى كان قد أصبح القائم بأعمال وزير الخارجية، وقد خشى من توجه البلشفيك نحو الهند، رأى أن الوقت كان حان لوضع علاقات بريطانيا مع فارس على أسس ثابتة. وفى مذكرة لمجلس وزرائه، ذهب إلى أنه من المستحيل أن نسمح لفارس "أن تتحلل وتفسد بهذا الأسلوب الغريب.. إن موقعها الجغرافى، ومصالحنا الهائلة فى ذلك البلد، وأمن الإمبراطورية الشرقية فى المستقبل، يجعل من المستحيل علينا الآن- كما كان من المستحيل علينا أيضا فى أى وقت فى غضون الخمسين عاما الأخيرة - ألا نبالى بما هو حادث فى فارس".

صاغ كيرزن بنفسه معاهدة جديدة ردد بندها الأول "بأسلوب بالغ النمطية التعهدات التى قدموها تكرارا فى الماضى بالاحترام المطلق لاستقلال فارس وسلامة أراضيها". أجازت المعاهدة الأنجلو/فارسية (فى بند عرّفه السير پيرسى كوكس بأنه "مساعدة مباشرة") تعيين خبراء بريطانيين لإنشاء جيش قومى، وبناء خطوط السكك الحديدية، والتزويد بالأسلحة، وإعادة تنظيم الشئون المالية القومية، ومراجعة التعريفة الجمركية - يموَّل كل هذا من قرض قدره ٢ مليون استرلينى يُسدد من العوائد التى يجمعها المسئولون البريطانيون. كانت مبادرة استثنائية من حيث سوء التوقيت. نظر الفرس إلى ذلك المخطط ذى النوايا الحسنة وسيئ التوقيت فى آن على أنه دليل على رغبة بريطانيا فى أن تحول فارس إلى دولة أخرى تابعة عميلة مثل مصر.

حينما سئل عن تصوره لمجابهة المعارضة الفارسية للمعاهدة، كان جواب كيرزن الفورى "سيتم تسوية المسألة بالنقود". وبعد تفاوضات مستطالة أجراها السير پيرسى كوكس الذى كان قد أصبح الوزير المفوض فى طهران، وفى وجود الأموال

السائلة للتزييت، قُدّرت بـ ١٣١٠٠٠ إسترليني - دُفعت سرا للثالوث الذى كان يدير الحكومة، تم توقيع المعاهدة فى أغسطس ١٩١٩ . زعم كيرزن النصر قبل الأوان ("انتصار عظيم حققته وحدى بمفردى"). حينما افتتضح أمر الرشاوى، اعترض المجلس سبيل المعاهدة، وسقط ثلاثة رؤساء وزارة متتالين (غفل كيرزن عن الانتباه لمسألة فنية: اقتضت المادة الرابعة والعشرون من دستور فارس دائم الانتهاك مصادقة المجلس الذى لم يكن قد اجتمع منذ عام ١٩١٥، على المعاهدات).

ومن حسن حظه، هرب كوكس إلى بلاد الرافدين تاركا خليفته هِرمان نورمان يواجه غضب كيرزن. حذر نورمان قائلاً: "نحن نحلّ محل الروس المكروهين وعلى حكومة جلالته أن تقرر ما إن كنا سنسمح بفقد النقود التى أنفقناها فى فارس، وتدمير تجارتنا.. وانهيار مصالحنا ووضعنا فى البلد.. ونبذ سياستنا كما تمثلها الاتفاقية الأنجلو/فارسية، وتحويل بلاد الرافدين إلى مكان لا يحتمل، وتهديد لتحكمنا فى الهند". يبين السير دنيس رايت أن نورمان استمر "يحذر كيرزن فى خلال سلسلة من التقارير الشجاعة من أنه يراهن بنقوده (بأسلوب يكاد يكون حرفياً) على الخيول الفارسية الخطأ ومن أنه من المستبعد أن تنجح معاهدته المقترحة. لم يكن هذا ما كان كيرزن يود أن يسمعه، أو ما كان مستعدا لتصديقه. ونتيجة لهذا، استُدعى نورمان، الذى أثبتت الأحداث صواب آرائه، إلى لندن ولم يُعيّن مرة أخرى أبدا فى وزارة الخارجية".

●●●

نشرت الثورة البلشفية وما تبعها من حرب أهلية بين الجيوش الحمراء والبيضاء فى القوقاز وآسيا الوسطى - الفوضى على حدود فارس الشمالية. فى عام ١٩١٨ فشلت حملة إلى باكو بقيادة الماجور چنرال ليونيل دانسترفيلد وأُجبر البريطانيون على الانسحاب. وفى فجر ١٨ مايو ١٩٢٠، استولى الجيش الأحمر على أسطول صغير لروسيا البيضاء عند بندر أنزلى على بحر قزوين الذى كان، اسمياً، تحت

الحماية البريطانية. وتبعا لذلك، تشكل حزب شيوعى فارسى فى الإقليم. كان من الواضح عدم قدرة القوات البريطانية المتقلصة على حماية حليفتها. وعلى الرغم من ذلك، أمرت الحكومة البريطانية بتسيير جيش آخر، فرقة فارس الشمالية الغربية، إلى طهران ومحيطها فى خريف ١٩٢٠ .

كان الماجور جنرال المفعم بالحيوية السير إدموند أيرونسايد هو قائد هذه الفرقة. كان قد وُلِد عام ١٨٨٠ لكبير أطباء خيالة المدفعية الملكية الإسكتلندى. كان أيضا لغويا موهوبا لدرجة أنه تعلم اللغة الأفريكانية كى يصبح عميلا سريا فى حرب البوير. ومع توارد ذكره فى الرسائل والبرقيات لشجاعته فى جنوب إفريقيا، تجذّرت أسطورة أيرونسايد - زُعِم أنه ضغط على أحد البوير حتى الموت بيديه العاريتين. بعد ذلك، وكجاسوس مُتخفٍ كسائق سيارات من البوير، رافق حملة ألمانية عسكرية إلى جنوب غرب إفريقيا (ناميبيا اليوم) كانت مهمتها سحق تمرد للأهالى. كانت تلك الواقعة وراء النظرية القائلة بأن أيرونسايد كان النموذج الحى الواقعى الذى ألهم الكاتب چون بيوكان بشخصية الجاسوس الإسكتلندى الخارق ريتشارد هاناى فى روايتيه "الدرجات التسع وثلاثون" و"المعطف الأخضر". وكضابط مدفعية، كان بين أوائل الضباط البريطانيين الذين رسوا فى فرنسا عام ١٩١٤ . انتهى من الحرب وهو برتبة بريجادير جنرال، وبعد الهدنة، أُرسل كقائد عام لقوات مختلطة من البريطانيين والفرنسيين والروس البيض كانت تحارب البلشفيك فى شمال روسيا بين عامى ١٩١٨- ١٩١٩. أشرف أيرونسايد، يرافقه كلبه الضخم القوى، وكان قد عُرِف عنه آنذاك أنه "أستاذ فن الانسحاب" على انسحاب القوات من تلك المغامرة التى كان محكوما عليها بالفشل. مُنح وسام الفروسية، ورُقى إلى ماچور جنرال (لواء) وكان أصغر من يحمل تلك الرتبة فى الجيش البريطانى. ثم بُعث به إلى المجر التى كان يحكمها الأميرال ميلكوس هورثى ليشرف على جلاء آخر - جلاء القوة الرومانية المحتلة - ولرسم الحدود بين

البلدين. تبع ذلك انسحاب ضخم شامل أيضا فى تركيا، حيث تولى قيادة جيش أنجلو/يونانى كان قد قام بمحاولة فاشلة لاقتطاع جزء من الإمبراطورية العثمانية.

بعد أن التقت چرترود بل ذلك الضابط الذى كان يزن ٢٧٥ رطل (١٣٢, ١١١ كيلو) بالعراق، كتبت تقول: "إنه مخلوق فذ، كونه أولا أحد أضخم من رأيتهم من الرجال، وثانيا، لما لديه من معرفة سليمة دقيقة بالأمور ابتداءً من أرخانجلسك (مرفأ فى أقصى شمال روسيا) وحتى البحر الأسود. ماچور جنرال فى السابعة والثلاثين. مترجم من الدرجة الأولى بسبع لغات- وكل ذلك ليس بالهيّن، لكن فوق كل شىء فهو رجل، من ذلك النوع الذى يمكن إيجاد وظيفة نافعة له فى شمال فارس". يصف چون سى. كيرنز فى مدخله الصريح بـ "معجم البيوجرافيا القومى" أيرونسايد كما يلى:

"سليم الجسد، قوى البنية، وسيم فى شيخوخته، لديه ما يشبه الذاكرة الفوتوغرافية، دافئ المشاعر، حساس، تلقائى، متقلب المزاج، غير مجامل. لا تكاد تكون لديه أية ذائقة للموسيقى أو الشعر، والقليل منها للمسرح، ولا يتذوق الرقص بإطلاقه، لكن يكتب بسهولة وبدون أخطاء، وأفضل بكثير مما يعتقد. يبهجه التصوير، المعمار، والحرف اليدوية. ليس غريبا على التحيزات العرقية الثقافية والذكورية الفجة لطبقته وأمته وزمانه، من ثم كان يصدر أحكاما قاسية فظة حتى على الأصدقاء، ودائما نقدا مدمرا للآخرين- وبخاصة مارشالات القوات الجوية، والجنود الانتهازيون، والسياسيون، ودعاة السلام من أساتذة الجامعة، والدبلوماسيون، ورفاقه على متن البواخر، وجميع النساء تقريبا العاملات فى مجال كان يعتبره قصرا على الذكور، وغالبية الأجانب. ولأنه كان متيقنا من سمو البريطانيين، فقد جاهر بكراهية خاصة للأيرلنديين، اليهود، اللاتينيين، و"الأعراق الأدنى"، أى غالبية البشر".

كانت الأوامر الصادرة إلى أيرونسايد بفارس هى "التمسك بالقلعة حتى صدور

قرار مجلس الوزراء بانسحاب جميع القوات.. عدم توريط القوة فى البلد (فارس).. استخدام نفوذه لقمع ستاروسلسكى (قائد القوقاز الفرس).. والقوات الفارسية الأخرى (المعادية) للسلطات السياسية فى لندن". لكن أيرونسايد وسع نطاق الأوامر الصادرة إليه بتجربة حظه فى مجال صناعة الملوك.

فيما كان البريطانيون ينسحبون، وحكومة طهران تفقد سيطرتها على البلد حيث كان هرمان نورمان يعمل فيه وزيرا (مفوضا) قليل الحظ وينفذ أوامر كيرزن، بدأ أيرونسايد أيضا الذى شكّ فى استراتيجية الحكومة البريطانية التى كانت تقضى بتقدم القوات - رأى أنه "يجب الدفاع عن الهند من خلف حدودها، وليس من أمامها - فى تنفيذ سياسته الخاصة بفارس مستقلا. رفض المصادقة على الأعباء المالية - التى كانت تتحمل غالبيتها حكومة الهند - والتى جلبتها سياسة كيرزن التى تقضى بتقدم القوات. رأى أنه حتى لو نجح التقدم باتجاه الهند سيؤدى هذا إلى ترك حدود فارس مع روسيا دون دفاع على حين أن جبال الهند تجعل الاحتياج الروسى أمرا مستبعدا. أعتقد أيرونسايد، ووافقته حكومة الهند، على أنه من الضرورى فقط الدفاع عن جنوب فارس حيث تقع مصالح بريطانيا النفطية ومنشآتها. رأى أيرونسايد، وفقا لما سجله فى مذكراته أن "الديكتاتورية ستحل مشاكلنا وتجعلنا نغادر البلد دون أى قلق أو عناء بالمرة".

بدأ باجتثاث الضباط الروس من كتيبة القوقاز الفرس التى كان يقودها الكولونيل ستاروسلسكى، لكنها كانت تُزود بالتجهيزات من المخازن والمحال البريطانية وتُدفع نفقاتها بأموال بريطانية. ثم، وبمساعدة الليفتنانت كولونيل هنرى سميث، قام بهندسة الإطاحة بالقائد الروسى الأبيض. دعم نورمان قرار فصل ستاروسلسكى. وافق أحمد شاه على مضض، لكن رئيس الوزراء الذى استقال احتجاجا على هذا عارضه. حذر كيرزن الوزير المفوض نورمان، حيث كان مازال يأمل فى المصادقة على المعاهدة الأنجلو/فارسية وينظر إلى تلك الأحداث من بعيد

باستياء، حذره قائلاً: "لابد أن تدركا بوضوح، فى اختياركما لسياسة جديدة، وانتقائكما لعملاء جدد لتنفيذ تلك السياسة، أنك والجنرال أيرونسايد قد اضطلعتما بمسئولية ليست هينة، مسئولية تقتضى أن يبررها نجاحكما".

وفى تلك الأثناء كان أيرونسايد قد أبصر أثناء عرض عسكرى الكولونيل رضا خان، منتصبا كمدق البندقية أسفل قبعته المصنوعة من صوف الغنم النفيس، متينا مثل بووتس مصنوع من الجلد، والذى كان يكنى بـ "رضا المدفع الرشاش" (لأنه كان يحمل مدفع فرقته ماركة ماكسيم). علّقت ڤيتا ساكڤيل - وِست بالقول "لا ريب أنه كان له حضور ملكى. لكن ذلك الرجل المُنذر بأنفه الضخم، وشعره الأشيب، ودمدمته المتوحشة" ينم مظهره عن أنه "جندى فى فرقة القوقاز". تردد أيرونسايد. سجّل فى مذكراته ما يلى "رجل، وأكثر من قابلتهم إلى الآن استقامة (انتصابا). بدا وأنه حياة العرض العسكرى الحقيقية وروحه". عيّن أيرونسايد رضا خان قائدا لفرقة قوقاز قزوين. قبل مغادرته فارس إلى القاهرة فى ١٢ فبراير، أبلغ أيرونسايد رضا خان، فى لقاء عقده معه ومع سميث، الذى كان، واقعياً، قد أصبح كبير أمناء الإمدادات لفرقة قوقاز قزوين وصراف رواتبها، أبلغه أن بريطانيا لن تعارض فى استيلائه على السلطة إذا وافق على عدم الإطاحة بأحمد شاه. وافق رضا خان. فى ليلة ٢٠- ٢١ فبراير، قاد رضا خان مسيرة استمرت طوال الليل إلى طهران على رأس رتل مكون من حوالى ستمائة قوقازى[١]. كانت طهران بدون دفاعات. وكانت الأوامر قد صدرت إلى فرقة الدرك والشرطة بالبقاء فى مقارهم. و فى انقلاب، كاد يكون أبيض، أطاح رضا خان بمجلس الوزراء. فى وقت الانقلاب، كان أيرونسايد قد نجا بأعجوبة من ارتطام للطائرة لدى هبوطها فى المرحلة الأولى من رحلته إلى مؤتمر القاهرة. يكتب ريتشارد أولمان، الباحث بجامعة برينستون، فى سرده الدقيق

(١) تتراوح الأرقام حول عدد القوقازيين بين ستمائة وثلاثة آلاف. وقد أخذنا الرقم الأقل الذى ذكره اللفتنانت جنرال مرتضى يازدا بانه الذى شارك فى الانقلاب. (المؤلفان).

لأحداث ١٩٢٠- ١٩٢١ "من غير المجدى التكهن عما إن كان لرضا خان أن يمسك بالسلطة فى وقت أو آخر حتى لو لم يختره أيرونسايد (للمهمة)، لكن من الواضح أن أيرونسايد ومعه زملاؤه البريطانيون كان لهم الدور الأكبر فى وضع رضا خان فى مركز مكنه من القيام بانقلاب ٢١ فبراير عام ١٩٢١ الأمر الذى وضع السلطة الفعلية فى يديه". فى ٢٣ فبراير ذكر أيرونسايد، الذى كان ببغداد آنذاك، فى مذكراته "أتخيل أن الجميع يعتقدون أننى قد هندسَت الانقلاب العسكرى، وأعتقد أننى فعلت بمعنى محدد".

فى إبريل، انسحبت "قوة جنوب غرب فارس" من طهران وتركت وراءها أسلحة صغيرة، ذخائر، مدفعية، وحيوانات - هدايا لقوزاق رضا. وعلى الرغم من أن أيرونسايد كان قد حذّر نورمان المتشكك قبل الانقلاب، إلا أن كثيرا من المسئولين البريطانيين تفاجئوا. تحول هذا إلى استياء حينما قام سيّد ضياء الدين طبطبائى، رئيس الوزراء الذى عُين مؤخرا، وكان قبل ذلك رئيس تحرير إحدى الصحف، باعتقال أصدقائهم الأقوياء الأثرياء، على الأرجح لإجبارهم على دفع ثرواتهم التى اختلسوها. لكن سيد ضياء الدين مضى يمارس إصلاحات اقتضت أحد أمرين كلاهما بغيض: قروضا أجنبية أو مزيدا من الضرائب- وغدا تحالفه الذى توسط فيه نورمان مع رضا، الذى أصبح وزير الحرب، قصير الأجل. تخلص منه رضا بدعم من الشاه والوزير السوفييتى المفوض. علقت جرترود بِل من بغداد، يوم ٢٩ مايو قائلة: "أخبارنا هذا الأسبوع فارسية بشكل رئيسى. سيُلقى سقوط سيد ضياء الدين بلاد فارس فى بوتقة انصهار، وأخشى أن السائل الناتج سيكون شديد الانفجار. أطاح به قائد فرقة القوقاز، شخص يدعى رضا خان وهو جندى جاهل ليست له أية قدرة على الإدارة، ويعمل جاهدا على إقامة ديكتاتورية. وبمجرد انسحاب قواتنا، استولى على السلطة الفعلية فى البلد".

كان من أولى إجراءات النظام الجديد استدعاء المجلس الذى رفض أعضاؤه

معاهدة كيرزن، وتعمدوا فعل هذا فى ذات اليوم الذى وقّع فيه مبعوثو بلدهم معاهدة روسية/ فارسية (كان البلاشفة، فى خطوة محسوبة لكسب استحسان الفرس وتعويق التوسع البريطانى، قد ألغوا بالفعل معاهدة ١٩٠٧ الأنجلو/روسية، وأعلنوا المزاعم القيصرية جميعها باطلة وكأن لم تكن). أذعن كيرزن لفشل سياسته رغم أنه فضل إلقاء اللوم على الآخرين زاعما أن سحب القوات البريطانية قد حطم ثقة الفرس فى استعداد بريطانيا وقدرتها على حماية فارس. أسهب نيكولسون فى هذا الصدد حيث قال "كان الأخطر هو فهمه الخاطئ لموقف الرجل الفارسى العادى من روسيا وبريطانيا العظمى. لم يدرك أنه فى عام ١٩١٩ كانت بريطانيا العظمى هى من يُنظَر إليها على أنها القوة القامعة، وروسيا الصديق المحتمل".

لم يقع أبدا اجتياح السوفييت لفارس كما كان كيرزن ونورمان يخشيان. وعندما أصبح القائد الأعلى للقوات المسلحة، رفض رضا الإبقاء على أى ضباط بريطانيين، كما عارض وجود المستشارين الماليين البريطانيين الذين كانوا هم أيضاً قد أُجبروا على الانسحاب فى مطلع شهر سبتمبر. سجّل وزير الشئون الشرقية، غاضبا، ما يلى "إن عداء الجماهير المزعوم، والانطباع بأن البريطانيين مسئولون عن الانقلاب العسكرى، أدى إلى الاعتقاد بأنه من المستبعد للنظام الحالى أن ينجح". ومنذ آنذاك، نظر غالبية الفرس إلى الانقلاب كبرهان على غدر بريطانيا. وأنهى سوء تعاطى كيرزن مع المعاهدة الأنجلو/فارسية، عمليا، عقدين من الهيمنة البريطانية على الشئون الفارسية.

بعث كيرزن السير پيرسى لوراين إلى طهران، التى غدت ينظر إليها على أنها "مقبرة الطموحات الديبلوماسية"، ليحل محل نورمان الذى كان قد استدعى وجُعِل منه كبش فداء لعدم التصديق على المعاهدة. كان السير پيرسى الذى درس وصُقِل فى كلية إيتون، ونيوكوليدچ أكسفورد، يجيد الألعاب - البولو، البوكر، البريدچ والطاولة. كان مُجداً، حريصا، متباعدا، نزّاعا إلى كتابة الرسائل الطنانة - خلع

عليه زملاؤه بوزارة الخارجية اسم "بيرسى المُملّ". أُعجِب الوزير المفوض الجديد، من الوهلة الأولى، برضا لصراحته وأبلغ كيرزن"يطرق فورا ما يريد قوله، لا يضيع الوقت فى تبادل المجاملات ذات العبارات الرقيقة وعديمة الجدوى فى آن والتى يولع بها الفرس.. رجل جاهل غير متعلم، لكنه لا يشى بأى تعلثم فى السلوك أو خُجل، يمتلك قدرا كبيرا من الجلال الفطرى، ولا يُستشف من حديثه أو ملامحه أى انعدام لضبط النفس".

ولأنه رأى رضا خان فائزا محتملا، اقترح لوراين اتباع سياسة حيادية جديدة. تلقى خطابا مؤيدا مطمئنا من چرترود بِل فى بغداد "يبدو وأن سياسة الجلوس بتباعد ستعمل على الدفع قدما بمصالحنا أكثر من أى دفاع حماسى عنها. غير متأكدة أنا ما إن كان هذا لا ينطبق على الشرق بعامة. إذا لم نفرض أنفسنا عليهم، فمن المؤكد أنهم سيتوجهون إلينا". وعن هذا أجاب لوراين بإدراك واعٍ "كل ما أشعر أننى متيقن منه هو أننى أتبع الخط الصواب والوحيد الذى يحتمل له أن يوصل البضاعة، وإن يكن ليس بالشكل والأسلوب المحددين اللذين قد يروقان للورد كيرزن أو كما يتوقعه. على الفرس أن يتعلموا بأنفسهم، وإذا أردناهم أن يفعلوا ذلك فمن غير المجدى التدخل فى شئونهم، ناهيك عن التدخل والتظاهر بأننا لا نفعل. هذه السياسة بدأت تحدث أثرا. ومعسكرى، وبالرغم من صمته وجبنه، آخذ فى النمو باضطراد".

لكن، وعلى الرغم من قَسَمِه على عدم التدخل، دعم لوراين رضا بأساليب عديدة مهمة. أقنع لندن بإقراض رضا النقود لجيشه، والذى كان قد بلغ تعداده ثمانية عشر ألف جندى؛ أقر مهمة الأمريكى إيه. ميلسپو لإصلاح أمور فارس المالية وتقويمها؛ وإنحاز إلى رضا ضد حليف بريطانيا الشيخ خزال.

تعتبر قصة علاقات بريطانيا العظمى بخزال، شيخ المحمرة، شائنة حتى وفقا للمعايير الإمبريالية الفجة. فى عام ١٩٢١، قدم خزال الذى كانت أراضيه القبلية

تضم (إلى جانب عبدان حيث توجد معامل التكرير) جزءا من المساحة حول البصرة، قدم نفسه كمرشح للعرش العراقى. ثم فى عام ١٩٢٢، اقترح تقسيم إيران ورشح نفسه حاكما لجنوب فارس فى المستقبل. استبقه رضا خان الذى كان مكرسا لحكومة مركزية قوية بإجراء دفاعى، بأن زعم أن الشيخ توقف عن سداد مبلغ كبير من المال ضرائب مستحقة لطهران، فيما زعم خزال بدوره أنه قد دفع مبلغا مماثلا نفقات دفاع عن حدود فارس الجنوبية أثناء الحرب. فى عام ١٩٢٣، استقبل سعادة الشيخ السير خزّال خان، لوراين فى المحمرة وتحدث عن ويلسون وكوكس وعن ولائه لبريطانيا. (كان خزال قد برهن على أنه صديق موثوق، ودافع عن مصالح بريطانيا النفطية ومنشآتها أثناء الحرب، وفى عام ١٩١٩، أهداه البريطانيون سفينة بخارية نهرية، وأربع مدافع جبلية، ومدافع لإطلاق التحية فى المراسم والمناسبات، وثلاثة آلاف بندقية من أحدث طراز نظير خدماته). كان لوراين يحمل رسالة من رضا خان أكد فيها أنه لا يكن للشيخ نوايا خبيثة، وأنه يُعوّل على تعاونه. حاول لوراين أن يكون وسيطا، وانتزع اعتذارا متواضعا من الشيخ، ووعداً (حنث به فيما بعد) من رضا خان بعدم العبور إلى أراضى الشيخ بخوزيستان. لكن فى ربيع عام ١٩٢٤، دعا خزال البختياريين والقشاجيين إلى الانضمام إليه لمقاومة الحكومة. مازال من غير الواضح ما إن كان خزال قد توقع دعما بريطانياً، لكن رضا خان رد على هذا الإجراء بحشد جيش كبير على حدود خوزيستان.

تُرِك للوراين أمر تقرير الوفاء بعهود بريطانيا التى قطعها پيرسى كوكس وأرنولد ويلسون (الذى كان آنذاك قد أصبح يترأس عمليات APOS فى الخليج الفارسى) على نفسيهما بإرسال قوات من الهند لمساعدة خزال وعدم السماح لرضا بأن يهيمن، انصاعت المبادئ للذرائعية والمنفعة، ولم يحرك البريطانيون ساكنا فيما تقدم رضا خان واستسلم خزال لقوات خان التى تفوق قواته عددا ووعد الشيخ رضا خان بولائه وأقسم على دفع الضرائب المستحقة المتأخرة.

وعلى الرغم من ذلك، تم إلقاء القبض عليه وحُمِل إلى طهران. وكما كان السير أير كرو، و كيل وزارة الخارجية الدائم، قد حذر لوراين، فقد كانت بريطانيا "دولة قليلة التسلح.. يعارض الرأى العام فيها أى استخدام للقوة فى أية ظروف - سواء كان ذلك فى حال القضية العادلة، أم الخطأ". ونظراً لدعمه "الجواد الرابح" كوفئ لوراين بمنحه مرتبة الفروسية، وإحدى كبرى جوائز الإمبراطورية: أصبح مندوب بريطانيا السامى فى مصر والسودان فى عام ١٩٢٩ . لكن، وكما اعترفت جرترود بِل، فإن لوراين "قد خدع رضا خان لوراين تماما فيما يتعلق بشيخ المحمرة رغم أنه ماضٍ فى كتابه عدداً ضخماً من الرسائل ليثبت أنه لم يخدعه. قد يكون قد نجح فى إقناع حكومة جلالة الملك بذلك، رغم أنه لم يقنعنا". ظل الشيخ رهن الإقامة الجبرية فى طهران إلى أن توفى فى ظروف ملتبسة عام ١٩٣٦. (اتخذ وريثه عبدالله خطوة حكيمة بأن هرب إلى العراق). ظلت بِل تنتقد دور حكومة جلالة الملك فى العملية (هذا على الرغم من أن السير پيرسى كوكس كان هو من أجرى التفاوضات فى البداية): "كان من المؤسف أننا كنا معتادين على الدخول بخفة فى ارتباطات سيكون تنفيذها بالغ الصعوبة لدى الحاجة إلى ذلك. بالطبع، فقد خذلنا الشيخ، لكن أكان من الممكن لأية حكومة أن تدخل فى حرب مع بلاد فارس.. من أجله؟ كانت حكومة جلالته على استعداد، فى لحظة الخطر الحاسمة، أن تستدعى فرقتين من الهند، بتكلفة مرتفعة، وفى تلك اللحظة كنا متورطين فى مأزق بمصر وكانت فكرتهم الوحيدة هى تحاشى أية التزامات أخرى".

كان إخضاع خزّال الخطوة الأخيرة فى توحيد رضا خان لإيران، والآن، أعطى لوراين الضوء الأخضر لرضا خان ليرتقى العرش. حينما أُبلغ بأن رضا خان يريد التخلص من القاجار لكنه كان يخشى ألا توافق لندن، أبلغ لوراين المسئول الذى حمل الرسالة "عن نفسى لم أعرف ما كان يأمل رضا خان فيه أكثر من موقفنا الموالى الودى، وعدم التدخل التام". وحينما قام المجلس بخلع الشاه القاجارى،

وبعد أربعة أشهر توج رضا نفسه بصفته رضا شاه بهلوى شاهنشاه بلاد فارس، جاء تعليق وزارة الخارجية "لقد مرّت الثورة بهدوء". لكن، حينما سقط الملك المخلوع، فقد البريطانيون امتيازاتهم، محاكمهم القنصلية الثلاث وعشرين، مرافقيهم من جنود السوّار، تحيتهم العسكرية بالمدافع، قواعدهم البحرية الفارسية، ومقر المندوب السامى المستقل ذى السيادة ببوشاير.

من كان رضا خان، الذى، وبدعم من البريطانيين، تولى الدور الرئيسى على المسرح السياسى بفارس؟ ولد عام ١٨٧٨ بقرية الشط الصغيرة بالشمال لأب فارسى وأم قوقازية تتحدث التركية. فى الخامسة عشرة، وكان لم يتلق أى تعليم تقريبا، تطوع صبياً باسطبلات الفيلق القوقازى، وبفضل ديناميته وقدراته الطبيعية وصل إلى رتبة كولونيل فى عام ١٩١٥. اكتسب صيتا "كرجل مطافئ": أى كشخص يخمد الاضطرابات أو يطوق اللصوص ويجمعهم. كان فى الثالثة والأربعين وقت الانقلاب.

قبل أن يؤسس سلالة بهلوى الملكية، كان رضا خان قد غازل فكرة إعلان جمهورية على غرار كمال أتاتورك، الجندى/ الإصلاحى التركى الذى كان يسعى رضا إلى محاكاته. زعم ملك الملوك أنه حاكم بالرغم منه، وافق على اعتلاء العرش فقط بناء على إلحاح الملالى الذين اعتقدوا أن الأمور فى بلاد فارس المحافظة ستكون أفضل فى ظل حكم الشاه منها فى ظل حكم ديمقراطى. آنذاك كانت الألقاب الملكية قد انتشرت فى هواء الصحراء - الملك فيصل، الملك ابن سعود، الأمير عبدالله. من ثم، اختار رضا اسم "عرش الطاووس". هذا الخيار يوحى بمقدار الفرق بين الرئيس أتاتورك ورضا شاه. أراد رضا كلتا الحسنيين: الحفاظ على الامتيازات الإقطاعية مثل الولاء، وأيضا السعى للمكانة الكوكبية بصفته عاهل فارس المستنير التحديثى.

وعلى غرار أتاتوك، أنشأ رضا شاه جيشا قوميا موحدا قوياً. أدمج البلد ومَدَّ

خطوط السكك الحديدية فى بحر قزوين إلى الخليج الفارسى (الأولى فى بلاد فارس)، أنشأ ٢٥٠٠ مدرسة وعديدا من المستشفيات ومصانع أسمنت ونسيج تعمل بالطاقة وزودها بخطوط كهربائية جديدة. علاوة على هذا، أرسل بعثات للدراسة بالخارج وبخاصة فى الجامعات الألمانية والفرنسية. نزع أسلحة القبائل وقوض سلطة العلماء، واصطدم مع الملالى حول زى المرأة - عمل على إصدار قانون فى عام ١٩٣٩ مَنع النساء اللاتى يرتدين الشادور من الدخول إلى الفنادق، المطاعم، دور السينما، الحافلات، والتاكسيات، وقد أثبت هذا القانون عدم شعبيته وسرعان ما أُلغى. منع الطرابيش والسرداريات، بلاطى الرجال التقليدية. ألغى الألقاب التى كانت تُمنح لمسئولى الحكومة مثل: مساعد الملكة والمدافع عن السيادة- وكما فعل أتاتورك، أمر بأن يضاف لأسماء الأفراد الذين لا يحملون سوى أسمائهم الشخصية وأسماء آبائهم لقباً وليكن اسم مكان أو حرفة. أيضا سعى إلى تمجيد الروابط مع إمبراطويات فارس قبل الإسلامية (اكتسبت سلالته اسم بهلوى من اللغة التى كان يتحدث بها الساسانيون). أصر على إحياء اسم "إيران" القديم اسما لبلده، وهكذا أصبحت APOC عام ١٩٣٥ شركة النفط الأنجلو/إيرانية.

كانت نزوات رضا شاه لا تُحصى، وذاكرته استثنائية، وتعطشه للثأر مضربا للأمثال، وجِلدْه رقيقا كنسيج العنكبوت. لم يُسمح لنظام دستورى انتخابى أن يتجذر فى ظل أسرة بهلوى، وهذا انحراف آخر عن نموذج أتاتورك. لم يستطع الشاه، الذى لم يكن قد سافر إلى الخارج، استيعاب مفهوم الصحافة الحرة. وحينما اكتشف رضا أن الإيرانيين كانوا مازالوا يستخدمون طوابع بريد تحمل صورة أحمد شاه المخلوع، أرسل قواته لمصادرة الكمية الموجودة كلها. ظلت إيران لمدة أسابيع دونما طوابع بريدية، ونظرا لأن الطوابع الجديدة التى تحمل صورة رضا تأخرت فى الوصول من هولندا، اقتضى الأمر استعادة الطوابع القديمة

وتداولها لكن بعد طمس صورة الشاه المنفى.

كان أحد الإصلاحات الأكثر إثارة للجدل هو السماح لملاك الأراضى بمصادرة الأرض من الفلاحين التى آل الكثير منها إلى العرش. ذاعت على نطاق واسع أنباء شهية الشاه المَرضَية للأرض بدرجة أن الفرنسيين سخروا منه فى رسم كاريكاتورى يصور "Le chat de Perse" (Chat تعنى قطة بالفرنسية وتُنطَق شاه) يلتهم إيران. وحتى البريطانيون شعروا بخيبة الأمل فى رجلهم. كتب جودفرى هاڤارد، وزير الشئون الشرقية عام ١٩٢٧: "أصبح الشاه مكروها لأقصى درجة. إنه أسوأ ألف مرة من أحمد شاه من حيث حبه للأموال والأراضى، وخلال العامين منذ أن نودى به شاها، راكم ثروة ضخمة ضخمة".

وفقا لأى من المعايير المنطقية فقد كان غضب رضا شاه العارم حول النفط مبررا. كان امتياز دارسى، الذى كان مازال قائما، قد عُدِّل عام ١٩٢٠ (لكن بدرجة متواضعة كما علّق الفُرس بمرارة، وذلك بسبب أن السير سيدنى أرميتاج سِميث مسئول الخزانة البريطانى كان هو كبير المفاوضين عن الجانب الإيرانى). وحينما هبط ريع حقوق الملكية بحدّة أثناء الكساد الكبير، ألغى الشاه المتحدى فى ١٩٣٢ امتياز الشركة من طرف واحد. تبع ذلك أعوام من المماحكات التى لم تؤد إلى نتيجة حاسمة بشأن المظالم الفارسية التى كانت قد ظلت قائمة منذ وقت طويل: وهى أن الشركة فسّرت "صافى الأرباح" على أنها تنطبق فقط على عمليات داخل فارس، وأنها تهربت من الضرائب، وأنها منعت ريع حقوق الملكية تعويض عن فشل فارس الحتمى فى منع الهجمات على خطوط أنابيب الشركة أثناء الحرب. هذا علاوة على أن رضا شاه كان مستاءً من اعتراف بريطانيا بمملكة العراق الجديدة على الحدود الغربية لفارس، وهى مملكة اعتبرها "توليفة" إمبريالية. ضاعف هذا كله وعقّده وضع شركة النفط شبه الحكومى. ووفقا لتعبير دانييل يرجين، "كان بإمكان إدارة الشركة الأنجلو/فارسية أن تكرر إلى ما لا نهاية أن الشركة كانت تعمل

ككيان تجارى، مستقل عن الحكومة، لكن لم يكن لأى فارسى أن يصدق هذا التأكيد الجازم".

وأخيرا، وبعد توسط عصبة الأمم، وافق الطرَفان عام ١٩٣٣ على عقد جديد قلص امتياز الشركة الأنجلو/فارسية إلى ١٠٠٠٠٠ ميل مربع، وحدد ريع جديد عن حق الملكية بأربعة شلنات عن كل طن من البترول المباع أو المُصدَّر، مما ضمن لفارس ٢٠٪ من أرباح حملة الأسهم فى جميع أنحاء العالم التى تتجاوز ٦٧١٢٥٠ إسترلينى. ضمنت الصيغة الجديدة عائدات سنوية لفارس قيمتها ٧٥٠٠٠٠ جنيه إسترلينى على الأقل. بدا هذا انتصارا لفارس بما أن الشركة وعدت أيضا بإعادة حساب عائدات حق الملكية عن السنوات السابقة، وبالإسراع فى "فرسنة" قوة العمالة. وفى واقع الأمر، وفيما ارتفعت أسعار النفط وأرباحه ارتفاعا كبيرا فى السنوات اللاحقة، كانت قيمة ضرائب الشركة المدفوعة لبريطانيا حوالى ثلاثة أضعاف قيمة ما تدفعه من عائدات عن حقوق الملكية لإيران، وعلاوة على ذلك، لم تُتَح دفاتر الشركة المحاسبية واقعيا للإيرانيين. ومن ثم ظلت أسعار "قاع الصفقات" (أقل أسعار ممكنة) التى اشترت بها البحرية البريطانية ما تحتاجه من نفط، ظلت سرا.

لا غرو إذن، إذا أخذنا فى الاعتبار مزاجه القتالى وشكّه فى البريطانيين، أن بدأ رضا شاه يتوجه إلى ألمانيا كثقلٍ موازن محتمل فى مواجهة بريطانيا والاتحاد السوفييتى. كان الألمان قد بدأوا، فى مطلع العشرينيات، فى التقاطر على طهران: تبرعمت فجأة جميعات الصداقة، وبرامج تبادل الطلبة. تسارع هذا فى الثلاثينيات حينما سعى رضا شاه إلى تقليص حاد فى التجارة مع الاتحاد السوفييتى الذى تزايدت هيمنته. وصل التبادل التجارى مع ألمانيا إلى الذروة فى عامى ١٩٤٠-١٩٤١: أتت حوالى نصف وارداتها جميعها من الرايخ الثالث وذهبت ٤٢٪ من الصادرات الإيرانية هناك. من الصعب التأكد مما إن كان رضا شاه، أيديولوچياً،

موالياً للنازيين. أصر ابنه وخليفته محمد رضا بهلوى على أن هذا كان زيفاً، رغم أن صياغته لهذا كانت أقرب إلى القدح: "لم يثق والدى فى هتلر منذ البدايات الأولى، إن لم يكن لأى سبب آخر سوى أنه، كحاكم سلطوى كان عميق الشك فى نظيره الذى استخدم مثل تلك الأساليب الوحشية.. من الحقيقى أننا كنا نستخدم عددا من التقنيين الألمان، لكن وظائفهم لم تكن لها أية علاقة بالسياسة".

على أية حال، فقد أصبح رضا شاه يبغض بريطانيا وروسيا معا ولا يثق بهما، وبدا وأن حساباته انتهت به إلى أن هتلر سيهيمن. ومما لا جدل فيه أن الحلف النازى - السوفييتى لعام ١٩٣٩ أفقده توازنه، ولا شك أيضا أنه كان صادقا فى تأكيده على رغبة إيران فى البقاء على الحياد لدى اندلاع الحرب فى الشهر التالى. كما أنه بالإمكان فهم تشوشة وارتباكه بعد اجتياح ألمانيا للاتحاد السوفييتى فى يونيو عام ١٩٤١ حينما أصبح الروس والبريطانيون حلفاء. فى ذاك الصيف أصدروا إنذارا لفارس (كان تشرشل قد أصدر تعليماته لمسئوليه باستخدام اسم البلد القديم لأنه كان ثمة نزوع لدى القوات المسلحة للخط بين العراق وإيران) يطلبون فيه طرد جميع الألمان. وتبع الجنرال أرشيبالد ويفل الإنذار بأن كتب للشاه قائلا: "إن كانت الحكومة الحالية على غير استعداد لتسهيل ذلك، فلابد من جعلها تتنحى لأخرى تضطلع بذلك". والأهم من ذلك أن البريطانيين اعتقدوا أن إيران كانت ضرورية للدفاع عن الهند، وحينما انضمت الولايات المتحدة للحرب غدت إيران الطريق الذى كانت الإمدادات تصل منه إلى الاتحاد السوفييتى. وحينما لم ينفذ رضا شاه الإنذار، اجتاحت القوات البريطانية إيران فى ٢٥ أغسطس عام ١٩٤١ . قصفت البحرية البريطانية موانئ إيران جنوب الغربية، وتدفق ٣٥٠٠٠ جندى بريطانى على أقاليم إيران الجنوبية. عبر السوفييت حدود أزربيجان بقوات يقدر عددها ١٢٠٠٠٠ جندى، وقصفت قواتهم الجوية تبريز. وتحت وقع الانسحاق انهار الجيش الإيرانى فى غضون يومين وتوسل السلام. تنحى الشاه موضحا لابنه

"لا أستطيع أن أكون رئيسا اسميا لدولة مُحتلة يُملى علىَّ فيها الأوامر ضابط صغير إنجليزى أو روسى".

سرعان ما نادى المجلس بمحمد رضا بهلوى، الذى كان فى الحادية والعشرين، ملك الملوك الجديد فيما كانت القوات البريطانية والسوفييتية تدخل طهران. وُضِع الشاه السابق ومعه أسرته على متن سفينة بريطانية اتجهت إلى جزر الموريشيوش بالمحيط الهندى، حيث تلا عليه الخبيران المحنكان فى لعبة القوة الأوراسية (الأوربية الآسيوية)، السير كلارمونت سكراين، نائب القنصل السابق بكرمان، والسير أولاف كارو، حاكم حدود الهند البريطانية الشمالية الغربية فى المستقبل تليا عليه التعليمات والأوامر بأسلوب مهذب. اشتكى رضا شاه من مناخ مورشيوس غير الصحى، وبعد بعض التفاوضات، نُقل إلى جوهانسبرج بجنوب إفريقيا حيث وَضِع رهن الإقامة الجبرية حتى وفاته من أزمة قلبية عام ١٩٤٤ .

أما عن صناع الملوك، فقد تَوجّ السير پيرسى كوكس حياته الوظيفية بتعيينه مندوبا ساميا بالعراق. مُنِحُ وسام الفروسية GCMG عام ١٩٢٢، وترأس لجنة قمة إڤرست، وأصبح رئيس الجمعية الجغرافية الملكية فى عام ١٩٣٣. سَمىَ الآباء العراقيون جيلا من أطفالهم "كوكوس" تكريما لذكراه. رفض كيرزن لقاء هرمان نورمان بلندن بعد استدعائه هناك فى أعقاب كارثة المعاهدة. رفض نورمان تعيينه وزيرا مفوضا فى سنتياجو وتقاعد عام ١٩٢٤ . ولدى نهاية الحرب، كان السير پيرسى سايكسِ الذى جاهر بمعارضته للمعاهدة عام ١٩١٩، قد عمل بذلك على نفور كيرزن منه الذى حرص على ألا يُعين سايكس فى أى منصب آخر. أيضا، كان قد تسبب فى غضب وزير الخارجية السير آرثر بلفور بسبب غطرسته من أجل خدمة مصالحه الذاتية. استُدعى سايكس إلى لندن ثم تقاعد من الجيش. شغل سنوات تقاعده بالكتابة وإلقاء المحاضرات والمراجعات حتى وفاته عام ١٩٤٥؛ كان أيضا قد عمل سكرتيرا شرفياً لجمعية آسيا الوسطى الملكية. ترقى السير پيرسى

لوريان فى سلم السفراء وانتهى به المطاف فى روما. لكن نجاحه فى تربية الخيل، وكان هو أول من اعترف بذلك، غطى على إنجازاته السياسية (كان قد دعم استرضاء إيطاليا وفشل فى الحيلولة بينها وبين دخول الحرب). أتى ترتيب داريوس، أحد خيوله، الثالث فى سباق ديربى. مازال شعار نبالته كفارس من مرتبة سان مايكل وسان چورچ معلقاً بكنيسة هكسام، فى نورثمبرلاند. أما المتباهى الماچور جنرال السير إدموند أيرونسايد، فقد تلقى، لدى رحيله، أرفع أوسمة الفرس من الشاه، أى وسام الأسد والشمس. استُدعى من إيران ليعين رئيس الأركان العامة الإمبريالية، لكن ثبت أن التعامل معه كان أمرا صعبا. أقاله رئيس الوزراء نفيل تشامبرلين فى يناير ١٩٤٠ . أشرف فى شهرى مايو ويونيو من تلك السنة الكئيبة، على آخر انسحاب له، الجلاء عن دنكيرك. وبعيد ذلك مباشرة منح رتبة الفيلدمارشال (المشير) وتلقى عصا الرتبة. عُيِّن بعد ذلك قائدا للقوات الداخلية، لكنه تشاجر مع تشرشل الذى فضّل إدارة حروبه بنفسه. تقاعد الفيلدمارشال فجأة لكنه مُنح مرتبة البارون عام ١٩٤١ وأصبح البارون أيرونسايد. توفى عام ١٩٥٩ وشُيِّع فى جنازة شرفية عسكرية كاملة، بما فى ذلك طلقات المدفع الواحدة وعشرون للتحية، وقداس بكنيسة وستمينستر.

الفصل العاشر

الأمريكى الهادئ
كرميت (كيم) روزفلت الابن
(١٩١٦ - ٢٠٠٠)

الفصل العاشر

"أتوا وسطنا، هؤلاء الجواسيس الأمريكيون الطموحون، مثل فتيات برئيات تخرجن لتوهن في مدارس تعليم السلوك الراقي، أتوا كي يتعلموا الأساليب المحنكة المشبوهة لقدامى الممارسين - في هذه الحالة وكالة الاستخبارات البريطانية الأسطورية"

- مالكولم ماجريدج

حوليات الزمن الضائع (١٩٧٣)

- "أدينُ بعرشي لله، لشعبي ولجيشي - ولك.."

- محمد رضا شاه لكرميت روزفلت

مجتزأ ورد في كتاب "الانقلاب المضاد: الصراع للتحكم في إيران" (١٩٧٩)

"كان النهار لزِجاً والأمطار توشك أن تهطل. توقعاتى عالية، لكن كان يصحبها وخزات رعب. فى هذا اليوم ٢٥ يونيو ١٩٥٣، سيتم تقرير مسيرة الأحداث، هل ستتبع الخطة التى اتفقتَ عليها مع البريطانيين، غير القاطعة فى ذهنى، والمحسومة فى أذهانهم؟". هكذا بدأ كتاب كرميت روزفلت "الانقلاب المضاد" (١٩٧٩) الذى سرد فيه تفاصيل "الصراع للتحكم فى إيران". كان رئيس عمليات الشرق الأدنى فى وكالة الاستخبارات المركزية فى طريقه لحضور اجتماع بمكتب چون فوستر دالاس وزير الخارجية، ويحمل معه خطة من اثنتين وعشرين صفحة بها تفاصيل "عملية أچاكس" التى كانت تهدف إلى الإطاحة بالحكومة الدستورية بطهران وإحلال شخص آخر محل رئيس الوزراء الدكتور محمد مصدق. كان چون فوستر دالاس وشقيقه الأصغر آلن دبليو دالاس مدير الاستخبارات المركزية، على علم تام بالتهديد السوڤييتى لإيران، وكانا أيضا شريكين فى مؤسسة سوليڤان وكرومول القانونية

والتى كانت تمثل قائمة من كبرى الشركات متعددة الجنسية بما فيها شركة النفط الأنجلو إيرانية. كان آلن دالاس، قد قضى سنوات الحرب فى بيرن بسويسرا حيث حصل على شاراته الاستخباراتية فيما كان يعمل بمكتب الخدمات الاستراتيجية (OSS). وبعد الحرب، ساعد فى إنشاء السى آى إيه عام ١٩٤٧، متبعا الأسلوب البريطانى، بتجنيد أفضل الرجال من جامعات النخبة. كان دالاس، والذى كان يضع نسخة من رواية كيبلينج "كيم" بالقرب من فراش موته، يؤمن تماما بفكرة أن بإمكان بضعة رجال متميزين، وباستخدامهم رافعات خفية فى المكان والزمان الصحيحين، أن يحركوا العالم.

كان مجنده اللامع، والذى كان فى طريقه الآن إلى مكتب دالاس، هو كِرمِيت (كيم) روزفلت، فى السابعة والثلاثين، حفيد تيودور روزفلت، وابن بِل ويلارد (ابنة سفير الولايات المتحدة بإسبانيا) وكرميت الأب، الرحالة والجندى المرموق.كان

كرميتِ أيضا ابن عمٍ، من بعيد، لفرانكلين دى. روزفلت، وكان قد وُلِد فى بيونس آيرس، وتبع خطوات بقية الذكور فى عائلته بأن التحق بمدرسة جروتون، بماساتشوستش ثم بجامعة هارڤارد حيث تخرج بدرجة امتياز فى عام ١٩٣٧، تزوج مارى "پولى" جاديز وأنجبا أربعة أطفال. وفيما كان يدرس بهارڤارد، وبمعهد كاليفورنيا للتكنولوچيا، درس أيضا للحصول على درجة الدكتوراه فى التاريخ، وكانت رسالته بعنوان "أساليب البروپاجندا فى الحروب الأهلية الإنجليزية" وعكست اهتمام حياته بكيفية استغلال الإعلام. كتب كرميت أيضا مقالا عن نوع التنظيم الاستخبارى السرى التى ستحتاجه الولايات المتحدة فى حالة نشوب حرب. أرسل نسخة من المقال لقريبه جوزيف ألسوب الشيوعى، الذى اقترح عليه إرساله إلى رئيس OSS، الماچور جنرال ويليام دونوڤان.

بعد الحرب، التحق كيم بالسى آى إيه التى كان يعمل بها بالفعل عدد كبير من الجواسيس "الچنتلمن"، وسرعان ما ترأس قسم الشرق الأدنى وإفريقيا وكان مقره القاهرة. وصف "كيم" الثانى، أى إيتش إيه. آر. فيلبى زميله "الأمريكى الهادئ" بأنه "مستشرق دمث، خفيض الصوت، روابطه الاجتماعية راقية لا تشوبها شائبة، جيد التعليم أكثر من كونه مثقفا، كيّس ومتواضع كمضيف وضيف.. وحقا، فهو آخر شخص ممكن أن تتوقع أن يكون غارقا حتى رأسه فى الحيل القذرة". لكن روزفلت ونائبيه دونالد ويلبر ومايلز كوپلاند، مثلهم مثل فيلبى، أصبحوا مشاركين رئيسيين فى جاسوسية الحرب الباردة. ووفقا لكوپلاند، فإن نزوع روزفلت للمغامرة، هو ما حفزه فى اختياره لحياته الوظيفية.

كان الحضور الآخرون بالملابس الرسمية فى ذلك الاجتماع بوزارة الخارجية هم الأخوان دالاس، لوى هندرسون سفير الولايات المتحدة بطهران؛ تشارلس ويلسون، وزير الدفاع؛ الجنرال والتر بِدِل "بيدل" سميث، وكيل وزارة الخارجية، روبرت بووى مدير العاملين بتخطيط السياسة فى وزارة الخارجية؛ هنرى "هانك" بايرود، وكيل

وزارة الخارجية لشئون الشرق الأدنى، وإفريقيا وجنوب آسيا، وروبرت دى. مورفى، نائب وكيل الخارجية للشئون السياسية وأحد جنود الحرب الباردة البارزين.

عرض دالاس وروزفلت الخطوط العريضة لسيناريو "أجاكس" الذى استند على خطة بريطانية اسمها الكودي "عملية بووت"، راجعها دونالد ويلبر، عالم الحفريات، والمؤرخ المعمارى، وهاوى جمع السجاد، ورجل الاستخبارات البريطانية بطهران. كان هدف العملية كما وضع ويلبر تفاصيلها طبقا لنسخة السى آى إيه الرسمية للمهمة هو "التسبب فى سقوط حكومة مصدق؛ وإعادة ترسيخ مكانة الشاه وسلطته؛ وإحلال حكومة تحكم إيران وفق سياسة بناءة محل حكومة مصدق. وتحديدا، كان الهدف هو الإتيان إلى السلطة بحكومة تتوصل إلى تسوية نفطية مُنصفة، تمكن إيران من أن تصبح مستقرة اقتصاديا، قادرة على الوفاء بالتزاماتها المالية، والتى يُمكِنها بنشاط وفاعلية محاكمة الحزب الشيوعى القوى لدرجة الخطورة".

وفى نهاية العرض، طلب دالاس من الجميع الإدلاء بآرائهم. أيدت الغالبية الخطة بدرجات متفاوتة من الحماس. فقط ظل موقف بووى وبايرود من وزارة الخارجية ملتبسا. ومن الواضح، ووفقا لروزفلت، لم يكن السفير هندرسون مسرورا. قال "لا يعجبنى مثل هذا العمل بإطلاقه. لكننا نقف فى مواجهة وضع بائس وخطر، ورجل مجنون على استعداد للتحالف مع الروس. ليس لدينا خيار سوى المضى قدما فى هذه المهمة. وليكتب لنا الله النجاح". وإذا كان لنا أن نصدق مذكرات روزفلت، فحينما تمت المصادقة على خطة "أجاكس" وانفض الاجتماع، نظر دالاس حول الغرفة وقال "انتهى الأمر؛ فلنبدأ".

كان الأمريكيون، ومنذ انتهاء محاولة مورجان شوستر القضاء على الفساد الفاضح فى جباية الضرائب بفارس عام ١٩١١، كانوا قد ظلوا محبوبين فى إيران.

تذكر الأشخاص الفارسيون الأكبر سنا أن وودرو ويلسون كان قد دعم طلب فارس (والذى استخدمت ضده بريطانيا حق الفيتو بصفته تدخُلاً) لمخاطبة مؤتمر باريس للسلام من أجل الحصول على تعويضات عن الأضرار التى لحقت بها أثناء الحرب. وأيضا كان ثمة مستشارون أمريكيون أثناء صعود رضا شاه: فى عام ١٩٢٢، وصل الاقتصادى الأمريكى آرثر ميلسپوه مع مجموعة من مواطنيه لإعادة محاولة حفز إصلاح مالى بإدخال عدة ضرائب وإلغاء الإعفاءات التى كانت تُمنح لوجهاء فارس وورثتهم. ووفقا لاتفاق مسبق تلقى رضا خان، وزير الحرب وقتئذ، نصيب الأسد من العائدات لجيشه. لكن بعد انتهاء عقد الأمريكى الذى كانت مدته ثلاث سنوات (نُقل عن أحد الزوار البريطانيين أنه قال يُدير ميلسپوه شئون فارس بنفس الأسلوب الذى يدير به كرومر شئون مصر) تم إلغاؤه لعدم وصول الفيض المتوقع من رأس المال الأمريكى، أى السبب الأصلى وجود ميلسپوه.

كان البريطانيون يحترزون لعدم انتهاك منطقتهم الخاصة والمشاركة فى الغنائم. قوبلتَ معاهدة اللورد كيرزن الأنجلو/فارسية بالاستياء فى واشنطون، وأصدر روبرت لانسينج وزير الخارجية التعليمات إلى سفيره فى واشنطون جون دايڤيز بإطلاع كيرزن على عدم رضا أمريكا، لكن وزير الخارجية البريطانى الذى لم يستطع أن يستوعب الموقف، أعطى محاضرة للرسول الذى أبلغه الرسالة، أى الديبلوماسى الأمريكى كورنيليوس إنجرت، جاء بها "سيبدو من الطبيعى جدا لأى شخص مطلع على الأحوال فى فارس وطبيعة شعبها أن تتوجه إلينا فارس للإرشاد والدعم. لقد عرفناهم ربما بأفضل مما عرفهم أى أحد آخر، وقد فعلنا الكثير من أجلهم، وأنفقنا نقودا فى بلدهم بما يفوق ما أنفقه أى أحد آخر أو فعله، من ثم، ليس بوسعى أن أفهم أن تعترض الولايات المتحدة، أو أية قوة أخرى علي وضعنا فى فارس. يبدو أنكم ترون من المسلمات أن الشعب الفارسى يتوق بحماس للأمريكيين كى يساعدوه. لكنكم مخطئون تماما فى هذا: يطلب الفرس فقط الأموال الأمريكية كى ينفقوها حسب ما يتراءى لهم".

كان يكمن خلف شقاق شريكىْ الحرب العالمية الأولى الشبهة فى رغبة الولايات المتحدة فى الحصول على امتيازات نفطية بالشرق الأوسط. وعلى الرغم من أن ستاندارد أويل كانت قد زودت الحلفاء بربع حاجتهم من النفط، لكن بنهاية الحرب، كانت أصول أمريكا الثابتة من النفط فى طريقها إلى النضوب سريعا. كانت علاقة الحب بين الولايات المتحدة والسيارات قد تمكنت منها وكان من الواضح أن على أمريكا البحث عن آبار نفط أجنبية. كان أحد الحلول المحتملة تكمن فى العراق وفارس. لكن احتياطى العراق لم يكن قد عُرِف بعد، وكانت جميع الامتيازات الموجودة تملكها شركة النفط التركية التى كانت تتكون من اتحاد شركات تركى لم يتبلور بعد، رغم أنه بدا وأن زمام أموره كانت فى قبضة شركة النفط الأنجلو/فارسية. ولفترة من الزمن بدا من المحتمل لستاندارد أويل الأمريكية، بدعم من المجلس (مجلس النواب الإيرانى) أن تفوز بامتياز لخمسين عاما فى شمال إيران، لكن بريطانيا استدعت حقوقها الحصرية فى النفط الفارسى. ثم واجه البريطانيون الموقف بأن قدموا لستاندارد أويل أوف نيوچيرسى صفقة مشروع مشترك مع APOC . لكن فى ١٠ يونيو عام ١٩٢٣، أصدر المجلس قانونا يمنح الحكومة سلطة التفاوض على امتياز المنطقة الشمالية مع أية "شركة أمريكية مستقلة مسئولة" بشرط أن تستطيع الشركة توفير القرض المقدر بعشرة ملايين دولار كاملا. حظر بند آخر نقل الامتياز إلى أية شركة غير أمريكية، مما قضى على احتمال مضاربة مشتركة بين APOC شركة النفط الأنجلو فارسية وستاندارد أويل، ثم ظهر راغب آخر فى الامتياز. نالت شركة سينكلير للنفط دعم المجلس، ودعم تشارلس إيفانز هيوز وزير الخارجية، لكنها لم تستطع توفير الأموال الأساسية المطلوبة.

لدى انتهاء الحرب العالمية الثانية فى أغسطس ١٩٤٥، كانت منطقة شمال إيران

تقع على الهامش، بعيدا عن مرأى الحلفاء، لكنها كانت حاضرة بقوة فى ذهن ستالين. لم يكن ثمة خط مُسْتمر قد ظل حاضرا بقوة فى السياسة الخارجية السوفيتية أكثر من خط "اللعبة العظمى" ومن تصميم قائد السوفييت على استعادة ملكية كل "شقفة" أرض كان قد طالب بها القيصر. كان ستالين قد بدأ تاريخه الوظيفى الثورى بعمله مُنظِّما للاتحادات العمالية فى حقول نفط باكو. كان مطلعا على جغرافية أقاليم آسيا الداخلية، ومدركا لأهمية النفط الاستراتيجية - فشل هجوم هتلر على روسيا، جزئياً، بسبب عدم استطاعة مدرعاته الوصول إلى حقول نفط القوقاز. اعتقد ستالين أيضا أن شمال إيران يجب أن تكون ضمن منطقة النفوذ الروسى وفقا لما نصت عليه الاتفاقية الأنجلو روسية لعام ١٩٠٧ .

من ثم كانت الأزمة حول إيران التى استبقت الحرب الباردة. فى "إعلان طهران"، أكد ستالين، وتشرشل، وفرانكلين روزفلت، الذين اجتمعوا بالعاصمة عام ١٩٤٢، على استقلال إيران وسيادتها وسلامة أراضيها. وفى نهاية الحرب، اتفق الاتحاد السوفييتى والبريطانيون على الالتزام بسحب جميع قواتهم بحلول ١مارس ١٩٤٦. وفيما اقترب الموعد النهائى، بدأ السوفييت فى تسليح حركة انفصالية أزربيجانية فى شمال إيران، فيما منعت قواتهم القوات الإيرانية من دخول المنطقة. فى واشنطون، أدرك القائم بأعمال وزير الخارجية، دين أتشسون أنه ليس للولايات المتحدة سوى رافعة عسكرية ضئيلة هناك، لكنها كانت تمتلك سلطة معنوية كبيرة. تخير أتشسون الرّد الحازم فيما تحاشى الإنذارات، تاركا بذلك مخرجا مُشرّفا للسوفييت. أبرق إلى موسكو محذرا من المزيد من تحركات القوات باتجاه شمال إيران. حذر من تعقيدات دولية خطيرة وحث السوفييت على التوصل إلى صفقة مع الإيرانيين - أى المخرج المشرف. نجحت تكتيكاته بعد وعد من إيران بامتياز نفطى محتمل (لم يتحقق أبدا)، إلى جانب وكز الولايات المتحدة. انسحبت القوات السوفييتة.

كان ثمة أسباب إنسانية ومعنوية للتواجد الأمريكى بإيران، لكن كوردل هال،

وزير الخارجية، كان قد أشار على الرئيس روزفلت بأنه "من وجهة نظر أنانية مباشرة، فإن من مصلحتنا ألا تستقر أية قوة على الخليج الفارسى فى مواجهة الاستثمارات النفطية الأمريكية المهمة بالسعودية". جرى إيضاح الموقف الأمريكى بالتقابل مع الموقف البريطانى من خلال رد روزفلت على تساؤل تشرشل المباشر عن اهتمام الولايات المتحدة بالنفط الإيرانى. و عد روزفلت رئيس الوزراء قائلاً: فضلا تقبل التأكيدات بأننا لا ننظر بغرامٍ إلى حقولكم النفطية بالعراق، أو إيران"، هذا على الرغم من أنه اعترف أن وزارة الخارجية كانت تدرس المسألة. شكره تشرشل ورد قائلا "دعنى أبادلك المجاملة بتأكيدى التام أننا لا تراودنا أية فكرة بالتطفل على مصالحكم أو أملاككم بالسعودية".

فى عام ١٩٥١، صب مَجْلِسا البرلمان الإيرانى جام ما اختزنوه من غضب لسنين طويلة وصدقوا على تأميم شركة النفط الأنجلو إيرانية. كان هذا قد أعقب رفض البريطانيين تعديل شروط امتياز عام ١٩٣٣ بجعلها تتوافق أكثر مع اتفاقية المناصفة التى كانت قد تفاوضت عليها أرامكو لتوها مع السعوديين. وعلى الرغم من أن حكومة العمال البريطانية كانت قد أممت مؤخرا صناعات النفط والفحم البريطانية، إلا أن رئيس الوزراء البريطانى كلمنت أتلى رأى أن اتفاقية مماثلة لتلك التى عقدتها أرامكو مع السعودية لابد وأن تكون استباقاً لكارثة تماثل فقدان الإمبراطورية بالنسبة لوضع البريطانيين فى الشرق الأوسط. كان موقف بريطانيا غير المرن، كما عبر عنه السير دونالد فرجسون وكيل وزارة الوقود والطاقة الدائم، هو أن نفط إيران تملكه بريطانيا كحق لها: "كانت المشاريع والمضاربات البريطانية، ومهاراتهم وجهودهم هى التى اكتشفت النفط تحت تربة فارس، والتى استخرجته، والتى أقامت معامل التكرير، والتى طورت الأسواق للنفط الإيرانى فى ثلاثين أو أربعين بلدا، بأرصفة الموانئ، وصهاريج التخزين والضخ، والناقلات البرية والسكك

الحديدية. ومنشآت التوزيع الأخرى، وأيضا أسطول هائل من ناقلات النفط. تم كل هذا فى وقت لم يكن فيه ثمة منفذ سهل للبترول الفارسى للتنافس مع صناعة النفط الأمريكية المهولة. لم يكن بوسع الحكومة الفارسية أو الشعب الفارسى تحقيق أى شىء من هذا".

حينما طلبت إيران الاطلاع على دفاتر شركة النفط الأنجلو إيرانية المحاسبية، ودراسة زيادة عدد الموظفين الإيرانيين،وتسعير النفط فى الداخل الإيرانى وفقا للتكلفة لا تبعا للمستويات العالمية، توسل چورچ ماكجى، مساعد وزير الدولة من الشركة ومن وزارة الخارجية البريطانية منح الإيرانيين تلك الطلبات التى تكاد تكون غير ذات أهمية كبيرة، بيد أن العرض البريطانى جاء أقل بكثير من المطلوب وأيضا بعد فوات الأوان. دهمت الأحداث ذلك الطريق المسدود حينما اغتيل الحاج على رازمارا رئيس الوزراء فى ٨ مارس أثناء تشييعه جنازة أحد الملالى. كان رازمارا يضع اتفاقية المتاصفة التى أعدها (لشركة النفط الأنجلو/إيرانية) فى جيبه وفقا لأحد عملاء الاستخبارات البريطانية M16 المقيمين بإيران. وفى ١٥ مارس ١٩٥١، وافق المجلس بالإجماع على مشروع قانون لتأميم صناعة النفط. علق أتشسون الذى كان قد أصبح وزيرا للخارجية وقتئذ على التعنت البريطانى قائلا: "لم يحدث أبدا وأن فقدت قلة قليلة كل هذا الكم الضخم بذلك الغباء وتلك السرعة".

ووسط استحسان جامح، عين الشاه الداعية الأول للتأميم، محمد مصدق الذى كان فى عامه السبعين، رئيسا للوزراء. كان مصدق محاميا ثريا تلقى تعليمه بسويسرا وكانت والدته أميرة قاچارية. تولى أول وظيفة حكومية له ولم يكن قد تعد السادسة عشرة حيث عين رئيس مراجعى الضرائب لإقليم خراسان حيث خبر مباشرة الفساد المتوطن الذى تميزت به نخبة إيران الحاكمة. ولدى عودته إلى طهران منحه الشاه لقب "المُصدَّق". كان نحيلا مثل طائر اللقلاق، ذا أنف مستدف كالمنقار أمتعت رسامى الكاريكاتير. كان فى شيخوخته يعانى من مختلف القُرَح،

وكان معرضا لنوبات الغضب والدموع، ونوبات إغماء أسطورية. فى عام ١٩٢٥، فى الوقت الذى عارض فيه المجلس بصوت مرتفع تنصيب رضا شاه نفسه شاها، هجر مصدق السياسة، وتقاعد فى مزرعته، ثم انعزل فى منفى اختيارى بأوربا. حينما عاد إلى إيران، اعتقله رضا شاه، قبيل إجبار البريطانيين ملك الملوك على الذهاب إلى المنفى، وتتويجهم ابنه الصبى بدلا منه.

والآن، كان "موصِى العجوز" يتولى قيادة الجبهة القومية، وهى تحالف من الساخطين العلمانيين، القبَليين، ورجال الدين. كان أهم حلفائه من رجال الدين هو آية الله عبدالقاسم كاشانى، الخطيب المتوهج المبعَد المعادى للبريطانيين الذى بشَّر بثورة آية الله الخمينى عام ١٩٧٩. كان أشد أعداء الأسد المسن (مصدق) ضراوة هم من اليساريين. هاجمته حشود الدهماء التى نظمها حزب تودة الشيوعى الإيرانى بصفته عميلا رأسمالياً.

فى تلك الأثناء، بدأت حكومة العمال فى بريطانيا فى مطلع الخمسينيات فى التفكير مَليًّا فى التدخل العسكرى لإنقاذ حقول النفط. حذر وزير الدفاع إيمانويل شينول "لو سُمح لإيران فعل ذلك دون عواقب وخيمة، فقد يحفز هذا مصر، ودول شرق أوسطية أخرى على التفكير فى أن بإمكانها تجربة مثل تلك الإجراءات. وقد تكون الخطوة المتالية محاولة تأميم قناة السويس". كان رأى لندن، كما عبرت عنه صورة شخصية رسمتها له الأوبزريڤر هو أن مصدق كان "محصنا تماما ضد نقاش المنفعة العقلانى" وأنه "محاط بالمحتالين المخادعين، والمغامرين والمجانين" وأنه كان "فرانكشتاين عن حق". ذهب محللو وزارة الخارجية أبعد من ذلك قائلين إن مصدق كان "خبيثا" "مراوغا" "عدِيم الضمير تماما" قصيرا، متقوس الساقين" "يماثل حصان جر العربات" و"ينشر حوله رائحة أفيون خفيفة".

أغلق البريطانيون معمل تكرير البترول بعبدان، أكبر أصولهم الخارجية، وطبقا لطقس إمبريالى مألوف، نقلوا بعض المظليين إلى قبرص، وسفينة حربية إلى الخليج

الفارسى. وبدا للحظة وكأن من يرغبون فى تسوية الموضوع بالقوة قد هيمنوا. لكن واشنطون رفضت تماما مسايرة هذا التموضع العسكرى؛ أكد محللوها على أن إيران هى مزود النفط الرئيسى لأوروبا التى كانت مازالت تتعافى بعد الحرب. وافق مجلس الوزراء البريطانى، بعد إصرار البيت الأبيض على مهمته وساطة خاصة يقوم بها الدبلوماسى المحنك، أفرل هاريمان، الذى أصبح بعد وقت قصير محافظ نيويورك. فشلت مهمته فى طهران. وفى تلويح نهائى حاسم، تجمع موظفو شركة النفط الأنجلو إيرانية، وهم يجمعون مضارب التنس والجولف، أمام نادى جيمهانا بعبدان، واستعدوا للإبحار إلى البصرة. ووفقا لتاريخ الشركة الرسمى "عزفت فرقة السفينة، التزاما منها بالسلوك "الصحيح" إلى النهاية، النشيد القومى الفارسى، وبدأت اللنشات رحلاتها المكوكية.. أبحرت السفينة موريشيوس ببطء أعلى النهر، ومضت الفرقة تعزف، فيما وقف جميع موظفى الشركة بمحاذاة القضبان وهم يرددون بصوت جميع هادر صيغة غير لائقة من أهزوجة "كولونيل بوجى". وفى اليوم التالى، قاد روس ومايسون (مسئولان كبيران) سيارتيهما وغادرا المكان. وبهذا توقف أعظم مشروع تجارى بريطانى على أرض أجنبية".

تبع هذا فرض عقوبات اقتصادية على إيران، الأمر الذى أسرع بتنفيذ مقاطعة للنفط الإيرانى من قبل جميع كبرى الشركات الدولية. ثم جمّد مجلس الوزراء البريطانى أرصدة إيران بالإسترلينى، وحاولوا إغراء أمريكا بالتحرك مباشرة ضد مصدق. قاوم الرئيس ترومان ووزير الخارجية أتشسون، اللذان كانا يميلان لجانب مصدق، وحاولا دونما جدوى التوسط بين الطرفين لدى زيارة القائد الإيرانى لواشنطون فى أكتوبر ١٩٥١، قاوما الإغراءات بصلابة. كانت وجهة نظر واشنطون هى أن "مصدق يلْقى دعم غالبية الشعب" وأنه كان "متيقظا". و"ودودا" "صادقا" و"جيد الاطلاع". تخيرت تايم مجازين القائد الإيرانى "رجل العام" لسنة ١٩٥١، بصورة غلاف عرّفته فيها بأنه "الدرويش الذى يرتدى بذلة ذات خطوط رفيعة".

وبدون ناقلة نفط واحدة تمتلكها، وبدون الخبرات اللازمة لتشغيل معامل التكرير، ترنحت إيران فيما توقف العمل فى عبدان. برهنت المحادثات مع مصدق على عدم جداوها. فتش الإيرانيون منزل رئيس مكتب الشركة بطهران ونبشوا وثائق، نُشِرت فيما بعد، تثبت أن شركة النفط كانت تتدخل فى جميع أوجه الحياة السياسية الإيرانية. كان نواب بالمجلس ووزراء سابقون عارضوا شركة النفط الأنجلو إيرانية قد أُجبِروا على ترك مواقعهم: قُدِمت الرشاوى إلى الصحف لنشر مقالات تشوه سمعة أعضاء حزب مصدق. نشرت صحيفة يومية إيرانية افتتاحية عنيفة منذرة جاء بها".. والآن، رُفِع الستار وكُشِفت الهويات الحقيقية للخونة الذين اختبأوا خلف مواقعهم كصحفيين، نواب بالمجلس، ومحافظين، بل وحتى رؤساء للوزارات، لابد من إطلاق الرصاص على هؤلاء وإلقاء جثثهم للكلاب".

ذهبت إيران بالقضية إلى المحكمة الدولية التى أصدرت حكما بعدم اختصاصها. بعد ذلك، مثل مصدق وتحدث أمام الأمم المتحدة، لكن دونما جدوى. لكن لم يكن هذا برمته خطأ بريطانيا. فمثل الزعماء الشعبويين الآخرين، أتقن مصدق فن الهجوم، لكنه تردد عن قول الحقائق الصعبة لمؤيديه. فيما بعد، كتب أتشسون فى هذا الصدد قائلاً "لقد بذرت هذه الشخصية الرياح وحصدت الدوامات".

فى لندن، وفيما ضاقت مساحة التسويات، استعدت وزارة الخارجية لحل جذرى. تبدت الشرارة الأولى فى مقال غير موقع نشرته التايمز بتاريخ ٢٢ مارس ١٩٥١ . كانت الكاتبة هى آن كاثرين سواينفورد لامبتون، مساعدة أستاذ فى الدراسات الفارسية بكلية الدراسات الشرقية والإفريقية بجامعة لندن، والتى كانت قد أدت الخدمة أثناء الحرب بالسفارة البريطانية بطهران. ندد المقال بعدم استقرار إيران "وغباء الطبقات الحاكمة بفارس وطمعها وافتقادها إلى الحكم السديد"، مما

نتج عنه حكومة فاسدة طفيلية. أدى المقال إلى عقد اجتماع مع لامبتون برئاسة الوزارة، اقترحت فيه تبنى خط متشدد تجاه مصدق وعدم تقديم تنازلات، وأعصاب هادئة ثابتة، وتغيير حكومة طهران "بوسائل سرية". أضافت أن روبين زِهنر المحاضر فى الدراسات الفارسية، وأستاذ الديانات الشرقية بكلية أول سولز بأكسفورد فى المستقبل، والذى كان يدخن الأفيون ويفرط فى الشراب، سيكون "الرجل المثالى" لتمهيد الطريق. لم يكن زِهنر، ذاك الرجل غريب الأطوار حاد الصوت خيارا لافتا كعميل استخباراتى، لكنه كان يملك مؤهلاء استثنائيا: كان قد عمل خفية بإيران أثناء الحرب.

أرسلته وزارة الخارجية والاستخبارات البريطانية M16 إلى طهران، وسرعان ما نظّم شبكة من كارهى مصدق ومحبى الإنجليز، وكانت الجائزة الخاصة هى الأشقاء "رشيد" الثلاثة الأثرياء ، سيف الله، وأسد الله، وقدرة الله. برهنوا، وهم المستوردون للبضائع البريطانية، وممولو حزب الإرادة القومية، على أنهم خبراء فى حشد الدهماء. وصف المؤرخ چيمس إيه. بِل هؤلاء الثلاثة الذين استخدمتهم الاستخبارات البريطانية M16 أرصدة لها كالتالى: "صفى الله، الشقيق الأكبر، موسيقى وفيلسوف، كان عقل هذا الثلاثى، محدّث رائع ومضيف متميز. دارس للتاريخ السياسى وكان يحب الاستشهاد بمكياڤيللى حَرْفيًّا. كان أسد الله، المنظم، ناشطا سياسيا المؤتمن على أسرار ابن رضا شاه، محمد رضا شاه، وخلِّه اللصيق، فى حين كان قدرة الله هو رجل الأعمال المضارب فى المشروعات. "ورغم ثرائهم المستقل - كانوا يحتفظون بجناح عائلات بشكل دائم بفندق جروڤنر، لندن - كان الأشقاء يتلقون دعما ماليا قيمته ١٠٠٠٠ استرلينى (حوالى ٢٨٠٠٠ دولار) شهريا من الجهات التى يعملون لحسابها استخدموه لرشوة رجال الدين، الصحفيين ونواب المجلس لنشر دعاية معادية لمصدق بالصحف والبازارات. كانت الاستخبارات الخاصة لشركة النفط الأنجلو/إيرانية تقوم بالمساعدة، ومعها مكتب

المعلومات المركزى، الذى كان له اتصالات واسعة بين الصحفيين وروابط مع قبيلة بختيارى القوية سياسيا والتى أثرت من النفط ثم تدهورت أحوالها نتيجة وقف الدعم المالى الذى كانت تتلقاه من الشركة.

فى تلك الأثناء، تولى رئيس جديد مميز الأمور فى محطة الاستخبارات البريطانية M16بطهران. أثناء الحرب، وبعد أن ترقى سى. إم "مونتى" وودهاوس إلى رتبة الكولونيل فى سن السابعة والعشرين، ترأس مهمة عسكرية للحلفاء للعمل مع رجال حرب العصابات فى اليونان التى كانت تحتلها ألمانيا. هذا الجنتلمان الإنجليزى الذى ينتمى للطبقة الراقية - زوجته كونتيسة ووالده من طبقة النبلاء - مثّل دائرة أكسفورد، فيما بعد، كعضو عن حزب المحافظين بالبرلمان. وكرئيس جديد لمحطة الاستخبارات البريطانية M16 بين عامى ١٩٥١، ١٩٥٢، كان وودهاوس يقطن منزلا داخل مجمع السفارة البريطانية الضخم: كانتون مساحته ١٥ فدانا، محاطا بجدار، ومروج كالقطيفة الخضراء. كان يساعده نائبه نورمان داربيشاير الذى يتحدث الفارسية، والذى كان قد أرسِل أثناء الحرب العالمية الثانية ليتموضع فى إيران، والذى صاغ فيما بعد الخطة الأصلية لـ "العملية بووت".

وفقا لدستور ١٩٠٦، كان للشاه سلطة تعيين رئيس الوزراء أو إقالته. والآن، تصادم مع مصدق حول مطالبة الأخير بسلطات أوسع، وبخاصة على وزارة الحرب. فى يوليو عام ١٩٥٢، أجبر الشاه رئيس وزرائه على تقديم استقالته، لكن بعد ثلاثة أيام من التظاهرات وأعمال العنف، كان على العاهل المرتبك المهتاج، بعد أن أساء تقدير مدى شعبية مصدق، إعادة تعيينه ومنحه غالبية مطالبه. ثم تجاوز مصدق الحدود. مدّد العمل بالأحكام العرفية، وفرض حظر التجول، وعلّق الانتخابات للمجلس القومى، وألغى مجلس الشيوخ، وحلّ المحكمة العليا. وفى سبتمبر رفض صيغة لتسوية النزاع النفطى كان قد صادق عليها ترومان

وتشرشل، الذى كان قد عاد لتوه منتصرا إلى دوانينج ستريت كرئيس للوزراء. تعمقت الأزمة حينما طرد مصدق البعثة الدبلوماسية البريطانية، ودافع عن إجراءاته كالتالى "لا تعلمون مقدار خبثهم وحيلهم. لا تعرفون مقدار شرهم. لا تعرفون أنهم يلوثون كل شىء يلمسونه". وبعد إمهالهم عشرة أيام للرحيل، سلمت M16"أرصدتها" الاستخبارية، بما فيها الأشقاء الرشيدى الثلاثة إلى الأمريكيين، فيما مضوا يتابعون الأزمة عن كثب من قبرص.

بعد انتخاب دوايت أيزنهاور رئيسا فى نوفمبر ١٩٥٢، توقفت الخلافات الأنجلو/أمريكية حول إيران. بعد انتصاره بثلاثة أسابيع، التقى الرئيس المنتخب أنطونى إيدن وزير خارجية تشرشل، لبحث "المسألة الفارسية". بعد أسبوع، اجتمع كرميت روزفلت بنظرائه من M16 بلندن. سافر وودهاوس أيضا إلى واشنطون لمفاتحة "أولاد العم" الأمريكيين من جديد. اعترف وودهاوس قائلاً: "حينما عرفنا طبيعة تحيزات (الفريق الجديد)، استغللنا تلك التحيزات بمزيد من القوة". كانت ثمة حرب مندلعة ضد كوريا الشمالية، وكان جوزيف ماكارثى يلقى خطابات مؤثرة فى مجلس الشيوخ، وكان الأخوان روزنبرج قد حوكما وأدينا وحكم عليهما بالإعدام بتهمة التجسس؛ من ثم، تخير وودهاوس التأكيد "على التهديد الشيوعى لإيران بدلا من الحاجة إلى استرداد الصناعة النفطية". ذهب نقاشه إلى أنه "حتى لو أمكن التوصل إلى تسوية للخلاف النفطى مع مصدق من خلال التفاوضات، وهو أمر مشكوك فيه، فإنه يظل غير قادر على مقاومة أى انقلاب يقوم به حزب توده الشيوعى إذا دعم السوفييت مثل هذا الانقلاب. من ثم، يجب الإطاحة به". وإلا، سيقوم الاتحاد السوفييتى "بالاستيلاء على البلد كما استولى على تشيكوسلوفاكيا". (كانت وفاة ستالين فى مارس ١٩٥٣ من محاسن الصدف بالنسبة للأمريكيين، حيث تركت وفاته حزب تودة يواجه حالة من الفوضى والاضطراب).

وافقت السى آى. إيه على دراسة العملية المقترحة على الرغم من أن رئيس

محطة السى آى. إيه استقال حتى لا يكون ضالعا فى "دعم الولايات المتحدة للكولونيالية الأنجلوفرنسية". من جانبه، أغدق وودهاوس الاحتقار والازدراء على مسئول رفيع المستوى بوزارة الخارجية الأمريكية، لم يُذكر اسمه، كان قد فضل الحل الدبلوماسى (كان المتهمان المحتملان بهذه الجريمة هما هنرى بايرود وكيل وزارة الخارجية، والسفير تشارلس "تشيپ" بولهن). اقترح الأمريكون بدلا من ذلك تشويه سمعة آية الله كاشانى المعادى للبريطانيين وأصدقائه اليساريين "بحيث يصبح من السهل على مصدق اتخاذ إجراءات فاعلة ضد حزب تودة". أوضح وودهاوس بازدراء "كانت تلك عينة من البلاهة الحصيفة التى تميز هؤلاء الأمريكيين الذين كانوا مازالو يعتقدون فى إمكانية الإبقاء على مصدق واستغلاله، والذين كان يملؤهم الرعب من تبعات سقوطه".

كان لدى واشنطون، بالفعل تواجد دبلوماسى (٥٩ شخصا) وعسكرى (١٢٣ شخص) فى إيران، وكان دونالد ويلبر فى السى آى إيه قد جند فريقا من العملاء المحليين للتعاطى مع الصحافة وتجنيد "الفتوات" الراغبين. وبمنتصف شهر إبريل، كان العمل على التخطيط لعملية آچاكس (الاسم الذى خلعه الأمريكيون على عملية بووت البريطانية) قائما على قدم وساق، وتمت المصادقة على ميزانية لها. عمل سفير الولايات المتحدة لوى هندرسون قناة لنقل المعلومات بين البريطانيين والشاه. تولت وزارة الخارجية عملية نقل تقديراته الكاشفة إلى وزارة الخارجية البريطانية: كان الشاه "يعزف على وتر واحد: موضوع أن البريطانيين كانوا قد أطاحوا بالأسرة الملكية القاچارية، وأتوا بوالده، ثم تخلصوا منه. والآن، كان بإمكانهم أن يبقوا عليه فى السلطة، أو يطيحوا به، تبعا لما يرونه مناسبا. إذا رغبوا فى بقائه، وبأن يحتفظ التاج بالسلطات التى خولها له الدستور، فعليهم أن يخبروه. أما إن كانوا يرغبون فى أن يرحل، فعليهم إخباره على الفور كى يستطيع أن يمضى بهدوء".

وفيما تطور زخم العملية السرية، لازم وزير الخارجية أنطونى إيدن، الذى كان

قد درس العربية والفارسية بأكسفورد، ومن ثم، كان قد عين نفسه خبيرا فى جميع الشئون الخارجية بمجلس الوزراء، لازم الفراش لمرضه، وتولى رئيس الوزراء تشرشل، الذى يفوقه قدرة على استباق الأحداث، مهامه مؤقتا. حث تشرشل الشاه على إقالة مصدق، بل أنه حتى قدم له التعليمات حول كيفية فعل ذلك. تستحق رسالته، التى اكتشفها الكاتب البريطانى ويليام شوكروس، ونشرها فى كتابه "ركوب الشاه الأخير" اجتزاءها كاملة: "سيسرنى أن ينقل المستر هندرسون، (سفير) الولايات المتحدة، للشاه الملاحظة التالية ذات الطبيعة العامة والتى أعتقد أنها صائبة ومتماشية مع المبادئ الديمقراطية. من واجب أى ملك يحكم بمقتضى الدستور، أو أى رئيس جمهورية، حينما يواجه بأفعال وإجراءات عنيفة استبدادية من قبل أفراد، أو أحد أحزاب الأقلية، أن يتخذ الخطوات الضرورية لضمان خير الجماهير الكادحة، واستمرارية الدولة النظامية. النهاية".

والآن، سافر روزفلت ومعه ويلبر من السى آى إيه، إلى لندن مع خطة الانقلاب التى صاغاها معا بقبرص. بعد اجتماعات مع M16، خرجت نسخة منقحة. ثم سلِّمت للأمريكيين فى اجتماع ٢٥ يونيو الشهير الذى ذكرناه من قبل. أعطى تشرشل الضوء الأخضر للعملية فى ١ يوليو، وتبعه الرئيس أيزنهاور فى ١١ يوليو، (يذكر وودهاوس أن "تشرشل كان يستمتع بالعمليات المثيرة ولم يكنّ تقديرا كبيرا للدبلوماسيين الجبناء"). أطلق ويلبر ما أسماه "حرب أعصاب" ومعه اثنان من "الأرصدة" الإيرانية، اسم أحدهما الكودى نرين والآخر سيلى. وصل مراسل من السى آى إيه يحمل عددا كبيرا من رسوم الكاريكاتير والملصقات المعادية لمصدق، مما مكن ويلبر من شن حملة بروباجندا جماهيرية شاملة تهدف إلى تشويه سمعة حكومة مصدق. زُرِعت مقالات تؤكد على الخطر الشيوعى بالصحف الدولية والمحلية. تم نسج شبكات استخبارية، واستئجار عملاء متخصصين فى إثارة

الشغب والاضطرابات يُمكن إلقاء مسئوليتها على الشيوعيين. كما تم توزيع الأسلحة على القبائل. خطفت عصابة مسلحة رئيس شرطة طهران وعذبته وقتلته. أما آية الله العظمى فقد أصدر فتاوى حسب الطلب ضد الشيوعيين.

كانت الخُطى العملياتية قد تسارعت وقت أن شق كيم روزفلت، تحت وقع وخز أعصابه وارتفاع معنوياته، طريقه من بيروت إلى دمشق. عبر حدود إيران باسم مستعار، جيمس إف. لو شريدج، وهو يحمل ما قيمته مائة ألف دولار بالعملات الإيرانية الصغيرة، ووصل إلى طهران يوم ٢٥ يوليو ليدبر العملية.

كان الأمريكيون قد أخضعوا خليفة لمصدق للتجربة ووجدوه صالحا. كان ذلك هو الجنرال فضل الله زاهدى، رجل مكرس للملكية، مُترفٌ مرحٌ، وكان قد عمل وزيرا للداخلية فى وزارة مصدق الأولى. لم يرق البريطانيين هذا الاختيار. وفى عام ١٩٤٢، وفى عملية اسمها الكودى "بونجو"، تم اختطاف زاهدى ونفيه إلى معسكر اعتقال بفلسطين بتهمة التخطيط مع النازيين. قاد عملية "بونجو" العميل الأسطورى فيتزروى ماكلين، (الذى يقال إنه ألهم شخصية جيمس بوند). (وفقا لماكلين فإنه حينما قام بتفتيش غرفة نوم زاهدى بأصفهان، عثر على "مجموعة من الأسلحة الأوتوماتيكية ألمانية الصنع، كمية كبيرة من الملابس الداخلية الحريرية، بعض الأفيون، سجل مصور لعاهرات أصفهان، وعدد كبير من الخطابات والصحف"). والآن عملت متاعب زاهدى مع البريطانيين لصالح روزفلت لأن الجمهور الإيرانى كان يعتقد بعامة أن الجنرال كان معاديا للشيوعيين وغير موالٍ للبريطانيين. وكان لأردشير، ابن زاهدى، الذى درس بجامعة بسولت ليك سيتى أن يعمل كحلقة اتصال بين والده والأمريكيين. (أصبح أردشير، الذى تزوج من ابنة الشاه قبل علاقته باليزابث تايلور التى استمرت لفترة، سفير الشاه فى واشنطون ولندن وكان ينفق النقود ببذخ)

كان خطوة رزوفلت التالية هى الاجتماع بالشاه المذعور والذى كانت قبضته على

العرش محفوفة بالمخاطر - نجا من محاولتىْ اغتيال ولم يكن قد وُلِد له بعد وريث للعرش. أشار ويلبر على رؤسائه بأن الشاه كان بحاجة إلى إعداد خاص: "نظرا لأنه بطبيعته شخص متردد غير قادر على اتخاذ القرارات، يعانى من شكوك ومخاوف لا شكل لها، فلابد من حفزه على لعب دور، ويتطلب هذا الدور الحد الأدنى من الفعل الإيجابى الذى يستغرق فترة موجزة بقدر المستطاع". كان الشاه يُظهر أيضا "خوفا مَرَضياً من "يد المملكة المتحدة الخفية". كان المتآمرون بحاجة لأن يُوقّع "فتى الكشافة"، أى الشاه كما كانوا يُكنّونه، فرمانين ملكيين: أحدهما بإقالة "اللوطى العجوز" (كما كانوا يلقبون مصدق وفقا للغتهم المنحطة: الترجمة)، والآخر بتعيين زاهدى خلفا له. طمأن ويلبر زاهدى بقوله إنه إذا دعت الضرورة سُننفذ الانقلاب "دونما تعاون إيجابى من الشاه".

ثم تمت مفاتحة الأميرة أشرف شقيقة "الشاه التوأم ذات الشخصية التآمرية القوية" والتى كانت وقتئذ تقضى وقتها فى المقامرة بكازينوهات فرنسا، مفاتحتها كى تحاول تقوية عود الشاه. تم التغلب على عدم حماسها للمهمة لدى إهداء الاستخبارات البريطانية لها معطفاً من الفراء الثمينة ومبلغا كبيرا من المال. حاولت زيارة طهران سرا، لكن كان عليها مغادرتها بعد خمسة أيام بأوامر من مصدق بعد لقاء عاصف مع شقيقها. رتبت M16 أيضا الأمور بحيث تجعل بث البى بى سى الليلى بالفارسية ينبه الشاه. كان للبث أن يبدأ كالتالى "منتصف الليل تماما" بدلا من "منتصف الليل فى لندن"- بحيث يبعث بإشارة إلى الشاه أن بريطانيا تدعمه حقا. من جهتها عملت الولايات المتحدة على إثبات مساندتها له، حيث رتب روزفلت لأيزنهاور الخروج عن سياق خطاب له كان يلقيه بمؤتمر لمحافظى الولايات المتحدة ليقول إن الوضع فى إيران "منذر جدا للولايات المتحدة" وأنه يجب "إعاقة السوفييت، وإعاقتهم الآن".

ظهر مشارك آخر فى الوقت المناسب، كان ذلك هو الجنرال المتقاعد إيتش.

نورمان شوارتزكوف (والد قائد حرب الخليج عام ١٩٩١)، والذى كان قد كسب ثقة الشاه وكان قد ترأس بعثة الولايات المتحدة العسكرية لتدريب فرقة الدرك الإيرانية الإمبراطورية. قطع الجنرال جولة له حول العالم، وتوقف بالقصر لينفذ مهمة محددة: الحصول على الفرمانين. وفى لقاء غرائبى، أشار الشاه وقد تملكه الخوف المرضِى إلى أنه يعتقد أن صالة الرقص بالقصر كان بها أجهزة تنصت، من ثم جرى حديثهما فيما كان الرجلان يجلسان فوق منضدة صغيرة وسط الغرفة. أبلغ شوارتزكوف المسئولين أن الشاه رفض توقيع الفرمانين وطلب مزيدا من الوقت وحث كيم على أن يتوقف عن التعامل من خلال الوسطاء وأن يلتقى بجلالته مباشرة، وهذا ما فعله روزفلت فى ٣ أغسطس وفى أول لقاء ضمن سلسلة من اللقاءات السرية "مورس فيها ضغط لا هوادة فيه فى محاولات محبطة للتغلب على موقفه المتأصل المتأرجح المتردد" احتج الشاه بقوله إنه "ليس مغامرا، ومن ثم لا يستطيع المجازفة" مما أدى بروزفلت إلى الانتهاء إلى أنه "جبان ضعيف".

وأثناء تلك الاجتماعات، عرض روزفلت تفاصيل الخطة التى تضمنت الفرمانين وتوفير عدة آلاف من الدولارات تُوزع لحفز تظاهرات مؤيدة للشاه. وأخيرا، وافق الشاه على التوقيع، عندئذ اقترح روزفلت عليه أن يطير إلى منتجعه على بحر قزوين مع زوجته وينتظر. نقل إليه روزفلت رسالة أيزنهاور الأخيرة: "أتمنى لجلالتكم الإمبراطورية رحلة سالمة. إذا لم تستطع أسرة بهلوى وروزفلت وهما يعملان معا، حل تلك المشكلة الصغيرة، لن يكون ثمة أمل فى أى جهة أخرى. لدى كامل الثقة أنك ستقوم بما هو مطلوب!". وحتى وصول الفرمانين، قضى روزفلت وقته يسبح فى ڤيللا ريفية، ويحتسى الڤودكا بعصير الليمون أثناء لعبه الطاولة، ويستمع تكرارا إلى لحن العملية الرمزى المميز "Luck Be a Lady Tonight" على فونوغرافه. أضاف إلى إلحاح اللحظة نجاح السوڤييت فى ١٢ أغسطس فى تجربة أول قنبلة هيدروجينية لهم.

من جهته، حينما ساورت مصدق الشكوك فى مؤامرة أنجلو أمريكية، أجرى استفتاء ناجحاً يدعو إلى حل المجلس، وذلك لمنع السى آى إيه من الحصول، من خلال الرشاوى، على اقتراع قانونى مزيف ضده. لدى ذلك، غضب الشاه لأن مصدق قلص موقعه إلى مجرد ملك صورى، ومن ثم وقّع الفرمانين وأذيعا يوم ١٣ أغسطس. بدأ الانقلاب ليلة الأحد ١٥ أغسطس لكنه تعثر وكاد يفشل حينما عرّضه للمخاطر ضابط جيش ثرثار. سلّم قائد الحرس الإمبراطورى الأمر الملكى إلى مصدق لكن رئيس الوزراء الذى كانت تسانده قوات مدرعة، استنكر الأمر بصفته تلفيقا. أمر بإلقاء القبض على "الرسول" ورصد ١٠٠٠٠٠ ريال جائزة لمن يعثر على زاهدى. حينما أعلن راديو طهران فى الفجر فشل الانقلاب، هرب الشاه الذى لم يكن متأكدا من الجيش (لم يكن لدى زاهدى قوات تحت إمرته) دونما أن يُخطر فريق روزفلت، ومعه زوجته ثريا فى طائرة ذات محرك واحد، هبط بها أولا فى بغداد حيث لم يجد ترحيبا من نظيره الملك فيصل الثانى الذى شعر بالإحراج، ثم إلى روما على متن طائرة تابعة للخطوط الجوية البريطانية. (نزل بفندق إكسلسيور حيث كان ألان دالاس نزيلا أيضا). من جهتها، هاجمت الصحف الموالية لمصدق غاضبة الولايات المتحدة لتورطها فى محاولة الانقلاب.

تأوهت قبرص (مقر المخابرات البريطانية)، وتأرجح تشرشل. فى واشنطون سادت الكآبة أكواخ كونست، المقر المؤقت للسى آى إيه. بيد أنه، فقد ثبت أن تلك كانت أكثر ساعات كرميت روزفلت روعة. لم يكن الحظ هو سبب تغير التيار، بل أموال وكالة الاستخبارات. تجاهل كيم برقية تحذير من وزارة الداخلية الأمريكية بألا يبرح المدينة، وغادر مقره فى السفارة، وقاد سيارته إلى شيرمان، المنتجع الواقع شمالى طهران حيث تشاور مع أردشير زاهدى، ورتب له لقاء مع كِنت لاف مراسل النيويورك تايمز حيث سلمه نسخا من الفرمانين. أرسل روزفلت أيضا رسالة إلى مكتب الأسوشيتد برس أكد فيها أن زاهدى قد حل محل مصدق. ثم،

ويتعاون مع حملات وودهاوس وويلبر الواسعة، اغترف روزفلت من أموال الرشاوى بالوكالة (تتراوح التقديرات بين ٥٠٠٠٠ دولار و١٠٠٠٠٠ دولار أو أكثر)، وباستخدام ماكينة التصوير بالسفارة، طبع آلاف النسخ من الفرمانين ووزعها. (حينما رفض العملاء الإيرانيون التعاون لخشيتهم من إلقاء القبض عليهم، عرض عليهم أولا الأموال، لكن حينما رفضوا هددهم بالقتل. قبلوا الأموال).

كان رئيس الوزراء ومناصروه في مواجهة أعداء يفوقونهم تنظيما وإغداقا للأموال ودهاء. استأجر "نارن" و"سيلي" غوغاء من مثيري الشغب للانضمام إلى غوغاء حزب تودة الحقيقيين والذين كانوا قد مضوا يحطمون تماثيل بهلوى ووالده ويطيحون بها. في ١٨ أغسطس، التقى السفير لوى هندرسون، الذى كان قد "نُفي" إلى سويسرا، وعاد على طائرة عسكرية إلى طهران عصر اليوم السابق، التقى مصدق. بدأ بإثارة الشكوك حول شرعية رئيس الوزراء وحينما أكد مصدق أن البرلمان، لا الشاه، هو من يملك سلطة اختيار رؤساء الوزراء، هدد هندرسون بإجلاء جميع الأمريكيين إذا لم يتحكم مصدق في الجماهير التي كانت تهددهم. أصدر مصدق أمرا، وقد خدّره رحيل الشاه وإلقاء القبض على بعض المتآمرين، بحظر التظاهرات وطلب من مناصريه عدم الخروج إلى الشوارع. والآن، أوقعه هندرسون في الشرك بأن طلب منه استدعاء قوات الشرطة والقوات الملكية، التي كان الكثيرون منهم على قائمة رواتب السي آي إيه، فيما لزم مناصرو رئيس الوزراء ثكناتهم.

في ١٩ أغسطس، وحينما نشرت الصحف الإيرانية المرسومين الملكيين، رافقت القوات الموالية للشاه حشود آل الرشيدى من "الغوغاء" المأجورين: وفيما تموضع الجيش حول العاصمة المضطربة يحرسها عن كثب، شق موكب غروتسكي غرائبي طريقه أماما في الشارع المؤدى إلى وسط طهران. كان ثمة بهلوانات يمارسون شقلبتهم اليدوية، ورافعوا أثقال يُدوّرون قضبانهم الحديدية في الهواء، ومصارعون

يثنون عضلاتهم مزدوجة الرأس وفيما تزايدت أعداد المتفرجين، بدأت تلك التوليفة الغريبة من المؤدين فى ذلك العرض يتغنون بتناغم بشعارات مؤيدة للشاه. التقطت الجماهير تلك الألحان وأخذت ترددها، وهنا، وبعد لحظة محفوفة بالمخاطر، تحول الميزان النفسى للجماهير ضد مصدق.

نهب الفتوات المأجورون، وقد تسلحوا بالهروات، المقر الرئيسى لحزب مصدق، ثم أضرموا فيه النيران، وكذلك نهبوا مكاتب الصحف المعارضة ودمروها. غمرت فرقة داعمة الجمهور بأوراق نقدية من فئة العشرة ريالات، فيما مضت أخرى تُلصِق صورة محمد رضا، التى طبعها عملاء السى آى إيه، على السيارات وجدران المبانى. وقبل حلول المغرب، كانت الحشود التى تصيح "انتصر الشاه" قد سيطرت على المقار الرئيسية للشرطة ووزارات الخارجية والصحافة والدعاية. كان الاستيلاء على محطة الإذاعة والمكتب المركزى للبرق مهما بخاصة، وانهالت الرسائل الإذاعية والبرقيات تنبه الأمة إلى حدوث "انتفاضة"، وتقنع فرق الجيش الأخرى بدعم الشاه.

وفيما غير آية الله كاشانى وغيره من رجال الدين الشيعة البارزين ولاءهم، حاصرت الدبابات بيت مصدق الأبيض الذى كان يماثل القلعة. وبعد معركة ضارية، حولته إلى أنقاض ومعه حوالى مائتى قتيل. التجأ رئيس الوزراء إلى السطح لكنه استسلم فى اليوم التالى. خرج الجنرال زاهدى من مخبئه، ومضى على ظهر دبابة إلى إذاعة طهران حيث خاطب الأمة ونادى بنفسه رئيسا للوزراء. تدفقت الحشود على الشوارع وهى تهتف "تعيش أمريكا". حينما سمع الشاه الأنباء فى روما من مراسل مبتهج لوكالة الأسوشيتد پرس، شحب وجهه وصاح "كنت أعلم أنهم يحبوننى".

لدى عودة الشاه المنتصرة إلى طهران، انهال على روزفلت بتعبيرات الشكر والامتنان فيما كانا يحتسيان الڤودكا وقال: إننى مدين بعرشى لله، ولشعبى، ولك!" فى سرده للأحداث، يضيف روزفلت سريعا "كان يعنينى أنا والبلدين - بريطانيا

العظمى والولايات المتحدة - اللتين كنت أمثلهما. كنا جميعا أبطالاً". وفيما رافق كرميت إلى سيارته أهداه الشاه علبة سجائر من الذهب "كتذكار لمغامرتنا الأخيرة". كان روزفلت قد قضى أقل من ثلاثة أسابيع فى إيران. قدرت النيويورك تايمز أنه قد نجم عن المعركة قتل حوالى ثلاثمائة شخص وإصابة مائة آخرين بالجراح. أتت الرشاوى مفعولها: نجحت "الانتفاضة التلقائية"!

تم تهريب روزفلت خارج طهران حيث حملته طائرة عسكرية وأوصلته إلى طائرة متجهة إلى لندن للقاء نظرائه البريطانيين. كان تشرشل طريح الفراش إثر إصابته بأزمة قلبية أوهنته حينما استقبل كرميت. وتحت إلحاح رئيس الوزراء، روى كيم مغامراته مما حفز رئيس الوزراء أن يعلق وقد شعر بالغيرة" أيها الشاب، لو أننى أصغر سنا بعدة سنوات لم أكن لأود ما هو أفضل من أن أعمل تحت إمرتك فى هذه المغامرة الرائعة!". عبّر السير ونستون عن الإجماع الأنجلوأمريكى الرسمى بأن آچاكس "كانت أروع عملية منذ انتهاء الحرب". كتب أيزنهاور فى مذكراته عن تلك الأحداث "بدت وكأنها رواية مثيرة رخيصة أكثر منها وقائع تاريخية". وبالرغم من ذلك منح الرئيس أيزنهاور فى احتفال رسمى - سرى لأسباب واضحة - كرميت روزفلت وسام الأمن القومى. وفى هذا الصدد، كتب ويلبر الذى لعب دورا مهما فى العملية، يقول إن احتفال روزفلت بنجاحهما كان عبارة عن "دعوة إلى الغداء، دفع فيها كل منهما ثمن طلباته، فى مطعم صينى بكونيكتيكات أڤينيو، لا يقدم الكحوليات".

بيد أن البريطانيين أُحبِطوا لدى تقسيم الغنائم، كما أغضبتهم حقيقة أن الأمريكيين نسبوا إلى أنفسهم الفضل الكامل فى الانقلاب. كان إيدن وزير الخارجية قد كتب قبل ذلك بعام: "لا تروقنى فكرة الإتيان بشركات أمريكية إلى إيران". من اللافت أن كان أول زائر أمريكى رسمى إلى طهران بعد الانقلاب هو

خبير النفط هربرت هوفر الابن، صديق كرميت روزفلت الحميم. كان هوفر، ابن الرئيس السابق، المستشار الخاص للوزير دالاس، وقناة الاتصال بين السى آى إيه وشركات النفط. كانت مهمته هى التفاوض، وفقا لتفاهم مسبق مع بريطانيا، على اتفاقية لاتحاد شركات تُفتح بمقتضاها إيران أمام الشركات الأمريكية. وكما قيل، فقد أبلغ الشاه هوفر أن السى آى إيه ستتلقى نفطا ثمنا لمساعداتها. وبعد تفاوضات عسيرة، ساعدت فيها مؤسسة الأشقاء دالاس القانونية، برهنت الاتفاقية الجديدة على أنها معيار فى دبلوماسية النفط. بدأت شركات النفط الكبرى، وقد هذب سلوكها تأميم المكسيك للنفط، وتحت ضغط قضية مكافحة الاحتكار غير المشروع التى رفعتها وزارة العدل، بحفز من ترومان، ضد كارتل البترول الدولية، بدأت تبدى اعتبارا فطنا للمشاعر المحلية. وطبقا لتلك الاتفاقية، كان لإيران الحق فى تملك جميع مصادر النفط فى البلاد، مع عدم التدخل فى قرارات الشركات التى تعمل مستقلة. وُزعت الحصص بنسبة ٤٠/٤٠، حيث كان للشركة الأنجلو/إيرانية، التى أعيد تسميتها بريتش بتروليوم ٤٠٪، وحصل الأمريكيون على ٤٠٪ (تلقت كل من الشركات الكبرى الأمريكية ٨٪). ذهبت باقى الحصص إلى رويال داتش/ شل (١٤٪) و٦٪ إلى شركة تسمى شركة النفط الفرنسية. فى كتابه "الجائزة" رأى مؤرخ النفط دانييل يرجن أنه كان ثمة نتيجة أساسية أكبر للاتفاقية: "بإنشاء اتحاد الشركات الإيرانية، أصبحت الولايات المتحدة اللاعب الأكبر فى مجال نفط الشرق الأوسط وسياساته المتفجرة". وعلى سبيل التأكيد لخلافتها لدور بريطانيا بإيران، قدمت واشنطون، على وجه السرعة، قروضا كانت قد رفضت منحها لمصدق. ٦٠ مليون دولار عام ١٩٥٤، ٥٣ مليون دولار عام ١٩٥٥، و٣٥ مليون دولار عام ١٩٥٦.

تم اعتقال مناصرى مصدق، وتنفيذ حكم الإعدام فى وزير خارجيته، ومحاكمة الثورى المخلوع بتهمة ارتكاب جرائم سياسية. لكن مصدق قلب الموائد على أعدائه باستخدامه محاكمته لتقديم أفضل الحجج وأكثرها طلاقة وإقناعا على عدالة

القضية التي كافحت من أجلها إدارته المدانة. صدر الحكم بإدانته، وسُجِن ثلاث سنوات، تم وُضع تحت الإقامة الجبرية في ضيعته التي ورثها عن أسلافه، هذا على الرغم من أن روزفلت رتب أمر صرف معاش له حتى موته(١). في كتابها "ابنة فارس"، كتبت ابنة عمه ستارة فرمان - فرمايان تلك المرثية لذكراه "كان محمد مصدق قد قام بحشد حقيقي لإرادتنا القومية. كانت الأشهر الثمانية والعشرون التي قضاها في منصبه إحدى المرات القليلة طوال تاريخهم التي تعاون فيها الفرس معا وحققوا الإنجازات معا. كان عنيدا، وارتكب كثيرا من الأخطاء، بل إنه حتى لجأ مرة إلى حيلة غير دستورية. لكنه لم يفشل بسبب مظهره، أو بسبب لزماته وبعض تصرفاته الغريبة. بل إنه فشل لأنه ناضل بعزم مفرط وبدون تنازلات ضد قوة عظمى".

بدا محمد رضا شاه، بعد استرداده عرشه، ملكا مختلفا. حل اليقين والعزم محل تردده السابق، و حُبٌّ للأضواء محل خجله، والصفاقة محل احترام الآخرين. سرعان ما قام بنفي الجنرال زاهدي إلى منصب دبلوماسي بجنيف، وذلك لعدم استعداده لتحمل أية تهديدات لسلطته. ابتهج حينما أتت له زوجته الثالثة، فرح، بالوريث الضروري للعرش الذي يضمن استمرار سلالة بهلوي، في عيد ميلاده الثامن والأربعين عام ١٩٦٧، قام وهو يرتدي العباءة المطرزة باللؤلؤ التي كان والده رضا شاه قد ارتداها بنفس القصر حيث وضع تاج سلالة بهلوي على رأسه بنفسه، قام الابن بتتويج نفسه "ملك الملوك" في احتفال أُطلقت فيه ٢١ طلقة مدفعية، ورُددت فيه ترنيمة التتويج ("أنت ظل الله") وتساقط فيه على أرجاء المدينة وابل من ١٧٥٣٢ وردة عن كل يوم من أيام حياته، نثرتها على العاصمة القوات الجوية الإيرانية الملكية. خرج من نَادَى بنفسه "ضوء الشمس" على التقاليد، وذلك بأن توج

(١) حسب الوقائع التاريخية، تعرّض مصدق للتعذيب والاعتداء واصيب إصابات جسدية بالغة. (الترجمة)

أيضا زوجته فرح إمبراطورة، حيث كان ديور قد صمم ملابسها، وصمم ڤان كليف وأرپل عصابة رأسها من الماس القرنفلي والأبيض. بدا وأنه متيقنا أكثر من أى وقت مضى من أنه طفل الأقدار، حيث نجا من محاولات اغتيال، ومكائد البريطانيين، وجهود السوڤييت لتقسيم إيران أجزاء.

أعقب أعياد التتويج احتفالات أكثر ترفا وفخامة فى أكتوبر عام ١٩٧١ فى پرسيپوليس، المقر القديم لداريوس وابنه أخشويريش وموقع بلاطهما. دام الاحتفال ثلاثة أيام وأقيم بمناسبة مرور ٢٥٠٠ عام على إقامة الإمبراطورية الفارسية، وقُدِّرت تكاليفه بثلاثمائة مليون دولار فى بلد يبلغ المتوسط السنوى لدخل الفرد ٣٥٠ دولار. علقت نيوزويك، بعد أن ذكرت غياب عدد من الوجوه البارزة بالقول "إن لم تكن قد دُعيتَ فهذا يعنى أنك غير مهم؛ لكن لم يكن لك أن تكون شخصية مهمة لو أنك حضرت".

اعتذرت الملكة إليزابث عن الحضور فى ضوء تحذير من وزارة الخارجية بأنها قد تحد نفسها "وسط حشد من زعماء الدرجة الثانية" فى مناسبة "من المحتمل لها أن تكون شاقة، غير منظمة، وربما غير لائقة وغير آمنة". لكن البريطانيين رغبوا فى تحاشى أية إهانة قد تُعرِّض امتيازاتهم البترولية للخطر من ثم انضم الأمير فيليب والأميرة أن إلى المجموعة الدولية التى حضرت :المارشال تيتو من يوغسلافيا، وديكتاتور رومانيا نيكولا كاوشيسكو، والرئيس الفلبينى ماركوس وزوجته إميلدا، وسپيرو أجنييو نائب الرئيس الأمريكى قُبيل أن يفقد منصبه ويلحق به العار، وعشرة ملوك كان من بينهم هيلاسى لاسى. إمبراطور إثيوبيا الذى أطيح به بعيد ذلك. أما شخصيات الدرجة الأولى الذين رفضوا الدعوة فكان من بينهم ويلى برانت مستشار ألمانيا، والرئيس الفرنسى چورچ بومبيدو الذى علّق هاذرا "لو أننى ذهبت لربما أوكلوا إلى مهام رئيس السفرجية".

وعلى الرغم من تفشى الجفاف والمجاعة فى إيران عامئذ، وتظاهرات الطلبة،

ونقد الصحافة الدولية والشكوك المتبصرة التى عبرت عنها الإمبراطورة فرح بشأن التزود باحتياجات الاحتفالات من متعهدين بالخارج، فقد نقلت القوات الجوية الملكية الإيرانية، فى رحلات مكوكية أكثر من خمسين خيمة باللونين الأصفر والأزرق، مكيفة الهواء، من تصميم مؤسسة چانسن بباريس (متعهدى احتياجات البيت الأبيض فى عهد كيندى)، كان قد تم تصميمها على هيئة نجمة، وغطيت أرضياتها بالنفيس من السجاد الإيرانى، وأسرّتها وأرضيات حماماتها الرخامية بأفخر المفروشات ماركة بورتهولت، وزودت بأوانٍ صينية ماركة ليموچ نقش عليها أسماء كبار المدعوين (وقدمت إليهم هدايا وداع)، وذلك لإقامة كبار المدعوين من الملوك والرؤساء. أما الشخصيات الأقل مرتبة، وكان بينهم ملوك النفط ودونالد ويلبر مدير السى اى إيه، فقد استضافتهم فنادق وموتيلات شيراز على بعد أربعين ميلا حيث تم تجديد جميع مبانيها بما فيها معتقل "السافاك" الذى كانت تشرف عليه وتديره وكالة استخبارات الشاه ومباحثه الأمنية (السافاك).

وفى حفل عشاء رسمى، التهم خمسمائة مدعو كميات هائلة من الكاڤيار القزوينى الإمبراطورى وسهلوا بلعها بمئات الزجاجات من نبيذ العنب، كان بينها زجاجات من نبيذ كروم قصر لافيت – روتشيلد الريفى، وعديد الجالونات من الشمپانيا الفرنسية احتسوها من كئوس مصنوعة من كريستال بكارا. أرسلت مطاعم مكسيم بباريس ١٦٥ طباخ ومساعد طباخ أعدّوا وليمة سخية من بيض السمان المحشو بالكاڤيار، وموسيه (كريما مخفوقة) جراد البحر، ولحوم ضأن مشوية بنبات الكمأة، ولحوم الطواويس المحشوة بأكباد الأوز النادرة. قُدِّمت أطباق من التين والتوت الأحمر المكسو بطبقة من النبيذ البرتغالى المزجج (مجمد كالزجاج) على سبيل التحلية. انتهت الأمسية بعرض بالصوت والضوء والألعاب النارية. ركز اهتمام الحضور على پرسيپوليس، حيث ظهر ممثلون يُجسّدون شخصيات ملوك فارس: قورش، وداريوس وأخشويريش، يتحدث جميعهم

بالفرنسية. حلقت مروحيات الأمن أمام مقبرة قورش العظيم فيما خاطب الشاه وصوته يرتعد من زخم العاطفة الملك الفارسى العظيم "إليك يا قورش، أيها الملك العظيم، ملك الملوك، منى أنا شاهنشاه إيران، ومن شعبى، التمجيد والتحية.. قورش، إننا نقف أمام مثواك الخالد لنقول تلك الكلمات الرصينة: ارقد فى سلام، لأننا متيقظون، وسنظل هكذا، لنصون إرثك المجيد" (يبدو أن الشاه كان قد نسى أن الإسكندر الأكبر، كان قد حوّل العاصمة الفارسية القديمة إلى أنقاض).

وفى اليوم التالى، سار ١٧٢٤ جندى فى ثياب تنكرية فى استعراض أمام النظارة يحاكى مواكب السباقات القديمة التى كانت تحمل الهدايا كتلك التى تصورها النقوشات على سلالم پرسيپوليس. كانت ليسلى بلانش واحدة من الستمائة صحفى الحاضرين. وصفت فى سيرة الإمبراطورة فرح ديبا التى كتبتها ونشرتها فى توقيت سيئ (١٩٧٨)، استعراض قوة إيران على مدى القرون:

"لحى الميديين[١] الكثيفة المُجعدة، لحى الصفويين الصغيرة المدببة، أو شوارب قوات القاچار المهيبة. الدروع، الرماح المثبت عليها الرايات المثلثة،السيوف العريضة وخناجر المحاربين القدامى. راقب الضيوف الجالسون تحت الشمس الحارقة والذين كانت تحميهم الشمسيات على منابر أسفل أنقاض مجد قورش ذات الأعمدة، راقبوا الموكب المثير للإعجاب: مشاة أخمينيين، محاربين پرثيين، فرسان أخشويريش، ناقلات مُغلقة محمولة، عربات حربية، دبابات، وجمال ذات سنامين. مدفعية الشاه فتْح على، محاربين من قزوين أو الخليج الفارسى، القوات الجوية، فرقة النساء الجديدة بالقوات المسلحة.. كل ذلك كان هناك فى پرسيپوليس، كل ذلك شاهد على أمجاد إيران فى الماضى والحاضر".

بعد خمسة أعوام، وفى إيماءة أخرى جريئة ومربكة، ولكى تعكس عمْر المَلكية المديد، أمر الملك بإحلال التقويم البهلوى محل التقويم الهجرى- كان هذا يعنى أن يظهر على جميع الوثائق - الصحف والنتائج - تاريخ عام ٢٥٣٥، حيث كان يُظن

(١) اهالي ميديا القديمة (الترجمة).

أنه عمر الملكية الفارسية منذ تأسيسها. كان التقويم الهجرى، حيث كان العام هو ١٣٥٥ (١٩٧٦) مربكا بما يكفى لرجال الأعمال الإيرانيين الذين لهم تعاملات مع الغرب. لكن تقويم بهلوى الجديد هذا أثار غضب رجال الدين الشيعة بخاصة الذين كان الشاه قد تشاجر معهم عام ١٩٦٣، العام الذى كانت قوانين إصلاحات الأراضى فى برنامجه التحديثى الذى هلل له الغرب، أو "الثورة البيضاء"، قد دخلت حيز التنفيذ. وحينما ووجه بنقد رجال الدين وقتئذ، رفض الشاه غاضبا اعتراضات من قال عنهم "الملالى المقملين"، مما فاقم الغضب، وبخاصة فى مدينة قم المقدسة، حيث جذب آية الله روح الله الخمينى الانتباه للمرة الأولى من خلال هجومه الغاضب على الشاه. أعقب خطبة الخمينى أعمال شغب على نطاق واسع أدت إلى إلقاء القبض على الخمينى، وإدانته وسجنه إلى أن أفرِج عنه عام ١٩٦٤.

وبعيد الإفراج عن الخمينى، قدّم الرئيس جونسون للشاه عرضا مُغريا يتضمن مستشارين عسكريين أمريكيين وحدًّ تسهيلات ائتمانية بمائتى مليون دولار تتسلم إيران بمقتضاه وجبة شهية من طائرات الفانتوم، ودبابات تشيفتاين، وتنويعة من طائرات الهليكويتر، وزوارق طوربيد وأحدث أنواع الصواريخ. اشتمل حد التسهيلات الائتمانية فقرة شرطية: على إيران أن توقع اتفاقية وضع القوات القانونى (SOFA) التى تمنح الأفراد والعاملين الأمريكيين حصانة من القوانين المحلية. وافق المجلس والذى كان قد أصبح كاريكاتيرا لما كانه من قبل واستحق الحزبان اللذان كانا يشكلانه الكنية الشعبية: "موافق، "موافق ياريس"، وافق دونما مناقشة على شرط SOFA . أعقب ذلك عاصفة رعدية أخرى من قم:

"هل تعلم الأمة الإيرانية ما حدث مؤخرا بالمجلس؟ هل تعلم بالجريمة التى ارتكبت سرا:.. هل تعلم أن المجلس، وبمبادرة من الحكومة قد وقع على وثيقة لاستعباد إيران؟ لقد اعترف المجلس بإيران مستعمرة، لقد منح أمريكا وثيقة، تشهد على أن الأمة المسلمة بربرية، لقد شطب على جميع أمجادنا القومية والإسلامية

بخط أسود.. لو أن الشاه دهس كلبا أمريكيا بسيارته سيحاسب ولو أن طباخا أمريكيا دهس الشاه فليس ثمة من يمكن أن يدّعى عليه بشىء.. أعلِن أن التصويت المخزى للمجلس يتناقض مع الإسلام وليس له أى أساس من الشرعية.. وإذا أراد الأجانب إساءة استخدام هذا التصويت القذر سيتم تحديد واجب الأمة بوضوح".

وبناء على هذا الخطاب، تم نفى آية الله الخمينى، والتجأ أولا إلى تركيا، ثم إلى العراق، وأخيرا إلى فرنسا قبل عودته العاصفة فى فبراير ١٩٧٩ . كانت حملته ضد SOFA بلّورةً لمشاعر الغضب من هيمنة أمريكا غير المباشرة، وأذكت نيران الثأر.

بعد إطلاقه "الثورة البيضاء" التى قضت على غالبية كبار الملاك، وأجبرت الفلاحين على النزوح إلى المدن، أسمى الشاه خطته التالية "المَدنية العظيمة" وهى مسيرة تتمكن بها إيران فى القفز إلى العصر الحديث. أما آلة الدفع فستكون النفط الذى ارتفع سعره بأسلوب دراماتيكى بعد حرب ١٩٧٣، حيث زاد أربعة أضعاف ما كانه مما كان يعنى أن عائدات إيران السنوية من نفطها والتى كانت تبلغ ٥ مليارات دولار كان من المحتمل لها أن تصبح ٢٠ مليار دولار. غدت شهية الشاه للعتاد الحربى، والتى كانت إدارة چونسون قد شحذتها، نهِمة أثناء فترتى نيكسون - فورد، جزئيا بسبب صداقة الشاه مع هنرى كيسنجر (أصبح جيش إيران رابع أكبر جيش فى العالم). كان ثمة رؤية استراتيجية ذات جاذبية متبادلة.. تتولى إيران حراسة الخليج الفارسى بحيث تخفف من أعباء واشنطون العسكرية فى المنطقة نظير الأسلحة الأمريكية وخبراء التدريب. أتيح للشاه، على الرغم من شكوك البنتاجون، دونما قيود، الحصول على أكثر الأسلحة الأمريكية تقدما، باستثناء الأسلحة النووية.

أنفقت إيران، فيما بين عامى ١٩٧٢ و١٩٧٦، ١٠ مليارات دولار على العتاد الحربى الأمريكى مما جعلها عميل واشنطون الأجنبى الأول. وحينما عاد الديمقراطيون إلى البيت الأبيض عام ١٩٧٧، استمرت تلك الشراكة الاستراتيجية فى الازدهار فى ظل الرئيس چيمى كارتر. وبعد الكلمة التى قالها چيمى كارتر أثناء شرب نخب العام الجديد على شرف الشاه والتى انتشرت على نطاق واسع

("إن إيران، وبسبب قيادة الشاه العظيمة، جزيرة للاستقرار وسط المناطق الأكثر اضطرابا فى العالم")، بعدها بفترة وجيزة، تحدى المتظاهرون فى شوارع إيران السافاك البغيض، شرطة الشاه السرية كلية التواجد والسطوة والتى كانت الولايات المتحدة تتولى تنظيمها وتدريبها؛ ومؤسسته العسكرية الضخمة. وَحّدت آلاف المظالم – عدم العدالة، الاقتصادية فى ظل ازدهار هائل للاقتصاد، صفاقة الغربيين فى مجمعاتهم السكنية، الإهانات الموجهة للنساء المحتشمات، والبعثات التبشرية الكافرة – ائتلافا من المحرومين، والمحبطين، من الراديكاليين والإصلاحيين الدينيين. انفجرت الفقاعة فى ١٦ يناير ١٩٧٩ . تجمدت البلاد من خلال الإضرابات، وأعلنت القوات المسلحة العصيان، واستقل ملك الملوك البالغ من العمر تسعة وخمسين عاماً طائرة بوينج ٧٠٧ لونها أبيض وأزرق وهَرَب من بلده مرة أخرى. يستشهد الشاه فى مذكراته التى يُعْلِى فيها من قدر نفسه بمقولة أحد الجنرالات الموالين فيما كان يواجه كتيبة إطلاق الرصاص "لقد ألقى الأمريكيون بالشاه خارج البلاد وكأنه فأر ميت". فى ١ فبراير هبطت طائرة تابعة للخطوط الفرنسية كانت تحمل آية الله الخمينى فى طهران. بدأ الشاه المصاب بالسرطان ارتحالاته بين الدول من مصر إلى المغرب، إلى جزر البهاما، المكسيك، الولايات المتحدة، ثم مصر مرة أخرى، حيث شجعه السادات على الإقامة هناك، وكانت تلك خطوة أسهمت فى اغتيال القائد المصرى. توفى ثانى شاه من أسرة بهلوى، وآخرها فى ٢٧ يوليو ١٩٨٠ بعد أن قضى أيامه الأخيرة ضيفا على السادات.

بعد عملية أجاكس مباشرة، تذكر كيم أنه قد نصح دالاس وزير الخارجية بقوله "لو حاولت السى آى إيه القيام بمثل هذه العملية مرة أخرى، فعلينا أن نكون متأكدين تماما من أن الشعب والجيش يريدون ما نريده. وإن لم يكن هذا هو الوضع، فمن الأفضل إيكال المهمة للمارينز". لكن، ووفقا لروزفلت، كانت تلك نصيحة لم يكن دالاس يريد أن يسمعها، لأنه، وفى غضون أسابيع، عُرِض على

روزفلت فرصة إدارة انقلاب السى آى إيه بجواتيمالا عام ١٩٣٤ . لكنه اعتذر عن قيادة Operation PBSUCESS التى أطاحت بالرئيس المنتخب فى تلك الجمهورية الصغيرة بأمريكا الوسطى. لكن أثناء زيارة له للندن عام ١٩٥٦، فاتحت الاستخبارات البريطانية M16 روزفلت بأمل إقناعه بالمشاركة فى Operation Unfasten لاغتيال الرئيس جمال عبدالناصر، لكن رزوفلت امتنع بفطنة، ولم تتمخض الخطة عن شيء.

تقاعد روزفلت من السى آى إيه عام ١٩٥٨ وأصبح نائب الرئيس المسئول عن العلاقات الحكومية فى مكتب شركة جلف أويل بواشنطون. بعد ذلك عمل فى جماعات الضغط "اللوبيهات" نظير أجر مرتفع - ساعد شركة نورثروب (للأسلحة) فى الحصول على عقود بيزنس بأكثر من مليار دولار فى الشرق الأوسط - وسافر إلى إيران خمس مرات أو ستاً حيث أقام مع عملائه الأشقاء رشيد. كان السعوديون أيضا بين رعاته رفيعى المستوى. لكنه، وعلى الرغم من أبحاثه وخبرته الواسعة، وكما ذكرت سالى بيسانى "فقد تجاهل روزفلت الحركات السياسية والدينية فى تاريخ إيران" معتقدا أن سطوة رجال الدين "ستزوى مع التحديث". راجع روزفلت تاريخاً من جزئين لمكتب الخدمات الاستراتيجية OSS المخابراتى نُشرِ عام ١٩٧٦. وفى عام ١٩٧٩ حاول نشر كتابه "الانقلاب المضاد، الصراع من أجل التحكم فى إيران" الذى يسرد فيه دوره فى انقلاب ١٩٥٣ . لكن، كان لابد من إعدام الطبعة الأولى وعددها ٧٥٠٠٠ نسخة حينما هددت شركة بريتش بترلويوم BP، خليفة شركة النفط الأنجلو إيرانية بمقاضاته. (كان روزفلت قد سلم البروفة إلى السى آى إيه لمراجعتها ونفذ التغييرات التى طلبتها الوكالة. لكن BP زعمت أن الكتاب مضلل وأيضا "مخطئ، وغير دقيق، ويُعتقد أنه يهدف إلى تشويه السمعة"). وأخيرا، تم نشر الكتاب عام ١٩٨٠. بعد إطلاق سراح الرهائن الأمريكيين الذين احتجزهم نظام الخمينى. مات روزفلت عام ٢٠٠٠ نتيجة إصابته بأزمة قلبية.

استاء ويلبر، المُخطِط الرئيسى لعملية أجاكس، من عدم ذكر روزفلت لدوره فى

كتابه "الانقلاب المضاد". بعد أحداث عام ١٩٥٣ مُنح ويلبر ترقية روتينية فى الخدمة المدنية. وكما اشتكى، فقد كانت "أقل من المستوى بالنسبة لشخص له خبرتى ومدة خدمتى الطويلة". بعد تقاعده من السى آى إيه ألف كتابه "مغامرات فى الشرق الأوسط" والذى أخضعته السى آى إيه لرقابة مكثفة وحذفت أجزاء كثيرة منه. توفى عام ١٩٩٧ فى عمر ناهز التاسعة والثمانين. وفقط عام ٢٠٠٠ أفرجت السى آى إيه عن الكتاب الذى ألفه ويلبر عام ١٩٥٤ حول التاريخ السرى لعملية أچاكس بعنوان: "الإطاحة بمصدق رئيس وزراء إيران، نوفمبر ١٩٥٢- أغسطس ١٩٥٣".

أعلن چون وولر، الذى كان المفتش العام للسى آى إيه ذات يوم، وهو يفكر فى إنتاج فيلم تليفزيونى وثائقى عن العملية، أعلن قائلاً: "إننا نفكر فى أنفسنا بصفتنا أبطال الحرب الباردة البارزين". من منظور السى آى إيه، فقد أتاح الانقلاب لواشنطون ٢٥ عاما إضافية إلى عمر أسرة بهلوى الموالية لأمريكا و"مكّن صناعة النفط الدولية من تصدير ٢٤ مليار برميل نفط بشروط مُحَابية". لكن جاءت إعادة سرد الوكالة الرسمى للأحداث تحذيرية، فقد عبر كاتبوه، عن صواب، عن القلق من احتمال "ضربة ثأرية" ضد الولايات المتحدة نتيجة مثل تلك العمليات.

المرجح أنه لن يتم كتابة القصة الكاملة لانقلاب عام ١٩٥٣، وذلك بسبب تدمير كثير من الملفات الأمريكية والبريطانية الخاصة بالعملية، ومازالت ملفات كثيرة أخرى غير متاحة (حتى عام ٢٠٠٠ ظلت حوالى ألف صفحة من الوثائق فى سراديب الوكالة). ما المحتمل للملفات المحظورة أن تكشفه؟ فى رأى البروفسور إرڤاند إبراهيمان من جامعة سيتى بنيويورك "إنه لأمرٌ أن تعترف الوكالة بأنها وزعت بروباجندا كاذبة مشبوهة، موّلت تظاهرات، ومارست حِيلاً قذرة، وحثّت الضباط على تنفيذ الانقلاب. أما الاعتراف بأن السى آى. إيه عملت من خلال النازيين المحليين، وكان لها دور مباشر فى عمليات الاختطاف والاغتيالات والتعذيب والقتل الجماعى بالشوارع، فأمر آخر".

وعلى الرغم من أن الانقلاب نجح بسبب الدعم الإيرانى الإيجابى أو السلبى، فلا يمكن لعاقل أن يشك فى أن الأمريكيين خططوا للعملية وأداروها وأخرجوها. برهنت الإطاحة بمصدق عام ١٩٥٣ على أنها أكثر عمليات تغيير النظام بالشرق الأوسط نجاحا. لكن الانقلاب حوّل النظام الانتخابى الهش عن مسيرته وعرقله، وفيما أصبحت الولايات المتحدة متورطة بالسياسات الداخلية الإيرانية، كان لا مفر من أن يستفيق الإيرانيون من الأوهام حول اليانكى وما أملوه منهم. بعد فرار الشاه، وبعد أن منحته الولايات المتحدة حق اللجوء عام ١٩٧٩، احتجز الطلبة الإيرانيون اثنين وخمسين أمريكيا رهائن، جزئيا، للحيلولة دون تكرار انقلاب ١٩٥٣ . نتج عن أزمة الرهائن، وفقا للاعتقاد العام، خسارة چيمى كارتر انتخابات عام ١٩٨٠ . وكما كتب عباس أماناتى، الأستاذ بجامعة ييل، بالنيويورك تايمز "يعرف جميع أطفال إيران بالمدارس عن الانقلاب الذى نفذته السى آى إيه وأطاح برئيس الوزراء محمد مصدق. يعى، حتى الإيرانيون غير المهتمين بماضيهم، كيف أن إيران، طوال القرنين التاسع عشر والعشرين، كانت ملعبا للعبة العظمى... وبعد ربع قرن "تفاجأ" الأمريكيون حينما أطاحت ثورة إسلامية بالشاه وغيرت البلد الذى بدا صديقا للولايات المتحدة. لكن إذا كان الأمريكون يعانون من فقدان الذاكرة التاريخية، فإنه بالنسبة لإيرانيين كثيرين، ومن بينهم آية الله روح الله الخمينى، فإن خط الذاكرة أدى بوضوح من اللعبة العظمى إلى الشيطان الأعظم".

الفصل الحادى عشر

صبى الساحر

مايلز إيكس كوپلاند الابن

(١٩١٦- ١٩٩١)

الفصل الحادى عشر

"لم نكن عباقرة أشرارا نتآمر من أجل غسيل مخ العالم، بالعكس، كنا صبية أبرياء نلهو بلعبة جديدة – ترخيص بالسرقة"

– مايلز كوبلاند "لاعب اللعبة" (١٩٨٩)

●●●

"كان مايلز الرجل الوحيد الذى استغل السى آى إيه غطاءً يتخفى خلفه"

– ويلتون وين

مراسل الشرق الأوسط، التايم

لو أن الحظ أسْعدك بزيارة بيروت قبل عام ١٩٧٥ لوجدت أن ثمة مكانا واحدا فقط هو الأنسب لتتوقف فيه وتحتسى مشروبا إن كنت ضابط سى آى إيه تعمل على قضية، أو أنثى فتاكة تبحث عن صيْد، أو مراسلا أجنبياً. ذاك المكان هو بار فندق السان چورچ فى قلب العاصمة اللبنانية التى هى نفسها مركز المراكز المؤامراتية للشرق الأوسط. يتذكر چان برتوليه، الذى عمل مديرا للفندق ذات مرة، دوره فى "حدثٍ فريد لا يقع مثله سوى مرة فى القرن. شعرت أن زبائنى كانوا يديرون الشرق الأوسط، وأحياناً العالم بأكمله". منذ خمسينيات القرن العشرين فصاعداً، كانت بيروت "باريس الشرق"؛ تُوِّجت لعقدين عاصمة مالية للعالم العربى، وكانت القاهرة فقط هى التى تنافسها كعاصمته الثقافية. عام ١٩٧٣، اختارت مجلة فورتشن Fortune فندق السان چورچ واحدا من أفضل سبعة فنادق فى العالم

للتنفيذيين الأمريكيين وأشادت بمشروباته السخية، وبالخدمة الكفء غير المتطفلة التى يقدمها.

لكن المهم من منظورنا هو مركزية الفندق فى عمليات التآمر وتغيير الأنظمة. وكحانةٍ للصحفيين الفضوليين ولمصادرهم الموثوقة (أحيانا) كان السان چورچ فى زمنه يناظر ، بل حتى يبز، الشبرد بالقاهرة، الألكرون فى براغ، أو الأثينيه پالاس فى بوخارست. كانت شركة فرنسية هى التى تولت بناءه فى ثلاثينيات القرن العشرين. وصمم ديكوراته المهندس الحداثى چان روبير. أقيم الفندق المكون من خمسة طوابق على قاعدة اصطناعية ناتئة فى خليج چونيه الجميل. تطل صفوف شرفه متدرجة الارتفاع على منطقة جبال خليج چونيه التى تتناثر عليها الغابات والقرى وتعلوها الثلوج. يكتب أحدث مؤرخى الفندق، سعيد أبو الريش قائلاً: "فى

أيام نادرة فى مطلع الربيع، يمكنك أن تجلس فى الشرفة تحتسى شراب الظهيرة وتراقب الأشخاص يتزلجون على المياه والجليد فى خط رؤية واحد مستقيم. فى الليل تتصاعد أضواء القرى بارتفاع الجبال حتى يصبح من الصعب تمييزها عن النجوم. وبقدر معرفتى، ليس ثمة مكان فى بيروت، أو فى العالم، يناظر جمال هذا الموقع".

هيَّا بنَا نتنصّت على (ما كان) يجرى بالفندق فى يوم نمطى. سام بروور، مراسل النيويورك تايمز الرئيسى بالشرق الأوسط، هو الرئيس المشارك لنادى "العاشرة صباحا" الشهير محليا، ببار الفندق، ويرتاده مبكراً بانتظام. يثرثر بإيجاز مع ميرنا البستانى، الشريكة فى ملكية الفندق، والعضوة السابقة بالبرلمان اللبنانى، والتى تعتز بالسان چورچ وكأنه من الكنوز القومية. فرغت دورية الصباح من العاملين بالفندق، مفرطى العدد (حوالى ٢٨٥ شخص) من تنظيف موائد "التراس" ذات الأسطح الزجاجية، وغسل الكراسى بالإسفنج، ومسح غرفة بار الفندق ذات القواطع الخشبية المُصبّعة. يسأل بروور إن كان ثمة رسائل له إذ إن الفندق مكان آمن يُستخدم على نطاق واسع لتلقى البريد. يُحيّى مدير البار على بيهار، وأبو خليل، كبير السقاة (البارمان)، وهو يقوم بتقطيع الفلفل الأخضر الذى يزرعه فى حديقته إلى مربعات صغيرة لاستخدامه فى مشروب "بلودى مارى" المحبب الذى يقدمه البار. ثم إلى العمل - الذى يعنى بالنسبة لبروور شرب القهوة مع كرواسان، أو جرعة من مشروب جبسون (مارتينى مثلج مع بصلة صغيرة فى حجم اللؤلؤة) فيما يتبادل الشائعات مع رئيس محطة السى آى إيه المقيم. لم تُبلغ الوكالة عقدها الأول بعد، لكن بروور يألف أساليبها. فبعد أن درس بإكستر وييل، تحول إلى الصحافة فى ثلاثينات القرن العشرين وجذب الانتباه للمرة الأولى بتغطية للحرب الأهلية الإسبانية لصحيفة شيكاغو تريبيون. أثناء الحرب العالمية الثانية، جنّده مكتب الخدمات الاستراتيجية (OSS)، سلَف السى آى. إيه، وأثناء عمله على

المسرح الأوربى، كوّن صداقة مع سايروس إل. سولزبرجر كاتب أعمدة الشئون الخارجية بالنيويورك تايمز. أُعجب سايروس بسام (بردور)- كان طويلا، عميق التفكير، ربطة عنقه على شكل فراشة، صوته خفيض - ولدى انتهاء الحرب فتح الطريق أمامه للعمل بالتايمز. بيد أن سولزبرجر كان حذرا من روابط بروور بالاستخبارات الأمريكية. حينما هبط ويبلبور كراين إيڤلاند، فيما كان مازال عميلا سريا مستجدا، ببيروت عام ١٩٥٥، اجتمع على الفور ببروور بالسان چورچ، ورأى أنه مَصْدر لا يقدر بثمن ومستمع صبور. أطلع بروور إيڤلاند على رسالة داخلية لقسم الشئون الاجتماعية تقول إن مصر قد وقّعت صفقة أسلحة مع تشيكوسلوڤاكيا، الأولى من نوعها مع بلد من الكتلة السوڤييتية. يذكر إيڤلاند فى مذكراته "جبال من رمال" أن "برقية أخرى وصلت فى وقت متأخر من تلك الليلة مفادها أن وزير الخارجية دالاس قد بعث بچورچ ألان مساعد وزير الخارجية إلى القاهرة لإجراء محادثات مع ناصر. ومن أجل التظاهر بأننا غير مهتمين بالصفقة، أُعلن عن الرحلة بصفتها "زيارة روتينية للمنطقة تشمل عدة بلدان لمناقشة المشاكل الراهنة" (يروى إيڤلان تفاصيل نصف دستة قصص أمد بها بروور والتايمز).

وبحس المطلّع على بواطن الأمور خلف قصص أغلفة الصحف والمجلات المفبركة، طوّر سام علاقات مع كل المهمين فى بيزنس التجسس بالشرق الأوسط. كان ضمن رواد مائدته المنتظمين حفيدا تيودور روزفلت، أي كرميت وابن عمه أرشيبالد، كبيرا المتخصصين فى الشئون العربية بالسى آى إيه. كان الفلسطينى أبوسعيد أبو الريش من مصادره اليومية، وكان أيضا مراسلا للتايم ومن "أصول" السى آى إيه الموثوقة (كان أيضا والد الكاتب سعيد أبو الريش مراسل إذاعة أوربا الحرة). كان بين البريطانيين البارزين إيتش إيه. آر (كيم) فيلبى، مراسل الإكونوميست ببيروت، والذى كان قد استقال مؤخراً فى ظروف مبهمة من الاستبخارات البريطانية. نال فيلبى إعجاب أعضاء نادى "العاشرة صباحا" بسلوكه

(عندما لا يكون ثملا)، وثأثأته التى لا براء منها، وعينيه الزرقاوين المُبهمتين. كان سام وكيم قد التقيا أثناء الحرب الأهلية الإسبانية، حيث كان بروور يراسل من الجانب اليسارى الملكى، فيما كان فيلبى يكتب للتايمز اللندنية من معسكر المتمردين الموالين للفاشية. أحييا صداقتهما ببيروت، وحينما كان بروور يغادر بيروت فى مهمة كان يطلب من فيلبى رعاية زوجته كخدمة له. فى ١٢ سبتمبر ١٩٥٦ التقى فيلبى مع إلينور كارولين كيرنر بروور فى بار السان چورچ. حينما عاد سام، كان ثلاثتهم لا ينفصلون - استمر هذا عاما إلى أن طلبت إلينور الطلاق وحصلت عليه فيما كان كيم يُعلن، متعلثما، نيته للزواج منها (قيل إن بروور سأله" أتعنى أنك تطلب منى الزواج من زوجتى؟").

لكن كان ثمة رجل رابع تورط فى أكثر فضائح جاسوسية القرن الرخيصة ذيوعا. كان هو مايلز كوپلاند، الذى كان عميلا سياسيا للسى آى إيه، وأول عميل لها يكتب بغزارة وحماقة عن دوره فى تغيير الأنظمة. ساعد على ترسيخ استراتيجية سرية أمريكية بامتياز بزرعه ضباطا فى الجيش (لتولى السلطة) بدلا من الملوك والأمراء ورؤساء القبائل بالأسلوب البريطانى(١). كان ناجحا بما يكفى

(١) عن مايلز كوپلاند، فى كتابه "حرب الثلاثين سنة، الجزء الأول، سنوات الغليان" (مركز الأهرام للترجمة والنشر، الطبعة الأولى، ١٩٨٨، القاهرة) عرض الأستاذ محمد حسنين هيكل بالتفصيل قصة رجل الاستخبارات الأمريكية "مايلز كوپلاند" الذى كان احد اثنين استعان بهما رجل المخابرات المعروف "كِرميت روزفلت" وكان الثانى هو "چيمس إكلبرجر" الذى شغل منصب الوزير المفوض بالسفارة الأمريكية بالقاهرة، فى حين عمل كوپلاند، لبعض الوقت ملحقا بها. بعد رفض عبدالناصر العرض الأمريكى بمقايضة تمويل السد العالى بالصلح مع إسرائيل، قرر ان تكون اتصالاته مع امريكا عن طريق السفارتين فى واشنطن والقاهرة. كانت هذه ضربة قاضية لروزفلت (الجاسوس) الذى خفت ضوؤه ثم شحب وتلاشى إلى ان غاب حسب تعبير هيكل ص. ١٧٩، وبعدها، ترك وكيلاه "إكلبرجر" و" كوپلاند" المخابرات المركزية وافتتحا مكتبا للاستشارات التجارية=

لأن يصبح مضرب الأمثال فى حرفته، ولأن ينتزع شهادة فريدة من كيم فيلبى فى أعقاب احتفاء الأخير المُلغِز من بيروت وعودته إلى الظهور فى موسكو حيث لحقت به إلينور، زوجته الأمريكية. فيما بعد، علّق كيم فيلبى فى حوار معه بُث مباشرة

---

* فى بيروت اعتمادا على صلات سابقة مع شركات النفط وغيرها من المصالح الأمريكية فى المنطقة. ثم انفضت الشركة، ودار "مايلز كوپلاند" بعد ذلك على المراكز التى عرفها اثناء خدمته السابقة بما فيها القاهرة، وفى البداية، كانت هناك رغبة مساعدته عن فهم بمجموعة "كرميت" كلها، ثم تبدل الموقف حينما تبين ان " كوپلاند" يبحث عن صفقة يبيع فيها اى شىء لأى مستعد للشراء وفى اى سوق.

وفى هامش ص ١٨٠ اضاف الأستاذ هيكل: "وبالفعل، فقد وجد "مايلز كوپلاند" مشتريا لبضاعته. وهكذا كتب ونشر كتابا بعنوان "لعبة الأمم" ألح فيه - تلميحا وليس تصريحا- إلى ان المخابرات الأمريكية كانت تعرف مسبقا بثورة يوليو وانها كانت على صلة بها على نحو او آخر. ولم يكن ذلك بالقطع صحيحا باعتراف "مايلز كوپلاند" نفسه الذى تتكفل مراسلاته بإظهار الخلل فى شخصيته. وعلى أية حال، فإن هذا الكتاب لم يلبث ان اصبح الذخيرة الأثيرة لدى كل من يريدون الهجوم على ثورة يوليو، بحسن، أو سوء نية.

ويشير هيكل إلى أن ترجمة ملف مراسلات " كوپلاند" مع عدد كبير من الشخصيات المصرية التى عرفها اثناء عمله بمصر تصل إلى قرابة المائتى صفحة، وانه كان ينوى نشر الملف كاملا، ثم غير رايه لأن كل امر من الأمور لابد ان تظل له نسبته الصحيحة إلى حجم الأحداث وقيمتها. يقدم الأستاذ هيكل فى الملحق الوثائقى لكتابه ٤ وثائق (ص ص ٨١- ٨٢١)، كما يعرض قائمة تضم ٢٥ من مراسلات كوپلاند إلى مسئولين مصريين. ويركز هيكل فى الكتابات التى اوردها على ان " كوپلاند" يستنكر ما نسب إليه من انه ادعى ان وكالة المخابرات الأمريكية كانت تعرف بموعد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ويقول إن هذا الادعاء عليه كذب ومحض هراء. كما عرض " كوپلاند" فى رسالة منه إلى هيكل بتاريخ ٢٦ نوفمبر ١٩٦٩ أن يقوم هو بتغيير ما يراه فى كتابه "لعبة الأمم".

- شكر خاص من الترجمة إلى الأستاذ عبدالعال الباقورى الذى أعد هذا الهامش.

على الهواء من إذاعة موسكو فى الستينيات بقوله "لقد عرفتُ هذا المتآمر لعشرين عاما، من ثم يمكننى أن أقول إن كتاب مايلز كوپلاند "لعبة الأمم" هو نفسه خطوة فى لعبة السى آى إيه البشعة".

من كان مخطط المؤامرات البشع هذا؟ كان مايلز كوپلاند (ولِد حوالى ١٩١٦) هو الأقل شبحية بين عملاء استخبارات الولايات المتحدة. تذكر زميله ويلبر كراين إيڤلاند أنه لدى وصوله إلى مطار القاهرة عام ١٩٥٣ استقبله ورحب به شخصا منبسطا متهلل الوجه طوله ستة أقدام، شعره كثيف أصفر بلون الرمال، نظارته ذات إطار بلاستيكى و"عيناه ترقصان من الاستثارة". وصفته مرثيته التى نشرتها التايمز اللندية (مات كوپلاند بأكسفورد شاير عام ١٩٩١) بأنه "دبُ دافئ المشاعر" ظل "أمريكيا يتباهى بذلك" على الرغم أنه قضى جزءا كبيرا من حياته بإنجلترا. تذكر لارى چيه. كورب، صنيعته المخلص، أنه التقاه وهو يغادر شقة عدنان خاشوقجى تاجر الأسلحة بنيويورك. بدأه مايلز فيما كان المصعد يهبط "هالو، إنك لارى كورب، أليس كذلك؟ لقد سمعت عنك". تذكر العميل المستجد بذلة كوپلاند القطنية المخططة ونظارته ذات الإطار الأسود، "التى ماثلت تماما نظارة والدى". لكن على الرغم من شدة وضوح شكل كوپلاند، إلا أن خطوط كفافه تكاد تكون مشوشة غامضة. مثلا ذكرت مرثية التايمز اللندنية أن عمر كوپلاند لدى وفاته كان هو السابعة والسبعين وكذلك فعلت الواشنطون پوست. إلا أن النيويورك تايمز قالت إن عمره كان الرابعة والسبعين فيما قدرته الجارديان بالسادسة والسبعين. تتجنب مذكرات كوپلاند التى نشرها بعنوان "لاعب اللعبة" (١٩٨٩). التواريخ المحددة المضبوطة، لكنها تُثبت أنه شب فى برمنجهام، ألاباما، حيث تخرج فى ثانوية إرسكين رامساى التقنية عام ١٩٣١، أو ١٩٣٢، مما يشير إلى أنه كان أقرب إلى السابعة والسبعين لدى وفاته. بيد أنه يحتمل لأى من التفاصيل السابقة أن تكون صحيحة.

ينطبق مبدأ لا يقينى آخر على معظم سيرته التى كتبها عن نفسه. هل كان عازفا ممتازا على البوق بالمرحلة الثانوية لدرجة أنه دُعى للأداء مع فرقة سوداء أصبحت فيما بعد فرقة إرسكين هوپكينز الكبيرة فى تاسكجى؟ هل كان يؤدى فى أوركسترا هارلم كوتون كلوب، ثم انضم إلى أوركسترا جلن ميلر الأكثر تميزا، مستهلا ظهوره كأحد رباعى عازفى الأبواق على سطح فندق روزفلت بنيو أورلينز فى سبتمبر ١٩٤٠؟ يكتب قائلاً "كموسيقىّ فى فرقة الجاز، كنت أتقاضى أعلى أجر (أعنى فى تلك الفترة) بل إننى حتى اكتسبت إعجاب زملائى. استمتعتُ بالعزف فى فرق الجاز الكبيرة أكثر من تمتعى بأية مهنة أخرى أو حتى بأية هواية، من قبل ومن بعد". وسواء كانت تلك مبالغات أم لا، فقد أصبحت إجادة كوپلاند للجاز ضمن فولكلور السى آى إيه الراسخ، وتم عرض بوقه الحقيقى (أو المزعوم) كأثر يُعتز به فى احتفالات مرور خمسين عاما على إنشاء الوكالة فى ١٩٩٧.

فى ١٩٤٠، التحق كوپلاند بالحرس الوطنى، ومثل كل المجندين، أدى اختبار ستانفورد - بينت الاستخباراتى. يؤكد فى سيرته الذاتية أنه حصل على ١٦٠ درجة "أعلى درجة حصل عليها أى أحد فى جيش الولايات المتحدة بأكمله"، أو (كما ذكر) تقريبا نفس المستوى الذى قُدِّر لأينشتاين، وجوته، والمسيح عيسى وفقاً لتكهنات علماء النفس فى جامعة ستانفورد. وسواء كان ذلك صحيحا أم زيفاً، فقد أثبت كوپلاند عبقريته فى تكوين الشبكات. تم تعيينه فى فرقة استخبارات الشرطة بالجيش (CIP) بواشنطون، وهناك اتصل بعضو الكونجرس عن ألاباما الذى أصبح فيما بعد عضوا بمجلس الشيوخ، أى چون سپاركمان الذى وصفه كوپلاند بأنه "أحسن رجل فى العالم". فتح سپاركمان الأبواب لمكتب الخدمات الاستراتيجية الاستخباراتى أمامه وكذلك أبواب رئيسه الجنرال ويليام جيه. دونوفان. انسجم الاثنان على الفور "بالأسلوب الذى يحب به شخصان من الطرفين النقيضين فى السلم الاجتماعى بعضهما" هكذا يذكر كوپلاند: "وفى غضون دقائق كنت أروى له

طرائف عن مناوراتى فى مستنقعات لويزيانا.. ضحك وضحك وسألنى ما إن كنت قد تغديت. وهكذا، وبعد دقائق، كنت أتناول السندوتشات والبيرة على مكتب وايلدبيل دونوڤان فى وقت كاد يكون رجلا غير متاح لأى شخص من العالم الخارجى باستثناء الرئيس روزفلت. خرجت من مكتبه مع تأكيدات أنه سيتصل بى".

فى الواقع، لم يجنَّد كوپلاند بمكتب الخدمات الاستراتيجية (OSS) المُبهر، بل خدم بدلا من ذلك فى شرطة الاستخبارات المضادة "CIP" المُملة، التى وُلِدت من جديد عام ١٩٤٢ باسم فرقة الاستخبارات المضادة "CIC" والتى كان يعمل بها عدد كبير من اللغويين وذلك للقيام بمهام الاستجوابات والمراقبة. (لا تذكر مذكرات كوپلاند رتبته هناك، لكن غالبية عملاء CIC كانوا من ضباط الصف). وفى نفس العام سافر إلى لندن فى زمن الحرب حيث سكن بشارع ساوث أودلى بحى ماى فير الراقى. هناك عمل على إتقان الفرنسية، وحضر المناسبات الاجتماعية مع عملاء الاستخبارات البريطانية، وكانت من بينهم لورين آدى، ابنة أحد جراحى الأعصاب بهارلى ستريت، وكانت هى متخصصة مبتدئة فى علم الآثار، وأصبحت زوجته مدى الحياة. من الواضح أن كوپلاند حصل على تصريح سرى للغاية أتاح له الاطلاع على الخطط التفصيلية لعملية أوڤرلورد Operation Overlord، وزعم أنه شارك فى تدريبات "غرفة الألعاب" أى (وضع الخطط) بالمبنى رقم ٢٠ بميدان جروڤنر، حيث كان الجنرال أيزنهاور وهيئة أركانه يدرسون بتمعن استراتيجتهم للإنزالات بنورماندى.

فى يونيو ١٩٤٤، فى أعقاب اليوم "ى" (اليوم المحدد لشن العملية) دخل كوپلاند فرنسا ومعه عملاء CIC (فرقة الاستخبارات المضادة) وكان بينهم (كما كان يُحب أن يوضح) هنرى كيسنجر، چيه. دى سالينى، وويليام ساروريان. كان حاضرا قبل، أثناء، أو بعد تحرير باريس (تختلف الروايات) ويقال إنه شرب الأنخاب مع إرنست هيمنجواى بين آخرين. لكن كانت مهمة الـ CIC الأهم هى تلك التى أنيطت بها فى

ألمانيا. فيما كان بلندن، عرف كوبلاند لأول مرة بأمر Operation Paperclip التى كانت ترمى إلى اختطاف علماء الصواريخ الألمان قبل وصول القوات السوفييتية وتفوز بهم. سعت CIC، إضافة إلى الاستيلاء على صُناع صواريخ V-1 وV-2 إلى العثور على الضباط النازيين السابقين مثل الجنرال راينهارد جهن الذى زعم أن بحوزته ملفات الكرملين السرية، وأيضا مجرمى الحرب من أمثال كلاوس باربى "جزّار ليون" الذى استخدمته CIC ووضعته على كشوف رواتبها قبل تهريبه إلى أمريكا الجنوبية واستخدامه ضمن عملاء آخرين، للتجسس هناك. اعترف كوبلاند، بعد زيارته لمعسكرات الموت النازية، ولأن كثيرا من زملائه فى CIC كانوا يهودا، بوخز الضمير حول ما أسماه ذلك العمل القذر. بيد أنه تعلم مباشرة أن الأحكام السرية للعمليات كانت مطّاطة أخلاقياً، وأن الشاجبين لها الرسميين الورعين كانوا مجرد منافقين مضللين، وأنه إذا نُظر إليها من الجانبين المتعارضين فإن المسابقة على السيطرة على البلدان الأجنبية هى فى حقيقة الأمر لعبة، الأمر الذى أكد له "لا أخلاقية سياسات القوة" ذلك التعبير الذى جعل منه العنوان الفرعى لكتابه.

لم يكن ثمة لاعب فى تلك اللعبة يفوق وايلد بيل دونوفان شراهة. كان قد اقترح من قبل منح OSS وضعا دائما. كان دونوفان يبتهج لإنجازات عملائه العملياتية، ورأى أنه سيكون ثمة حاجة لمهاراتهم لأن موسكو كانت قد بدأت تظهر فى الأفق كمنافس لواشنطون بعد الحرب. لكن حماسه التبشيرى هذا عَمَل على تشوش منظوره وأدى إلى إساءة فهمه للمزاج الشعبى. فى سبتمبر عام ١٩٤٥، بعد استسلام اليابان بشهر، قام الرئيس ترومان بحل OSS رسميًا. بيد أن دونوفان تمكن بنجاح من أن يجد وظائف لمئات من عملاء الاستخبارات، بمن فيهم كوبلاند، فى "وحدة الخدمات الاستراتيجية SSU" الجديدة، والتى كانت الجنين الذى تطورت منه وكالة الاستخبارات المركزية: سى آى إيه، والذى شرْعن الكونجرس ميلادها بإصداره "قانون الأمن القومى" لعام ١٩٤٧ .

نص القانون على وظائف السى آى إيه الخمس، التى كانت أربع منها تختص بجمع الاستخبارات ذات الصلة بالأمن القومى وتحليلها ونشرها. أعطت وظيفة خامسة تمت صياغتها بإبهام الوكالة السلطة فى "أداء وظائف أخرى ومهمات ذات صلة بالاستخبارات التى تؤثر فى الأمن القومى وفقا للتوجيهات التى يصدرها مجلس الأمن القومى من وقت لآخر". ونظرا لأن مجلس الأمن القومى مسئول فقط أمام الرئيس لا الكونجرس، فقد فتح هذا مساحة كبيرة للعمليات السرية ضد الإمبراطورية السوفييتية الآخذة فى التوسع. (فيما بعد مُنِح القانون للكونجرس قدرا محدودا من الإشراف على السى آى إيه، لكن تظل موازنة الوكالة سرية، كما أصبح الكشف عن هوية أى من عملائها السريين جريمة فدرالية، وقد تذكّر الأمريكيون هذا فيما بعد أثناء نظر قضية "الولايات المتحدة الأمريكية ضد آى لويس ليبى، المعروف أيضا باسم سكووتر ليبى").

تزامن مولد الوكالة مع شتاء ١٩٤٦- ١٩٤٧ المشهود البارد، حينما أبلغت بريطانيا المنهكة المأزومة الولايات المتحدة أنها لم يعد باستطاعتها تقديم المساعدة العسكرية للحكومة اليونانية التى كان رجال حرب العصابات الشيوعيون يتحدونها، أو مساعدة تركيا فى الدفاع عن حدودها الطويلة مع روسيا السوفييتية. ردت واشنطون فى مارس ١٩٤٧ بمبدأ ترومان الذى سمح بتقديم مساعدة عسكرية مباشرة إلى اليونان وتركيا، والذى تعهد بدعم الشعوب الحرة فى أى مكان ممن يقاومون "محاولة إخضاعهم بواسطة أقليات مسلحة أو ضغط أجنبى". عمل كل هذا على كهربة الجو حيث ذهب أول مائتين من موظفى السى آى إيه، وكان مايلز كوپلاند بينهم، إلى الأكواخ المؤقتة بالمول التى كانت قائمة بواشنطون منذ زمن الحرب لاستلام مهامهم.

بدا أن كشوف مرتبات السى آى إيه تضخمت بين عشية وضحاها. فى عام ١٩٦١، انتقلت الوكالة إلى مقر بمدينة لانجلى، ڤيرچينيا يتسع لخمسة عشر ألفا من

العاملين على مساحة ١٢٥ فدان. زاد من زخم الأجواء الجامعية المحيطة بالمقر وضع تمثان نايثان هيل، أول أمريكى نُفِذ فيه حكم الإعدام بتهمة التجسس وضعه فى المدخل، كان التمثال صورة طبق الأصل من ذلك الموجود بجامعة ييل حيث درس هيل، مستهلا بذلك ارتباط الجامعة الطويل بالاستخبارات.

(فى ثمانينيات القرن العشرين تم نقل التمثال إلى الداخل لأن ويليام چيه. كيسى رئيس السى آى إيه فى عهد ريجان شعر أن الموقع الأصلى بعث برسالة خاطئة،.وذلك لأن هيل، وبالرغم من بسالته، أخفق فى مهمته). حدّد مؤسسو السى آى إيه أوسع آفاق ممكنة (لمن جاءوا بعدهم). فى خطاب له بجامعة ييل عام ١٩٥٨، أعلن آلان دالاس، المدير الخامس للاستخبارات المركزية أن "قانون الأمن القومى منح الاستخبارات وضعا نافذا فى حكومتنا أكثر من ذلك الذى تتمتع به أية استخبارات فى أية حكومة أخرى بالعالم".

بهذه الروح عمل مؤسسو الوكالة جاهدين على اختراع تقاليد تليق بأول جهاز تجسس أمريكى يعمل باستقلال فى زمن السلم. كان مايلز كوبلاند بين العملاء الأكثر إبداعا، وكان قد شبه رفاقه فى عمليات السرقة بصبية أبرياء أعطوا لعبة وترخيصا بالسرقة. فى سبتمبر ١٩٤٧، عُين كوبلاند فى دمشق، رسميا كدبلوماسى أدنى مرتبة وفى واقع الأمر أول رئيس عملياتى للسى آى إيه بسوريا. ومثل كثير من الأشخاص الموهوبين موسيقياً من ذوى حاسة السمع المتميزة، كانت له قدرة خاصة على تعلم اللغات، وفى غضون عام وبمساعدة مساعده الذى كان يتحدث العربية، كان، وفقا لروايته، يجيد اللغة بدرجة أنه جمّع معجماً باللغة العربية الدارجة (زعم كوبلاند أنه الأول من نوعه مما "يجعلنى كما قال مدرسى متباهيا، دانتى اللغة العربية").

بيد أنه، أىُّ سياسة، أو سياسات، كان من المفترض على هذا العميل السرى المبتدئ أن يعززها؟ (كان كوبلاند فى الحادية والثلاثين، مع إمكان إضافة بضع

سنوات أو خصمها). انتهى كوپلاند، بعد مراجعة مراسلات البعثة الأمريكية مع واشنطون، إلى أن الإجماع السائد، والذى لم يُفصَح عنه، هو أن الدول العربية كانت فى صراع غير ضرورى مع الولايات المتحدة، ويرجع ذلك بدرجة شبه كاملة "إلى القيادات سيئة النية والمضلِّلة- قياداتهم لا قياداتنا". وحقا، ففى وجود قيادات مستنيرة مؤثرة، يصبح العرب حلفاءنا الطبيعيين. أوجز كوپلاند ما شعر أن أمريكا الرسمية تعتقده كالتالى:

"للعرب جميع الأسباب التى تجعلهم يخشون السوڤييت، فيما أنه ليس لديهم أى سبب ليخشونا، كما أنه ضد الطبيعة بالنسبة لهم ألا يرحبوا بعروضنا لحمايتهم. إن شركاتنا النفطية هى التى جعلتهم أثرياء. وسيكونون المستفيدين الرئيسيين من "أية تسوية ودية للمسألة الفلسطينية" كتلك التى بإمكاننا نحن فقط أن نضمنها. نُظِر إلى رفض قادتهم تبنى تلك الرؤية على أنه سبب كافٍ، ومبرر للإطاحة بهم- أو الأحرى تمكين شعوبهم من الإطاحة بهم. اعتقدنا أنه لو أن لأية قيادات قومية فى العالم أن تفيد من تدخلنا فى شئونهم، فإن هذه القيادات هى القيادات العربية".

من ثم، افترض كوپلاند، بَدْهاً، أن له نوعا من الحرية غير المعلنة لدعم تغيير النظام فى سوريا، التى كان يحمكها آنذاك أعضاء سابقون، مُعمَّرون، منهكون، غير مُلهمين، أعضاء فى الكفاح القومى ضد فرنسا. بدأ بتجنيد "صديق خاص"، يوسف دبوس، أحد العاملين المحليين بالبعثة الأمريكية. كان متواطئا متدفق الحديث، وبدا أنه يعرف جميع السوريين من ذوى الشأن. أبلغه كوپلاند أنه قد وقع اختيار واشنطون على سوريا لتكون حالة اختبار للعمل على الإتيان بحكومة عاقلة منطقية، من المفضل من خلال الانتخابات الحرة. لدى سماعه هذا "أومأ يوسف بوقار وهو لا يكاد يخفى بهجته". وهكذا، "أصبحت سوريا فى مطلع ١٩٤٩ أول بلد شرق أوسطى يخبر مهارات السى آى إيه فى التدخل فى الشئون الداخلية للدول ذات السيادة". ثم يمضى كوپلاند ليصف بصراحة كيفية التدخل بأسلوب يمكن إنكاره والتنصل منه.

بدأ العميل السرى السياسى الجديد بأن طلب من سائقه سرقة دليل تليفونات وزارة الدفاع ثم، وغالبا بمساعدة يوسف، أقنع أكبر مُرابٍ فى المدينة أن يحدد المسئولين العاجزين عن تسديد ديونهم. تَمت مفاتحة مرشحيْن مُعْوزين، ووافقا كلاهما على سرقة الوثائق مقابل الأموال، رغم أنه ظهر أن أحدهما كان يقوم بنفس الخدمة لأحد عملاء الكيه چى بى (المخابرات السوفييتية). فى تلك الأثناء، حصل كوپلاند على موافقة واشنطون لنقل ستيفن ميد الملحق العسكرى المحنك ببيروت إلى دمشق. عقد ميد المليء بالحيوية، وحلو الحديث، صداقة مع الكولونيل حسنى الزعيم، رئيس أركان الجيش، ووعده، أو أنه أوحى إليه، بأنه لو تخير الاستيلاء على السلطة، فستعترف الولايات المتحدة بنظامه على الفور.

أيًّا كانت التطمينات التى من المحتمل لميد أن يكون قدمها، كان الكولونيل يفهم بوضوح أن ثمة أربعة موضوعات كانت موضع اهتمام واشنطون: التاپلاين، تركيا، إسرائيل والشيوعية. فى عام ١٩٤٧، كانت شركة خطوط الأنابيب العابرة لبلاد العرب (التاپلاين) قد بدأت فى مد خط أنابيب يصل حقول نفط أرامكو فى السعودية بميناء صيدا بلبنان. لكن المصادقة على عبور الخط قد توقفت من خلال السياسيين فى سوريا ولبنان الذين شجبوا الخطة على أنها استسلام للكونيالية. وبالمثل، وصلت المحادثات حول وضع ميناء الإسكندرونة المهم إلى طريق مسدود، وكانت كل من تركيا وسوريا تزعم ملكيته. كما أن دمشق رفضت أن تكون طرفا فى اتفاقية وقف إطلاق النار مع إسرائيل بعد هزيمة جيوشها المهينة فى حرب عام ١٩٤٨ وبدا أيضا أن حكام سوريا المتصلبين إما أنهم كانوا سذّجا أغبياء أو متواطئين راغبين. كما تبدى ذلك فى تساهلهم مع الحزب الشيوعى السورى الذى كان آخذا فى التوسع.

حدث الانقلاب فى ٣٠ مارس عام ١٩٤٩. وكذريعة مزعومة وضرورية فى آن، واجه الكولونيل حسنى الزعيم رؤساءه المدنيين بمطالب من غير الممكن إنجازها،

وكان رفضهم لها سببا فى إذاعته بيانا، صاغه أحد المتواطئين مع كوپلاند بوزارة الدفاع. جاء بالبيان: "أيها الجنود والوطنيون: ها نحن نعيش لحظة عظيمة فى تاريخ أمتنا الشامخة! لقد بدأ عهد جديد! انتهى الفساد. سقط عملاء الإمبريالية والشيوعية. ولأول مرة منذ قرون غدا السوريون شعبا حرا" (فى سرد كوپلاند للأحداث أضيفت الإشارة للشيوعية نزولا على رغبة ستيفن ميد). وفيما كان البيان يُعلَن، ألقت القوات المتمردة القبض على رئيس جمهورية سوريا ، ورئيس الوزراء، ورئيس الشرطة المحلية، وكبار الوزراء والنواب. أُرسلت تقارير بتلك الأحداث، فصلا فصلا بإسهاب إلى المعنيين بواشنطون الذين افترضوا بداهة أن كوپلاند وميد قد هندسا الأمر برمته "وكان هذا انطباعا لم يكن لدينا أى سبب لتصويبه. بما أنه أدخل السرور على معجبينا بالوطن، وبما أنه لم يكن لدى أى منا مانع فى كسب نقاط تقدير تضاف إلى سجلينا".

تم الانقلاب دونما إراقة دماء تقريبا. زعم كوپلاند، وهو يكتب بعد ذلك بأربعين عاما أن الإسهام الوحيد المهم الذى قدمه هو وميد كان الوعد باعتراف أمريكا بمجرد تولى الزعيم السلطة. لكنه يضيف "جلس ستيف فى المقعد الخلفى من ليموزين حسنى الزعيم الذى طاف بأنحاء المدينة حيث مضى يؤشر له إلى الأهداف التى لابد من الاستيلاء عليها (محطة الإذاعة، مولد الكهرباء الرئيسى، المكتب الرئيسى لشركة الهاتف، وجميع السياسيين الذين قد يكون بوسعهم حشد مقاومة): وتظاهر حسنى بتهذيب، بأنه لم يكن قد فكر فى ذلك. أيضا أعطيته قائمة بما عليه أن يفعله وألا يفعله من حيث إجراءات الأمن، وبفضل العميل A فى وزارة الدفاع، تمكنتُ من إعطائه معلومات معينة ذات صلة بالخطط التى لا يستطيع حسنى الحصول عليها من الوزارة دون إثارة الشكوك".

كان وصف كوپلاند المبدئى للتمرد أكثر إسهابا. قبل اعتراف الولايات المتحدة بالأمر الواقع، هكذا يكتب فى "لعبة الأمم" (١٩٦٩) كان ميد يلازم الرئيس الزعيم

بأسلوب دائم "يبلّغ الديكتاتور الجديد من يجب تعيينه سفيرا ببريطانيا، وأى المسئولين يجب ترقيتهم إلى مناصب دبلوماسية، وأى غداء يُقدّم للرئيس المخلوع". لكن بمجرد ما أعلنت واشنطون اعترافها غدا الرئيس حسنى الزعيم رجلا جديدا. أبلغ مرشديه الأمريكيين أن عليهم مخاطبته باستخدام "حضرتك vous" لا "أنت tu" (كانت لغتهم المشتركة هى الفرنسية). والأفضل، أضاف الزعيم، هو أن يقول "فخامتك".

اتخذ "فخامته" لدى توليه منصبه الخطوات التى كانت واشنطون قد سعت إليها منذ زمن طويل. فى المسألة الإسرائيلية الخلافية، انضمت سوريا، أخيراً، إلى محادثات الهدنة التى كانت جارية آنذاك مع الدول العربية، فى مكان خفى على الحدود السورية. كما اتخذت إجراءات صارمة ضد الشيوعيين السوريين. صادقت إدارة الزعيم على مرور خط التاپلاين خلال سوريا، وتمت تحلية ذلك الاتفاق بتقديم مجموعة شركات التاپلاين إلى سوريا قروضا بلغت مجموعها ٤٠ مليون دولار. تحسنت العلاقات مع تركيا حول مشكلة الإسكندرونة حينما أعلن الزعيم استعداده للانضمام إلى كتلة موالية للغرب نظير تلقى مساعدات عسكرية. علاوة على ذلك، مَنح الزعيم، الذى كان من أصول كردية، النساء حق الاقتراع، وأعلن استنكاره لغطاء الرأس العربى التقليدى، وألغى الألقاب الإقطاعية مثل "البيه" و"الباشا". لكن پاتريك سيل، أهم مؤرخ بريطانى لسوريا، يرى أن الزعيم كان أقل نجاحا كسياسى، و"بما أنه، ومنذ البداية، كان قلقا حول عدم شرعية نظامه، كانت رغبته هى أن يصبح رئيسا للجمهورية ويتخذ وضع الند إلى جوار الملوك ورؤساء الدول الذين غدا عليه التعامل معهم.. وتدريجيا، انتقل إلى العلو الشاهق للسلطة الشخصية وتخاصم مع حفنة من الضباط النشطاء الذين كان قد خطط للانقلاب معهم".

أيد هذا الحكم أنطونى ناتينج، وكان وزيرا بريطانيا شابا استقال احتجاجا على سوء تقدير حكومته الفظ أثناء أزمة السويس عام ١٩٥٦، "كاد يكون من المستحيل على السى آى إيه أن تختار شخصا ليس لديه فرص للنجاح أسوأ من

ذلك الضابط القصير المتين متورد الوجه العربيد المختال. وبمجرد أن تولى السلطة، مضى يتزيا بأزياء عسكرية متألقة، وعصا مارشال ثمنها يزيد على ألف جنيه استرلينى، وأخذ يستغرق فى أفكار خيالية مثل قدرته على تحويل هزيمة العرب عام ١٩٤٨ إلى انتصار من خلال مفاوضاته الشخصية مع (رئيس الوزراء الإسرائيلى دايڤيد) بن جوريون.. وحينما تسببت التواءات مناوراته وانعطافاتها فى اغتراب من كانوا قد تمنوا له النجاح، أطِيح به من خلال انقلاب آخر بقيادة كولونيل آخر". هكذا كتب ناتينج عام ١٩٧٢ .

يبدو من الإنصاف القول إن المزايا قصيرة المدى التى اكتسبتها واشنطون من ذلك الانقلاب الأول الذى دعمته السى آى إيه محتها التكلفات طويلة المدى والتى تمثلت فى إطلاق متتالية من الانقلابات التى مكنت القوات المسلحة فى دول الشرق الأوسط الرئيسية من التحكم فى الشئون السياسية. أما الأثر المدمر غير الملموس، فهو أن التمرد السورى عمل على نشر ثقافة من البارانويا. نُسبت إلى وكالات الاستخبارات الأمريكية قوة كلية مبالغا فيها، وأصبح يُعتقد بعامة أن عملاءها مرتبطون بأسلوب كلى بالموساد. على أية حال، كانت سوريا مسرحا مشكوكا فيه لتجربة "عملية سياسية" - التعبير المجازى الذى تستخدمه السى آى إيه للتدخل سرا - فى ضوء تاريخها الفريد والأليم.

كانت فرنسا قد وُعِدت بسوريا ولبنان عام ١٩١٦ بمقتضى اتفاقية تم التوصل إليها سرا مع بريطانيا حول اقتسام الغنائم المحتملة للإمبراطورية العثمانية بعد هزيمتها. لكن الحدود لم تكن قد عُيّنت بأسلوب محدد مضبوط. فى عملية تبادل المناطق التى أعقبت الحرب العالمية الأولى، أقنع البريطانيون فرنسا بفصل فلسطين وإقليم الموصل الغنى بالنفط عن سوريا، مع ضم الأخير إلى العراق وتقسيم فلسطين إلى دولتى فلسطين وشرق الأردن ووضعهما تحت الانتداب. ثم تبع ذلك عملية طرح

أخرى حينما انتحلت فرنسا، بزعم حقوق لها منذ الحروب الصليبية، حقوقا أخرى لها فى سوريا ولبنان بصفتها بلدا منتصرا. عبّر عن هذا المزاج الانتصارى الجنرال هنرى جورود، الذى أصبح فيما بعد المندوب السامى بالشام، لدى دخوله دمشق فى يوليو ١٩٢٠ . توقف الجنرال لدى قبر صلاح الدين بالجامع الكبير، ثم رفسه بقدمه، وصاح لتسمعه العصور (كما اعتقد) "انهض يا صلاح الدين! لقد عدنا! إن وجودى هنا يُكرّس انتصار الصليب على الهلال"(١). ثم قام الفرنسيون بتقطيع أوصَال الشام أكثر. توسع الكيان العثمانى المدمج الذى كان يعرف باسم "لبنان الكبير" والذى ظل منذ زمن طويل معقل الموارنة، توسع على حساب سوريا وكلف ما أسمى "لبنان الأكبر" زيادة فى أعداد السكان غير المسيحيين. وفى قضمة أخيرة منح الحلفاء المنطقة الساحلية شمال حلب التى تضم موقع أنطاكية القديم لتركيا. وحينما انسحبت فرنسا رسميا من سوريا عام ١٩٤٦، كانت الدولة المستقلة الجديدة تتكون من حوالى ١١٥٠٠٠ ميل مربع، مقارنة بمساحتها الأصلية التى كانت حوالى ١٨٦٠٠٠ ميل مربع فى العصر العثمانى. وإلى يومنا هذا تُعيّن الخرائط السياحية السورية الأراضى المفقودة بأنها تقع داخل "حدود مؤقتة".

بيد أنه – وفى غِشْيةٍ من خداع الذات، اعتقد الفرنسيون فى نجاح عملية احتلالهم للشام، قياسا على شبكات السكك الحديدية المحسنة، والموانئ المحدّثة، والمدارس والمصانع الجديدة، وغيرها من المؤشرات على التقدم المفترض. من ثم كانت صدمتهم عام ١٩٢٥ لدى اندلاع ثورة فى أنحاء سوريا ولبنان، وأسرع الفرنسيون بقصف دمشق (التى تفخر ومعها حلب بأنهما أقدم مدينتين فى العالم ظلتا باستمرار آهلتين بالسكان). فى تحليلها التفصيلى، تكتب چورس لاڤرتى ميلر، المؤرخة بجامعة هارڤارد: "حينما انقشع الدخان، كان جزء كبير من دمشق قد أصبح أنقاضا؛ روعت التقارير عن عدد الموتى وفقدان الحرية الرأى العام العالمى وأشعلت المعارضة العربية. انطلق وابل من النقد العاطفى العنيف، حتى أنه تم

(١) يُروى ان صاحب تلك المقولة الأصلى هو اللنبي، وربما كان جورود يرددها، (الترجمة)

التلميح فى بعض الجهات إلى أن عصبة الأمم ستلغى انتدابها للفرنسيين على سوريا ولبنان. وبدلا من ذلك، تلاشى التمرد الذى كان يعوزه التنظيم فى غضون أشهر، وتحول اهتمام العالم إلى أمور أخرى".

ترى ميلر أن جذور الثورة كانت تكمن فى عملية فرض دولة قومية اصطناعية على مجموعات سوريا الفرعية الكثيرة التى كان لأفرادها فى ظل الحكم العثمانى إرث طويل من الحكم الذاتى فى شئونهم المحلية. تقول "كان الإداريون الفرنسيون الأوائل بسوريا، فى محاولاتهم لتطوير الأمة السورية وتحديثها، كانوا بالضرورة يثيرون غضب تلك المجموعات التى كانت دائما لا تثق فى بعضها وهى تعيش داخل حدود الإمبراطورية العثمانية: وكانت تتعايش فقط لأن "الأمة" أو الإمبراطورية كانت ضعيفة. بإيجاز، لم تكن ثورة عام ١٩٢٥ ثورة قومية لشعب موحد ضد القامعين الفرنسيين، لكنها كانت صراعا على القوة بين مجموعات انقسامية وداخلها، والتى لم تكن لتتوافق سوى على أمر واحد هو أن على الفرنسيين أن يرحلوا"(١). من الأمور الكاشفة أن الثورة بدأت فى إقليم إدارى يسكنه خمسون ألفا من الدروز، وكان الإداريون الفرنسيون قد أثاروا حنق قادتهم بمحاولاتهم إدخال نعم الحداثة بما فى ذلك متحف كان يعرض تماثيل كلاسيكية وثنية (وعارية).

بلا ريب أنه ثمة تغيرات كثيرة فى سوريا كانت قد حدثت منذ عشرينات القرن العشرين، لكن ما يعجب له المرء هو الثقة بالنفس الفاضحة التى تميز بها الغربيون، وقتئذ والآن، والذين يسلمون بداهة أنهم يعلمون الأصلح لأناس لا يستطيعون التحدث بلغتهم ولا يستوعبون شيئا عن أعرافهم وعاداتهم. من حيث العقيدة والأعراف، نجد أن السوريين هم سنة، وشيعة، وعلويون ودروز، وأكراد، وتركمانيون، وإسماعيليون (أتباع فرقة الحشاشين التى ازدهرت إبان الحملات الصليبية). السوريون أيضا مسيحيون من أتباع الكنيستين اليونانية والأرمينية،

(١) هذا تحليل مؤرخة امريكية للثورة. اين تحليل المؤرخين العرب؟ (الترجمة)

وكاثوليك رومان وموارنة، بالإضافة إلى أتباع دستة من الطوائف البروتستانتية - هناك أيضا طائفة تتحدث الآرامية تسكن مدينة معلولة الواقعة أعلى تل بالقرب من دمشق والتي يتلو رهبانها صلواتهم باللغة التي يقال إن المسيح كان يتحدث بها. أيضا لا يجوز أن نُغفِل الزيديين، تلك الطائفة الكردية التي يعتقد أتباعها أن الله قد غفر للشيطان وأعاد إليه مكانته.

لابد وأن هذا التجمع غير المندمج كان واضحا أمام مايلز كوبلاند الذي يبدو وأنه لم يستوعب تضميناته. مثلا، نراه يذكر أسماء القادة الذين مكن دعمهم حدوث انقلاب عام ١٩٤٩ . يكتب في مذكراته قائلاً: "أعتقد، أنه من المفيد للمؤرخين في المستقبل، أن أسجل أن القادة الأربعة كانوا هم أديب الشيشكلي (الشركسي)، محمد ناصر (العلوي)، بهيج كلاّس (المسيحي أشقر الشعر وأزرق العينين) وشوكت شقير (الدرزي اللبناني)". (ثم يضيف بتلذذ المُطلع على بواطن الأمور أن شوكت شقير كان ابن عم من الدرجة الثانية لسلوى روزفلت، زوجة رجل السي أي إيه أرشيبالد روزفلت، وكانت بصفتها الشخصية مراسلة مرموقة للواشنطون ستار القديمة، وأصبحت فيما بعد رئيسة البروتوكول للرئيس ريجان). لكن كوبلاند يغفل عن ملاحظة أنه لم يكن ثمة فرد واحد في تلك العصبة السرية التآمرية ينتمي إلى الطائفة السنية العربية التي تشكل غالبية السوريين. أي أنه واقعيا، فقد توقع داعمو الانقلاب الأمريكيون، أو أنهم أملوا، أن بإمكان الكولونيل البدين الكردي، ذي الطموحات الفخيمة والقدرات المحدودة فرض سياسة ذات نكهة أمريكية مع احترام صوري لرأي المحكومين. كانت النتيجة حدوث دستة أخرى من الانقلابات والانقلابات المضادة بلغت ذروتها في الديكتاتورية البعثية الراهنة.

لم يستمر حكم الرئيس الزعيم سوى خمسة أشهر حيث أطيح به في أغسطس ١٩٤٩ بانقلاب مضاد مدعوم من البريطانيين دبره الكولونيل الشيشكلي لحساب

قائد كتيبة أخرى، أى الكولونيل سامى الحناوى. ألقى الجنود المتمردون القبض على الزعيم ونفذوا فيه حكم الإعدام ثم دفنوه فى مقبرة فرنسية. أبلغ الشيشكلى كوبلاند معزّيا "لقد جاملناكم بمعاملته كعميل فرنسي"، ثم مضى الشيشكلى ليطيح بالحناوى فى ثالث انقلاب فى غضون العام نفسه، وكان هذه المرة لحسابه وبدعم من السى آى إيه. ظل الرئيس الشيشكلى، وكان الأكثر قدرة من بين أفراد تلك العصبة، فى منصبه حتى فبراير عام ١٩٥٤ ثم أطِيح به. وقتئذ، كان الجيش السورى وقوات الأمن المتحالفة معه قد تغلغلوا فى الأوساط السياسية بدرجة أنهم أمدوا جنرالا من القوات الجوية يدعى حافظ الأسد بالمخالب القمعية، حيث أسس عام ١٩٧٠ ما يبدو وأنه دولته البوليسية الوراثية الحصينة(١).

كان حافظ الأسد حفيد رجل مصارع فى إحدى القرى اكتسب صيتا محليا، وابن أحد الوجهاء العثمانيين من المرتبة الأدنى، والذى قام فى عام ١٩٢٧ بتغيير اسم أسرته من "الوحش" إلى "الأسد". تنتمى عائلة الأسد إلى الطائفة العلوية التى ظهرت إلى الوجود منذ ألف عام، ومعها الطوائف الشيعية والإسماعيلية، والدرزية، فى أعقاب وفاة ثالث الخلفاء المسلمين. وكما يدل اسمهم اعتقد العلويون أن عليًّا حُرِم من حقه فى الخلافة. انقسم العلويون إلى أربع قبائل استقرت فى مرتفعات سوريا الساحلية، أى المنطقة التى تعرف الآن باللاذقية، ويشكلون حوالى ١٢٪ من سكان سوريا البالغ عددهم ١٨ مليون نسمة.

وعلى الرغم من أن أهل السنة التقليديين يعتبرون العلويين منشقين ويتجنبونهم، إلا أن الأسد حوّل وضع الطائفة كأقلية إلى ميزة بأن فرض تسامحا على سوريا مبنيا على أساس "عِشْ ودعه يعيش". كانت أداته السياسية لتنفيذ هذا هو حزب البعث الذى أنشأه ميشيل عفلق المسيحى خريج السوربون (كان أيضا يرتدى الطربوش). خلق البعثيون فى ظل الأسد، والذين كانوا علمانيين، يزعمون الاشتراكية، ويدّعون إيمانهم بالوحدة العربية خلقوا وهماً بالقبول الشعبى وبأملهم

(١) يبدو هذا السرد اختزالا مُخلا للأحداث لا يتبنى سوى منظور واحد. (الترجمة)

فى وحدة على نطاق أوسع حينما أصبحت العراق جمهورية بعثية فى ظل صدام حسين. كان الحزبان يتبنيان سياستين مشتركتين: العداء لإسرائيل، وعدم الثقة فى الحكام المصريين المتتاليين من ناصر إلى مبارك، أى نظرائهم السلطويين العسكريين. إذا مزجنا صفقات الأسلحة الانتهازية مع الكتلة السوفييتية، والغزل مع واشنطون حول الشئون ذات الاهتمام المشترك (النفط وإيرن)، يصبح لدينا العناصر الأساسية لمعظم ديبلوماسية الشرق الأوسط أثناء الحرب الباردة(١).

ومثل صدام، كان حافظ الأسد يفضل الخوف على الحب. تأكد هذا فى الدماء التى أريقت فى مدينة حماة الواقعة على شاطئ النهر والتى تشتهر لدى الرحالة بسواقيها (نواعيرها) الضخمة المهيبة. كان الصحفى البريطانى روبرت فيسك حاضرا عام ١٩٨٢ حينما أخمدت القوات الخاصة السورية بقيادة رفعت الأسد تمرد الإخوان المسلمين الأصوليين. كتب يقول "وقفُت على شاطئ نهر العاصى فيما قصفت الدبابات السورية المقاتلة المدينة القديمة؛ رأيت الجرحى والدماء تغطيهم يرقدون إلى جانب مركباتهم المدرعة، والمدنيين الجائعين يفتشون القمامة بحثا عن الخبز. قيل إن حوالى ٢٠٠٠٠ شخص ماتوا فى الأنفاق تحت الأرضية والمبانى المقصوفة. ربما كان الرقم الحقيقى أقرب إلى ١٠٠٠٠، لكن تم تدمير معظم المدينة".

رسخّت المذبحة ما أصبح يعرف بـ "قاعدة حماة". لم تحدث انتفاضات أخرى طوال حكم الأسد الذى دام ثلاثين عاما، والذى انتهى بموته ميتة طبيعية عام ٢٠٠٠ (تولى بعده ابنه الأصغر بشار، بعد أن كان ابنه الأكبر باسل قد توفى فى حادث سيارة مسرعة عام ١٩٩٤ . ترك بشار، الذى تعلم بالغرب، مهنته كطبيب بلندن، ليلتحق بالأكاديمية العسكرية السورية، وتخرج فيها فى زمن قياسى، وبأعلى الدرجات الممكنة، وبرتبة عقيد. تم تعديل الدستور خصيصا وعلى وجه السرعة للسماح له بتولى الرئاسة وهو فى الرابعة والثلاثين).

---

(١) مرة اخرى اختزال مخل لا يخلو من التحيز على اقل تقدير (الترجمة)

كان كل ذلك مازال فى طى المستقبل حينما غادر كوپلاند سوريا إلى حياة جديدة فى القاهرة. فى عام ١٩٥٣، استقال رسمياً من السى آى إيه ليلتحق بمجموعة "بووز، ألان وهميلتون "التى كانت حسب تقديره" أرفع مؤسسات الاستشارات الإدارية مكانة فى العالم". أثناء غداء دام طويلا مع كبير تنفيذيى المجموعة، عُرِض عليه منصب براتب كبير بالقاهرة، وأيد هذا العرض بحماس فرانك ويزنر مشرف السى آى إيه على العمليات السرية. وقتئذ، كان الجميع بلانجلى (حيث يوجد مقر السى آى إيه) يعلمون أن الطريق السريع إلى الترقية كان يمر من خلال مكتب ويزنر الذى أُطلِق عليه اسما مُعقَّماً (لا يثير الريبة) وهو مكتب تنسيق السياسات، (OPC) الذيل الذى يحرك كلب السى آى إيه بأكمله" وفقا لتعبير كوپلاند. (بعد أن تخرج ويزنر من OSS، دعم انقلابات ناجحة فى إيران وجواتيمالا، وأثناء ذروة الحرب الباردة، ساعد مكتبه سرا على إنشاء كونجرس الحريات الثقافية ومجلة إنكوانتر ومقرها لندن. وعلى الرغم مما ناله من إعجاب لدهائه وحيويته، فقد كان ويزنر يعانى من هوس الاكتئاب الحاد، ثم قتل نفسه عام ١٩٥٦ ببندقية صيد ابنه).

بالقاهرة، ترأس كوپلاند فريقا من ثلاثين شخصا يقومون بدراسة إدارية لبنك مصر الآخذ فى التوسع. كان هذا تكملة لعمله السرى للسى آى إيه التى كانت آنذاك تبحث عن أصدقاء لها فى أوساط الضباط الأحرار الإصلاحيين الذين نفذوا بنجاح انقلابا ضد الملك فاروق البدين، المكروه، والذى لم يعد أحد يتذكره الآن. كان الضباط الأكثر راديكالية فى الحركة يرون إنشاء جمهورية علمانية واشتراكية، لكن كان الوجه العام للحركة قد تمثل فى الجنرال محمد نجيب سمح المُحيا، وكان معتدلا يميل إلى التسويات، وعينته الحركة رئيسا للوزراء ثم رئيساً للجمهورية. لكن ما لبثت القاهرة أن أدركت أن الشخصية المهيمنة فى مجلس قيادة الثورة كان هو جمال عبدالناصر، ابن موظف بالبريد، وكان آنذاك فى منتصف الثلاثينيات، طويلا، ذا لياقة جسمانية وعينين آسرتين ثاقبتين.

حينما طالب نجيب بإلحاح بإجراء انتخابات فورية بمشاركة كاملة من الشخصيات الوفدية القومية المتعفنة والإخوان المسلمين المتقلبين المتفجرين، خالفه ناصر الرأى الذى كان تجنب المؤدلجين الماركسيين وكذلك الوفديين الفاشلين الفاسدين؛ وألح على حظر نشاطهم جميعا. كانت له رؤية لمصر وقد وُلدت من جديد بعزة وفخر، فى المركز النابض للدوائر الثلاث المتقاطعة - العالم العربى والإسلامى والإفريقى - وكانت تلك آراء كتَب تفاصيلها فى منيفستو "فلسفة الثورة". سعى إلى مصر قوية بما يكفى كى تثأر من مهانة ١٩٤٨ على يد إسرائيل، التى خبرها مباشرة هو وزملاؤه الضباط.

واجه ناصر منافسيه بجسارة وتوجه إلى النقابات العمالية، والطلبة والفلاحين والصحافة من أجل الدعم والتأييد. نجا بأعجوبة من محاولة اغتيال قام بها قناص من الإخوان المسلمين؛ التجأ إلى القمع والرقابة لخنق المعارضة؛ صعد سريعا: وزيرا للداخلية (١٩٥٣)، نائب رئيس الوزراء (١٩٥٣)؛ رئيساً للوزراء (١٩٥٤) ورئيساً للجمهورية (١٩٥٦). كان كل فريق السى آى إيه بالشرق الأوسط يتقصّى كل خطواته، بداية من أكتوبر عام ١٩٥٢ حينما فتح كرميت روزفلت قنوات خلفية للاتصال بناصر والضباط الأحرار الآخرين الذين يماثلونه فى التفكير، رغم أنه، ومن أجل الحفاظ على المظاهر، فقد كان چفرسون كافرى، السفير الأمريكى بالقاهرة، يجتمع رسميا مع اللواء نجيب. كان بين شخصيات السى آى إيه الرئيسية أثناء ورطة السويس عام ١٩٥٦، مايلز كوپلاند، الذى قال فيما بعد إنه "ربما يكون قد التقى ناصراً مرات أكثر من أى شخص غربى آخر"(١).

لابد وأن الوضع بدا محيرا لناصر وزملائه الضباط، الذين كان الكثيرون منهم قد ثقفوا أنفسهم بأنفسهم مثله، ولم يسافروا كثيرا، وكانوا مبتدئين فى ديبلوماسية القوى العظمى. من كان يتحدث بالفعل باسم لوردات واشنطون؟ أكان كافرى من

---

(١) انظر الهامش الذى أوردته الترجمة فى بدايات هذا الفصل ردا على هذه المزاعم.

الباب الأمامى، أم روزفلت من الباب الخلفى؟ ماذا يُفَهم من زيارات أعضاء الكونجرس البارزين (وزوجاتهم) الذين كانوا يجمعون بين التسوق والسياحة، إلى جانب زياراتهم الرسمية؟ كان الواضح على نطاق واسع هو التالى: كانت واشنطون تُجرى إعادة تقييم استراتيجى كانت حول الشرق الأوسط وجَيَشان المشاعر القومية وزواء سلطات بريطانيا العظمى.

كان أحد الآراء التى سادت بخاصة فى أوساط الديمقراطيين قد عبر عنها وزير الخارجية دين أتشسون عام ١٩٥٢ أثناء لقاء له دام ثلاثة أيام بواشنطون مع ونستون تشرشل والذى كان يقضى سنواته الأخيرة كرئيس لوزراء بريطانيا مع وزير خارجيته السير أنطونى إيدن الذى خلف تشرشل فيما بعد رئيسا للوزراء. بالنسبة لأتشسون كان الشرق الأوسط "يمثل صورة كتلك التى كان من المحتمل أن يكون كارل ماركس هو الذى رسمها" فى وجود طبقة العمال مدقعى الفقر، وغياب طبقة وسطى حقيقية، ونخبة حاكمة فاسدة تعمل لصالح الأجانب الذين كانوا يسعون لاستغلال موارده التى لا تقدر بثمن "سواء النفط أو قناة السويس". سأل "أكانت ثمة فرصة توفرت أبدا مثل هذه لاستثارة مشاعر الخوف المتأصل من الأجانب وكراهيتم من أجل تدميرهم وإحلال الحل الشيوعى؟ لم يكن للتضامن الأنجلو أمريكى الذى التزم سياسة عدم التحرك أن يقدم حلا، فإن ذلك يماثل زوجين يجلسان متشابكين فى عناق حار بقارب تجديف على وشك السقوط من أعلى شلالات نياجرا. لقد حان الوقت للفكاك من هذا العناق والإمساك بالمجدافين". استدعى هذا ضحكة خافتة من تشرشل الذى مضى يتمتم (كما روى أتشسون لاحقا) "يمسك بالمجدافين!!". كان إيدن أكثر تفاؤلا، لكن أتشسون أصر على رؤيته. يكتب فى مذكراته "ذهبتُ إلى أن سياسة الجلوس ثابتين فى حالة من التضامن لا تحمل أية وعود للمصالح البريطانية" وتمثل خطرا كبيرا على واشنطون. "مضيت أكرر تلك النقطة وأضغط على المستر إيدن بحدة ونفاد صبر مما استدعى اعتذارا لاحقا والذى قبله برحابة صدر".

كانت الحدة متبادلة. عبّر السير روچر ماكينز سفير إيدن بواشنطون عن مخاوف بريطانية مشتركة فى مذكرة أرسلها إليه. كتب ماكينز يقول إن "نفوذ الأمريكيين قد توسع بشكل كبير فى الشرق الأوسط منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، وقد ترسخت أقدامهم الآن بصفتهم النفوذ الأجنبى الأعظم فى تركيا والسعودية. وهم فى طريقهم إلى كسب سطوة مماثلة فى إيران، ويبدو الآن أنه يحتمل لباكستان. إلى حد، أن تُجذب إلى فلكهم". ثم ختم بسؤال بلاغى "هل يحاول الأمريكيون، واعين، أن يستبدلوا نفوذهم بنفوذهم فى الشرق الأوسط؟" ولم يترك سوى قليل من الشك حول إجابته.

كان ماكينز يكتب فى مطلع عام ١٩٥٤، تلك السنة الحاسمة، التى انتزع فيها رئيس الوزراء عبدالناصر، (بموافقة أمريكية؟). الجائزة التى عجز عن انتزاعها متتالية من الخديويين، والسلاطين والملوك (مضت ألقابهم تتغير رغم عدم تغير مكانتهم كتابعين أذلاء لبريطانيا). فى معاهدة تاريخية، ضمن ناصر انسحاب ٨٠ ألف جندى بريطانى على مراحل كانوا مازالوا معسكرين فى منطقة القناة وأنحاء أخرى من مصر وأنهى بذلك احتلالاً "مؤقتا" بدأ عام ١٨٨٢. وبمثابة إيماءه لحفظ ماء الوجه، وافق ناصر على بند "إعادة تنشيط" ينص على أنه فى حالة هجوم من الاتحاد السوڤييتى أو من "قوة خارجية" غير محددة، يصبح بإمكان بريطانيا ومصر تجديد تحالفهما العسكرى. كان الهجوم الذى تعرض له حتى هذا البند التجميلى من قبل المتطرفين المسلمين وأيضا اليسار الماركسى مقياسا للغضب العارم الذى ظل مكبوتا لوقت طويل. من جهته، تعرض إيدن للتحديات والمضايقات فى البرلمان من قبل "مجموعة السويس" المتحدثين باسم المعارضة من حزب المحافظين لتنازله لمصر عن أى شىء.

استحسن فريق السى آيه المعاهدة التى كانت مكمِّلة لمحاولاته العازمة على مغازلة ناصر، الذى كان يسعى بدوره إلى علاقات أمنية أكثر رسوخا مع الولايات

المتحدة. فى البداية اقترح صفقة أسلحة قيمتها ٤٠٠ مليون دولار، خُفِّضتَ فيما بعد إلى ٢٠٠ مليون دولار. وفى النهاية تقلصت الحزمة الفعلية إلى "مجرد ما قيمته ٣ ملايين دولار من أسلحة الاستعراضات" مثل الخوذات، و(جرابات) المسدسات و"تجهيزات لامعة براقة تُزيّن الاستعراضات" (حسب تعبير كوپلاند). كان عدم استعداد أمريكا لتزويد مصر بالطائرات والدبابات والأسلحة المتقدمة هو ما دفع ناصر للتوجه للسوفييت. تصلّب عدم الاستعداد ذاك فى أعقاب تولى چون فوستر دالاس منصب وزير الخارجية عام ١٩٥٣. أتى فوستر معه إلى منصبه الذى سعى إليه طويلا بتشامخ السادة الإقطاعيين. كان، وهو المحامى صعب المراس، طويل الفكين غائر الخدين، قد تفاوض على معاهدة السلام مع اليابان، وساعد فى كتابة برامج الحزب الجمهورى الانتخابية للسياسة الخارجية، وكان شريكا فى مؤسسة (سوليڤان كرومويل) القانونية البارزة بوول ستريت- هذا علاوة على أن شقيقه الأصغر آلان كان قد عُيِّن لتوه مديرا للمخابرات المركزية.

كان ينقص الوزير دالاس، رغم خبراته التى تحوز الإعجاب، أية معرفة بما يسميه الجميع العالم الثالث، أو أى اهتمام به، أو أى تعاطف معه. كانت بؤرة اهتمامه هى الحرب الباردة، ولم يكن يرى أى جدوى من الحياد الذى شجبه بفظاظة ووصفه بأنه لا أخلاقى. بحلول عام ١٩٥٥، تبلورت نظرتان متعارضتان تمثلتا فى حلف بغداد من ناحية، ومن ناحية أخرى فى اجتماع قادة العالم الثالث بباندونج. كان الهدف من حلف بغداد الذى سُمِّىَ رسميا معاهدة المنظمة المركزية (CENTO)، وكما تم التعبير عنه صراحة، هو الحيلولة دون انتهاك السوفييت للشرق الإسلامى الذى يهيمن عليه الغرب، وكان الموقعون عليه هم بريطانيا، تركيا، باكستان، إيران، والعراق (بقيادة رئيس وزرائه نورى السعيد الموالى لبريطانيا). زار كل من دالاس وإيدن القاهرة فى محاولة يائسة لضم مصر إلى التحالف الأمنى الإقليمى. وبنفس الجهد اليائس، حاول ناصر أن يوضح أنه يعتبر إسرائيل المعتدى

الأقوى احتمالا، لا الروس - وتساءل بالمناسبة عن الموعد الذى ستوافق فيه واشنطون على بيع الأسلحة الذى تأخر طويلا؟

فى عام ١٩٥٥، كانت إحباطات ناصر قد بلغت ذروتها. شعر بعميق المرارة والغضب من تعالى إيدن المتعجرف الذى عامل ناصر أثناء زيارته الوحيدة لمصر فى شهر فبراير من ذاك العام" وكأنه موظف صغير لا يمكن أن يُتوقع منه أن يفهم فى السياسة". فى أحد الأوقات خلال ذلك الشتاء كان ناصر يجلس على مائدة مع كوپلاند فى الشرفة(١) حينما أزّت الطائرات الحربية الإسرائيلية فوقهما دونما خشية من التصدى لها. قال ناصر لكوپلاند "علىّ الجلوس هنا وتحمّل هذا فيما ترفض حكومتك إعطائى سلاحا". وفى هذه الحالة النفسية ذهب ناصر فى أولى رحلاته الخارجية المهمة فى مارس ١٩٥٥ ليجتمع بقادة ثلاثين من الدول الآسيوية والإفريقية حديثة الاستقلال بإندونيسا. صادق قادة باندونج الثلاثة الكبار ونال إعجابهم: مضيفه الرئيس سوكارنو، نهرو رئيس وزراء الهند، وشو إين لاى وزير خارجية الصين. سأل ناصر شو عما إن كان من الممكن للصين أن تبيع لمصر الأسلحة الحديثة التى تحتاجها. أجاب شو بالنفى قائلاً إن الصين بحاجة إلى جميع الأسلحة التى تشتريها من روسيا، لكنه مستعد لأن يتوسط لدى السوفييت الذين يحتمل لهم تلبية طلب مصر. كانت ذلك هو الحديث الذى أدى، خطوة خطوة، وتراكميا، إلى أزمة السويس، أكبر محاولة عظمى مشهودة فى تلك الفترة لتغيير

(١) وفقا لأحاديث هيكل للجزيرة فإن كتابات كوپلاند فى هذا الصدد بها كمية كبيرة من الخيال لا يوضحه سوى مراسلات هذا الرجل والتى وثقها هيكل فى نهاية كتابه. كما ان هيكل اورد تفاصيل كثيرة تبين ان كوپلاند بعد الاستغناء عن خدماته فى السى آى إيه مارس عمل المرتزقة وحاول ابتزاز النقود من المسئولين المصريين وبعض الأمراء العرب بعرضه إقامة مشاريع علاقات عامة واستخباراتية وتجارية. انظر موقع الجزيرة الإلكترونى. (الترجمة)

النظام، والتى دفعت نتائجها كوپلاند لتحذير واشنطون (دونما جدوى) من حدود العمليات السرية.

حدثت أول خطوة مصيرية بعد مؤتمر باندونج مباشرة. فى إبرايل ١٩٥٥، شعر حزب المحافظين بعظيم الارتياح، حينما تخلى ونستون تشرشل المنهك عن موقعه بداوننج ستريت ليحتله وريثه المختار أنطونى إيدن. كان إيدن، وهو الأكثر أناقة ووسامة بين رؤساء الوزراء البريطانيين، بطلا تقلد أوسمة فى الحرب العالمية الأولى، وغدا فى سن العشرين أصغر ماچور فى الجيش البريطانى. بعد الحرب، حصل على درجته الجامعية بامتياز فى اللغات الشرقية من كلية كرايست تشيرش بجامعة إكسفورد، وكان معتادا بين أونة وأخرى تجميل خطاباته بالبرلمان بترجمات له من الشعر الفارسى. استقال عام ١٩٣٨ من منصبه كوزير للخارجية احتجاجا على ما رآه أنه إذعان بريطانى للحكام المستبدين.

أما بالنسبة للشرق الأوسط، فقد كان إيدن هو من أنجب بكل فخر واعتزاز حلف بغداد، كما أنه استبعد "خطة ألفا" السرية للغاية التى كانت وزارة الخارجية قد وضعتها وكانت تدعو إلى تسوية شاملة للنزاع العربى الإسرائيلى على أساس تنازلات متبادلة (من المثير للاهتمام أن أيزنهاور ودلاس كانوا أقل استعدادا لها). بدلا من ذلك فإنه سرعان ما ألقى بمسئولية جميع انتكاسات بريطانيا فى الشرق الأوسط على ناصر، وزاد من زخم عنف نقده اعتماده على الدريناميل وهو مخدر يؤثر فى الحالة العقلية، يتكون من مزيج من الأمفيتامينات والبربيتورات المنومة. كان هذا فى أعقاب خضوعه لعملية مرارة غير متقنة، كما أكد صحة ذلك بعد عقود دايڤيد أوين، الطبيب الذى كان قد عمل أيضا وزيرا للخارجية. لم يعرف الجمهور أو البرلمان أن إيدن كان على شفا الانهيار العصبى فى الشهور المؤدية لأزمة السويس.

وكانت تلك الأزمة هى التى أطاحت بإيدن، وجعلت من ناصر شبه إله فى العالم

العربي، وكانت علامة انتهاء سطوة بريطانيا في الشرق الأوسط. عبر چيمس موريس، الذي كان قد عمل مراسلا للتايمز بالقاهرة، في كتابه "وداعا لأبواق الحرب: تراجع إمبريالي" (١٩٧٩) عن رأيٍ في تلك الحرب شاع على نطاق واسع "كانت عملية مغلّفة بالسرية والنفاق واللاعقلانية. كادت تكون محاكاة ساخرة قاسية للأسلوب البريطاني الإمبريالي. تقمص إيدن دور تشرشلٍ أنيق أصغر سنا، ينقذ العالم بمجهوداته. صور ناصر بأنه هتلر مسلم- "أريد تدميره" هكذا صاح رئيس الوزراء في وجه أحد وزرائه.. كان الأمر برمته مخزيا، ماكرا مخادعا". لكن ما لا يمكن غفرانه، هو أنه فشل.

بعد عودته من باندونج بفترة قصيرة، اتصل دانييل سولود ، المبعوث السوڤييتي بالقاهرة بناصر. أكد له أن الصينيين قد نقلوا إليهم طلب ناصر وأن موسكو يسرها تزويد مصر بالدبابات والطائرات الحربية نظير دفعٍ مؤجل على شكل قطن وأرز. أضاف وبأسلوب غير متوقع، أن بلاده على استعداد لتمويل المشروعات الكبرى مثل السد العالي، الذي كان يمثل مشروع ناصر المركزي الطموح لتوليد الكهرباء وري وادي النيل. يعلق أنطوني ناتينج، الذي كان بحكم موقعه كوزير قد شارك في الأحداث التي يصفها: "كان عرضا لافتا بجميع المقاييس. أثناء عصر فاروق، كانت موسكو قد عارضت مصر والعرب بإصرار واستمرار حول المسألة الفلسطينية وصوتت مع أمريكا لصالح خطة الأمم المتحدة لتقسيم فلسطين وإقامة دولة يهودية". ما يبدو وأنه قد غير تلك السياسة تماما كان هو سقوط فاروق وصعود الضباط الأحرار، الذين لم تكن توجهاتهم قد عُرفت بعد على نحو محدد، لكنهم كانوا معادين للإمبريالية. وفي وجود عرض روسيا حاضرا، توجه ناصر إلى لندن وواشنطون، بتلذذ لم ينجح في إخفائه، وكرر طلبه الملحّ للحصول على أسلحة. تجاهله دلاس. وحذر إيدن من أنه في حالة حصول مصر على أسلحة من روسيا فعليها ألا تتوقع مساعدة أخرى من بريطانيا.

فى يوليو من ذاك العام، وصل زائر سوفييتى وقد سال عرقه إلى القاهرة. كان هو دميترى شبيلوف، الذى كان وقتئذ محرر صحيفة برافدا ثم أصبح بعيد ذلك خليفة فياتشسلاف مولوتوف لمنصب وزير الخارجية، بحجة حضور الاحتفالات بالذكرى الثالثة لقيام الثورة المصرية. وفى غضون أيام، صاغ شبيلوف اتفاقية تزوِّد مصر بمقتضاها بطائرات ميج المقاتلة، ودبابات ستالين، وقاصفات إليوشن بقيمة ٨٠ مليون دولار تدفع بشحنات من القطن المصرى بدلا من النقد. كانت جميع الأسلحة صناعة سوفييتية لكن، ونظرا لإصرار ناصر، اتُفق على شحن الأسلحة عن طريق تشيكوسلوفاكيا للمحاولة من تقليل قدر الرابطة الروسية. لكن هذا لم يُجدِ. بعث دالاس على الفور بجورج آلان مساعد وزير الخارجية إلى القاهرة لتوبيخ ناصر فى زيارة قيل إنها روتينية.

والآن، اشتعل غضب دالاس وإيدن من ناصر. كانت واشنطون ولندن قد وافقتا من قبل على المساعدة فى تمويل السد العالى (كان ناصر قد وصفه لموريس مراسل التايمز قائلاً: إنه "هرمُنا الجديد") بمجرد أن يشهد البنك الدولى بجدواه المالية. وكما أسر إيدن إلى ناتينج فقد كان يهدف من هذا "إلى الإبقاء على الدب الروسى خارج وادى النيل". لكن واشنطون ولندن وضعتا شروطا جديدة بعد صفقة الأسلحة: من غير المسموح للدول الشيوعية الاشتراك فى التنافس على عقود الإنشاءات؛ لا يحق لمصر قبول أى قروض من أى بلد آخر دونما ترخيص من البنك الدولى، وعليها تخصيص ثلث ميزانية مصر للإنفاق على السد العالى. استلزم هذا قيام كِرميت روزفلت بمهمة خاصة أكد أثناءها لناصر أن تلك كانت مجرد أحكام عادية للبنك الدولى، ووافق ناصر على كُرهٍ منه. استمرت المفاوضات ببطء ممل، حتى ٢٦ مايو ١٩٥٦ حينما أعلن ناصر أن مصر ستعترف بالصين الشيوعية التى كانت منبوذة آنذاك، وتقيم معها علاقات دبلوماسية كاملة. كيف يجرؤ؟ أبلغ دالاس المهتاج سفير مصر بواشنطون أن الموافقة على القرض معلقة بخيط. طار المبعوث

المصــرى المرتبك إلى القـاهرة، وبدا نـاصــر وأنه يكاد يكون غـيــر آبه قـائلا إن باستطاعة مصـر الحصـول على تمويل السد من خلال تأميم شركة قناة السويس وأنه، على أية حال، إذا سحب الغرب الدعم، فإن الروس سيتقدمون. لكن، ومرة أخرى، وتحت ضغط المناشدات الزخمة من جانب ديبلوماسييه، تساهل ناصر، ووافق على الشروط المتبقية، وبذلك وضع خصومه فى مأزق. فى ١٩ يوليو ١٩٥٦، أبلغ دالاس، ناصر أن الولايات المتحدة ستسحب دعمها للسد العالى بزعم أن الاقتصاد المصرى "أضعف" من أن يتحمل نفقات إنشاءات ضخمة. وبعد يومين تبعهم البريطانيون.

من المستغرب أن القلائل فى واشنطون أو لندن هم من تنبئوا بخطوة الرئيس عبدالناصر المضادة. بحاستها التنبئية المميزة، نشرت التايمز ماجازين كاريكاتيراً يصور دالاس، لاعب الشطرنج الحصيف، وهو يهزم ناصر الذى أصابته الدهشة. فى ١٩ يوليو[1]، ألقى ناصر السادر فى غيه بلوحة الشطرنج بقوة فى وجه خصومه فى خطاب استمر ساعة كاملة بالإسكندرية قوبل بهتافات مبتهجة انطلقت بها حناجر مائة ألف شخص. لِم لا تشترى مصر أسلحة من الشيوعيين؟ "فى مصر، تُصبح تلك الأسلحة مصرية". أدان الشروط الأنجلو أمريكية المُرهقة المتشددة لقرض البنك الدولى بصفتها إمبريالية بدون جنود. ذكّر المصريين أنه فى الأزمنة السالفة كان على المصريين أن يظلوا منتظرين بمكتب المندوب السامى البريطانى والسفير البريطانى، لكنهم الآن يعملون للمصريين حسابا.

ثم أعلن ناصر، وسط بهجة ودهشة سامعيه، قراره بتأميم قناة السويس. كانت القناة، منذ افتتاحها قد ظلت تُشغّلها شركة قناة السويس البحرية العالمية صاحبة الامتياز، حيث كانت بريطانيا تحمل ٤٥٪ من الأسهم. كان هذا يعنى أن ناصر قد

---

(١) التاريخ الصحيح هو ٢٦ يوليو (الترجمة)

ألغى الامتياز، وقال إنه سيتم دفع التعويضات، وإن عائدات رسوم المرور ستئول أخيرا لمصر: لن تعود الشركة دولة داخل دولة: "سنبنى السد العالى، وسنستعيد حقوقنا المغتصبة".

وبالمصادفة (أو ربما بدون مصادفة)، تزامن خطاب عبدالناصر مع حفل العشاء الذى أقامه السير أنطونى إيدن بدواننج ستريت على شرف الملك فيصل الثانى بريطانى الثقافة والهوى، ونورى السعيد، رئيس الوزراء العراقى المفضل لدى بريطانيا. نصحه نورى السعيد بعد أن قرأ إيدن المصدوم الأخبار الآتية من مصر، قائلا له "اضربه، اضربه بقوة، واضربه الآن". وفيما تفرق حفل العشاء الذى كان ضيوفه الذكور مازالوا يرتدون ملابسهم الرسمية، بدأت المشاورات على الفور مع جى موليه رئيس وزراء فرنسا الذى كانت حكومته التى يقودها الاشتراكيون مقتنعة أن ناصراً كان يدعم سراً انتفاضة قومية بالجزائر. وفى غضون ساعات، استدعى البريطانيون قوات الاحتياط، وجمدوا أرصدة مصر، وأمروا بسحب مرشدى القناة الأجانب (كانت تلك خطوة اتخذت نتيجة يقين إيدن بأنه ليس لدى المصريين المهارات اللازمة لإدارة ذلك الممر المائى). لكن حينما اتصل إيدن على نحو ملح بفوستر دالاس، شريكه فى التصلب، وجد أن الشريك غير نزّاع، بدرجه لافتة، إلى الحل العسكرى.

أثناء معظم فترة رئاسته، لم يصطدم دوايت أيزنهاور كثيرا بوزير خارجيته هذا على الرغم من الاختلاف الشديد فى توجهات الاثنين اللذين كانا ينتميان للحزب الجمهورى. كان أيزنهاور، وكجندى محترف، يتجنب استخدام القوة سوى كملجأ أخير. وإذا كانت الكلفة متواضعة والمخاطر محدودة، يمكن تبرير العمليات السرية كما حدث فى إيران وجواتيمالا، لكن الرئيس تجنب "مواقف الحافة" (ذلك التعبير الذى روجه دالاس) والتى قد تتصاعد إلى تصادم بين القوى العظمى. هذا علاوة على أن موعد انتخابات فترة الرئاسة الثانية كان يقترب، وكان هو مازال يتعافى

من مرض في القلب. أوضح أيزنهاور أنه يريد حلا سلميا لأزمة القناة، ولا شيء آخر. أما تصميم الجنرال فقد اتضح في دعوة دالاس لتشكيل جمعية لمستخدمي قناة السويس (SCUA) تتلقى عوائد المرور في انتظار حل للصراع عن طريق المفاوضات- وكان هذا توجهاً تبناه الجيران العرب والأمم المتحدة.

رأى أنطوني إيدن من جهته أن هذا كان تكرارا لأزمة ميونيخ واسترضاء الزعيم النازي مرة أخرى وأن SCUA كان حلا دونما أنياب ولا جدوى منه؛ وأن الإجراء العسكري ضرورة. وبدون استشارة مجلس وزرائه، قادته العسكريين، وزارة الخارجية أو سفرائه في القاهرة أو في الأمم المتحدة، أو البيت الأبيض، قام إيدن بجس نبض الفرنسيين حول تدخل عسكري للإطاحة بناصر. كيف كان لهذا أن يتم؟ تم تطوير حل بدا وأنه عبقري. لمِ لا يُشَجع الإسرائيليين سرًا على الهجوم على سيناء والتقدم باتجاه السويس، ثم تتدخل بريطانيا وفرنسا معا لحراسة الطريق المائي الدولي و"الفصل بين المتحاربين"، ثم يتم تخليص المنطقة أثناء تلك العملية من مثير الشغب المصري العنيد المتشامخ.

تم التوصل إلى "ذريعة إسرائيلية" في مؤتمر عُقِد على وجه السرعة في ٢٢ أكتوبر بڤيللا منعزلة في مدينة سڤر على مشارف باريس. تحدث سلوين لويد وزير الخارجية عن البريطانيين؛ كان بين الحضور رئيس وزراء فرنسا موليه، ووزير خارجيته كريستيان بينو، إضافة إلى وفد إسرائيلي رفيع المستوى ضم دايڤيد بن جوريون، موشيه ديان، وشيمون بيريز. كان للإسرائيليين أسبابهم في المشاركة. منذ أغسطس ١٩٥٥ كان عليهم مواجهة هجمات للفدائيين المدربين بمصر عبر الحدود، مع تغاضي القاهرة، ناهيك عن مساعدتهم. إضافة إلى ذلك، كانت شركة قناة السويس قد خضعت للضغوط المصرية وأغلقت الملاحة في وجه السفن الإسرائيلية.

وعلى الرغم من خلافات المتآمرين المريرة حول مسائل في الماضي والحاضر، إلا

أنهم صادقوا على خطة الجنرال ديان ببدء الهجوم على سيناء فى ٢٩ أكتوبر، قبل الانتخابات الأمريكية بثمانية أيام.

أثبتت العملية أنها ورطة شبه كاملة. فقط كان الإسرائيليون هم من أنجزوا هدفهم العسكرى. لم ينهر الجيش المصرى كما توقع إيدن بل إنه قاوم الغزو الأنجلو فرنسى المرتبك لفترة كانت كافية لتصويت الجمعية العامة للأمم المتحدة بغالبية ٦٥ مقابل ٥ على قرار يطلب الانسحاب الفورى للقوات الغازية (كانت أستراليا ونيوزيلاند هما فقط من عارضا القرار إضافة للشركاء الثلاثة). كانت غضب أيزنهاور يفوق غضب غالبية زعماء العالم حيث فاجأه الغزو عشية إعادة انتخابه. أيضا، فإن غزو السويس حوّل الانتباه عن قمع السوفييت المتزامن للانتفاضة المجرية، الذى اعتبره أيزنهاور أمرا لا يمكن غفرانه. كما أنه لم يكن قد تم استشارة أيزنهاور أو دالاس، أو تحذيرهما مقدما كما يجب بشأن المؤامرة التى كانت تفوح منها رائحة الإمبريالية التى كانت قد غدت خارج سياق التاريخ.

غدت القناة نفسها عديمة النفع حينما قصف المصريون سبع عشرة سفينة كانت قد حُبِست فى مياهها ثم أغرقوها مما تسبب فى انسداد "قصبة بريطانيا الهوائية". وبدلا من إضعاف ناصر وسلطته، فقد عملت أزمة السويس على مضاعفة مكانته أضعافاً مضاعفة فيما أدت الصدمات التى تلت الفشل فى إنجلترا إلى إسقاط إيدن. هبطت قيمة الإسترلينى هبوطا حادا. كانت ربع واردات إنجلترا وغالبية نفطها تمر من القناة. وحينما حذرت واشنطون من أنه إذا لم يتم الانسحاب الفورى فإنها لن تدعم الجنيه البريطانى الذى أُضعِف من خلال القروض الضرورية للتعويض عن أسعار النفط المتصاعدة، حينها انتهت اللعبة. ثم حدث، فى إضافة مُلْهمة، أن جمّع ثلاثة من ديبلوماسيى الأمم المتحدة من المرتبة الثانية – لستر بيرسون من كندا، رالف بانش من أمريكا، وبريان أوركهارت من بريطانيا– بين عشية وضحايا قوة حفظ السلام كانت الأولى من نوعها. أصر ناصر على أن قوة

الطوارئ التابعة للأمم المتحدة تلك (UNEF) لابد وأن ترتدى زيا مخالفا لزى الغزاة، أتى أوركهارت بحل مرتجل: كانت ثمة محال كثيرة فى أوربا تبيع بطائن خوذات الجنود الأمريكيين. تم تجميعها وصباغتها بلون الأمم المتحدة الأزرق. وهكذا أصبحت الخوذات الزرقاء التذكار الوحيد الباقى من أزمة السويس.

كان هذا هو السياق الذى حاول فيه كرميت روزفلت، مايلز كوبلاند وشركاؤهما من فريق السى آى إيه، دونما جدوى، تحويل توجه ما أصبح مسيرة نحو الحماقة. بالنسبة للأمريكيين، كانت تلك بيئة غريبة جديدة. كان عملاء الولايات المتحدة السريون، فى السنوات المبكرة، ينظرون إلى نظرائهم البريطانيين بما يماثل الرهبة، لكن الرهبة كانت قد أصبحت ازدراء وقت صفقة ناصر للأسلحة مع السوفييت عام ١٩٥٥ . فى تلك السنة، أُرسِل تشستر إل. كوبر، عميل السى آى إيه الشاب المتحمس، إلى لندن للتعاون فى مجال شئون الشرق الأوسط مع استخبارات الأركان البريطانية المشتركة. لأول وهلة عند لقائهم، بدا لكوبر أن طول القامة هو المؤهل الرئيسى لزملائه الجدد: "كنت أُمرَّر من زرافة إلى أخرى: "كوبر.. الصبى الجديد"، كان كل منهم ينحنى ليصافحنى بخفة ورشاقة. وجدت نفسى جالسا بين عملاقين يرتديان بذلتين سوداوين متطابقتين (ماركة ساڤيل رو) وكرافتتين زرقاوين مخططتين (إيتون) ونظارتين متطابقتين (التأمين الصحى)".

ساء كوبر ما اعتقد أنه تصرفات هواة طائشين، يتخللها ثرثرة حول مباريات الكريكت بدرجة شعر معها من الضرورى أن يذكر زملاءه أن صفقة الأسلحة الجديدة كانت فارقة إذ إنها كانت المرة الأولى التى يبيع فيها السوفييت أسلحة لنظام غير شيوعى. وكأمريكى، أدهشه بخاصة أسلوب التعالى وفتور الهمة الذى كان يسم محاولات البريطانيين لتجنيد مُوقِّعين على مشروع إيدن الأثير: حلف بغداد.

بيد أنه، وفى هذا التنافس الذى كان يجرى فى الكواليس، كان لدى الأمريكيين ميزة سببت استياء أولاد عمومتهم البريطانيين- النقود، مبالغ مهولة بكميات بدت لا متناهية. لكن السى آى إيه أساءت تقدير الجانب السلبى لهذه الميزة، بخاصة إذا استُخدمت بأسلوب فج، أثناء التفاوضات المتوقعة حول المساعدات العسكرية، أُبلغ كوپلاند فى عام ١٩٥٣ من خلال هنرى "هانك" بايرود، الذى أصبح سفيرا بمصر بعيد ذلك، أن ثمة ثلاثة ملايين دولار من ميزانية إنفاقات الرئيس متاحة لتقديمها لناصر "هدية شخصية". تم تجنيد كوپلاند، الذى كان يتظاهر بأنه مواطن عادى، بصفته أنسب مراسل لتسليم النقود إلى حسن التهامى مساعد ناصر الشخصى. وُضعت الدولارات فى حقيبتى ملابس رافقها كوپلاند من مبنى السفارة الأمريكية إلى منزل حسن التهامى. وقف الحراس المسلحون مشدوهين يراقبون حسن التهامى وهو يعد النقود ثم صمم على أن المبلغ هو ٢٩٩٩٩٩٠ دولار[١]. ثم قال "لن نختلف بشأن الدولارات العشرة الناقصة" قبل أن يحمل النقود إلى مسكن رئيسه. ثم فيما بعد أبلغ الأمريكيين أن ناصراً قبل "الهدية" بمزيج من الضيق والحس بالفكاهة، لكنه فى البداية أراد أن يعيد النقود مباشرة. ثم أومأ موافقا حينما اقترح أحد مساعديه إقامة تمثالين فى واجهة فندق الهيلتون المزمع بناؤه، أحدهما بشخص كبير الأنف (عبدالناصر؟) يشير إليه الآخر بأربع أصابع تمتد باتجاه السماء(!!).

يكتب كوپلاند فى "لعبة الأمم": "اعتقد ناصر أن الفكرة جيدة لكن تعوزها الحصافة. بدلا من ذلك، أمر بإقامة "شىء لا يتماهى مع أية شخصية لكنه كبير جدا، لافت جدا، وغالٍ جدا - يكلف مبلغاً يقارب الثلاثة مليون دولار. والنتيجة هى برج القاهرة، الذى يراه أصدقاء مصر الأمريكيون عبر النيل كل صباح ونحن

(١) للقارئ ان يعجب من تلك الرواية.. هل كان مثل هذا المبلغ يحوى دولارات "فكة"؟ (الترجمة)

نتناول إفطارنا فى شرفات النيل هيلتون". علم كِرميت روزفلت، الذى كان قد اقترح الهدية أولا، فى الوقت المناسب أن مساعدى ناصر يُسمّون البرج "روزفلت الواقف" وهو تعبير يمكن أن يترجم "انتصاب روزفلت".

وجد كوبلاند الواقعة خرقاء ومنافية للذوق، وانتقد أيضا أوجها أخرى من سياسات الولايات المتحدة بالشرق الأوسط. تعلّم مبكرا بالقاهرة أن أفضل معلومات استخبارية كانت عديمة الجدوى فى حال كان عقل مستهلكها النهائى "لا يمكن فتحه حتى بالعتلة" مثل عقل چون فوستر دالاس، وفقا لزعمه. رأى أن وزير الخارجية لا يستطيع استيعاب أنه من غير المجدى محاولة إجبار حكومة أخرى على تبنى سياسات من المحتمل لها أن تهدد وجود القائد، مثل الضغط على ناصر للانضمام إلى منظمة معادية للسوفييت(١). وبعد أن ساعد كوبلاند عبدالناصر على اكتساب السطوة، كانت أولويته الرئيسية هى إبقاؤه فى السلطة(٢): "لم يكن ذا نفع لنا وهو خارج السلطة، ولم يكن ثمة بديل منظور". كان كوبلاند يتشكك فى اعتقاد واشنطون السائد بأن الانتخابات الحرة هى الحل المفضل لمشاكل البلدان الأخرى: "فى غالبية الأحيان سيكسب الانتخابات فى البلدان التى تسمى "النامية" أحد النمطين: الأول، أحد السياسيين أو مجموعة سياسية أولى أولوياتها لدى الوصول إلى السلطة هو العمل على عدم إجراء انتخابات حرة مرة أخرى، أو الثانى، زعيم دهماوى يطلق وعودا لا يستطيع بحال الوفاء بها، ثم بعد الفوز، سيمضى يملى علينا متطلبات لا نستطيع بحال الوفاء بها، ثم يلقى بالمسئولية علينا لفشله".

---

(١) لم يتخذ عبدالناصر موقفا معاديا لحلف بغداد لأنه كان يهدد وجوده، بل لأنه كان، هو وغيره من قادة عدم الانحياز، معادين للأحلاف التى تربط بلادهم بعلاقة تبعية للقوى العظمى (الترجمة)

(٢) هذا نوع من الادعاء المنافى للعقل والواقع انظر الهوامش السابقة ذات العلاقة. (الترجمة)

يقدم كوپلاند،استنادا منه على خبرته الخاصة، حكمته التحذيرية بشأن إعادة صنع الأنظمة: "إذا كان لابد من تغيير طبيعة إحدى الحكومات أو مسلكها، عليك أن تفعل ذلك من خلال استخدام القوى الموجودة بالفعل داخل البلد. وإذا لم توجد مثل تلك القوة النشطة أو الهاجعة، عليك أن تحاول نهجاً آخر، أو أن تتوافق مع عالم معيب".

أعاد صياغة مبدأ قاله استراتيجى صينى منذ ثلاثة آلاف عام: "لا يجوز لك أبدا أن تدخل معتركا إلا إذا استطعت أن ترى فرصة مقبولة للنجاح فى النهاية. فى العمل السياسى، فإن كلفة الفشل فى حل المشكلة، دائما ما تكون أعظم كثيرا من تركها دونما حل؛ ومن المؤكد أن تكلفة الفشل الكبير فى حلها ستكون انتحارية".

وأخيرا، حذر من توقع الثناء، أو الشكر من المستفيدين من مساعدات الولايات المتحدة "علينا أن نعى أنه لابد أن تظل معظم أعظم جهودنا مع حكومة نريدها أن تبقى فى السلطة سرية، ليس لأننا بحاجة إلى السرية بل لأن عميلنا بحاجة لها. لا، ليست لنا شعبية فى غالبية أنحاء العالم؛ إن القادة فى البلدان التى تتلقى هباتنا السخية لا يزدادون قدرا فى أعين شعوبهم فى الإعلان عن صداقتهم معنا - رغم أن غالبيتهم يكسبون بعض النقاط، من آن لآخر، بالتباهى بكيفية خداعهم لنا. وباستثناء القلة، فإن القادة الإقليميين الذين عُرِف عنهم ولاؤهم لأمريكا، فقدوا مكانتهم أو حياتهم نتيجة لهذا".

لا تزال تلك الحِكَم صامدة فى ضوء إحباطات واشنطون الراهنة بالشرق الأوسط. لكن حياة مايلز كوپلاند نفسه وأعماله تنم أيضا عن النتائج النهائية المدمرة والأقل وضوحا للتدخل الذى كان هو رائداً له، سواء كان سريًّا أو علنياً.

بعد إتمام مهامه بالقاهرة، استقال كوپلاند من شركة "بووز، آلان وهميلتون"، ثم

انتقل إلى بيروت فى يوليو ١٩٥٧ ليبدأ مهام وظيفته الجديدة كاستشارى فى الإدارة بشراكة مع چيمس إكلبرجر زميله السابق فى السى آى إيه. كانت مكاتب تلك المؤسسة الفاخرة ذات موقع استراتيجى مجاور لجناح تشغله شركة التابلاين، وكان بين أوائل عملاء مؤسسة كوپلاند وإكلبرجر شركة جلف أويل (نفط الخليج) التى تبلغ أصولها ٣,٥ مليار دولار، والمالكة المحظوظة لنصف أسهم شركة نفط الكويت "الولاّدة". لكن، افتُرِض بوجه عام أن السى آى إيه، كانت هى العميل الآخر لمايلز كوپلاند، و لم تؤثر تلك الظنون سلبيا على مشروعات الشركة التجارية.

كانت تلك لحظة مثيرة للاهتمام فى لبنان. مع توالى صعود نجم ناصر، كانت واشنطون قلقة على بقاء الرئيس كميل شمعون، المسيحى المارونى الذى بلغت درجة ولائه للغرب أنه غامر وعارض ناصراً أثناء ورطة السويس. فى عام ١٩٥٧، رحب شمعون بمبدأ أيزنهاور وبعرضه للمساعدات الأمنية لأنظمة الشرق الأوسط المهددة من قبل ناصر أو السوڤييت. دعمت السى آى إيه بسخاء شمعون وحلفاءه الموالين للغرب سرا فى انتخابات العام ذاك. (يصر كوپلاند على أن المبالغ كانت متواضعة بمعنى أنها كانت تناظر تقريبا مجموع المبالغ التى فيه دفعتها السفارات البريطانية، الفرنسية، السوڤييتية والمصرية للمرشحين المؤيدين لهم). ثم حدث فى عام ١٩٥٨ الذى سادت فيه الفوضى، أن استولى ضباط شعبويون على السلطة فى بغداد، وقتل أتباعهم الأسرة المالكة، ونفذوا حكم الإعدام والسحل فى رئيس وزراء العراق الموالى للبريطانيين نورى السعيد. ناشد شمعون، وقد خشى من هجوم أجنبى، وتملكه التوتر والخوف، واشنطون لإرسال مساعدات عسكرية. استجاب أيزنهاور بعملية "الخفاش الأزرق Blue Bat"، أول عملية للولايات المتحدة محمولة بحرا وجوا فى زمن السلم. وفى غضون اثنتين وسبعين ساعة فى ١٩ يوليو، أنزل الأسطول الثالث ٨٠٠٠ من قوات المارينز وسبعة آلاف جندى على الشواطئ اللبنانية استقبلوا من قبل السابحات بالبكينى والصبية الودودين الذين يبيعون

الليمونادة. تم التدخل، الذى انضمت إليه قوات بريطانية، دونما ألم، بأسلوب خادع، وحافظ على سلطة شمعون الهزيلة.

بيد أن الأمور جميعها فى لبنان كانت خادعة. فى الظاهر، بدت لبنان بلدا مزدهرا متغربنا، "سويسرا الشرق الأوسط" ووفقا للكليشيه المألوف. فى الخمسينيات كانت بيروت تزهو بوجود عدد من البنوك يفوق نيويورك سيتى، وصحف أكثر من تلك التى تصدر فى لندن و(وفقا لحسابات مايلز كوپلاند) وبنشرات (رسائل إخبارية) سرية أكثر من تلك التى تصدر فى نيويورك، لندن، وباريس مجتمعة. بيد أن تعدديتها الدينية كانت موحية أكثر من أى شىء آخر: كان الدستور اللبنانى يعترف بثمانى عشرة طائفة. وفقا للميثاق القومى الذى اتفق عليه عام ١٩٤٣، كانت أعلى المناصب توزع طبقا لصيغة ثابتة: رئيس جمهورية مارونى، رئيس وزراء سنى، ورئيس برلمان شيعى فى وجود ستة مقاعد للمسيحيين مقابل كل خمسة مقاعد للمسلمين، لكن السلطة الحقيقية كانت تكمن عند القمة. لكن قابلية تلك الصيغة للحياة حُكِم عليها بالفشل من خلال تعيين فرنسا لتخوم جديدة لما عُرِف بلبنان الكبير "لبنان الأكبر" عام ١٩٢٠ حيث تضاعفت مساحة الإقليم العثمانى السابق وزاد عدد سكانه لعام ١٩١٣ والذين كانوا يبلغون ٤١٤٨٠٠ نسمة بمقدار النصف، وبهذا أضيف حوالى ٢٠٠٠٠٠ شخص غالبيتهم من المسلمين إلى الجمهورية الجديدة. كان قد أعلن هذا التوسع فى المساحة، بأسلوب انتصارى، بطل مارن (موقعة هزم فيها الفرنسيون الألمان) الفرنسى الأكتع الجنرال هنرى جورو الذى و"من أسفل تلك الجبال المهيبة" أشاد بلبنان الكبير بصفته "معقلا منيعا للإيمان والحرية". (ذكر فى إعلانه هذا فينيقيا، اليونان، روما وصداقة لبنان القديمة بفرنسا. لكنه لم يذكر الإسلام).

وفقا لفيليب حِتّى، المؤرخ اللبنانى الأصل والأستاذ بجامعة برينستون الذى كتب عام ١٩٥٧. يقول إن ما كسبه لبنان من مساحة فقده من التلاحم والاتساق. "فقد

توازنه الداخلى رغم أنه أصبح أكثر قابلية للحياة اقتصاديا وجغرافياً. تقلصت الغالبية المسيحية الساحقة إلى حد كبير". فى الخمسينيات، كان الميزان الديموجرافى قد مال، دونما رجعة، فى صالح المسلمين، بسبب هجرة المسيحيين، ومعدل المواليد الأعلى بين المسلمين، والتدفق الهائل للاجئين الفلسطينيين. ومنذ آنذاك صعودا، أصبح تاريخ لبنان مشهدا دائم التغير من الثورات، الانقلابات، الاغتيالات، الاجتياحات والاحتلالات الإسرائيلية العديدة، الاجتياح السورى والاحتلال الذى كاد يكون دائما، المذابح، التفجيرات الانتحارية، وحرب أهلية دامت جيلا كاملاً (اندلعت عام ١٩٧٥ حينما قُتِل ٢٧ فلسطينيا فى حافلة كانت تمر من حى مسيحى)- شجع كل هذا إرث الميلشيات التى تتلقى مساعدة الخارج، إرث يبدو وأنه لا فكاك منه.

هل تتحمل الولايات المتحدة، وبخاصة السى آى إيه، مسئولية جدية عن هذا المستنقع الدموى؟ بدون شك، ووفقا لأى حسابات تاريخية منطقية، كان التأثير الأمريكى على لبنان خيرا فى بداياته. فى عام ١٨٣٤، وصل پلاينى فيسك، المبشر البروتستانتى ومعه أول ماكينة طباعة بالعربية تشهدها المنطقة، ثم تبعه عام ١٨٦٣ مؤسسو الجامعة الأمريكية ببيروت التى ظلت منذ وقتئذ منارة للتنوير.

وبعد الحرب العالمية الأولى، لم تجد القضية اللبنانية مدافعا عنها أكثر جزما من رجل البرِ تشارلس آر. كراين الذى كان وودرو ويلسون يستشيره حول سياسة الشرق الأوسط. من هنا كانت الأهمية الإضافية للرأى المناوئ مفرط الصراحة الذى صرح به ويلبور كراين إيڤلاند، قريب كراين من بعيد، وحلقة الاتصال السرية الرئيسية بين السى آى إيه والرئيس كميل شمعون، وداعمه السرى. يكتب فى "جبال من رمال" (١٩٨٠) قائلاً: "باستخدامها لبنان قاعدة لعمليات السى آى إيه السرية، قوضت أمريكا استقرار البلد، وساعدت من محاولات جيرانه العرب لإسقاط الحكومة اللبنانية. وعلى الرغم من أن قوة الولايات المتحدة العسكرية أنقذت

لبنان من التفتيت عام ١٩٥٨، إلا أن البلد لم يتعافَ تماما أبدا، ولم يعد لأمريكا سوى قلة من الأصدقاء فى العالم العربى".

بإيجاز، وباستثناء مشهد بيروت الجبلى المهيب، لم يكن ثمة شيء فى المدينة هو نفسه ما ينم عنه مظهره، وكانت هذه ملاحظة مشتركة بين زائرى المدينة. كتب الفيلسوف الجمالى البريطانى ساتشفِرل سيتويل عام ١٩٥٧ قائلا إنه وجد أن الزى والملامح الجسدية لا تكشف شيئا "تكتشف أن الشخص الذى تشعر يقينا أنه مسلم، هو مسيحى فى الواقع؛ لكن، هل هو أرثوذكسى يونانى أم مارونى؟ أم أنه أرمينى؟ ما اللغة التى تتوقع أن يتحدثوا بها؟ ليس ثمة سبيل لأن يعرف المرء". أيضا، فإن جغرافية المدينة محيرة حيث "تمتد شوارعها وأزقتها فى الاتجاه الخاطئ". وفى الواقع، فقد اكتشف سيتول أن المبنى الوحيد فى المدينة محدد الموقع هو فندق السان چورچ. من ثم، أكان ثمة مسرح أنسب من متاهة المرايا تلك يمكن أن تتم فيه لقاءات مايلز كوپلاند المحملة بالرمزية، مع كيم فيلبى، أشهر عميل مزدوج، أو ربما ثلاثى، لتلك الفترة؟

ننتهى حيث بدأنا، فى بار فندق السان چورچ عام ١٩٥٧ حيث كان الجميع يتحدثون عن حفلات الاستقبال السخية التى يقيمها القادمان الأمريكيان الجديدان، مايلز كوپلاند وشريكه چيمس إيكلبرجر. بعد سنوات، أكد كوپلاند أنه من الأرجح أن ضيوفه كانوا يُشكّون فى أن سخاء حفلاته كان بدعمٍ من السى آى إيه. كان رئيس الاستخبارات المضادة بالوكالة چيمس چيسوس إنجلتون قد طلب منه أن "يراقب" كيم فيلبى "بخاصة" والذى كان قد استقال من M16 مؤخراً ليبدأ مهنة جديدة كمراسل أجنبى فى بيروت.

كان مايلز قد التقى كيم فى لندن زمن الحرب وتعمقت صداقتهما فى واشنطون

حيث كان فيلبى، كمنسق استخباراتى، يلتقى كوپلاند وإنجلتون بانتظام. ولدى نقطة ما، بدأ الجاسوس المضاد المتهكم يشك فى أن فيلبى كان عميلا للمخابرات السوڤييتية (ووفقا لكوپلاند) حتى أن إنجلتون أخبر كيم بهذا فيما كان يتناولان العشاء بمعطم فى چورچ تاون. اكتفى فيلبى بالضحك وزعم كوبلاند أنه قال "لن تستطيع أن تجد من يصدقك أبدا".

بُعيد أن استقرا ببيروت، أقام كوپلاند وزوجته حفل عشاء لسام پوپ بروور مراسل النيويورك تايمز وزوجته إلينور. وكأنما قد تلقى إشارة ما، حضر كيم فيلبى دونما دعوة. منذ وقتئذ، أصبح ثلاثتهم ضيوفا منتظمين على بوفيهات مايلز ولورين المسائية، وكانت السى أى إيه هى التى تتحمل النفقات. كتب كوپلاند فيما بعد "كنت أكتسب مايزودنى به چيم (چيمس إكلبرجر). مثلا، رتبت مع مسئول لبنانى كبير كنت قد دربته لأهداف استخباراتية عامة، أن يُخضِع فيلبى لرقابة "فجائية" بين الحين والآخر، وأن يخبرنى بأى شيء مثير للاهتمام". كان فيلبى يتملص من متعقبيه بأسلوب خبير، ويختفى فى متاهات الحى الأرمينى ببيروت. ثم علم كوپلاند أن فيلبى كان على علاقة سرية بإلينور بروور، وقرر أن "كل تلك التملصات والتسللات فى الأنحاء كانت لإخفاء تلك العلاقة".

بعد طلاق إلينور من بروور وزواجها بكيم، كانت العائلتان (فيلبى وكوپلاند) تلتقيان كثيرا، وتتبادلان الشائعات، ورعاية أطفال كل منهما أثناء الإجازات. كانت لورين كوپلاند، عالمة الآثار، معجبة بوالد كيم، الرحالة المسن هارى سانت چون فيلبى، وصديقة له، وكان قد عاش حتى وفاته عام ١٩٦٠ مع ابنه (كانت آخر كلماته التى ظل معارفه يكررونها "يا إلهى، كم سئمت الحياة"). بدا كل شيء كالمعتاد يوم ٢٣ يناير عام ١٩٦٣، حينما دعا جلن بلفور - پول المسئول السياسى بالسفارة البريطانية، كيم وإلينور للعشاء معه بمنزله. قبل كيم الدعوة "بكل سرور"، ثم هاتف زوجته ليبلغها أنه سيتوقف لدى مكتب التلغراف المركزى ليرسل برقية إلى لندن وأنه

سيتأخر. شوهد فيلبى للمرة الأخير ببار السان چورچ حيث حيًّا زميلا فلسطينيا وتجرع عدة مشروبات واختفى دونما إشعار لمضيفه أو زوجته. فى ذلك المساء، دخلت السفينة السوڤييتية ميناء بيروت وحملت كيم على متنها واتجهت إلى أوديسا حسب رواية رئيس كيم فى المخابرات السوڤييتية الجنرال أولج كالوجين بعد ذلك بأعوام.

ما الذى حفز فيلبى على الإسراع بالهروب؟ وفقا للرواية الرسمية، كان رؤساء الاستخبارات البريطانية قد انتهوا بعد تقصيات دءوبة، إلى أن كيم فيلبى كان فى الواقع هو "الرجل الثالث" الذى كان البحث عنه قد ظل جاريا لفترة طويلة؛ وأنه قد تم تجنيده جاسوسا وهو طالب بترينيتى كولدج، كامبريدچ، هو وزميليه فى الدراسة جاى برجس ودونالد ماكليان وأنه قد نبههما عام ١٩٥١ أن خيانتهما قد اكْتُشفت مما مكنهما من الهروب إلى موسكو. ولتلافى حدوث ذلك مرة أخرى، أرسل الرؤساء مبعوثا إلى بيروت بعرضَ أملوا ألا يكون فى إمكانه رفضه: وعدٌ بالحصانة القانونية إذا اعترف. لكن فيلبى اختار الهرب، ثم ظهر فى الوقت المناسب بموسكو، حيث لحقت به بعد فترة زوجته الأمريكية.

لكن تلك الرواية مليئة بالثغرات. لم يُبدِ البريطانيون أى فضول حول هرب فيلبى لدرجة تدعو للاستغراب كما أن السلطات السوڤييتية، وبدرجة لافتة، بدت غير مُرحبة بزميلهم الضال: وُضِعت أجهزة تنصت فى شقته بموسكو، وكانت خطواته مراقبة دائما، ولم يسمح له سوى بإلقاء محاضرة واحدة طوال إقامته بالاتحاد السوڤييتى التى دامت ربع قرن. اكتشف أنطونى كايف براون، المرجعية البريطانية فى التجسس، أن كلا من إنجلتون و"سى C" (السير ستوارت منزيس) الأسطورى، ظلا بأسلوب ما، وبطرق ملتوية على اتصال بالمرتد سيئ السمعة. تفحص الكاتب الأمريكى الدءوب رون روزنبلوم هذه الثغرات، ودقق فى نسخة جرايهام جرين، من مذكرات فيلبى المتبجحة التى نشرها بعنوان "حربى الصامتة"، وفى الهوامش التى

كتبها جرين تعليقاً على النص. وبعد تفحصه إياها انتهى روزنبلوم إلى أنها أثرٌ مضلل لا يؤدى إلى أى مكان. اعترف الكاتب البريطانى فيليب نايتلى، الذى ألف وشارك فى تأليف كتابين مميزين عن فيلبى، وكان أيضا قد أجرى حوارا مطولا معه فى موسكو، اعترف أنه، بعد تفكير، غير رأيه حول الرواية البريطانية الرسمية. أحد افتراضاته هو أن البريطانيين رغبوا فى هروب فيلبى لأنه أصبح كبش فداء مفيد لفشل الاستخبارات الأنجلو/أمريكية، يصلح لتحميله مثلا مسئولية اختراق الأمن الذى أدى عام ١٩٥٠ إلى المذبحة التى قام بها الألبان ضد رجال حرب العصابات المعادين للشيوعية والمحمولين بحرا. يظن آخرون أن السى آى إيه، وM16 استخدمتا فيلبى قبل هروبه وبعده كى ينقل للسوڤييت خططا مستبعدة عن ضربة ثأرية ضخمة إذا هاجمت موسكو أوربا الغربية - يُمثّل كل هذا شكوك المراجعين والمدققين التى جاءت تفاصيلها فى كتاب "خداع المخادعين" لضابط المخابرات الأمريكية السابق إس. چيه. هامريك، وكما حللها نايتلى فى النيويورك ريڤيو أوڤ بوكس.

يؤكد هذا كله على مشكلة محيرة أغفلها مايلز كوپلاند فى تعاطيه مع الأحداث: أن بالإمكان قول أى شىء وكل شىء عن الاستخبارات السرية لأن الذين يتوقون لتصديق ما يُروى يقابلون حتى أكثر المزاعم غرابة بالصمت، كما أن الإنكار الرسمى لا يُصدّق كأمر واقع. لا تُطبق اختبارات الصدقية التاريخية المعتادة على الوكالات السرية بما أن الوثائق الرئيسية تحجب، أو يفرج عنها فى شكل مُعقم. من هذا المنظور، فإن عالم التجسس "متاهة من المرايا" (تعبير إنجلتون). مثّل هذا نعمة كبرى مؤكدة للروائيين، والمسرحيين، والسينمائيين الذين يُضفون على وكالات التجسس قدرات خارقة. ليس ثمة مثال على هذا أفضل من حياة كوپلاند وأفعاله. قام الباحث أندرو راثمل الدءوب بالتنقيب بحثا عن كل الوثائق المتاحة وكشفها أثناء كتابة رسالته عام ١٩٩٥ بعنوان: "الحرب السرية فى الشرق الأوسط: الصراع

الخفى على سوريا: ١٩٤٩- ١٩٦١". انتهى الباحث إلى أن زعم كوبلاند بأن ستيفن ميد كان العقل المدبر للانقلاب السورى الأول "يدين بالكثير، لنزوعه المعروف للمبالغة فى دوره أكثر منه للحقائق". يُضيف راثمل أن مديرا سابقا للسى آى إيه لم يذكر اسمه قال له "إذا استطعت أن تتبين الحقائق من الخيال فى كتاب لعبة الأمم فلابد وأن تكون عَرَّافاً".

لننسَ مؤقتا حيرتنا حول قبول كلمة مدير وكالة تحظر الملفات الكاشفة بأسلوب روتينى، كما يعترف بذلك راثمل، وكالة قام الرقباء فيها فى السنوات الأخيرة، وبدون إشعار، بإخفاء الوثائق التى كانت متاحة من قبل، وبخاصة تلك المتعلقة بالشرق الإسلامى. إن راثمل يخطئ المغزى. لقد كان سرد كوبلاند إعلانا عن زمن يُنظِر فيه إلى تدخل الولايات المتحدة السرى على أنه أمر معيارى، زمن قامت فيه جيوش سرية تنبعث فجأة من السماء بتقويض أنظمة، وبتزويد سياسيين معادين من كل نوعٍ وتوجه بهدفٍ سهل لتشويه سمعة منافسيهم - سهل لأنه ما من أحد يستطيع إثبات "لا وجود" مؤامرة شيطانية. فى لعبة الأمم هذه فإن كل شىء ممكن، وليس ثمة شىء يمكن إنكاره بحق وإقناع أو التنصل منه. وليكن اسم هذه اللعبة "لغز كوبلاند".

الفصل الثانى عشر

الرجل الذى كان يعرف أكثر مما يجب
پول داندِز وولفويتز
(مواليد ١٩٤٣)

الفصل الثانى عشر

"ليس الإنسان ملاكاً أو وحْشاً، ومن سوء الحظ أن يتصرف من يتُوقَّع منه أن يكون ملاكا كوحش".

– بليز پاسكال، "تأملات"

(١٦٧٠)

فيما بدأت القنابل تتساقط على بغداد فى مارس ٢٠٠٣، لم يكن غالبية الأمريكيين الذين يعيشون خارج نطاق طريق واشنطون السريع يعرفون سوى القليل، أو أنهم لم يكونوا يعرفون شيئا، عن پول دى. وولفويتز، نائب وزير الدفاع. ليس فى هذا ما يثير الدهشة. فقد كان نموذجا للرجل رقم اثنين حاد الذكاء، الوفى، الذى لا يعرف الكلل، والذى عادة ما يكون مجهولا، ويقوم بإعداد القرارات الكبرى وتعزيزها، ليعلنها الرجل رقم واحد ويضعها موضع التنفيذ. عبّر بوب وودوارد الذى يُنظر إليه بعامه على أنه مؤرخ "البلاط" لإدارة چورچ دبليو. بوش عن هذا الوضع تعبيرا صحيحا فى كتابه "خطة الهجوم" (٢٠٠٤) بصفته رجلا عليما ببواطن الأمور حيث قال إن وولفويتز "كان العرّاب الفكرى للإطاحة بصدام حسين وأشد الداعين إلى ذلك ضراوة". وحينما سارت الأمور سيرا سيئا بعد الإطاحة، وعمت الأناركية العراق، بدأ الناس يسمعون المزيد عن وولفويتز الشخص

المتحمس خفيض الصوت، وبخاصة بعد محاولة اغتياله ببغداد فى ١٦ أكتوبر ٢٠٠٣ . كان المتمردون قد اكتشفوا، بأسلوب ما، أنه كان يقضى الليلة بفندق الرشيد، من ثم انهال وابل من الصواريخ اخترقت المنطقة الخضراء التى من المفترض أن تكون حصينة. نجا وولفويتز، لكن قُتِل ضابط أمريكى، وأصيب سبعة عشر آخرون. تفاقمت المذبحة حينما هاجم "الإرهابيون" فى اليوم التالى المقر الرئيسى للصليب الأحمر ببغداد وقتلوا أكثر من اثنى عشر شخصا وجرحوا المئات.

لم تكن إراقة الدماء الوحشية، التى مازالت مستمرة، ما تخيل پول وولفويتز حدوثه فى العراق "المُحرَّر". أعلن فى شهادة أمام الكونجرس وفى الحوارات الصحفية، ودفاعاته داخل أبواب البنتاجون المغلقة أنه قد توجد بعض المصاعب بعد الحرب، لكن غالبية العراقيين كانوا يبغضون حاكمهم المستبد، وأن معظمهم قد أصبحوا علمانيين، وأن الحكومة المنتخبة، وإن لم تكن خالية من العيوب ستصبح

منارة ليبرالية يهتدى بها جيران العراق الذين يعانى معظمهم من الطغيان، وأن مثل تلك النتائج لن تتطلب بالضرورة احتلالا مُرهِقا مستطالا مكلفا - وفى الواقع، ومع ثروته النفطية، فبإمكان العراق تغطية معظم التكلفة. وفوق كل شىء، فالعراق المهزوم هو عراقٌ منزوع الأنياب بعد القضاء على برامج أسلحته الكيمائية والنووية ومعها إمكانية تزويد صدام الحسين أسامة بن لادن الذى يكاد يكون من اليقينى أن له ارتباطات معه، بأسلحة الدمار الشامل.

رددت فرِقٌ من زملاء وولفويتز رؤاه وآراءه، وكان قد أغْرى بعض هؤلاء بمناصب حكومية، وبخاصة آى. لويس "سكووتر" ليبى الابن، رئيس العاملين لدى نائب الرئيس. وكان بين الآخرين بعض حلفائه القدامى أثناء الحرب الباردة مثل ريتشارد بيرل الذى تميز بطلاقة الحديث وقوة التأثير فيمن حوله وكان يشغل منصب رئيس مجلس سياسة الدفاع، وإليوت إبرامز الخبير فى شئون الشرق الأوسط بمجلس الأمن القومى، بالإضافة إلى أصدقاء ومعاونين فى كبرى الجامعات، معاهد الأبحاث وفى الإعلام - كتيبة مهيبة الجانب. كان يميز أفرادها مظهر المُطلّع على الخفايا وبواطن الأمور، معلومات اكتسبوها أثناء عملهم فى الإدارات الجمهورية السابقة التى أذلّت سياساتها الحكيمة المتشددة "إمبراطورية الشر" دونما طلقة رصاص واحدة.

عمل هذا النصر على الاعتقاد بأن التاريخ كان إلى جانب أمريكا، كما كتب فرانسيس فوكوياما حليفهم الأيديولوچى فى قسم تخطيط السياسة بوزارة الخارجية. رأى فى كتابه "نهاية التاريخ" (١٩٩٢) أن التاريخ ذاته على وشك الانتهاء فى وجود الانتصار الكوكبى للأسواق الحرة والديمقراطية. تكررت تلك الأطروحة الجسورة فى الورقة البحثية بعنوان "استراتيجية الأمن القومى للولايات المتحدة الأمريكية" فى ٨ سبتمبر ٢٠٠٢ التى تكثفت لهجتها الفظة فى كلمة بوش الاستهلالية": انتهت صراعات القرن العشرين الكبرى بين الحرية والاستبداد

بالنصر الحاسم لقوى الحرية – وفى نموذج أوحد باقٍ للنجاح القومى: الحرية، الديمقراطية والمشاريع الحرة". وبتعبير بسيط، أصبح كوكب الأرض وحيد القطب، وهو تعبير ساعد كاتب الأعمدة بالواشنطون پوست تشارلس كراوثامر على ترويجه من خلال مقال بدورية فورين أفيرز خضع لمناقشات عديدة وأعلن فيه: "إن مركز سلطة العالم هو قوة عظمى وحيدة لا يتحداها أحد، ويواكبها حلفاؤها الغربيون".

وماذا عن هؤلاء الحلفاء المواكبين؟ عبّر روبرت كيجان المثقف الموهوب المعروف بمعاركه الفكرية والذى كان قد اتخذ بروكسل مقرا له، عن الخطوط العريضة للرأى المشترك بين المجموعة الأمريكية التى أُطلق عليها، بغير تحديد محكم مُسمًّى المحافظين الجدد. زعم فى بيانه الذى أصدره عام ٢٠٠٣ بعنوان "عن الفردوس والقوة" أن الأوربيين افترضوا بحماقة أنهم قد ولجوا فردوسا من السلام بعْد تاريخى بالتقابل مع صناع السياسة الأمريكيين الذين اعتقدوا جازمين أن عليهم توطيد السطوة الكوكبية فى عالمٍ هُوبزى (نسبة إلى الفيلسوف هوبز): "ولهذا السبب نرى أنه فيما يخص القضايا الدولية الاستراتيجية الكبرى، ينتمى الأمريكيون إلى مارس (Mars إله الحرب) والأوربيون إلى ڤينوس (إلهة الحب والشبق). أسَرتْ تلك الصورة عن القدرة الأمريكية المقدامة، ليس فقط خيال المحافظين الجدد بل حتى الليبراليين الديمقراطيين. عبّرت مادلين أولبرايت وزيرة الخارجية فى عهد كلينتون عن ذلك بقولها إن الولايات المتحدة تقف وقامتها أعلى من البلدان الأخرى ومن ثم فهى قادرة على الرؤية أبعد من الآخرين. بدا، للحظة، فى أعقاب هجمات ١١/٩، أن أمريكا قد تبدّت بالفعل شبيهة بالآلهة فى استجابتها العسكرية الكفء المحسوبة بدقة. قامت قوة أمريكية متحركة مسلحة بالقنابل الذكية ومبالغ نقدية ضخمة، وبسرعة البرق، باقتحام أفغانستان واقتلاع نظام طالبان بدعوى أنه آوى أسامة بن لادن، وتم كل هذا بموافقة كوكبية واسعة. أعقب النصر العسكرى تسوية لبعد الحرب لقيت استحسانا عن حق، وتوسطت فيها الأمم المتحدة، بدرجة أن حتى الإيرانيين المعادين أيدوا استعدادهم لدعمها.

كم تبدو بعيدة تلك اللحظة! ومَض الكوكب الأحمر (المريخ أو (Mars) وتعثر نفس الفريق الذى انتزع انتصارا ماهرا فى معاقل أفغانستان الغادرة، تعثر فى مستنقع مُهلك. لِمَ؟ لأسباب عديدة يبرز أحدها: تجاهل مخططو الحرب العراقية، بأسلوب ما، أحد المبادئ الواضحة فى كتاب "لوياثان Leviathan" لتوماس هوبز (١٥٨٨- ١٦٧٩) ذلك الفيلسوف السياسى الذى كانت واقعيته الخالية من العواطف ترشدهم. حذّر هوبز بوضوح (الجزء الأول، الفصل الثامن)، بعد أن كان قد راقب السلوك البشرى فى زمانه الملىء بالاضطرابات قائلاً: "فى الوقت الذى يعيش فيه الناس دونما قوة مشتركة تعمل على إبقائهم فى حالة من الرهبة، فإنهم يعيشون حالاً يُسمَّى الحرب؛ ومثل هذه الحرب هى حرب كل شخص ضد كل شخص آخر". ولأن الأمريكيين لم يُعدُّوا أية ترتيبات لفرض سلطة مشتركة على بغداد ما بعد الغزو، تحولت رهبة العراقيين إلى حالة من الارتباك، والنهب والتمرد، انتشرت فى جميع الأنحاء[1] (باستثناء إقليم كردستان الأقل اضطرابا والذى كان قد تمتع لمدة عقد من الزمان باستقلال ذاتى نسبى، حمته منطقة حظر الطيران التى فرضتها الولايات المتحدة). وفى غضون ما يربو قليلا على العام، عمت معظم العراق حالة من الفوضى التامة، عَمّقها المفجرون الانتحاريون، مما أدى إلى هروب جماعى للاجئين، وزاد من زخم عنف تلك الحالة المقاتلون الأجانب الذين توافدوا على البلد من خلال حدوده غير المحمية.

كيف حدث ذلك؟ كان مهندسو الحرب قد استدعوا رؤية غير واقعية بعد/تاريخية عن عراقٍ يعتنق مُتْناً الثلاثية التى اعتقدوا أنها ضرورية، كوكبياً، للنجاح القومى": الحرية، الديمقراطية والمضاربات الحرة". وإذا نظرنا إليها من عواقبها، نجد أن

(١) لا يذكر المؤلفان هنا اى شىء عن مقاومة العراقيين للغزاة الأمريكيين وأعوانهم وكانما كل ما حدث، ومازال يحدث، هو مجرد انفلات امنى واعمال عنف ونهب وتدمير غير هادفة. كما لا يذكران شيئا عن دور الأمريكيين ومرتزقتهم فى تاجيج الصراعات وانتشار اعمال العنف. (الترجمة)

"عملية حرية العراق Operation Iraqi Freedom" انقلبت رأسا على عقب ليس بسبب فشل الإرادة بل فشل الخيال والتصور. كان پول وولفويتز، نو الذكاء الذى لا يرقى إليه شك، رمزا لهذا الفشل.

•••

كان وولفويتز، وقد شحذ عقله وخياله بجامعة شيكاغو وبسنوات من الخدمة بالبنتاجون، يفاخر بمقدرته على قياس ما هو غير قابل للقياس فى الاستراتيجية العسكرية وتقويمها. فى خطاب له بحفل تخريج دفعة من وست پوينت قبل أشهر من هجمات ٩/١١، استدعى پيرل هاربور وجميع الإشارات التى لم ينتبه إليها أحد الدالة على هجوم اليابان المفاجئ؛ قال إن هذا درس عملى تؤخذ منه العبر ليس فقط لطلاب الكليات الحربية. فعلى المدنيين أيضا التخلص من حالة الرضا عن الذات "واستبدال التنبؤ بغير المعهود وغير المحتمل بغياب التوقيعات".

فى الأشهر المؤدية إلى الحرب، تجنب وولفويتز الكليشهات المستهلكة وكان يأتى بإجابات متمعّنة، بل ومجفلة أحيانا، عن الأسئلة المبتذلة: مثلا، لو أصبحتْ العراق ديمقراطية، ألن يفوز الإسلاميون؟ أبلغ أحد محاوريه قائلا: "انظر، ٥٠٪ من العَرب نساء. لا تريد غالبية النساء أن يعشن فى ظل دولة دينية. والخمسون بالمائة الآخرون رجال. أعرف الكثيرين منهم. ولا أعتقد أنهم يريدون العيش فى دولة ذات حكم دينى". تحدّث وجبْهته متغضنة كرجل ينصت بعناية، وكانت السنوات التى قضاها عميدا لكلية چون هوپكينز للدراسات الدولية المتقدمة بواشنطون قد صقلت مسلكه المهنى. كان أثناء أسفاره، أو استقبال زائريه وهو على مقعده رفيع المكانة كرئيس للبنك الدولى بعد الحرب، دائما ما يترك انطباعاً كشخص أهل للثقة. بدا، وهو الطويل النحيف، أشعث الشعر، رجلاً لا يعرف الخيلاء، من المحتمل له أن يبلل مشطه بلعابه قبل أن يمرره بشعره، أو أن يخلع حذاءه قبل زيارته لمسجد تركى ليكشف عن ثقب فى جوربه. كان سجل إنجازاته ذا أهمية. نادرا ما تعثر قبل حرب

العراق. فى كتابه "صعود الآلهة فلكان" (الآلهة التى صنعت النار عند الرومان" (٢٠٠٤)، أقتفى الصحفى چيمس مان حياة وولفويتز المهنية بعناية. كان لقب الفلاكنة Vulcans قد أُضفى بأسلوب شبه مازح، على مجموعة غير محكمة من العاملين بالپنتاجون ومجلس الأمن القومى، ضمّت وولفويتز، ديك تشينى، كولن باول، كونداليزا رايس ودونالد رمسفلد وكانت المدة الجمعية لتوليهم مناصبهم قد امتدت عبر إدارات نيكسون، فورد، ريجان چورچ إيتش. بوش، وچورچ دبليو. بوش.

وبدرجات وأساليب متفاوتة، اعتقد هؤلاء "الفلاكنة" أن سطوة أمريكا وقوتها التى لا نظير لها لابد أن تستخدم لتحقيق أهداف جديدة، واللازمة المضمرة لهذه العقيدة، هى أن ما فى صالح الولايات المتحدة عادة ما يكون لصالح العالم. وحقا، فقد كان ثمة اختلافات داخل المجموعة وبخاصة حول حرب الخليج الأولى. تبع غزو العراق للكويت عام ١٩٩٠ جدل زخم داخل إدارة بوش الأب حول كيفية الاستجابة. فضل كولن باول، رئيس هيئة الأركان المشتركة الاحتواء لا الهجوم، وهو يذكرهم بأن القوات الأمريكية لم تدخل من قبل بعدد هائل من الجنود إلى الشرق الأوسط. اختلف معه وزير الدفاع ديك تشينى ووكيل وزارته پول وولفويتز. ومعاً، قاما بالعمل على استراتيجية بديلة صاغها هنرى إس. روين، مساعد الوزير لشئون الدفاع والأمن، وكان باحثا فى إجازة دراسية من معهد هوفر، ثم أصبح رئيس مجلس إدارة راند كوربريشن. كان روين، أثناء إجازة له، قد عثر على وصفٍ كان قد نُسِى بعامة عن الهجوم البرى والجوى بقيادة البريطانيين على بغداد عام ١٩٤١، ذلك الهجوم الذى عكس الأوضاع بعد الانقلاب العسكرى الموالى للنازيين بالعراق (تفاصيله فى الفصل الثامن). وفى انتصار حاسم، فى وقت كان الرايخ الثالث يعانى من ندرة فى النفط، اندفع فيلق جلوب باشا ومعه القوات البريطانية باتجاه الشمال الشرقى من الأردن عبر الصحراء وتوجهوا إلى بغداد حيث انضموا إلى قوة بريطانية لاستعادة العراق كما كان تشرشل قد أمر بإلحاح.

يروى چيمس مان أنه لدى عودته إلى واشنطون.. عرض روين أفكاره على وولفويتز ثم على تشينى الذى أخبره أن يكوّن فريقا دون أن يعلم پاول أو أى شخص آخر. شكل وولفويتز وسكووتر ليبى، مساعده المدنى لتخطيطات الطوارئ، مجموعة سرية لتفحص أفكار روين. رفض الجنرال إيتش. نورمان شوارتسكوف خطتهم الهجومية التى أسموها "عملية العقرب" بصفتها غير قابلة للتنفيذ، حيث ذكر فى مذكراته إنه خطر له أن المخططين الثلاثة قد استسلموا لظاهرة شائعة بالبنتاجون: "ضع شخصاً مدنياً فى موضع المسئولية عن رجال عسكريين مهنيين، وستجده قبل وقت ليس بالطويل غير قانع باشتغاله على الأمور السياسية، بل يريد أن يتفوق على الجنرالات فى الشئون العسكرية".

وعلى الرغم من ذلك، شكلت خطة تشينى- وولفويتز - روين جنين "عملية عاصفة الصحراء Opertion Deser Storm" التى بدأت فى ١٧ يناير ١٩٩١ واشتركت فيها أعداد هائلة من قوات المشاة، والقوات الجوية من بلدان ثمانية، بالإضافة إلى ست مجموعات بحرية مقاتلة تابعة للولايات المتحدة. وفى غضون شهر، كان هجوم التحالف البرى، البحرى، الجوى قد حرر الكويت ومزق جيش صدام حسين، الذى تبعثر، إرباً. دعا الجنرال پاول، وشوارتسكوف، بعد أن تم قهر العدو وإذلاله، وتحرير الكويت، فيما بقيت قوات التحالف سليمة لم تمس، دعوا إلى وقف لإطلاق النار وافق عليه تشينى والبيت الأبيض على الفور. استاء وولفويتز من توقيته. علق، فيما بعد بالقول إنه، بتأجيل اتفاقية وقف إطلاق النار بدون ذبح أفراد الجيش العراقى الهارب "كان بإمكان الولايات المتحدة شراء الوقت لتتصاعد المقاومة ضد صدام حسين وللقيام بعمليات ضده". أعقب ما رآه المعارضون وقف إطلاق نار متسرع سماح الجنرال شوارتسكوف لطائرات الهليكوبتر العراقية بالطيران فى مجال قوات التحالف الجوى بزعم نقل المسئولين العراقيين من مناطق المعارك. عارض وولفويتز، ودنيس روس، حلاّل عقد الشرق الأوسط بوزارة

الخارجية، هذا التنازل للعراق. وكما كان متوقعا قصفت طائرات الهليكوبتر العراقية المقاتلة المتمردين الأكراد والشيعة الذين كانوا قد نزلوا إلى الشوارع والميادين مفترضين أن قوات التحالف بقيادة الأمريكيين ستوفر لهم غطاءً جوياً.

وأخيرا، برز السؤال الخلافى: هل يجب على الحلفاء المنتصرين التقدم إلى بغداد والإطاحة بالطاغية؟ تخير الرئيس چورچ إيتش. بوش، ومستشار الأمن القومى برنت اَشكروفت، بعد أن وازنا المخاطر، الامتناع عن ذلك لأسباب أوضحاها فى كتابهما المشترك "عالم تغير شكله" (١٩٩٨):

"كان لابد لمحاولة القضاء على صدام وتوسيع الحرب البرية لتصبح احتلالا للعراق أن تنتهك خطّنا الإرشادى بعدم تغيير أهدافنا قبل أن نُنجزها.. وكان لابد أن ينتج عن هذا تَكلفات بشرية وسياسية باهظة لا محدودة.. كنا سنُجبَر على احتلال بغداد ومن ثم نحكم العراق ونسيطر عليها. كان التحالف سينهار على الفور، وينسحب منه العرب غاضبين وكذلك الحلفاء.. إن دخولنا إلى العراق واحتلالنا له، الأمر الذى يعنى توسيع تفويض الأمم المتحدة أحَادياً، كان لابد أن يقضى على سابقة الاستجابة الدولية للعدوان التى كنا نأمل فى ترسيخها. لو أننا سرنا فى طريق الغزو، لأصبحت الولايات المتحدة قوة احتلال فى بلدٍ معادٍ بمرارة. كان لابد للنتيجة أن تكون مختلفة دراماتيكيا، بل وربما عقيمة فارغة".

بيد أنه كان ثمة تفسير أكثر أنانية لهذا التحكم فى الذات العاقل الحكيم. وفقا لاعتراف الجنرال پاول، بأسلوب عَفْوى، فى مذكراته: "كانت نيتنا العملية هى أن نترك لبغداد قوة كافية بحيث تبقى تهديدا لإيران التى ظلت عدوا لدودا للولايات المتحدة". أثار هذا التنازل الملتبس أخلاقيا للسياسة الواقعية استياء أمريكيين آخرين وليس پول وولفويتز فقط الذى كان كثيرا ما يشير أثناء تسعينيات القرن العشرين إلى الفرص المهدرة فى حرب الخليج الأولى. وأثناء عمله عميدا أكاديمياً أقنع هو وحلفاؤه الرئيس كلينتون والأعضاء الديمقراطيين بالكونجرس بأن "تغيير النظام" ببغداد كان هدفا مشروعا للسياسة الخارجية الأمريكية (كما مضوا

يُذكّرون ناقدى الحرب الخرقاء على العراق فيما بعد). بيد أنه لم يكن الهدف هو الذى أثار معظم المعارضة بل الوسائل المستخدمة. مثلا رأى زيجنيو برچنسكى مستشار چيمى كارتر للأمن القومى أن حرب ٢٠٠٣ على العراق هى أعظم حماقة ارتكبتها السياسة الخارجية الأمريكية، كارثة چيوسياسية تكلفت ٣٠٠ مليار دولار حيث "غدا فيها محاربة العراقيين المتمردين المعارضين لاحتلال الولايات المتحدة هو الهدف الواقعى لحرب قيل إنها موجهة ضد إرهاب غامض، أصبحت أسلوباً للقتل، لكنه قتل عدواً لا يكاد يكون معروف الهوية". وبحلول عام ٢٠٠٧، كانت تلك المعارضات قد أصبحت بدهية مألوفة بين محترفى الشئون الخارجية، وترددت فى استطلاعات الرأى التى سجلت انخفاضا حادا فى معدلات الموافقة على سياسة بوش. كيف تأتّى، إذن، لوولفويتز، ذلك المحلل اللامع، المساعدة على قيادة الولايات المتحدة إلى ذلك المستنقع الذى يبدو أن لا قاع له؟

يمكن تمييز أربع جدائل فى التطور الفكرى لپول وولفويتز: أصوله الپولندية اليهودية؛ بصمة جامعة شيكاغو وسوقها الحر لـ "الأفكار الكبرى"، تأثير امرأتين مهمتين. عالمة الآثار كلير سلجين، زوجته السابقة التى استمر زواجه بها ثلاثين عاما، ورفيقته الأحدث، شاهه على رضا الناشطة النسوية العربية؛ وأخيرا احترامه للمنفيين العراقيين وصداقته بهم، وبخاصة أحمد الجلبى.

كان وولفويتز أحد أبناء جماعة من المهاجرين اليهود التى حفزت طبيعتها وسماتها عالم الاجتماع السياسى تورستين ڤبلن إلى كتابة مقال ثاقب البصيرة عام ١٩١٩ بعنوان "التفوق الثقافى اليهودى فى أوربا الحديثة". كان وعد بلفور هو ما ألهم تأملاته، والذى كان، فى العام السابق، قد أعلن موافقة بريطانيا على خطة صهيونية لإنشاء وطن قومى لليهود بفلسطين. وحينما قارن بين المطالبين المتنوعين المتحمسين لحق تقرير المصير والذين شجعهم دخول أمريكا الحرب العالمية الأولى،

منح ڤبلن الدرجات العليا للصهاينة الذين أثنى عليهم بسبب "رصانتهم، حسن نواياهم، ورباطة جأشهم وثقتهم بالذات". بيد أنه، تساءل بافتراض أن الخطة الصهيونية هى فى مصلحة اليهود، فهل سيكون تحققها فى مصلحة أوربا؟

كتب ڤبلن يقول إن القلائل فقط هم من سيشككون فى أن اليهود قد أسهموا بأكثر من نصيبهم فى تقدم أوربا. لِمَ هذا؟ رأى ڤبلن، الذى كان من أسرة مهاجرين من النرويج، أن اليهود ينتمون إلى أقلية مُهجّنة نظر أبناؤها إلى الأعراف والعادات الراسخة لمجتمع الغالبية من منظور متشكك. وبما أن اليهودى الموهوب ينتمى إلى ثقافة تحتية مترابطة فإنه "يزعج السلوك الثقافى" ولو بتكلفة فقدان "السلام العقلى الذى هو امتياز موروث للآمنين، العقلاء ممن يتمتعون بالهدوء والسكينة". من ثم، فإن مكاسب الصهيونية قد تصبح خسارة لأوروبا(١). وبالمثل، فقد أفادت الولايات المتحدة بصفتها بوتقة انصهار لمختلف الثقافات فائدة كبرى من أقلياتها الكثيرة حيث لم يواجه الموهوبون من أبنائها سوى عقبات أقل من تلك التى واجهها نظراؤهم بأوربا التى تتميز بتراتبياتها المتحجرة. (كان من ابتدع تعبير "بوتقة انصهار" هو الكاتب البريطانى الصهيونى إسرائيل زانجويل فى مسرحيته "بوتقة الانصهار" عام ١٩٠٨ التى حوت الأسطر التالية: "أمريكا هى بوتقة الرب، بوتقة الانصهار العظمى التى فيها تذوب كل أعراق أوربا وتعيد تشكيل أنفسها").

كان چايكوب وولفويتز، والد پول، صهيونيا طوال حياته، وكان رياضيا مرموقا، استفاد من بوتقة الانصهار الأمريكية. كان چايكوب من مواليد پولندا ووصل إلى نيويورك عام ١٩٢٠ وهو فى العاشرة مع والديه صامويل وهلين. وبعد أن التحق بالمدارس الحكومية المحلية، تمكن وولفويتز الشاب، أثناء فترة الركود الكبير، من

(١) إن مثل تلك السفسطة الفلسفية (الدعائية) التى تعتمد عن منطق ظاهرى قائم على فرضيات زائفة هى ذاتها التى ادت إلى اعتناق اوربيين كثيرين للأفكار النازية والفاشية وغيرها وغيرها. (الترجمة)

الحصول على درجة البكالوريوس من جامعة سيتى بنيويورك رفيعة المستوى والتى رحبت به. بعد ذلك، عمل بتدريس الرياضيات بالمدارس الثانوية، وحصل على الدكتوراه من جامعة نيويورك، واشترك مع البروفسور إبراهام والد بجامعة كولومبيا فى أبحاث أساسية على النظرية الاستاتيكية، وعلى أساس أبحاثه، حصل على منصب بروفسور بجامعة كورنيل عام ١٩٥١، ثم بجامعة إلينوى عام ١٩٧٠ حيث ظل يدّرس بها حتى تقاعده. اعتُبِر عملاقا فى مجاله، وكتب ١١٤ ورقة بحثية وكتابا مهما عن نظرية الإعلام، وقضى إجازة دراسية مثمرة لمدة عام فى معهد أبحاث بإسرائيل حيث كانت ابنته قد استقرت هناك وتزوجت من إسرائيلى. توفى چايكوب وولفويتز عام ١٩٨١ .

وهكذا، شب پول ولورا وولفويتز وسط أسرة تُجلُّ فرانكلين روزفلت، وتُدين استرضاء هتلر، وترحب بإجراءات الضمان الاجتماعى والحقوق المدنية. بعد عقود، صرح وولفويتز للصحفى كريستوفر هيتشنز بأنه كان "قلباً داميا" أثناء شبابه، وانضم هو وشقيقته إلى مسيرة مارتن لوثركينج بواشنطون. بيد أنه كان قد خضع لتأثيرات متنافرة أثناء دراسته الجامعية. تخير پول جامعة كورنيل لأسباب مالية وأيضا لأن والده كان يعمل هناك (مصاريف أقل لأبناء هيئة التدريس). وُضِع فى سكن داخلى نخبوى، وهناك صادق الفيلسوف السياسى المحافظ آلان بلووم، الذى ذاع صيته فيما بعد بسبب كتابه "إغلاق العقل الأمريكى" الذى كان مُلهِماً للروائى الإسرائيلى شاؤول بِلُو فى روايته "Ravelstein". ووفقا لصورة شخصية مبكرة صاغها بيل كلِر بالنيويورك تايمز فإن "بلووم شجع وولفويتز على المضى فى اهتمامه بشئون العالم التى كانت قد استحوذت عليه فى طفولته، الأمر الذى سبب استياء والده الذى كان يعتبر علم السياسة مرادفا لعلم الفلك".

وهكذا التحق پول وولفويتز عام ١٩٦٥ بجامعة شيكاغو، وبذلك تأجل تجنيده أثناء حرب ڤيتنام لأنه كان طالب دراسات عليا. كيف نظر إلى ذلك الصراع؟ فى

عام ٢٠٠٢، أبلغ كِلر أن تلك الحرب كانت نموذجا معياريا للنوايا الحميدة التى ضلّت طريقها: "كان وولفويتز متعاطفا مع الحرب لكنه، فيما بعد، رآها طُموحا باهظ التكلفة". يعجب، فى نفس الوقت، مما إن كان الدور الأمريكى بڤيتنام قد منح القوى المعادية للشيوعية فى آسيا وقتا لتجميع قوتها. قال "نعرف أن تكلفات ڤيتنام كانت هائلة". ثم يضيف بأسلوبه الخاص، "لكننا لا نعلم ما كان هذا الجزء من العالم سيصبحه لو لم تحدث الحرب". يمكننا هنا أن نضيف إننا لا نعلم ما هية مشاعر وولفويتز إزاء العراق لو أنه قد خبر مباشرة النتائج الكارثية للحرب الواقعية التى لم يكن بالإمكان تكهنها. على أية حال، فإنه، وأثناء سنواته بجماعة شيكاغو، اكتسب يقين المخاطرة الذى أصبح أمضى أسلحته البيروقراطية(١).

فى ٢ ديسمبر ١٩٤٢، أنتج فريق من العلماء بقيادة المهاجرين الموهوبيْن إنريكو فِرمى (إيطاليا) وليو زيلارد (المجر) أول تفاعل متسلسل نووى من صنع الإنسان، والذى استبق التفجيرات الأكبر بلوس ألاموس. وقعت هذه الحادثة المزلزلة للأرض، حرفياً، أسفل مدرجات ستاج فيلد بجامعة شيكاغو، تلك الجامعة التى، وبعد ذلك بعام، حصلت على حقوق ملِكية الموسوعة البريطانية Encyclopaedia pritanica، التى كانت قد نُشرت للمرة الأولى عام ١٧٦٨ بإدنبره.

وبعد أن أفادت الجامعة من مكانة الإنسايكلوپيديا وأرباحها، عمدت إلى اقتناء وإنتاج "الكتب العظمى (أمهات الكتب)" والتى شملت أربعة وخمسين كتابا من ٢٥ مليون كلمة وبذلك طمست منافستها الأمريكية الوحيدة، هارڤارد، التى كانت مكتبتها تزهو برف ارتفاعه خمسة أقدام من تلك الكتب. ثم ذهبت إلى أبعد من هذا،

(١) رغم تلك اللمسات التجميلية. والتحليل الذرائعى لشخصيته وولفويتز، تاريخه، افكاره، واعماله، فما يخرج به القارئ بإيجاز، هو انه صهيونى حتى النخاع، مؤيد لحروب امريكا الخارجية. بل وداعية ومخطط لها، بضمير مستريح وفكر بارد (الترجمة)

حيث جَمّع باحثوها الأكاديميون مائتين واثنتين "فكرة عظمى" شرحوها وصنفوها فى أقسام واضحة المعالم بالـ Syntopicon، وهى "مكتبة مراجع موحدة فى عالم الفكر والرأى" وفقا لتعبير راعيها الأكاديمى الدكتور مورتيمرچيه. آدلر صديق رئيس الجامعة روبرت ماينارد هتشينز.

كان ذلك الجمع المُجفِل بين الفيزياء النووية، والتنوير الإسكتلندى، وأساليب التدريس المستفزة نمطيا فى جامعة أمريكية كانت بها المعرفة ذات قيمة عظمى بدرجة أن هيتشنز أوقف اشتراك فريق كرة القدم فى المباريات بين/ الجامعية (بصفتها إلهاء وغير ذات قيمة)، ورحّب بالتحاق صغار الطلبة ممن هم فى فى الخامسة عشرة بها. كان بين الصغار الذين اجتذبتهم شيكاغو، سوسان سونتاج (مواليد ١٩٥١) والتى دخلتها وهى فى السادسة عشرة وهناك التقت بعالم الاجتماع فيليب ريف وتزوجته قبل أن تبدأ هى حياتها المهنية حيث أزعجت السلام العقلى. آنذاك، كانت جامعة شيكاغو قد أصبحت اسماً أكاديمياً نوعياً للتوجهات المتقدمة فى العلوم البحتة، العلوم الاجتماعية (بخاصة الاقتصاد، الاجتماع، والسياسة) والدراسات والآداب الليبرالية (بما فيها اللغة واستخدام الترقيم، النقط والفواصل كما يحددها كتاب أسلوبٍ مرجعى).

كان تصميم الجامعة على أن تكون "هارڤارد الغرب الأوسط الأمريكى" جلياً منذ إنشائها عام ١٨٩٠ بتمويل أمدها به چون دى. روكفلر (بلغ مجموعه ٤٥ مليون دولار عام ١٩١٠). سعى أول رئيس لها ويليام رينى هاربر أن يجمع بين روح كليات أكسفورد/ كامبريدج وكليات الدراسات العليا الألمانية بأسلوب لافت للنظر. انعكست النتائج فى معمار الجامعة (قوطى مع مسحة قدمٍ مصطنعة)؛ وعامها الأكاديمى المقسم إلى أربعة فصول، والذى يشمل دراسات صيفية؛ وخدمات تعليمية رائدة تشمل غير المسجلين بها وفصول دراسية ليلية؛ وتأكيدها على الأبحاث والدراسات العليا. فى عام ١٩١٠، كانت جامعة شيكاغو قد سجلت عددا

من طلبة الدراسات العليا يفوق أية جامعة أخرى باستثناء جامعة كولومبيا، وكان علماء الفلك بها يُبصرون الكون من خلال Yerkes، أكبر تلسكوب فى العالم. كان الزائرون يحملقون مذهولين فى غرفة طعام الرجال بها (نسخة من تلك الموجودة بكرايست تشيرش هول، أكسفورد) ومبنى كلية الحقوق (استلهم المُصلّى بكينجز كوليدج بكامبريدج) ومقتنياتها الثرية من آثار الشرق الأوسط، وبخاصة مقتنيات برسيپوليس الإيرانية، والتحف المصرية القديمة التى علَّقَ عليها المستشرق الأمريكى البارز چيمس هنرى برستد.

عكس موقع الجامعة الحضَرى طموحها العنيد. تظل تلك المدينة العاصفة (شكياغو) التى انبثقت وكأنما من اللامكان قابلة للتمدد ومفرطة التضخم فى أن. ارتفعت أول ناطحات سحاب بأمريكا على شواطئ بحيرة ميشيجان، وإلى يومنا هذا، تظل ماكينة الحزب الديمقراطى السياسية الأقدم والأكثر رسوخا فى البلاد. كانت عصاباتها الإجرامية ذات شهرة عالمية. بيد أن شيكاغو أيضا أنتجت شعراء وكتابا ساخرين، وروائيين، ومجلات صغيرة، وتوجهات سياسية راديكالية. هنا أيضا ازدهرت صحيفة شيكاغو تريبيون التى ظلت حتى تسعينيات القرن العشرين، تكتب على صفحتها الأولى "أعظم صحيفة فى العالم".

فى مقدمتها لديوان كارل صاند عام ١٩٢٦، كتبت ربيكا وست التى كانت فى زيارة لأمريكا تقول: "هناك، فى أمريكا، مدينة مذهلة اسمها شيكاغو، مدينة بلون الأمطار، لا يدرك البصر قمم أبراجها الرخامية التى ترتفع وسط مساحات من الأراضى المقفرة التى تصل الحشائش فيها إلى الركب، مدينة تُطل على بحيرة أمواجها الرمادية كأمواج البحر. بها مركز تجارى ومكتبى، يبدو ولمسافة أميال أنه ظُلمة تُغطِى الأعين، المبانى شاهقة، شوارعها الضيقة تعمّها الفوضى بسبب الخط الحديدى بطىء الخُطى، حىٌّ بكامله يُستخدم فناء مؤقتا للماشية المعدة للذبح، رائحته تزكم الأنوف لأميال عديدة". كان هنا، أثناء فترة الستينيات مفرطة النشاط،

أن حَصَّل پول وولفويتز تعليمه، واكتسب يقينه وارتباطه بالأفكار الكبيرة الشاملة الكاسحة.

فى خريف عام ١٩٦٥، وأثناء حفل شاى أقامته هيئة التدريس لطلبة الدراسات العليا المستجدين، سأل ألبرت وولستر أستاذ علوم سياسية اسمه وولفويتز أن كان يعرف شخصا اسمه جاك وولفويتز. قال پول "إنه والدى" وهنا أجابه وولستر "لقد درست الرياضيات معه بكولومبيا". من ذلك اللقاء، وكما روى چيمس مان، نشأت علاقة بين المرشد والطالب كان لها دور مهم فى السياسة الخارجية الأمريكية. كان وولستر نيويوركياً درس بجامعة سيتى قبل أن يلتحق بكولومبيا ليدرس الرياضيات، وكان منذ وقت مبكر قد أسره مفهوم "اللامعصومية" الذى طوره الفيلسوف الأمريكى تشارلس ساندرز پيرسى والذى يذهب إلى أن غير المتوقع وغير اليقينى يجب وأن يكونا ذَوَىْ أهمية كبرى فى أى بحث أو تقصٍ. فى الخمسينيات وأثناء عمله كمحلل سياسات بمؤسسة راند كوربوريشن، طبّق وولستر مفهوم بيرسى على المبادئ الاستراتيجية النووية للبنتاجون، وأنتهى إلى أنها قاصرة بدرجة خطيرة.

رأى القصور بوجه خاص فى القيادة الجوية الاستراتيجية أو SAC بما تضمه من قواعد جوية أمريكية وأجنبية متناثرة، قواعد معرضة بأسلوب بالغ الخطورة لضربات جوية سوڤييتية فجائية، أى أنها "ثغرة ذات أبعاد رهيبة". أعد وولستر مع هنرى روين زميله فى مؤسسة راند ومحللْين آخرين "لوحة قتل" ذكروا فيها تفاصيل الأخطاء المحتملة، مستبقين بذلك النقلة إلى القواعد الصلبة للصواريخ البلستية بين القارية/ (ICBMs) وتحليق قاصفات SACعلى مدار الساعة باستخدام نظام آمن ضد التوقف أو الخلل لتلافى اشتعال تبادل نووى عشوائى (بالصدفة).

انتقل وولستر إلى شيكاغو، ولعقود عدة ظل صوتا مسيطراً فى الجدل الداخلى الجارى حول "الدمار المتبادل المؤكد MAD"، ووجهات النظر المؤيدة والمعارضة

لمعاهدات الحد من الأسلحة الاستراتيجية SALT، وجدوى حظر الصواريخ المضادة للقذائف الباليستية ABMsمن خلال اتفاق متبادل. ظل وولستر يشعر بالقلق إزاء لا أخلاقية MAD، وعارض SALTعلى أساس منحها معاملة ندية للسوفييت وتجميد الابتكارات الأمريكية المحتملة فى المجال، وأيد التحرك قُدُما بأقصى سرعة فى مشروع دفاعى صاروخى أمريكى، وقد ألح على آرائه تلك بشدة تلاميذه العاملون مع السناتور هنرى (سكووپ) چاكسون أو لحسابه، وكان چاكسون ديمقوقراطيا يمثل واشنطون، والصقر القائد فى حزبه.

كان على قمة قائمة مخاوف وولستر الانتشار المحتمل للسلاح النووى، وبخاصة فى الشرق الأوسط. حينما بدأت إدارة چونسون تدعم مشاريع تحلية المياه فى المنطقة، وافق على أن النية كانت حسنة، لكن مصانع التحلية تُنتج أيضا البلوتونيوم، أى المكون الأساسى فى الأسلحة النووية. لدى عودته فى نهاية ستينيات القرن العشرين من زيارة له لإسرائيل حيث كان قادتها يدرسون خطط شركة أمريكية لإقامة أحد تلك المصانع، سلم هولستر مجموعة من الوثائق لمساعده، طالب الدراسات العليا پول وولفويتز وسأله إن كان يقرأ العبرية. أجاب بنعم ونتج عن أبحاث وولفويتز فى تلك الوثائق رسالة دكتوراه تؤكد أن مخاطر الانتشار يفوق فوائد التحلية. إضافة إلى ذلك، فإن تطوير إسرائيل لأسلحة نووية تحيطه الشكوك فى قيمتها لأن أية قوة نووية لإسرائيل ستعتمد على نظام إطلاق بسيط نسبيا مما يجعله عرضة لمخاطر الهجوم التقليدى.

حذرت رسالة الدكتوراه من أن التهديد النووى الإسرائيلى سيضعف وضع إسرائيل العسكرى التقليدى لأنه "سيعزلها عن الدول الصديقة فى الغرب، وسيشجع الاتحاد السوڤييتى، ناهيك عن إجباره، على التدخل النشط إلى جانب العرب.. ستجبر أسلحة إسرائيل النووية العرب على القيام بمحاولات يائسة للحصول على أسلحة نووية" إذا لم يكن من الاتحاد السوڤييتى فمن الصين فى

وقت لاحق، أو تصنيعها بأنفسهم". كان ذلك، بالنسبة لطالب دكتوراه، تكهنا فطناً واثقا (لم تعترف إسرائيل أبدا بامتلاكها ترسانة أسلحة نووية مما ولّد مطالب لتملك تلك الأسلحة فى إيران، السعودية، مصر، وعراق صدام حسين).

لكن كان اهتمام وولستر الأول هو الاستراتيجية النووية، وكان تحليله تقنياً. كان بين زملائه بجامعة شيكاغو مهاجران ألمانيان قدّما للطلبة آراء أكثر رحابة ومتعارضة فى آن عن فُرص الديمقراطية أثناء الحرب الباردة. اشتُهِر ليو شتراوس (١٨٩٩- ١٩٧٣) اليوم على نطاق واسع بصفته مرشد المحافظين الجدد ومعلمهم، لكنه فى الستينيات حينما كان يشارك بدور رئيسى فى الندوات الدراسية المعارضة لحرب ڤيتنام، كان هانس موجنثاو (١٩٠٤- ١٩٨٠) أكثر منه شهرة. كان كلاهما قد ولِد يهودياً بألمانيا حيث التحقا بالجامعة هناك (ميونيخ فى حالة موجنثاو، وماربورج فى حالة شتراوس)وهرب كلاهما من ألمانيا النازية ليبدأ من جديد حياتهما الأكاديمية بأمريكا (جامعة بروكلين ثم جامعة كنساس بالنسبة لموجنثاو، فيما انضم شتراوس للعمل بالجامعة الجديدة للأبحاث الاجتماعية).

افترقت طرقهما بحدة. رأى مورجنثاو أن المصلحة القومية هى التى تحدد الصراعات الكوكبية، وكان اعتقاده الراسخ أن فضائل القائد ودوافعه غير ذات أهمية. بيّن أن نقيل تشامبرلين البريطانى الذى حاول استرضاء الأعداء بأسلوب كارثى كان يكنّ أفضل النوايا، فيما أن النقاء الأخلاقى الذى تميز به روبسپيير الثورى الخالص دفعه إلى إرسال من هم أقل منه نقاءً إلى المقصلة. اعتبر مورجنثاو الفكرة القائلة بأن أى بلد هو وكيل للرب مجرد تجديف وأن معيار أخلاقية أية سياسة يجب أن يكون النتائج الملموسة لا المبادئ الكونية. ذهب إلى أن التدبير والفطنة- إمعان التفكير فى عواقب الأفعال والإجراءات المتاحة وبدائلها- هو الفضيلة القصوى فى السياسة. أورد تفاصيل كل هذه الأفكار فى كتابه "السياسة بين الأمم: الصراع على السلطة والسلام" الذى ظل لمدة عقدين النص المهيمن فى مجاله، وصدرت منه أربع طبعات بعد ظهوره الأول عام ١٩٤٨ .

يستخلص الفصل الأخير فى كتابه "القواعد الأساسية الأربع" التى أمل مورجنثاو أن تهيمن فى عالم السياسة: "لابد من تجريد الدبلوماسية من روح النضال العقائدى العنيف؛ لابد من تجديد أهداف السياسة الخارجية فى ضوء المصلحة القومية؛ على الدبلوماسية النظر إلى المشهد السياسى من منظور البلدان الأخرى، على البلدان أن تكون على استعداد لتقديم التنازلات فى كل القضايا التى ليست حيوية بالنسبة لها". كان مورجنثاو كثير الاستشهاد بالساخرين والنسبيين من الكتاب من أمثال توقفيل، ماكس ويبر، راينولد نيبور، رايموند آيرون، چوزيف شومبيتر وإزيا برلين. كان يفضل بخاصة فقرة كتبها الحكيم الأمريكى ويليام جرايهام سومنر فى القرن التاسع عشر:

"إذا أردت حربا، عليك أن تغُذى مبدأً وتنمية. المبادئ هى أكثر الطغاة ترويعا التى يخضع لها الناس، لأن المبادئ تلج إلى داخل عقول البشر وتستقر فيها وتخذلهم مقابل أنفسهم.. المبدأ هو جزمٌ ميتافيزيقى. لا يكون حقيقياً أبدا لأنه مطلق، وشئون البشر جميعها مشروطة ونسبية.. إذا سمحت لشعار سياسى بالاستمرار والنمو، ستستيقظ يوما لتجده وقد سيطر عليك، يقرر مصيرك، وتجد نفسك عاجزا تجاهه، مثلما يصبح الناس عاجزين فى مواجهة الأوهام".

كان هذا مختلفا تماما عن معتقدات ورؤى ليو شتراوس. رأى أن النسبية التى أشاد بها مورجنثاو هى منبع السموم الأيديولوچية التى تهيمن على العالم الحديث. كانت لغته غامضة فى أحيان كثيرة، ونقاشاته غير مباشرة وغالبا ما كانت تتكون من تأملات فى أفكار أفلاطون، إكزنوفون، هوبز، ولوك بهدف تحذير الأمريكيين الذين كثيرا ما يتميزون بالضعف. أسهب متشائما فيما رآه أنه أزمة الليبرالية أزمة سببها أن الليبرالية تخلت عن أساسها المطلق فى محاولة منها أن تصبح نسبية تماماً". وسرعان ما تتدهور النسبية لتصبح "اعتقادا لا مباليا بأن جميع وجهات النظر متساوية (من ثم، لا يستحق أى منها المناقشة الزخمة، أو التحليل العميق، أو

الدفاع القوى الشجاع)، ثم تصبح عقيدة طنانة بأن أيًا من يدافع عن سمو بصيرة أخلاقية معينة، أو أسلوب للحياة، أو نمط إنسانى هو نخبوى ومعادٍ للديمقراطية ومن ثم "لا أخلاقى".

ولأنه كان قد شهد مباشرة انهيار جمهورية ڤايمار (الديمقراطية) بألمانيا، تأمل شتراوس نظام أمريكا السياسى الانفعالى غير الراسخ متخوفا. بيد أن قياسه هذا كان مضلّلا، هكذا يؤكد چون جراى، المنظّر السياسى البريطانى فى كتابه "القدّاس الأسود: الدين الأبوكالى وموت اليوتوپيا" (٢٠٠٧). يقول "إن تشخيص شتراوس للديمقراطية هو تشخيص فى غالبيته لألمانيا فى عهد جمهورية ڤايمار. لكن بطالة الجماهير، والتضخم المفرط، وتعويضات الحروب والإذلال القومى قضت على أية شرعية لنظام ڤايمار". لم ينطبق سوى القليل من هذا على أمريكا بعد الحرب، التى بخس شتراوس وأتباعه قدر قوتها وحيوتها (وبخاصة فى عهد الرؤساء الديمقراطيين) تماما مثلما بالغوا فى قدر قوة الاتحاد السوڤييتى ومدى تهديده.

كان مصدر كآبة شتراوس المتأصلة، جزئيا، هو تأثير فيلسوفين ألمانيين من الوزن الثقيل: مارتن هايدجر الذى صاغ مبدأ القلق الوجودى، وكارل شميت المحافظ المتطرف والثائر على المعتقدات المتوارثة. كان ليو فى شبابه، فى عشرينيات القرن العشرين قد درس مع هايدجر بجامعة فرايبورج فيما كان شميت هو الذى عمل على حصول شتراوس على منحة روكفلر التى مكنته من مغادرة ألمانيا النازية إلى باريس عام ١٩٣٣. بيد أنه، ومما يؤسف له، فقد تصالح المفكران مع الرايخ الثالث وهتلر، الأمر الذى يُعزى إلى اشمئزازهما من عدمية سنوات جمهورية الڤايمر، تماما مثلما شعر كثير من المحافظين الأمريكيين بالنفور من إفراطات الستينيات الراديكالية. رأى شتراوس أن ما ينجم عن الديموقراطية من فوضى، وكما جاء بجمهورية أفلاطون، يؤكد على الحاجة لوجود طبقة متسيدة باستطاعتها رؤية ما هو أبعد وذلك بسموها على قطعان العامة. عبر عن ذلك بصراحة فى

خطاب له ألقاه بحفلة تخرج فى روكفلر تشابل بجامعة شيكاغو: "إن التعليم الليبرالى هو المحاولة الجادة الضرورية لإنشاء أرستوقراطية داخل المجتمع الجماهيرى الديموقراطى"، وأضاف "لا يجوز لنا أن نتوقع أن باستطاعة التعليم الليبرالى أن يكون تعليما شموليا. سيظل دائما التزاما للأقلية وميزة لها".

وكنتيجة منطقية لهذه الأفكار، اعتقد شتراوس أن الكذب فى المجال السياسى ليس فقط ضرورة يؤسف لها، بل قد يكون وسيلة نبيلة وأخلاقية للسياسة السليمة. يعلق المؤرخ الثقافى إيرل شوريس فى كتابه "سياسات السماء" (٢٠٠٧) قائلاً "نصح أفلاطون نبلاءه، أولئك الرجال من ذوى الأرواح الذهبية، بأن يكذبوا، أكاذيب نبيلة- خرافات سياسية، تماثل شبَح صَدام وهو يحمل قنبلة نووية - من أجل الإبقاء على المستويات الأخرى من البشر (الفضة، النحاس، والحديد) فى أماكنهم الصحيحة، موالين للدولة ومستعدين لتنفيذ أوامرها. نصح شتراوس أيضا بالأكاذيب النبيلة لخدمة المصلحة القومية، وآمن بآراء أفلاطون القائلة إن الأرستوقراطيين أشخاصا فضلاء بدرجة أن مثل تلك الأكاذيب ستستخدم فقط من أجل الخير، وللحفاظ على النظام فى الدولة وفى العالم".

يظل مدى النفوذ الذى مارسه أتباع ليو شتراوس على إدارة چورچ دبليو. بوش موضع جدل. تجاهل پول وولفويتز الذى كان قد درس منهجين دراسيين مع شتراوس، المزاعم بأنه من أتباع شتراوس بصفتها مبالغات. وعلى الرغم من ذلك، كانت دائرته مليئة بأتباع شتراوس. منذ الستينيات صعودا، عارض وولفويتز وأتباع شتراوس الانفراج فى العلاقات الدولية، كيسنجر، والحد من التسلح، وألحوا بدلا من ذلك على أن إثبات القوة الأمريكية واستخدامها بأسلوب بطولى، أحادياً إذا اقتضت الضرورة، هو أمر لا مفر منه لتحويل التيار. فى بيان مميِّز بعنوان "الخطر الحالى: هل نملك الإرادة لعكس تراجع القوة الأمريكية؟" حذَّر داعية المحافظين نورمان پودهورتز من أن الليبراليين الأمريكيين مصابون بداء "الاسترضاء الثقافى"

وأن "انهيار القرار الأمريكى والعزيمة الأمريكية" سيكون دلالة على خضوع البلد، فى نهاية المطاف، سياسياً واقتصاديا "للقوة السوفييتة الأعظم". نُشِرت تأملاته القاتمة تلك عام ١٩٨٠، قبيل انهيار الاتحاد السوفييتى بعقدٍ واحد.

كان بين أتباع شتراوس الذين تشاركوا فى تلك النظرة التشاؤمية شبه الأبوكالية (نسبة إلى أهوال سفر الرؤيا) آلان بلووم الأستاذ بجامعة شيكاغو والذى كان يُلقى مرثيات دراماتيكية لليبرالية الأمريكية فى قاعات مكتظة، وهارفى مانسفيلد الأستاذ بها رفارد وتلميذه ويليام كريستول الذى أسس فيما بعد صحيفة الويكلى ستاندارد؛ ومتخصص فى مجال الحد من الأسلحة ريتشارد بيرل الذى لُقب بـ "أمير الظلام" وعرفٍ عنه معارضته الشرسة لأية تنازلات للسوفييت؛ فرانسيس فوكوياما الأكاديمى الدبلوماسى، الذى احتفى فيما بعد بنهاية التاريخ؛ وإبرام شولسكى الشتراوسى المكرّس والذى أصبح عام ٢٠٠١ مدير مكتب البنتاجون للخطط الخاصة، الذى أنشئ لإكمال (أو بدقة أكثر لتصحيح) "تشوّس" السى آى إيه غير الملائم حول روابط صدام حسين مع أسامة بن لادن.

تم الاحتفاء بتأثير شتراوس فى مقال كتبه إبرام شولسكى بالتشارك مع جارى شميت بعنوان "ليو شتراوس وعالم الاستخبارات". يمتدح الكاتبان شتراوس بسبب "دماثته، وقدرته على التركيز على التفاصيل: و ما نجم عن هذا من نجاحه فى النظر أسفل السطح المرئى، وروحانيته الواضحة" وأضافا "إنه بالإمكان القول إنه يماثل، ولو بدرجة طفيفة، چورچ سميث فى روايات چون لو كار". وبالتقابل، فإن محللى السى آى إيه "كانوا طوال الحرب الباردة غير راغبين بعامة فى الاعتقاد أن بإمكان الاتحاد السوفييتى أو أى من الدول الشيوعية خداعهم حول المسائل الحاسمة. وقد أثبت التاريخ أن هذا كان سذاجة مفرطة".

بيد أنه، فليست هذه هى القصة الكاملة. فى عام ١٩٧٦، ومن أجل التعاطى مع تلك السذاجة المزعومة، جند چورچ إيتش. بوش بصفته مديرا للمخابرات المركزية،

مجموعة مستقلة من الخبراء لتوفير ترياقٍ صقورى. كان هذا هو فريق "B" الشهير بالسى آى إيه الذى كان يديره ويوجهه ريتشارد پايبس، المؤرخ بهارفارد، وكان بين أعضائه پول وولفويتز الذى كان يعمل وقتئذ بالتدريس بجامعة ييل. وبموافقة مشتركة، بالغت استنتاجات الفريق "B" فى قدرات الكرملين؛ وبالتقابل، لم يكن لأحد من هذا الفريق الشتراوسى أن يذكر انهيار الاتحاد السوڤييتى المُتبدى حتى لو أنه استشعر ذلك.

ترك وولفويتز، خفيض الصوت، الهادئ، الذى نادرا ما لجأ إلى الرطانة، انطباعا على رفاقة بأنه التجسيد ذاته للعقل المنطقى، لا مؤدلج حزبى. وصف نفسه، لدى إنهائه ارتباطه الطويل بالحزب الديمقراطى بعد انضمامه إلى إدارة ريجان عام ١٩٨١ بأنه "جمهورى من أتباع سكووب چاكسون" فى إشارة منه إلى رئيسه القديم، السناتور الديمقراطى عن واشنطون. لم يعارض وولفويتز إجراءات الدولة للرفاه الاجتماعى، أو يوجد الذرائع لحلفاء أمريكا غير المستساغين فى الحرب الباردة. أبلى فى المناصب الثلاثة التى تولاها بوزارة الخارجية- مدير العاملين بتخطيط السياسات، مساعد الوزير لشئون شرق آسيا، وسفير الولايات المتحدة بإندونيسيا – أبلى بلاء استحق عليه الثناء. دُعى دنيس روس، فيما كان دبلوماسيا مستجدا، للعمل مع وولفويتز ضمن هيئة العاملين بالتخطيط بعد أن اكتشف عيوبا فى تقريرٍ لفريق B. أبلغ روس محرر النيويورك تايمز كِلر قائلا "ما وجدتُ دائما أنه يميزه عن الباقين جميعا من الموجودين على هذا الجانب من الطيف السياسى، ليس أنه لم يكن لديه ميول مسبقة، بل إنه كان أكثر انفتاحا بكثير، أكثر انفتاحا فكريا على مختلف أنواع التفسيرات".

كما لم يكن وولفويتز محباً لطقوس الدبلوماسية الرسمية. ذكر چورچ پى. شولتز، وزير الخارجية، فى مذكراته، مناسبة فى أول زيارة رسمية له لليابان، بعد

غداء مع مستويات وزارة الخارجية العليا، حيث كان عليه شرب نخب رسمى. "رأيت بول وولفويتز، مساعد الوزير الجديد لشئون الشرق الأوسط، وذقنه على صدره. مُرِّرتْ إليه مذكرة كُتب فيها: القاعدة رقم - ١ - لأى مساعد وزير جديد، لا تنعس أبدا أثناء نخب الوزير". (فيما بعد سأل وولفويتز زميلا له على الغداء، شخصا متمرسا فى تلك الطقوس عن كيفية بقائه متيقظا، وأتاه رد زميله هامسا أنه يظل جالسا على شوكته). خلافا لذلك، وبشكل عام، ترك تعاطى وولفويتز للعلاقات مع الصين، وسياسة الوزارة خلال فترة الانتقال من ديكتاتورية ماركوس وإعادة إحياء ديمقراطية الفلبين، ترك كل هذا انطباعا جيدا على شولتز. من ثم، حينما طلب وولفويتز تعيينه سفيرا بإندونسيا وافق شولتز.

كان هذا اختياراً مثيرا للاهتمام. لا يوجد سوى القليل من البلدان المهمة والتى يتم تجاهلها بعامة مثل إندونسيا، البلد المسلم الأكثر ازدحاما بالسكان الذين يبلغ تعدادهم ٢٣٥ مليون نسمة (حسب إحصاء ٢٠٠٧). وكما كان الحال فى مانيلا، كان ثمة ديكتاتور يحكم فى چاكارتا: الرئيس سوهارتو المسن، الحليف لأمريكا الذى حذّر مقدما، عام ١٩٧٥، الرئيس فورد ووزير الخارجية كيسنجر أثناء زيارة لهما لإندونيسيا بعزمه على اجتياح تيمور الشرقية التابعة للبرتغال، وضمها لإندونسيا؛ وتلقى ضوءا برتقاليا، وتبع ذلك الغزو ثم احتلال قاسٍ عنيف واحتلال طويل الأمد. لكن الأمر الواعد هو أنه، وكما فى مانيلا، كان ثمة معارضة ديمقراطية متنامية من الأهالى فى چاكارتا.

إضافة إلى هذا، كانت كلير زوجة وولفويتز تعرف المنطقة وتتحدث لغتها. كانت قد ذهبت إلى إندونيسيا تبع برنامج لتبادل الطلبة حينما كانت بالمرحلة الثانوية، وركزت رسالة الدكتوراه التى كتبتها فى الأنثروبولوچيا الاجتماعية على الخليط الإثنى بالبلد. وكما اكتشف بيتر چيه. بوير من النيويوكر فقد لاحظ الصحفيون الذين كانوا يسافرون مع وولفويتز أن إندونسيا كانت موضوعا أكيدا لإدخال

السرور عليه. قال لبوير "لم أتوقع فعلا أن أعشق هذا المكان، لكن هذا ما حدث. لا أعتقد أننى ارتكبت خطأ نسيان البلد الذى أمثله، أو التغاضى عن عيوبهم، لكن كان ثمة الكثير مما هو محبب إلىَّ بدرجة هائلة".

وبحماس مازال يتذكره البعض فى جاكارتا، تعلم السفير وولفويتز اللغة بدرجة كافية لفهم الأسئلة الموجهة إليه فى اللقاءات العامة. شارك فى حلقات النقاش الأكاديمية، وشعر بزهو حينما فاز بالجائزة الثالثة فى مسابقة طهو أجرتها إحدى المجلات النسائية بطبقٍ أسماه "دجاجة مدام ماو". التقى أحد قادة المعارضة، عبدالرحمن وحيد وأحبه وصادقه. كان رجلا ورِعاً حضريا، ومسلما متسامحا يعتقد فى الفصل بين المسجد والدولة. قال وولفويتز عن وحيد "إنه إنسان مُميَّز. أعنى، لدينا هنا زعيم أكبر منظمة إسلامية، وهو نصير للتسامح وداعية إليه. كيف لى ألا أُعجب به؟". فى اجتماعه الأخير كسفير بالجنرال سوهارتو، أغضب الديكتاتور بإصراره على تغيير النظام ديموقراطياً. فى الوقت المناسب، أصبحت منظمة وحيد حزبا سياسيا، وفى أول انتخابات حرة بإندونيسيا، انتُخب زعيمه رئيساً للجمهورية.

ساعدت تلك الخبرات على إقناع وولفويتز بأن بالإمكان إحداث نقلة ناجحة إلى الديمقراطية بالعراق، وأن بإمكان الدبلوماسية الأمريكية لعب دور مُحفِّز، بل إنها يجب عليها القيام بهذا الدور. كنا قد ذكرنا من قبل إحباطه أثناء حرب الخليج الأولى حينما أهدرت إدارة چورچ إيتش. بوش (حسب رؤيته) فرصة خلع صدام حسين. ومن اللحظة الأولى لتولى بيل كلينتون المنصب عام ١٩٩٣، جدّد العميد وولفويتز من جامعة چون هوپكينز للدراسات الدولية المتقدمة، جدّد حملته ضد الطاغية العراقى. تُوِّجت جهوده عام ١٩٩٨ حينما تبنى الكونجرس "قانون تحرير العراق" الذى يدعو إلى طرد صدام وتشريع دعم المؤتمر الوطنى العراقى (INC)،

وهى مجموعة معارضة مقرها لندن كانت قد حصدت على مدى ست سنوات ما يزيد عن ٢٧ مليون دولار من المساعدات الأمريكية(١).

كان حليف وولفويتز الذى لا غنى عنه فى تلك الحملات هو أحمد شلبى (الجلبى فيما بعد) المنفى الذى لم يعرف الكلل، والذى، بعد صدام حسين، فعل أكثر من أى عراقى آخر لإطلاق الغزو الأمريكى لبلده عام ٢٠٠٣ . وكما علّق دسكتر فيلكينز من النيويورك تايمز فى مقال عن شخصية الجلبى ملىء بالحقائق "لقد كان شلبى، بعد كل شىء - الأجنبى العربى - هو الذى أقنع أكثر الرجال سطوة بالولايات المتحدة ليجعلوا من غزو العراق، ليس مجرد أولوية، بل هاجسا". يُتقن الجلبى الإنجليزية بلكنة أجنبية، ويثبّت ابتسامة دائمة على وجه ودود حليق، ودائما ما يرتدى البذلات الكاملة التى صُنعت خصيصا له. الجلبى هو سليل أسرة شيعية بارزة: كان جده عضوا بالبرلمان فى عشرينيات القرن العشرين، ووالده مُصدِّر حبوب ثريا وكان قد ترأس مجلس الشيوخ العراقى حتى أطاح انقلاب عام ١٩٥٨ بالملكية. قبل الانقلاب، كان أسرة شلبى تمتلك ما يقارب نصف مليون فدان فى أنحاء العراق، غالبيتها شمالى بغداد بالكاظمية حيث مازالت ثمة بلدة تسمى الشلبى. (كان موسى شلبى هو مالك المنزل الذى سكنته جرترود بل).

يكتب فيلكينز قائلاً: "كانت أسرة شلبى جزءا من نخبة شيعية صغيرة، أما غالبية الشيعة العظمى فكانوا يشكلون طبقة دنيا كبيرة. تشكل بقايا النخبة الشيعية الآن شريحة مهمة من المؤسسة السياسية فى عراق ما بعد صدام". فى خمسينيات القرن العشرين، التحق أحمد بكلية بغداد، وهى مدرسة ثانوية جزويتية. وكان بين زملائه الشيعة إياد علاوى، وهو أحد أقربائه الذى أصبح رئيسا للجمهورية بعد الغزو، وعادل عبدالمهدى الذى أصبح نائبا للرئيس. حينما انهار النظام القديم

(١) لا يحلل المؤلفان سر كل هذا الاهتمام بالعراق فى وجود عشرات الأنظمة الديكتاتورية بالمنطقة وفى انحاء اخرى تتلقى الدعم الأمريكى!! (الترجمة)

بالعراق عام ١٩٥٨ ووصل البعثيون الراديكاليون إلى السلطة، هرب الشيعة الأكثر ثراء وأخذوا معهم ما استطاعوا نقله.

استقر شلبى بأمريكا ودرس الرياضيات بميشيجان وتخرج بامتياز ثم التحق بجامعة شيكاغو وحصل على الدكتوراه وكانت رسالته عن نظرية العُقَد. تزوج الدكتور شلبى فى بيروت ١٩٧١ من ليلى عسيران، ابنة أحد القوميين اللبنانيين البارزين وأشرف على مراسم الزواج آية الله موسى الصدر، ابن عم مقتضى الصدر، رجل الدين الشيعى المقاتل وحليف أحمد الشلبى فى المستقبل - ويعتبر هذا نموذجا لشبكة العلاقات الأسرية والعشائرية المعقدة التى يستوعبها من هم داخل الشبكة وكأنما بالتناضح والامتصاص، ويتجاهلها الأغراب مما يعرضهم للمخاطر. تخير الشلبى حياة مهنية بنكية، و تورط فى فضيحة لا تُمحى بالأردن، حيث مازال متهما باختلاس ٣٠٠ مليون دولار من بنك بترا. صدر الحكم بإدانته بالاحتيال وحكم عليه غيابيا بالسجن عشرين عاما (مازال الشلبى يُنكر حتى الآن ارتكاب الجريمة وألقى بمسئولية تزوير وثائق إدانته على صدام؛ فى عام ٢٠٠٥ أبدت السلطات الأردنية استعدادا للعفو عنه، لكنه طلب اعتذارا علنياً، ورُفِض طلبه).

قضى شلبى خمسة وأربعين عاما بعيدا عن العراق. ومنذ اشتغاله بسياسات المنفى بصفته مهندس المؤتمر الوطني العراقى وعقله المدبّر، كون شلبى صداقات وعداوات بين الأمريكيين على نفس الدرجة من الحماس. تجنبته وزارة الخارجية الأمريكية، ومازال مسئولو السى آى إيه يتجادلون حول درجة مسئوليته أو مسئوليتهم عن ورطة عملية "خليج الماعز" أو انتفاضة عام ١٩٩٥ الفاشلة ضد صدام. وفى ألعاب القوة بواشنطون، تم له التغلب على عداواته من خلال روابطه الوثيقة بالمدنيين رفيعى المستوى فى البنتاجون فى عهد جورج دبليو. بوش، وروابطه مع ديك تشينى نائب الرئيس وسكووتر ليبى رئيس العاملين لديه. بيد أنه، ما مدى صحة المعلومات الاستخبارية التى كان مصدرها مجموعة شلبى، وأين تكمن ولاءاته

العميقة؟ وفقا لتقرير صادر عن لجنة استخبارات مجلس الشيوخ عام ٢٠٠٩، فإن الهاربين العراقيين الذين أتى بهم المؤتمر الوطنى العراقى عملوا على تغيير الأحكام الرئيسية التى وردت فى "تقييم الاستخبارات القومية" الذى سبق التصويت الحاسم بمجلس الشيوخ على استخدام القوة ضد العراق. كان استنتاج اللجنة قاطعا حيث نص على أن "المؤتمر الوطنى العراقى" حاول التأثير فى سياسة الولايات المتحدة تجاه العراق بأن أمد المسئولين بمعلومات مزيفة من خلال الهاربين هدفها إقناع الولايات المتحدة بأن العراق يمتلك أسلحة دمار شامل وله روابط مع الإرهابيين".

وعلى نفس الدرجة من الخطورة كانت الاتهامات المُلحة بأن شلبى تآمر مع إيران لضمان إقامة نظام يهيمن عليه الشيعة ببغداد وساعد على تمرير المساعدات الإيرانية إلى المتمردين العراقيين. وبالفعل، أغارت قوات الأمن الأمريكية على مكاتبه ببغداد بعد تقارير عن إبلاغه الإيرانيين بحقيقة أن سلطات الاحتلال كانت تعترض الرسائل عبر الحدودية. ومن أجل حسم الشكوك، سعى دكستر فيلكينز، من مكتب التايمز ببغداد، إلى الحصول على إذن الجلبى بمرافقته فى رحلة بالطائرة إلى طهران فى أواخر عام ٢٠٠٥، وحصل عليه. تمكن الشلبى من استخراج فيزا لفيلكينز فى غضون ساعات محدودة: إنجاز غير عادى لأن ذاك اليوم كان إجازة إيرانية قومية. عبر كلاهما الحدود الإيرانية بسهولة بالغة، ثم استقلا طائرة كانت انتظارهما إلى طهران. وهناك التقى شلبى ومعه فيلكينز الرئيس أحمدى نجاد ومستشار الأمن القومى على لاريجانى (الذى امتدح شلبى بصفته رجلا حكيما جدا وشخصا مفيدا جدا). من ثم، تعجب فيلكينز ما إن كان شلبى، بطل الديمقراطية الذى تبنته أمريكا، هو بالفعل "عميل مزدوج لأحد خصوم أمريكا الرئيسيين"؟

الإجابة الآمنة حتى الآن هو أن لا أحد يعرف يقينا. كان شلبى قد نال إعجاب الأمريكيين، العراقيين، والإيرانيين بسبب ثقته بنفسه التى لا يمكن إخفاؤها، شبكته الواسعة من الصلات رفيعة المستوى، ومهارته فى مجاراة جميع التيارات السياسية

المتغيرة. سرعان ما حصل على منصب نائب رئيس الوزراء ووزير النفط فى عراق ما بعد الغزو، وكان ذلك إنجازا كبيرا لأن قاعدته السياسية كانت ضعيفة جدا. فاز المؤتمر الوطنى العراقى فى الانتخابات العراقية عام ٢٠٠٥ بمجرد ٣٠٠٠٠ صوت من مجموع الأصوات التى بلغت ١٢ مليون صوت، وبذلك لم تتمكن كتلته السياسية من أن يكون لها أى نائب بالبرلمان الجديد. لم يتسبب هذا فى دهشة المحللين المحنكين وذلك لأنه دائما ما يكون ثمة عداء طبيعى بين مجموعات المعارضة بالمنفى وبين المقاومة الداخلية لنظام مفروض من المحتل أو لنظام استبدادى.

غالبا ما تذهب جوائز ما بعد التحرير السياسية إلى من بقى بالوطن وتحمّل أحكاما بالسجن (مثلا، مانديلا، نهرو، هافيل وچومو كنياتا) مع بعض الاستثناءات المهمة (مثل ڤيلى برانت، وشارل ديجول).

ومما لا ريب فيه أيضا، لم يكن لأحمد الشلبى عام ٢٠٠١ حليف أمريكى أكثر وفاء من نائب وزير الدفاع پول وولفويتز الذى كان قد عينه چورچ دبليو. بوش مؤخراً.

●●●

إذا أخذنا فى الاعتبار جذور وولفويتز وخبرته، يمكننا فهم السبب الذى جعله يجد شلبى مُقنِعاً وملائما. وجد فيه مهاجرا لديه موهبة رياضية، تدرج فى سلم الجامعات النخبوية حتى حصل على الدكتوراه من جامعة شيكاغو. كان شلبى أيضا علمانيا مكرسا(١) تلاقت نظرته بشأن عراق ديمقراطى تحكمه الطبقة الوسطى مع آمال وولفويتز لهذا البلد(٢). فى مقال نشر صيف عام ١٩٩١ بدورية

---

(١) يتناقض هذا مع المعلومات التى اوردها المؤلفان عن انتماءاته المذهبية الشيعية وولاءاته السياسية. من كان يخدع من؟ (الترجمة)

(٢) وما آماله تلك؟ تدمير العراق لحساب إسرائيل والاستيلاء على نفطه لحساب امريكا، وإقامة قواعد عسكرية به، وتفتيته على اساس طائفي وإثني؟ (الترجمة)

فورين أفيرز، شجب شلبى الصورة النمطية الغربية عن العراق بصفته "بلدا مثقلاً بالعنف، جامحا، من الصعب حكمه" من ثم فهو يتطلب حكومة قوية، بل حتى وحشية. زعم أن هذا كاريكاتير فج، بما أنه قبل انقلاب ١٩٥٨ كان العراق فى طريقه لتطوير نظام ديمقراطى وكان السنة قد بدأوا يدركون أن عليهم تقاسم السلطة مع الغالبية الشيعية. وأضاف أنه حينما تتم الإطاحة بصدام فإن أهمية تلك التصنيفات - شيعى، سنى، كردى- ستتلاشى. وفى الواقع فمن المحتمل، وبعد عقود من الحكم الخاطئ والسياسات الأيديولوچية، فإن سياسة الجماعة فى وجود معايير للمساءلة، من المحتمل لها أن تلقى استجابة هائلة.

فى حالة وولفويتز، فربما أدى التطور الجديد فى حياته الخاصة إلى جعل تفاؤل شلبى يبدو أكثر قبولا. كان، بعد انفصاله عن زوجته، قد بدأ يلتقى بامرأة ذكية جذابة اسمها شاهه على رضا، كانت تعمل مسئولة اتصالات رفيعة المستوى بمكتب البنك الدولى الإقليمى للشرق الأوسط وشمال إفريقيا. بدا وأن تاريخ حياة مسز رضا يتلامس مع كل ركن فى الشرق الأوسط الإسلامى: كان والدها ليبياً، ووالدتها سورية/ سعودية؛ تربت فى تونس والسعودية، وحصلت على درجة الماچستير من كلية سانت أنطونى بجامعة أكسفورد بعد أن درست بكلية الاقتصاد بجامعة لندن - كانت من رعايا بريطانيا، طُلِقت من زوجها التركى بولنت على رضا، وكان قد مضى عليها أكثر من عقد وهى تعيش مع ابنها بواشنطون، حيث عملت تبع "الصندوق القومى من أجل الديمقراطية" قبل أن تلتحق بالبنك الدولى عام ١٩٩٧. حينما علمت الصحافة بصلتها بوولفويتز وصفتها بأنها "خليلته girl-friend" مما اعتبر حطاً من قدرها. كانت فى الخمسينيات من العمر، وكان وولفويتز فى الستينيات، لكن كلاهما أصبح طريدا للإعلام، الذى مضى رجاله يقتفون أثرهما ويمطرونهما بالأسئلة.

ساعدت مسز رضا، التى كانت ناشطة نسائية، علمانية، وتنتمى للحزب

الديمقراطى، على إقناع وولفويتز أن الوقت قد حان ليلحق العراق بالعالم الحديث فى ظل حكومة متقبّلة. فى مستهل ولاية إدارة بوش الثانى، بدت التكهنات مواتية لسياسة أكثر حسما تجاه بغداد. كان وزير الدفاع الجديد دونالد رمسفلد العدوانى مصمما على إثبات قناعته بأن بالإمكان الدفع قُدُما، وبأسلوب أفضل، باستراتيجية أمريكا الكوكبية من خلال قوات مسلحة، أقل عددا، ومتحركة وأكثر فاعلية فى آن. وأن أفغانستان، ثم العراق، هما الميدانان اللذان سيثبت فيهما تلك النظرية (ولهذه الغاية، مضى يمطر مرءوسيه بوابل من المذكرات المكتوبة بإحكام). أما فى مكتب نائب الرئيس الجديد، فكان سكووتر ليبى، تلميذ وولفويتز بجامعة ييل، يقوم بكتابة تصريحات رئيسه محكمة الصياغة عن الحفاظ على تفوق أمريكا. وبفضل شلبى وولفويتز، إلى حد كبير، تدفقت الأموال الفدرالية على المؤتمر الوطنى العراقى الذى كان من المفترض أن يكون جنين "العراق الحر" الآتى. وهكذا، تم تثبيت الفتيل فى موقعه، بانتظار شرارة التفجير.

ذكر وولفويتز فى حوار مُسجّل أجراه معه سام تاننهاوس من مجلة ڤانيتى فير "كنا باجتماع فى مكتبى. قال أحدهم إن طائرة اصطدمت بمركز التجارة العالمى. فتحنا التليفزيون وبدأنا نرى لقطات للطائرة الثانية وهى تصطدم، وهكذا أتذكر المشهد؛ مشوش بقدر.. بدا وأنه لم يكن ثمة ما نفعله إزاء ذلك على الفور. لذا مضينا نناقش مواضيع الاجتماع. ثم اهتز المبنى بكامله. يجب أن أعترف أن اعتقدت فى البداية بحدوث زلزال. لم يخطر لى أن ثمة صلة بين الواقعتين لكن رمسفلد أدرك ذلك على الفور".

فى التاسعة وثلاث وأربعين دقيقة صباحا اصطدمت طائرة مخطوفة بالبنتاجون، وقتلت مائتى شخص. تم إخلاء عشرات آلاف الأشخاص. عمل الوقود المتسرب على إشعال حريق ينبعث منه الدخان فى أنحاء سقف المبنى الخشبى. أُغلق نصف البنتاجون مؤقتا. تختلف التفاصيل عمن قال ماذا فى الاجتماعات العاجلة رفيعة

المستوى التى عُقدت بعد ذلك فى واشنطون وكامب دايڤيد. يتذكر وولفويتز تطور موضوعات للنقاش، الأول عن التكتيكات والتوقيت حيث أصر الرئيس بوش بصراحة على حرب أفغانستان أولا.. أما الجدل الثانى الأوسع، بشأن الاستراتيجية، فيذكر وولفويتز "من الواضح بالنظرة الارتجاعية أن الرئيس دعم بقوة الهدف الأوسع" - أى العراق. وفقا لجميع التقارير كان المدافع الأكثر إقناعا عن الإطاحة بصدام هو پول وولفويتز. وحتى قبل أن تبدأ عملية "تحرير العراق" كانت ثمة إشارات عن سبب ما ثبت وأنه خطأ ذلك الرجل الذكى حول حرب العراق وخاتمتها الدموية.

علّق أحد حكماء المراقبين فى واشنطون ذات مرة بالقول إن جميع القياسات خادعة. شهد وولفويتز فى الفلبين وإندونيسيا، هذين البلدين المشظين اللذين ينتميان للعالم الثالث، انتقالا من حكم الفرد السلطوى إلى الديمقراطية - انتقالا عنيفا سادته الفوضى ونظاما انتخابيا جديدا مَعيباً، لكنه ناجح. دائما ما كان وولفويتز يستشهد فى الحوارات بنموذج رومانيا فى أعقاب انهيار نظام شاوشيسكو وسط الاضطرابات والفوضى التى عمت البلاد - حيث قتل الدهماء زعيم الحزب الحاكم وزوجته - معلقا أنه إذا بدت عراق ما بعد الغزو مثل رومانيا ما بعد الشيوعية، فإنه يعتبر أن الخطة قد نجحت. بيد أنه فى كل تلك الحالات تسارعت خطى الانتقال نتيجة لعوامل الأحداث الداخلية لا بسبب غزو أجنبى كاسح. كما أنه لم يكن لدى الولايات المتحدة ذريعة حرب عادلة مقنعة. كانت القرائن على برنامج صدام للأسلحة النووية/ الكيميائية/ البيولوجية واهية بدرجة أن رؤساء حكومات المكسيك وكندا ومعهم البابا يوحنا بولس الثانى حكموا على الحرب أنها غير مبررة وغيرة مشروعة، وكذلك فعل كوفى أنان أمين عام الأمم المتحدة، ناهيك عن المعارضة فى فرنسا وألمانيا وروسيا والصين. من بين الآراء الشائعة القول بأن وولفويتز وحلفاءه كانوا سذّجا فى تصديقهم مزاعم المنفيين العراقيين العازمين على

توريط القوة العظمى لكسبها إلى جانبهم فى صراع داخلى. قال دايفيد كاى، أحد الرؤساء السابقين لفرق التفتيش عن الأسلحة بالعراق فى إشارة منه إلى پول وولفويتز: "كان مؤمنا حقيقيا. أعتقد أن لديه الأدلة التى أتت من الهاربين، الذين أتى بهم شلبى(١)".

لكن هذا يبدو تبسيطا مفرطا. وعلى الرغم من أن السجل الكامل لما قاله مخططو الحرب على العراق لبعضهم بأسلوب غير رسمى غير متاح إلى الآن، فإنه يبدو من المعقول أنهم اعتقدوا أن الانتصار السريع سيدفن الشكوك حول الإجراءات التمهيدية. ووفقا لتعليق جون كيندى الشهير بعد إخفاق عملية خليج الخنازير عام ١٩٦٠، فإن النصر يزهو بألف أب فيما أن الهزيمة تظل يتيمة ظاهرياً. لم تكن فكرة الانتصار السريع من ضروب الخيال. فقبل أشهر فقط، كان جيش رمسفلد النموذجى الجديد قد دخل كابول وأسقط نظام طالبان. وصف نيكولاس ليمان بالنيويوكر فى إبريل ٢٠٠٢ وقت أن كانت الاستعدادات للهجوم على العراق جارية، وصف كيف لمثل تلك الانتصارات أن تؤثر فى السلوك الرسمى حيث كان قد التقى سكووتر ليبى بمبنى المكتب التنفيذى. كتب ليمان يقول "بدا وأنه واثق تماما من نفسه، وسواء كان ذلك بالصدفة أو نتيجة لتأثير رئيسه (ديك تشينى)، فإنه يتحدث بقعقعة صارمة، حميمة، ورصينة. يعطى الانطباع، مثل كوندليزا رايس وبوش نفسه، بأنه يتقبل بهدوء فكرة أن مشروع الحرب وإعادة الإعمار الذى اضطلعت به الإدارة الآن قد يكون على قدر من الإرهاق بالنسبة لمن أنيط بهم تنفيذه، لكنه وبلا ريب، صواب، السبيل الحكيم الوحيد".

---

(١) يتجاهل المؤلفان تماما عزم الولايات المتحدة، والمحافظين الجدد بخاصة، كما هو ثابت بالوثائق، ومنذ وقت طويل قبل الحرب ، على غزو العراق وتدميره لأسباب عدة منها النفط، واهمية البلد الاستراتيجية، وامن إسرائيل وإقامة ما أسموه "الشرق الأوسط الجديد". وقد ورد هذا بالتفصيل فى كتابات كثير من المحللين الأمريكيين. انظر، على سبيل المثال تشالمرز جونسون "احزان الإمبراطورية" الذى اصدرت سطور ترجمته العربية (الترجمة).

يعرف الجميع كيف انتهى هذا السبيل الحكيم. كانت القوة الغازية، بسبب الميزانية جزئيا، غير كافية للحفاظ على النظام فى بغداد "المحررة". زاد من سوء الأوضاع حَلُّ الجيش العراقى وتسريحه فجأة[١]، مما أغرق البلاد بطوفان من المحاربين المسلحين العاطلين المُحبَطين. أُطلقت عملية "اجتثاث البعث" الفورية والشاملة طوفانا آخر من البيروقراطيين الساخطين الذين أضحى من المستحيل عليهم الحصول على عمل. سرعان ما تم تعيين عدد كبير من الشبان الأمريكيين فى مناصب سياسية فى كيان أطلق عليه الاسم الفخيم "سلطة التحالف المؤقتة"، وكان هؤلاء يتشاركون في جهلهم المطبق بلغة العراق وتاريخه وأديانه. أيضا، انتشر انطباع شائع عَمَل المعجبون بشلبى فى الإعلام (وبخاصة جوديث ميلر من النيويورك تايمز التي لعبت دور فلورا شو) على بثه فى جميع الأنحاء بأن أحمد الشلبى سيتقدم قافلة الغزاة ليصبح مُنقذ العراق وسط ترحيب الشعب الذى طال قمعه، وتهليله.

تفاجأ رعاة حرب العراق فى واشنطون. أُحبطت توقعاتهم بشأن امتنان العراقيين وتطور التمرد. حينما وصل الجلبى إلى العراق فى أعقاب إعلان "التحرير"، بدا وأن القليلين فى العراق كانوا يعرفون من هو، وتراجعت سلطات الاحتلال عن تتويجه. قال الجلبى فيما بعد شاكياً "كان عرضا للعرائس المتحركة، وضعاً بالغ السوء. كنا مسئولين ولم يكن لدينا أية سلطة. أُلقيت علينا المسئولية عن كل ما فعله الأمريكيون، لكن لم يكن بوسعنا تغيير أى شيء". ثم مضى يقول بلهجة المُتأذى "كان المذنب المسئول الحقيقى عن كل هذا هو وولفويتز. فقدوا أعصابهم. فقد رجال البنتاجون أعصابهم".

وفى واقع الأمر، فقد كان كثير من مسئولى البنتاجون الأذكياء، رفيعى المستوى قد اعتقدوا فى صواب تصورهما لمجرّد لعراقٍ خيالى، وقد ضللتهم واجهته الحداثية العلمانية والتأكيدات المتفائلة للمنتفعين المتغربنين. حينما قدَّم وفد من علماء الآثار، قبل الغزو، إلى الوزير رمسفلد قائمة بالمواقع الأثرية والمتاحف الثمينة والتى كانت

(١) بناء علي مشورة وولفويتز واوامره. (الترجمة)

بحاجة ماسة إلى الحماية، وجَّه رمسفلد الشكر إلى أعضاء الوفد واختفت القائمة. فى أعقاب سقوط بغداد، تمت دعوة بربارا بودين السفيرة السابقة باليمن والتى كانت تعرف العراق جيدا، دعوتها إلى البنتاجون لتجد أن كبار المسئولين غير مهتمين بآرائها. يروى لارى دياموند، خبير نشر الديمقراطية وتعزيزها بجامعة ستانفورد، أن پول وولفويتز مارس الضغوط من أجل تنفيذ أفكاره الراديكالية: «لِمَ لا يُعاد ترسيم حدود جميع أقاليم ومحافظات العراق؟" هكذا اقترح. أخبرتْه بودين "انظر إلى شبكة الطرق. هذا هو الأسلوب الذى تسلكه الطرق. هذا هو النمط الذى تطور على مدى قرون. هكذا ينظر العراقيون إلى أنفسهم. ولِمِ يعاد ترسيم الحدود".

كتب على علاوى، أول وزير للدفاع فى العراق بعد الحرب حكما شاملا على الوضع بأسلوب حاول أن يكون منصفا فى كتابه بعنوان "احتلال العراق" (٢٠٠٧).

"لم تكد القوات الأمريكية التى دخلت بغداد فى ٩ إبريل ٢٠٠٣ أن تعرف شيئا عن الإرث الاجتماعى البشع للعقدين السابقين، كما أنه لم تكن لدى العراقيين العائدين فكرة كاملة عن التغيرات التى حدثت ببلدهم، والتغير الجوهرى الذى اعترى النفسية العراقية فى ظل عقود من الديكتاتورية والحرب والعقوبات. لم يكن لتحليل العراق الساذج، الأيديولوجى، أو الانتهازى الذى أُجرى من وجهات نظر واشنطون أو لندن سوى علاقة واهية بالوقائع على الأرض. تم تسليم سلطة التحالف المؤقتة هذا الإرث كى تتعاطى معه.

"لم يكن ضعفها ونواحى قصورها هى المعوقات الوحيدة لتلك السلطة، بل إنها أيضا ارتبكت وتشوشت فى مواجهة المشهد الاجتماعى، السياسى، المؤسساتى والاقتصادى العراقى. كانت السلطة تدفع بنفسها أكثر وأكثر إلى داخل جيتو فيزيقى ونفسى، حتى قبل أن يتحول العنف الخارجى إلى ظاهرة لا سبيل إلى وقفها. كانت مهمة إدارة شئون العراق، ناهيك عن إصلاحه، فى مواجهة تلك العقبات، شبه مستحيلة".

لم يتعاط پول وولفويتز بجدية مع تبعات الحرب التى كان هو عنصراً أساسياً فى الدعوة إليها وتنفيذها. قام بعدة زيارات خاطفة للعراق "المحرر"، وقدّم فى الحوارات والمؤتمرات الصحفية وعظات غامضة كئيبة. أصر أنه لم يُوحِ أبدا بأن الاحتلال

سيكون نزهة؛ واعترف بأنه من المحتمل جدا أن يكون المخططون للحرب قد أساءوا تقدير حجم الدمار الذى أنزله طغيان صدام بالمجتمع العراقى؛ وقال إن الصحافة من جهتها تركز دائما على السلبيات وتقلل من قدر التقدم الحقيقى فى بناء المدارس والمستشفيات؛ أما فيما يخص الزعم بوجود أسلحة الدمار الشامل، فكما علق فى حواره مع مجلة ڤانيتى فير، فإنه، ولأسباب بيروقراطية، كان خطر تطوير العراق لمثل تلك الأسلحة، المسألة الوحيدة التى كان من الممكن أن يتفق حولها الجميع.

مضى وولفويتز من مكتبه بالبنتاجون يضغط على سلطات الاحتلال من أجل الإسراع بنقل السلطة إلى العراقيين، بحيث يلى ذلك انتخابات سريعة. حينما زار السفير بول برمر، بروقنصل الولايات المتحدة بالعراق لمدة أربعة عشر شهرا البنتاجون فى سبتمبر ٢٠٠٣، كان لقاؤه بوولفويتز متوترا. يسجل ما دار فيه فى كتابه "عامى بالعراق".

"قال وولفويتز: علينا التحرك سريعا على الجبهة السياسية. ماذا لو قمنا بتوسيع مجلس الحكم ليشمل مائة أو مائتين من الأعضاء لجعله أكثر تمثيلا، ثم نعطيهم استقلالا؟ أجبت: أعتقد أن باستطاعتنا فعل ذلك، على المستوى النظرى على الأقل. لكنه سيستهلك وقتا هائلاً.. وسيكون تبديدا للوقت الذى استهلكناه.

"ذكّرته أن فريق الحكم الأمريكى/ البريطانى المكون من خمسين شخصا كانوا يعملون عشرين ساعة كل يوم. قضى أكثر من شهرين لتجميع خمسة وعشرين عراقياً الذين كوّنوا فى البداية مجلس الحكم. وأن الله وحده يعلم كم من الوقت يلزم لتوسيع هذا المجلس.

"سأل وولفويتز لماذا لا يوسع المجلس نفسه؟

"قلت له: بول، لم يُبدِ هؤلاء الأشخاص أية قدرة على توسيع مداهم التمثيلى، لم يفعلوا ذلك فى مايو، أو حينما عينوا لجنة الإعداد، أو منذ أسبوعين حينما عينوا الوزراء. لم يبدُ وولفويتز مقتنعا، ثم غير الموضوع إلى الوضع الأمنى. تساءل ما إن كان بالإمكان إيجاد أساليب للإسراع بتدريب العراقيين كى يحلوا محل الأمريكيين.

"سألت نفسى أين سمعتُ هذا الاقتراح من قبل؟".

كانت تلك أوقاتاً صعبة بالنسبة لوولفويتز. اختفت هالة المعرفة الكلية التى كانت تحيط بشخصه بدرجة أنه بدأ يتمازح حولها. لدى عودته من العراق فى ٢٧ يوليو ٢٠٠٣، قال لأحد مراسلى الأسوشيتد پرس" يُسْتَحَب أحيانا أن يتمتع المرء بسمعة أنه يكاد يماثل الآلهة، لكن، وبصراحة، أعتقد أنه ثمة ظاهرة تنجم عن هذا، وهى أنه فى حالة عدم حدوث شىء ما، يقال إن الأمريكيين لا يريدون حدوثه، ومن ثم يبدأون فى اختراع أكثر الأسباب المبالغ فيها لشرح ذلك. غير أن الحقيقة هى- وأنت تعلم ذلك - أننا كثيرا ما نرتكب أخطاء. نفعل أشياء غبية". وقتئذ، كان مهاجموه يتداولون تخبطاته المرتجلة، مثل قوله فى فبراير ٢٠٠٣ إن الفرق بين العراق والسعودية هو أنه لا يوجد بالعراق مدن مقدسة. من بين مقولاته التى تُجتزأ كثيرا هى تلك التى جاءت فى شهادته أمام هيئة من الكونجرس فى ٢٧ مارس ٢٠٠٣، حيث زعم أن نفط العراق سيغطى تكاليف إعادة إعماره إذ إن عائداته السنوية التى تتراوح بين ٥٠ مليار دولار ومائة مليار دولار تعنى أننا، وعلى مدى عامين أو ثلاثة نتعاطى مع بلد يمكنه تمويل إعادة إعماره، وبأسلوب شبه فورى.

غاب عن تعليقاته التى يُستشهد بها أى ذكر للندم أو لخطإٍ مأساوى. وكما بينًا من قبل، فقد كان وولفويتز نفسه قد حذر الطلبة بوست بوينت من "غياب التوقعات" أو عدم الاستعداد لتدبر ما هو غير متوقع فى الحسابات الاستراتيجية - أو ما أسماه ألبرت وولستر، معلمه ومرشده "اللامعصومية". بحلول عام ٢٠٠٤، وفيما تصاعدت أعداد القتلى، والنفقات، اختفى وولفويتز تدريجيا عن المشهد فى واشنطون، ومثل القطة فى رواية لويس كارول "أليس فى بلاد العجائب"، بدا وأنه آخذ فى التلاشى إلى أن أصبحت شفتاه المزمومتان المميزتان هى كل ما يمكن رؤيته منه. وبعد عام، وبقدر قليل من الجلبة، استقال من منصبه كنائب لوزير الدفاع كى يترأس البنك الدولى، وكالة التنمية الكوكبية الرئيسية، الذى يترأسها، تقليدياً، شخص تختاره أمريكا. تمت المصادقة على ترشيح چورچ دبليو. بوش له من جانب حَمَلة أسهم البنك الأوروبيين بالإجماع، بالرغم من بعض الهواجس، من قبل بعض حملة الأسهم الأوربيين، لكن ذلك الترشيح قوبل بالحيرة فى واشنطون.

وحتى قبل المصادقة عليه، ذكرت يوميتان بريطانيتان (التايمز، والديلى ميل)، والواشنطون بوست، تقارير عن العلاقة بين وولفويتز وشاهه على رضا التى كانت مازالت مسئولة اتصالات رفيعة المستوى بالبنك الدولى. كانت أحكام البنك الدولى تحظر تعيين الأزواج، إذا كان أحدهما مسئولا مباشرة أمام الآخر.

من الصحيح أن مسز رضا لم تكن مسئولة بشكل مباشر أمام وولفويتز، لكن مخاطر الإحراج كانت واضحة، وبخاصة لأنه كرئيس كان يخطط لأن يجعل مجابهة الفساد فى البلدان التى تتلقى قروضا من البنك قضية مُلزِمة. تم الوصول إلى تسوية تُمنَح من خلالها مسز رضا منصبا خاصا بوزارة الخارجية يتولى البنك دفع مرتبها الذى رفعه من ١٣٢٦٦٠ دولار إلى ١٩٣٥٩٠ دولار، وبذلك تخطى التعويض الذى مُنِح لكونداليزا رايس وزيرة الخارجية لدى تركها منصبها. حينما كشفت الواشنطون بوست عن هذا الترتيب حدثت ردود فعل صاخبة. ثم زعمت تقارير أخرى، تسربت من خلال العاملين المهنيين المتذمرين بالبنك، أن وولفويتز قد منح مساعديه السابقين بالبنتاجون مناصب مميزة متخطيا بذلك التراتبية الداخلية للبنك. تناولت الصحف الأوروبية كل هذا أثناء اجتماع محافظى البنك السنوى فى الربيع.

وصل الجدل ذروته فى يونيو ٢٠٠٧، الذى كان شهرا بشعا لبول وولفويتز وشاهه رضا، وبالنسبة للكثير مما كانا يهتمان به. كان كل يوم يأتى بأنباء مُروِّعة من العراق. بدا وأن حكومته المنتخبة غير قادرة على اتخاذ أية قرارات مهمة. وفى أعقاب قصف المسجد الشيعى بسمراء للمرة الثانية، كشفت سلطات الولايات المتحدة أنها كانت قد بدأت فى تسليح ميلشيات سُنية من أجل قتال حلفائهم السابقين من القاعدة(١). تفجرت تلك الأنباء لدى مقتل أربعة مشايخ من السنة بفندق فى بغداد عقابا لهم على تعاونهم مع القوات الأمريكية بمحافظة الأنبار. من جهتهم كان مسئولو الاحتلال لا يثقون فى العراقيين بدرجة أنهم أوكلوا إلى مقاول

(١) يقصد المؤلفان قوات "الصحوة" التى تعتبرها المقاومة الوطنية قوات عميلة تم شراؤها وتجنيدها من قبل الأمريكيين من اجل مزيد من الاقتتال المذهبى وأعمال العنف وقتال المقاومة العراقية والتجسس عليها. (الترجمة)

كويتى مهمة تشييد مُجمّع جديد لسفارة الولايات المتحدة يتكون من واحد وعشرين مَبْنى على مساحة ١٠٤ فدان بتكلفة ٥٩٢ مليون دولار. ووفقا لتقرير نشرته وول ستريت چورنال بتاريخ ٧ يونيو ٢٠٠٧، فقد خشى الأمريكيون من أن يُهرِّب العمال العراقيون متفجرات إلى موقع العمل، ومن ثم أغمضوا أعينهم حينما استوردت إحدى المؤسسات الكويتية عُمَّالا من مصر وباكستان وبنجلاديش نظير أجور تصل إلى حد الكفاف مما دعا وزارة العدل إلى فتح تحقيق حول احتمال الاتجار بالبشر. آنذاك، وصل معدّل البطالة فى بغداد إلى ٥٠٪. وفى لطمة نهائية مريرة بخاصة، أدان القضاء الفدرالى سكووتر ليبى بتهمة الحنث بالقَسم وتعويق العدالة (بصفته رئيس العاملين بمكتب ديك تشينى، كذَب عن دوره فى الكشف عن هوية عميل سرى للسى آى إيه، وحُكِم عليه بالسجن ثلاثين شهرا وغرامة ٢٥٠٠٠٠ دولار، لكن الرئيس بوش خفف الحكم بالسجن).

كان وولفويتز قد كتب خطابا من ثلاث صفحات، ببنط صغير، إلى القاضى الذى كان ينظر القضية يدافع فيه عن ليبى، ويذكر كيف أنه كان هو من استمال ليبى كى يتولى منصبا عاما، وأشاد بجهوده لحماية المراسلين الصحفيين ممن وقعوا فى شباك فضائح ما قبل الغزو. كشف القاضى عن محتويات الخطاب مما عرّض وولفويتز لوابل من السخرية على الإنترنت.

وإذعانا منه للضغوط، قدم وولفويتز فى نهاية يونيو استقالته من البنك الدولى. وبحلول عام ٢٠٠٨، وبعد خمس سنوات كئيبة، كانت الحرب على العراق مازالت تبدو وأنها تقضى على كل من له علاقة بها، وبخاصة مهندسوها. توجز كلمات الرثاء المنحوتة على قبر السير كريستوفر رن[1] وبقدر كبير من الأسى، الحياة المهنية للمخطِّط الأول اللامع لتلك الحرب البائسة الذى انتهى به الأمر منسحقاً محطماً "إذا كنت تبحث عن آثاره الخالدة، فقط انظر حولك".

---

(١) المهندس الذى أعاد تخطيط وبناء لندن بعد حريق شب واتى على معظم معالمها فى القرن السابع عشر (الترجمة)

الخاتمة

أصداء في رواق طويل

اتفق الحكماء طوال العصور على عدم جدوى السعى إلى استعادة أشياء الماضى، أو استيعابها تماما، أو التعاطى معها بموضوعية أو التعلم منها. رأى الفلاسفة الهلنستيون فى آسيا الصغرى أن الزمن نهر لا يستطيع المرء النزول إلى مياهه مرتين. أما كارلايل فاعتقد أن التاريخ لا يعدو أن يكون أكثر من خلاصة للشائعات، فيما ذهب الكاتب الإنجليزى الأقل شهرة والذى يُستشهد به كثيرا إل. پى. هارتلى إلى أن الماضى هو بلد أجنبى يفعل فيه الناس الأشياء بأسلوب مختلف. من جهته، يقول الأمريكى اللاذع، المخالف للآراء والأعراف، أمبروز پيرس إن التاريخ سرد، زائف فى غالبيته، لأحداث غير مهمة تسبب فيها حكام، معظمهم أوغاد، وجنود معظمهم حمقى. وحقا، فلابد أن يكون المرء غرًا أو مؤدلجًا كى يعتقد أن الماضى يقرر المستقبل مُسْبقاً، وإلا لأصبح كل سمسار أوراق مالية ثريا. بيد أن الحكمة الفطرية، والحصافة البسيطة تقول بقيمة النظر خلفا لاستشفاف دلائل الخطر، مثلما يريد البحار الذى يقترب من خط ساحلى جديد أن يعرف موقع الشعب المرجانية المحتملة ومعلومات عن الحوادث السابقة لتحطم السفن.

أما عن الإمبراطوريات، فى الماضى والحاضر، فإن صورة رواق متخيَّل للقوة، يبدأ فى روما القديمة وينتهى فى واشنطن اليوم، رواق تُشكّل تجويفات محددة جيداً فى جداره صفاً، هى صورة مجازية توضيحية مُفيدة. هنا، سيعترض أمريكيون كثيرون بالقول إن الولايات المتحدة ليست إمبراطورية رسمية. لكن آرثر إم. شلسينجر الابن تساءل فى كتابه "دورات التاريخ الأمريكى" (١٩٨٦) قائلاً "من يستطيع أن يشك فى وجود إمبراطورية أمريكية - إمبراطورية غير رسمية، ليست كولونيالية من حيث نظام الحكم، لكنها مُجهزة بإسراف بجميع اللوازم الإمبريالية: القوات، السفن، الطائرات، القواعد البروقناصل، العملاء المحليين، وكلها منتشرة فى جميع أنحاء الكوكب سيئ الحظ" . يظل الجدل دائرا حول منشأ هذا النزوع التوسعى، وعما إن كانت دوافعه اقتصادية أم سياسية أم أخلاقية. لكن، وبلا أدنى

ريب، فإن المفهوم السائد عن أمريكا فى معظم أنحاء العالم بين الأصدقاء، ناهيك عن الأعداء، هى أنها قوة إمبريالية. لا يكاد أحد خارج أمريكا يشارك الاعتقاد فى استثنائية أمريكا - صورتها القائمة على إطراء الذات كمدينة أعلى التل، جعلت طبيعتها الخاصة من الولايات المتحدة أكثر حرية، أكثر حكمة وأكثر نقاء من شقيقاتها المهيمنات. بيد أن الكثيرين فى المجتمع الأمريكى يتشاركون فى الاعتقاد بمزاعم امتلاك الولايات المتحدة فضيلة خاصة، ويحظى هذا الزعم بتاريخ موقر، كما يكتشف المرء لدى توقفه عند أول تجويف فى رواقنا حيث كتُبت عبارة السبب الذى يبرر الحرب "Casus Belli"، أو المبررات القانونية لحالة الحرب.

دائما ما أصرت واشنطون على أنها تشن حروبها، العظمى والأقل شأنا، من منطلق سببٍ عادل. وإذا كان لنا أن نصدق كبار الكهنة فى روما القديمة، سنجد

أنه لم يحدث خلال ألف عام أن شنت فيالق المدينة (روما) حربا عدوانية. قام الباحث الأمريكى فى الكلاسيكيات، تنى فرانك، بتقصى أصول هذا الزعم بعناية كما ورد فى كتابه "الإمبريالية الرومانية" (١٩١٤). يقول البروفسور فرانك:

"منذ زمن موغل فى القدم وُجِد مجلس كهنوتى شبه سياسى كان مجاله الإشراف على الطقوس الخاصة بإعلان الحرب وأداء القسم على المعاهدات، وكان يشكل، إذا جاز التعبير، محكمة ابتدائية مختصة بمسائل النزاعات الدولية والمعاملة اللائقة للمبعوثين وتنفيذ تسليم المطلوبين للدول الأخرى. حينما كانت تثار شكوى من أن قبيلة مجاورة قد ارتكبت فعل حرب، كانت مهمة ذلك المجلس تحرّى المسألة نيابة عن مجلس الشيوخ، وإذا وجد أن الشكوى عادلة، يبعث برسول إلى الدولة المعتدية بطلب للتعويض أو الاسترداد. كانت صيغته كالتالى: "إذا طالبتُ بأسلوب غير عادل أو غير ورع تسليم المعتدى سالف الذكر فلا تسمح لى بالعودة إلى بلدى".

إذا لم يتم التعويض، تُمنح مهلة ثلاثين يوما بعدها يُعلِن المبعوث للدول المعتدية أن القوة ستُستخدم ويستعمل الصيغة التالية: "اسمعنى يا جوبيتر وقويرينوس وكل الآلهة الأخرى. أدعوكم أن تشهدوا على أن هذه الأمة ظالمة ولا تمارس الصلاح والعدل كما يجب، وأن تسمحوا لحكمائنا دراسة الإجراءات التى من خلالها نضمن حقنا".

وفى ظل قانونٍ للحرب والمعاهدات كان يسمى Fetial، كانت تلك الهيئة المقدسة تصادق فقط على الحروب الدفاعية وترفض الفكرة التجديفية بأن أى صراع يتضمن عدواناً أو طموحات إقليمية بالإمكان أن يلقى موافقة مُقدسة. ثم وجدت روما سبيلا لتخفيف العبء عن هذا المَجمْع. ففيما توسع الحكم الإمبراطورى فى أنحاء المتوسط وأقاصى أوربا، دخلت الحكومة الإمبراطورية فى عشرات معاهدات الدفاع المشتركة مع الدول التابعة أو القبائل. كانت الانتهاكات المزعومة لتلك المعاهدات توفر سريعا سببا للحرب Casus belli بدلا من الإنذارات التى كانت مدتها شهرا والتى كان يعلنها الرُسُل. وهكذا سقطت الإمبراطورية الرومانية فى حين ظلت آثارها الإمبريالية سليمة بلا مساس.

ومن نفس المنطلق لم يُعترف أبدا أن "الحروب الصغيرة" العديدة التى شنها البريطانيون فى العصر الفيكتورى، كانت عدوانية- كان دائما ثمة إساءة معاملة لمبعوث، خرق لإحدى الاتفاقيات، أو تعامل شائن مع منافس أوربى. فى أمريكا، نشأت أجيال من التلاميذ على كتب دراسية تقول إنه لم يحدث مرة واحدة- ليس فى المكسيك، جواتيمالا، هندوراس، پنما، نيكاراجوا، السلفادور، جمهورية الدومنيكان، تشيلى أو إيران - أن دعمت الولايات المتحدة العُنف أو شنّت حربا عدوانية. بل إن أكثر الإمبراطوريات شرا تزعم نفس الفضيلة: لفّق هتلر فعل عدوان بولندى لتبرير إعلان ألمانيا الحرب عام ١٩٣٩، كما زُعِم أن جميع حروب ستالين كانت دفاعا عن الوطن السوفييتى الاشتراكى. وحتى حينما تتوقف الإمبراطوريات عن الوجود، يقاوم ورثتها السياسيون بإصرار الاعتراف بانتهاك حقوق الإنسان فى الماضى البعيد، كما هو الحال مع اليابان إزاء جرائم الحرب فى الصين وكوريا، أو بلچيكا وجرائم الإمبراطور ليوپولد فى الكونغو، أو تركيا ومذبحة الأرمن فى ظل الإمبراطورية العثمانية.

ليس من المحتمل أن تعترى الدهشة الأمريكيين من أن ثمة شكوكاً شائعة يُعبر عنها حول الأسباب المنوعة التى تُستْدعى لتبرير الحرب على العراق، وبخاصة تطويره أسلحة الدمار الشامل وروابط صدام مع الإرهابيين والحاجة إلى نشر الديمقراطية فى البلدان العربية. يعتقد الشرق الأوسطيون المتشككون أن الحرب كانت فى واقع الأمر م من أجل النفط؛ أو زرع قواعد عسكرية دائمة بالعراق، أو مساعدة إسرائيل، أو احتواء سوريا، أو حماية السعودية لعدم كفاءتها العسكرية؛ أو الحيلولة دون هيمنة إيران على الخليج الفارسى؛ أو التلويح براية دموية (فى المراحل الأولى) لإحراج الحزب الديمقراطى وإخافته. كم سيكون رائعا لو أن رئيسا أمريكيا تجرأ أبدا على محاكاة الساحر أوز OZ وصارح الجماهير عن الأحاديث المضلّلة المراوغة والسقوط الأخلاقى الذى تتميز به الإعلانات الشامخة المتغطرسة

للقوى العظمى، بل حتى القوة العظمى العالمية الوحيدة. وللأسف كم هو غير محتمل حدوث هذا.

يحمل تجويف آخر أحد الملصقات: "الحكم غير المباشر". مرة أخرى كان هذا أسلوبا إمبرياليا ازدهر فى ظل الرومان، ويطاردِ اليوم مغامرات الأمريكيين فى الشرق الأوسط.

اكتشف الرومان "الحكم غير المباشر" - أى وضع مرشح من الأهالى على عرش أسيرٍ مقيد - اكتشفوه مصادفة كوسيلة عملية لتخفيض نفقات الاحتلال، والاحترام الظاهرى للاختلافات الإثنية والدينية، وبخاصة فى الشرق. يكتب الخبير العسكرى الأمريكى إدوارد إن. لوتواك فى تحليله عام ١٩٦٧ للاستراتيجية العظمى للإمبراطورية الرومانية. "كانت قيمة الدول العميلة التابعة والعملاء القبليين لنظام الأمن الإمبريالى شيئا مألوفا فى نظام إدارة الدولة الإمبريالية". ثم يضيف قائلاً:

"كانت الدول التابعة والقبائل التابعة ذات الدينامية المتأصلة، وغير المستقرة، تتطلب إدارة مستمرة من دبلوماسية متخصصة. كان لابد للتحكم والرقابة الرومانية أن يكونا مستمرين فى الشرق، كانت الأسر الحاكمة التى تُشغّل النظام التابع العميل تدرك ضعفها (وأيضا حتمية الثأر الرومانى) بدرجة كافية تبقيها موالية بصرامة. بيد أنه وبالرغم من ذلك فإن تعقيدات العلاقات الأسرية داخل السلالات الحاكمة كان بالإمكان لها أن تهدد استقرار النظام بأكمله. وهكذا، فإن متاعب هيرود الكبير مع أبنائه - أو خوفه المرَضىِ الناجم عن الشيخوخة- قلقل التوازن الداخلى لدولته التابعة المهمة. والأسوأ أنه كان لتلك العوامل تبعات على كبدوقية، بما أن جلافيرا ابنة أرخلاوس (حاكم يهودا والسامرة وبلاد أدوم وكبدوقية) كانت متزوجة من الكساندر أحد أبناء هيرود الذين تم إعدامهم".

لابد وأن الضباط البريطانيين الذين كانوا يبذلون الجهد مع السلالة الهاشمية الحاكمة المختلة وظيفيا أثناء الحرب العالمية الأولى وبعدها، كانوا سيوافقون على ذلك التحليل. لكن، وبالرغم من المصاعب، فإن فوائد الحكم غير المباشر فاقت سلبياته فى أعين القادة البريطانيين، وبخاصة إذا أخذنا فى الاعتبار الأزمة المالية

التى عانت منها بريطانيا بعد الحرب العظمى. بدت حكومة اللورد كرومر لمصر من خلف الكواليس نموذجا يحتذى به فى العراق والأردن وفلسطين، وحتى فى بلاد فارس العصيّة.

فى إفريقيا، كان اللورد لوجارد قد جَمّع عام ١٩٠٦ النصوص القانونية "المقدسة" للحكم غير المباشر. وفيما بعد، وكبروقنصل فى نيچيريا طبق تلك المبادئ على الإمارات الإسلامية فى الشمال التى كانت قد فُتِحت مؤخرا. صادق على نفس تلك المبادئ تى. إى. لورانس الذى يُنظر إليه كأكبر نصير للحقوق العربية. فى خطاب له عام ١٩١٩ للورد كيرزن ذى الطبيعة المتشككة، والذى كان وقتئذ وزيرا للخارجية، قال لورانس إنه يأمل أن يكون العرب (البلاد العربية) "أول منطقة سمراء تابعة لنا لا آخر مستعمرة سمراء لنا". أشار عليه قائلاً: ألا يحاول أن يسوقهم، وذلك "لأن بإمكانك أن تقودهم إلى أى مكان دون استخدام القوة، ولو كان ذلك بأسلوب الأذرع المتشابكة اسميًا". حث لورانس فى مقال نشره بعد ذلك بعام فى صحيفة الأوبزرڤر تعاطى فيه مع التمرد المتنامى بالعراق، حث بريطانيا على أن تعطى العراقيين مسئولية حقيقية، ثم "تقف جانبا وتمنحهم النصح والمشورة". قال إن نموذجه هو مصر تحت حكم اللورد كرومر: "سيطر كرومر على مصر، ليس لأن بريطانيا منحته قوات، أو لأن المصريين يحبوننا، لكن لأنه كان على درجة بالغة من الكفاءة والاستقامة كرجل".

لكن حتى لو كان لورانس جادا فى هذا، وذلك افتراض ليس آمناً دائما، فقد بدت تلك نصيحة غريبة. لم يكن السياسيون المصريون يهتمون بفضائل اللورد كرومر كاهتمامهم بالماليين البريطانيين وجيش الاحتلال الذى كان الماليون يدعمونه (انظر الفصل الأول). هذا علاوة على أن الوزراء المصريين الذين كانوا يتبعون "نصائح" كرومر كانوا يخاطرون بازدراء الوطنيين الراديكاليين الذين كانوا ينتمون إلى "مصر الفتاة" وبإدانتهم. كان بين ربائب كرومر بطرس غالى، جدّ أمين عام

الأمم المتحدة لاحقا. كان معتدلا، ذا قدرات، ومسيحيا. ومما يؤسف له، فقد كتب الشاعر ويلفريد بلانت، المعادى للإمبريالية فى مذكراته بتاريخ ٢٢ فبراير ١٩١٠ ما يلى: "تم اغتيال بطرس باشا، رئيس الوزراء القبطى على يد شخص يدعى إبراهيم الوردانى، من الشباب الوطنيين.. يقول إنه فعل ذلك لتخليص مصر من وزير يخونها، كما كان قد خانها فى مناسبات أخرى. كان هذا أول حادث إراقة دماء يقوم به وطنى مصرى". وواقعيا، كان قتل بطرس باشا طلقة تحذير للأقباط ولكل الأقليات الأخرى من مخاطر العمل مع الأجانب الكفار(١).

كان الحكم المباشر لا يؤثر فقط فى السياسيين والأقليات ويحدد من سلطتهم، بل كان أيضا ذا أثر على أفراد السلالات الحاكمة بالوراثة. كانت توجد بالهند البريطانية قبل الاستقلال حوالى ستمائة ولاية يحكمها أمراء، تبلغ مساحة بعضها مساحة بلچيكا، وبعضها كانت صغيرة فى مساحة منتزه هايدپارك. كان يتم تعيين مبعوث (حاكم) بريطانى مقيم لتقديم المشورة إلى المهراچات الهندوس أو الحكام النبلاء (Nawabs) المسلمين، لكن سيدنى أوين، الباحث بجامعة أكسفورد وجد فى خمسينيات القرن التاسع عشر أن "الأمير المحلى، الذى تُضمن له ملكية منطقته، لكن يُحرَم من كثير من خاصيات السيادة والاستقلال، ينحط تقديره لنفسه، ويفقد الحافز على الحكم الرشيد الذى يحل محله الخوف من التمرد والإطاحة به. يصبح متبطلا، شهوانيا، بخيلا مبتزا، وحاكما مهملا متسيبا". كان هذا هو الجانب الخفى الملازم للحكم غير المباشر. يفقد المستفيدون منه من الملوك والحكام، باستسلامهم للأحضان الأجنبية احترامهم لأنفسهم، ويتحولون إلى أمراء متعة، كما حدث للملك فاروق، أو يسلكون الطريق المعاكس بأن يردوا بصفعة مضادة لرعاتهم الموجودين خلف الكواليس كى يبرهنوا على رجولتهم، كما فعل ملك الأردن حسين الذى كان قد تُوِّج حديثا، حينما فصل جلوب باشا قائد الفيلق العربى، ومنحه يوما واحدا

(١) انظر الهوامش السابقة ذات العلاقة عن سياسة "فرق تسد" (الترجمة).

لمغادرة الأردن. وحقا، فقد ساعدت تلك المبادرة الملك حسين على تلافى مصير جده عبدالله الذى اغتاله مقاتل فلسطينى. لكن فصْل جلوب أشعل غضب إيدن الذى كان قد خلَف تشرشل عام ١٩٥٥ فى رئاسة الوزراء وكان متحمسا لاكتساب شارات معاركه الخاصة به. رأى إيدن أن اللوم لا يقع على ملك الأردن، حلو الحديث الذى تخرج فى ساندهيرست، بل على جمال عبدالناصر ذلك المصرى الذى لا يُحتمل. اعتقد أن ناصراً كان يَبْذُر، بالفعل والقول، الفتنة فى العالم العربى، وأنه لابد من وقفة. وهكذا، فُتِح الطريق لورطة السويس، التدخل العسكرى الفاشل الذى كلّف إيدن منصبه، وجعل من ناصر شبه إله، وقلب الولايات المتحدة، لفترة وجيزة، ضد أوثق حلفائها الأوربيين.

يمكن للمرء تتبع سيمترية تحذيرية فيما يتعلق بالحكم غير المباشر. من الأمور الدالة أن أعنف الانفجارات البركانية ضد الهيمنة الأجنبية حدثت بمصر وإيران والعراق وكوبا، بالرغم من أنه لم تكن بين تلك البلدان الأربعة مستعمرة رسمية. فى كل من تلك البلاد، استولى الراديكاليون على السلطة بالإطاحة بأنظمة رؤى أنها أدوات جبانة لمحركى خيوطها الأجانب المختبئين. حينما ذكّرَ چون إف. كيندى منافسه الجمهورى ريتشارد نيكسون فى مناظرة تليفزيونية عام ١٩٦٠ أنه قبل الثورة الكوبية كان الجميع فى هاڤانا يعلمون أن ثانى أقوى شخصية بكوبا هو سفير الولايات المتحدة، كان كيندى يعبر عن واقع ساعد على الإبقاء على فيدل كاسترو بالسلطة قرابة الخمسين عاما.

ثم نتحرك قدما لنأتى إلى تجويف ذى قبة مكتوب عليه "تغيير الأنظمة"، وهو تعبير سُمِع بواشنطون أثناء تسعينيات القرن العشرين. ثم حافظ عليه چورج دبليو. بوش بصفته عُرْفا أمريكيا رسمياً. بيد أنه، وتحت أى مُسمًّى كان، فإن لتلك الممارسة المتغطرسة للتدخل علناً أو سِراً، للإطاحة بمشاغب أجنبى تاريخا طويلا مشبوها. فى دورة مألوفة، يعقب تغيير نظام مُدبَّر بواسطة قوى أجنبية ارتياح

فورى، واستحسان من جانب محركى خيوط الدُّمىَ فى الخفاء، فيما يهرب الأشرار المزعومون، وتظهر أوجه جديدة على شاشات التليفزيون، تتزين بأوشحة السلطة. إلا أنه سرعان ما ينجم الألم والإحراج فيما يمضى القادة الجدد يبزّون من خلفوهم فى التعذيب والابتزاز والمحسوبية، مخلفين إرثا لا يَفْنَى من المرارة والتشاؤم الساخر، وفى حالات متطرفة، يفتحون الطريق أمام أنظمة أكثر راديكالية.

ظل هذا الأسلوب قائما أثناء الحرب الباردة، حينما ساعدت واشنطون، لأسباب استراتيچية، أو وافقت على انقلابات ضد قادة منتخبين غير موائمين فى سوريا (١٩٤٩)، إيران (١٩٥٣)، جواتيمالا (١٩٥٤)، اليونان (١٩٦٧)، وتشيلى (١٩٧٣). نُفِذت أيضا تغييرات أنظمة أخرى بدرجات متفاوتة من التورط الأمريكى بالكونغو، ڤيتنام الجنوبية، جمهورية الدومينيكان، إندونيسيا، جرينادا، غيانا، هيتى، بناما، ليبريا، وقبرص. من الصعب تبين أية نتائج حميدة لأى من تغييرات الأنظمة هذه. بيد أن هذا ليس نمطا أمريكيا خالصا. فنحن ندين للبريطانيين الخبراء بما يمكن اعتباره أسوأ تغيير نظام، الذى وُلِد سفاحا بأوغندا، كنتيجة غير مقصودة لسياسات اللورد لوجارد طويلة الأمد. تبدأ الحكاية فى بلده اسمها چينچا، مقر لكتيبة كلونيالية بريطانية تُسمّى فرقة الملِك الإفريقية للرماة. يُعدّ المراسل البولندى الأجنبى ريزاد كاپوشينسكى المسرح للقارئ، يورد فى كتابه "ظل الشمس" (٢٠٠١) ما يلى:

"ابتُدِع نموذج هذا الجيش قرب نهاية القرن التاسع عشر بواسطة الجنرال لوجارد، أحد مهندسى الإمبراطرية البريطانية. اقتضى هذا النموذج فِرقاً من المرتزقة مجندين من قبائل معادية للسكان الذين سيعسكرون فى أراضيهم: أى قوة احتلال تكبح بقوة السكان المحليين. كان جنود لوجارد المثاليين صغار السن، أقوياء البنية، رجالاً من سكان نهر النيل (السودانيين)، الذين ميزوا أنفسهم بحماسهم للحرب، قوة جلدهم، وقسوتهم".

عُرِف هؤلاء المحاربون المثاليون بالنوبيين، تلك الكلمة، التى كانت، بمرور الوقت، تبعث القشعريرة فى أوغندا. مرت السنون، وذات يوم لاحظ ضابط إنجليزى رجلا نوبياً ذا خصائص جسدية هائلة، وابتسامة آسرة، كان يتلكأ فى أنحاء المعسكر. كان ذاك هو عيدى أمين، الذى جُنِّد على الفور، وسرعان ما ميز نفسه بصلابته وقسوته وشجاعته فى حروب الغابات. وحينما نالت أوغندا استقلالها عام ١٩٦٢، كان أمين ضابطا برتبة لواء (ماچور جنرال)، ونائب قائد الجيش، وكان أيضا ملاكما من الوزن الثقيل فاز بالجوائز، ولاعب كرة قدم (رجبى)، ونال تقدير "مستشاريه" البريطانيين، وأيضا الإسرائيليين الذين كان قد تدرب معهم. كان يقود أوغندا وقتئذ الرئيس الشعبوى غريب الأطوار ميلتون أپوللو أوبوتى، الذكى، المغرور، ومفرط الثقة بنفسه، وبخاصة حينما طار إلى سنغافورة ليشارك فى مؤتمر الكومنولث البريطانى عام ١٩٧١ . وفى غيابه، استولى أمين على السلطة بانقلاب، كان البريطانيون وقد نفد صبرهم من أوبوتى المتبجح، قد سمحوا به أو ساعدوا على حدوثه سرا. وحينما ترسخ فى السلطة، بدأ أمين بطرد الأقلية الأسيوية، تبع ذلك بتحالفه مع الراديكاليين العرب؛ ثم حَرّض على حمامٍ دم عرقى قضى على حياة مائتى ألف شخص أوغندى (وفقا لتقديرات منظمة العفو الدولية). وبعد أن نصّب نفسه "هازم الإمبراطورية البريطانية" كافأ رُعَاته الإسرائيليين بالتلاعب بقسوة بركاب طائرة العال الإسرائيلية المخطوفة التى هبطت بمطار عنتيبى، والذين أنقذتهم عملية فدائية (إسرائيلية) تزامنت، فى يوليو عام ١٩٧٦، مع الاحتفالات بمرور مائتى عام على قيام أمريكا.

وأخيرا، تمت الإطاحة بالرئيس أمين عام ١٩٧٩، وهرب إلى السعودية حيث توفى فى فراشه عام ٢٠٠٣ . لا تختلف أسطورة أمين عن غيرها من الانقلابات العشرين التى قام بها ضباط مدربون من قبل الأوروبيين والأمريكيين، الذين شجعوهم بوعدهم بالاعتراف السريع بهم إن هم قضوا على أحد الرؤساء المثيرين

للشغب، لا تختلف سوى فى إفراطها وقسوتها. وكما سنرى فمازال هناك المزيد من نماذج سوء الحسابات الجذرية باسم تغيير الأنظمة.

لنمضى قُدما إلى التجويف التالى الذى تعلوه لافتة "الصليب، الهلال، والمطرقة" والذى يرسل إشارة بَرْقية عن مخاطر معاملة الاستبداديين، الذين يؤمنون بأفكار مطلقة، سواء دينية أو أيديولوجية، كشركاء فى السياسة الخارجية. لم يحدث وأن وقعت نماذج لتغيير الأنظمة أكثر كارثية من تلك التى حدثت فى أفغانستان التى غزاها السوفييت عام ١٩٧٩ لتصبح ميدان قتال لحرب بالوكالة استمرت عشر سنوات، ثم عانت من حرب أهلية تورط فيها دستة من اللاعبين الأجانب انتهت بتمكين الإسلاميين المتشددين وأدى ذلك إلى اجتياح للبلد تقوده أمريكا عام ٢٠٠٢، والذى مازالت نتيجته محل شكوك كثيرة. وكما علق ستيف كول من الواشنطون پوست فى كتابه "حرب الأشباح" (٢٠٠٤) فإن "أفغانستان بعد عام ١٩٧٩ كانت معملا للعنف السياسى الذى تتوالد أفكاره بالخارج ثم يُفرض بالقوة. ترجع أصول اللغة والأفكار التى تصف الأحزاب، والجيوش، والميلشيات الأفغانية إلى المُنظّرين والحلقات الدراسية بأوروبا، الولايات المتحدة، القاهرة، وباكستان. حارب الأفغان بصفتهم "شيوعيين" أو "مقاتلين من أجل الحرية". ثم انضموا إلى جيوش جهادية تقاتل من أجل أمة إسلامية كوكبية متخيلة".

فى تلك التعقيدات المركبة، يمكننا تبين خيط واحد على الفور: لم ينظر السوفييت أو الأمريكيون إلى الإسلام بجدية. افترض قادة الحزب الشيوعى السوفييتى، وهم ينظرون إلى أفغانستان من خلال عدسات ماركسية أن عملاءهم ذوى القاعدة الضيقة بكابول بإمكانهم قمع المحاربين غير النظاميين القبليين بسهولة، وأن إغراءات التحديث - الجرارات، التليفزيون، المدارس، حقوق المرأة- ستعيد تشكيل ذلك البلد المتخلف. من جهتهم، رأى الأمريكيون أن النقطة ذات الأهمية هى أن المقاتلين الإسلاميين يبغضون الشيوعية ويقتلون الروس؛ والباقى مجرد تفاصيل.

وهكذا، ففي أعقاب الغزو السوفييتي في ديسمبر ١٩٧٩، الذي قُصِد به دعم النظام الشيوعي المتقلقل، عقدت إدارة كارتر، دونما أسئلة كثيرة، صفقة مع ديكتاتور باكستان العسكري: ستزود أمريكا، سرا، الأسلحة، وتقوم مخابراتكم العسكرية بتوزيعها. في نفس الوقت، وافقت السعودية على مجاراة المساعدات الأمريكية: دولار مقابل كل دولار تدفعه أمريكا، وخصصت تلك الأموال لمقاتليها الإسلاميين المختارين.

وهكذا، مُنِح توكيل الحرب، على أرض الواقع، للسعودية وباكستان، وكلاهما حليف استراتيجي، ومن خلالهما تدفقت الأسلحة والأموال على الجهاديين المتطرفين، وتَم تمويل معسكرات التدريب التي ستغذى لاحقا شبكة من الإرهابيين الإسلاميين. زادت المساعدات السرية الأمريكية، أثناء سنوات ريجان، زيادة أُسّية، وشملت صواريخ أرض/ جو ماركة ستينجر، ذلك السلاح الضروري لإسقاط الطائرات الهليكوبتر. يعزى ذلك، إلى حد كبير، إلى الدعم المتحمس لعضو الكونجرس الديمقراطي عن تكساس تشارلي ويلسون، ذلك الرجل الدنيوي المحب للويسكي، والذي كان يحوز على معقدٍ مُهم في "لجنة التخصيصات بالمجلس" ذات النفوذ القوي. لم يكن ويلسون يأبه بالإسلام كما نتبين من صفحات الكتاب الذي ألفه صديقه الراحل چورچ كرايل المنتج بقناة سي بي إس بعنوان: "حرب تشارلي ويلسون". في رحلاته السريعة إلى منطقة القتال، لم يتمكن ويلسون سوى من عقد لقاء قصير أوحد مع قلب الدين حكمتيار، لورد الحرب الأفغاني المفضل لدى الجيش الباكستاني والذي كان أيضا يحتقر أمريكا وكل ما يتصل بها (باستثناء الأسلحة). في كتابه "جند الله" (١٩٩٠) يصف كابلاند لقاءً مع عبدالحق، القائد الأفغاني صعب المراس الحكيم: "لم يَر أن الأمريكيين يمثلون أية مساعدة. فبالرغم من إغداقهم الأموال التي وصلت مئات الملايين من الدولارات على ضياء الحق (الرئيس الباكستاني) سنويا، كانت جماعة الاستخبارات الأمريكية تذعن لوكالة

الاستخبارات الحربية الباكستانية وتعمل تحت إمرتها، مقتنعين أنفسهم أن حكمتيار لم يكن بنصف درجة السوء التى يصفه بها الجميع". (قُتِل عبدالحق، ربما بأوامر من حكمتيار، لدى دخول القوات الأمريكية أفغانستان عام ٢٠٠٢).

لهذه النظرة النفعية للعقيدة واستغلالها سلاحا فى أفغانستان أصلٌ عريق. فى كتابه "زواء الإمبراطورية الرومانية وسقوطها" (الجزء الأول الفصل الثانى) يوجز إدوارد جيبون النظرة الرومانية كالتالى: "كل أساليب العبادة المنوعة التى سادت فى العالم الرومانى، كان الناس يعتبرونها حقيقية بدرجة متساوية، وكان الفلاسفة يعتبرونها زائفة بدرجة متساوية، وكان الحكام يعتبرونها مفيدة بدرجة متساوية". وكما فى روما، فإن السياسيين الدنيويين الآن يميلون إلى التعامل مع الأخرويين بصفتهم شركاء طبيعيين مفيدين. بيد أن ذلك التوجه أتى بنتائج عكسية، المرة تلو المرة، كانت أحيانا كارثية. تظل إسرائيل "الديمقراطية" رهينة لدى عشرات الآلاف المستوطنين الذين يعتبرون أنفسهم جنود الرب ويحتلون ما يربو على ٤٠٪ من مساحة الضفة الغربية المتنازع عليها. يمنح نظام إسرائيل الانتخابى المستوطنين الحد الأقصى من النفوذ. فمنذ البدايات الأولى للدولة اليهودية (الصهيونية)، مضت الأحزاب العلمانية تساوم كى تحصل على دعم الأحزاب الدينية الصغيرة التى يمكن لأصواتها أن تكون حاسمة فى برلمان مقسم بأسلوب محكم.

يسجل جريشوم جوهنبرج النتائج بتسلسلها فى كتابه "الإمبراطورية العرضية" (٢٠٠٦). جوهنبرج كاتب يعيش بالقدس ومن مواليد أمريكا. يُفصِّل كيف أن حزب العمل الإسرائيلى الذى ظل طويلا فى الحكم، سعى، بعد أن جرّأه انتصار يونيو ١٩٦٧ إلى "خلق حقائق على الأرض" وذلك ببذر المستوطنين المتدينين فى المناطق المحتلة حديثا. يُصر كثير من المستوطنين إن لم يكن غالبيتهم، على أن الرب منحهم حق ملكية الأرض جميعها، وأن التنازل عن بوصة واحدة منها هو "كُفرٍ" بالرب. حينما اقترح اسحق رابين رئيس الوزراء عن حزب العمل مقايضة الأرض بالسلام

عام ١٩٩٥، قتله يهودى متعصب. بعد موته، تكاثرت المستوطنات. كان أرييل شارون، الجنرال السابق، ذو التفكير العلمانى، وزعيم حزب الليكود، هو الأكثر ترحيبا بهؤلاء "الرواد" المتدينين الورعين ودعما لهم. فى حديث له من إذاعة إسرائيل، حث شارون المستوطنين على "الاستيلاء على مزيد من التلال وانتزاعها من مالكيها، وتوسيع مناطقهم: كل شىء يُنتزع سيكون فى أيدينا. وكل ما لا ننتزعه سيظل فى أيديهم". تصاعد انتزاع الأراضى والاستيلاء عليها فيما أوقف المستوطنون منازلهم المتنقلة فى "مواقع أمامية" بالضفة المحتلة. بيد أن شارون، حينما قرر، وهو رئيس الوزراء، الانسحاب الأحادى من غزة، رفض المستوطنون الذين مجدهم وساندهم، التحرك خطوة وهتفوا متهمين شارون بالخيانة، مما دعاه إلى استخدام القوة لإجلائهم. ووسط هذا النزاع أصيب شارون، بعد أن تكاثرت عليه الضغوط بسكتة دماغية وغيبوبة مستطالة: أى أنه كان ضحية غير متوقعة للصراع الذى مازال قائما بين مطالب العقيدة الأبوكالية وحسابات السياسة الدنيوية.

انتشر هذا الصراع إلى جميع أديان العالم الكبرى. غالبا ما تُنسى التجربة التحذيرية التى خاضها سولومون باندرانايكا رئيس الوزراء المؤسس لسيلان المستقلة (سريلانكا الآن). كان علمانيا سعى لأهداف برجماتية لكسب أصوات الغالبية البودية: خلع ثيابه الغربية؛ قاد الاحتفالات بمرور ألفى عام على صعود بودا إلى النيرڤانا؛ ومنح البوديين السينهاليين ميزة اللغة ليحصلوا على وظائف مدنية متميزة. لكنه حينما سعى، فى عام ١٩٥٩، لصالحة التاميل الذين كان قد طال اغترابهم، قتله أحد الرهبان البوديين لعدم رضائهم عن تلك الخطوة. ومثَّل هذا بذرة الحرب الأهلية السريلانكية التى لا تُعرف لها نهاية.

فى الهند، دعمت إنديرا غاندى، رئيسة الوزراء العلمانية، شابا دهماوياً من السيخ يدعى جمال سينغ بهميندرانويل من أجل معاقبة حزب التيار الرئيسى للسيخ

بالبنجاب، أكالى دال، وتقسيمه. وكان ذلك الحزب يسبب المتاعب لحزب المؤتمر الذى تترأسه. وفى عام ١٩٨٣، استولى أتباع جمال على "المعبد الذهبى" بأمريتسار. قُتِل المئات، وحينما حاصر الجيش الهندى أكثر المقامات السيخية قداسة. قام حراس مسز غاندى الشخصيون من السيخ باغتيالها، الأمر الذى أدى بدوره إلى قيام الهندوس بمذبحة ثأرية ضد السيخ. بالإمكان رؤية سمة بشرية مشتركة خلف تلك الحسابات الخاطئة النفعية. يَميل السياسيون بطبيعتهم إلى الرياء والنفاق بأسلوب انعكاسى. من ثم، فهم يفترضون، ربما عن حق، أن الكهنة، الوعاظ، الأئمة، الحاخامات، والرهبان لا يعنون سوى نصف ما يقولونه. كما أن الأشخاص الواقعيين لا يأخذون على محمل الجد المُناظِر العلمانى للعقائد الدينية المسيانية مثل الشيوعية والنازية: (من غير المحتمل أن الهر هتلر كان يعنى كل ما أعلنه فى كتابه "كفاحى": بمجرد توليه السلطة سيسلك نهجا مسئولا) هكذا اعتقدوا. حدث نموذج مصيرى مشئوم لسوء الحسابات تلك عام ١٩١٨وكان من صنع الَواقعيِّين المتزمتين فى الأركان العامة لألمانيا الإمبريالية. كان الألمان لسنوات عديدة قد ظلوا يساعدون، سرا، الروس البلشفيك المنفيين وقائدهم فى. آى. لنين. ثم رأى الجنرالات فرصة لإجبار روسيا على الخروج من الحرب من أجل كسب سلامٍ مواتٍ على الجبهة الشرقية من خلال تغيير النظام فى بتروجراد، التى كانت وقتئذ مقر حكومة مؤقتة، وإن كانت ديمقراطية متقلقلة. وبما أن البلشفيك وعدوا بأن يسعوا إلى السلام، تم السماح للينين ومساعديه بالعبور بالقطار من سويسرا المحايدة، عن طريق ألمانيا إلى بتروجراد – مثل بكتريا الطاعون، كما قال تشرشل متأسياً فى "الأزمة العالمية". لكن، أى عاقل ذاك الذى صدق أن البلشفيك كانوا يعنون ما بشّر به لينين؟

لا يختلف هذا كثيرا عن المعضلة التى يواجهها الأمريكيون ليقرروا كيفية التعامل مع الجمهورية الإسلامية الإيرانية التى تكاد تدفعهم للجنون. لا يحول أخذ الأيديولوچيات المعادية على محمل الجد دون السعى لمعرفة مصدر جاذبيتها الشعبية. قد يكون من المفيد الآن التوقف لدى آخر الأقسام، التجويف الأخير فى

رواقنا الذى تعلوه لافتة تقول "التماهى قوة". ليس التماهى والتعاطف مترادفين؛ ليس على المرء أن يُحب شخصا آخر، أو أن يتفق معه، أو أن يشعر بالأسف عليه، حينما يسعى إلى معرفة كيف يبدو العالم بواسطة النظر إليه من خلال عينيه أو عينيها. لو أنك إيرانى، كيف ستنظر إلى الولايات المتحدة؟ نعم، ظاهرياً، فهى بلد حر، وينتخب الأمريكيون قادتهم. لكن، من ينتخب وكالات الجاسوسية؛ البنتاجون؛ الكوربوريشنات متعددة الجنسية، مالكى الإعلام والمتحكمين فيه، مصانع الفكر ومراكز الأبحاث، اللوبيهات كل تلك - فى أعين كثير من الإيرانيين- تشكل فسيفساء متشابكة مُسْتغلقة لا تخترق. يعجب الإيرانيون، لِم يُسمح لإسرائيل بتطوير الأسلحة النووية، فيما تُعتبر أبحاث إيران لتنمية قوة نووية سلمية جريمة تستوجب العقوبات؟ وبعد كل شىء، فإن معاهدة عدم انتشار الأسلحة النووية تُلزِم رسمياً القوى النووية الموجودة بتقليل مخزوناتها بإطراد من تلك الأسلحة حتى التخلص منها كليًّا. لكن، بدلا من الوفاء بهذا التعهد، (وفقا لمنظور طهران) فإن الأمريكيين يطورون جيلا جديدا من تلك الأسلحة تخترق الغرف والمستودعات تحت الأرضية الحصينة لاستخدامها ضد بلادٍ مثل إيران، وفقا لما يعلنونه.

أيضا، يعجب إيرانيون كثيرون عن سبب قول الأمريكيين إن إيران جزء من محور للشر: هل نسوا أن الإيرانيين ساعدوا على هزيمة نظام طالبان بأفغانستان وإقامة نظام جديد فى كابول تدعمه واشنطون؟ أما عن التهم بأن إيران تساعد المتمردين العراقيين، فقد يقول أحد الإيرانيين "لدينا أيضا فصلٌ بين السلطات (القضائية - التشريعية - التنفيذية) ونحن نقرأ باهتمام أن كونجرس الولايات المتحدة يتهم إدارة بوش بأنها تتصرف باستقلالٍ لا مبالٍ خارجٍ عن القانون فى أمور كثيرة خطيرة مثل التغاضى عن عمليات التعذيب. أليس من المحتمل أن يكون لدى إيران أيضا عناصر مارقة (تتصرف بمفردها)؟ وأن رئيس الجمهورية لا يعرف ببساطة ماذا يقول دون أن يبدو ضعيفا؟

هذه أفكار شائعة فى طهران؛ وبالرغم من ذلك نادرا ما تتعاطى البرامج

الحوارية فى أمريكا التى تبث يوم الأحد مع مثل تلك الأسئلة، ولا يَطْرقها خبراء السياسة ومحللوها الأشاوش. لا يتطلب التماهى معرفة خاصة عن البلدان القصية. وكما جاء بالفصول السابقة بالتفصيل، فإن المستعربين البريطانيين، والباحثين فى الشئون الفارسية، وبالرغم من كل خبرتهم وعلمهم، قد خلقوا نظاما جديدا متقلقلا بالشرق الأوسط الذى مازال يعانى من عبودية شبه كلونيالية. بإمكان الحكمة الفطرية والتفكير اللائق استقطار ما تعانيه المنطقة والمظالم الواقعة عليها من خلال الشهود العاديين صعودا حتى الوصول لعظائم الأمور.. أُعْجِب مؤلفا هذا الكتاب بستة جنود أمريكيين برتبة رقيب انضموا إلى متخصص بالجيش فى كتابة مقال شجاع بعنوان "الحرب كما رأيناها" وأرسلوها بالإيميل إلى النيويورك تايمز التى نشرتها بتاريخ ١٩ أغسطس ٢٠٠٧(١). سعوا بالكلمات البالغ عددها ١٢٠٠ كلمة التى كتبوها لدى قرب انتهاء مدة عملهم بالعراق، إلى تقطير خبرتهم القتالية هناك. قالوا فى نهاية المقال "علينا أن ندرك، فى النهاية أن وجودنا ربما يكون قد حرر العراقيين من قبضة طاغية، لكنه أيضا سلبهم احترامهم لذواتهم. وسرعان ما سيتحققون أن أفضل وسيلة لاستعادة كرامتهم هى تسميتنا باسمنا الصحيح - جيش الاحتلال - وإجبارنا على الانسحاب".

التماهى الكامن فى هذه الكلمات ملّهم. كما أوحت لنا أبحاثنا، فإن كثيرا من صناع الملوك، الحقيقيين منهم والمدعين، أخطأوا ليس بسبب الحقد وتعمد الأذى أو الجهل (فقط: الترجمة)، لكن بسبب الطموح المفرط. اضطلع البروقناصل والمتحمسون - ببساطة - بمهمة فعل المستحيل لغير المتنين.

---

(١) بودهيكا جياماها المتخصص بالجيش، والرقباء ويزلى دى. سميث، چيرمى روباك، عمر مورا، إدوارد ساندميير، يانس تى. جراى، وجيرمى مورفى. فى يوم الأحد ١٠ سبتمبر ٢٠٠٧ قتل الرقيبان جراى ومورا لدى انقلاب الشاحنة التى كانا يركبانها والتى كانت حمولتها خمسة أطنان. (المؤلفان)

صدر من هذه

السلسلة

١ ـ محمد (ص)
٢ ـ صدام الحضارات
٣ ـ عصر الجينات
٤ ـ القدس
٥ ـ العولمة والعولمة المضادة
٦ ـ التاريخ السرى للموساد
٧ ـ من يخاف استنساخ الإنسان؟
٨ ـ حريم محمد على
٩ ـ عولمة الفقر
١٠ ـ صور حية من إيران
١١ ـ البحث عن العدل
١٢ ـ لورانس: ملك العرب غير المتوج
١٣ ـ الصهيونية تلتهم العرب
١٤ ـ معارك فى سبيل الإله
١٥ ـ التطبيع ومقاومة الغزوة الصهيونية
١٦ ـ التسوية: أى أرض.. أى سلام
١٧ ـ المكنز الكبير
١٨ ـ الحق يخاطب القوة
١٩ ـ نساء فى مواجهة نساء
٢٠ ـ مؤامرة الغرب الكبرى
٢١ ـ روسيا.. إلى أين
٢٢- موسوعة الأم والطفل
٢٣- الخدعة الرهيبة
٢٤- نهاية الإنسان
٢٥- خدعة التكنولوجيا
٢٦- ٣٦٥ حتوتة وحتوتة
٢٧- بوش ضد العراق ... لماذا؟
٢٨- أين الخطأ ؟
٢٩- اللولب المزدوج
٣٠- رجال بيض أغبياء
٣١- سادة العالم الجدد
٣٢- الخطيئة الأولى لإسرائيل
٣٣- اللعب مع الصغار
٣٤- الإبادة السياسية
٣٥ - حكومة العالم السرية
٣٦ - ما بعد الإمبراطورية
٣٧ - بوش في بابل
٣٨ - المقاومة العراقية.. ومستقبل النظ
الدولى

٣٩ - تزييف الوعى

٤٠- القانون فى خدمة من ؟

٤١ ـ كفى

٤٢ - معنى هذا كله

٤٣- حياة بلا روابط

٤٤ - ٣٦٥ حدوتة وحدوتة

٤٥- أنا والعولمة .. عالم بديل ممكن..

٤٦- جسدى سلاحاً

٤٧- ثالوث الشر

٤٨- الحضارة الإسلامية المسيحية

٤٩- أمـــــريكا العظمى.. أحـــــزان الإمبراطورية

٥٠- الطَّريقُ إلى السُّوبَرْمَان

٥١- مدربون على القتـــل

٥٢- معاداة السامية الجديدة

٥٣- إبادة العالم الثالث

٥٤- بيولوچيا الخوف

٥٥- لغز اسمه الألم

٥٦- تعليم بلا دموع

٥٧- أحمد مستجير

٥٨-العين بالعين

٥٩- شاقيز

٦٠- قصص الأشباح

٦١- حزب الله

٦٢- الإنسان هو الحل

٦٣- السيارات المفخخة

٦٤- بلاكووتر

٦٥- حضارتهم وخلاصنا

٦٦- نحو الحرية.. نلسون منديلا

٦٧- العهد

٦٨- مزرعة الحيوانات

٦٩- أطفال الإنترنت

٧٠- لعبة الملايين

٧١- تجارة الجنس

٧٢- الأمريكى الساذج

٧٣- الأبرياء

٧٤- الشباب والجنس

٧٥ - التربية من عام إلي عشرين عام

٧٦- فلورانس وإداورد

٧٧- الجهاد في سبيل الحقيقة

٧٨- غاندي (٢)، رؤي، تأملات، اعترافات

٧٩- شرف البنت

٨٠- الزواج المحرم

٨١- أنبياء مزيفون

٨٢- إمبراطورية العار

٨٣- اختطاف أمريكا

٨٤- شريعة الجستابو

٨٥- رومانسية العلم

٨٦- اختفاء فلسطين

٨٧- من هم إسرائيل

٨٨- ثلاثون كتاب في كتاب

٨٩- اقتصاد الاحتيال البرىء

٩٠- الله.. لماذا؟

٩١- الأمراض المعدية

٩٢- الطريق إلي بئر سبع

٩٣- مجمع الشيطان

٩٤- فى ذكرى المقاومة

٩٥- خطايا تحرير المرأة

٩٦- دساتير من ورق؟

قائمة المحتويات

تمهيد ٧
(الفصل الأول) (البروقنصل إڤلين بارينج، اللورد كرومر) ٢٥
(الفصل الثاني) (سطوة الإمبراطورية يخطط لها زوجان) ٧١
(الفصل الثالث) ("د. وايزمان..... مبروك جالك ولد") ١٢١
(الفصل الرابع) (الشماس (مساعد الكاهن) ١٧٣
(الفصل الخامس) ("غارقة حتى رأسى فى تصنيع الملوك والحكومات") ٢١٧
(الفصل السادس) (جنون الشهرة) ٢٧١
(الفصل السابع) (المرتد) ٣١٩
(الفصل الثامن) ("جيش صغير رائع") ٣٦٩
(الفصل التاسع) (انقلاب بريطانى جدا) ٤١٩
(الفصل العاشر) (الأمريكى الهادئ) ٤٦١
(الفصل الحادي عشر) (صبى الساحر) ٤٩٩
(الفصل الثاني عشر) (الرجل الذى كان يعرف أكثر مما يجب) ٥٤٩
الخاتمة (أصداء فى رواق طويل) ٥٩١

هذا الكتاب

يعرض المؤلفان، فى هذا الكتاب، حياة و»إنجازات» اثنتى عشرة شخصية رئيسية كان لها أكبر الأثر فى ابتداع ما أصبح يعرف بالشرق الأوسط... أسماء بعضها ما زال يتردد مثل كرومر،ولورانس، وسايكس وجرترود بل، وآخرون لا يكاد يرد لهم ذكر رغم فداحة ما اقترفوه جميعا.

لكن تلك هى مجرد شخصيات واجهة.. فهناك، فى مقارهم أو مرابضهم فى لندن وباريس وموسكو وواشنطون وكلكتا، جلس قادتهم وركزوا أنظارهم الصقورية على منطقتنا بدءا من جنوب إفريقيا وحتى أقصى شمالها، ومن أطراف الجزيرة العربية حتى سواحل لبنان مرورا بسوريا والعراق، وإيران وفى القلب منها فلسطين ومصر.

الأهداف متشابكة متداخلة: تفتيت الإمبراطورية العثمانية، توسيع إمبراطورياتهم ومناطق نفوذهم، شن حروبهم على أراضينا بجيوش نظامية وغير نظامية قوامها رجال من مستعمراتهم ومن أهالى المنطقة حاربوا تحت ألويتهم.. والغاية هى الاستيلاء على المنطقة وثرواتها وتشظيتها وإثارة النعرات العرقية والطائفية فيها بحيث تظل وحدات متصارعة لا تقوم لها قائمة ابدا.

نشروا شبكات العملاء والمغامرين والمتعصبين الذين عملوا من خلال دوائر متداخلة متعددة
المراكز ومتحدة الأهداف والغايات.. رسموا الحدود وقسموا الغنائم ونصبوا دماهم قادة وملوكا.

ذريعتهم الأخلاقية سمو الرجل الأبيض خليفة الله على الأرض ودونية باقى الخلق فاقدى الأهلية والذين يجب إخضاعهم واحتواء شرورهم أو إبادتهم.

شخصيات يراها المؤلفان أبطالا أفنوا حياتهم فى خدمة الإمبراطورية ومن اجل شعوب جاحدة. وضعوا بيضة لم تتوقف ابدا عن النمو.. هكذا يقولان، الأحرى انهم بذروا بذورا شيطانية نمت أشجار من زقوم سممت ثمارها جسد المنطقة، واشتعلت فروعها نيرانا يكتوى بها اهلها.